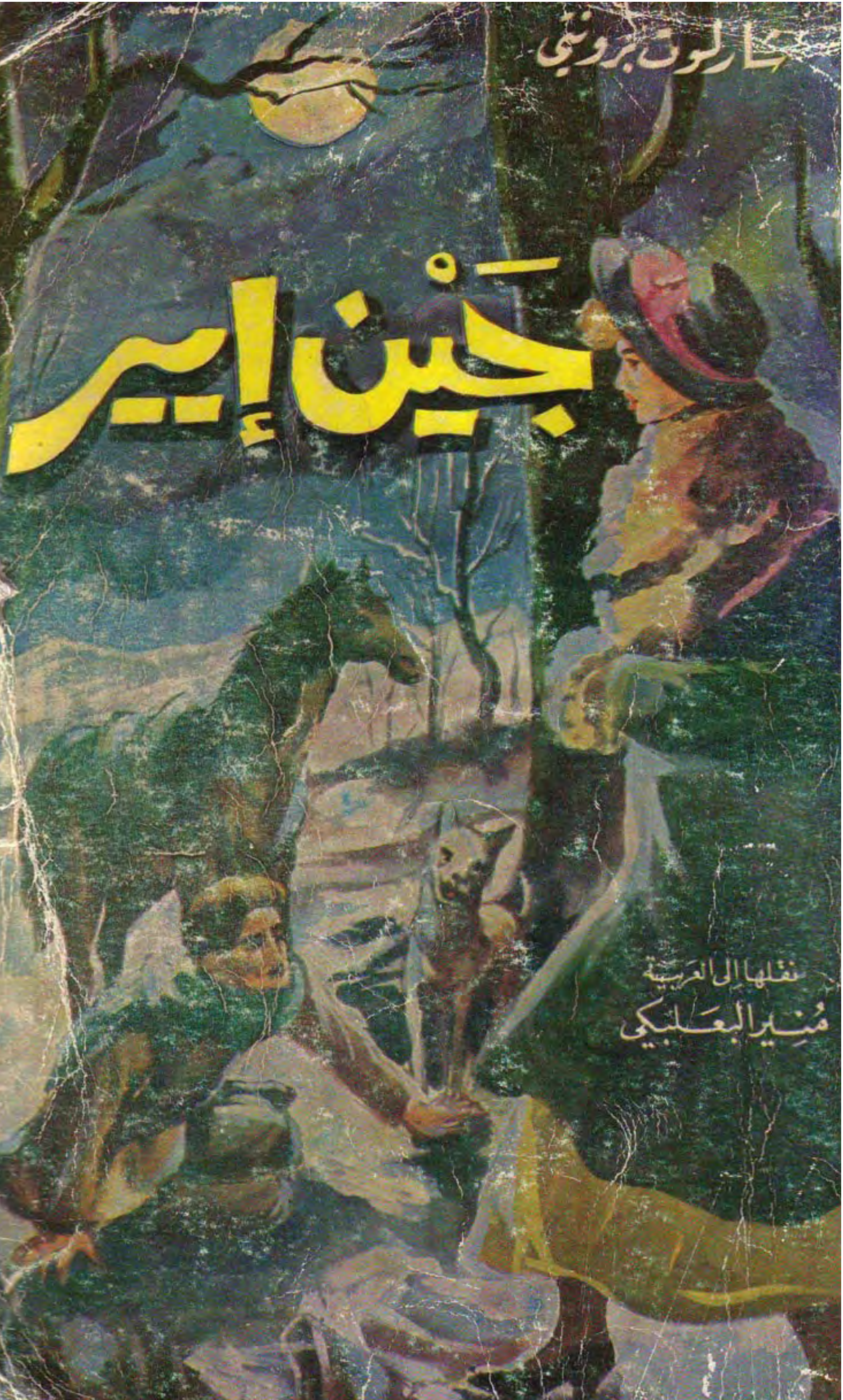

شارلوت برونتي
جين إير
نقلها إلى العربية
منير البعلبكي

هـذا الكتاب



* « جين إير ، بالعربية ؟ ومترجمة بنصها الكامل ؟ ذلك حدث أدبي عظيم ! » كذلك هتف أستاذ الأدب الانكليزي في إحدى الكليات الأجنبية في بيروت عندما علم بإقدام دار العلم للملايين على هذا الصنيع الأدبي الفذ ..

* ولكن لماذا ؟ لأن « جين إير »من الآثار الخالدةالتي لا يتيسر نقلها كاملة إلا لأولي العزم من الكتّاب والمترجمين ، ولأن معظم الترجمات التي صدرت لها باللغات الأوروبية نفسها كانت ناقصة مشوّهة .

ومع ذلك فهذه هي الترجمة الكاملة لـ « جين إير » باللغة العربية ، لم ينقص منها حرف واحد ، ولم تفقد شيئاً من حرارتها الأولى التي تلفح كل من يقرأ الأصل الانكليزي لفحاً .

* والواقع ان « جين إير » تعتبر أروع أثر روائي في الأدب الانكليزي كله ، لما انطوت عليه من نزعة إنسانية غامرة ، وتحليل لأدق مشاعر الحب والبغض والخوف والحسرة والندم ، ولوحات فنية تزري بريشة رافاييل ودافينشي ، وتشويق آسر يأخذ بمجامع القلوب ويغريك بمطالعة الكتاب في ليلة واحدة إن استطعت إلى ذلك سبيلاً .

* أما شارلوت برونتي (١٨١٦ — ١٨٥٥) فروائية من أضخم الروائيات اللواتي اطلعهن العالم في مختلف العصور . وانك لتلمح في كل سطر من سطور « جين إير » قسماً من حياة شارلوت برونتي نفسها ...

شارلوت برونتي

جين اير

نقله الى العربية

مُنير البعلبكي

دار العلم للملايين

JANE EYRE

by

CHARLOTE BRONTË

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان

الطبعة الثامنة
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥

مقدمة

لما كان وضع مقدمة للطبعة الاولى من «جين ايير» Jane Eyre امرا غير ضروري فاني لم اصدرها بأية مقدمة • ولكن هذه الطبعة الثانية تحتاج الى بضع كلمات فيها شكر وفيها ملاحظات مختلفات •

وانما يتعين علي ان اوجه شكري الى ثلاثة فرقاء :

الى جمهور القراء للاذن الواعيـة التي اعاروها هذه القصة الساذجة التي لا تدعي اشياء كثيرة •

والى الصحافة لما افسحته من حيز رحب ، في صفحاتها ، لناشئة مغمورة •

والى ناشر « جين ايير » الذي اسدى بحصافته ، ونشاطيته، وروحه العملية ، وتحرره الصريح ، عونا غير يسير الى مؤلفة مجهولة لا تتمتع بايما تزكية •

ان الصحافة والجمهور ، ليسـا عنـدي ، غير تشخيصين غامضين ، ومن اجل ذلك يتعين علي ان ازجي اليهما الشكر في صيغ غامضة • أما ناشر قصتي هذه فهو كائن راهن محدد ، وكذلك كان بعض نقادي الاسخياء الذين شجعوني كما يشجع الرجال ذوو القلوب الكبيرة والعقول الرفيعة ، دون غيرهم من الناس ، غريبة مناضلة ، فاليهـم ، اعني الى ناشري وناقدي قصتي المختارين ، اقول في اخلاص : « إيها السادة اني اشكركم من قلبي • »

حتى اذا اديت واجب الشكر الى أولئك الذين طوقوا عنقي بعونهم وتزكيتهم ، التفت الى فئة اخرى ، فئة صغيرة ، على قدر ما أعلم ولكن هذا لا يدعو الى اغفالها البتة • اعني اولئك النفر القلائل المروعي الفؤاد أو المولعين بالتنقيب عن المزالق ،

الذين يرتابون في نزعة كل كتاب من مثل « جين ايير » والذين يبدو كل ما هو غير مألوف شيئا غير صحيح في اعينهم ، والذين تكشف آذانهم في كل احتجاج على التعصب ـ ابي الجريمة ـ اهانة للورع ، الذي هو نائب الله على الارض ٠ اني احب ان انبه امثال هؤلاء المتشككين الى بعض الفروق الواضحة ـ احب ان اذكرهم ببعض الحقائق البسيطة ٠

ان التقاليدية شيء والاخلاقية شيء آخر ، والرياء ليس هو الدين ٠ ومهاجمة الاول لا تعني شن حملة على الآخر ٠ ان نزع القناع عن وجه الفريسي لا يعني انك ترفع يدا كافرة الى « تاج الاشواك » ❋

ان هذه الاشياء والاعمال لعلى طرفي نقيض ٠ انها لتتمايز تمايز الرذيلة عن الفضيلة ٠ ولكن كثيرا ما يخلطون بينها ، وهو امر يجب أن لا يحدث ٠ يجب ان لا نتوهم المظهر حقيقة ٠ والمذاهب البشرية الضيقة ، تلك التي لا تنزع الا الى تعظيم فئة قليلة وتبجيلها ، يجب ان لا تستبدل بعقيدة المسيح الفادية للعالم كله ٠ ان ثمة ـ واكرر ذلك ـ لفرقا ٠ وانه لعمل صالح ، لا عمل طالح ، ان نرسم في وضوح بالغ الخط الفاصل بينهما ٠

قد لا يرتاح الناس الى رؤية هذه الآراء يُنزل بها الاذى ، ذلك بانهم تعودوا ان يؤالفوا ما بينها ، واجدين من المناسب أن يعتبروا المظهر الخارجي شيئا اصيلا ينطوي على قيمة حقيقية ، وان يَدّعوا الجدران المطلية بالكلس تضمن الهياكل النظيفة ٠ انهم قد يكرهون ذلك الذي يجرؤ على فحص الاشياء والكشف عن حقيقتها ، على ازالة القشرة الذهبية واظهار ما تحتها من معدن خسيس ، على اقتحام الضريح المقدس ، وبعثرة ما بقي فيه من عظام ٠ الا فليبغضوه ما شاءوا ٠ انهم يظلون برغم ذلك مدينين له ٠

ان آخاب ❋ لم يحب ميخا ❋❋ لانه لم يتنبأ له في ايما يوم من الايام بغير الشر ، ولعله قد احب ابن شنعان المتملق اكثر ٠ ومع ذلك فقد كان في امكان آخاب ان ينجو من موت دام لو انه اوصد اذنيه دون الملق والتزلف ، وفتحهما للنصيحة المخلصة ٠

❋ تقصد ان نزع الاقنعة عن وجوه المرائيين لا يعني التطاول على مقام المسيح (المعرب)

Ahab احد ملوك التوراة (المعرب)

Micaiah احد انبياء التوراة (المعرب)

ان في ايامنا هذه لرجلا لم تُصغِ كلماته لتدغدغ الآذان الرقيقة ، رجلا يسمو في رأيي على افذاذ المجتمع كما سما ابن أملح * على ملوك يهوذا واسرائيل المتوجين ، وينطق بالحق عميقا كما نطق به ، قويا وحيويا على نحو نبوي — سيماء لا تقل عنه بسالة وجرأة . هل كان ساخر رواية « معرض الزهو » Vanity Fair موضع الاعجاب في الاوساط العالية ؟ لست ادري ولكني لا استطيع الا ان اتساءل : لو ان بعض اولئك الذين قذفهم بنار سخريته الاغريقية ورماهم بصواعق تشهيره افادوا من تحذيراته في الوقت المناسب اما كان في ميسورهم ، هم او ذريتهم ، ان يتجنبوا مصيرا بالغ الشؤم ؟

لماذا المعت الى هذا الرجل** ؟ لقد المعت اليه، أيها القارىء، لاني احسب اني ارى فيه مفكرا اعمق واكثر تفردا مما اقر به معاصروه . لاني اعتبره مجدد العصر الاجتماعي الاول — لاني اعتبره سيد تلك الكتيبة العاملة التي سوف توفق الى رد نظام الاشياء الضال الى الطريق القويم . لاني اعتقد انه ما من معلق على كتاباته عثر حتى الان على التشبيه الذي يلائمه، والتعابير التي تبرز مزايا موهبته على الوجه الصحيح . يقولون انه مثل فيلدينغ ، ويتحدثون عن ذكائه وظرفه ومقدرته الهزلية . انه يشبه فيلدينغ كما يشبه عقاب نسرا : كان في امكان فيلدينغ ان يحط على جثة ، ولكن ثاكاري ما كان قادرا على مثل ذلك قط . ان ذكاءه لمشرق ، وان ظرفه لجذاب ، ولكن كلا من ذكائه وظرفه يمت الى عبقريته الجدية بمثل الصلة التي تربط ما بين مجرد برق خافق يومض تحت حافة سحابة الصيف وبين شرارة الموت الكهربائية المخبوءة في رَحِمِه . واخيرا لقد المعت الى مستر ثاكاري لاني اهديت اليه — اذا ما قَبِلَ تقدمة فتاة غريبة عنه تماما — هذه الطبعة الثانية من « جين ايير » .

شارلوت برونتي   21 ديسمبر 1847

---

* كان املح معلما في مدرسة الانبياء على عهد الملك آخاب وكان ابنه يتنبأ للملك باحداث مشؤومة . (المعرب)

** تعني وليام ثاكاري صاحب « معرض الزهو » (المعرب)

١

كان من المتعذر علينا ان نقوم ، ذلك اليوم ، بنزهة على الاقدام • والواقع اننا كنا قد سلخنا ساعة من ساعات الصباح في التطواف في مجتمع الشجيرات التي عرِيَتْ من اوراقها • ولكن ريح الشتاء الباردة كانت قد حملت معها منذ الغداء (ذلك ان مسز ريد كانت تتناول طعام الغداء باكرا حين لا يكون ثمة ضيوف) سحبا قاتمة جدا وامطارا نافذة جدا حتى لقد اصبح كل تفكير في القيام ، آنذاك ، بنزهة اضافية امرا غير وارد •

وسرني ذلك ، فانا لم احب في ايما يوم من الايام الانطلاق في نزهات طويلة على الاقدام ، وبخاصة في الاصائل الباردة • وكنت ارهب العودة الى البيت في الغسق الرطب ، باصابع خدّرها البرد الذي اضر بيدي وقدمي ، وبقلب احزنه تعنيف بيسي ، الحاضنة ، وتأنيبها ، واذله الشعور ، بدونيتي البدنية ازاء اليزا ، وجون ، وجورجيانا ريد •

وكانت اليزا ، وجون ، وجورجيانا ، المشار اليهم ، يتحلقون الان حول امهم في حجرة القعود ، وقد استلقت هي على اريكة قريبة من المستوقد ، يحيط بها اولادها (غير آخذين ، موقتا ، باسباب الشجار والصياح) وبدت على وجهها امارات السعادة كاملة غير منقوصة • اما انا فكانت مسز ريد قد اعفتني من الانضمام الى الحلقة قائلة انها « تأسف لاضطرارها الى ابقائي على مبعدة منها ، وانها سوف يتعين عليها حقا (الا إذا سمعت من بيسي او استطاعت ان تكتشف بملاحظتها هي اني احاول في كثير من الجد ان اكتسب نزعات أليق بالطفولة وادنى الى المخالطة والعشرة وعادات احفل بالجاذبية والمرح ••• شيئا أكثر رقة وصراحة وطبعية) ان تحرمني الامتيازات التي جُعلت لصغار الاطفال القانعين السعداء ليس غير • »

وسألتها : « وما تقوله بيسي عني ؟ »

ـ « جين • انا لا احب المكابرين والمستجوبين ، والى هذا ، فان من المقيت حقا ان تقاطع طفلة ، من هو اكبر منها سنا ، وتعمد الى تصحيحها على هذا النحو • اقعدي في مكان ما • واعتصمي بالصمت الى ان تؤانسي في

نفسك القدرة على الكلام بطريقة مهذبة . »

وكانت تحاذي حجرة القعود حجرة صغيرة مخصصة لتناول طعام الصباح . فانسللت الى هناك ، وكان في تلك الحجرة الصغيرة مكتبة ما لبثت ان اخترت منها مجلدا حرصت على أن يكون حافلا بالرسوم . وارتقيت الاريكة المحاذية ، وضممت احدى رجلي الى الاخرى وجلست متربعة على الطريقة التركية ، حتى اذا جذبت الستارة الحمراء المزخرفة جذبا شبه كامل وجدت نفسي مصونة في عزلة مزدوجة .

كانت طيات من ستائر قرمزية تحجب الرؤية عن عيني ، من ناحية اليمين . ومن ناحية الشمال كانت ألواح الزجاج الصافية تقيني من ذلك النهار القاتم الكئيب ، من نهارات تشرين الثاني (نوفمبر) ولكن من غير ان تفصلني عنه . وفي ما بين الفينة والفينة رحت استجلي ـ وانا اقلب صفحات كتابي ـ طلعة ذلك الاصيل الشتوي . لقد تكشف ، في المدى البعيد ، عن افق شاحب من ضباب وسحاب . في حين وقعت عيناي ، غير بعيد عني ، على مرجة ندية وشجيرات اضرت بها العاصفة ، وعلى مطر موصول كانت هبات ريح طويلة فاجعة تسوقه امامها في وحشية .

ورجعت الى كتابي : « تاريخ الطيور البريطانية » لمؤلفه بيويك . ولم اكن لاهتم ، على الجملة ، بالنص المطبوع الا قليلا ، ومع ذلك فقد كانت ثمة صفحات تمهيدية لم يكن في وسعي ـ رغم حداثة سني ـ ان امر بها مر الكرام . كانت هي تلك الصفحات التي تتحدث عن مساكن طيور البحر ، وعن « الصخور المنعزلة ورؤوس الهضاب المندفعة نحو البحر » التي لا يأوي اليها غير تلك الطيور ، وعن شاطىء النرويج المرصع بالجزر من اقصاه الجنوبي ، المعروف باللندينيس Lindeness او نايز Naze ، الى الرأس الشمالي North Cape

« حيث المحيط الشمالي في دواماته الضخمة يغلي حول جزر « تول » القصية ، الكئيبة ، العارية ، وحيث امواج الاطلسي تتواثب بين جزائر « هبريد » ✻ العاصفة . »

لا ، ولم استطع ان امر مر الكرام بوصفه للشطآن الباردة المفتوحة بوجه الرياح في لابلاندا ، وسيبيريا ، وسبيتزبيرغن ، ونوفا زامبلا ، وآيسلنده ، وغرينلاندة ، وتصويره « لامتدادات منطقة القطب الشمالي المترامية ، وتلك الاصقاع المهجورة ذات الامداء الموحشة ـ مستودع الصقيع والثلج ذاك ، حيث حقول الجليد الراسخة المتراكمة خلال قرون من فصول الشتاء ، المتوهجة في قمم البية ✻✻ فوق قمم البية ، تطوق القطب وتستقطب قساوات البرد القصوى المتضاعفة . » ومن هذه الدنياوات التي يرين عليها بياض كبياض الموت كونت فكرة ذاتية : فكرة وهمية مثل جميع الفكرات نصف المفهومة التي

✻ جزائر هبريد Heprides او هبريد الغربية ، وتقع غربي اسكتلندا . (المعرب)

✻✻ نسبة الى جبال « الالب » .

تطفو على نحو ضبابي في عقول الاطفال ولكنها برغم ذلك تاخذ بمجامع القلوب على نحو عجيب . كانت الكلمات في تلك الصفحات التمهيدية تتصل بالرسوم الصغيرة التي تلت ، وتضفي مغزى على الصخرة المنتصبة وحدها في بحر من الامواج المتلاطمة ذات الرذاذ المتطاير ، وعلى الزورق المحطم الذي جنح عند شاطىء مهجور ، وعلى القمر البارد الرهيب الذي كان يختلس النظر عبر قضبان من السحب الى حطام سفينة ما تزال تاخذ سبيلها الى الغرق .

كانت عاطفة مستغلقة على فهمي تلف فناء الكنيسة المتوحد الساكن بشواهد قبوره المنقوشة ، وقد احاط ببابه وبشجرتيه الاثنتين وبأفقهالخفيض حدار متهدم ، ونهض الهلال الطالع منذ قريب دليلا على هبوط الليل .

اما السفينتان اللتان اخلدتا الى السكون فوق بحر هامد خدر فقد حسبتهما شبحين بحريين .

واما الشيطان الذي كان يحمل على ظهره صرة لص فلم اقف عنده الا قليلا . لقد كان مشهدا راعبا .

وكذلك كان ذلك الشيء الاسود ذو القرنين ، الجالس على انفراد فوق احدى الصخور ، المستغرق في مراقبة حشد قصي يحيط بمشنقة .

لقد روت كل صورة من صور الكتاب قصة ، قصة كثيرا ما كانت مبهمة على مداركي الفجة ومشاعري الناقصة ، ولكنها برغم ذلك ماتعة كل الامتاع ، ماتعة كحكايات بيسي التي كانت تقصها علينا احيانا في ليالي الشتاء كلما اتفق ان كانت هادئة النفس رائقة المزاج ، وكلما اجازت لنا ، بعد ان تدني منضدة الكي الى مستوقد حجرة الاطفال ، ان نتحلق حولها ، وراحت تغذي انتباهنا اللاهف ـ فيما هي تكوي اطواق مسز ريد الموشاة ، وتجعد حواشي طاقية نومها ـ بمقاطع حب ومغامرة منتزعة من قصص الجن العتيقة والقصائد القصصية الشعبية الاشد عتقا ، او من صفحات « باميلا » (كما اكتشفت في فترة متأخرة) و « هنري سيد مورلند » .

واستشعرت آنذاك ، وكتاب بيويك على ركبتي ، اني سعيدة ، سعيدة على طريقتي الخاصة على الاقل . كنت اخشى شيئا واحدا ليس غير : ان يقطع علي تأملاتي طارىء ما . وما هي الا لحظات حتى كان ما خفت ان يكون . لقد فتح باب حجرة الفطور وصاح صوت جون ريد : « بوه ! مدام موب ! »

ثم انه توقف . لقد بدت له الحجرة خالية ليس فيها احد . وبعد لحظة صاح : « يا للشيطان ! اين هي ؟ ليزي ! جورجي ! (مناديا اختيه) جين ليست هنا . قولا لماما انها فرت تحت وابل المطر .. البهيمة الشريرة ! »

وقلت في ذات نفسي : « حسنا فعلت عندما جذبت الستارة ! » وتمنيت في حرارة ان لا يهتدي الى مخبأي . ولقد كان خليقا به ان لا يهتدي اليه بنفسه ، اذ كانت تعوزه رشاقة البصر بقدر ما تعوزه رشاقة الادراك ، ولكن ليزا ما لبثت ان اقحمت رأسها من وراء الباب وقالت في الحال : « انها جالسة، من غير شك ، على المقعد المجاور للنافذة ، يا جاك ! »

وغادرت مخبأي في الحال ، فقد ارتعدت اوصالي حالما تصورت « جاك » ذاك يسحبني منه سحبا . وسألت في تهيب اخرق : « ماذا تريد ؟ »

فكان الجواب : « قولي : ماذا تريد يا سيد ريد ؟ انا اريد منك ان تجيئي الى هنا . » وقعد على كرسي ذي ذراعين ، واومأ الي بما معنـــاه ان علي ان اقترب وامثل بين يديه .

كان جون ريد تلميذا في الرابعة عشرة ، اكبر مني باربع سنوات ، اذ كانت سني لا تعدو العاشرة . كان ضخما قوي البنية بالنسبة الى سنه ، ذا بشرة قاتمة لا تؤذن بصحة جيدة ، واسارير غليظة في وجه عريض ، واوصال ثقيلة ، واطراف كبيرة ، وكان من دأبه ان يلتهم الطعام ، على المائدة ، التهاما ، حتى لقد اصبح صفراويا ممرورا ، وحتـــى لاصبـــح بصره اغبش راشحا ، ووجنتاه مترهلتين . كان خليقا به ان يكون الان في المدرسة ولكن امه كانت قد جاءت به الى البيت ليقضي فيــه شهرا أو شهريـــن « بسبب من صحته الرقيقة » . لقد اكد مستر مايلز ، ناظر المدرسة ، إن صحة جون خليق بها ان تتحسن كثيرا اذا ما تلقى من البيت مقدارا اقل من الحلويات والسكاكر ، ولكن قلب الام اعرض بجانبه عن هذا الرأي الموغل في القسوة ومال الى فكرة ارق حاشية ، فكرة تقول بان شحوب جون ناشيء عن الارهاق ، وربما عـــن الحنين الى البيت .

ولم يكن صدر جون لينطوي على حب كبير لامه واختيه . اما انا فلم يكن يستشعر نحوي غير الكراهية . كان ينتهرني ويعاقبني ، لا مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع ، ولا مرة أو مرتين في اليوم ، ولكن على نحو موصول . كان كل عصب من اعصابي يخافه ، وكانت كل مضغة من مضغ اللحـــم التي تكسو عظامي تنقبض اذا ما اقترب مني . ولقد اتت علي لحظات شدهت فيها بسبب من الذعر الذي كان يوقعه في ذات نفسي ، اذ لم يكن لي أي مفزع الجأ اليه من تهديداته وعقوباته . فقد كان الخدم لا يحبون ان يغضبوا سيـــدهم الفتى بالانتصار لي منه ، وكانت مسز ريد صماء عمياء في هذا الموضوع : انها لم تره في ايما يوم يضربني ولم تسمعه يشتمني ، على الرغم من انه كان لا يتورع ، بين الفينة والفينة ، عن القيام بالفعلين جميعا في حضرتها هي . بيد انه كان يقدم على ذلك ، من وراء ظهرها في الاعم الاغلب .

واذ كان من مألوف عادتي ان اذعن لاوامر جون فقد تقدمت نحو كرسيه .

واذا كان من مألوف عادتي ان اذعن لاوامر جون فقد تقدمت نحوكرسيه .
لقد انفق نحوا من ثلاث دقائق في اخراج لسانه في وجهي اقصى ما استطاع ان يخرجه من غير ان يؤذي جذوره ... وكنـــت اعلـــم انه سوف يضربني وشيكا ، وفيما انا ارتعد خوفا من الضربة رحت اتأمل أي وجه كريه بشـــع كان وجه الفتى الذي سينهال بها علي في الحال . واني لاتساءل هل قرأ تلك الفكرة على وجهي ، اذ انه ما لبث ان ضربني ، من غير ان ينطق بكلمة ، ضربا مفاجئا ومبرحا . وترنحت ، حتى اذا استعدت توازني ارتددت مبتعدة عـــن

كرسيه ، خطوة أو خطوتين ·
وقال : « هذا من اجل الوقاحة التي اظهرتها في الرد على ماما منذ لحظات، ولاسلوبك الجبان في الاختباء خلف الستـــائر ، وللنظرة التي التمعت في عينيك ، أيتها الفأرة ، منذ دقيقتين · »
واذ كنت قد الفت سباب جون ريد فلم يخطر ببالي قط ان ارد عليه· كان كل همي ان ابحث عن طريقة تمكنني من احتمال الضربة التي ستعقب الاهانة من غير ريب ·
وسأل : « ما الذي كنت تفعلينه خلف الستارة ؟ »
ـ « كنت اقرأ »
ـ « اريني الكتاب ! »
عندئذ انقلبت الى النافذة لاجيئه به من هناك ·
ـ « ليس من شأنك ان تأخذي كتبنا · ماما تقول انك عالة علينا · انت لا تملكين مالا ، فأبوك لم يخلف لك منه شيئا · كان خليقا بك ان تشحذي ، لا ان تعيشي هنا مع امثالنا من أولاد السادة ، ولا ان تَطْعَمي مآكلنا نفسها ، وترتدي الثياب على نفقة ماما · والان ، سوف اعلمك كيـف تعبثين برفوف مكتبتي ، لان هذه الكتب هي كتبي انا · ان البيت كله ملكي ، او سيصبـح ملكي بعد بضـع سنوات · اذهبي وقفي قرب الباب ، بعيـدا عـن المرآة والنوافذ · »
وصدعت بمـا امرت ، غير مدركة بادىء الامر ما الذي كان ينتويه · ولكني ما ان رأيته يرفع الكتاب ويوازنه ويقف لكي يقذفني به حتى وثبت ، بحكم الغريزة ، جانبا مطلقة صيحة ذعر · بيد ان وثبتي لم تكن سريعة على نحو كاف · فقد قذف بالمجلد ، فأصـابني ، فسقطت على الارض ، فارتطم رأسي بالباب ، فجرح · وسال الدم من الجرح ، وكان الالم حادا · حتى اذا تخطى ذعري اوجه تعاقبت علي مشاعر اخرى · ·
وقلت : « أي ولد شرير ووحشـي انت ! انت اشبه بقاتل ··· انت اشبه بسائق العبيد ··· انت مثل الاباطرة الرومان ! »
كنت قد قرأت « تاريخ رومة » لغولد سميث وكونت فكرة خاصة عـن نيرون ، وكاليغولا الخ ·· بل لقد كنت ، في ما بيني وبين نفسي ، قد عقدت بعض التشبيهات والمقارنات ولكن من غير ان يخطر لي قط اني سوف اصرح بها ، جهارا ، كما فعلت الان ·
فصاح : « ماذا ؟ ماذا ؟ هل قلت ذلك لي ؟ هل سمعتها يا اليزا ؟ هل سمعتها يا جورجيانا ؟ سوف اخبر ماما بذلك ، ولكن علي اولا ··· »
واندفع نحوي : لقد احسست به يمسك بشعري وبكتفي ، وينقض علي في يأس · ورأيت فيه ـ حقا ـ طاغية من الطغاة ، قاتلا من القتلة· واستشعرت قطرة دم او قطرتين تسيلان من رأسي وتتحـدران على جيـدي ، واحسست بآلام لاسعة · وهيمنـت هذه الاحاسيس على ذعري ، مؤقتا ، فرددت لـه

الضربات على نحو مسعور . انا لا ادري جيدا ما الذي فعلته بيدي الاثنتين ولكنه صرخ « فأرة ! فأرة » ، وانشأ يخور . واسعفته النجدة في الحال : كانت اليزا وجورجيانا قد هرعتا الى مسز ريد ـ وكانت قد صعدت الى الدور العلوي ـ فأقبلت الى ميدان المعركة تتبعها « بيسي » و آبوت » وصيفتها . وفصلن احدنا عن الاخر . وسمعت الكلمات التالية :

ـ « يا الهي ! يا الهي ! أي سعار هذا ؟ اتهجمين على السيد جون ؟ »

ـ « هل قدر لاي امرىء ان يرى مثل هذا الانفعال من قبل ؟ »

ثم ان مسز ريد الحقت هذه الكلمات بقولها :

ـ « ابعداها الى الحجرة الحمراء ، واغلقا عليا بابها . »

وفي الحال انقضت علي ايد اربع ، وحُملت الى الدور العلوي .

٢

وقاومت وقاومت طوال الطريق : شيء جديد بالنسبة الي ، حدث غير مألوف قوى الى حد بعيد الفكرة السيئة التي كانت بيسي ومس آبوت ميالتين الى تكوينها عني . وفي الحق اني كنت مهتاجة بعض الشيء ، او خارجة عن طوري بعض الشيء كما يقول الفرنسيون . ذلك اني ادركت ان تمردي لحظة كان قد عرضني لعقوبات غريبة ، ومثل أي عبد ثائر استشعرت العزم ، في يأسي البالغ ، على المجازفة بكل شيء .

ـ « امسكي بذراعيها ، يا مس آبوت . انها مثل قطة مسعورة . »

فصاحت وصيفة السيدة : « يا للعار ! أي سلوك مخجل هذا الذي سوغ لك ، يا مس ايير ، ان تضربي سيدا فتى ، ان تضربي ابن ولية نعمتك ! سيدك الصغير . »

ـ « سيدي ؟ ما الذي يجعله سيدي ؟ هل انا خادمة ؟ »

ـ « لا ، انت اقل من خادمة . لانك لا تأتين عملا ما مقابل لقمة الخبز التي تقيم اودك . كفى ، واجلسي وفكري في خباثتك وسوء خلقك . »

وكانتا قد انتهتا بي ، الان ، الى الحجرة التي اشارت اليها مسز ريد وقذفتا بي على كرسي خفيض لا ظهر له . ودفعني حافز غرزي الى النهوض واثبة عن الكرسي مثل نابض أو زنبرك ، فما كان من ايديهما الاربع الا ان صدتني ، في الحال ، عما كنت بسبيله .

وقالت بيسي : « اذا لم تلزمي مكانك في سكينة اضطررنا الى ان نحكم وثاقك الى الكرسي . مس آبوت ، اعيريني رباط ساقك ! فلو وثقتها برباط ساقي انا اذن لمزقته في الحال . »

واستدارت مس آبوت لتجرد رجلها القوية من القيد الضروري . وكان في هذا الاستعداد لتقييدي وما يفيده من خزي اضافي ما ذهب ببعض اهتياجي .

وصحت : « لا تخلعيهما · انا لن اتحرك قيد شعرة ! »

ولكي اثبت لهما ذلك سمرت نفسي الى مقعدي بيدي الاثنتين ·

فقالت بيسي : « الويل لك ان تحركت ! » وحين وثقت من انني جنحت للسكينة حقا ارخت قبضتها عني بعض الشيء · ثم انها وقفت هي ومس آبوت متصالبتي الاذرع ، ناظرتين الى وجهي في عبوس وارتياب ، وكأنهما كانتا لا تصدقان اني سليمة العقل · »

واخيرا قالت بيسي ملتفتة الى الوصيفة : « انها لم تفعل قط شيئا مثل هذا من قبل · »

فاجابتها الوصيفة : « ولكني كنت اتوقعه دائما منها · وكثيرا ما انبأت سيدتي برأيي في الطفلة ، فاقرتني سيدتي عليه · انها مخلوقة صغيرة مرائية · انا لم ار قط في حياتي فتاة في مثل سنها تنطوي على هذا المكر كله · »

ولم تجب بيسي بشيء· بيد انها ما عتمت ان وجهت الخطاب الي فقالت: « يجب ان تعي ، ايتها الانسة ، انك مدينة لمسز ريد بشيء كثير · فهي تعيلك وتصونك ، ولو قد خطر لها ان تطردك اذن لتعين عليك ان تذهبي الى ملجأ المعوزين · »

وما كان لدي ما ارد به على هذه الكلمات · انها لم تكن جديدة علي ، فذكريات وجودي الاولى نفسها اشتملت على الماعات من الضرب ذاته · وكان تعييري بانني أحيا عالة على مسز ريد قد امسى في اذني اغنية رتيبة غامضة ، اغنية مؤلمة تسحق النفس سحقا ولكنها نصف مفهومة ·

وضمت مس آبوت صوتها الى صوت بيسي فقالت : « ويتعين عليك ان لا تتوهمي نفسك مساوية للآنستين ريد وللسيد ريد لمجرد ان سيدتي تتلطف وتجيز لك ان تنشأي معهم تحت سقف واحد · انهم سوف ينعمون بمقدار ضخم من المال ، في حين انك لن تنعمي بشيء من ذلك · ان وضعك هذا يجعل من واجبك ان تتضعي وان تحاولي ان تحببي نفسك اليهم · »

واضافت بيسي في صوت لا غلظة فيه : ان ما نقوله لك هو في صالحك · يجب ان تحاولي ان تكوني نافعة قريبة الى النفس ، فقد يساعدك ذلك على ان تجدي ههنا مأوى تفيئين اليه · اما اذا غدوت ذات حدة وفظاظة ، فعندئذ تعمد السيدة ، وانا واثقة من ذلك ، الى طردك · »

فقالت مسز آبوت : « والى هذا ، فان الرب سوف يعاقبها ، انه قد يميتها في غمرة سورة من سورات نفسها · والى اين سيكون مصيرها عندئذ ؟ هيا ، يا بيسي ، فلنتركها وشأنها · انا لا أرتضي ان يكون لي مثل مزاجها ولو اعطيت في ذلك ملك الارض · رددي صلواتك ، يا مس ايير ، حين تخلين الى نفسك ، لان شيئا رديئا قد يجاز له ، اذا لم تستغفري لذنبك ، أن يهبط من المدخنة ويتخطفك · »

ثم انهما خرجتا موصدتين الباب ، محكمتين اغلاقه بالمزلاج ·

كانت الحجرة الحمراء حجرة احتياطية ، لا ينام فيها احد الا في النادر ، وفي ميسوري ان ازعم ، في الواقع ، ان احدا ما كان لينام فيها الا اذا اتفق لتدفق الزائرين على قصر « غايتسهيد » ان جعل من الضروري ان يفيد القوم من كل زاوية من زواياه • ومع ذلك فقد كانت واحدة من ارحب حجرات القصر وافخمها • كان سرير ذو دعائم ضخمة من خشب الماهوغاني اسدلت عليه ستائر من دمقس احمر قاتم ، ينتصب كالخباء في وسطها • وكانت النافذتان الكبيرتان ، بمصاريعهما الموصودة على نحو موصول ، نصف مكسوتين بحبال تزيينية صنعت من الدمقس نفسه • وكانت السجادة حمراء ، وكانت المنضدة القائمة عند قدم السرير مكسوة بغطاء قرمزي ، وكانت الجدران ذات لون اصهب خفيف تشوبه مسحة وردية ، وكانت خزانة الثياب ، ومنضدة الزينة ، والكراسي مصنوعة كلها من خشب ماهوغاني قديم صقل صقالا قاتما • ومن بين هذه الظلال الغامقة المطوّقة للحجرة من اقطارها ارتفعت حشايا السرير ووسائده المركومة ، عالية بيضاء الوهج منشورا فوقها لحاف ثلجي صنع من ذلك النسيج القطني القوي المعروف باسم « مرسيليا » • ولم يكن ليقل عن هذه الحشايا والوسائد بروزا كرسي ضخم وثير قائم قرب مقدم السرير ، وكان ذلك الكرسي ابيض ايضا ، ووضع امامه مسند للقدمين ، فهو اشبه ما يكون ، في ما بدا لي ، بعرش شاحب •

وكانت هذه الحجرة باردة ، لانها نادرا ما شهدت النار توقد فيها ، وكانت صامتة بسبب من بعدها عن حجرة الاطفال وعن المطابخ ، وكانت موحشة لما اشتهر من ان أحدا لم يكن ليدخلها الا في النادر النادر • كانت الخادمة وحدها تقبل اليها مرة كل يوم سبت لتنفض عن الاثاث والمرايا ما استقر عليها ، خلال اسبوع بكامله ، من غبار كثيف • وكانت مسز ريد نفسها تزورها من حين الى حين لتتفقد محتويات درج سري بعينه في خزانة الملابس ، درج كانت تدخر فيه وثائق مختلفة وعلبة حليها ، ورسما زيتيا مصغرا لزوجها المتوفى • وفي هذه الكلمات الاخيرة يكمن سر الحجرة الحمراء ــ الرقية التي أبقتها مهجورة الى هذا الحد برغم فخامتها •

كان مستر ريد قد قضى نحبه منذ تسع سنوات ، وكان قد لفظ انفاسه الاخيرة في هذه الحجرة • ههنا سجي في ابهة ، ومن ههنا حمل رجال الدفان نعشه • ومنذ ذلك اليوم ران على الحجرة حس قداسة رهيبة جعلها في مأمن من انتهاك الحرمة انتهاكا مكرورا •

وكان المقعد الذي تركتني بيسي ومسز آبوت الوحشية مسمرة عليه متكئا خفيضا قائما على مقربة من المستوقد الرخامي • وتجاهي كان ينتصب السرير ، والى يميني كانت خزانة الملابس الداكنة الشامخة التي كانت انعكاساتها الواهنة المكسرة توقع شيئا من التباين في لمعان الواحها الخشبية • والى يساري كانت النافذتان الملفعتان بالسجف ، وكانت مرآة كبيرة قائمة بينهما تنم عن مثل الفخامة الحمقاء التي تطبع كلا من السرير والحجرة • ولم

اكن اعلم علم اليقين هل احكمتا اغلاق الباب بالمزلاج أم لم تحكماه ، حتى اذا آنست في نفسي الجرأة على الحركة نهضت ومضيت لارى . وأسفاه ! لقد اكتشفت انهما لم تغفلا عن ذلك ، ان الناس لم تعرف قط سجنا اشد تحصيننا من سجني ذاك . حتى اذا انقلبت الى موضعي الاول تعين علي ان اجتاز بالمرآة، وعلى نحو غير ارادي راحت نظرتي الذاهلة تستطلع الاعماق التي كشفت عنها . ان كل شيء قد بدا في هذا الفراغ الشبحي أشد برودة وقتامـــا مما هو في الواقع . ولقد أوقعت تلك الصورة الصغيرة الغريبة التي كانت تحدق هنـاك الي ، بوجهها الشاحب حتى البياض وذراعيها اللتين بدتا وكانهما رقعة بيضاء وسط الدجنة وعينيها اللامعتين بالخوف المتحركتين حيـــث كل شيء كان ساكنا - اوقعت تلك الصورة في نفسي مثل الاثر الذي تحدثه روح حقيقية . لقد خيل الي انها اشبه شيء بتلك الاشباح الضئيلة ، التي كان نصفها جنيا ونصفها عفريتيا ، والتي صورتها حكايات بيسي المسائية وكأنها منبثقة من الاودية الموحشة يكسوها نبات الخنشار في الاراضي السبخة ، وتنتصب امام اعين المسافرين المتخلفين عن مواعيدهم . ورجعت الى مقعدي .

كانت الخرافة تواكبني آنذاك ، ولكن الســـاعة التي قدّر لها فيها ان تنتصر علي انتصارا كاملا لم تكن قد حانت بعد . كان دمي لا يـــزال حارا ، وكان مزاج العبد الرقيق الثائر لا يزال يمدني بعزمه المرير . ولقد تعين علي ان اصد سيلا عرما من ذكرياتي الماضية قبل ان انكص في وجه الحاضر الاشأم الرهيب .

لقد برزت اضطهادات جون ريد العنيفة كلها ، ولا مبالاة اختيه المتعجرفة كلها ، ومقت امه كله ، وتعصب الخدم علي .. برزت جميعها على صفحة عقلي المضطرب كما تختلج الرواســـب القاتمة في بئر عكرة . هل قدّر علي ان اتعذب على نحو موصول ، وان اكون مهانة ابدا ، متهمة ابدا ، مدانة ابدا ؟ ما الذي يجعلني عاجزة دائما عن ارضاء من حولي ؟ لم كان من العبث الذي لا طائل تحته ان احاول كسب حظوة ما عند احد ؟ فاليزا العنيدة الانانية ، كانت موضع احترام . وجورجيانا ، التي افسدها الدلال والتي يغلب عليها الخبث اللاسع ، والسلوك المتشامخ العياب كانت موضع تغاض وتسامح مـــن القوم جميعا . لقد بدا وكأن جمالها ، ووجنتيها الورديتين ، وخصل شعرها الجعداء كانت توقع البهجة في نفس كل من ينظر اليها ، وتشتري لها عفوا عـن كل غلطة من غلطاتها . وجون كان لا يجد من يتصدى لمعارضته بله لمعاقبته ، برغم انه كان يلوي اعناق الحمائم ، ويقتل فراخ الطواويس الصغيرة ، ويثير الكلاب على الخراف ، ويجرد عرائش الدفيئـــات * من ثمارها ، ويقصف براعـم النباتات المختارة النادرة في المستنبـــت الزجاجي . وكان يدعو امه « الفتاة العجوز » ايضـــا ، ويعيرها احيانا ببشرتها الداكنة التي تشبه بشرته هو ،

* جمع دفيئه Hothouse وهي بيت لتربية النباتات بالحرارة الصناعية .

ويستخف برغباتها في غلظة ، وكثيرا ما كان يمزق ويتلف اردیتها الحريرية، ومع ذلك فقد ظل هو « حبيب قلبها » • وكنت أنا لا اجرؤ على ارتكاب أيما خطأ ، وكنت احاول أن اؤدي واجباتي كلها ، ومع ذلك فقد كانوا ينبزونني من الصباح الى الظهيرة ومن الظهيرة الى المساء بقولهم اني شريرة ، متعبة ، نكدة ، مداجية •

وفي غضون ذلك ، كان رأسي لا يزال يؤلمني من أثر الضربة والسقطة اللتين اصابتاني ، وكان الدم لا يزال يسيل منه • ان احدا لم يؤنب جون لضربه اياي في نزق وطيش ، على حين انهم اثقلوني بضروب الاهانات المخزية لا لشيء الا لاني تصديت للرد عليه باللغة نفسها لادرأ عني غائلة اندفاعه في مزيد من العنف المجنون •

– « ظلم ! •• ظلم ! •• » كذلك قال عقلي لي وقد استثاره ذلك المنبه الموجع حتى التبريح وبعث فيه قوة نضجت قبل الاوان ولكنها سريعة الزوال • وحداني كل ما بي من عزم ، وقد استثير هو الاخر على نحو مماثل ، الى ان التمس مختلف الذرائع الغريبة للنجاة من الاضطهاد الذي لا يطاق ، كأن اولي فرارا ، او كأن امتنع – اذا لم أوفق الى ذلك – عن الطعام والشراب حتى أموت جوعا •

أي ذعر لف روحي في ذلك الاصيل الموحش ! وأي جلبة اعتملت بدماغي كله ، وأي ثورة عصفت بفؤادي ! ومع ذلك ففي أية ظلمة وفي غمرة من اية جهالة مطبقة دارت رحى تلك المعركة الذهنية ! انا لم استطع ان اجيب عن السؤال الذي ما برح يضج في باطني : لماذا يتعين علي ان أقاسي هذا العذب كله ؟ اما الان ، وقد اصبحت تفصلني عن ذلك العهد سنوات لن انص على عددها – فان في ميسوري ان افهم السبب احسن الفهم •

لقد كنت في « قصر غايتسهيد » نغما ناشزا • كنت لا أشبه احدا من نزلائه ، ولم يكن ثمة ايما تناغم بيني وبين مسز ريد او اولادها أو لفيف خدمها المختار • ولئن كانوا يضنون علي بحبهم لقد كنت انا ، في الواقع ، قليلا ما اضمر لهم شيئا من حب • وما الذي كان يحتم عليهم ان ينظروا بعين الحنان الى شيء لم يكن يجد أيما مشاركة وجدانية بينه وبين أحد منهم ، شيء متنافر يختلف عنهم في المزاج ، والموهبة ، والميول ، شيء حقير غير قادر على ان يخدم اغراضهم او يزيد في متعتهم ، شيء فاسد يغذو في ذات نفسه جرثومة السخط على معاملتهم والازدراء لتفكيرهم • انا اعلم اني لو كنت طفلة حادة الطبع ، ذكية الفؤاد ، شديدة الاهمال ، كثيرة المطالب ، وسيمة ، نزاعة الى اللعب الصاخب اذن لاحتملت مسز ريد وجودي على نحو احفل بالرضا ، واذن لحاول اولادها ان يغذوا في نفوسهم قدرا من المودة والصداقة اعظم ، واذن لكان خليقا بالخدم ان يكونوا اقل نزوعا الى جعلي « كبش فداء » حجرة الاطفال •

وشرع ضياء النهار يهجر الحجرة الحمراء • كانت الساعة قد تجاوزت

الرابعة ، وكان الاصيل الغائم يجنح نحو غسق كئيب • وسمعت المطر وهو يقرع ، ما يزال ، نافذة السلم قرعا موصولا ، والرياح تعوي في الغيضة القائمة خلف القصر • وشيئا بعد شيء تمشّى البرد في مفاصلي حتى لقد اصبحت وكأنني قطعة من حجارة ، ومن ثم غارت شجاعتي • واذا بمزاجي المألوف ، مزاج الذل والشك في النفس والكآبة البائسة ، يسقط سقوط الندى على جمرات غيظي الخامد • لقد زعموا كلهم انني شريرة ، ومن يدري ، فقد اكون شريرة حقا ! والا فما الذي جعلني لا افكر في شيء غير تجويع نفسي حتى الموت ؟ لقد كان ذلك التفكير جريمة من غير ريب ، والى هذا ، فهل كنت على استعداد للموت ؟ وهل كان السرداب الممتد تحت مذبح كنيسة غايتسهيد مصيرا مغريا الى هذا الحد ؟ لقد قيل لي أن مستر ريد قد دفن في ذلك السرداب ، وهذه الفكرة قادتني الى استحضار صورته في ذهني ، واطلت التفكير في ذلك بذعر متعاظم • ولم استطع ان اتذكره ، ولكني عرفت انه كان خالي ـ شقيق والدتي ـ وانه كان قد حملني وانا طفلة يتيمة الاب والام الى بيته ، وانه كان قد سأل مسز ريد ، في لحظاته الاخيرة ، ان تعده بان تنشئني وتعيلني وكأني ولد من اولادها • واغلب الظن ان مسز ريد اعتقدت انها وفت بهذا العهد ، واني لاجرؤ على القول انها قد وفت حقا على قدر ما تجيز لها طبيعتها ذلك • ولكن انى لها ، في الحق ، ان تحب مخلوقة دخيلة ليست من ذريتها ، مخلوقة لا يربطها بها ـ بعد وفاة زوجها ـ رابط ما ؟ ولا ريب في انه كان مما يضجرها ويرهقها الى ابعد الحدود أن تجد نفسها ملزمة بعهد انتُزع منها عنوة بان تقوم مقام الام من طفلة غريبة لم تستطع ان تحبها ، وأن ترى الى هذه الفتاة الدخيلة ذات الطباع غير المؤتلفة مع طباعها تفرض الى ابد الدهر على اسرتها الخاصة•

والتمعت في ذهني فكرة فريدة • انا لم اشك ـ لم اشك قط ـ في انه لو كان مستر ريد حيا اذن لعاملني في احسان • والان ، فيما كنت جالسة انظر الى السرير الابيض والجدران التي رانت عليها الظلال ـ ملقية بين الفينة والفينة ايضا نظرة ذاهلة نحو المرآة المومضة على نحو باهت ـ شرعت استحضر في ذهني ما كنت قد سمعته عن الموتى الذين اقلقهم الخروج على رغباتهم الاخيرة واقض مضاجعهم في اجداثهم فانقلبوا الى الارض لكي يعاقبوا الحانثين بالعهد ويثأروا للمظلومين والمضطهدين • وخطر لي ان روح مستر ريد ، وقد غاظتها ضروب الظلم المنزلة بأبنة اخته ، قد تغادر مثواها ، سواء اكان هذا المثوى في سرداب الكنيسة او في عالم الراحلين المجهول ، وتنتصب امامي في هذه الغرفة • وكفكفت عبراتي ، وكبحت تنهداتي ، خشية ان يكون في ايما امارة من امارات الاسى العنيف ما يحفز صوتا غيبيا الى مؤاساتي ، او ما يطلع من الدجنة وجها تحيط به هالة من نور فينحني نحوي في شفقة غريبة • واستشعرت ان هذه الفكرة ـ المواسية نظريا ـ خليق بها ، اذا ما تحققت ، ان تكون رهيبة ، فبذلت غاية جهدي لكي اخنقها •• بذلت غاية جهدي للاحتفاظ برباطة جأشي •

وبهزة رددت بها الشعر عن عيني رفعت رأسي وحاولت أن اجيل ط في ، بكثير من الجرأة في ارجاء الحجرة المظلمة • وفي تلك اللحظة التمع ضوء على الجدار • وهل كان هذا الضوء ـ كذلك سألت نفسي ـ شعاعا قمريا تسلل من فرجة ما في مصراع النافذة ؟ لا • أن اشعة القمر ساكنة ، وهذا الشعاع يضطرب • وفيما كنت احدق الى الجدار انساب الى السقف وارتعش فوق رأسي • لقد امسى في ميسوري الان ان احدس ، في غير تردد ، ان عرق الضياء ذاك كان في اغلب الظن ضوءا منبعثا من مصباح يحمله امرؤ يتخذ سبيله في المرجة المحيطة بالقصر • ولكن عقلي كان مستعدا آنذاك للذعر واعصابي كانت متوترة بالاهتياج فحسبت ذلك الشعاع المضطرب في رشاقة نذيرا برؤيا مقبلة من عالم آخر • ووجب قلبي وجيبا متسارعا ، واشتعل رأسي ، وملأ صوت ما اذني ، صوت توهمته اندفاع اجنحة • وبدا لي وكأن على مقربة مني شيئا ما ، وألم بي حصر في الصدر ، وكدت اختنق : لقد انهارت قدرتي على الاحتمال ، فاندفعت الى الباب وهززت القفل في جهد يائس • وانطلقت عبر المجاز الخارجي خطى تعدو ، ودار القفل ، ودخلت بيسي وآبوت •

وقالت بيسي : « مس ايير أمريضة انت ؟ »

وهتفت آبوت : « اية ضجة رهيبة ! لقد نفذت الى اعماقي ! »

فكانت صيحتي : « أخرجاني من هنا ! اتركاني اذهب الى حجرة الاطفال ! »

فسألتني بيسي من جديد : « لماذا ؟ هل اصبت باي اذى ؟ هل رأيت شيئا ؟ »

ـ « أوه ! لقد رأيت ضوءا ، ولقد خيل الي ان شبحا سوف يبرز لي • »

كنت الان قد امسكت بيد بيسي ، فلم تنتزعها مني •

فاعلنت آبوت في شيء من التقزز : « لقد صرخت لغرض في نفسها • واية صرخة ! ولو كانت تقاسي ألما عظيما اذن لكان في ميسور المرء أن يعذرها، ولكنها لم تفعل ذلك الا لكي تجشمنا كلنا عناء المجيء الى هنا • انا اعرف حيلها الشيطانية • »

وهنا تساءل صوت آخر تساؤلا حاسما : « علام هذا الصياح كله ؟ » واقبلت مسز ريد مجتازة الرواق ، وقد اطارت الريح جنبات قبعتها ، وسمع لردائها حفيف عاصف • « آبوت ، بيسي ، اعتقد اني اصدرت امري بان تترك جين‌ايير في الحجرة الحمراء حتى افد عليها انا بنفسي • »

فاعتذرت بيسي متضرعة : « لقد اطلقت مس جين صراخا شق عنان السماء ، يا سيدتي • »

فكان الجواب الوحيد : « اطلقي يدها • اطلقي يد بيسي ، ايتها الطفلة • انك لن توفقي ، بهذه الاساليب ، الى الخروج من هنا ، كوني على ثقة • انا اكره الاحتيال ، وخاصة اذا قام به الاطفال • ومن واجبي ان اريك ان

الحيل لا تفيد · عليك ان تبقي هنا ساعة اضافية ، ولن اطلق سراحك عندئذ الا اذا اظهرت خضوعا وسكينة كاملين · »

ـ اوه ، يا امرأة خالي ، ارحميني ! اغفري لي ! انا لا استطيع احتمال هذا ·· دعيني اعاقب على نحو آخر ! سوف يقضى علي اذا ··· »

ـ « اخرسي ! ان هذا العنف الذي تظهرينه شنيع تشمئز منه النفس »

وليس من ريب في انها استشعرت ذلك حقا · لقد كنت في عينيها ممثلة نبغت قبل الاوان · ولقد كانت تنظر الي ، في خلوص نية ، نظرتها الى مزيج من اهواء مؤذية وروح وضيعة ونفاق خطر ·

حتى اذا انسحبت بيسي وآبوت وضاقت مسز ريد ذرعا باوجاعي المسعورة وتنهداتي الضارية ردتني الى الوراء في غلظة بالغة ، واغلقت باب الحجرة علي ، من غير ان تضيف الى حديثها الفظ ايما كلمة جديدة · وسمعتها تمضي لسبيلها ، وما ان انقضت على ذلك لحظات حتى اصابني ، في ما احسب ، ضرب من النوبة : لقد اسدلت الغيبوبة الستار على هذا المشهد ·

٣

واول شيء اذكره بعد ذلك هو اني افقت مستشعرة ان كابوسا رهيبا كان قد الم بي ، واني رأيت امامي وهجا احمر فظيعا تعترضه قضبان سوداء غليظة · ولقد سمعت ايضا ، اصواتا تتحدث في جرس غائر ، وكأنما يخمدها اندفاع ريح او مياه : وتعاون الاهتياج ، والشك ، وشعور بالذعر عارم على تشويش ملكاتي كلها · وما هي غير فترة يسيرة حتى وعيت ان شخصا ما كان يحركني بيديه ، ويرفعني الى اعلى ويساعدني على الجلوس ، وكل ذلك على نحو احفل بالرقة مما قدّر لي ان ارفع أو أسند في أيما وقت من الاوقات · لقد ارحت رأسي على وسادة او على ذراع ، وغلب علي شعور بالراحة والطمأنينة ·

وبعد خمس دقائق تبددت سحابة الانشداه : لقد عرفت معرفة اليقين اني كنت في فراشي ، وان الوهج الاحمر لم يكن غير النار المضرمة في المستوقد بحجرة الاطفال · كانت الدنيا ظلاما ، وكانت على المنضدة شمعة تحترق · كانت بيسي واقفة عند قدم السرير حاملة في يدها حوضا ، وكان احد الرجال جالسا على كرسي قرب وسادتي وكان منحنيا فوقي ·

واستشعرت طمانينة تمتنع على الوصف وثقة مهدئة بأني في حفظ وامان عندما عرفت ان في الحجرة رجلا غريبا ، فردا لا يمت بصلة الى قصر غايتسهيد ولا يشده الى مسز ريد نسب ما · حتى اذا اشحت بوجهي عن بيسي (على الرغم من ان وجودها كان ادعى الى الارتياح واقل اثارة للمقت من وجود آبوت لو اتفق ان كانت محلها ، مثلا) انعمت النظر في وجه

الرجل • لقد عرفته • انه مستر لويد ، وهـو صيدلاني يتعاطى الطبابـة ، كانت مسز ريد تدعوه الى القصر احيانـا اذا مـا لزم بعض الخـدم فراش المرض • اما اذا الت بها هي او باحد اولادها علة ما فعندئـذ كانت تستعين بطبيب •

وسألني : « حسنا ، من انا ؟ »

ولفظت اسمه ، باسطة يدي ، في الوقت نفسه ، نحوه • فامسك بهـا مبتسما وقـال : « لن تنقضي غير فتـرة وجيـزة حتى تستعيدي صحتـك ونشاطك • » ثم اضجعني على السرير ووجـه الخطاب الى بيسي فـكلفها ان تحرص كل الحرص على تجنيبي خلال الليل كل داعية من دواعي الازعاج • حتى اذا زودها ببعض التوجيهات الاضافية وألمـع الى انـه سوف يعودني ، من جديد ، في اليوم التالي غادر الحجرة ، مخلفا في نفسي شيئا من حسرة • فقد احسست طوال جلوسه على مقربة من وسادتي اني في نجوة من الاذى وان جوا من الصداقة يكتنفني • وحين اوصـد البـاب خلفه رانت الظلمـة على الحجرة كلها وغار قلبي كرة اخرى : لقـد اثقله اسى يعجز البيان عـن تصويره •

وسألتني بيسي في جرس هو الى الرقة اقرب : « هل تراودك رغبـة في النوم ، ايتها الانسة ؟ »

ولم اجرؤ على الاجابة الا قليلا • فقد خشيت ان تكون الجملة التاليـة فظة غليظة • وقلت : « سوف احاول • »

ــ « هل تحبين ان تشربي او تستطيعين ان تأكلي شيئا ؟ »

ــ « لا ، شكرا يا بيسي • »

ــ « اذن فأحسب اني سآوي الى فراشي ، ذلك بان الساعة تجـاوزت الثانية عشرة ، ولكن في امكانـك ان تناديني اذا مـا احتجت الى ايمـا شيء خلال الليل • »

يـا له مـن لطف رائـع ! لطف جرأني على ان اسألها هـذا السؤال : « بيسي ، ما الذي اصابني ؟ أمريضة انا ؟ »

ــ « احسب انك سقطت صريعة المرض لشدة مـا بكيت في الحجـرة الحمراء • ولسوف تتحسن حالك وشيكا من غير ريب • »

ومضت بيسي الى حجرة الخادمة القائمة غير بعيد • وسمعتها تقول : « سارة ، تعالي ونامي معي في حجرة الاطفـال • انـا لا اجرؤ ، حتى ولـو كلفني ذلك حياتي ، على ان ابقى وحدي مع تلك الفتاة المسكينة هذه الليلة • انها قد تموت • وانه لمن الغريب ان تصيبها تلك النوبة • ويخيل الي انهـا رأت شيئا • لقد كانت سيدتي شديدة القسوة عليها في ما اعتقد • »

ورجعت سارة معها ، وآوتا كلتاهما الى الفراش • وظلتا نصف ساعة تتبادلان حديثا مهموسا قبل ان تستسلما للرقاد • ووفقت الى التقاط نتف من حديثهما استطعت ان استنتج من خلالها ، في وضوح كثير ، موضـوع

الحديث الرئيسي ٠

ـ « لقد اجتاز بها شيء يجلله البياض من قمة رأسه الى اخمص قدميه ثم اختفى ٠ » ـ « وكان وراءه كلب اسود ضخم ٠ » ـ « ثلاث طرقات صارخة على باب الحجرة ٠ » ـ « ضوء في باحة الكنيسة فوق ضريحة تماما ٠ » الخ ٠ الخ ٠

واخيرا استسلمنا كلتاهما للرقاد ٠ وخمدت النار في المستوقد ، وذابت الشمعة ٠ اما بالنسبة الي فقد تصرمت ساعات ذلك الليل الطويل في ارق رهيب ٠ كانت اذناي وعيناي وعقلي كلها متوترة بالرعب ٠٠٠ بذلك الرعب الذي لا يستطيع ان يستشعره احد غير الاطفال ٠

ولم ينل حادثة الحجرة الحمراء هذه مرض جسماني خطير او متطاول : لقد اصابت اعصابي بصدمة ليس غير ، صدمة ما زلت استشعر ترجيعها حتى يوم الناس هذا ٠ اجل ، اينتها السيدة ريد ، انا مدينة لك ببعض غصص الالم العقلي الرهيبة ٠ ولكن علي ان اغفر لك ، ذلك لانك لم تعرفي ما الذي بدر منك : لقد خيل اليك ، وانت تمزقين نياط قلبي ، انك تستأصلين ميولي الرديئة من جذورها ليس غير ٠

وفي اليوم التالي ، حوالي الظهر ، نهضت من فراشي وارتديت ثيابي، وجلست مندثرة بشال على مقربة من مستوقد حجرة الاطفال ٠ لقد استشعرت اني واهنة الجسم خائرة القوى ، ولكن اسوأ آلامي انبعثت من كآبة تستعصي على الوصف ، بؤس روحي ما فتىء يستل مني دموعا صامتة ، فلا اكاد امسح عن وجنتي قطرة مالحة حتى تعقبها قطرة مالحة ٠ ومع ذلك فقد خيل الي انه كان خليقا بي ان اكون سعيدة ، اذ لم يكن ثمة احد من آل « ريد » ٠ كانوا كلهم قد انطلقوا في العربة مع امهم ٠ وآبوت ايضا كانت تخيط في غرفة اخرى ٠ اما بيسي فكانت تضطرب في ارجاء القصر ، رافعة الدمى المطروحة ههنا وههناك ومرتبة الادراج ، وكانت توجه الي بين الفينة والفينة كلمة حنان غير مألوفة ٠ وكان قمينا بي أن أعتبر هذا الوضع جنة امن وسلام ، اذ كنت قد تعودت من قبل حياة من التوبيخ الموصول والارهاق المجحود ٠ ولكن اعصابي المنهارة كانت الان ، في الواقع ، في حال يعجز ايما هدوء عن تهدئتها ويتعذر على ايما بهجة ان تثيرها على نحو مرغوب فيه٠

وكانت بيسي قد هبطت الى المطبخ ثم صعدت حاملة الي كعكة محشوة بالفاكهة على طبق من الخزف الصيني مزدان بصورة مشرقة تمثل عصفورا من عصافير الجنة اتخذ لنفسه من اوراق اللبلاب الملتفة ومن براعم الورد عشا ، طبق كان من دأبه ان يثير فيّ اعجابا حماسيا بالغا جعلني التمس في كثير من الاحيان ان يجاز لي تقليبه بين يدي لكي انعم النظر اليه عن كثب ، ولكنهم اعتبروني دائما غير جديرة بالتمتع بهذا الامتياز٠

هذا الطبق النفيس كان قد وضع الان على ركبتي ، وكنت قد دعيت في حرارة الى التهام قرص الحلوى الرقيق ذاك الذي كان متربعا في وسطه ٠

يا لها من منة عابثة لا طائل تحتها ! منه اقبلت بعد فوات الاوان مثل معظم المنن الاخرى التي يطول ارجاؤها والتي كثيرا ما يتوق المرء اليها • فانا لم استطع ان آكل الكعكة ، ولقد بدا ريش العصفور والوان الزهور وكأن اشراقها قد خبا على نحو عجيب ، فاقصيت كلا من الطبق والكعكة عني •
وسألتني بيسي : « هل آتيك بكتاب ؟ » فاحدثت لفظة « كتاب » في نفسي مثل اثر المنبه السريع الزوال ، فرجوتها ان تجيئني من المكتبة بـ « رحلات جيلفر » • وكنت قد قرأت هذا الكتاب مرة ومرة في ابتهاج ، واعتبرته حكاية واقعيه واكتشفت فيه عِرق متعة أقوى من ذلك الذي وجدته في قصص الجن • ذلك باني كنت قد التمست الجنيات بين اوراق « كف الثعلب » * والاجراس ، تحت نبات الفطر ، وفي زوايا الجدران العتيقة التي تحجبها اوراق « عاشق الشجر » ** حتى اذا ذهب بحثي كله ادراج الرياح استسلمت للواقع الاليم وهو انها قد رحلت بقضها وقضيضها عن انكلترة متوجهة الى بلد من البلدان المتوحشة حيث الغابات اشد كثافة وادعى الى الفطرة الهمجية ، وحيث الناس اقل عددا • على حين ان « ليليبوت » *** و « بروبد يغناغ » **** كانتا ، في اعتقادي ، اجزاء فعلية من سطح الارض ، ولم اشك قط في انه قد يقدر لي ذات يوم ، من طريق القيام برحلة طويلة ، ان ارى بعيني رأسي اقزام احد هذين العالمين ، وحقوله وبيوته واشجاره الصغيرة ، وابقاره واغنامه وطيوره الضئيلة ، وان ارى ثاني هذين العالمين بحقول قمحه السامقة كالغابات ، وكلابه الجبارة ، وقططه العملاقة ، ورجاله ونسائه الضخام كالابراج • ومع ذلك ، فحين وُضع هذا المجلد الاثير لدي في يدي ، وحين قلبت صفحاته والتمست في رسومه العجيبة ذلك السحر الذي ما زلت اقع عليه ، حتى الان ، في ثناياه تراءى لي كل شيء مفزعا موحشا ، وتبدى لي العمالقة غيلانا مهازيل ، والاقزام عفاريت صغيرة شريرة رهيبة ، وجيلفر رحالة بائسا تائها في احفل الاصقاع بالرعب والخطر • واغلقت الكتاب ، بعد ان امسيت لا اجرؤ على قراءته . ووضعته على المنضدة الى جانب الكعكة التي لم تمس ولم تذق •

كانت بيسي قد فرغت الان من ترتيب الحجرة ونفض الغبار عن اثاثها • حتى اذا غسلت يديها فتحت درجا صغيرا حافلا بقطع نفيسة من الحرير والاطلس وانشأت تصنع طاقية جديدة لدمية جورجيانا • وفي غضون ذلك راحت تتغنى بهذه الاغنية :

« في تلك الايام التي مضينا فيها نضرب في الارض كالغجر وذلك منذ زمن بعيد »

---

* ضرب من النبات ** نبات متسلق سرمدي الخضرة ذو اوراق براقة •

*** جزيرة خيالية تحدث عنها سويفت في كتابه «رحلات»، وسكانها كلهم من الاقزام (المعرب)

**** جزيرة خيالية ايضا ورد ذكرها في «رحلات جيلفر» وسكانها كلهم من العمالقة (المعرب)

لقد طالما سمعت هذه الاغنية من قبل ، وسمعتها في ابتهاج غامر دائما، فقد كان لبيسي صوت عذب – في ما كنت احسب ، على الاقل · اما الان ، وعلى الرغم من ان عذوبة صوتها لم تفارقه البته ، فقد وجدت في اغنيتها حزنا يستعصي على الوصف · وكانت احيانا تنشد ، وقد استغرقت في عملها ، « لازمة » الاغنية في اناة بالغة وتمهل مغالى فيه ، فيطلق هذا البيت « وذلك منذ زمن بعيد » وكأنه الايقاع الاحفل بالاسى من ترنيمة جنائزية · ثم انها انتقلت الى اغنية قصصية ، وكانت اغنيتها هذه المرة حزينة حقا :

« لقد تقرحت قدماي ووهنت ساقاي ،
ان طريقي لطويلة ، وان الجبال لمقفرة
ولسوف يطبق الغسق ، عما قريب ، كئيبا لا قمر فيه
على دروب اليتيم الصغير البائس ·

« لماذا بعثوا بي وحدي الى مثل هذه المطارح النائية ،
هناك حيث تنبسط الاراضي السبخة وتكدس الصخور الرمادية؟
ان الناس لغلاظ القلوب ، والملائكة الكرام هم وحدهم الذين
يرعون خطى اليتيم الصغير البائس

« ومع ذلك فنسيم المساء يهب عليلا نائيا ،
وقد خلت السماء من السحب وارسلت النجوم الساطعة
اشعتها الرقيقة ·
ان الله ، ذا الرحمة ، لا يضن بالحماية والعزاء والامل على
اليتيم الصغير البائس ·
«وحتى ولو قدر علي، في طريقي، ان اسقط فوق الجسر المحطم،
او اتيه في المستنقعات وقد خدعتني اضواء كاذبة ،
فان ابي الالهي ، سوف يضم الى صدره ،
في بركة واعدة ، اليتيم الصغير البائس ·
« ان ثمة فكرة توقع في نفسي القوة :
حتى ولو حرمت المأوى وذوي القربى معا ،
فالسماء مثوى ، مثوى لن تعوزني فيه الراحة ·
ان الله صديق لليتيم الصغير البائس · »

وقالت بيسي حين ختمت اغنيتها : « لا ، لا ، يا مس ايير ، لا تبكي !» ولو قد قالت للنار : « لا تضطرمي ! » اذن لكان مطلبها ادنى الى التحقيق · ولكن انى لها ان تكتشف بالحدس ذلك الالم السوداوي الذي كنت ضحيته ؟ وفي الصباح ، وفد مستر لويد علي كرة اخرى ·

وقال وهو يدخل حجرة الاطفال : « ماذا ؟ مستيقظة في هذه الساعة المبكرة ؟! حسنا ، ايتها الحاضنة ، كيف حالها ؟ »

فاجابته بيسي قائلة ان صحتي تتحسن تحسنا كبيرا ·

– « اذن فقد كان ينبغي ان تبدو اكثر حبورا · تعالي الى هنا ، مس

جين . اسمك جين ، أليس كذلك ؟ »
ـ « اجل ، يا سيدي ، جين ايير » .
ـ « حسنا ، لقد كنت منخرطة في البكاء يا مس جين ايير . فهل تستطيعين ان تنبئيني بالسبب الذي حملك على ذلك ؟ هل تشكين الما ما ؟ »
ـ « لا ، يا سيدي . »
وهنا سارعت بيسي الى القول : « اوه ! في استطاعتي ان اقول انها تبكي لانّها لم تستطع ان ترافق سيدتي في العربة . »
ـ « لست اظن ذلك البتة . فهي في سن تربأ بها عن مثل هذا النكد ».
ـ وكان هذا هو اعتقادي انا ايضا . واذ جُرح احترامي الذاتي بهذه التهمة الباطلة فقد سارعت الى الاجابة : « انا لم ابك قط لشيء مثل هذا في حياتي كلها . انا اكره التنزه في العربة . انني ابكي لاني فتاة بائسة » .
فقالت بيسي : « اوه ، تبا لك ايتها الانسة ! »
وبدا الصيدلي الصالح مشدوها بعض الشيء . كنت واقفة امامه ، فركز عينيه علي تركيزا موصولا ، وكانت عيناه صغيرتين رماديتين ، غير شديدتي البريق ، ولكن في ميسوري ان اقول ، لو رأيتهما الان ، انهما تموران بالذكاء . وكان وجهه صارم الاسارير ولكنه مع ذلك راشح بدماثة الخلق . حتى اذا انعم النظر في وجهي مليا ، قال : « ما الذي الزمك فراش المرض امس ؟ »
فقالت بيسي مقحمة نفسها ، كرة اخرى ، في الحديث : « لقد وقعت على الارض » .
ـ « وقعت على الارض ؟ وهذا من شيم الاطفال ايضا ! اليست قادرة ، وقد بلغت هذه السن ، على المشي في اتزان ؟ لا ريب في انها قد بلغت ربيعها الثامن او التاسع » .
وكان في هذه الطعنة الجديدة لغروري الذاتي ما اطلق لساني بهذا التفسير الفظ : « لقد اوسعوني ضربا حتى سقطت مغشيا علي » . ثم اضفت بينا كان مستر لويد يحشو انفه بقبصة من سعوط : « ولكن ذلك لم يكن هو علة مرضي » .
وفيما كان يعيد العلبة الى جيب صدرته قرع جرس صارخ يؤذن بأن موعد غداء الخدم قد حان . ولم يكن ذلك الجرس غريبا على مستر لويد ، فقال : « هذا لك ، ايتها الحاضنة . في استطاعتك ان تنزلي . سوف اعطي مس جين بعض العظات ريثما ترجعين » .
ولو قد كان الامر بيد بيسي اذن لآثرت البقاء ، ولكنها كانت مضطرة الى الانصراف لان تناول وجبات الطعام في مواعيدها كان قاعدة تطبق في قصر غايتسهيد تطبيقا صارما .
واردف مستر لويد حين مضت بيسي لسبيلها : « ان الوقعة لم تكن هي علة مرضك . حسنا ، فما الذي الزمك فراش المرض اذن ؟ »

ـ « لقد حجزوني في حجرة كان فيها شبح · حجزوني الى ما بعد العتمة » ·

ورأيت مستر لويد يبتسم ويقطب في آن معا · وقال : « شبح ! ولكنك طفلة برغم كل شيء ! اتخافين الاشباح وقد بلغت هذه السن ؟ »

ـ « اجل ، انا اخاف شبح مستر ريد ، فقد توفي في تلك الحجرة ، وسجي هناك · وبيسي نفسها (وكل امرىء اخر) تخشى الدخول اليها ليلا وتتمنى ان لا تضطر الى ذلك ابد الدهر · ولقد كان حجزي هناك وحدي ، ومن غير ما شمعة ، عملا وحشيا ـ وحشيا الى درجة يخيل الي معها اني لن انساه ما حييت » ·

ـ « هراء ! أهذا ما يجعلك بائسة الى هذا الحد ؟ هل تستشعرين ، الان ، خوفا ما في وضح النهار ؟ »

ـ « لا · ولكن الليل سوف يهبط كرة اخرى ، عما قريب ، والى هذا ، فاني غير سعيدة ، غير سعيدة الى حد بعيد ، لاسباب اخرى · »

ـ « ما هي هذه الاسباب الاخرى ؟ هل لك ان تنبئيني ببعضها · »

لشد ما تمنيت لو اجيب عن هذا السؤال اجابة وافية ! ولشد ما كان عسيرا علي ان اصوغ جوابا ما ! ان في استطاعة الاطفال ان يحسوا ، ولكن ليس في استطاعتهم ان يحللوا احاسيسهم · وحتى لو وفقوا الى اجراء ذلك التحليل ، في الذهن ، اجراء جزئيا فانهم يظلون عاجزين عن التعبير عن نتيجة تلك العملية في كلمات · بيد اني خشيت ان اخسر هذه الفرصة الاولى والوحيدة للتنفيس عن كربتي من طريق الافضاء بها ، فحاولت جاهدة ، بعد شيء من الروية المضطربة ، ان اصوغ جوابا هزيلا ناقصا ، ولكنه برغم ذلك حقيقي ·

لقد قلت : « اولا ، لانه لا اب لي ولا ام ، ولا اخوة ولا اخوات » ·

ـ « ولكن لك امرأة خال كريمة وابناء خال كراما » ·

وكبحت جماح نفسي كرة اخرى ، ثم اعلنت في ارتباك وخرق :

ـ « ولكن جون ريد اوسعني ضربا حتى الاغماء ، وامرأة خالي حجزتني في الحجرة الحمراء » ·

وكرة اخرى اخرج مستر لويد علبة السعوط من جيب صدرته · ثم سألني : « الا تعتقدين ان قصر غايتسهيد موطن بارع الجمال ؟ الا تحمدين الله حمدا كثيرا على ما اتاح لك من نعمة العيش في مثل هذا البيت الرائع ؟ »

ـ « انه ليس بيتي ، يا سيدي · وآبوت تقول ان حقي في العيش هنا اقل من حق خادمة » ·

ـ « بوه ! انك لا يمكن ان تكوني من السخف بحيث تتمنين مغادرة مثل هذا البيت البهي ؟ »

ـ « لو كان لي بيت اخر افزع اليه اذن لكان خليقا بي ان ابتهج

بمغادرة هذا القصر • ولكني لن أوفق الى الرحيل عن غايتسهيد حتى ابلغ مبلغ النساء » •

ـ « لعلك ان توفقي •• من يدري ؟ الك انسباء اخرون غير مسز ريد؟»

ـ « لست اظن ذلك ، ياسيدي » •

ـ اليس لك عمومة او ابناء عمومة ؟ »

ـ « لست ادري • لقد سألت مسز ريد ، مرة ، فكان جوابها ان من الجائز ان يكون لي انسباء فقراء حقيرون يدعون باسم « ايير » ولكنها لم تكن تعرف عنهم اي شيء » •

ـ « لو صح ان لك مثل هؤلاء الانسباء فهل تحدثك نفسك في المضي اليهم ؟ »

ورحت افكر • ان الفقر ليبدو في اعين الكبار كالح الوجه بشعا ، ولكنه في اعين الاطفال اشد كلوحا واعظم بشاعة : فالاطفال لا يفهمون ما قد ندعوه الفقر الكادح ، العامل ، ذا المظهر اللائق او المقبول • انهم لا يتصورون هذه الكلمة الا مقرونة بالاسمال البالية ، والطعام النزر ، والمواقد التي لا نار فيها ، والمسالك الشرسة ، والرذائل التي تحط من قدر اصحابها • ومن هنا كان الفقر عندي مرادفا للخزي •

واجبت : « لا • انا لا احب ان احيا مع اناس فقراء » •

ـ « حتى ولو عاملوك بلطف واحسان ؟ »

فهززت برأسي • فلم يكن في وسعي ان افهم كيف يستطيع الفقراء ان يصطنعوا اللطف والاحسان • وفوق هذا فالحياة مع الفقراء تقتضيني ان اتعود الكلام مثلهم ، ان اقتبس عاداتهم ، ان احرم التربية والثقافة ، ان انشأ مثل واحدة من النسوة الفقيرات اللواتي كنت اراهنّ احيانا يرضعن اطفالهن او يغسلن ثيابهن لدى ابواب الاكواخ في قرية غايتسهيد • لا ، انا لا املك من البطولة ما يجعلني اشتري الحرية بهذا الثمن الباهظ : الذل والهوان •

ـ « وهل هم فقراء الى هذه الدرجة ؟ هل ينتسبون الى طبقة العمال ؟»

ـ « لا استطيع ان اجيب على وجه الضبط • ان امرأة خالي ، « ريد »، تقول : اذا كان لي انسباء فلا ريب في انهم جمهرة من الشحاذين • ولست احب ان اضرب في الارض مستندية اكف المحسنين » •

ـ « اتحبين ان تذهبي الى المدرسة ؟ »

واستغرقت في التفكير كرة اخرى • كنت لا أكاد اعرف ما المدرسة • فقد كانت بيسي تتحدث عنها في بعض الاحيان بوصفها مكانا تجلس فيه السيدات الصغيرات على مقاعد شبيهة بالادهاق * ، ويحملن على ظهورهن الواحا خشبية صغيرة ابتغاء تقويم جلستهن ، مكانا يفترض في نزيلاته ان

* stocks ، جمع دهق ، وهو كناية عن خشبتين يضيق بهما على سيقان المذنبين .

يكنَّ في غاية الاناقة والدقة • كان جون ريد يمقت مدرسته ويشتم استاذه ، ولكن ذوق جون ريد لم يكن عندي قاعدة واجبة الاتباع • واذا كانت روايات بيسي عن النظام المدرسي القاسي (وهي روايات جمعتها من افواه فتيات احدى الاسر العريقة التي عملت في خدمتها قبل وفودها الى غايتسهيد) اقول اذا كانت هذه الروايات مرعبة بعض الشيء ، فقد بدا من ناحية ثانية ان احاديثها عن البراعات التي اكتسبتها هاتيك الفتيات انفسهن ، وخاصة في حقل الحياة الاجتماعية ، كانت مغرية على قدر متكافىء • كانت بيسي تظهر اعتزازها باللوحات الزيتية الجميلة التي رسمتها انامله‍ن ، وهي لوحات تمثل مشاهد طبيعية وازهارا ، وبالاغاني التي كان في ميسورهن ان يغنينها ، والقطع الموسيقية التي كن قادرات على عزفها ، والجزادين التي كان في امكانهن ان يحبكنها ، والكتب الفرنسية التي استطعن ان يترجمنها ، حتى لقد اغريت فيما كنت استمع الى حديثها بان احاول منافستهن في ذلك • اضف الى هذا ان المدرسة كان خليقا بها ان تعني ، بالنسبة الي ، تغييرا جذريا : فقد كانت تنطوي على رحلة طويلة ، وعلى انفصال كامل عن غايتسهيد ، وعلى شروع في حياة جديدة •

وكانت النتيجة المسموعة لاستغراقي في التفكير قولي : « يخيل الي ، في الحق ، اني اتمنى لو اذهب الى المدرسة » •

فقال مستر لويد وهو ينهض : « حسن ، حسن ، من ذا الذي يدري ما قد يحدث » • ثم اضاف مخاطبا نفسه : ان الطفلة لفي حاجة الى تغيير الهواء والبيئة • فأعصابها ليست في حالة جيدة » •

ورجعت بيسي • وفي اللحظة نفسها سُمعت العربة تدرج على حصباء المجاز •

وسألها مستر لويد : « أهذه مولاتك ، ايتها الحاضنة ؟ اني لاحب ان اتحدث اليها قبل ان امضي لسبيلي » •

ودعته بيسي الى المضي نحو حجرة الفطور ، وتقدمته اليها • وفي المقابلة التي جرت بعد ذلك بينه وبين مسز ريد غامر الصيدلي ـ على ما بدا لي من بعض احداث الايام التالية ـ فأوصى السيدة بارسالي الى المدرسة ، فتقبلت وصيته هذه قبولا حسنا ، من غير ريب ، بدليل اني سمعت آبوت تقول ، فيما كانت تتحدث مع بيسي في هذا الموضوع بينا كانتا تخيطان في حجرة الاطفال، ذات ليلة ، بعد ان اويت انا الى فراشي وخيل اليهما اني مستغرقة في النوم : « لقد ابتهجت مولاتي ابتهاجا غير يسير بهذه الفكرة ، لما تتيحه لها من تخلص من مثل تلك الطفلة المتعبة القليلة التهذيب ، التي تبدو ابدا وكأنها ترقب الناس جميعا ، وتحوك المؤامرات في الخفاء » • ويخيل الي ان آبوت اعتبرتني ، في وصفها هذا ، نسخة طفلية عن « غاي فوكس » *

---

* Guy Fawkes متآمر انكليزي (١٥٧٠ ـ ١٦٠٦) وضع مؤامرة لنسف الملك والبرلمان •

وفي تلك المناسبة نفسها عرفت ، للمرة الاولى ، مما افضت به مس آبوت الى بيسي ، ان ابي كان قسا فقيرا ، وان امي كانت قد تزوجت منه مخالفة في ذلك رغبات اصدقائها الذين اعتبروا انها اختارت لنفسها زوجا ليس لها بكفؤ ، وان تمردها اثار غضب جدي الى حـــد حمله على ان يحرمها في وصيته من وراثة شلن واحد ، وانه لم تكد تنقضي سنة واحدة على زواجها من ذلك القس، ابي ، حتى اصيب بالتيفوس بينا كان يقوم بزيارة الفقراء في مدينة صناعية كبرى كانت مقر خورنيته ، مدينة كان ذلك الداء قد تفشى آنذاك فيها ، وان امي ما لبثت ان اصيبت هي الاخرى بالتيفوس ، بعد ان اعداها ابي ، وانهما ماتا كلاهما اخر الامر في موعدين متقاربين ليس يفصل ما بينهما غير شهر واحد ٠

وحين سمعت بيسي هذه القصة تنهدت وقالت : « ومس جين المسكينة جديرة بأن يرثى لحالها ، ايضا ، يا آبوت » ٠

فأجابت آبوت : « لو كانت طفلة مهذبة جميلة اذن لكان في يتمها ما يثير الشفقة في نفس المرء ٠ ولكن المرء لا يستطيع ، في الحق ، أن يَكْلَف بضفدعة صغيرة مثلها » ٠

فاقرتها بيسي على ذلك قائلة : « اجـــل ، ليس في استطاعة المرء ان يكلف بمثلها كثيرا ٠ ذلك أمر لا ريب فيه ٠ وعلى اية حال ، فان فتاة بارعة الجمال مثل مس جورجيانا خليق بها ان تكون اقدر على انتــزاع العطف لو اكتنفتها ظروف مماثلة » ٠

فصاحت آبوت الغيور : « اجل ، انا متيمة بمس جورجيانا ! جورجيانا الحبيبة الصغيرة ، بشعرها الاجعد الطويـــــل ، وعينيها الزرقاوين ، وذلك اللون العذب الذي تزهو به بشرتها ٠ لكانها لوحة رسمتهـــا ريشة فنـان ! بيسي ، أنا أشتهي أن أتعشى الليلة أرنبا من ارانب ويلز ٠ »

ـ « وكذلك انا ٠ ارنبا مع بصل مشوي ٠ هيا . فلننزل ٠ »

وغادرتا الحجرة ٠

٤

من حديثي مع مستر لويد ، ومــن الحوار الذي دار بين بيسي وآبوت والذي اوردته في الفصل السابق انتزعت مقدارا من الامل كافيا لحملي على تمني الشفاء والسعي بسبيله ٠ لقد تراءى لي ان الايام القريبة التالية سوف تجود علي بتغير محمود ، فاخذني الشوق الى ذلك ورحت انتظره في صمت ٠ بيد انه تباطأ ٠ فقد تصرمت ايام واسابيع ، واستعدت عافيتي ، ولكن ايما تلميح جديد الى الموضوع الذي كنت اطيل التفكير فيه لم يصدر عن احد من سكان القصر ٠ كانت مسز ريد تنعم النظر الي ، في بعض الاحيـان ، بعين قاسية ولكنها نادرا ما كانت توجه الخطاب الي ٠ كانت منـذ مرضتي قـــد

جعلت الخط الفاصل بيني وبين اولادها اعرض واعمق منه في ايما وقت مضى • لقد افردت لي حجرة ضيقة انام فيها متوحدة واصدرت حكمها علي بان اتناول الطعام على انفراد ، وان اقضي وقتي كله في حجرة الاطفال ، على حين كان اولاد خالي لا يكادون يفارقون حجرة الاستقبال • وايا ما كان ، فإنها لم تلمع ولو الماعة يسيرة الى موضوع إرسالي الى المدرسة • ومع ذلك فقد خامرني يقين غرزي انها لن تحتمل بقائي معها ، فترة طويلة ، تحت سقف واحد • ذلك بان نظراتها انتهت الان الى ان تصبح ، كلما وجهت الي ، حافلة بمقت لم تعرف مثله من قبل مناعة وعمق جذور •

واخذت اليزا وجورجيانا تقتصدان في حديثهما معي جهد الطاقة ، وكان واضحا انهما انما تلقتا الامر بذلك من أمهما • وراح جون يتهكم علي كلما رآني ، ولقد حاول ذات مرة ان يعاقبني بالضرب ، حتى اذا انقضضت عليه في الحال ـ يحدوني الغيظ العميق والتمرد اليائس نفسهما اللذان اثاراني من قبل ـ وجد ان من الخير له ان يحجم عما همّ به وانشأ يعدو مطلقا اللعنات ، مقسما انني قد هشمت انفه • والحق اني كنت قد سددت الى انفه البارز ذاك ضربة افرغت فيها كل ما في جُمع كفي من قوة • وحين رأيت ان هذه الضربة ، او نظرتي الضارية ، قد ارعبته ، مالت نفسي اعظم الميل الى اللحاق به والافادة الى ابعد حد من الضعف الذي تكشف عنه ، ولكنه كان قد امسى الان بين يدي امه • وسمعته وقد بدأ يقص عليها ، في صوت ناشج ، كيف وثبت « جين ايير القذرة » عليه مثل قطة مسعورة • ولكن امه صدته عن سبيله في شيء من القسوة : ـ « لا تتحدث الي عنها يا جون • لقد قلت لك ان لا تدنو منها • انها غير جديرة بان يلتفت المرء اليها • انا لا اريد إن اراك أو ان ارى شقيقتيك تعاشرونها • »

عندئذ صحت فجأة ، وقد اتكأت على درابزون السلم ، من غير ان افكر في كلماتي اقل تفكير :

ـ « انهم ليسوا اهلا لمعاشرتي • »

كانت مسز ريد امرأة ضخمة هي الى البدانة اقرب منها الى الهزال ، ولكنها ما ان سمعت هذا الاعلان الغريب الوقح حتى راحت ترتقي السلم في خفة ، وجرفتني في عنف ، وكأنها زوبعة ، الى حجرة الاطفال ، ثم طرحتني على حافة سريري ، وتحدتني في صوت جازم ان انهض من ذلك الموضع او انطق بمقطع من كلمة بقية ساعات النهار بطولها •

ـ « اي شيء كان خليقا بخالي ريد ان يقوله لك لو كان حيا يرزق ؟ ذلك كان سؤالي الذي انطلق من بين شفتيَّ على نحو كاد ان يكون غير ارادي • اقول : « كاد ان يكون غير ارادي » لان لساني ، في ما بدا لي ، نطق بتلك الكلمات من غير ان توافق ارادتي على ارسالها • كانت قوة ما ، ليس لي عليها اي سلطان ، هي التي اتخذت من لساني وسيلة للتعبير •

وقالت مسز ريد في همس : « ماذا ؟ » وفجاة بدت عيناها الرماديتان

وكأن شيئا كالخوف قد عكر عليهما هدوءهما واطمئنانهما المألوفين . وافلتت ذراعي ، وحدقت الي وكأنها لم تدر ، حقا ، أطفلة انا أم عفريتة . ولكني كنت الان قد تورطت .

ـ « ان خالي ريد هو الان في السماء ، وانه لقادر على ان يرى كل ما تفعلينه وتفكرين فيه . وكذلك شأن ابي وأمي . انهم يعرفون كيف حبستني طوال النهار ، وكيف تتمنين لي الموت . »

وسرعان ما استعادت مسز ريد شجاعتها ، فهزتني اعنف ما يكون الهز ، ولطمتني على اذني الاثنتين ، ثم تركتني من غير ان تنبس ببنت شفة . فما كان من بيسي الا ان ملأت ذلك الفراغ بموعظة طويلة استغرقت ساعة اثبتت فيها بما لا يحتمل الشك اني طفلة شريرة لم يُظِل اي سقف من السقوف اردأ منها ولا أعرق في الفساد . وصدقتها بعض الشيء، ذلك بأني في الواقع لم أكن احس بغير المشاعر الطالحة تصطخب في صدري .

وتصرم تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الاول (ديسمبر) ونصف كانون الثاني (يناير) . واحتُفل بعيدي الميلاد ورأس السنة في قصر غايتسهيد بمثل الابتهاج الغامر الذي تعودت الاسرة ان تستقبل به هذين العيدين كل عام . وكانت الهدايا قد تبودلت ، والموائد قد اقيمت ، والسهرات قد إحييت . وكنت قد اقصيت ، طبعا ، عن كل من تلك المباهج : ان نصيبي من الاستمتاع اقتصر على مشاهدة اليزا وجورجيانا تتخذان زينتهما كل يوم ، ورؤيتهما تهبطان الى حجرة الاستقبال ، رافلتين بفستانين حريريين رقيقين وزنارين قرمزيين ، وقد عُقص شعرهما حلقاتٍ حلقاتٍ في عناية بالغة ، ثم على الاستماع الى البيانو او القيثار يُعزف عليهما في الدور الارضي ، وعلى تأمل الساقي والخادم وهما يذرعان المكان جيئة وذهوبا ، وعلى الاصاخة الى اصطفاق الانية الزجاجية والخزفية عند تقديم المرطبات والى همهمة الحديث المتقطعة كلما فتحت ابواب حجرة الاستقبال واوصدت . حتى اذا مللت هذه المهمة انسحبت من قمة السلم الى حجرة الاطفال المعزولة الصامتة ، وهناك لم اكن استشعر ، رغم ما كان يلم بي من حزن طفيف ، اني بائسة . والحق انني ما كنت اهفو الى الاختلاط بالقوم قط ، اذ كان وجودي الى جانبهم لا يلفت انظارهم نحوي الا نادرا . ولو كانت بيسي دمثة الخلق حلوة المعاشرة اذن لاعتبرت قضاء السهرة معها ، في هدوء ، متعة من المتع ، ولآثرت ذلك على قضائها تحت ناظري مسز ريد الرهيبين في حجرة تغص بالسيدات والرجال . ولكن بيسي كانت لا تكاد تتم الباس سيدتيها الصغيرتين حتى تهرع الى المطبخ والى حجرة مدبرة المنزل ـ وهما موطنان حافلان بالحيوية والنشاط ـ حاملة معها الشمعة عادة . وهكذا قعدت ، عندئذ ، ووضعت دميتي على ركبتي ، حتى اخذت نار الموقد في الخمود ، مجيلة الطرف في ما حولي ، بين الفينة والفينة ، لكي استيقن ان الحجرة المظلمة لا تنطوي على احد غيري . وحين خبا

وهج الجمرات خلعت ثيابي في سرعة ، ناثرة العقد والخيوط كيفما اتفق ، وفزعت الى سريري الصغير اتقي فيه البرد والظلام • والى هذا السرير كنت احمل دميتي دائما ، فالكائنات البشرية يجب ان تحب شيئا ما ، واذ عدمت ما هو اجدر بحبي فقد بذلت غاية الجهد لكي اجد متعة ما في حب هذه اللعبة الناصلة ، الوسخة مثل نطار * قزم • ويذهلني الان ان اتذكر بأي اخلاص سخيف تدلهت بتلك الدمية الصغيرة متصورة ، او اكاد ، انها ذات حياة وقادرة على الاحساس • كانت عيناي لا تعرفان الغمض الا اذا دثرتها بقميص نومي • حتى اذا اضطجعت هناك آمنة دافئة استشعرت بعض السعادة ، متوهمة انها سعيدة هي الاخرى •

وبدت الساعة التي انتظرت ، خلالها ، انصراف الضيوف طويلة الى أبعد الحدود ، وأصغيت الى وقع قدمي بيسي على السلم • فقد كانت احيانا تصعد الى الدور العلوي ، اثناء فاصل ما ، لكي تبحث عن كشتبانها او عن مقصها ، او ربما لكي تحمل الي على سبيل العشاء ـ كعكة منطوية على فاكهة مجففة او قطعة كاتو بالجبن ـ ثم تجلس على السرير ريثما آكلها • حتى اذا فرغت من ذلك احكمت تغطيتي بالبطانية وطبعت على جبيني قبلتين وقالت : « طابت ليلتك ، يا مس جين • » والحق ان بيسي كانت تبدو في عيني ، كلما اصطنعت اللطف على هذا النحو ، خير المخلوقات كلها واجملها واكرمها نفسا • وكنت اتمنى ، في كثير من الحرارة ، لو تأخذ دائما باسباب المودة واللطف ، ولو تقلع عن دفعي في قسوة وعنف ، او عن انتهاري او عن توبيخي لغير ما سبب كما كان من دأبها ان تفعل • ويخيل الي ان « بيسي لي » كانت ، من غير ريب ، فتاة ذات مقدرة فطرية غير يسيرة ، اذ كانت تجيد كل ما تنهض به من عمل ، وتتمتع بموهبة رائعة في رواية الحكايات ، او هذا على الاقل ما استنتجته من الانطباعة التي خلفتها في نفسي حكاياتها في حجرة الاطفال • وكانت وسيمة ايضا ، اذا صحت الصورة التي اتمثلها الان لوجهها وجسمها • اني اراها بعيني ذاكرتي شابة ممشوقة القوام ذات شعر اسود ، وعينين داكنتين ، وقسمات فاتنة ، وبشرة رقيقة صافية • ولكنها كانت نزقة متقلبة الاطوار سريعة الانفعال ذات آراء تنم عن اللامبالاة بكل ما يتصل بالعدالة او بالمبدأ • ومع ذلك فقد آثرتها ، على علاتها هذه ، على ايما امرىء آخر في قصر غايتسهيد •

نحن الان في اليوم الخامس عشر من كانون الثاني (يناير) ، حوالي الساعة التاسعة صباحا • كانت بيسي قد هبطت الى الدور الادنى لتناول طعام الصباح ، وكان اولاد خالي قد دعوا للمثول بين يدي امهم ، وكانت اليزا منهمكة في الاعتمار بطاقيتها وارتداء معطفها الثقيل ، المخصص لفترة العمل في الحديقة ، لكي تلقي الحب الى الدجاج ، وهي مهمة كانت بها مولعة •

---

* النطار : (بضم النون) الخيال المنصوب بين الزرع •

ولم يكن ولوعها هذا ، على اية حال ، باعظم من ولوعها ببيع البيض لمدبرة شؤون المنزل وادخار المال الذي تكسبه على هذا النحو • كانت ذات ميل الى المتاجرة ، ونزوع خاص الى التوفير والاقتصاد • ولم يتجل ذلك ببيع البيض والدجاج فحسب بل بالمساومات المتطاولة التي تجريها مع الجنائني حول جذور الازهار وبذورها وشتلاتها ، بعد ان اصدرت مسز ريد اوامرها الى هذا الخادم بأن يشتري من تلك السيدة الصغيرة كل ما رغبت في بيعه من نتاج حديقتها الصغيرة • ولقد كانت اليزا لا تجد غضاضة في بيع شعر رأسها اذا ما عاد عليها ذلك بربح حسن • اما اموالها فكان من دأبها بادىء الامر ان تخبئها في هذه الزاوية او تلك ، او تلفها فيخرقة بالية او في قصاصة عتيقة من الورق الخاص بعقص الشعر وتجعيده • حتى اذا اكتشفت مدبرة المنزل هذه المدخرات خشيت اليزا ان تخسر كنزها النفيس في يوم من الايام ، فوافقت على ايداعه خزانة امها متقاضية على هذه الوديعة ربا فاحشا ـ خمسين في المئة او ستين في المئة ـ وهو ربا كانت تأخذه عنوة مرة كل ثلاثة اشهر ، مدونة حساباتها في سجل صغير بدقة لاهفة •

وكانت جورجيانا قاعدة على كرسي عال لا ظهر له تسرح شعرها امام المرآة ، شابكة في خصلاته المعقوصة زهورا صناعية وريشا ناصلا كانت قد عثرت على ذخيرة منه في درج من ادراج العلية •وكنت انا أرتب سريري بعد ان تلقيت من بيسي اوامر صارمة بانجاز هذه المهمة قبل عودتها (ذلك بان بيسي كانت قد شرعت الان تستخدمني ، بين الفينة والفينة ، كحاضنة مساعدة ، فتعهد الي في تنظيف الغرفة وترتيبها ونفض الغبار عن الكراسي الخ •) حتى اذا بسطت اللحاف وطويت قميص نومي تقدمت نحو المقعد المجاور للنافذة لارتب بعض كتب الصور واثاث منزل اللعبة المتناثر هناك • ولكن امرا مفاجئا من جورجيانا بان أدع لعبها وشأنها (فقد كانت الكراسي والمرايا الصغيرة ، والاطباق والكؤوس الجنية ملكا لها) صدني عما كنت بسبيله • واذ لم تكن لدي اية مهمة اخرى اخذت انفخ على « زهرات الصقيع » التي كانت تكتنف النافذة ، وبذلك جعلت جزءا من زجاجها شفافا اطل منه على حديقة القصر ، حيث كان كل شيء ساكنا متحجرا تحت وطأة صقيع قاس •

كانت هذه النافذة تطل على كوخ البواب وطريق العربات • ولم اكد ازيح جانبا من الحجاب الفضي الابيض المسدل على الالواح الزجاجية حتى رأيت الباب يفتح على مصراعيه وعربة تدرج من خلاله • وفي لامبالاة رحت اراقبها وهي تصعّد في المجاز • فقد كانت العربات كثيرا ما تفد على قصر غايتسهيد ، ولكن ايا منها لم تحمل قط زائرين يمكن ان يثيروا اهتمامي • ووقفت العربة ازاء المنزل ، ورن جرس الباب رنينا صارخا ، وادخل الوافد الجديد • واذ لم يعن ذلك كله شيئا عندي فان انتباهي الخلي ما لبث ان وجد متعة أحفل بالحيوية في مشهد هزار (أو ابي حناء) صغير جائع أقبل يغرد على افنان شجرة كرز عريت من اوراقها ، شجرة كرز مسمَّرة الى الجدار قرب

النافذة . وكانت بقايا فطوري المؤلف من الخبز والحليب مطروحة على المائدة، فانقلبت اليها ورحت افتت كسرة من خبز . وفيما كنت انتر مصراع النافذة الزجاجي لكي اضع الفتات على عتبة النافذة الخارجية صعدت بيسي السلم وثبا ودخلت على حجرة الاولاد قائلة : « مس جين ، اخلعي مئزرك ! ما الذي تفعلينه هناك ؟ هل غسلت يديك ووجهك هذا الصباح ؟ »

ونترت المصراع نترة اخرى قبل ان اجيب ، ذلك باني اردت ان ارى الهزار وقد فاز بخبزه . وارتفع المصراع بعد لأي ، ونثرت الفتات للهزار ــ فاما بعضه فعلى العتبة الحجرية واما بعضه الاخر فعلى غصن شجرة الكرز الرئيسي ــ ثم اغلقت النافذة واجبت : « لا ، يا بيسي ، لقد فرغت اللحظة من نفض الغبار . »

ــ « اية فتاة متعبة مهملة انت ! ما الذي تفعلينه هنا ؟ ان الدم ليشيع في وجهك وكأنك على وشك ان تقترفي حماقة ما . لاي سبب كنت تفتحين النافذة ؟ »

وكُفيت مؤونة الاجابة ، ذلك بان بيسي كانت عجلى على نحو بالغ لا يجيز لها الاستماع الى اي تفسير . لقد جرتني الى المغسلة وراحت تفرك وجهي ويدي ، على نحو لا يرحم ولكنه لحسن الطالع موجز ، بالصابون والماء وبمنشفة خشنة . وسوت شعري بفرشاة قاسية ، وجردتني من مئزري ، ثم دفعتني امامها الى اعلى السلم ، وامرتني بان اهبطها في الحال ، اذ ثمة من ينتظرني في حجرة الفطور .

وكنت اود ان اسأل من الذي ينتظرني ؟ واسأل هل كانت مسز ريد هناك ؟ ولكن بيسي كانت قد انصرفت ، وكانت قد اوصدت باب حجرة الاولاد خلفي . وهبطت السلم في اناة . فمنذ ثلاثة أشهر تقريبا لم أُدعَ للمثول بين يدي مسز ريد . وكان في اقامتي الجبرية ، فترة غير يسيرة ، في حجرة الاطفال ، ما جعل حجرة الفطور وحجرة الغداء وحجرة الاستقبال مواطن رهيبة عندي ، مواطن يوقع الدخول اليها رعدة في اوصالي كلها .

وانتهيت الى الرواق الخالي . كان باب حجرة الفطور تجاهي ، ووقفت ثمة مرتجفة مخلوعة الفؤاد . اي جبانة صغيرة بائسة كان الخوف ــ الناشيء عن العقوبة الظالمة ــ قد جعل مني في تلك الايام ! لقد خفت ان ارجع الى حجرة الاولاد ، وخفت ان امضي قدما الى حجرة الاستقبال . وانفقت عشر دقائق واقفة يتجاذبني تردد منفعل . ولكن رنين جرس غرفة الفطور العنيف وضع حدا لترددي : لقد تعين علي ان ادخل .

وسألت نفسي فيما كنت ادير بيديَّ مقبض الباب القاسي الذي قاوم جهودي ثانية او ثانيتين : « من عساه يرغب في رؤيتي ؟ ومن الذي سوف يقدَّر لي أن اراه ، بالاضافة الى امرأة خالي ريد ، في الحجرة ؟ أرجل هو أم امرأة ؟ » ودار المقبض ، وانفتح الباب ، ودخلت محيية بانحناءه مغالى فيها . ولم اكد ارفع رأسي حتى وقعت عيناي على ... عمود اسود ! هكذا

على الاقل بدا لي ذلك الشكل المستقيم ، الضيق ، المتشح بالسواد ، المنتصب على السجادة • كان الوجه الكالح الذي في اعلى ذلـك العمود اشبه بقنـاع منحوت ، وضع هناك ليقوم منه مقام التاج •

كانت مسز ريد تشغل مقعدها المألوف الىجانب نار المستوقد • واومات الي ان أدنو • ودنوت ، فقدمتني الى الشكل الغريب الجامد كالتمثال : « هذه هي الفتاة الصغيرة التي طلبت مساعدتك بشانها • »

وادار الرجل رأسه في اناة ــ فقد كان صاحب ذلك الشكل رجلا ــ الى حيث كنت واقفة ، حتى اذا انعم النظر فيَّ بعينيه الفضوليتين الرماديتيـن اللتين تألقتا تحت حاجبين اثيثين قال في وِقار بصوت خفيض : « انها قصيرة القامة • ما عمرها ؟ »

ــ « عشر سنوات • »

فكان الجواب المثقل بالشك : « عشر سنوات ؟ » وأطال تأمله فيَّ بضـع دقائق • وسرعان ما وجه الي الخطاب التالي قائلا : « ما اسمك ايتها الفتـاة الصغيرة ؟ »

ــ « جين ايير ، يا سيدي • »

ورفعت بصري وانا انطق بهذه الكلمات • لقد بدا لي رجلا فارع الطـول ، ولكن ينبغي ان لا ننسى انني كنت آنذاك ضئيلة الجسم الى حد بعيد • كانت قسمات وجهه ضخمة ، وكانت هي وجميع خطوط جسمه قاسية ودقيقة •

ــ « حسنا ، يا جين ايير ، وهل انت فتاة عاقلة ؟ »

واذ كان من المتعذر علي ان اجيب عن هذا السؤال بالايجاب ــ بسبب مـن ان عالمي الصغير كان له في ذلك رأي مخالف ــ فقـد اعتصمت بالصمت • واجابت مسز ريد نيابة عني بهزة من رأسها ذات مغزى لتضيف في الحـال قائلة : « يخيل الي انه كلما اختصرنا في الكلام على هذا الموضوع كان ذلك خيرا وابقى ، يا مسز بروكلهوزست • »

ــ « انا آسف حقا لسماع ذلك ! ولكن من واجبي ان اتحدث اليهـا حديثا مـــا • »

ــ « وانحنى عن خطه العمودي واستوى على الكرسي ذي الذراعين ، قبالة مسز ريد ، وقال لي : « تعالي الى هنا • »

وخطوت عبر السجادة ، فاوقفني امامه وجها لوجه • ويا لذلك الوجه الذي كان له ، بعد ان امسى في مستوى بصري تقريبا ! اي أنف ضخم ! اي وجـه ! اية اسنان كبيرة ناتئة !

واستهل حديثه بالقول : « ليس ثمة مشهد ادعى الى الحزن من طفـل مشاغب ماكر ، وبخاصة اذا كان هذا المشاغب الماكر بنتا صغيرة • هل تعلمين الى اين يذهب الاشرار بعد الموت ؟ »

فكان جوابي المباشر المنسجم مع المعتقد الديني : « انهم يذهبون الـى جهنـــم • »

ـ « وما هي جهنم ؟ هل تستطيعين ان تقولي لي ما هي ؟ »
ـ « هاوية ملأى بالنار · »
ـ « وهل تحبين ان تسقطي في تلك الهاوية ، وان تحترقي هناك الى الابد ؟ »
ـ « لا ، يا سيدي · »
ـ « وما الذي يتعين عليك ان تفعليه لتلافي ذلك ؟ »
رفكرت لحظة · وكان جوابي ، حين وفقت الى الاجابة ، موضع اعتراض : « يجب ان احتفظ بعافيتي وان لا اموت · »
ـ « ولكن انى لك ان تحتفظي بعافيتك ؟ ان الموت يخطف كل يوم أطفالا اصغر منك سنا · ولقد دفنت منذ يوم او يومين ليس غير طفلا صغيرا في الخامسة ـ طفلا صغيرا صالحا تقيم روحه الإن في السماء · والذي اخشاه ان لا يكون في مقدوري أن أقول الشيء نفسه عنك لو توفاك الله اليه · »
واذ كنت في حال لا تساعدني على تبديد شكوكه فقد اجتزأت بخفض بصري الى القدمين الضخمتين المسمرتين الى السجادة ، وتنهدت ، متمنية لو كنت بعيدة عن ذلك المكان ·
ـ « ارجو ان تكون زفرتك هذه صادرة من القلب ، وان تكوني قد ندمت على ما سببت لولية نعمتك الكريمة من ازعاج · »
فقلت في ما بيني وبين نفسي : « ولية نعمتي ! ولية نعمتي ! انهم كلهم يدعون مسز ريد ولية نعمتي · اذا صح ذلك فعندئذ تكون ولية النعمة شيئا مقيتا · »
فاردف مستجوبي قائلا : « هل ترددين صلواتك صباحا ومساء ؟ »
ـ « نعم ، يا سيدي · »
ـ «هل تقرأين الكتاب المقدس ؟ »
ـ « في بعض الاحيان · »
ـ « بمتعة ؟ هل انت مولعة به ؟ »
ـ « انا احب سفر الرؤيا ، وسفر دانيال ، وسفر التكوين ، وسفر صموئيل ، وقليلا من سفر الخروج ، وبعض اقسام من سفر الملوك ، وسفر الاخبار ، وسفر ايوب ، وسفر يونان · »
ـ « والمزامير ؟ ارجو ان تكوني تحبينها · »
ـ « لا ، يا سيدي · »
ـ « لا ؟ ولكن هذا رهيب ! ان لي ولدا صغيرا ، اصغر منك ، حفظ ستة من المزامير عن ظهر قلب · واذا سأله المرء ايا تفضل : ان تلتهم قطعة من حلوى الزنجبيل مع البندق او ان تحفظ بيتا من أحد المزامير ؟ أجاب : « أوه ! ان احفظ بيتا من مزمور ! الملائكة تتغنى بالمزامير · وأنا اتمنى ان اكون ملاكا صغيرا هنا على الارض · » وعندئذ يفوز بقطعتين من حلوى الزنجبيل جزاء تقواه الطفلية هذه · »

فلاحظت : « المزامير غير ماتعة » .

ـ « هذا يثبت ان لك قلبا شريرا ، وان عليك ان تصلي داعية الله ان يغير قلبك هذا ، ان يمنحك قلبا جديدا طاهرا ، ان يجردك من قلبك الذي قدّ من صخر ، ويهبك قلبا من لحم ! »

وكنت على وشك ان اطرح سؤالا يمس الطريقة التي كان مفروضا في عملية تغيير قلبي هذه ان تتم بها ، عندما اقحمت مسز ريد انفها في الحوار طالبة الي ان اجلس . ثم اردفت ناهضة بنفسها بعبء الحديث :

ـ « اعتقد ، يا مستر بروكلهورست ، انني المعت في الرسالة التي كتبتها اليك منذ ثلاثة اسابيع الى ان هذه الفتاة الصغيرة لا تتمتع بالخلق القويم والنزعة الصالحة اللذين كنت اتمناهما لها ، فاذا ما ارتضيت ان تقبلها في مدرسة لوورد فثق اني اكون سعيدة اذا ما سئلت المديرة والمعلمات ان يراقبنها مراقبة شديدة ، وان يحترسن قبل كل شيء من عيبها الاسوأ اعني نزعتها الى الخداع . انا اذكر هذه الحقيقة على مسمع منك ، يا جين ، لكي لا تحاولي ان تحتالي على مستر بروكلهورست » .

كان طبيعيا ان ارهب مسز ريد وان لا احبها . ذلك بانها كانت مفطورة على جرحي في قسوة . فانا لا اذكر اني سعدت في ايما يوم من الايام في حضرتها . كنت مهما حرصت على طاعتها ومهما بذلت من جهد في سبيل ارضائها تقابل محاولاتي هذه بالصد وتكافئها بجمل من مثل التي نقلتها في الفقرة السابقة . أما وقد نطقت الآن بهذا الاتهام امام شخص غريب فقد استشعرت ان طعنتها نفذت الى قلبي نفسه ، وأدركت على نحو غامض انها كانت تسعى حتى في تلك اللحظة الى جعل مرحلة الحياة الجديدة التي قدرت لي هي نفسها ان ادخلها مرحلة يائسة لا يأتلق فيها ايما امل . واحسست ، برغم اني كنت اعجز من ان اعبر عن ذلك الاحساس ، بانها كانت تنثر بذور المقت والقسوة في طريقي المقبلة . لقد رأيت نفسي وقد حولت تحت بصر مستر بروكلهورست الى طفلة ماكرة بغيضة ، وما الذي استطيع ان افعله لمحو الاثر السيء الناشيء عن هذا الظلم ؟

وقلت في ذات نفسي ، وانا اناضل نكبت زفرة تريد ان تنطلق : « لا شيء ! لا شيء ! » وسارعت الى كفكفة بضع عبرات كانت بينات قوية على الالم المبرح الذي عصف بي .

فقال مستر بروكلهورست : « الخداع ، في الواقع ، عيب محزن في الاطفال . انه صنو الكذب . وجميع الكذابين سوف ينالون جزاءهم في البحيرة الملتهبة بالنار والكبريت . بيد انها سوف توضع تحت المراقبة ، يا مسز ريد . سوف احدث مسز تامبل والمعلمات في ذلك » .

فواصلت ولية نعمتي حديثها : « اني اتمنى ان تعمدوا الى تربيتها على نحو يتلاءم مع مركزها ووضعها الاجتماعي ، فتعلموها كيف تجعل من نفسها عنصرا نافعا وكيف تلزم جادة التواضع . اما العطل المدرسية فأرى ، بعد موافقتك طبعا ، ان تنفقها كلها في لوورد » .

فقال مستر بروكلهورست : « ان قراراتك لتنطوي على حكمة بالغة . ان الاتضاع فضيلة مسيحية ، وهي لائقة على نحو مخصوص بطالبات لووود . من اجل ذلك اصدرت اوامري بضرورة بذل اقصى الجهد لتنشئتهن على هذه الفضيلة . ولقد درست افضل السبل الى اماتة عاطفة الغرور الدنيوية في نفوسهن ، ولم اقع الا منذ ايام قلائل على برهان سار يثبت نجاحي . فقد مضت ابنتي الثانية ، اوغوستا ، مع والدتها لزيارة المدرسة ، حتى اذا رجعت من هناك هتفت : « اوه ، يا ابي العزيز ، كم تبدو فتيات لووود كلهن هادئات بسيطات . انهن بشعرهن المرجّل خلف آذانهن ، وبمئازرهن الطويلة ، وتلك الجيوب الهولندية الصغيرة التي في خارج جلابيبهن ليظهرن للرائي وكأنهن بنات الفقراء ! » ثم اضافت : « ولقد رحن ينظرن الى فستاني وفستان ماما وكأنهن لم يرين من قبل ثوبا حريريا قط » .

فقالت مسز ريد : « ذلك هو الوضع الذي اقره اقرارا كاملا . ولو انني طوفت في طول انكلترة وعرضها باحثة منقبة اذن لما وجدت نظاما تربويا اكثر ملاءمة لطفلة مثل جين ايير . الصرامة ، انا اوصي بالصرامة في كل شيء » .

ـ « الصرامة ، يا سيدتي ، هي رأس الواجبات المسيحية ، ولقد روعيت في كل تدبير متصل بمؤسسة لووود : طعام عادي ، لباس بسيط ، وتجهيزات غير معقدة ، وعادات قاسية ناشطة : تلك هي الحالة السائدة في المدرسة وبين نزيلاتها » .

ـ « حسن جدا ، يا سيدي . في استطاعتي ان اطمئن اذن الى ان هذه الطفلة سوف تسجل طالبة في لووود ، وانها سوف تدرب هناك تدريبا يتفق ومركزها وما ينتظرها من مستقبل ؟ »

ـ « في استطاعتك ان تطمئني الى ذلك ، يا سيدتي . انها سوف تدخل الى تلك المدرسة التي لا تحضن الا النباتات المختارة ، وانا واثق من انها سوف تتكشف عن اعظم الشكرلاختيارنا اياها دون غيرها ، وهو امتياز لا يقدر بمال » .

ـ « سوف ارسلها ، اذن ، على اسرع وجه ممكن يا مستر بروكلهورست . ذلك باني اشعر ، وفي استطاعتي ان اؤكد لك ذلك ،بالتوق الشديد الى التخفف من تبعة امست الان مرهقة اكثر مما ينبغي » .

ـ « من غير ريب ، من غير ريب ، يا سيدتي ، والان اتمنى لك نهارا سعيدا . سوف اعود الى « بروكلهورست هول » بعد اسبوع او اسبوعين . ان صديقي الطيب ، رئيس الشمامسة ، لن يجيز لي مفارقته قبل ذلك . ولسوف ابعث الى مسز تامبل بمذكرة تحيطها علما بأن فتاة جديدة سوف تفد على المدرسة عما قريب ، حتى لا يكتنف استقبالها صعوبة ما . الى اللقاء ! »

ـ « الى اللقاء ، يا مستر بروكلهورست . احمل تحياتي الى مسز ومس بروكلهورست ، والى اوغوستا وتيودور ، والى الاستاذ بروتون

بروكلهورست » :

ـ « سوف افعل ، يا سيدتي . اما انت ، ايتها الفتاة الصغيرة ، فدونك هذا الكتاب الموسوم بـ « مرشد الطفل » . اقرأيه مع الصلاة ، ولا سيما ذلك القسم الذي يشتمل على « قصة وفاة مرتا ج ... الرهيبة المفاجئة » ، ومارتا هذه طفلة شريرة انغمست في الكذب والخداع » .

قال مستر بروكلهورست هذه الكلمات ووضع في يدي كراسة رقيقة ذات غلاف مخيط ، وغادر المكان بعد ان قرع الجرس مستدعيا عربته .

وخُلفت انا ومسز ريد وحدنا . وتصرمت بضع دقائق في صمت . كانت مسز ريد تخيط ، وكنت انا اراقبها . ولعلها كانت آنذاك في السادسة والثلاثين من عمرها اوفي السابعة والثلاثين . كانت امرأة قوية البنية ، ذات كتفين مربعتين ، واوصال صلبة ، غير طويلة القامة ، وغير بدينة برغم ما يتصف به جسمها من امتلاء . كانت ذات وجه عريض بعض الشيء ، وكان فكها الاعلى ضخما جدا وصلبا جدا . وكانت ذات جبين منخفض ، وذقن عريضة بارزة ، وفم وأنف عاديين . وتحت حاجبيها الرقيقين التمعت عينان يعوزهما الحنان . كانت بشرتها داكنة معتمة ، وكان شعرها ضاربا الى الشقرة . اما جسمها فكان سليما مثل جرس ، ذلك بأن الامراض لم تقترب منها في أي يوم من الايام . وكانت مدبرة دقيقة بارعة ، يخضع كل من في بيتها وجميع مستأجري مزرعتها لسيطرتها الكاملة . وكان اطفالها هم وحدهم الذين يتحدون سلطتها في بعض الاحيان ، ويسخرون منها . كانت حسنة البزة ، وكانت سيماها ومشيتها تعززان اناقتها وتزيدانها وضوحا .

وفيما كنت جالسة على كرسي منخفض لا ظهر له ، على بضع ياردات من كرسيها ذي الذراعين ، رحت اتأمل وجهها واتصفح قسماته ، وكنت امسك في يدي تلك الكراسة الدينية المشتملة على حكاية موت الكاذبة الفجائي ، وهي الحكاية التي لُفت نظري اليها كما يلفت الى انذار ملائم . كان ما جرى منذ لحظة ، وما قالته مسز ريد بصددي لمستر بروكلهورست ، وكامل فحوى حديثهما ، اقول كان كل ذلك لا يزال جديدا ، طريا ، يلسع ذهني لسعا . كنت قد استشعرت كل كلمة في حدة لا تقل قوة عن الوضوح الذي سمعتها به ، فاذا بحنق شديد يعتمل في ذات نفسي .

ورفعت مسز ريد بصرها عن عملها ، واستقرت عينها على عيني ، وفي الوقت نفسه كفت اصابعها عن حركاتها الرشيقة .

واصدرت الي امرها : « اخرجي من الغرفة ! » فلا ريب ان نظرتي او شيئا اخر كانت قد آذتها وازعجتها ، ذلك بانها نطقت بتلك الكلمات في اهتياج بالغ ، ولكنه مكظوم . فنهضت ، ومضيت الى الباب ، ولكني ما لبثت ان عدت ادراجي : لقد مشيت عبر الحجرة الى النافذة ، ثم تقدمت حتى اصبحت على مقربة دانية من مسز ريد .

كان يتعين علي ان اتكلم ، فقد ديست كبريائي في قسوة ، وكان

يتعين علي ان أرد، ولكن كيف؟ وأي قوة كانت لي حتى أثأر من عدوتي؟ وأخيرا حشدت قواي كلها ، وقذفتها بها في هذه الجملة الفظة :

ـ « انا لست مخادعة • ولو قد كنت مخادعة اذن لقلت لك اني احبك • ولكني اعلن اني لا احبك : اني اكرهك اكثر مما اكره إيما امرىء في العالم باستثناء جون ريد • اما هذا الكتاب الذي يروي قصة « الكاذبة » ففي استطاعتك ان تقدميه الى ابنتك ، جورجيانا ، لانها هي التي تطلق الاكاذيب ، لا انا ! »

وظلت يدا مسز ريد جامدتين فوق عملها ، وظلت عينها الجليدية مستقرة على عيني استقرارا قارسا •

ـ « ما الذي تريدين ان تقوليه بعد ؟ » كذلك سألتني في جرس هو اشبه بذلك الذي يصطنعه المرء حين يخاطب خصما راشدا ، منه بذلك الذي يصطنع في مخاطبة طفل من الاطفال •

والواقع أن عينها تلك ، وصوتها ذاك أثارا في نفسي كل ما انطوت عليه من بغض ونفور • وارتعدت من قمة رأسي الى اخمص قدمي ، وعصف بي اهتياج ممتنع على الكبح ، فاردفت قائلة : « انا سعيدة لان ايما قرابة لا تشدني اليك ، واني لن ادعوك خالتي بعد اليوم ما دمت على قيد الحياة • انا لن اعود ، ابدالدهر ، لرؤيتك عندما اشب عن الطوق ، واذا ما سألني امرؤ هل احبك وكيف كنت تعاملينني فلسوف اقول له ان مجرد التفكير فيك يغريني بالتقيؤ ، وانك عاملتني في قسوة تثير الرثاء » •

ـ « كيف تجرؤين على توكيد ذلك ، يا جين ايير ؟ »

ـ « كيف أجرؤ ، يا مسز ريد ؟ كيف اجرؤ ؟ لان هذه هي الحقيقة • انت تحسبين اني مجردة من العواطف ، وان في استطاعتي ان احيا من غير ذرة من حب او حنان • لا ، انني لا استطيع ان احيا على هذا النحو ، وان قلبك خلو من الرحمة • سوف اتذكر ما دام فيّ عرق ينبض كيف دفعتني ـ كيف دفعتني في خشونة وغلظة ـ الى الحجرة الحمراء ، وحبستني هناك، على الرغم من الآلام المبرحة التي قاسيتها ، وعلى الرغم من اني صحت متوسلة اليك ، وانا اختنق بالكرب والضنك : « ارحميني ! ارحميني ايتها الخالة ريد ! » سوف اتذكر تلك العقوبة التي انزلتها بي لان ولدك الشرير ضربني ، لانه طرحني ارضا لغير ما سبب جنيته • سوف اروي هذه القصة بحذافيرها على مسمع كل من يسألني عنك • ان الناس يحسبون انك امرأة صالحة ، ولكنك رديئة ، قاسية الفؤاد • انت امرأة مخادعة ! »

وقبل آن انهي هذا الجواب انتعشت روحي وتهللت جذلة باغرب احساس بالحرية والنصر قد ر لي أن اعرفه ، لقد بدا وكان رباطا غير منظور قد انفصم ، واني قد اندفعت في سبيلي الى حرية لم اكن اتوقع الفوز بها • وما كان ذلك لغير ما سبب : فقد بدت مسز ريد مذعورة

مروعة ، وكان القماش الذي خاطته قد زل عن ركبتها ، وكانت ترفع يديها، مترنحة ذات اليمين وذات الشمال ، بل كانت تغضن قسمات وجهها وكأنها على وشك ان تسفح العبرات .

وقالت : « جين ، انت مخطئة . ماذا دهاك ؟ لماذا ترتعدين هـــذا الارتعاد العنيف كله ؟ هل ترغبين في قليل من الماء ؟ »

ـ « لا ، يا مسز ريد » .

ـ « هل ثمة شيء اخر ترغبين فيه ، يا جين ؟ اؤكد لك اني اود ان اكون صديقة لــك » .

ـ « هذا غير صحيح . لقد قلت لمستر بروكلهورســـت ان خلقي رديء ، واني نزاعة الى الخداع . ولسوف اعلم كل من في لووود بحقيقتك ، وبالذي فعلته بي . »

ـ « جين ، انت لا تفهمين هذه الامور : ان علينا ان نعاقب الاطفــال كلما ارتكبوا اثما » .

فصحت بصوت عال تغلب عليه الضراوة : « انا لم ارتكب اثمـــا ، والخداع ليس من خصالي » .

ـ « ولكنك سريعة الانفعال ، يا جين ، وهذا شيء يجــب ان تسلمي به . والان ، ارجعي الى حجرة الاطفال ، يا عزيزتي ، واضطجعي قليلا » .

ـ « انا لست عزيزتك . وليس في استطاعتي ان اضطجع . عجلي في ارسالي الى المدرسة ، يا مسز ريد ، فانا اكره ان احيا هنا » .

فغمغمت مسز ريد في همس : « سوف ارسلك الى المدرسة على جناح السرعة . ثقي من ذلك » .

ثم انها لملمت اشغالها ، وغادرت الحجرة على نحو مفاجيء .

وبقيت ثمة وحدي ، منتصرة في ميدان المعركة . كانت أعنف معركــة قدّر لي أن اخوضها ، وكان أول نصر أحـــرزته : لقد وقفت برهة قصيرة على السجادة ، حيث سبق لمستر بروكلهورست ان وقف ، ونعمت بعزلة الظافر . وبادىء الامر ، ابتسمت لنفسي ، واخذني الازدهاء والعجــب ، ولكن هذا الشعور الضاري ما لبث ان خمد في ذات نفسي بمثل السرعة التي هدأت فيها نبضات قلبي المتسارعة . فليس في ميسور الطفل أن يتشاحــن مع افراد اسرته الذين يكبرونه سنا ـ كما قد فعلت انا ـ وليس في ميسوره ان يطلـــق العنان لاحاسيسه الهائجة ـ كمـــا قـد اطلقت انا العنـــان لاحاسيسي ـ من غير ان يستشعر بعد ذلك غصة النـدم ورعشـــة ردة الفعل . كان عقلي ، عندما اتهمت مسز ريد وهددتها ، اشبه شـــيء بركام من الوقود مضطرم ، متحفز ، يطلق الشرر ، ويفغر فاه للالتهـــام . ولقد كان خليقا بهذا الركام نفسه ، الركام الذي غــدا أسود خامدا بعــد ان مات لهيبه ، ان يمثل احسن تمثيل حالتي التي تلت ذينك الاتهام والتهديد ، عندما كشفت لي ثلاثون دقيقة من الصمت والتفكير عن حماقة سلوكي ، وعن

كآبة موقفي المكروه والكاره في آن معا ·

لقد ذقت ، للمرة الأولى في حياتي ، طعم الانتقام · ومثل الخمر الزكية بدا لي طعمه ، حين تجرعته ، دافئا حاد المذاق · حتى اذا انقضت على ذلك لحظات امسى طعمه معدنيا مصدئا اورثني احساسا بانني قد جرعت سما · ولقد كان خليقا بي الان ان امضي ، من تلقاء نفسي ، والتمس صفح مسز ريد وعفوها ، ولكني عرفت ـ من تجربتي السابقة وبالغريزة ايضا ـ ان تلك كانت هي السبيل الى حملها على صدي في احتقار مزدوج ، مثيرة بذلك منجديدكل لواعج طبيعتي الهائجة ·

كان من الخير لي ان افزع الى ملكة افضل من ملكة الكلام الضاري ، اناعمد الى تغذية عاطفة اقل شيطانية من عاطفة السخط القاتم · وهكذا تناولت كتابا ـ كتابا يشتمل على بعض الحكايات العربيـة ، واستويت قاعدة ، وحاولت ان اقرأ · ولكنني لم أفهم من موضوع الكتاب شيئا ، فقد كانت افكاري لا تفتأ تطفو مترددة ما بيني وبين الصفحة التي طالما وجدتها مـن قبل فاتنة آسرة · وفتحت الباب الزجاجي في حجـرة الفطور ، فاذا بشجيرات الخميلة ساكنة سكونا تاما : لقد كان الصقيع القاتـم يغطي الارض كلها ، بعد ان عجزت الشمس والنسيم عن كسره · وغطيت وجهي وذراعي بذيل فستاني ، وخرجت ابتغاء المشي في جزء من الخميلة منعزل · ولكنني لم اجـد اي متعة في مشهد الشجرات الصامتة ، واكواز الشربين الساقطة ، وفي بقايا الخريف المنجمدة ، تلك الاوراق الخمرية اللون ، التي ركمتها الرياح السالفة اكواما اكواما ثم تصلبت الان بعضها فوق بعض · واستندت الى احد الابواب ، واجلت بصري في حقل خاو لا اغنـام ترعى فيه ، فاذا العشب القصير ذاو اذبله الصقيع · كان يوما قاتما جدا ، وكانت السماء تتمـوج فوق الثلج وكانت تغطـي كل شيء بمظلـة معتمـة الى ابعد الحدود · ثم ان رقاقات الثلج راحت تسقط بين الفينة والفينة ، لتستقر على المجاز المعبد ، والمـرج الاشيب ، من غير ان تذوب · ووقفت ، وهل كنت الا طفلة غارقة في الشقاء ، ورحت اهمس بيني وبين نفسي متسائلة مرة بعد مرة : « ما الذي سوف أعمله ؟ ·· ما الذي سوف أعمله ؟ » ·

وفجأة ، سمعت صوتا واضحا ينادي : « مس جين ! اين انت ؟ تعالي لنتناول طعام النداء » ·

وعرفت جيدا ان بيسي كانت هي التي نادتني ، ولكني لم آت بحركة ، وسمعت وقع قدميها الرفيق وهي تجري في المجاز بخفة ورشاقة ·

وقالت : « يا لك من شقية صغيرة ! لماذا لا تقبلين حين يناديك المرء ؟ »

ان وجود بيسي ، بالقياس الى الافكار التي كانت تراودني ، بدا لي شيئا بهيجا ، برغم انها كانت ، كمألوف عادتها ، نكدة بعـض الشيء · فالواقع اني بعد نزاعي مع مسز ريد وانتصاري عليها كنت غير ميالـة الى الاهتمام كثيرا بغضب الحاضنة المؤقت ، لقد غلب علي النزوع الى الاصطلاء

بمرحها الفتي . فما كان مني الا أن طوقتها بذراعي وقلت : « تعالي ، يا بيسي ! لا تنتهريني ! »

كانت بادرتي هذه اكثر صراحة واشد جرأة مما جرت به عادتي . وسرها ذلك بطريقة ما .

وقالت وهي تخفض بصرها نحوي : « انت طفلة غريبة ، يا مس جين ، مخلوقة صغيرة هائمة على وجهها ، متوحدة . ولسوف تذهبين الى المدرسة ، على ما اظن ؟ »

وهززت برأسي . فاضافت : « ولن يحزنك كثيرا ان تفارقي بيسي المسكينة ؟ »

ـ « وما الذي يحمل بيسي على الاهتمام بامري ، وهي التي لا تفتأ تعنفني تعنيفا موصولا ؟ »

ـ « لانك مخلوقة صغيرة ، غريبة ، مروعة ، خجول ، الى ابعد الحدود. يجب ان تكوني اكثر جرأة » .

ـ « ماذا ؟ لكي اتلقى صفعات وضربات اضافية ؟ »

ـ « هراء ! ولكنك مضطهدة بعض الشيء ، هذا امر لا ريب فيه . ولقد قالت امي ، عندما وفدت لزيارتي في الاسبوع الماضي ، انها لا ترغب في ان ترى واحدة من صغيراتها في مكانك . والان . تعالي ، ان عندي نبأ سارا يتصل بك » .

ـ « لست اظن ان عندك مثل هذا النبأ ، يا بيسي » .

ـ « أيتها الطفلة ! ماذا تعنين ؟ بأية عينين محزونتين تحدقين الي ؟ ولكن سيدتي والسيدات الصغيرات والسيد جون يعتزمون احتساء الشاي ، هذا الاصيل ، خارج القصر ، ولسوف تحتسين الشاي معي . اني سأطلب الى الطاهية ان تخبز لك كعكة صغيرة ، وبعد ذلك سوف تساعدينني في القاء نظرة على ادراجك ، لاني سأعد لك عما قريب حقيبة سفرك . ان سيدتي معتزمة ان تطلب اليك مغادرة غايتسهيد بعد يوم او يومين ، ولسوف تختارين من الدمى ما يحلو لك ان تأخذيه معك » .

ـ « بيسي ، يجب ان تعديني بانك لن تنتهريني بعد اليوم ، حتى امضي لسبيلي » .

ـ « حسن ، اعدك بذلك . ولكن احرصي على ان تكوني فتاة طيبة جدا ، ولا يساورك اي خوف مني . لا تجفلي اذا ما اتفق لي ان كلمتك في قليل من الحدة ، فهذا يثيرني جدا » .

ـ « لست اظن اني سوف اخافك بعد اليوم ، باية حال من الاحوال ، يا بيسي لاني الفتك ، ولسوف اجد عما قريب مجموعة اخرى من الناس اخافها واحسب لها حسابا » .

ـ « اذا خفتهم ابغضوك » .

ـ « كما تبغضينني انت ، يا بيسي ؟ »

ــ « انا لا ابغضك ايتها الانسة . انا اعتقد اني احبك اكثر مما يحبك اي شخص آخر » .

ــ « ولكنك لا تظهرين ذلك » .

ــ « يا لك من مخلوقة صغيرة لاذعة اللسان ! يبدو انك اكتسبت طريقة في الكلام جديدة كل الجدة . ما الذي يجعلك جسورة شديدة البأس الى هذا الحد ؟ »

ــ « ولكني سوف افارقكم عما قريب . والى هذا ... » كنت على وشك ان اقول شيئا عما جرى بيني وبين مسز ريد ، ولكني وجدت من الخير لي ، بعد شيء من الروية ، ان اعتصم بالصمت في ما يتصل بهذه المسألة .

ــ « وهكذا فانت سعيدة بالابتعاد عني ؟ »

ــ « لا ، على الاطلاق ، يا بيسي . الواقع اني في هذه اللحظة اقرب الى الاسى والحزن » .

ــ « في هذه اللحظة ! واقرب الى ! وباية برودة بالغة تنطق سيدتي الصغيرة بهذه الكلمات ! في استطاعتي ان اقول الان انني لو سألتك قبلة لما جدت علي بها ، ولقلت لي انك تؤثرين ان لا تفعلي » .

ــ « اوه ، لا . سوف اقبلك في سرور . احني رأسك قليلا » .

فخفضت بيسي رأسها . وتعانقنا ، وتبعتها الى البيت وقد سري عن نفسي . وانقضى ذلك الاصيل في سلام وتناغم . وفي المساء روت لي بيسي بعضا من حكاياتها الاشد سحرا ، وانشدتني بعضا من اغانيها الاكثر عذوبة . وحتى بالنسبة الي كان للحياة ، أحيانا ، ومضاتها المضمَّخة بضياء الشمس !

٥

لم تكد دقات الساعة تعلن الخامسة صباحا من اليوم التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) حتى حملت بيسي شمعة الى مخدعي ، فاذا بها تجدني وقد غادرت فراشي وفرغت ، او كدت ، من ارتداء ملابسي . كنت قد افقت قبل وفودها علي بنصف ساعة ، وكنت قد غسلت وجهي وارتديت ثيابي على ضوء هلال آفل منذ لحظة ، هلال تدفقت اشعته عبر نافذة ضيقة قرب سريري ذي الحاجزين . كان علي ان اغادر غايتسهيد ، ذلك اليوم ، بمركبة تجتاز بكوخ البواب في الساعة السادسة صباحا . وكانت بيسي هي الشخص الوحيد الذي استيقظ في تلك الاونة ، وكانت قد اضرمت نارا في حجرة الاطفال ، حيث راحت الان تعد لي فطوري . ان قليلا من الاطفال ليقدرون على تناول الطعام حين تهيج نفوسَهم خواطر السفر ، وكذلك كان حالي انا . وحثتني بيسي ،ولكن عبثا، على التهام

بطبع ملاعق من الحليب المغلـــي ومن الخبز اللذين كانت قد اعدتهما لي ، فلفت بضع بسكويتات في ورقة ووضعتها في جرابي • ثم انها ساعدتنـــي على ارتداء معطفي والاعتمار بقبعتي الصغيرة، وتلفعتَ بشــــال وغادرت حجرة الاطفال معي • حتى اذا اجتزنا بحجرة نوم مسز ريد ، قالت : « هـلا دخلت وقلت لسيدتي كلمة وداع ؟ »

– « لا ، يا بيسي • لقد اقبلت الى سريري ، الليلة البارحة ، عندما ذهبت انت لتناول العشاء ، وسألتني ان لا ازعجها في الصباح او ازعـــج ابناء خالي ايضا ، لقد قالت لي ان علي ان اتذكر انها كانت ، دائمـــا، صديقتي الفضلى ، وطلبت الي ان اتحدث عنها بروح الاعتراف بجميلهـا نحـــوي •• »

– « وماذا قلت لها ، ايتها الانسة ؟ »

– « لا شيء • لقد حجبت رأسي بغطاء السرير ، واشحـت بوجهي عنها مستقبلة الجدار » •

« لقد اسأت صنعا ، يا مس جين » •

– « لقد احسنت صنعا • ان سيدتك لـم تــكن صديقتي • لقـد كانت عدوتي » •

– « اوه ، مس جين ! لا تتكلمي هكذا ! »

وصحت حين اجتزنا الرواق وانتهينا الى الباب الامامي : « وداعـــا يا غايتسهيد ! »

كان القمر قد افل ، وكان الظلام دامسا • وحملت بيسي فانوســا سفح ضياءه على درجات السلم الندية ، وعلى حصباء الطريق المخضلـــة بثلج حديث العهد بالذوبان • كان الصباح الشتوي رطبـــا قارسا ، ولقد اصطكت اسناني وانا اندفع مسرعة في المجاز • وكان كوخ البواب مضاء ، حتى اذا بلغناه وجدنا زوجة البواب ، ما تزال تضرم نارها • وكانت حقيبـة امتعتي ، التي حملت الىهناك الليلة البارحة ، منتصبة عند الباب ، موثقـــة بالحبال • كانت الساعة هي السادسة الا بضع دقائق ، وقبـــل ان تعلن الساعة تمام السادسة بقليل ، اعلنت جلبة عجلات نائية ان المركبة قادمة • فمضيت الى الباب ، وراقبت مصابيحها تخترق الدجنة على جناح السرعة •

وتساءلت زوجة البواب : « أهي مرتحلة وحدها ؟ »

– « نعـــم » •

– « وكم تبلغ المسافة التي ستجتازها ؟ »

– خمسين ميـــلا » •

– « يا لها من رحلة طويلة ! اني لاعجب كيف اجازت مسز ريد لفتـــاة مثلها ان تجتاز هذه المسافة الطويلة من غير رفيق ؟ الا تخشى ان يصيبها مـــكروه ؟ »

وتقدمت المركبة ، حتى انتهت بجيادها الاربعة الى باب القصر • كان

متنها مثقلا بالمسافرين • ولم تكد تقف حتى صاح الحارس والحوذي طالبين الي أن أسرع في امتطاء المركبة • فرفعت حقيبتي اليها ، وانتُزعت عن عنق بيسي انتزاعا ، وكنت قد تعلقت بها ورحت اغمرها بقبلاتي •

وصاحت مخاطبة الحارس فيما كان يرفعني ويلقي بي في داخل المركبة : « احرص على العناية البالغة بها » •

فكان جوابه : « أجل ! أجل ! » واوصد الباب ، وهتف صوت : « حسن جدا » •وانطلقت المركبة بنا • وهكذا فُصِلت عن بيسي وغايتسهيد ، وهكذا حملت نحو اصقاع مجهولة ، نحو ما اعتبرَته آنذاك اصقاعا نائية محاطة بالاسرار •

انا لا اذكر الان من تلك الرحلة غير النزر اليسير • كل ما اعرفه هو ان النهار بدا لي طويلا الى حد غير طبيعي ، واننا كنا نطوي طريقا تمتد مئات الاميال • لقد اجتزنا بمدن عديدة ، وفي احداها ـ وكانت مدينة كبيرة جدا ، وقفت المركبة • وحُل وثاق الجياد ، وترجل المسافرون ليتناولوا طعام الغداء • واقتادوني الى نزل صغير ، حيث طلب الي الحارس ان اصيب شيئا من غداء • ولكني لم اكن اجد ايما شهوة الى الطعام ، فخلفني في حجرة مترامية الاطراف ، يقوم في كل زاوية من زواياها مستوقد، وتتدلى من سقفها ثريا ، وتنبثق من احد جدرانها ، على ارتفاع بعينه ، شرفة حمراء صغيرة تغص بالآلات الموسيقية • وهنا رحت اذرع المكان جيئة وذهوبا ، فترة غير قصيرة من الزمان ، مستشعرة وحشة بالغة ، موجسة خيفة ، الى حد مميت ، من ان ينسل امرؤ ما ويختطفني ، ذلك بأني كنت اؤمن بوجود المختطفين ، بعد ان تمثلت مآثرهم على نحو متواتر ، في حكايات بيسي التي كانت ترويها لي قرب المستوقد • واخيرا ، رجع الحارس ، وكرة اخرى وضعت في موضعي من المركبة ، واستوى حارسي على مقعده ، ونفخ في بوقه ذي الصوت الغائر ، فانطلقت بنا العربة مجلجلة في شارع « لـ ••• » الحافل بالحجارة •

واقبل الاصيل رطبا ، مثقلا بالضباب بعض الشيء • حتى اذا جنحت الشمس للمغيب ، انشأت استشعر اننا كنا نمعن في الابتعاد ، حقا ، عن « غايتسهيد » • اننا ما عدنا نمر بمدن ، ولقد تغير وجه الريف ، وانبثقت الكثبان الرمادية الضخمة حول الافق • حتى اذا احلولك الظلام ، هبطنا واديا ملتف الاشجار على نحو قاتم ، وبعد ان حجب الظلام مجالي الطبيعة ، سمعت عزيف ريح صرصر تندفع خلل الاشجار •

وهدهدتني الضجة ، فاستسلمت اخر الامر للنوم ، ولم اكد انعم بالرقاد حتى ايقظني وقوف المركبة وقوفا مفاجئا ، وفُتح باب المركبة ، وانتصبت عنده امرأة تبدو عليها سيماء الخدم : لقد رأيت وجهها وفستانها على ضوء مصابيح المركبة •

وتساءلت تلك المرأة : « هل توجد هنا فتاة صغيرة اسمها جين اير ؟ »

فأجبتها : « أجل ! » وبعد ذلك حُملت الى خارج المركبة ، وانزلت حقيبتي ، وفي الحال انطلقت المركبة ماضية لسبيلها ·

كانت أوصالي قد تصلبت من أثر القعود المتطاول ، وكانت جلبة المركبة وحركتها قد ذهبتا بصوابي · حتى اذا جمعت شتات تفكيري اجلت البصر في ما حولي · كانت الريح ، والمطر ، والظلام تسد الافق ، ومع ذلك فقد تبينت ، على نحو ضبابي ، جدارا منتصبا امامي ، وبابا ينفتح فيه · ومن خلال هذا الباب تقدمت مع مرشدتي الجديدة · واغلقت المرشدة الباب ثم قفلته خلفها · لقد بصرت الان ببيت او ببيوت عديدة ــ فقد كان البناء متطاولا جدا ، وكانت تتخلله نوافذ كثيرة ، تلتمع الاضواء في بعضها · وصعَّدنا في مجاز عريض مفروش بالحصى ، حافل بالحفر التي يغمرها الماء ، ودخلنا بابا فتح في وجهنا · ثم ان الخادم قادتني عبر احد الممرات الى حجرة تضطرم النار في مستوقدها ، وخلفتني هناك وحدي ·

ووقفت لحظة ادفىء اصابعي الخدرة من اثر البرد ، ثم اجلت الطرف في ما حولي · لم يكن ثمة شمعة ، ولكن ضوء المدفأة القلق كشف لناظري ، بين فينة واخرى ، عن جدران يكسوها الورق وعن بساط ، وسجف ، واثاث مصنوع من خشب الماهوغاني اللماع · كانت الحجرة قاعة استقبال ليست على مثل اتساع قاعة الاستقبال في « غايتسهيد » او على مثل روعتها ، ولكنها تنعم بقدر كاف من اسباب الرفه · وكنت احاول فهم موضوع احدى الصور المعلقة على الحائط عندما فتح الباب ، ودخل علي شخص يحمل شمعة ، يتبعه على الاثر شخص اخر ·

كان الشخص الاول سيدة فارعة الطول ذات شعر داكن ، وعينين سوداوين ، وجبين شاحب عريض · وكان شال يحجب وجه هذه السيدة ، على نحو جزئي ، وكانت سيماها صارمة ، وقامتها منتصبة ·

وقالت وهي تضع شمعتها على الطاولة : « الطفلة اصغر من ان ترسل الى هنا من غير ما رفيق يصحبها » ·

ثم انها راحت تمعن النظر الي ، في انتباه بالغ ، طوال دقيقة او دقيقتين ثم اضافت قائلة : « كان من الخير ان تقاد الى فراشها مباشرة · انها تبدو مرهقة » ·

وسألتني ، واضعة يدها على كتفي : « هل انت متعبة ؟ »

ــ « بعض الشيء ، يا سيدتي » ·

ــ « وجائعة ايضا ، من غير شك · ايتيها بشيء من طعام قبل ان تأوي الى الفراش ، يا مس ميلر · اهذه هي اول مرة تفارقين فيها والديك للمجيء الى المدرسة ، يا بنيتي ؟ »

واوضحت لها اني يتيمة الاب والام · فسألتني منذ متى كانت وفاتهما ، وكم ابلغ من العمر ، وما اسمي ، وهل اعرف القراءة والكتابة وقليلا من الخياطة · ثم مست وجنتي بسبابتها مسا رفيقا ، ودعتني الى

الانصراف مع مس ميلر ، راجية ان اكون بنتا طيبة ·

ولعل السيدة التي فارقتها كانت في نحو التاسعة والعشرين · اما تلك التي مضت معي فبدت اصغر منها ببضع سنوات · لقد راعني من الاولى صوتها ، وطلعتها ، وسيماها · اما مس ميلر فكانت اكثر بساطة · كانت بشرتها متوردة ، برغم ما غلب على محياها من امارات الهم والغم ، وكانت رشيقة الخطى سريعة الى العمل ، شأن من يتعين عليه دائما اداء جمهرة من المهام المتلاحقة · ولقد بدت ، في الواقع ـ كما ظهر لي بعد فعلا ـ معلمة ثانوية · وبقيادتها رحت اتقدم منتقلة من جناح الى جناح ، ومن مجاز الى مجاز ، في مبنى ضخم غير قياسي ، حتى خرجنا اخر الامر من ذلك الصمت الكلي ، الموحش بعض الشيء ، الذي ساد ذلك القسم الذي اجتزناه من البيت ، لتطرق آذاننا دندنة اصوات مختلطة ، ولندخل في الحال حجرة طويلة رحبة حافلة بالطاولات ، في كل ركن من اركان الحجرة طاولتان اثنتان ، وعلى كل منهما شمعتان موقدتان ، وقد جلست حولهما جميعا ، على مقاعد خشبية ، جمهرة من الفتيات من مختلف الاسنان · فبعضهن في التاسعة ، وبعضهن في العاشرة ، وبعضهن في العشرين · وحين لمحتهن عيني ، على ضوء الشموع الباهت ، بدا لي وكأن عددهن ممتنع على الاحصاء ، برغم انه لم يزد في الواقع على ثمانين · لقد كن يرتدين ملابس موحدة قوامها ثوب اسمر غريب الزي ، ومئزر هولندي طويل · كانت ساعة المذاكرة ، وكانت الفتيات منهمكات في حفظ دروس الغد · وكانت الدندنة التي سمعتها هي الثمرة المشتركة لاعاداتهن المهموسة ·

واومأت مس ميلر الي بالجلوس على مقعد قرب الباب · ثم انها مضت الى الطرف الاخر من الحجرة الطويلة ، وصاحت « ايتها العريفات ، اجمعن الكتب وضعنها جانبا ! »

عندئذ نهضت من بعض الطاولات المختلفة اربع فتيات فارعات الطول ، وطوفن بالحجرة ، فجمعن الكتب ووضعنها جانبا ، ثم ان مس ميلر عادت فاصدرت امرها من جديد :

ـ « ايتها العريفات ، ايتين بصينيات العشاء ! »

فانطلقت الفتيات الاربع الفارعات الطول ثم رجعن في الحال ، وقد حملت كل منهن صينية نُضِّدت فوقها شرائح من شيء لم ادر ما هو ، ووضع في وسط كل منها ابريق ماء وكوز · ووزعت الشرائح على الفتيات ، وكانت الراغبات في جرعة من الماء يتناولنها من الكوز المشترك · حتى اذا حان دوري شربت ، ذلك باني كنت اشكو الظمأ ، ولكني لم امس الطعام بعد ان جعلني الاهتياج والتعب عاجزة عن الاكل · بيد اني رأيت الان ان الشرائح كانت كناية عن كعكة رقيقة من الشوفان جزئت الى قطع صغيرة ·

حتى اذا انتهت فترة الطعام تلت مس ميلر الصلوات ، وانتظمت طالبات كل صف من الصفوف اثنتين اثنتين ، وارتقين السلم · واذ غلب

علي الارهاق فاني لم الاحظ ، الا بشق النفس ، اي نوع من المكان كانت حجرة النوم : كل ما رأيته هو انها كانت مثل حجرة المذاكرة طويلة جداً . وتلك الليلة كان علي ان اقاسم مس ميلر سريرها ، ولقد ساعدتني في خلع ملابسي ، حتى اذا اضطجعت القيت نظرة على صفوف الاسرّة الطويلة ، وقد سارعت فتاتان اثنتان الى احتلال كل سرير منها . وما هي غير دقائق عشر حتى اطفىء الضوء المفرد . وفي غمرة الصمت والظلام الكامل استسلمت للرقاد .

وتقضى الليل في سرعة : لقد كنت من الارهاق بحيث تعذر علي حتى ان احلم . ولم افق من نومي الا مرة واحدة لكي اسمع الريح تعصف في هبات مسعورة ، والمطر يهطل مدرارا ، ولاستشعر ان مس ميلر كانت قد اتخذت مكانها الى جانبي . حتى اذا فتحت عيني من جديد ، كان جرس يقرع في قوة : كانت الفتيات قد استيقظن من رقادهن واخذن في ارتداء ملابسهن . لم يكن الضحى قد ارتفع بعد ، وكانت شمعة او اثنتان من الشموع المصنوعة من قش مغموس في الدهن تضيئان في الحجرة . ونهضت انا ايضا على كره . كان البرد قارساً جدا ، فارتديت ملابسي على احسن ما اجاز لي الارتعاد ان ارتديها ، وغسلت وجهي عندما شغر حوض من الاحواض ، وهو شيء لم يتم وشيكا ، اذ لم يكن ثمة غير حوض واحد لكل ست بنات ، وكانت هذه الاحواض تقوم على ركائز منصوبة في وسط الحجرة . وقرع الجرس كرة اخرى ، فاصطفت الفتيات اثنتين اثنتين ، وبهذا النسق هبطن السلم ودخلن حجرة الدرس الباردة الباهتة الضوء . وهنا تلت مس ميلر الصلاة ، ثم صاحت بعد ذلك : « شكلن صفوفكن » .

وعقبت هذا جلبة ، دامت بضع دقائق كانت مس ميلر تهتف خلالها على نحو مكرور : « الصمت ! » و « النظام ! » حتى اذا خمدت رأيتهن جميعا منتظمات في اربعة انصاف دوائر ، امام اربعة كراسي وضعت عند الطاولات الاربع . كن كلهن يحملن بايديهن كتبا ، وكان كتاب ضخم ، كأنه الكتاب المقدس ، موضوعا على كل طاولة ، امام المقعد الشاغر . وانقضت بضع ثوان من الراحة ، افعمت بدندنة خفيضة مبهمة كتلك التي تنبعث كلما اجتمعت اعداد كبيرة في مكان واحد . وراحت مس ميلر تنتقل من صف الى صف ، عاملة على اخماد هذه الضجة المبهمة .

ورن جرس ناه ، وفي الحال دخلت الحجرة سيدات ثلاث ، تقدمت كل منهن نحو طاولة واستوت على كرسيها . اما مس ميلر فاحتلت المقعد الرابع الخالي ، الذي كان ادناها الى الباب ، والذي تحلقت حوله اصغر البنات سنا . وبهذا الصف التمهيدي الحقت انا ، واجلست في مؤخرته .

وبدأ العمل : لقد ردّدت صلاة الصباح ، وتليت آيات من الكتاب المقدس ، ثم عقبت ذلك قراءة متطاولة لبعض فصول التوراة ، استغرقت

ساعة كاملة . ولم تكد هذه الرياضة الروحية تنتهي حتى كانت الشمس قد غمرت الكون بضيائها . وقرع الجرس ، الذي لا يكل ، للمرة الرابعة . فاصطفت الفتيات من جديد ، وسرن الى حجرة اخرى لتناول الفطور . وما كان اعظم ابتهاجي لان المح خيال شيء من الطعام النهمه ! فقد كنت أتضور جوعا ، اذ لم اصب في اليوم السابق غير بلغة يسيرة .

كانت قاعة الطعام رحبة ، قاتمة ، منخفضة السقف . وعلى مائدتين طويلتين كان البخار يتصاعد من آنية حوت شيئا ساخنا ما ، انبعثت منه ، على نحو اوقع في نفسي الرعب ، رائحة هي ابعد ما تكون عن اثارة الشهوة الى الطعام . ولم تكد ابخرة ذلك الغذاء تصافح خياشيم اولئك الذين قدر عليهن ان يزدردنه حتى لمحت امارات الاستياء الشامل على وجوههن . ومن مقدمة الموكب اطلقت بنات الصف الاول الفارعات الطول هذه الكلمات المهموسة : « يا للقرف ! لقد احترق الثريد من جديد ! »

ـ « صمت ! » كذلك صاح صوت ، لم يكن هذه المرة صوت مس ميلر ، ولكن صوت واحدة من مدرسات الطبقة الاولى : امرأة ضئيلة الجسم ، سمراء البشرة ، انيقة البزة ، ولكنها ذات سيماء نكدة بعض الشيء ، اتخذت مقعدها عند رأس احدى المائدتين الطويلتين ، في حين ترأست سيدة ، اكثر امتلاء ، المائدة الثانية . ورحت ابحث ، ولكن على غير طائل ، عن تلك السيدة التي كانت اول من رأيت ، الليلة البارحة . انها لم تكن هناك لقد احتلت مس ميلر رأس المائدة التي جلست انا اليها ، في حين احتلت المقعد المماثل عند رأس المائدة الاخرى سيدة عجوز ذات سيماء اجنبية غريبة ، كانت هي مدرسة اللغة الفرنسية كما عرفت في ما بعد . وتليت صلاة طويلة من صلوات المائدة . ورتلت ترنيمة ، وبعد ذلك اقبلت خادم تحمل شيئا من الشاي الى المعلمات . وشرعنا في تناول الطعام .

واذ كان الجوع والدوار يعصفان بي فقد التهمت ملعقة او ملعقتين من حصتي من غير ان افكر في مذاقها ، ولكن ما ان انكسرت حدة الجوع الاولى حتى ادركت ان بين يدي اكلة تتقزز النفس منها : فالثريد المحروق لا يكاد يقل رداءة عن البطاطا العفنة ، والجوع نفسه سرعان ما يصاب بالغثيان بسبب منها . وتحركت الملاعق في تؤدة : لقد رأيت ان كل فتاة تعمد الى تذوق حصتها من الطعام وتحاول ان تبتلعه ، ولكن الكثرة الكبيرة من الفتيات ما لبثت ان اطرحت هذا الجهد العابث واقلعت عنه . وانتهى الوقت المخصص للفطور ولما تفطر اي منهن . حتى اذا رفعنا صلاة الشكر على شيء لم ننعم به ، رتلنا ترنيمة اخرى ، وغادرنا قاعة الطعام الى حجرة الدرس . وكنت انا بين اللواتي كن اخر من غادر القاعة ، وفيما كنت اجتاز بالمائدتين بصرت باحدى المعلمات تتناول وعاء من اوعية الثريد وتذوقه . ثم انها نظرت الى زميلاتها . كانت امارات الاستياء تبدو على وجوههن ، وهمست احداهن ـ المعلمة ذات الجسم الممتلىء ـ قائلة :

« طعام كريه ! يا للعار ! »

وانقضت قبل ان تبدأ الدروس من جديد خمس عشرة دقيقة كانت حجرة الدرس خلالها مسرحا لضوضاء مجيدة . فقد بدا وكأنما اجيز للفتيات ، طوال تلك الفترة ، ان يتكلمن بصوت عال وفي حرية اكثر ، ولقد عرفن كيف يفدن من هذا الامتياز . والواقع ان الحديث كله دار حول الفطور . فكانت كل واحدة منهن تحمل عليه حملة شعواء وتنتقده في غير هوادة . يا للمخلوقات البائسات ! كان ذلك هو عزاءهن الاوحد . وكانت مس ميلر هي المعلمة الوحيدة التي بقيت ، الان ، في الحجرة ، وقد تحلقت حولها مجموعة من الفتيات الكبيرات كانت كل واحدة منهن تتحدث في انفعال وتشير بيديها اشارات جدية مغضَبة . وسمعت اسم مستر بروكلهورست على بعض الشفاه ، ولمحت مس ميلر تهز براسها ، لدن سماعها هذا الاسم ، هزة استنكار ، ولكنها لم تبذل كبير جهد لكبح جماح النقمة العامة : كانت من غير ريب تشارك الفتيات نقمتهن هذه .

ودقت ساعة في حجرة الدرس معلنة التاسعة . فلم يكن من مس ميلر الا ان غادرت حلقتها لتقف في وسط الحجرة وتصيح : « صمت ! الى مقاعدكن ! »

وهيمن الانضباط : فما هي غير خمس دقائق حتى اخلد الحشد المضطرب الى النظام ، وحتى اخمد الصمت النسبي صخب الالسن المختلط . وسرعان ما اتخذت المدرسات الرئيسيات مقاعدهن ، ومع ذلك بدا الجميع وكأنهن ينتظرن شيئا . كانت الفتيات الثمانون مرصوفات على المقاعد الخشبية المحاذية لجدران الحجرة ، وكن منتصبات الجلسة جامدات لا يأتين حراكا . لقد بدون لعين الناظر مجموعة غريبة الى ابعد الحدود . كن جميعا ذوات شعر سبط مرجل الى الوراء فلست ترى فيه خصلة معقوصة البتة . وكن يرتدين ثيابا سمراء داكنة ذات قبة مرتفعة ويطوقن اعناقهن بياقات محكمة . ويحملن جيوبا هولندية صغيرة « تشبه اكياس الدراهم الاسكتلندية » شدت الى مقدمات جلابيبهن ، واريد بها ان تؤدي وظيفة اكياس الشغل . وكن كلهن ، ايضا ، يلبسن جوارب صوفية وينتعلن احذية ريفية الصنع مشدودة بابازيم نحاسية . وكان بين هاته الفتيات المرتديات هذا الزي اكثر من عشرين فتاة كاملة النمو ، او على الاصح اكثر من عشرين امرأة شابة . والواقع ان ذلك الزي لم يناسبهن البتة ، وانه خلع سيما من الغرابة حتى على املحهن وجها .

وكنت لا ازال اتأملهن وانعم النظر ، بين الفينة والفينة ، الى المعلمات ، ولكن ايا من هؤلاء المعلمات لم تنتزع اعجابي بالمعنى الدقيق للكلمة . فقد كانت البدينة فظة غليظة القلب بعض الشيء ، وكانت ذات البشرة الداكنة ضارية الى حد غير يسير ، والاجنبية قاسية مضحكة ، وكانت مس ميلر ، ويا لها من مخلوقة بائسة ، تبدو ارجوانية اللون ،

مسفوعة البشرة ، مجهدة - اقول كنت لا ازال اتأملهن وكانت عيني تطوف من وجه الى وجه عندما انتصبت المدرسة كلها واقفة في آن معا ، وكأنما حركها نابض مشترك ٠

ما الذي حدث ؟ انايما امرلم يطرق اذني ٠ واستبد بي الذهول ٠ وقبل ان استرد صوابي كانت الفتيات والمعلمات قد اتخذن مقاعدهن كرة اخرى ، ولكن الاعين كلها كانت مصوبة الان نحو نقطة واحدة ، فاتبعت عيناي هذا الاتجاه ، فالتقتا الوجه الذي كان قد استقبلني الليلة البارحة ٠ كانت واقفة في اقصى الحجرة الطويلة ، قرب المستوقد ، ذلك بانه كان ثمة نار موقدة في كل طرف من اطرافها ، ولقد راقبت صفَّي البنات في صمت ووقار ٠ وتقدمت مس ميلر نحوها ، وبدت وكأنها توجه اليها سؤالا ، حتى اذا تلقت جوابه انقلبت الى مكانها وقالت في صوت عال : « احضري الكرات الارضية يا عريفة الصف الاول ! »

وفيما كانت العريفة تنفذ الامر الصادر اليها راحت السيدة التي استشيرت تخطو في الحجرة خطوات وئيدة ٠ واحسب اني املك قدرة غير يسيرة على الاحترام ، اذ لا ازالِ اذكر حتى اليوم بأي قدر من الرعب المشوب بالاعجاب تتبعت خطواتها ٠ حتى اذا تبدت ، الان ، لعيني ، في وضح النهار ، الفيتها فارعة الطول ، مليحة الوجه ، رشيقة القوام ٠ وكانت عينان داكنتان ذواتا بريق عذب واهداب طويلة فاتنة تكشف عن بياض جبينها العريض ٠ وعند كل صدغ من صدغيها كان شعرها الفاحم معقوصا على شكل حلقات ، وفقا للزي الشائع في ذلك العصر ، يوم لم تكن العصائب الناعمة وحلقات الشعر الطويلة شديدة الذيوع ٠ وكان ثوبها ، وفقا لزي العصر ايضا ، مصنوعا من قماش ارجواني ، وكان يخفف من رتابته ضرب من الزركشة الاسبانية بمخمل اسود ٠ وكانت تلتمع في حزامها ساعة ذهبية ، ولم تكن الساعات مألوفة كشأنها اليوم ٠ وليضف القارىء الى هذا ، لاستكمال الصورة ، قسمات وجه ناعمة ، وبشرة نقية برغم شحوبها ، وسيماء نبيلة ، ومشية وقورا ، يكوّن ، على الاقل ، صورة دقيقة - الى اقصى ما تستطيع الكلمات ان ترسم صورة ما وتوضحها - عن مظهر مس تامبل الخارجي ٠٠ مس ماريا تامبل ، وهو اسمها الكامل كما رأيته في ما بعد مرقوما على كتاب صلاة عُهِد اليَّ في ان احمله الى الكنيسة ٠

حتى اذا اتخذت مديرة لوورد مقعدها (فقد كانت هذه السيدة هي مديرة المدرسة) امام كرتين ارضيتين موضوعتين على احدى الطاولات ، دعت فتيات الصف الاول الى التحلق حولها وراحت تعطيهن درسا في الجغرافية ٠ اما الصفوف الدنيا فنهضت المعلمات بعبء التدريس فيها ، حيث استمر تسميع المستظهر من التاريخ والنحو وغيرهما ساعة كاملة ٠ وتلا ذلك درس الخط ودرس الحساب ، واعطت مس تامبل دروسا في الموسيقى لبعض الفتيات الاكبر سنا ٠ وكانت ساعة الحائط تحدد المدى

الزمني لكل درس • حتى اذا دقت هذه الساعة معلنة الثانيـــة عشرة نهضت المديرة وقالت : « لدي كلمة اود ان اوجهها الى الطالبات » •

وكانت جلبة الفراغ من الدروس قد شرعـــت تطلـــع رأسها ، ولكنها سرعان ما خمدت عندما سمعت الطالبات صوت المديرة •

واضافت قائلة : « لقد ُقدّم اليكن هذا الصباح طعام لـــم تستطعـن اساغته • ولا ريب انكن جائعات ، من اجل ذلك اصدرت امري بان يقدم الى الجميع غداء مؤلف من خبز وجبن » •

ونظرت المعلمات اليها في ضرب من الدهش ـ فاضافت في نبرة قصدت بها ان تشرح الموقف لهن : « وسيتم ذلك على مسؤوليتي » • ثـم غـادرت الحجرة على التـو •

وفي الحال جيء بالخبز والجبن ، فوزعـــا على الطالبات ، فغمـرت المدرسة كلها موجة من الابتهاج العـــارم • وعلى الاثر صدر الينا الامـــر : « الى الحديقة » ، فاعتمرت كل منا بقبعة من قش غليـــظ ذات اشرطة مـــن نسيج قطني ملون ، وارتدت معطفا من نسيج صوفي خشن رمـادي اللون • وجهزت انا ايضا بمثل هذا الجهاز ، واندفعت مـــع التيار متخذة سبيلـي الى الهواء الطلق •

كانت الحديقة ارضا رحبة تحيط بها اسوار ساهقة يتعـــذر معهـــا على العين ان تلمح اي مشهد من مشاهد الارض القائمة خلفها • وكـــانت في ناحية من هذه الحديقة شرفة مظللة . وكانت مجـازات عريضة تطـــوق رقعة وسطى مقسومة الى عشرات من المزاهـــر ✻ الصغيرة ، ولقـــد افردت هذه المزاهـــر لتكـــون حدائق تزرعها الطالبات • وكان لكل مزهر مالكـة تتعهده بعنايتها • والواقع ان منظرها ، اذ تحفل بالرياحين ، كان رائعا مـن غير شـــك • ولكنـــها كـــانت الان ، في الجـــزء الاخيـــر من كانون الثاني (يناير) ، مجرد ذبول كئيـــب ، وهزال اسمر • وارتعـــدت حين وقفـــت واجلت الطرف في ما حولي : كان يوما عاصفا لا يصلح للرياضة فـــي الهواء الطلق • انه لم يكن ماطرا بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكنه كان قاتمـــا يرنقـه ضباب اصفر مرفق برذاذ يسير • كانت الارض تحت اقدامنا لا تزال ندية من اثر السيول التي غمرتها بالامس • وكانت اشد الفتيات بأسا يركضـــن ههنا وهناك مستغرقات في بعض الالعاب الناشطة ، ولكن سائـــر الفتـيات الشاحبات المهزولات استسربن ✻✻ ملتمسات الدفء والوقاية مـــن الرذاذ تحت سقف الشرفة • وبين هؤلاء تناهى الي مـــرة تلو مـــرة صدى سعـال غائر كان يطرق سمعي كلما نفذ الضباب الى اجسامهن العجاف المرتعدة •

وكنت حتى تلك اللحظة لمّـــا اتحدث الى اي منهن ، ولم تـــكن اي منهن

✻ جمع مزهر ، وهو جزء من الحديقة تزرع فيه الزهور •

✻✻ اجتمعن في سرب او قطيع •

قد انتبهت الى وجودي · لقد وقفت في معزل ، ولكن الشعور بالعزلة كان امرا تعودته والفته فلم يوقع في نفسي كثيرا من الاسى · واستندت الى عمود من اعمدة الشرفة ، واحكمت التدثر بمعطفي الرمادي ، وحاولت ان اتناسى البرد الذي كان يلذعني من خارج والجوع غير المشبع الذي كان يقرضني من داخل ، واستغرقت في المراقبة والتفكير · وكانت تأملاتي متقطعة غير محدودة فليس فيها ما يستحق التدوين : كنت لا ازال اجهل ، او اكاد ، اين انا ، ولقد بدا لي وكأن « غايتسهيد » وحياتي الماضية قد امعنا في الطفو بعيدا وان مسافة لا سبيل الى قياسها تفصلني عنهما · وكان الحاضر غامضا وغريبا ، اما المستقبل فلم استطع ان اكون عنه ، من طريق الحزر والتخمين ، ايما صورة · واجلت بصري في الحديقة ، الشبيهة بحديقة دير ، ثم رفعته نحو المنزل ، فاذا هو بناء ضخم بدا نصفه مربدا عتيقاً ، ونصفه الاخر بالغ الجدة · وكان القسم الجديد ، المشتمل على حجرة الدرس وقاعة النوم ، يستقبل اشعة الشمس من خلال نوافذ ذات حواجز مستطيلة ومستعرضة تخلع عليه مظهرا شبه كنسي · وعلى الباب كانت لوحة حجرية تحمل النقش التالي :

« معهد لوورد · ـ هذا الجزء جددت بناءه عام ··· ب·م·م ناوومي بروكلهورست ، من بروكلهورست في هذا الاقليم » · « فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا اعمالكم الحسنة ويمجدوا اباكم الذي في السموات » · (انجيل متى ٥:١٦) ·

وقرأت هذه الكلمات مرة ومرة ومرة ، وشعرت انه لا بد ان يكون لها تفسير لاني عجزت عن النفاذ الى حقيقة معناها نفاذا كاملا · وكنت لا ازال اتفكر في مدلول كلمة « معهد » ، واحاول ان اكتشف العلاقة بين الكلمات الاولى وبين الآية الانجيلية عندما دعاني الى الالتفات صوت سعال دان انبعث من ورائي · فاذا بعيني تقعان على بنت جالسة على مقعد حجري قريب · كانت منكبة على كتاب ، وكانت تبدو مستغرقة كل الاستغراق في مطالعته · ومن موقفي ذاك كان في ميسوري ان المح العنوان : لقد كان هو « راسيلاس » Rasselas ، وهو اسم وقع في نفسي انه غريب وانه بالتالي جذاب · واتفق للبنت ان رفعت بصرها ، فيما هي تقلب صفحة من صفحات الكتاب ، فسألتها مباشرة :

ـ « هل هو كتاب ممتع ؟ » وكنت قد عقدت النية على ان اطلب اليها اعارتي اياه ذات يوم ·

فاجابتني بعد ثانية او ثانيتين كانت خلالهما تتأملني : « انه يعجبني » ·

عندئذ سألتها ، وانا لا اكاد ادري اين وجدت الجرأة على استهلال محادثة مع شخص غريب : « وما موضوعه ؟ » فقد كانت هذه الخطوة مناقضة لطبيعتي وعاداتي ، ولكني احسست ان انكبابها على الكتاب مسَّ وترا من المشاركة الوجدانية في مكان ما من نفسي ، فقد كنت انا ايضا احب المطالعة ،

مهما تكن قراءاتي خفيفة اطفالية . الواقع انه ما كان في امكاني ان اهضم او افهم الموضوعات الجدية او الدسمة .

فاجابتني الفتاة وهي تقدم الكتاب الي : « في امكانك ان تلقي نظرة عليه» .

وفعلت ذلك . فاقنعني التصفح السريع ان محتويات الكتاب كانت اقل اغراء واسرا من عنوانه . لقد بدا « راسيلاس » في نظر ذوقي الهزيل ، كتابا تافها . فانا لم اقع فيه على شيء يتصل بالسعالى ، لم اقع فيه على شيء يتصل بالجن ، ولقد خلت صفحاته ذات السطور الملزوزة من ايما تنوع مشرق . فاعدته اليها ، فتلقته في هدوء ، ومن غير ان تقول شيئا بدت وكأنها على وشك الاستغراق في المطالعة كرة اخرى . وهذه المرة ايضا غامرت بصرفها عن الكتاب ، وقلت : « هل تستطيعين ان تخبريني ما معنى الكلمات المنقوشة على ذلك الحجر الذي يبدو فوق الباب ؟ ما هو معهد لوورود ؟ »

ــ « انه البيت الذي اقبلت للاقامة فيه » .

ــ « ولماذا يدعونه « معهدا » ؟ هل يختلف بطريقة ما عن المدارس الاخرى ؟ »

ــ « انه ، الى حد ما ، مدرسة خيرية . فانت وانا وسائر الطالبات هنا بنات الاحسان . ويخيل الي انك يتيمة : لقد مات ابوك او ماتت امك ، اليس كذلك ؟ »

ــ « لقد ماتا كلاهما قبل ان تنطبع صورتهما في ذاكرتي » .

ــ « حسنا ! ان كلا من رفيقاتنا هنا قد فقدت واحدا من ابويها ، أو فقدتهما كليهما . وهذه المؤسسة تدعى « معهد لتعليم اليتيمات » » .

ــ « الا ندفع أي رسم مالي ؟ هل يعيلوننا بالمجان ؟ »

ــ « ان كل واحدة منا تدفع ، أو يدفع عنها أصدقاؤها ، خمسة عشر جنيها في العام » .

ــ « واذن فلماذا يدعوننا بنات الاحسان ؟ »

ــ « لأن الخمسة عشر جنيها لا تكفي لتغطية نفقات المنامة والطعام والتعليم ، ولأن العجز المالي يغطى بالتبرعات . »

ــ « ومن الذي يتبرع ؟ »

ــ « بعض السيدات والسادة من ذوي النفوس المطبوعة على الخير في هذا الاقليم وفي لندن . »

ــ « ومن كانت ناوومي بروكلهورست ؟ »

ــ « السيدة التي شيدت الجزء الجديد من هذا المبنى ، كما تنص اللوحة الحجرية ، والتي يشرف ابنها على كل شيء ويدير كل شيء هنا » .

ــ « لماذا ؟ »

ــ « لانه أمين صندوق المؤسسة ومديرها . »

ــ « واذن فهذا المبنى ليس ملكا لتلك السيدة الفارعة الطول التي تحمل

ساعة ، والتي قالت انها أصدرت أمرها باعطائنا شيئا من الخبز والجبن ؟ »

ـ « لمس تامبل ؟ اوه ، لا ! ليته كان ملكا لها ! الواقع انها مسؤولة تجاه مستر بروكلهورست عن كل عمل من أعمالهـــا ٠٠ ان مستر بروكلهورست يشتري كل ما نحتاج اليه من طعام وثياب ٠ »

ـ « وهل يقيم هنا ؟ »

ـ « لا ، انه يقيم على مبعدة ميلين ، في قصر ضخم ٠ »

ـ « وهل هو رجل طيب ؟ »

ـ « انه رجل دين ٠ويقولون انه فعال للخير ٠ »

ـ « هل قلت ان السيدة الفارعة الطول تدعى مس تامبل ؟ »

ـ « آجـــل ٠ »

ـ « وما أسماء المدرسات الاخريات ؟ »

ـ « أما ذات الخدين المتوردين فتدعى مس سميث ٠ انها تشرف على اعمال الخياطة ، وتفصل لنا ثيابا ـ ذلك بأننا نقوم بخياطتها بانفسنا ـ كما تفصل جلابيبنا وكل شيء ٠ واما المعلمة ذات الجسم الضئيل والشعر الاسود فتدعى مس سكاتشيرد ، وهي تدرس مادتي التاريخ والنحو وتختبر طالبات الصف الثاني في دروسهن المستظهرة عن ظهر قلب ٠ وأما ذات الشال وذات المنديل المثبت الى جنبها بشريط اصفر فهي مدام بييرو ٠ انها من «ليل» من أعمال فرنسة ، وهي تعلم اللغة الفرنسية » ٠

ـ « وهل تحبين المعلمات ؟ »

ـ « أجل ، أحبهن ٠ »

ـ « وهل تحبين المعلمة السمراء ، ذات الجسم الضئيل ومدام ٠٠ ؟ أنا لا أستطيع أن ألفظ أسمها كما تلفظينه ٠ »

ـ « ان مس سكاتشيرد سريعة الانفعال ٠ » وينبغي أن تحاذري اغضابها ٠ أما مدام بييرو فليست رديئة ٠ »

ـ « ولكن مس تامبل هي أفضلهن ، أليس كذلك ؟ »

ـ « مس تامبل طيبة جدا ، وبارعة جدا ٠ أنها اعلاهن قدرا ، لأن معرفتها تفوق معرفتهن بكثير ٠ »

ـ « هل انقضى على وجودك هنا زمان طويل ؟ »

ـ « سنتـــان ٠ »

ـ « هل أنت يتيمة ؟ »

ـ « لقد ماتت أمي ٠ »

ـ « وهل انت سعيدة هنا ؟ »

ـ « يخيل الي انك تسألين أكثر مما ينبغي ٠ ولقـــد قدمت اليك من الاجوبة ما يكفي في الوقت الحاضر ٠ واني أود الآن أن أنصرف الى المطالعة ٠ »

ولكن الجرس قرع في تلك اللحظة مؤذنا بموعد الغداء ٠ فاذا بالطالبات كلهن يعاودن الدخول الى الدار ٠ ان الرائحة التي ملأت قاعة الطعام ، الآن ،

لم تكن أكثر اغراء من تلك التي داعبت انوفنا ساعة الفطور ، الا قليلا : لقد جيء بالغداء في وعائين صفيحيين ضخمين انبعث منهما بخار قوي عابق بربح دهن زنخ • واكتشفت أن الطعام كان يتألف من بطاطا تافهة مطهوة مع شرائح غريبة من لحم ناصل اللون • وملىء صحن كل من الطالبات بكمية غير يسيرة من هذا المزيج • وأكلت ما استطعت أن آكله ، وتساءلت في ما بيني وبين نفسي : ترى هل سيكون الطعام ، كل يوم ، على هذه الشاكلة ؟

وبعد الغداء انتقلنا ، في الحال، الى حجرة الدرس• واستؤنفت الدروس، ولم تنته الا في الساعة الخامسة •

كانت الحادثة الوحيدة البارزة التي لفتت نظري ، ذلك الاصيل ، هي اخراج مس سكاتشيرد للفتاة التي كنت تحدثت اليها في الشرفة ، اخراجا مخريا ، من صف التاريخ : لقد فرضت عليها أن تقف وسط حجرة الدرس الرحبة • والواقع ان هذه العقوبة بدت لي شائنة الى أبعد الحدود ، وبخاصة بالنسبة الى فتاة في مثل هذه السن المتقدمة ، اذ تراءى لي انها في الثالثة عشرة من العمر ، أو اكثر قليلا • وتوقعت ان تنكشف الفتاة عن امارات من الغم والخجل الشديدين ، كم كان دهشي عظيما حين وجدت انها لم تذرف دمعة ولم تحمر خجلا : لقد وقعت ثمة مكفهرة الوجه من غير ريب ولكنها رابطة الجأش تتطلع اليها الاعين كلها • وسألت نفسي : « كيف تأتى لها ان تحتمل القصاص بمثل هذا الهدوء كله وهذه الرزانة كلها ؟ لو اني كنت في مكانها اذن لتمنيت ، في ما يبدو لي ، لو انشقت الارض وابتلعتني • انها تبدو وكأنها تفكر في شيء أبعد من عقوبتها ••• أبعد من وضعها ، في شيء ليس حولها ولا أمامها • ولقد سبق لي أن سمعت باحلام اليقظة •• فهل هي في حلم من احلام اليقظة الآن ؟ كانت عيناها مصوبتين الى الارض ولكني واثقة من انهما لا تريانها ـ لقد بدا وكأن نظرها مرتد الى باطنها • يحاول ان ينفذ الى فؤادها : أنها تستعرض ما تستطيع أن تتذكره ، في ما اعتقد ، لا ما يحيط بها فعلا • أنا لا اقضي العجب من أمر هذه الفتاة وما ادري أهي بنت طيبة أم بنت خبيثة •

وبعيد الساعة الخامسة تناولنا وجبة اخرى تتألف من قدح صغير من القهوة ونصف شريحة من خبز أسمر • والتهمت شريحتي وشربت قهوتي في تلذذ بالغ ، بيد انه كان خليقا بي أن أبتهج لو أصبت من ذلك قدرا أكبر •• فقد كنت لا أزال جائعة • وعقبت ذلك فترة من الاستجمام دامت نصف ساعة ، ثم فترة المذاكرة ، ثم كأس الماء وقطعة حلوى الشوفان . فالصلوات ، فالايواء الى الفراش • ذلك كان هو يومي الاول في لووود •

٦

وبدأ اليوم التالي كما بدأ اليوم الاول سواء بسواء : لقد نهضنا من فرشنا وأرتدينا ملابسنا على ضوء شمعات القش المغموسة في الدهن •

ولكننا اضطررنا ، هذا الصباح ، الى التجاوز عن مراسيم الاغتسال : لقد كانت المياه متجمدة في الاباريق • كان تطور قد طرأ على الاحوال الجوية في الليلة البارحة • وكانت ريح شمالية شرقية عاتية ، صافرة طوال الليل من خلال الفجوات في نوافذ مخدعنا ، قد جعلتنا نرتعد في فرشنا ، وأحالت محتويات الجرار الى جليد •

وقبل أن تنقضي فترة الصلوات وتـــلاوة الكتاب المقدس ، وهي فترة طويلة استغرقت ساعة ونصف ساعة ، استشعرت اني على وشك أن أقضي نحبي من الزمهرير • ثم أن موعد الفطور حان ، آخر الأمر ، وهذه المرة لم يكن الثريد محروقا • كان النوع سائغا في الحلق وكانت الكمية صغيرة • ولشد ما بدت حصتي ضئيلة ! لقد تمنيت لو انها ضوعفت •

وخلال النهار سجلت طالبة في الصف الرابع ، وعهد الي في القيام بمهام واعمال نظامية • لقد كنت حتى ذلك الحين مجرد متفرجة اشهد مسرحيـــة الحياة في لوورد ، أما الآن فقد عدوت هذا الطور واصبحت احدى الممثلات المشتركات في تلك المسرحية • واذ لم آلف من قبل عادة الحفظ عن ظهر قلب، الا قليلا ، فقد بدت الدروس لي ، في بادىء الامر ، طويلة وعسيرة في آن معا ، وكان في الانتقال المتواتر من مهمة الى مهمة ما شوشني وأربكني ، أيضا ، ومن أجل ذلك ابتهجت عندما دفعت الي مس سميث ، حوالي الساعة الثالثة بعـــد الظهر ، قطعة من الموسلين يبلغ طولها ياردتين ، وابرة وكشتبانا الخ وطلبت الي أن أجلس في زاوية هادئة من حجرة الدرس وكلفتني أن أهدب تلك القطعة • وفي تلك الساعة كانت الكثرة الكبيرة من الفتيات منهمكات في عمل مماثل ، ولكن طالبات أحد الصفوف كن لا يزلـن متحلقات حول كرسي مس سكاتشيرد يقرأن ، واذ كان كل شيء هادئا فقد كان في ميسور المرء أن يسمع موضوع دروسهن ، وطريقة كل فتاة في الاداء ، وتقبيح مس سكاتشيرد لهذا الاداء أو ثناءها عليه • كان درسا في التاريخ الانكليزي ، وبين القارئات لمحت وجه البنت التي كنت قد تعرفت اليها في الشرفة • ان مكانها كان ، عند بداية الدرس ، في مقدمة الصف ، ولكنها ما لبثت ان نقلت الى مؤخرته لخطأ في النطق ارتكبته ، أو لعدم انتباه الى مواطـن الوقـف • وحتى في موضعها المغمور ذاك ، ظلت مس سكاتشيرد تجعل منها موضوع ملاحظات موصولة : انها لم تنقطع عن مخاطبتها بأمثال هذه العبارات :

ـ « بيرنز » (كان ذلك هو اسمها في ما يبدو ، وكانت الفتيات هنا ، ينادين باسماء عائلاتهن ، كما ينادى الفتيان في مكان آخر) ، « بيرنز انت تميلين رجليك الى حرف حذائك ، سارعي الى اتخاذ وضع سوي » • « بيرنز ، أنت تدفعين ذقنك الى أمام على نحو ليس اشنع منه ، ردي ذقنك الى الوراء• » ، « بيرنز ، أنا أصر على ضرورة رفع رأسك عاليا ، أنا لا أرضـى أن تتخذي أمامي مثل هذا الوضع » • الخ • الخ •

حتى اذا تلي احد الفصول مرتين متواليتين أغلقـت الكتـب وأخضعت

الطالبات لامتحان . كان الدرس قد اشتمل على جزء من عهد الملك تشارلز الاول ، وكانت ثمة اسئلة مختلفة عن حمولة السفن بالاطنـــان وبالارطال الانكليزية والضرائب المفروضة في زمن الحرب على الموانيء البحرية ، وهـي اسئلة بدت كثرة الطالبات عاجزة عن الاجابة عنها . ومع ذلك فقد كانت كل صعوبة صغيرة تحل مباشرة حين تنتهي الى بيرنز : لقـد بدت وكأن ذاكرتها قد استوعبت مادة الدرس كله ، ولقد كانت مستعدة ابدا للاجـــابة عن كل سؤال . وظللت أرتقب أن تعمد مس سكاتشيرد الى اطراء حسن انتباه بيرنز ، ولكنها بدلا من ذلك صاحت فجأة :

ـ « يا لك من بنت قذرة بغيضة ! انك لم تنظفي أظافـــرك ، البتة ، هذا الصباح ! »

ولم تحر بيرنز جوابا . وأدهشني صمتها .

وفكرت في ما بيني وبين نفسي : « ولكن لماذا لا توضح لها انه لم يكن في وسعها ان تنظف اظافرها او ان تغسل وجهها بسبب من تجمد الماء ؟ »

وصرف انتباهي عن ذلك عندما طلبت مس سميث الي أن أمسك شلة خيوط . وفيما هي تلف هذه الخيوط راحت تتحدث الي بين الفينة والفينة ، سائلة اياي هل دخلت مدرسة ما من قبل ، وهل أعرف الرسم واللفق والحبك الخ . ولم يكن في مستطاعي أن أواصل ملاحظتي حركات مس سكاتشيرد الا بعد أن صرفتني مس سميث . حتى اذا عدت الى مقعـــدي كانت تلك السيدة تصدر أمرا من أوامرها لم أدرك مضمونه ، ولكن بيرنز غادرت الصف في الحال ، ومضت الى حجرة داخلية صغيرة ، حيث تُحفظ الكتب ، لتعود ادراجها بعد نصف دقيقة وفي يدها حزمة من القضبان شُد بعضها الى بعض عند واحد من طرفيها . وقدمت بيرنز هذه الاداة المشؤومة الى مس سكاتشيرد في كياسة راشحة بالاحترام ، ثم انها حلت مئزرها في هدوء ، ومن غير أن يطلب اليها ذلك ، فسارعت المعلمة الى ضربها على العنق ، بحزمة القضبان ، ضربا مبرحا . ان دمعة واحدة لم تنفر الى عيني بيرنز . وكفت أصابعي عن اللفق ، بعد ان ارتعشت لهذا المشهد بغضب عاجز غير مجد . وفي خلال ذلك لم تغير أي من قسمات وجهها المستغرق في التفكير تعبيرها العادي .

وصاحت مس سكاتشيرد : « فتاة عديمة الاحساس ! ليس ثمة ما يستطيع أن يحملك على اطراح عاداتك القذرة . أعيدي حزمة القضبان الى موضعها » .

وامتثلت بيرنز الامر . وانعمت النظر اليها فيمـــا كانت تغادر حجرة الكتب : كانت في تلك اللحظة بالذات تعيد منديلها الى جيبها ، وكان يلتمع على خدها الناحل أثر دمعة .

وكانت فترة الاستراحة الليلية هي ، في ما خيـــل الي ، أجمل ساعات اليوم ، في لوورد ، واكثرها ابهاجا للنفس . ذلك بأن كسرة الخبز وجرعـة القهوة اللتين التهمناهما في الساعة الخامسة كانتا قد أحيتا ذابل نشاطنا ، ان لم تسكتا جوعنا ، وبان [illegible] النهار الطويل قد تراخى ، وبان حجـــرة

الدرس أمست أشد دفئا مما كانت في الصباح ، بعد ان اجيز لنيـــرانها أن تضطرم على نحو اكثر اشراقا بعض الشيء ، لكي يستعاض بها عن الشموع التي لم تحمل الى الحجرة الا في ما بعد · كان في الشفق المتوهج ، والهدير المباح ، وتبلبل الاصوات ما أوقع في نفسي شعورا بالحرية سائغا ·

وفي مساء اليوم الذي شهدت فيه مس سكاتشيرد تجــلد تلميذتها ، بيرنز ، طوفت كمألوف عادتي بين المقـاعد الخشبية الطويلة والطـاولات والجماعات الضاحكة ، متوحدة من غير رفيق ، ومع ذلك فاني لم أشعر بشيء من الوحشة ، وحين اجتزت بالنوافذ رحت أرفع بين الفينة والفينة مصراعا من المصاريع وأطل منه · كان الثلج يتساقط متلاحقـا ، وكانت كومة منـه قد تشكلت خلف ألواح النافذة الزجاجية الدنيـــا · حتى اذا أدنيت أذني من النافذة استطعت أن أميز أنين الريح الكئيب في الخارج من الجلبة البهيجة في الداخل ·

ولعله كان خليقا بي ــ لو اني كنت قد فارقت منذ قريب بيتا طيبـــا وأبوين كريمين ــ أن أجد تلك الساعة ادعى ما تكون الى اثارة أسفي للبعاد · ولعله كان جديرا بالريح أن تحزن فؤادي ، وبهذا العماء المظلم أن يعكر علي صفو طمأنينتي · أما وحالي كما عرف القارىء فقــد استمددت منهما كليهما اهتياجا غريبا · واذ كنت طياشة عارمة النشاط فقد تمنيت لو تعوي الريح في ضراوة أشد ، ولو تحلولك الظلمـة لتمسي ليـــلا دامسا ، ولو تستفحل البلبلة وتستحيل صخبا ·

وشققت طريقي ، واثبة فوق المقاعد الخشبية الطـــويلة زاحفة تحت الطاولات ، الى أحد المواقد · وهناك وجدت بيرنز ، راكعة قرب حاجــز النار الحديدي ، مستغرقة ، صامتة ، منصرفة عن كل ما حولها برفقة كتاب كانت تطالعه على وهج الجمرات القاتم ·

وسألتها وأنا اقترب نحوها من خلاف : « الا تزالين تطالعين كتاب راسيلاس ؟ »

فأجابت : « أجل ، ولقد فرغت من مطالعته اللحظة · »

وبعد خمس دقائق أغلقته · وسرني ذلك وقلت في ذات نفسي : « لعلي أن أوفق الان الى حملها على الكلام · »

وقعدت بحذائها على الارض ·

وسألتها : « ما اسمك الاول ؟ »

ــ « هيلين · »

ــ « هل انت من بلد يبعد كثيرا عن هذا المكان ؟ »

ــ « أنا من بلد شمالي ناء · أنه يقع على حدود اسكتلندة تماما » ·

ــ « وهل سترجعين الى هناك يوما ؟ »

ــ « أرجو ذلك · ولكن أحدا لا يستطيع ان يكون على مثل اليقين من المستقبل · »

ـ « انك ترغبين في الرحيل عن لووود ، من غير شك ؟ »

ـ « لا ، وما الذي يحملني على ذلك ؟ لقد 'ارسلت الى لووود طلبا للعلم ، ولن يكون ثمة جدوى في الرحيل الا بعد أن أحقق هذا الهدف » ٠

ـ « ولكن لماذا تعاملك تلك المعلمـــة ، مس سكاتشيرد ، هذه المعاملة الوحشية كلها ؟ »

ـ « تعاملني معاملة وحشية ؟ لا ، على الاطلاق ! انها صارمة ، انها تكره اخطائي » ٠

ـ « لو كنت في مكانك اذن لكرهتها ، اذن لقاومتها ٠ ولو قد ضربتني بذلك القضيب اذن لانتزعته من يدها وكسرته على مرأى منها » ٠

ـ « اغلب الظن انك لن تفعلي شيئا من مثل ذلك ٠ اما اذا فعلت فعندئذ يفصلك مستر بروكلهورست من المدرسة ، وعندئذ يكون ذلـك مبعـث اسى عظيم لذويك ٠ ولان يحتمل المرء ، في اصطبار ، الما واخزا لا يحس به غيره خير الف مرة من ان يقدم على عمل طائش تمتد آثاره السيئة الى كل من له صلة به ٠ والى هذا ، فالكتاب المقدس يأمرنا بان نرد على العمل السيء بعمل صالح ٠ »

ـ « ولكن من الخزي ان يجلد المرء ، وان يطلب اليه الوقوف وسط حجرة غاصة بالناس ، خاصة وانت بنت كبيرة : انا اصغر منك سنا ، ولست اقدر على احتمال ما احتملتِه » ٠

ـ « ومع ذلك فان من واجبك احتماله ، ان لم توفقي الى اجتنابه ٠ وانه لمن الضعف والحماقة ان تقولي انك « لا تقدرين على احتمال » ما قُدِّر عليك ان تطالَبي باحتماله » ٠

كنت اسمع الى هذا الكلام في دهش : فانا لم استطع ان افهـم مذهب الاحتمال هذا ، ولقد كنت أقل فهماً لذلك الحلم الذي تكشفت عنه نحو المرأة التي عاقبتها بالضرب وأقل تقديرا له ٠ ومع ذلك فقد شعرت بان هيلين بيرنز نظرت الى الاشياء على ضوء محجوب عن عيني ٠ وداخلني ظن بأنها قد تكون على حق وان ما ذهبت اليه انا باطل ٠ ولكني لم ارغب في تعمق هذه المسألة ، مؤثرة ، مثل فيلكس ، ان ارجيء بحثها الى فرصة انسب ٠

وهكذا قلت : « تقوليـــن ، يا هيلين ، ان لك اخطاء ، فما هي ؟ انك تبدين في عيني بنتا طيبة جدا » ٠

ـ « اذن فتعلمي مني ان لا تحكمي على الامور بمظاهرها ٠ اني ، كما قالت مس سكاتشيرد ، فتاة قذرة ٠ انا لا اضع الاشياء في اماكنها الا نادرا ولا ارتبها البتة ٠ انا فتاة مهملة ٠ انا انسى النظم والقواعـد ٠ انا أقرأ في اللحظة التي يتعين علي فيها ان احفظ دروسي ٠ وليس لي منهج او طريقة ٠ وفي بعض الاحيان اقول ، كما تقولين ، اني لا اطيق ان 'اكره على الخضوع لقانون ٠ وهذا كله يثير مس سكاتشيرد الى ابعد الحدود ، مس سكاتشيرد التي هي بطبيعتها نظيفة ، دقيقة ، موسوسه » ٠

فاضفت : « ونزقة ، ووحشية » ، ولكن هيلين رفضت اقرارا ما اضفته • لقد اعتصمت بالصمت •

ـ « وهل تعاملك مس تامبل بمثل قسوة مس سكاتشيرد ؟ »

ولم اكد الفظ اسم مس تامبل حتى رفت على محياها المكفهر ابتسامة عذبة وقالت : « مس تامبل زاخرة بالطيبة ، وانه ليوجعها ان تكون قاسية على ايما مخلوق ، حتى على اسوأ طالبة في المدرسة • انها ترى اخطائي وتنبهني اليها في تلطف • واذا ما وفقت الى عمل جدير بالثناء اغدقت علي الثواب في سخاء • ومن الادلة القوية على طبيعتي المعتلة الى حد يبعث على الرثاء ان اعتراضاتها نفسها ، وهي اعتراضات معتدلة ومنطقية الى ابعد الحدود ، تعجز عن شفائي من اخطائي • وحتى ثناؤها ، برغم اني اقدره حق قدره ، لا يستطيع ان يحفزني الى التعلق باهداب العناية وتدبر العواقب » •

فقلت : « غريب هذا • فمن اسهل الامور على المرء ان يتعلق باهداب العناية • »

ـ « لست اشك في ان ذلك سهل عليك انت • لقد راقبتك في صفك هذا الصباح فرأيت انك كنت شديدة الانتباه • ان افكارك لم تشرد قط ، في ما بدا لي ، بينا كانت مس ميلر تشرح الدرس وتوجه الاسئلة اليكن • اما انا فموزعة النفس ابدا • فحين يتعين علي ان اصغي لمس سكاتشيرد وان احيط بكل ما تقوله في انتباه بالغ اجدني اغفل حتى عن صوتها نفسه : اني استغرق في شبه حلم • وفي بعض الاحيان يخيل الي اني في نوثامبرلند ، وان الضجة التي اسمعها من حولي هي خرير جدول يجري عبر « ديبدن » ، قرب بيتنا ـ حتى اذا جاء دوري في الاجابة احتجت الى من يوقظني ، وعندئذ لا يكون في متناولي أي جواب جاهز لاني لم اسمع شيئا مما تلي ، نتيجة لاصاختي الى الجدول الخيالي » •

ـ « ومع ذلك فقد اجبت احسن ما تكون الاجابة ، هذا الاصيل • »

ـ « كان هذا مصادفة محضة • فقد اتفق ان راق لي الموضوع الذي كنا نقرأه • وبدلا من ان احلم ، هذا الاصيل ، بـ « ديبدن » كنت افكر متعجبة كيف يستطيع رجل راغب في العمل الصالح ان يأتي اعمالا موغلة في الظلم والخطل ، فعل تشارلز الاول احيانا • وقلت في ذات نفسي : كم هو مؤسف ان يعجز هذا الملك ، برغم نزاهته وضميره الحي ، عن النظر الى ما هو ابعد من امتيازات التاج • ليته استطاع ان ينظر الى بعيد ، وان يدرك اتجاه ما يسمونه روح العصر !••• »

كانت هيلين تتحدث الان وكأنها تخاطب نفسها : كانت قد نسيت انه لم يكن في ميسوري ان افهمها فهما جيدا ـ اني كنت جاهلة ، او شبه جاهلة ، للموضوع الذي عالجته • فسألتها ، محاولة ان اردها الى مستوى فهمي : « وحين تعلمك مس تامبل هل تشرد افكارك ايضا ؟ »

ـ « لا ، من غير ريب ، واذا شردت فانها لا تشرد في معظم الاحوال •

لان لدى مس تامبل ، عادة ، ما تقوله ، ولان ما تقوله اكثر جدة من خواطري • ان لغتها لتستهويني ، والمعرفة التي تنقلها الينا كثيرا ما تكون هي عين ما ارغب في اكتسابه » •

ـ « واذن فانت في صف مس تامبل فتاة طيبة ؟ »

ـ « نعم ، بطريقة سلبية : انا لا ابذل اي جهد ، انا اتبع نزوعا يهديني سواء السبيل • وليس لي في مثل هذه الطيبة فضل ما » •

ـ « على العكس ، ان لك فضلا كبيرا : انت طيبة مع من يعاملك معاملة طيبة • وهذا اقصى ما اطمع انا فيه ، ابد الدهر • ولو ان الناس تعلقوا دائما باهداب اللطف مع من يعاملهم في وحشية ، وظلم ، ولو انهم خضعوا دائما لهم ، اذن لمضى الاشرار على هواهم ، واذن لما استشعروا الخوف ابدا ، ولما قدر لهم ان يغيروا ما بانفسهم : على العكس ان ذلك خليق به ان يزيدهم امعانا في الغي والضلال • وحين نضرب لغير ما سبب يتعين علينا ان نرد ، في قوة وعنف ، بضربة مماثلة • انا واثقة من انه يتعين علينا ذلك ـ وفي قسوة كافية لتلقين من يضربنا درسا يجعله لا يعود الى مثلها كرة اخرى • »

ـ « سوف تغيرين رأيك ، في ما ارجو ، يوم تبلغين سنا اعلى ، ذلك بانك لا تزالين فتاة غرة جاهلة • »

ـ « ولكني احس بهذا يا هيلين : يجب علي ان ابغض اولئك الذين يصرون على ابغاضي مهما عملت لارضائهم ، يجب علي ان اقاوم اولئك الذين يعاقبونني ظلما وعدوانا • وهو موقف طبيعي بقدر ما هو طبيعي ان احب اولئك الذين يظهرون لي الود والحنان ، وبقدر ما هو طبيعي ان اخضع للعقوبة حين استشعر اني استحقها » •

ـ « ان القبائل الوثنية والوحشية هي التي تؤمن بهذه العقيدة ، اما الشعوب المسيحية والمتمدنة فتنكرها » •

ـ « كيف ؟ لست افهم » •

ـ « ان العنف ليس خير ما يتغلب على البغض ، والثأر ليس خير بلسم لجراح الظلم والاذى » •

ـ « وما هو ذلك البلسم اذن ؟ »

ـ « اقرأي العهد الجديد من الكتاب المقدس ولاحظي ما يقوله المسيح ، وكيف يسلك • اتخذي من كلامه قاعدة ، ومن مسلكه مثلا يحتذى » •

ـ « وماذا يقول ؟ »

ـ « احبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم وظالميكم » •

ـ « واذن فيتعين علي ان احب مسز ريد ، وهذا عمل لا استطيعه • ويتعين علي ان ابارك ابنها جون ، وهو شيء مستحيل » •

وبدورها سألتني هيلين بيرنز ان اوضح ما قلته ، فرحت اقص عليها ، بطريقتي الخاصة ، حكاية آلامي واحقادي • واذ كنت فريسة المرارة والشراسة ، كدأبي كلما استبد بي الهياج ، فقد تحدثت على نحو ما شعرت ، في غير ما

تحفظ ولا تلطيف .

واصاخت هيلين الي ، في صبر بالغ ، حتى النهاية . وتوقعت ان تطلق عندئذ ملاحظة ما ، ولكنها لم تنبس بكلمة .

وسألتها بفروغ صبر : « حسنا ، اليست مسز ريد امرأة رديئة غليظة القلب ؟ »

ـ « لقد كانت قاسية عليك ، من غير ريب ، لانها ، كما ترين ، تبغض نوع خُلقك كما تبغض مسز سكاتشيرد نوع خُلقي . ولكن ما اشد الدقة التي تتذكرين بها كل ما فعلته بك وكل ما قالته لك ! واية انطباعة عميقة الى حد فريد يبدو ان اضطهادها اياك قد خلفها في فؤادك ! ان مشاعري لم تعرف مثل هذه الانطباعة قط لاني لم اتعرض لظلم مماثل . اليس خليقا بك ان تكوني اكثر حظا من السعادة لو حاولت ان تنسي قسوتها والعواطف المهتاجة التي اثارتها في ذات نفسك ؟ ان الحياة تبدو لي اقصر من ان تنفق في اذكاء البغض او تسجيل المظالم . اننا كلنا ـ ويجب ان نكون كذلك ـ مثقلون بالاخطاء في هذا العالم ، ولكني واثقة من اننا سوف نخلعها عما قريب لحظة نخلع اجسادنا القابلة للفساد ، عندما ينفصل عنا الغش والاثم بسقوط هيكل اللحم المربك هذا ، فلا يبقى غير شرارة الروح ـ اصل الحياة والفكر وجوهرهما اللطيف الذي لا يدرك باللمس ـ نقية طاهرة كيوم فارقت الخالق لتوجد المخلوق . هذه الشرارة لا بد عائدة من حيث جاءت ، ولعلها ستعود لتنفخ من جديد في كائن إسمى من الانسان ـ وربما لكي ترقى في معارج المجد ، من النفس البشرية الهزيلة الى النفس الملائكية المتألقة ! وليس من ريب في انها لن يجاز لها الانحدار بحال من الاحوال ، بالانتقال من انسان الى شيطان . لا ، انا لا استطيع ان اصدق ذلك : اني اؤمن بعقيدة اخرى ، لم يلقّني اياها احد البتة ، عقيدة نادرا ما ألمع اليها ، ولكني اجد فيها ابتهاجا غامرا ، فانا حريصة على التعلق بها ، لانها تبعث الامل في نفوس الناس جميعا ، وتجعل الابدية راحة ـ منزلا رائعا ، لا هولا ولا هاوية . والى هذا ، فان هذه العقيدة تتيح لي ان اميز في كثير من الوضوح ، ما بين المجرم وجريمته ، وتمكنني من ان اغفر ، في كثير من الاخلاص ، للاول فيما امقت الاخرى . وبفضل هذه العقيدة ، يتعذر على الانتقام ان يزعج فؤادي ، ويستحيل على التحقير ان يثير اشمئزازي اثارة اعمق مما ينبغي ، ويمتنع على الظلم ان يسحق روحي ويذلها اشد الاذلال : اني احيا في طمأنينة ، متطلعة الى اللحظة التي يجيء فيها اجلي » .

والتوى رأس هيلين ، المنحني ابدا ، التواء اضافيا عندما اتمت هذه الجملة . لقد لمحت من نظرتها انها ما عادت راغبة في التحدث الي ، وانها تؤثر ان تتحدث الى افكارها الخاصة . ولكن فترة التأمل التي اتيحت لها لم تكن طويلة . فما هي الا لحظات حتى اقبلت عريفة من العريفات ، وهي فتاة كبيرة حلفة ، وصاحت في نبرة كومبرلندية قوية :

ـ « هيلين بيرنز ، اذا لم تذهبي وترتبي درجك وتطوي اشغالك في هذه

اللحظة فسوف اسأل مس سكاتشيرد ان تأتي وترى كل ذلك بنفسها ! »

وزفرت هيلين اذ رأت ان حلمها ينقطع ، ونهضت من مكانها ممتثلة امر العريفة في غير ما ابطاء ، ومن غير آن تحير جوابا •

٧

لقد بدا فصلي الدراسي الاول ، في لووود ، وكأنه عصر ، بيد انه لم يكن عصرا ذهبيا على اية حال • لقد انطوى على نضـــال مرير مع مصاعب اعترضت سبيل اخذ نفسي بالخضوع لقواعـد جديدة ومهام غير مألوفة • والواقع ان خوف الاخفاق في ذلك كان اشد وطأة على نفسي مــن المصاعب المادية التي واجهتها ، برغم ان هذه الاخيرة لم تكن هنات هينات •

وفي خلال كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) وجزء مــن آذار (مارس) حال تراكم الثلج ، وبعد ذوبانه حالت الطرق التي تعذر اجتيـازها او كاد ، دون تجاوزنا اسوار الحديقة ، الا ابتغاء الذهاب الى الكنيسة • ولكنه كان علينا ان نقضي ، ضمن هذه الحدود ، ساعة كل يوم في الهواء الطلق • وكانت ثيابنا اعجز من ان تقينا غائلة البرد القارس ، ولم نكن ننتعل احذية طويلة الساق فكان الثلج ينفذ الى احذيتنا ويذوب فيها • وكانت اكفنا غير المقفزة تَنمَل وتَخدَر ، وكانت بشرتها تتشقق وتتورم مــن اثر البرد • والشيء نفسه كان يصيب اقدامنا • وانا اذكر جيدا ذلك الالتهاب المزعج الذي كنت احتمله من جراء هذا كل ليلة ، عنـدما تتقرح قدماي ، وذلـــك العذاب الناشيء عن اقحام اصابع قدمي المتورمة ، المقرورة ، المتصلبة ، في حذائي كل صباح • ثم ان زادنا الهزيل من الطعام كان يوقع الاسى في النفس : فقد كنا ، برغم ما استشعرناه من شهوة بالغة الى الطعام يتميز بها الاطفال في دور النمو ، لا نكاد نفوز بما يكفي لامساك الرمق على مريض موهون القوى • ولقد نشأ عن هذا النقص في التغذية مسلك جائر كان شديد الوطأة على التلميذات الاصغر سنا : كانت الفتيات الكبيرات المتضورات جوعا لا يدعـــن فرصة سانحة الا اغتنمنها للاستيلاء على حصص الصغيرات ، بالمداهنة حينا وبالتهديد حينا • وما اكثر ما اقتسمت مع اثنتين من المغتصبات تلك القطعة النفيسة من الخبز الاسمر الموزع في ساعة الشاي ، حتى اذا تخليت لمغتصبة ثالثة عن نصف ما اشتمل عليه فنجان قهوتي ، تجرعت البقية الباقية مصحوبة بعبرات صامتة لم ينتزعها من عيني غير الجوع الممض •

وكانت ايام الاحد اياما كئيبة في فصـــل الشتـاء ذاك • كان علينا ان نسير ميلين اثنين الى كنيسة بروكلبريدج ، حيــث كان راعي المدرسة يقوم بالخدمة الدينية • كنا نمضي الى الكنيسة مرتعدات من البرد ، وكنا نبلغها ونحن اشد ارتعادا ، اما خلال الخدمة الدينية الصبـــاحية فكان البرد يوقع الشلل في اوصالنا او يكاد • وكانت الكنيسة من البعد بحيث يتعـذر علينا

العودة لتناول طعام الغداء ، فكانت تقدم الينا بين الخدمتين الدينيتين انصبة من الخبز واللحم البارد لا تقل ضآلة وهزالا عن انصبتنا في الوجبات العادية ·

وبعد انقضاء خدمة الاصيل الدينية كنا نعود سالكات طريقا مكشوفة وعرة حيث كانت ريح الشتاء القارسة تهب فوق سلسلة من قمم الجبال الشمالية المكسوة بالثلج فتكاد تسلخ جلد وجوهنا ·

واستطيع ان اتذكر مس تامبل وهي تمشي في خفة وسرعة الى جانب صفوفنا الخائرة ، مُحكِمةً التدثر بعباءتها الصوفية التي عبثت بها الريح المثلوجة ، وتشجعنا ـ من طريق الوعظ والاسوة العملية ـ على الاحتفاظ بمعنويتنا العالية ، والمضي قدما ، كما قالت ، « كالجنود البواسل » اما المدرسات الاخريات ـ وما كان ابأسهن من مخلوقات ! ـ فقد كن من خور النفس وفتور الهمة بحيث تعذر عليهن ان يحاولن تنشيط الاخريات وتشجيعهن ·

ولا تسل كم كان توقنا عظيما ، لدن بلوغنا المدرسة ، الى الضياء والحرارة ينبعثان من نار موقدة ! ولكن الصغيرات منا ، على الاقل ، حرمن هذه النعمة : كان صف مزدوج من الفتيات الكبيرات يتحلق ، على التو ، حول كل مستوقد من المستوقدات القائمة في حجرة الدرس ، وخلفهن كانت البُنَيَّات يجثمن جماعات ويغطين اذرعهن المهزولة باطراف مآزرهن ·

وعند ساعة الشاي كنا ننعم بعزاء ضئيل يأتينا على شكل جراية من الخبز مضاعفة ـ شطيرة كاملة عوضا عن نصف شطيرة ـ اضيفت اليها مسحة من الزبدة رقيقة ولذيذة : كانت هي الوليمة الاسبوعية التي كنا نرتقبها كلنا في لهفة بالغة ، من الاحد الى الاحد · وكنت اوفق ، عادة ، الى الاحتفاظ بجزء من هذه الوليمة السخية لنفسي · اما سائرها فكنت اضطر الى التخلي عنه في كل مرة ·

وامسية الاحد كنا نقضيها في ترديد « دروس التعليم المسيحي » عن ظهر قلب ، وترديد الاصحاح الخامس والاصحاح السادس والاصحاح السابع من انجيل متى ، وفي الاصاخة الى عظة طويلة تتلوها علينا مس ميلر ، التي كانت تثاؤباتها المتمنعة على الكبح تشهد على مبلغ ما اصابها من كلال وارهاق· وكان من دأب عدد من البنيات ، يبلغ نصف دزينة تقريبا ، ان يقطعن تسلسل هذه الاعمال بتمثيلهن دور يوتيخوس ، اذ كان يغلبهن النعاس فيسقطن لا من العلية الثالثة ، مثل يوتيخوس ، ولكن من على المقعد الرابع ، ليُحملن بعدُ نصف ميتات · وكان العلاج يتلخص في دفعهن الى منتصف حجرة الدرس واكراههن على الوقوف هناك حتى تُنْجَزَ العظة · وكانت اقدامهن تخونهن ، في بعض الاحيان ، فيتهاوين على الارض متراكمات بعضهن فوق بعض · عندئذ كان يؤتى بكراسي العريفات العالية ، التي لا ظهر لها ، لكي تساعدهن على الوقوف وتقيهن شر السقوط ·

انا لمّا الم بعد الى زيارات مستر بروكلهورست ، والواقع انه كان غائبا

عن المدرسة خلال الجزء الاكبر من اول شهر انقضى على التحاقي بها ، ولعله اطال مقامه مع صديقه رئيس الشمامسة • ولقد اورثني غيابه شيئا من الراحة والطمأنينة ، وما اظن اني في حاجة الى النص على انه كانت لدي اسبابي الخاصة التي تدعوني الى التوجس خيفة من مقدمه • ولكنه قدم ، برغم ذلك ، آخر الامر •

وذات اصيل (وكنت قد سلخت ثلاثة اسابيع في لوورود) ، بينا كنت جالسة وفي يدي لوح حجري اجهد نفسي في اداء عمل من اعمال القسمة الطويلة ، لمحت عيناي وقد شردتا نحو النافذة ، شخصا يجتاز بالمكان • وتبينت ، على نحو غرزي تقريبا ، هوية ذلك الطيف النحيل • حتى اذا وقف كل من في المدرسة ، حتى المعلمات انفسهن ، بعد ذلك بدقيقتين ، وقفة رجل واحد ، لم اعد بحاجة الى رفع ناظري لكي استيقن حقيقة الوفد الذي عبرن عن ترحيبهن على ذلك النحو بمقدمه • لقد ذرعت حجرة الدرس واذا بالعمود الاسود نفسه ، الذي قطب في وجهي على نحو مشؤوم الى ابعد الحدود من فوق بساط المستوقد في غايتسهيد ، يقف فجأة الى جانب مس تامبل التي كانت قد نهضت هي ايضا مع الناهضات • عندئذ اختلست النظر ، على نحو جانبي ، الى هذه « التحفة المعمارية » • اجل ، لقد كنت على صواب : كان هو مستر بروكلهورست ، مرتديا معطفا مزررا حتى العنق ، وقد بدا في عيني اطول قامة ، واشد هزالا ، واكثر تيبسا من ايما وقت مضى •

وكانت لي اسبابي الخاصة التي تدعوني الى الذعر من هذا الظهور الشبحي : فقد تذكرت جيدا تلك الملاحظات الخاتلة التي قدمتها مسز ريد اليه في ما يتصل بنزعاتي وميولي ، والعهد الذي اخذه مستر بروكلهورست على نفسه بان يلفت نظر مس تامبل وانظار المعلمات الى طبيعتي الخبيثة • والحق اني كنت طوال الوقت اخشى الوفاء بهذا العهد ، ـ كنت انتظر يوميا وفود « الرجل القادم » الذي كان مقدرا لمعلوماته عن حياتي الماضية وعن مسلكي ان تسمني الى الابد بسِمة « طفلة خبيثة » • وها هو ذا الان هناك • لقد وقف الى جانب مس تامبَل ، كان يهمس في اذنها : ولم يساورني ريب في انه كان يسر اليها بحديث دناءتي وخباثتي ، وراقبت عينها في قلق موجع ، متوقعة كل لحظة ان ارى انسانها الاسود يحدجني بنظرة اشمئزاز واحتقار • وارهفت السمع ايضا ، واذ اتفق ان كنت جالسة في مقدمة الحجرة تماما فقد تلقفت معظم ما قاله ، فسرّى فحواه عني وحررني من خوفي المباشر •

ـ « انا احسب ، يا مس تامبل ، ان الخيط الذي اشتريته من لوتون مناسب • لقد وقع في نفسي انه هو الصنف الملائم كل الملاءمة لقمصان الخام ، ولقد صنفت الابر لتوافقه • ويحسن بك ان تعلمي مس سميث اني نسيت ان اضع مذكرة حول ابر الرفو ، ويتعين عليها ان لا تقدم بأية حال اكثر من ابرة واحدة الى كل طالبة • اننا ان اعطيناهن اكثر من ذلك نزعن الى الاهمال وفرطن في الابر واضعنها • آه ، يا سيدتي ! اني لاتمنى لو حظيت الجوارب الصوفية

بعناية اكبر ! فيوم جئت الى هنا في المرة الاخيرة قصدت الى فنـــاء المطبـخ وفحصت الملابس المنشورة على حبل الغسيـــل لتجف ، كان ثمة كمية مـن الجوارب الطويلة السوداء في حال رديئة جدا : ومن حجم الثقوب التي تبدو فيها ايقنت انها لم ترْتَقْ بين الفينة والفينة رتقا حسنا » ٠

وصمت لحظة فقالت مس تامبل : « ان اوامرك ستكون موضع الاحترام ، يا سيدي ٠ »

فواصل كلامه قائلا : « والى هذا ، يا سيدتي ، فقد انبأتني الغسّالة ان بعض الفتيات يُعْطَيْن صُدَيرتَيْن نظيفتين كل اسبوع ٠ هذا اكثر مما ينبغي ٠ ان الانظمة تقضي باعطائهن صديرية واحدة ليس غير ٠ »

ـ « احسب ان في استطاعتي ان اشرح الملابسات التي دعت الى ذلك ، يا سيدي ، فقد دُعيت آغنيس وكاترين جونسون لتناول الشاي مع صديقات لهما في لوتون يوم الخميس الماضي ، وقـــد اجزت لهمـــا ان ترتديا ، لهذه المناسبة الخاصة ، صديريتين نظيفتين ٠ »

فهز مستر بروكلهورست رأسه ثم قال : « حسنا ، في امكاني ان اغض الطرف عن ذلك بعد ان ادركت انه لم يحدث الا مرة واحدة ، ولكني ارجوك ان لا تجيزي لمثل هذه الملابسات ان تتكرر كثيرا ٠ وثمة مسألة اخرى ادهشتني : لقد اكتشفت ، عند تسوية الحسابات مـــع مدبرة شؤون الدار ، ان وجبة صباحية مؤلفة من خبز وجبن قد قُدمـــت الى البنات مرتيـــن اثنتين خلال الاسبوعين الماضيين ٠ فكيف جاز ذلك ؟ لقد راجعت انظمة المعهد فلم اجد فيها اي ذكر لمثل هذه الوجبة الاضافية ٠ من الذي احدث هذه البدعة ؟ وما السلطة التي تخوله ذلك ؟ »

فاجابت مس تامبل : « يجب ان تُلقَى تبعة ذلك عليّ يا سيدي ٠ لقد كان فطور الصبـــاح مطهوا على نحو رديء جدا تعذّر معه على الفتيـــات ان يزدَرِدْنه ، ولم اجرؤ على ترْكهن صائمات حتى موعد الغداء ٠ »

ـ « اسمحي لي لحظة ، يا سيدتي ٠ انت تعلمين ان خطتي في تنشئة هاته الفتيات لا تهـــدف الى تعويدهـــن الترف ولِينْ العيش بل تهدف الى تعليمهن الجرأة والجلَدَ وانكار الذات ٠ فاذا اتفق لشهوتهن الى الطعام ان اصيبت بخيبة ضئيلة ، بسبب من افساد الطعام ومن ابقائه على النار اقل مما ينبغي او اكثر مما ينبغي مثلا ، فليس يجوز ان يُمْحي ذلك الحادث بالتعويض عن الرفه الضائع بتقديم وجبة افضل ، وبذلك نرفّه الجسد وننحرف عـن الغرض الذي انشىء هذا المعهد من اجله ٠ ان علينا ان نفيد من تلك الخيبة ونتخذها وسيلة لتهذيب الطالبات روحيا من طريق تشجيعهن على التجلّد في حالات الحرمان المؤقت ٠ ومن المناسب في امثـــال هذه الحـالات القاء كلمة صغيرة على الطلاب ينتهزها المدرس الحكيـم فرصة سانحة للاشارة الى آلام المسيحيين الاولين ، وعذابات الشهداء ، والى مواعظ السيد المسيح المبـــارك نفسهِ التي دعا فيها الى حوارييه الى ان يحملوا صلبانهـــم ويتبعوه ، والى

تحذيراته القائلة بان الانسان لا يحيا بالخبز وحده ولكن بكل كلمة تنطلق من فم الله ، والى تعزياته المقدسة : « طوبى لكم اذا قاسيتم الجوع والظمأ من اجلي . » اوه ، يا سيدتي ، انك حين تضعين خبزا وجبنا ، بدلا من ثريد محترق ، في افواه هاته البنيات قد تغذين من غير ريب اجسادهن الدنيئة ولكنك قلما تفكرين الى اي حد تجيعين نفوسهن غير الفانية ! »

وامسك مستر بروكلهورست عن الكلام ، كرة اخرى – ولعله فعل ذلك تحت وطأة الاحاسيس التي هيمنت عليه . وكانت مس تامبل قد غضت من بصرها عندما استهل حديثه معهما ، ولكنها حدّقت الان الى امام تحديقا مباشرا ، فبدا وجهها – الشاحب بطبيعته شحوب الرخام – وكأنه اكتسب برودة هذه المادة وثباتها ايضا ، وعلى الاخص ثغرها ، المطبَق وكأن فتحته يحتاج الى ازميل نحات ، وجبينها الذي تغضن آخذا سبيله تدريجيا نحو صرامةٍ متحجرة .

وفي غضون ذلك راح مستر بروكلهورست ، وقد وقف قرب المستوقد شابكا يديه خلف ظهره ، يراقب المدرسة كلها في مهابة وجلال . وفجأة اختلجت عينه ، وكأنما وقعت على شيء بهر انسانها او صدمه ، فاستدار وقال في نبرات اشد تلاحقا مما اصطنع حتى ذلك الحين :

– « مس تامبل ، مس تامبل ! من هي تلك الفتاة ذات الشعر المعقوص ؟ شعر احمر ، يا سيدتي ، معقوص – معقوص كله من اقصاه الى اقصاه ؟ » قال ذلك ورفع عصاه مشيرا بها الى الشيء الرهيب ، وقد ارتجفت يده فيما هو يفعل ذلك .

فاجابت مس تامبل في سكينة بالغة : « انها جوليا سيفرن . »

– « جوليا سيفرن ، يا سيدتي ! ولماذا تعقص هي ، او تعقص اية فتاة اخرى ، شعرها ؟ لماذا تلتزم الزيّ الشائع التزاما مكشوفا الى هذا الحد ، جاعلة من شعرها كتلة من الحلقات المعقوصة ، متحدية بذلك جميع انظمة هذه الدار ومبادئها ؟ – واين ؟ في مؤسسة انجيلية خيرية ! »

فأجابته تامبل ، في سكينة اشدّ حتى من سكينتها الاولى : « ان شعر جوليا متجعد بطبيعته . »

– « بطبيعته ؟ اجل ، ولكن الواجب يقتضينا ان لا نذعن للطبيعه . انا اريد ان تكون هاته الفتيات بنات الفضيلة المسيحية ، وعلام هذا الترف كله ؟ لقد اشرت مرة ومرة الى اني اود ان تسرّح البنات شعرهن على نحو مُرْسَل ، بسيط ، غير متكلّف . مس تامبل ، ان شعر هذه الفتاة يجب ان يقص كله . ولسوف ابعث غدا بحلاق ... واني لارى فتيات اخريات يلجأن اكثر مما ينبغي الى « تصفيف » شعرهن ورفعه الى اعلى ... وهذه الفتاة الطويلة – قولي لها ان تستدير . قولي لجميع طالبات الصف الاول ان ينهضن ويوجّهن وجوههن نحو الجدار . »

وامرّت مس تامبل منديلها فوق شفتيها ، وكانما لتمحو الابتسامة غير

الارادية التي باعدت ما بينهما ، ومع ذلك ، فقد اصدرت امرها بذلك . وحين وفقت بنات الصف الاول الى فهم ما طلب اليهن فعلُه امتثلن الامر . ومن طريق الانحناء قليلا الى الوراء فوق مقعدي الخشبي الطويل استطعت ان المح مختلف النظرات وحركات الوجه الهازئة التي علقن بواسطتها على هذه « المناورة » . ومن اسفٍ ان مستر بروكلهورست لم يستطع ان يراهن ، كما رأيتهن انا . ولو قد استطاع ذلك اذن لكان من الجائز ان يدرك انه مهما يفعلْ بظاهر الكأس والطبق فان باطنهما يظل في نجوة من تدخّله ، اكثر مما يظن او يتخيل .

واستعرض ظهورَ هذه « المداليات » الحية متفحصا اياها نحوا من خمس دقائق ، ثم لفظ حكمه . ولقد سقطت كلماته على رؤوسنا وكأنها النفخ في الصُّور :

ـ « جميع هذه الخُصَل العليا يجب ان تُجتزّ ! »

وبدت مس تامبل وكأنها تحتج .

وواصل مستر بروكلهورست كلامه : « سيدتي ، ان لي سيدا اخدمه مملكتُه ليست في هذا العالم . ورسالتي هي ان أميتَ في هؤلاء البنات شهوات الجسد ، ان اعلمهن الاحتشام والرصانة فلا يظهرن ابدا بشعر معقوص وحلة نفيسة . ان في رأس كل من الفتيات اللواتي امامنا ، هنا ، خصلة من الشعر مجدولة ، ولعل يد الزهو هي التي جدلتها . اكرر القول ان هذه الجدائل يجب ان تُجتَزّ . فكّري في الوقت المهدور وفي الـ . . . . »

لقد حِيلَ ، هنا ، بين مستر بروكلهورست وبين اكمال حديثه ، بعد ان دخلت الحجرة ثلاث زائرات ـ ثلاث سيدات . وكان يَحسُن بهاته النسوة ان يفدن قبل ذلك بقليل ليسمعن محاضرته عن الملابس ، ذلك بأنهن كنَّ يَرفلن بالمخمل والحرير والفراء ، على نحو باذخ . كانت الاثنتان الاصغر سنا بين الزائرات الثلاث (وهما فتاتان وسيمتان في السادسة عشرة والسابعة عشرة) تعتمران بقبعتين رماديتين من جلد السمّور ـ وكان هذا النوع من القبعات زيا شائعا آنذاك ـ مظللتين بريش النعام . ومن تحت حافتي هاتين القبعتين البديعتين تدلّت جمهرة من الذوائب الصغيرة المعقوصة عقصا معقدا . وكانت السيدة الكهلة تتشح بشال مخملي نفيس مقلّم بفراء من جلد القاقم ، وتزين جبينها بِحُلَيْقات من الشعر المستعار ، على الطريقة الفرنسية .

واستقبلت مس تامبل هاته السيدات في حفاوة واحترام بوصفهن السيدة والآنستين بروكلهورست ، وقادتهن الى مقاعد الشرف في صدر الحجرة . ويبدو انهن قد وفدن في المركبة مع نسيبهن المبجَّل ، ومن ثم انصرفن الى اجراء تفتيش دقيق لغرف الدور العلوي بينا انهمك هو في مناقشة مدبّرة شؤون الدار الحساب ، وفي استنطاق الغاسلة ، وفي القاء محاضرة على مديرة المدرسة . ولم يكدن يبلغن مقاعدهن حتى رحن يوجهن ملاحظات وتعنيفات مختلفة الى مس سميث التي كان موكولا اليها امر العناية بالبياضات

المنزلية وتفتيش حجرات النوم . ولكني لم اجد متسعاً من الوقت للاصغاء الى ما قلنه ، فقد صرفتني عنه شؤون اخرى استأثرت بانتباهي كله .

وبرغم انصرافي ، حتى ذلك الحين ، الى تلقف ما دار بين مستر بروكلهورست ومس تامبل من حديث فاني لم اهمل ، في الوقت نفسه ، اتخاذ الاحتياطات التي تكفل سلامتي الشخصية ، هذه السلامة التي اعتقدت انها سوف تتعرض للاذى الا اذا وُفقت الى البقاء في نجوة عن الانظار . من اجل ذلك كنت قد نأيت بنفسي الى مؤخرة الصف ، ورحت اتظاهر بالانهماك في حل مسألتي الحسابية ممسكة بلوحي الحجري على نحو يحجب وجهي عن الابصار . ولقد كان خليقا بي ان اجتنب وقوع العين عليّ لو لم يزلّ لوحي الغادر ، من يدي ، بطريقة ما ، محدثا قرقعة متطفلة لفتت اليّ جميع العيون في الحال . وادركت الان ان كل شيء قد انتهى ، وبينا انحنيت لالتقاط قطعتي اللوح المكسور استجمعت قواي انتظارا لما هو اسوأ .

وكان ما خفت ان يكون ، فقال مستر بروكلهورست : « فتاة مهملة ! » ثم اضاف بعد ذلك مباشرة : « انها الطالبة الجديدة في ما ارى . »

وقبل ان اوفق الى اخذ نَفَسٍ ، قال : « يجب ان لا انسى ان لدي كلمة اود ان اقولها بشأنها » ثم اردف بصوت عال ، وما اشد ما بدا لي صوته ذاك عاليا ! « ايتني بالطفلة التي كسرت لوحها الحجري الى هنا ! »

ولم يكن في وسعي ان اتحرك من تلقاء نفسي . كنت قد اصبت بالشلل ، ولكن الفتاتين الكبيرتين اللتين جلستا الى جانبيّ انهضتاني على قدميّ ودفعتاني نحو القاضي الرهيب ، ومن ثم اخذت مس تامبل بيدي في رفق وساعدتني على المثول بين يديه ، فسمعتها تهمس في اذني قائلة :

— « لا تجزعي يا جين ، لقد رأيت ان ذلك كان مجرد مصادفة . انك لن تعاقَبي . »

ونفذت الهمسة الشفوق الى فؤادي مثل خنجر .

وقلت في ذات نفسي : « لن تنقضي دقيقة اخرى حتى تعتبرني فتاة مُرائية وتنظر اليّ في ازدراء . »

وعند هذه الادانة عصف في عروقي غيظ عارم على رِيد ، وبروكلهورست ، وشركائهما . فانا لم اكن فتاة من طراز هيلين بيرنز .

وقال مستر بروكلهورست مشيرا الى كرسي عال ، لا ظهر له ، كانت احدى العريفات قد نهضت عنه منذ لحظة : « فلتأتني احداكنّ بهذا الكرسي » .

وجيء بالكرسي ، فقال مستر بروكلهورست : « ضَعْن الطفلة فوقه! »

ووضِعتُ حيث ارادني ان اوضع ، وما دريتُ من الذي وضعني هناك ، فلم اكن في وضع يمكنني من ملاحظة التفاصيل . كل ما ادركته هو اني رُفعت الى مستوى انف مستر بروكلهورست بحيث امسى على مدى ياردة مني ، وبحيث انبسط تحتي وتموّج بحر من جلابيب حريرية ارجوانية وبرتقالية متغيرة الوانها كل لحظة ، وسحابة من ريش فضي .

وتنحنح مستر بروكلهورست ، وقال ملتفتا الى اسرته : « سيداتي ، مس تامبل ، ايتها المدرسات والطالبات الصغيرات ، هل ترين كلكن هذه الفتاة ؟ »

وقد رأينني من غير ريب • ذلك بانني احسست باعينهن مصوبة على بشرتي المسفوعة وكأن تلك الاعين عدسات محرقة •

ـ « انتن ترين انها لا تزال صغيرة ، انتن تلاحظن انها تتمتع بشكل الطفولة العادي • فقد انعم الله عليها بالصورة التي وهبنا كلنا اياها ، وليس ثمة فيها عاهة ملحوظة تنبىء بانها ذات شخصية تلفت النظر • من ذا الذي يستطيع ان يتصور ان « الشرير » قد وجد فيها خادما له واتخذ منها اداة لتنفيذ مآربه ؟ ومع ذلك ، فيحزنني ان اقول لكنَّ ان هذا هو حالها » •

وامسك عن الكلام لحظة شرعتُ فيها اهدىء اعصابي الثائرة ، واشعر اني اجتزت مرحلة اللارجوع ، وان من واجبي ، بعد ان تعذر علي الفرار من وجه المحنة ، ان احتملها في عزم وثبات •

واستأنف الكاهن الرخامي الاسود كلامه في نبرة تثير الشجون : « صغيراتي العزيزات ، انها لمناسبة محزنة كئيبة ، فقد اصبح من واجبي ان احذّركن فاقول ان هذه الفتاة ، التي قد تكون واحدة من خراف الرب ، هي منبوذة صغيرة • انها ليست عضوا من اعضاء القطيع الصالح ، بل دخيلة عليه واجنبية عنه • ان عليكن ان تأخذن حذركن منها ، عليكن ان لا تنهجن نهجها : واذا دعت الضرورة ، فاجتنبن معاشَرتها ومرافقتها ، حظّرن عليها الاسهام في العابكن ، ولا تُجزْنَ لها ان تشارك في احاديثكن • اما انتن ، ايتها المعلمات ، فعليكن ان تراَقبنها : سمّرن اعينكن على حركاتها ، ورُزْنَ كلماتها رَوزا حسنا ، وتحرَّين اعمالها ، وعاقبن جسدها لكي تنقذن روحها ، اذا كان مثل هذا الخلاص ممكنا ، في الواقع ، لان هذه ••• (وان لساني ليتلعثم اذ اقول ذلك) ، الفتاة ، هذه الطفلة ، هذه البنت المولودة في ديار مسيحية ، والتي هي اردأ من كثير من الوثنيات الصغيرات اللواتي يرفعن صلواتهن لبراهما ويسجدن لـ « يَغَرْنوط » * •• هذه الفتاة هي : كذابة! »

ورأن الصمت بعد ذلك ، عشر دقائق لاحظت خلالها (وكنت قد استعدت رباطة جأشي استعادة كاملة) جميع سيدات اسرة بروكلهورست يُخرجن مناديلهن من جيوبهن ، ويغطين بها اعينهن ، بينا راحت السيدة الكهلة تترنح الى امام والى وراء ، واخذت الآنستان الشابتان تتهامسان : « يا للهول ! »

واستأنف مستر بروكلهورست كلامه : « ذلك شيء عرفتُهُ من ولية نعمتها ، من السيدة الورعة المحسنة التي تبنتَها يوم كانت يتيمة وربتها وكأنها ابنتها ، والتي كان جواب الفتاة التعسة على حنانها وكرمها نكرانا للجميل بشعا ورهيبا الى حد اضطرت معه راعيتَها المتازة الى فصلها عن

---

* Juggernaut احد الآلهة الهندية • (المعرب)

صغارها خشية ان تسري عدوى سلوكها الشائن الى طُهرهم • ولقد ارسلتها الى هنا لكي تعالج ، كما كان اليهود القدماء يرسلون مرضاهم الى بركة بيثيسدا العكرة • اينها المعلمات ، اينها المديرة ، ارجوكن ان لا تَدَعنَ المياه تركد من حولها • »

حتى اذا لفظ مستر بروكلهورست هذه الخاتمة السَّنِيَّة ، عدّل زرّ معطفه الاعلى وهمس في آذان اسرته بشيء ما ، فنهضن وانحنين لمس تامبل • ومن ثم انسحبت الشخصيات البارزة كلها من الحجرة ، في ابهة وجلال • حتى اذا انتهى قاضيَّ الى الباب استدار وقال :

ـ « فلتبقَ نصف ساعة اخرى فوق ذلك الكرسي الذي لا ظهر له ، ولتمتنع كل منكن عن التحدث اليها بقية ساعات اليوم • »

واذن فقد كنتُ ثمة منصوبةً مرفوعةً : انا التي سبق لي ان اعلنت اني لن اقوى على احتمال عار الوقوف على قدمي الطبيعيتين في وسط الحجرة، كنت معروضة لانظار الجماعة كلها فوق قاعدة الخزي والشنّار•ما الاحاسيس التي غلبت عليّ ؟ ذلك ما تعجز ايما لغة عن وصفه • ولكن ما ان جاشت هذه الاحاسيس كلها خانقة انفاسي عاصرة حنجرتي حتى اقبلت احدى الفتيات ومرت بالقرب مني • لقد رفعت عينيها فيما كانت تجتاز بي • اي ضياء غريب كان يلتمع فيهما ! اي احساس استثنائي اوقعه ذلك الضياء في جوانحي ! ويا للشجاعة التي اورثتني اياها هذا الاحساس الجديد ! لكأن شهيدا من الشهداء او بطلا من الابطال ، قد اجتاز بعبد رقيق او بضحية من الضحايا فنفخ فيه القوة والعزم • وتغلبتُ على الهستيريا الجائشة في ذات نفسي ، ورفعت رأسي الى اعلى ، واثبتُّ قدميّ فوق الكرسي الذي لا ظهر له • لقد وجهت هيلين بيرنز الى مس سميث سؤالا صغيرا حول مسألة متصلة باشغالها اليدوية ، فزُجرتْ لتفاهة ذلك السؤال ، وعندئذ انقلبت الى مكانها وابتسمت لي لحظة اجتازت بي كرة ثانية • ويا لها من ابتسامة ! اني لا ازال اتذكرها حتى في هذه الساعة ، وانا اعلم انها كانت هي فيض العقل السامي والشجاعة الحق • لقد اضاءت اساريرها المتغضنة ، ووجهها الهزيل ، وعينها الرمادية الغائرة ، وكأنها انعكاس عن وجه ملاك • ومع ذلك ، فقد كانت ذراع هيلين بيرنز مطوّقة في تلك اللحظة بسمةٍ تعلن انها « عديمة الترتيب » • فقبل ساعة او اقل كنت سمعت مس سكاتشيرد تحكم عليها بان يقتصر غذاؤها في غد على الخبز والماء ، لان بعض بقع الحبر لطخت دفترها فيما كانت تنسخ عليه تمريننا ما • تلك هي طبيعة الانسان التي يعوزها الكمال ! ان امثال هذه البقع لتبدو على صفحة اكثر الكواكب سطوعا ، ومع ذلك فان عينين كعيني مس سكاتشيرد لا تريان غير هذه العيوب الطفيفة ، وتعميان عن تألق الكوكب الكلي •

٨

وقبل ان تنقضي الدقائق الثلاثون دقت الساعة معلنة الخامسة • لقد عُلِّقت الدروس ، وشخصت الجماعة كلها الى حجرة الطعام لتناول الشاي •

عندئذ جازفت فنزلت عن الكرسي الذي لا ظهر له : كان الغسق حالكا ، فانتحيت زاوية وقعدت على الارض • كانت الرُقية التي مكّنتني من احتمال الاذى حتى تلك اللحظة قد شرعت تتبدد ، ليعاودني الانفعال والضيق • وسرعان ما استبد بي اسىً طاغٍ أوهى جَلَدي فسقطتُ مستقبلة الارض بوجهي ، وانخرطت في البكاء : ان هيلين بيرنز لم تكن هناك لتشد ازري • واذ خُلِّفت وحدي فقد استسلمت لعواطفي ، فاذا بعبراتي تروي ارضية الحجرة الخشبية • كنت قد عقدت العزم على ان اكون فتاة صالحة جدا ، وعلى ان احقق في لووود اشياء كثيرة : ان اكسب اكبر عدد من الصديقات ، وان افوز بالاحترام ، وانتزع المودة والعطف • وكنت قد احرزت ، فعلا ، بعض التقدم المحسوس • ففي ذلك الصباح بالذات كنت قد وُفِّقت الى احتلال المنزلة الاولى في صفي ، وكانت مس ميلر قد اثنت عليّ ثناءً حارا • كانت مس تامبل قد ابتسمت لي ايذانا برضاها عني ، وكانت قد وعدت بان تعلمني الرسم وبان تجيز لي تعلم الفرنسية اذا ما واصلتُ احراز تحسّن مماثل طوال شهرين اضافيين • والى هذا ، فقد تلقتني زميلاتي بقبول حسن ، وعاملني اترابي معاملة الند للند ، ولم تعمد ايما فتاة الى مضايقتي • وها انا ذا الآن ملقاة على الارض ، من جديد ، مسحوقة مدوسة بالاقدام ، فهل يقدَّر لي ان انهض كرة اخرى ؟

وقلت في ذات نفسي : « لا ، ابد الدهر • » وتمنيت ، في حرارة بالغة ، لو اموت • وفيما كنت اتنهّد معبّرة عن هذه الامنية في نبرات مهشمة تقدم نحوي شخص ما • واجفلتُ • كانت هيلين بيرنز على مقربة مني ، هذه المرة ايضا ، وكانت الجمرات الخامدة قد ارتني اياها تتقدم عبر الحجرة الطويلة الخالية : لقد حملت اليّ شيئا من القهوة والخبز •

ووجهت اليّ الخطاب قائلة : « هيا ، كلي شيئا » • ولكني نحّيت كلا من القهوة والخبز عني ، شاعرة وكأن ايما نقطة او كسرة منهما خليق بها ، في حالتي تلك ، ان تخنقني خنقا • وانعمت هيلين النظر اليّ ، ولعلها فعلت ذلك في دَهَش : لقد عجزت الان عن اخماد اهتياجي ، برغم ما بذلت من جهد عنيف ، ولقد واصلتُ البكاء في صوت عال • عندئذ قعدَتْ قربي على الارض ، مطوِّقة ركبتيها بذراعيها ، واسندت رأسها اليهما ، واعتصَمتْ في وضعها ذاك بحبل الصمت ، وكأنها مخلوقة من الهند • وكنت انا اول من بدأ بالكلام :

– « هيلين ، لماذا تلازمين فتاة يعتقد العالم كله انها كذابة ؟ »

– « العالم كله يا جين ؟ عجبا ، ان عدد الذين سمعوك تُنْعتين بهذا

النعت لا يتجاوز الثمانين شخصا ، والعالم يحتوي مئات الملايين • »

ــ « ولكن اي شأن لي بهذه الملايين ؟ ان الثمانين شخصا اللواتي اعرفهن لينظرن اليَّ في احتقار » •

ــ « جين ، انت مخطئة : واغلب الظن انه ليس في المدرسة شخص واحد يحتقرك او يكرهك • بل اني واثقة من ان كثيرات يرثين لحالك الى حد بعيد • »

ــ « كيف يستطعن ان يرثين لحالي بعد ان قال مستر بروكلهورست ما قاله ؟ »

ــ « مستر بروكلهورست ليس الها ، بل انه ليس برجل عظيم متمتع باعجاب الناس • انه لا ينعم هنا بأكثر من حب ضئيل ، ولا عجب ، فهو لم يحاول في ايما يوم من الايام ان يجعل من نفسه شخصا محبوبا • ولو قد حاباك في المعاملة اذن لوجدت من حولك عدوًّا كثيرا ، بعضهن يجاهرن بعداوتهن وبعضهن يخفينها • اما في حالتك الحاضرة فخليق بالكثرة العظمى من الفتيات ان يبسطن لك يد العطف اذا جَسَرنَ على ذلك • ان المعلمات والطالبات قد ينظرن اليك في برود ، طوال يوم او يومين ، ولكن قلوبهن تكنُّ لك مشاعر ودية • واذا واظبتِ على انتهاج السبيل الصالح فلن ينقضي طويل وقت حتى تقوى هذه المشاعر الى درجة يتعذر معها كَبْتُها كبتا مؤقتا • والى هذا ، يا جين ••• »

وكفَّت عن الكلام ، فقلت واضعة يدي على يدها : « ماذا تريدين ان تقولي يا هيلين ؟ »

ففركت اصابعي فركا رفيقا لكي تدفئها ، ثم تابعت قائلة : « لو ان العالم كله ابغضك واعتقد بأنك شريرة ، وكان ضميرك مطمئنا الى ما تعملين مبرِّئا لك من التهمة ، فلن تَعْدمي بعض الاصدقاء والصديقات • »

ــ « لا ، انا اعلم ان من واجبي ان احسن الظن بنفسي ، ولكن هذا ليس كافيا : اذا ضنَّ عليَّ الآخرون بالحب فعندئذ اؤثر الموت على الحياة ــ انا لا احتمل رؤية نفسي منبوذة مكروهة ، يا هيلين • اسمعي ، اني لمستعدة ، من اجل اكتساب بعض المحبة الصادقة منك او من مس تامبل او من ايما شخص آخر احبه حبا خالصا ، ان أسلِمَ عظم ذراعي للكسر ، او ان اجيز لاحد الثيران ان ينطحني ، او ان اقف وراء حصان رافس وادعه يقذف صدري بحافره ••• »

ــ « هش ، جين ! انتِ تفكرين اكثر مما ينبغي بحب الكائنات البشرية، انت عاطفية اكثر مما ينبغي ، مرهفة الحس اكثر مما ينبغي : ان اليد العليا التي خلقت جسدك ونفخت فيه الحياة قد زودتك بموارد اخرى غير نفسك الضعيفة او غير المخلوقات الضعيفة مثلك • فبالاضافة الى هذه الارض وبالاضافة الى الجنس البشري هناك عالم غير منظور ومملكة ارواح : ان ذلك العالم ليُحيط بنا من اقطارنا ، ذلك بانه موجود في كل مكان ، وان

تلك الارواح لتراقبنا ، ذلك بانها مفوضة بحراستنا • فاذا ما قضى علينا الوجع والخزي ، واذا ما طعننا الازدراء من كل جانب ، واذا ما سحقنا البغض سحقا ، رأت الملائكة عذاباتنا ، وادركت براءتنا (اذا كنا ابرياء حقا : وانا اعلم جيدا انك براء من هذه التهمة التي نقلها مستر بروكلهورست في ضعف وابهة عن لسان مسز ريد من غير ان يتحقق ذلك بنفسه ، فقد لمحت آيات الفطرة المستقيمة في عينيك المتوقدتين وعلى جبينك الوضاح) ، وليس ينتظر الله غير انفصال الروح عن الجسد حتى يتوجنا بثواب كامل • فما الذي يدعونا اذن الى الرزوح تحت ثقل الغم والاسى ، ما دام العمر سريع الانقضاء ، وما دام الموت مَعْبَرا لا ريب فيه الى السعادة ـ الى المجد ؟»

وبقيتُ صامتة : كانت هيلين قد اوقعت السكينة في نفسي ، ولكن تلك السكينة كانت مشوبة بأسى يمتنع على الوصف • لقد المَّ بي ، فيما كانت تتكلم ، شعور بالغم ، بيد اني لم اوفق الى معرفة مصدره • حتى اذا امسكتْ عن الكلام وراحت تلهث لهاثا خفيفا ، مطلقة سعالا وجيزا نسيتُ احزاني على التوّ ، واستبد بي قلق عليها غامض •

واسندتُ رأسي الى كتف هيلين ، وطوّقتُ خصرها بذراعيّ • وجذبتني اليها ، واسترخينا في صمت • ولم ينقض على اتخاذنا تلك الجِلسة طويل وقت حتى اقبل شخص آخر • كانت سحب كثيفة ، طردتها من السماء ريح عاصفة ، قد خلّفتِ القمر سافرا • فتدفق ضياؤه من نافذة قريبة وغمرنا نحن الاثنتين وغمرَ الشبح المقترب الذي عرفنا فيه في الحال شخص مس تامبل •

لقد قالت : « لقد جئت ابحث عنك ، عامدة ، يا جين ايير • انا اريد منك ان تأتي الى غرفتي ، واذ كانت هيلين بيرنز معك فلا بأس في ان تأتي هي ايضا • »

ومضينا ، متتبعتين خطوات المديرة ، مجتازتين اروقة معقّدة ، ثم ارتقينا سلما قبل ان نبلغ حجرتها • كانت ثمة نار حسنة الضّرام ، ولقد بدا كل ما فيها بهيجا • وطلبت مس تامبل الى هيلين بيرنز ان تجلس على مقعد خفيض ذي ذراعين قائم الى جانب من جانبي المستوقد ، واقتعدت هي كرسيا آخر • ومن ثم دعتني الى الوقوف جنبها وسألتني ، خافضة بصرها الى وجهي : « هل انتهى كل شيء ؟ هل اطفأتِ نار اساك بالدموع التي سفحتِها؟»

ـ « يخيل الي اني لن استطيع ذلك ابد الدهر • »

ـ لماذا ؟ »

ـ « لاني اتُهمت ظلما وعدوانا ، ولانك سوف تظنين الآن ، يا سيدتي ، وسوف يظن كل امرىء معك ، انني فتاة خبيثة • »

ـ « اننا لن نحكم عليك الا من خلال سلوكك ، يا صغيرتي • واظبي على التصرف كفتاة صالحة تفوزي برضانا • »

ـ « أحق ما تقولين يا مس تامبل ؟ »

فقالت وهي تطوقني بذراعيها : « من غير ريب • والآن قولي لي من هي السيدة التي دعاها مستر بروكلهورست ولية نعمتك ؟ »

ــ « مسز ريد • زوجة خالي • لقد توفي خالي وخلّفني في رعايتها • »

ــ « واذن فانها لم تعمد الى تبنيك بطوعها ؟ »

ــ « لا ، يا سيدتي ، لقد كرِهتْ القيام بهذه المهمة • ولكن خالي ــ وهذا ما سمعته من الخدم غير مرة ــ انتزع منها قبيل وفاته وعدا بابقائي في رعايتها • »

ــ « حسن ، يا جين • انت تعلمين ، او اني على الاقل سوف اعلمك ، انه حين يُتهم مجرم بتهمة ما ، يسمح له دائما بالكلام دفاعا عن نفسه • ولقد اتُهِمتِ انت بالكذب ، فدافعي عن نفسك امامي على احسن وجه تستطيعينه • قولي كل ما تُشعِرك ذاكرتك انه صحيح • ولكن لا تتزيّدي البتة ، ولا تعمدي الى المبالغة على الاطلاق • »

وعقدت العزم ، في قرارة نفسي ، على اصطناع اقصى الاعتدال ، واقصى الدقة • حتى اذا فكرتُ بضع دقائق لكي انظّم ، على نحو متماسك ، ما كنت اريد ان اقوله ، قصصتُ عليها حكاية طفولتي الحزينة بكاملها • وكان الانفعال قد استنفد قواي ، ومن اجل ذلك جاءت لغتي مكبوحة اكثر من مألوف عادتها كلما تحدثتُ في هذا الموضوع • واذ كنت لا ازال اذكر تحذيرات هيلين من الاستسلام للغيظ فقد اشرّبتُ قصتي بقدر من الحنق والمرارة اقل من المعتاد بكثير • والواقع ان تلطيفها وتبسيطها على هذا النحو جعلاها تبدو اجدرَ بالتصديق : لقد شعرت ، وانا امضي في الرواية ، ان مس تامبل صدقت كل كلمة من كلماتي •

وكنت قد اشرت ، في سياق الحكاية ، الى مستر لويد قائلة انه وفَدَ لزيارتي بعد النوبة ، ذلك باني لم انس قط حادثة الحجرة الحمراء ، تلك الحادثة الرهيبة بالنسبة الي • وكان لا بد لاهتياجي ، وانا اروي تفصيلات تلك الحادثة ، من ان يتخطى حدود الاعتدال ، الى حد ما • اذ لم يكن في مستطاع ايما شيء ان يلطّف ، في ذاكرتي ، الآلام المبرحة التي اعتصرت فؤادي عندما رفضت في ازدراء توسلي الصارخ من اجل الغفران ، وحبستني كرة اخرى في الحجرة المظلمة المسكونة •

حتى اذا انتهيت راحت مس تامبل تنظر اليّ ، بضع دقائق ، في صمت ، ثم قالت : « انا اعرف شيئا عن مستر لويد • ولسوف اكتب اليه • فاذا جاء جوابه منطبقا على روايتك فعندئذ تُبرَّئين ــ على ملأ من المعلمات والطالبات ــ من كل تهمة • اما انا شخصيا فاعتبرك ، منذ الآن ، بريئة • »

وقبّلتني ، مبقية اياي الى جانبها ، حيث سعدتُ بالوقوف ، اذ استمدَدْتُ متعة طفلية من انعام النظر الى وجهها ، وفستانها ، وحليتها او حليتيها الاثنتين ، وجبينها الابيض ، وخُصَل شعرها المُعَنْقَدة الملتمعة ، وعينيها السوداوين المشعتين • ثم انها وجهت الخطاب الى هلين بيرنز :

ـ « كيف حالك ، الليلة ، يا هيلين ؟ هل سعلتِ كثيرا اليوم ؟ »
ـ « ليس كثيرافي ما اعتقد ، يا سيدتي • »
ـ « والالم في صدرك ؟ »
ـ « لقد خف بعض الشيء • »

ونهضت مس تامبل ، وامسكت بيدها ، وجسّت نبضها • ثم انها انقلبت الى كرسيها • حتى اذا بلغته سمعتها تطلق زفرة خفيضة • واستسلمت للتفكير بضع دقائق ، ثم انتزعت نفسها من غمرته وقالت في ابتهاج : « ولكنكما انتما الاثنتان ضيفتاي الليلة • ويتعين علي ان اعاملكما معاملة الضيف • »

ورنت جرسا ثم قالت للخادم التي لبّت نداءه :« بربارة ، انا لم اتناول الشاي حتى الان • ايتي بالصينية ، وضعي فنجانين لهاتين السيدتين الصغيرتين • »

وفي الحال جيء بصينية • لشدّ ما بدت الفناجين الخزفية جميلة في عيني ، ولشد ما بدا ابريق الشاي براقا ، وقد وضعت على المائدة الصغيرة المستديرة قرب النار ! ولا تسل كم كان بخار الشاي زكيا ، وكذلك رائحة الخبز المحمص ! ذلك الخبز الذي لم ألمح منه ، ويا للذعر الذي انتابني ، (ذلك بان الجوع كان قد بدأ يستبد بي) غير قطعة صغيرة جدا • ولاحظت مس تامبل صغر القطعة ايضا فقالت : « بربارة ، ألم يكن في مستطاعك ان تأتي بقدر من الخبز والزبدة اكثر قليلا ؟ ان ما اتيت به لا يكفي ثلاثة اشخاص • »

وغادرت بربارة الحجرة ثم رجعت في غير ابطاء وقالت :« سيدتي ، مسز هاردن تقول انها بعثت اليك بالكمية المألوفة » •

ويحسن بالقارىء ان يعلم ان مسز هاردن كانت مدبرة شؤون الدار : امرأة من الضرب الذي يقره مستر بروكلهورست ويحلو له ، اذ كانت مركّبة من عظم فك الحوت ومن حديد ، وبنسبة متعادلة •

فأجابت مس تامبل : « اوه ، حسن جدا ! يبدو لي ان علينا ان نقنع بهذه الكمية ، يا بربارة » • حتى اذا انسحبت الخادم ، اضافت متبسّمة : « من حسن الطالع ان في ميسوري أن اسدّ النقص هذه المرة » •

حتى اذا دعتني وهيلين الى الاقتراب من المائدة ووضعتْ امام كل منا فنجان شاي مع فلذة لذيذة ، ولكنها رقيقة ، من الخبز المحمص ، نهضت من كرسيها ، وفتحت احد الادراج واخرجت منه رزمة ورقية ، وابدت لاعيننا ، على التوّ ، كعكة كبيرة تحتوي على بذور ذكية الرائحة •

وقالت : « كنت اعتزم ان اعطي كلا منكما جزءا من هذه الكعكة لتأخذه معها ، ولكن لما كان مقدار الخبز المحمص اقل مما ينبغي فيجب ان تتناولا نصيبكما الان » • وشرعت تقطع الكعكة شرائح ، بيد سخية •

ونعِمنا بالطعام تلك الليلة كما كان خليقا بنا ان ننعم لو كان ما قدم

ينا طعام الآلهة وشرابها . ولم تكن بسمة الارتياح التي تأملتنا مضيفتنا
ها ونحن نشبع جوعنا بالطعام الرقيق الذي قدمته الينا في سخاء .. اقول
م تكن بسمة الارتياح هذه اقل مباهج تلك الوليمة . حتى اذا فرغنا من
تناول الشاي ، واخرجت الصينية ، دعتنا كرة ثانية الى التقدم نحو
المستوقد . وجلست احدانا الى يمينها وجلست الاخرى الى يسارها، وعندئذ
دار بينهما وبين هيلين حوار كان السماح لي بالاستماع اليه امتيازا
خُصصتُ به .

وكانت مس تامبل تتكشف دائما عن شيء من الصفاء في طلعتها ، وشيء من الوقار في مظهرها ، وشيء من الاناقة المصقولة في لغتها ، وكانت هذه كلها تحول بين من تتحدث اليه وبين الاسترسال في الحماسة ، والاهتياج ، والانفعال . كانت تتكشف دائما عن شيء يكبح ابتهاج من ينظر اليها ويصغي لها بشعور من الرهبة مُهيمن . ولقد كان ذلك هو احساسي الان . اما هيلين بيرنز فقد اوقعت في نفسي دهشا بالغا .

كانت الوجبة المنعشة ، والنار الساطعة ، ووجود معلمتها المحبوبة ولطفها ، وربما اكثر من ذلك كله فكرة راودت عقلهاالفريد ... كان كل اولئك قد حرك فيها كامن قواها . لقد استيقظت تلك القوى الهاجعة ، واضطرمت : لقد توهجت بادىء الامر في توقّد وجنتيها المتوردتين ، اللتين لم تقع عيناي منهما ، حتى تلك اللحظة ، الا على شحوب واصفرار . ثم تألقت في بريق عينيها الصافي الذياكتسب فجأة جمالا اغرب واعجب من جمال مس تامبل ــ جمالا لا يقوم على اللون البديع ، والاهداب الطويلة ، والحاجبين الرقيقين المشوقين ، ولكن يقوم على المعنى ، على الحركة ، على الاشراق . ثم جرى لسانها بما تكنّه نفسها ، وتدفقت لغتها من معين لست ادري حقيقته . أيكون لفتاة في الرابعة عشرة قلب هو من الكِبَر وشدة العزم بحيث يتسع لهذا الينبوع الثرّ ، ينبوع الفصاحة المتوقدة ، الكاملة ، المحضة ؟ تلك كانت الصفات التي اتسم بها حديث هيلين في تلك الليلة التي كانت ، بالنسبة اليّ ، ليلة لا تُنسى . لقد بدت روحها وكأنها حريصة على ان تحيا ، في فترة وجيزة جدا ، بقدر ما يحيا كثير من الناس خلال عمر متطاول .

لقد تحدثتا عن اشياء لم اسمع بها من قبل ! عن امم وعصور خالية ، عن بلدان قصية ، عن جمهرة من اسرار الطبيعة كُشف النقاب عن بعضها ولا يزال بعضها موضوع حَدْسٍ . لقد تحدثتا عن الكتب ، وما اكثر ما طالعتا منها! أية ذخائر من المعرفة كانتا تملكان! ولقد بدا وكأنهما تعرفان الاسماء الفرنسية والكتّاب الفرنسيين معرفتهما لنفسيهما . ولكن دهشي بلغ اوجه عندما سألت مس هيلين ما اذا كانت تختلس احيانا بضع لحظات لتذكُر ما كان ابوها قد علّمها اياه من اللاتينية ، وعندما تناولت من على

احد الرفوف كتابا وطلبــت اليهــا ان تقرأ وتفسر صفحة من « فرجيل » *
وامتثلت هيلين الامر ، فكانت حاسة الاعجاب عندي تتعاظم مع كل بيت من الشعر قرأته • ولم تكد تبلغ آخر الصفحة حتى قرع الجرس معلنا موعــد الايواء الى المخادع • وما كان ثمة اي سبيل للتخلف ، فعانقتنا مس تامبل نحن الاثنتين ، قائلة فيما كانت تشدنا الى فؤادها :

ـ « فليبارككما الرب ، يا بُنيَّتيَّ ! »

وكان عناقها لهيلين اطول بعض الشيء من عناقهــا اياي ، حتى اذا تركتْها تمضي فعلت ذلك على كره لم تُظهر ما يضارعه قوة عند انصرافــي انا • ليس هذا فحسب ، بل لقد ركَّزت نظراتها عليها ، من دونــي ، حتى بلغت الباب ، ومن اجلها هي بالذات اطلقت للمرة الثانية زفرة حزينــة ، ومن اجلها مسحت عبرة تدحرجت على وجنتها •

وحين انتهينا الى حجرة النوم سمعنا صوت مس سكاتشيرد : كانت تفحص الادراج ، وكانت قد فتحت منذ لحظة درج هيلين بيرنز • حتــى اذا دخلنا استُقبلت هيلين بتعنيف قاسٍ واعلِمتْ ان نصف دزينــة مــن الملابس الداخلية ـ تلك التي وُجدت في درجها مطوية طيا رديئا ـ ســوف تُعلَّق غدا بالدبابيس على ظهرها •

وغمغمت هيلين هامسة في اذني : « الواقــع ان اشيــائي كان يعوزها الترتيب الى حد مخزٍ • وكنت قد عقدت النية على ترتيبها ، ولكني نسيت • »

وفي صباح اليوم التالي خطَّت مس سكاتشيرد على قطعة من الــورق المقوى ، باحرف ضخمة ، كلمة « قذرة » وعلقتها مثل تعويذة حــول جبين هيلين العريض ، الدمث ، الذكي ، الرقيق • ولقد حملتها حتى المســاء ، صابرة غير متشكّية او ممتعضة ، معتبرة ذلك قصاصا تستحقه • ولحظــة انسحبت مس سكاتشيرد بعد دروس الاصيل ، هرعتُ الى هيلين ، ونزعت قطعة الورق المقوى عن جبينها ، وقذفت بها الى النار : ان سَورة الغضــب التي امتنعت هيلين عليها كانت تضطرم في جوانحي طوال النهار ، في حين كانت العبرات ، حارة ضخمة ، تحرق خديَّ على نحو موصول • ذلك بان مشهد اذعانها المحزون اورث قلبي ألما لايطاق •

وبعد سبعة ايام انقضت على الاحداث التي رويتُهــا في الفقرات السابقة تلقَّت مس تامبل جوابا من مستر لويد ، وكانت قد كتبت اليــه : لقد بدا ان ما قاله جاء مؤيدا لروايتي • فما كان منها الا ان جمعت المدرسة كلها ، واعلنت ان تحقيقا قد أجْريَ بصدد التهم الموجهة الى جين ايير ، وانها سعيدة اعظم السعادة بأن تعلن ان جين بريئة كاملة من كل ما وُجِّه اليها • عندئذ صافحتني المعلمات وقبلنني ، وسرَتْ فــي صــفوف رفيقــاتي همهمة ابتهاج •

---

* كبير شعراء الرومان • (المعرب)

واذ تحررتُ على هذا النحو من عبءٍ فاجع ، فقد انصرفت منذ تلك الساعة الى العمل ، من جديد ، عاقدةً العزم على شق طريقي برغم المصاعب كلها : لقد كدحت كدحا عنيفا ، وكان نجاحي متكافئا مع جهودي . فقد تحسنت ذاكرتي ، ولم تكن قوية بالفطرة ، بفضل المران . وشحذَ التدريب عقلي ، فما انقضى غير اسابيع قليلة حتى رُفِّعتُ الى صف اعلى . وفي اقل من شهرين اثنين اجيز لي ان ابدأ في تعلم الفرنسية والرسم . وتعلمتُ « الزمنين » الاولين من فعل « الكون » être وفي اليوم نفسه رسمت كوخي الاول (الذي فاقت جدرانه ، بالمناسبة ، برجَ بيزا المائل من حيث الانحدار) . وتلك الليلة نسيت ، حين أويت الى الفراش ، ان أعِدَّ في خيالي ذلك العشاء الوهمي ــ المؤلف من بطاطا حارة محمَّصة او من خبز أبيض ولبن طازج ــ الذي كنت متعودة ان الْهي به اشواقي الباطنية . لقد متَّعت نفسي ، بدلا من ذلك ، بمشهد الرسوم المثالية التي رأيتها في الظلام ، وتخيلت انها كلها من صُنع يديَّ : كانت بيوتا واشجارا رسمتها بالقلم الرصاصي يد رشيقة ، وصخورا واطلالا فاتنة ، وقطعانا من الماشية على طريقة « كوويب » ، وصورا عذبة لفراشات ترفرف فوق ورود لم تتفتح اكمامها بعد ، ولطيور تنقد حبات كرز ناضجة ، ولاعشاش طيور صغيرة من نوع الصُّفراغون تكتنف بيضا اشبه باللآلىء ، وتطوِّقها أفنانُ لبلاب غض . ودرست ايضا ــ في الخيال ــ امكانية توفيقي في يوم من الايام الى القيام بترجمة سلسلة متدفقة لقصة فرنسية صغيرة بعينها ، قصة كانت مدام بييرو قد اطلعتني عليها . ذلك اليوم ، ولكني استسلمت للنوم العميق قبل ان اهتدي الى حل هذه المسألة على وجه يرضيني .

ولقد اجاد سليمان حين قال : « ان غداء مؤلفا من اعشاب في موطن يرفرف فيه الحب خير من ثور مُسَمَّن في موطن يشيع البغض في جنباته . »

ولقد كان خليقا بي الان ان لا ارتضي التخلي عن « لووود » ، برغم ما حَفِلَ به من ضروب الحرمان ، وان ارفض ان استبدل به « غايتسهيد » ومتارفه اليومية .

٩

ولكن ضروب الحرمان ، او على الاصح ضروب المشاق ، التي حفِلت بها « لووود » اخذت في النقص والتضاؤل . واقترب الربيع ، بل لقد اقبل فعلا . كان صقيع الشتاء قد ولى ، وكانت ثلوجه قد ذابت ، وكانت رياحه اللاذعة قد اعتدلت . واتخذت قدماي ، اللتان كان هواء كانون الثاني (يناير) القارس قد قرَّحهما وورَّمهما حتى العَرَج ــ سبيلهما نحو الشفاء وانحسار الورم بفضل نسائم نيسان (ابريل) الرقيقة . ولم تعد الليالي والاصباح تجمِّد ، ببردها الكنديّ الرهيب ، الدماء نفسها في عروقنا .

ولقد اصبح في ميسورنا الآن ان نطيق ساعة اللعب في الحديقة • بل لقد بدأ الجو يميل ، في بعض الايام المشمسة ، الى العذوبة واللطف ، ونمَتْ في تلك المزاهر السمراء خضرة اوحت الينا ، بنضارتها المتعاظمة يوما بعد يوم ، بأن « الامل » قد المّ بساحتها ليلا وانه كان يخلّف ثمة آثار قدميه ، كل صباح ، على نحو متنامي الاشراق • واختلست الرياحين النظر من خلال اوراق الشجر ، وكان بين تلك الرياحين زهرات تلج ، وزعفران ، وآذان دبّ ارجوانية ، وبنفسجات ثالوث ذهبية العيون • وفي اصيل كل يوم خميس (وكانت المدرسة تعطل في ذلك النهار نصف يوم) شرعنا نقوم بنزهات على الاقدام ، وكنا نقع في هذه النزهات على رياحين احلى حتى من التي عدّدتُها منذ لحظة ، رياحين متفتحة عند جانبي الطريق ، تحت الاسْيِجة المؤلفة من نباتات واشجار •

واكتشفت ايضا انه كان ثمة ، وراء جدران حديقتنا الشامخة المصونة بمسامير مؤبّرة ※ ، متعة بالغة لا يحدها غير الافق • وكانت هذه المتعة تقوم على تسريح الطرف في القمم الرفيعة المحيطة باحد الفجاج العميقة ، الغني بالخضرة والظلال ، وامتاعه بمشهد جدول برّاق مليء بالحجارة القائمة والدرادير المومِضة • لشد ما كان هذا المشهد مختلفا عن ذلك الذي بدا يوم رأيته مسجّى تحت سماء الشتاء الحديدية ، متصلّبا بالصقيع • مكفّنا بالثلج ! ـ عندما راح ضباب بارد كالموت يهيم على وجهه كما شاءت له رياح الشرق ان يهيم ، عبر تلك القمم الارجوانية ، ثم يتدحرج بعد ذلك حتي يمتزج بالضباب المتجمدْ فوق الجدول ! لقد امسى هذا الجدول نفسه ، الآن ، سيلا موحلا لا سبيل الى كبحه ، سيلا اقتحم الغابة ، واطلق في الهواء هديرا محموما كثيرا ما زاده المطر الوحشي والبَرَد المدوّم ضراوة الى ضراوة • اما الغابة القائمة عند ضفتيه فماعاد يبدو منها غير هياكل منضودة •

وانقضى نيسان (ابريل) واقبل نوار (مايو) • ولقد كان «نوارا» مشرقا رائقا تبسّم عن ايام ذات سماء زرقاء ، واشعة شمس وديعة ، ونسائم غربية أو جنوبية ما تكف عن الهبوب • وبلغت الخضرة غاية نضجها في قوة وعزم ، ونفضت « لوورود » عنها غبار الجمود • لقد اصبحت خضراء كلها ، زهراء كلها • ورُدّت الروح الى هياكل الدردار والزان والسنديان العظيمة فاستأنفت حياتها المهيبة • ونجمتْ نباتات الغابة بغزارة في فَجَواتها ، وغطّت دروب من الطحالب لا حصر لها اغوار الغابة ، فأحالت ثروتها الكبيرة من نبات « آذان الدب » البرية الى اشعة شمس ارضية عجيبة • لقد رأيت ذَهَبَها الشاحب يلتمع في بقاع ظليلة اشبه شيء برقاع متناثرة من لمعان ليس اعذبَ ولا أحلى • كل ذلك استمتعت به في كثير من الاحيان استمتاعا كاملا حرا ، غير مراقبَ ، وعلى انفراد تقريبا • وكان ثمة سبب لهذه الحرية وتلك المتعة النادرتين ، سبب امسى من واجبي الآن

※ ذات رؤوس كالابر •

ان اطلع القارىء عليه ٠

ألم اصوّر « لووود » موطنا بهيجا يفيء اليه المرء عندما قلت انها مكتنفة بالكثبان والغابات ، وانها تنبثق من حافة جدول ؟ موطن بهيج من غير ريب ، ولكن الى اي حد كان موطنا صحيا ؟

كان ذلك الوادي ــ الغابة الذي جثمت فيه « لووود » مهدا للضباب وللوباء الذي يغذوه الضباب ، والذي اغذّ الخطى مع الربيع المتعجّل ، وتسلل الى الميتم ، فنفث التيفوس في حجرتي الدرس والنوم المزدحمتين فيه ، فاحال المدرسة ، قبل حلول نوار (مايو) الى مستشفى ٠

كانت المجاعة النصفية وحالات الزكام المهملة قد اعدّت الطالبات لتلقي العدوى ، فاذا بها تصرع خمسا واربعين من الثمانين فتاة في وقت معا ٠ وعُطلت الدروس ، وتراخت قبضة الانظمة ٠ ومُنحت القلة اللواتي احتفظن بصحتهن حرية شبه كاملة ، لان الطبيب المسؤول اصرّ على ضرورة قيامهن بين الفينة والفينة بتمارين رياضية تُبقي عليهن عافيتهن ٠ ولو لم يقف الطبيب هذا الموقف اذن لما وجد احد متسعا من الوقت لمراقبتهن او لكبح جماحهن ٠ وانصرفت مس تامبل بكليتها الى العناية بالمريضات : لقد اقامت في حجرتهن ، فلم تكن لتغادرها الا لتختلس سُويعات من الراحة في موهن من الليل ٠ وانهمكت المعلمات انهماكا كاملا في حزم امتعة اولئك البنات اللواتي شاء حسن طالعهن ان يكون لهن اصدقاء وانسباء قادرون على ابعادهن عن مقر الوباء وراغبون في ذلك ٠٠ليس هذا فحسب ، بل لقد كنّ منهمكات في اتخاذ الاجراءات الضرورية الاخرى لترحيل اولئك البنات ٠ وكان الداء قد صرع كثيرا من البنات فمضين الى مساقط رؤوسهن ليلفظن أنفاسهن فيها ٠ وقضى بعضهن نحبه في المدرسة ، فوُورين الثرى في هدوء وعجلة ، لان طبيعة المرض حظّرت ارجاء ذلك ٠

وبينا القى الداء رحله في « لووود » ليصبح من سكانها المقيمين ، وبينا راح الموت يتردد اليها بين الفينة والفينة ، وبينما خيّمت الكآبة والخوف داخل جدرانها ، وبينا عبقت حجراتها وممراتها بروائح المستشفيات وقد كافحت العقاقير والاقراص على غير طائل من اجل التغلب على ابخرة الموت الكريهة ، شعّ « نوّار » المشرق ذاك ، صافيَ السماء ، فوق الكثبان الجسورة والغابات الجميلة خارج الجدران ٠ وتألقت حديقة « لووود » أيضا بالرياحين : كانت الخُبَّازى الفرنجية قد نجمت طويلة كالاشجار ، وكانت الزنابق قد تفتحت اكمامها ، وكانت الورود وضروب السوسن قد نوّرت ، وكانت حوافي المزاهر الصغيرة بهيجة بأزهار قرنفلية وبأقاح قرمزية مزدوجة ، وكان النسرين ينفث ، صباح مساء ، عبيره التوابلي التفاحي ، وكانت هذه الكنوز العطرة عديمة الفائدة بالكلية للكثرة العظمى من نزيلات « لووود » ، لولا انها كانت تزودهن بين حين وآخر بباقة من اعشاب وازهار يَضَعْنَها على تابوت ٠

اما انا وسائر الفتيات اللواتي امتنعن على المرض فقد استمتعنا اكمل الاستمتاع بجمال الربيع وروعة المشاهد : لقد اجيز لنا ان نهيم على وجوهنا في الغابة كالغجريات ، منذ منبلَج الصباح حتى مغرب الشمس ، وكنا نفعل ما يحلو لنا ، ونذهب حيث شئنا ، ونحيا حياة افضل ايضا • ان مستر بروكلهورست وافراد اسرته ما عادوا يطأون الآن ، ارض « لوورود » ، وشؤون الطعام وتدبير المنزل لم تعد خاضعة للتدقيق والتمحيص ، فقد فارقتنا مدبرة شؤون الدار يحدوها الى ذلك خوف العدوى • وكانت خليفتها ، وقد تولت قبل ذلك رئاسة مستوصف لوتون ، تجهل الاساليب المتبعة في مقر عملها الجديد ، ومن هنا زودتنا بما نحتاج اليه في سخاء نسبي • والى هذا فقد قلَّ عدد الافواه الواجب اطعامها ، واذ كانت صريعات الداء لا يستهلكن من الطعام غير نزر يسير ، فقد امست اطباق فطورنا الصباحي احفل بالغذاء • وكلما ضاق الوقت عن اعداد وجبة غداء نظامية ــ وهو امر كان كثير الحدوث في تلك الفترة ــ كنا نعطى قطعة كبيرة من فطير بارد محشو ، او شريحة غليظة من خبز وجبن ، وكان من دأبنا ان نحمل انصبتنا هذه الى الغابة ، حيث تختار كل منا البقعة التي كانت تفضّلها ، وتلتهم الطعام في رِفْهٍ بالغٍ •

وكان مقعدي الاثير لديَّ حجرا املس عريضا كان ينتصب ، ابيض جافا ، وسط الجدول ، ولم اكن استطيع بلوغه الا بالتخويض في الماء ، وهو صنيع كنت اقوم به حافية • وكان الحجر يتسع لقعودي انا وفتاة اخرى ليس غير ، على نحو مريح ، وكانت رفيقتي المختارة في تلك الآونة طالبة تدعىَ ماري آن ويلسون ، وهي فتاة ذكية دقيقة الملاحظة ، انِستُ اليها ووجدت في مرافقتها متعة ، لانها كانت مليحة النكتة فذة الشخصية ، من ناحية ، ولانها كانت ذات مسلك يسرّي عن نفسي ، من ناحية ثانية • واذ كانت اكبر مني بسنوات معدودات فقد عرفت العالم اكثر مما عرفته ، وكان في ميسورها ان تحدثني عن اشياء كثيرة كنت راغبة في سماعها • لقد اشبعت صحبة « ماري آن » فضولي ، ولقد تقبلت اخطائي بتسامح سخي ، غير محاولة ان تُخضع ايما شيء اقوله لايما زمام مُلجِم • كانت هي نزّاعة الى القَصَص ، وكنت انا نزاعة الى التحليل ، كانت تحب ان تُعلِم وكنت احب ان اسأل ، وهكذا تفاهمنا احسن ما يكون التفاهم ، مستَمدتين متعة بالغة ، ان لم نستمد فائدة كبيرة ، من تبادلنا الخواطر والآراء •

ولكن اين كانت هيلين بيرنز في غضون هذه الفترة ؟ لمَ لمْ اقض ايام الحرية العذبة هذه معها ؟ أكنت قد نسيتها ؟ ام كنت من التفاهة بحيث بَرِمتُ بصحبتها الطاهرة ؟ لا ريب في ان ماري آن ويلسون هذه التي اشرت اليها دون صديقتي الاولى شأنا : لم يكن لديها ما تقدمه الي غير الحكايات المسلية ، وغير اللغو الطلي اللاذع الذي آثرت الانغماس فيه • على حين

كانت هيلين ـ اذا صح تصويري لها ـ مؤهلة لان تمنح من قُدِّر لـــه ان يحظى بالاستماع الى حديثها تذوقا ارفع بكثير ، واسمى بكثير ٠

اجل ايها القارىء ، ولقد عرفتُ ذلك واستشعرتـه ٠ وعلى الرغـم من اني مخلوقة ؛ وزنها الكمـــال ، مخلوقة كثيرة الاخطاء قليلة الحسنـــات المكفِّرة عن تلك الاخطاء ، فاني لم املَّ هيلين بيرنز ولم ابْرَم بهـــا ٠ ولم اكفَّ قط عن الانجذاب نحوها بسائق مـودَّة لا احسب ان شيئا اقـــوى منها وارق واحفل بالاحترام قد عَمَرَ فؤادي في ايما يوم من الايام ٠ وكيف يجوز ان يكون الوضع على خلاف ذلك بعد ان تكشفت لي هيليـــن بيرنـز دائما وفي جميع الظروف والمناسبات عن صداقة هادئة مخلصة لم يعـكرهـا النكد قط ولم يكدرها الانفعال في ايما وقت ؟ ولكن هيلين كانت طريحـــة الفراش آنذاك : لقد ابعـدت عن ناظري منذ اسابيع لتوضـــع في حجـرة لم اعرفها على وجه الضبط من حجرات الطابق العلوي ٠ انهـا لم تكـــن ، على ما قيل لي ، في ذلك الجزء من البيـت الذي حُوِّل الى مستشفـى لصريعـات الحمى ، لانها كانت مصابة بداء السل لا بداء التيفوس ٠ ولعِظم جهلـــي ، اعتقدت ان السل مرض غير خطير ، مرض لا بد للزمن وحسنِ العناية من ان يخففـا وطأتـه ٠

وانما رسَّخ هذه الفكرة في ذهني انها هبطت السلم مـرة او مرتين ، عند الاصيل ، في بعض الايام المشمسة الشديدة الدفء ، وان مس تامبـل رافقتها الى الحديقة ٠ بيد اني لم يُجَز لي ، في تينـــك المناسبتين ، ان امضي اليها واتحدث معها ٠ لقد رأيتها من نافذة حجرة الدرس ليس غير ، وعلى نحو غير واضح ايضا ٠ ذلك بانها كانت متلفِّعة بدُثر تكاد تحجبهـــا وكانت تجلس على مسافة ما ، تحت الشرفة ٠

وذات مساء ، في مطلع حزيران (يونيو) ، لبثت في الغابة ، مـع ماري آن حتى ساعة متأخرة جدا ٠ كنا قد اعتزلنا الاخريات ، على مألوف عادتنا ، وهمنا على وجهينا بعيدا عن المدرسة : بعيدا الى درجة اننا ضللنا سبيلنـــا وتعين علينا ان نلتمس الهداية اليها عند كوخ متوحِّد ، حيـــث كـان يقيـم رجل وامرأة يرعيان قطيعا من الخنازير نصف البرية يغتــذي بثمـار البلوط في الغابة ٠ حتى اذا رجعنا كان القمر قد طلع ، وكان مهـر صغير الجسم ، عرفنا فيه مُهْرَ الطبيب ، واقفا بباب الحديقة ٠ وقالت ماري آن انها علـى مثل اليقين من ان العلة قد تَقَلَّت الى درجة الخطر ، من غير ريب ، علـى شخص ما ، بدليل استدعاء مستر بايتس في تلك الساعة من الليل ٠ ومضت هي الى الدار ، اما انا فتخلفت بضع دقائق لاغرس في حديقتي بضعة جذور كنت قد اقتلعتها من الغابة وخشيت ان تذوي اذا ما ارجأت غرسهـــا الـى الصباح ٠ حتى اذا تـم لي لك تريَّثت فتـــرة اضافيـــة : لقـد تنفست الرياحين ، فيما كان الندى يسقط ، بعبير ليس احلى ولا اذكى ، وكـانـت الامسية عذبة جدا ، رائقة جدا ، دافئة جدا ، وكان الافق الغربي ، المتوهـــج

ما يزال ، يَعِدُ بيوم جميل آخر تشرق انواره في غد ، ومن ناحية الشرق الوقور ارتفع القمر في جلال بالغ . وكنت اشهد هذه الاشياء كلها واستمتع بها بقدر ما تستطيع طفلة ان تستمتع حين راودتني فكرة لم تخطر لي قط من قبل : « لشدَّ ما هو محزن ان ينطرح المرء الآن ، على فراش المرض ، وان يكون الموت قاب قوسين منه ! ان هذا العالم جميل ... وانه لما يوقع الكآبة في النفس ان يدعى المرء الى مغادرته ، وان يتعين عليه المضي الى حيث لا احد يدري . »

عندئذ بذل عقلي اول جهد صادق قام به لفهم ما كان قد اشرِبَهُ من عقائد متصلة بموضوع الجنة والنار : ولاول مرة انقلب عقلي على عقبيه حائرا مذهولا ، ولاول مرة راح يلتفت خلفه ، ويمنة ويسارا ، وامامه ، فاذا به يجد هاوية لا يُسبر غورها تحيط به من اقطاره جميعا . لقد احس بالنقطة التي كان يقف عندها ليس غير : ـ الحاضر . اما سائر النقاط فكانت سحابا لا شكل له واعماقا خاوية . ولقد ارتعد اذ تمثَّل نفسه مترنحا مخوّضا وسط ذلك العماء . وفيما كنت اتدبَّر هذه الفكرة الجديدة سمعت الباب الامامي يُفتح . لقد خرج مستر بايتس ، وخرجت معه ممرضة . حتى اذا بَصُرتُ به يمتطي جواده ويمضي لسبيله عمدت الى اغلاق الباب . ولكني هرعت اليها ، متسائلة : « كيف حال هيلين بيرنز ؟ »

فكان جوابها : « سيئة جدا . »

ـ « أمن اجلها هي استدعي مستر بايتس ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « وما وجهة نظره في أمرها ؟ »

ـ « هو يقول ان مقامها بيننا لن يطول » .

ولو قد طرقت هذه الجملة سمعي ، امس ، اذن لما افادتني غير معنى ترحيلها وشيكا الى نورثامبرلند ، مسقط رأسها . واذن لما توهمت انها تعني قرب انتقالها الى العالم الآخر . ولكني ادركت الان كل شيء ، على التو . لقد انكشف لي ان هيلين بيرنز كانت تعدد ايامها الاخيرة في هذا العالم ، وانها على وشك ان تُحمَلَ الى دار الارواح ، اذا كان لمثل هذه الدار وجود ، وعرَتني صدمة ذعر ، ثم رعدة غم عنيفة ، ثم توق ... بل حاجة ماسة الى رؤيتها . وسالت في اية حجرة هي ، فقالت الممرضة : « في حجرة مس تامبل . »

ـ « اتأذنين لي في ان اصعد واتحدث اليها ؟ »

ـ « اوه ، لا يا صغيرتي . هذا مستحيل . وفوق هذا فقد آن لك ان تدخلي . انك سوف تصابين بالحمى اذا بقيت خارج الدار اثناء سقوط الندى » .

واوصدت الممرضة الباب الامامي ، ودخلت من الباب الجانبي المفضي الى حجرة الدرس ، فبلغتها في الوقت المناسب : كانت الساعة التاسعة ،

وكانت مس ميلر تدعو الطالبات للايواء الى فرُشهن .

وبعد ساعتين من ذلك تقريبا ــ ولعل الساعة كانت الحادية عشرة ــ نهضت من فراشي في رفق ، بعد ان استعصى علي الرقاد وبعد ان قدَّرْتُ ، من الصمت الكامل الذي لفَّ حجرة النوم ، ان رفيقاتي مستغرقات كلهن في نوم عميق ، وارتديت فستاني فوق منامتي ، وانسللت من الحجرة ، ومضيت ميممة وجهي شطر حجرة مس تامبل . كانت تقوم في اقصى الطرف المقابل من الدار ، ولكني كنت اعرف الطريق اليها ولقد مكّنني ضياء القمر الصيفي غير المحجوب بالسحب ، المتدفق ههنا وههناك عبر نوافذ المجاز ، من ان اهتدي اليها في غير ما عُسْر . ونبَّهتني رائحة كافور وخل محروق الى اني امسيت على مقربة من حجرة المصابات بحمى التيفوس ، فتابعت سبيلي مبتعدة عن بابها في سرعة ، خشية ان تسمعني الممرضة الساهرة هناك طوال الليل . كنت اوجس خيفة من ان يُكتشف امري وأردّ الى فراشي ، ذلك بانه كان لا بد لي من ان اكحل الطرف برؤية هيلين ... كان لا بد لي من ان اعانقها قبل ان تموت ... ومن ان اطبع على جبينها قبلة اخيرة ، وان اتبادل معها بضع كلمات وداعية .

حتى اذا هبطت سلّما ، واجتزت جانبا من الدور الارضي ، ووُفّقت الى فتح بابين ثم اغلاقهما من غير احداث ضجة ما ، انتهيت الى جزء من السلَّم آخر ، فارتقيت درجاته لاجد حجرة مس تامبل ، بعد ذلك ، قائمة امامي مباشرة . كان ثمة نور ينبعث من خصاص الباب ومن تحته . وكان سكون عميق يلف الجوار . وتقدمت بضع خطوات ، فألفَيْتُ البَاب مفتوحا على نحو جزئي ، وفي غير ما اسراف ، واغلب الظن انه فتح على هذه الشاكلة لكي يتيح لبعض النسائم ان تنفذ الى موطن المرض ذاك ، ذي الهواء الفاسد . واذ نفرتُ من التردد ، وضجَّت في ذات نفسي حوافزُ نافذة الصبر ــ كانت روحي وحواسي ترتعد بضروب الغصص والكروب ــ فقد ردَدْت الباب الى وراء والقيت نظرة على الحجرة . كانت عيناي تبحثان عن هيلين ، وكانتا تخشيان ان تقعا على الموت .

كان ثمة ، على مقربة دانيةٍ من سرير مس تامبل ، مَهْدٌ صغير ذو حاجزين نصفُ مغطّىً بستائره البيضاء . وتحت الاغطية بصُرْتُ بصورة جسد ، ولكن الوجه كان محجوبا عني بالستائر : كانت المرضة التي سبق لي ان حدثتها في الحديقة جالسةً على كرسي ذي ذراعين ، مستسلمة للرقاد ، وكانت شمعة لم يُنْزَع الجزء المحترق من فتيلتها تشتعل على الطاولة اشتعالا قاتما . ولم تقع عيناي على مس تامبل ، ولقد عرفت في ما بعد انها استُدْعيت الى حجرة المصابات بالحمى حيث استبد الهذيان باحدى الفتيات . وتَقدَّمتُ ، ثم وقفت بجانب المهد الصغير : كانت يدي على الستارة ، ولكني آثرت ان اتكلم قبل ان ازيحها . كنت لا ازال ارتعد فرَقا من ان تنحسر الستارة عن جثة هامدة .

وهمست في رقة : « هيلين ! هل انت مستيقظه ؟ »

وتململت في فراشها ، وردت الستارة ، فرأيت وجهها شاحبا ذابلا ، ولكنه هادىء ساكن : كان التغير الذي الم بها ـ او هكذا بدت ـ ضئيلا الى درجة بددت خوفي في الحال .

وتساءلت في صوتها الرقيق : « أممكن ان يكون من ارى هو انت ؟ »

فقلت في ذات نفسي : « اوه ! انها لن تموت ، لقد خدعوا : لو كانت مشرفة على الموت لما استطاعت ان تتكلم بمثل هذا الهدوء ، وان تنظر بمثل هذه السكينة » .

وانحنيت فوق مهدها وقبلتها . كان جبينها باردا ، وكانت وجنتها باردة ومهزولة في آن معا ، وكذلك كانت يدها ومعصمها . ولكنها ابتسمت كدأبها من قبل .

ـ « لماذا جئت الى هنا يا جين ؟ ان الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة : لقد سمعتها تدق منذ بضع دقائق » .

ـ « جئت لاراك يا هيلين . فقد سمعت انك جد مريضة ، ولم يكن في طوقي ان انام قبل التحدث اليك » .

ـ « لقد جئت لتقولي كلمة الوداع ، اذن . واغلب الظن انك جئت في اللحظة المناسبة » .

ـ « اذاهبة انت الى مكان ما ، يا هيلين ؟ اعائدة انت الى مواطنك ؟ »

ـ « اجل ، الى موطني السرمدي ... الى موطني الاخير » .

ـ « لا ، لا ، يا هيلين » . وامسكت عن الكلام ، وقد غلب علي الغم . وفيما كنت احاول ان ابتلع عبراتي استبدت بهيلين نوبة سعال . بيد ان هذه النوبة لم توقظ الممرضة ، على ايه حال . حتى اذا انحسرت ، ظلت هيلين ساكنة بضع دقائق ، خائرة القوى . ثم انها همست : « جين ، قدماك الصغيرتان حافيتان . اضطجعي الى جانبي . وغطي نفسك بلحافي » .

ونزلت عند رغبتها : لقد احتوتني بذراعها فدنوت منها دنوا كان اقرب الى الالتصاق . وبعد صمت طويل استأنفت كلامها ، في همس هذه المرة ايضا : « انا سعيدة جدا ، يا جين . وحين يجيئك نعيي يتعين عليك ان تتجلدي وان لا تحزني ، فليس ثمة ما يدعو الى الحزن . ان الموت لا بد ان يدركنا كلنا في يوم من الايام ، وان الداء الذي يقضي علي ليس اليما . هو لطيف ومتمهل ، وان نفسي لمطمئنة . فانا لا اخلف ورائي اي امرىء يأسى علي كثيرا . ليس لي غير اب ، ولقد تزوج منذ فترة يسيرة ، وهو لن يفتقدني . ان وفاتي غضة العود سوف تنجيني من آلام عظيمة . فأنا لم اكن املك كفاءات او مواهب تمكنني من شق طريقي ، بنجاح ، في هذه الحياة ، ولقد كان خليقا بي ان أظل دائما موضع لوم وتأنيب » .

ـ « ولكن الى اين انت ذاهبة ، يا هيلين ؟ هل تستطيعين ان تري ؟

هل تعرفين ؟ »

ـ « انا اؤمن . ان لدي ايمانا . انا ملتحقة بالله » .

ـ «ولكن اين الله ؟ وما الله ؟ »

ـ « انه خالقي وخالقك ، الذي لا يهـــدم أبدا ما خَلَق . اني لافوض امري ، في غير ما تردد ، الى قدرته ، وأثـق كل الثقة باحســـانه . انا اعدُّ الساعات شوقا الى حلول تلك الســـاعة المهيبة التي تردُّني اليـــه ، وتيسّر لي اجتلاء طلعته » .

ـ « انت واثقة اذن ، يا هيلين ، من وجود ما يدعونه جنة ، وواثقـــة من ان ارواحنا تستطيع ان تفيء اليها حين نموت ؟ »

ـ « انا واثقة من ان ثمة حياة اخرى . وأؤمن بأن الله خيِّر . ان فـي ميسوري ان اتخلَّى له ، من غير ان يساورني اي ريب ، عن ذلك الجزء الخالد من وجودي . الله هو أبي . الله هو صديقي : انا احبه ، انا اؤمـن بأنـــه يحبني » .

ـ « وهل سيكون في ميسوري ان اراك ، كرةً اخرى ، حين اموت ؟ »

ـ « سوف تفدين الى دار السعادة نفسها . ولسوف يستقبلـك فيها الاب الكوني الجبار نفسه . هذا شيء لا ريب فيه ، يا عزيزتي جين » .

وتساءلتُ كرة اخرى ، ولكن بيني وبين نفسي هذه المرة : « اين هي تلك الدار ؟ أهي موجودة فعلا ؟ » ، واحكمـتُ تطويـــق هيلين بذراعيَّ ، فقد بدت احبَّ الى قلبي منها في ايما عهدٍ سلف ، وشعرت وكأنني لن استطيـع أن أدعها تمضي لسبيلها . وظللتُ مضطجعة الى جانـب هيلين ، دافنـــة وجهي في جيدها . وسرعان ما قالت في نبرة ليس أحلى منها ولا أعذب :

ـ « لَشدَّ ما أشعر بالراحة ! ان نوبة السعال الاخيرة قد اتعبتنـــي بعض الشيء . واني لاشعر الان وكأن في ميســوري ان أنـــام . ولـكن لا تفارقيني ، يا جين . انا احبُّ أن اراك الى جانبي » .

ـ « سوف ابقى معك ، يا عزيزتي هيلين . ان احـــدا لن يُقصينـــي عنـــكِ » .

ـ « هل تشعرين بالدفء ، يا حبيبتي ؟ »

ـ « نعـــم » .

ـ « طاب مساؤك ، يا جين » .

ـ « طاب مساؤك ، يا هيلين » .

وقبَّلتني وقبَّلتها . وسرعان ما استسلمنا كلانا لنوم هادئ عميق .

حتى اذا استيقظت كان الضحى قد ارتفع ، وانمـــا انتزعتني مـــن احضان النوم حركة غير عادية . ورفعت طَرْفي فاذا بي اجد نفسي بيـــن ذراعي شخص ما . كانت المرضة تحملني عائدةً بي ، عَبْرَ المجاز ، الـــى حجرة النوم . ولم أعنَّف لمغادرتي سريري ، فقد كانت الجماعة في شغـــل شاغل عن هذا . ولـم يُقدَّم آنذاك أيمــا تفسير لاسئلتي الكثيرة . ولكني

عرفت ، بعد يوم أو يومين ، ان مس تامبل كانت قد وجدتني ، لدن عودتها الى حجرتها عند الضحى ، مضطجعة في مهد صغير ، وقد ملت بوجهي على كتف هيلين بيرنز ، وطوقت بذراعي جيدها . كنت نائمة ، وكانت هيلين ... ميتة .

لقد دفنت في فناء كنيسة بروكلبريدج . وطوال خمس عشرة سنة انقضت على وفاتها ظلت ترقد تحت رابية صغيرة معشوشبة ليس غير أما اليوم ، فان لوحة من رخام رمادي لتشير الى مثواها الاخير ، وقد نقش على هذه اللوحة اسمها ، وهذه الكلمة الوحيدة ، «Resurgam» *

١٠

لقد دونت حتى الآن ، بكثير من التفصيل ، أحداث وجودي التافه ، مفردة لسنواتي العشر الاولى من حياتي فصولا تكاد تعدلها عددا . ولكني لا أقصد الى أن أجعل من هذا الكتاب سيرة حياة ذاتية نظامية ، ولن أفزع الى ذاكرتي الا عندما اعلم ان استجاباتها سوف تنطوي على قدر ما من الامتاع . ومن أجل ذلك سأجتاز الآن ، في صمت كامل تقريبا ، مرحلة من عمري استغرقت ثماني سنوات ، مكتفية ببضعة سطور اراها ضرورية للابقاء على تسلسل الحوادث .

ما كادت حمى التيفوس تؤدي رسالتها التدميرية في لوورود حتى انسحبت من هناك على نحو تدريجي ، ولكنها لم تفعل ذلك الا بعد ان لفت وبالها وعدد ضحاياها أنظار الرأي العام . وأجري تحقيق حول منشأ الكارثة ، وشيئا بعد شيء تجلت حقائق ما لبثت أن أثارت السخط العام الى حد بعيد . لقد اكتشفت طبيعة الموقع غير الصحية ، وكمية طعام الاطفال ونوعيته ، وما اصطنع في اعداده من ماء كريه الرائحة ضارب طعمه الى الملوحة ، وهزال ملابس الطالبات ووسائل الراحة المهيأة لهن . ولقد احدث اكتشاف هذه الاشياء كلها اثرا مذلاً لمستر بروكلهورست ، ولكنه نافع للمؤسسة .

واكتتب كثير من أبناء الاقليم الموسرين الخيرين بأموال سخية لانشاء مبنى أحسن في موقع أفضل . ووضعت انظمة جديدة ، وأدخلت على الغذاء والكساء بعض التحسينات ، وعهد بالاشراف على اوقاف المدرسة الى لجنة خاصة . واذ لم يكن في الامكان اغفال مستر بروكلهورست ، بسبب من ثروته وصلاته العائلية ، فقد ظل يحتفظ بأمانة الصندوق ، ولكن بعد أن كلف بمعاونته في اداء مهمته رجال ذوو عقول أوسع أفقا ونفوس أكثر عطفا . ولقد شاركه منصبه كمفتش ، أيضا ، قوم عرفوا كيف يمزجون العقل بالصرامة ، والرفاهية بالاقتصاد ، والحنان بالاستقامة . وهكذا أمست المدرسة ، مع

---

* كلمة لاتينية معناها : « سوف اقوم من جديد » . (المعرب)

الايام ، وبفضل هذا التحسين ، مؤسسة نافعة حقا ، نبيلة حقا . وظللتُ أحيا بين جدرانها ، في عهدها الجديد ، ثماني سنوات ، سلخت ستًا منها بوصفي تلميذة واثنتين بوصفي معلمة . واني لاشهد ، كتلميذة وكمعلمة ، انها تمتعت بقيمة وشأن عظيمين .

وخلال هذه السنوات الثماني جرت حياتي على نمط واحد ، ولكنها لم تكن غير سعيدة ، لانها كانت ناشطة . لقد وُضِعت في متناولي وسيلة الفوز بثقافة ممتازة ، ولقد حثَّني على العمل شغفٌ ببعض دروسي ، ورغبة في التفوق فيهاجميعا ، وابتهاج عظيم بارضاء معلماتي ، لا سيما أولئك اللواتي احبَبْتهن . وأفدت أكمل ما تكون الافادة من الفرص والامتيازات المتاحة لي . وأخيراً وفقت الى احتلال المرتبة الاولى بين طالبات الصف الاول ، ثم كُلِّفت أن اشارك في التدريس ، فنهضت بعبء هذه المهمة ، في حماسة بالغة ، طوال سنتين اثنتين . ولكني ما لبثتُ أن تغيرتُ ، عند انقضاء هذه الفترة .

وتفصيل ذلك ان مس تامبل كانت قد احتفظت ـ خلال هذه التعديلات كلها ـ بمنصبها كمديرة للمدرسة . واني لمدينة بخير ما اكتسبته من معرفة لحسن تعليمها وتوجيهها ، ولقد وجدت في صداقتها وصحبتها عزاء لي موصولا . وكانت قد قامت مني مقام الأم ، والمربية ، وفي ما بعد ، مقام الرفيقة ايضا . وفي هذه الفترة بالذات تزوجت ، وارتحلت مع زوجها (وكان قسا ، ورجلا ممتازا ، جديرا ـ أو يكاد ـ بمثل هـــذه الزوجة) الى اقليم ناءٍ ، وهـــكذا خسِرْتُها .

ومنذ يوم رحيلها لم أعُدْ ما كنت . فقد ولى معها كل شعور من مشاعري المطمئنة . وكل رباط من الروابط التي جعلت من « لووود » ، الى حد ما ، موطنا لي . كنت قد تشربتُ منها شيئا من طبيعتها وكثيرا من عاداتها ، فاذا بعقلي يحفل بفكرات أقرب الى التناغم والانسجام واذا بنفسي تعمر بمشاعر بدت لي أوفر حظا من الانضباط والتنظيم . وكنت قد دِنْتُ بالولاء للواجب والنظام . كنت هادئة ، وأحسب اني كنت سعيدة . ولقدَ بدوتُ ، في عيون الآخرين ، وحتى في عينيَّ أنا في كثير من الاحيان ، فتاة ذات شخصية حسنة الانضباط ، سهلة الانقياد .

ولكن القَدر ، ممثلا في صورة القس المحترم ، مستر ناسميث ، فصل ما بيني وبين مس تامبل . لقد رأيتها في ثياب السفر تصعد ، بُعَيْد زفافها ، الى مركبة من مراكب البريد ، وراقبت المركبـــة وهي ترقى الهضبة وتتوارى خلف قمَّتها . ثم أنني انقلبت الى حجرتي ، حيث قضيت ، في عزلة تامة ، الجزء الاعظم من عطلة نصف نهارية مُنِحْناها احتفاء بتلك المناسبة .

لقد أنفقتُ معظم الوقت مطوِّفة في الحجرة . وخيل الي أن ما بي لا يعدو الحزن لما حل بي من خسارة ، والتفكير بوسيلة تعوضني منها . ولكن ما ان انتهت فكراتي الى غايتهـــا ، ورفعت طَرْفي فألفيْت أن الاصيل قد انقضى وان الليل يتقدم بخطىً واسعة حتى تبدَّى لي اكتشاف آخر ، قوامه

اني كنت خضعت خلال تلك الفترة اليسيرة لعملية تحوّل ، وان عقلي كان قد أطّرح كل ما قد استعاره من مس تامبل – أو بالاحرى ان مس تامبل كانت قد أخذتْ معها ذلك الجو الرائق الذي كنت أحيا فيه في جوارها – واني أسلمتُ الان لفطرتي الاولى ، وأني بدأتُ استشعر غارات أحاسيسي القديمة . لم يكن الذي بدا لي هو شبيها بانتزاع سناد أو دعامة ما ، ولكنه كان أشبه بضياع حافزٍ ما : لم تكن القدرة على الاعتصام بالهدوء هي التي خذلتني ، ولكن مبرّر وجود هذا الهدوء كان قد زال . كانت لووود هي دنياي كلها طوال بضع سنوات ، وكانت خبراتي مقصورة على قواعدها وأنظمتها . أما الآن فقد تذكرت ان الدنيا الحقيقية كانت واسعة ، وان حقولا مختلفة من آمال ومخاوف وأحاسيس وانفعالات كانت تنتظر كل اولئك الذين أوتوا الجرأة على اقتحام مداها اللانهائي ، وعلى التماس معرفة الحياة الحقيقية في غمرة من مخاطرها .

ومضيتُ الى نافذتي ، ففتحتُها ، وأطللت منها . فوقعت عيناي على جناحَيْ المبنى ، وعلى الحديقة ، وعلى أطراف لووود ، وعلى أفق الهضاب . وتخطَّت عيني سائر المشاهد لتستقر على أقصاها ، على القمم الزرقاء . كانت هذه القمم هي ما تُقْتُ الى تسلقه ، فقد بدا كل ما في نطاقها من صخر ومَرْج أشبه بفناء سجن ، أو تخوم منفى . وتتبعت بنظري الطريق البيضاء المتمعِّجة حول سفح أحد الجبال ، والمتلاشية في شعْبٍ بين جبلين . وما كان أشدَّ تَوْقي الى اتباعها الى ما وراء ذلك ! وتذكرت ذلك اليوم الذي اجتزتُ فيه تلك الطريق نفسها في عربة ، وتذكرت كيف هبطت تلك الهضبة عند الغسق : لقد بدا وكأن قرنا من الزمان انقضى على اليوم الذي وفَدْت فيه أول مرةٍ الى لووود ، لكي لا اغادرها بعد ذلك قط . كنت قد انفقت عُطَلي كلها في المدرسة . ان مسز ريد لم تَدْعني للعودة الى غايتسهيد البتة ، ولم تفدْ لا هي ولا أحدٌ من أفراد اسرتها لزيارتي قط . ولم يتمَّ بيني وبين العالم الخَارْجي ايما اتصال من طريق الرسائل الخطية او الشفهية، فقد كانت الانظمة المدرسية ، والواجبات المدرسية ، والعادات ، والمعلومات ، والاصوات ، والوجوه ، والجمل ، والملابس ، وضروب الأيثار والنفور المدرسية هي كل ما عرفتُه من الوجود . ولقد شعرت الآن أن هذه كلها لم تعد كافية ، وسئمت نَمَطيَّة ثماني سنوات في مدى أصيل واحد . لقد تمنيت الحرية ، والى الحرية ظمئتُ ، وللحرية صليت ، وبدا لي ان الريح التي هبَّت رخاء كانت تبددها وتذروها . وتخلَّيْت عن هذه الفكرة ، وصغْتُ ابتهالا أشد تواضعا وصبوْت الى التغيير ، الى حافزٍ يغريني بالحياة . ولكن هذه الصلاة تبددت هي الأخرى في الفضاء المبهم . فهتفت نصف يائسة : « اذن ، هَبْ لي يا آلهي ، عبودية جديدة ، على الاقل ! »

وهنا دعاني الى هبوط السلم جرسٌ رن معلنا حلول موعد العشاء .

ولم أوفَّق الى استئناف تأملاتي ، التي كان تسلسلها قد قُطِع علي ، الا

حين أويت الى الفراش • وحتى في تلك الفترة واصلتْ معلمة" كانت تشاطرني الحجرة نفسها صَرْفي ـ بدَفق موصول من اللغْو التافه ـ عن الموضوع الذي تلهّفت لاستئناف التفكير فيه • ولكم تمنيت لو يخرسها النوم ! لقد بدا لي اني اذا ما وُفّقتُ للعودة الى تلك الفكرة التي راودتني آخر الامر وأنا مطلّة من النافذة ، اذن لأومض في ذهني اقتراح مبتكر يوقع الارتياح في نفسي •

وأخيرا اخذت مس غرايس في الغطيط • كانت امرأة ويلزية بدينة ما كنت حتى الان لاعتبر موسيقاها الانفية المألوفة، الا مصدرا من مصادر الازعاج• أما الليلة ، فقد رحّبتُ بأولى نغماتها العميقة في رضا • ان شيئا ما لن يقطع تأملاتي ، بعد الآن • وسرعان ما بُعِثت فكرتي نصف الميتة من رقادها •

ـ « عبودية جديدة ! ان ثمة شيئا ذا وزن في هذه الفكرة » ، كذلك رحت اناجي نفسي (عقليا ، من غير ريب • فأنا لم أتكلم بصوت عالٍ) • « أنا أعرف أن فيهاشيئاً ذا وزن ، لانها تبدو عذبة اكثر مما ينبغي • انها ليست مثل هذه الكلدات : الحرية ، الطرب ، الهناءة ، وكلها أصوات بهيجة حقا ، ولكنها ليست بالنسبة الي غير أصوات ، أصوات جوفاء زائلة الى درجة تجعل الاستماع اليها مضيعة للوقت • أما العبودية ! أما العبودية فانها حقيقة واقعة من غير ريب • أن كل امرىء منا قد يُستعبد • ولقد أستُعبِدتُ ههنا ثماني سنوات ، وكل ما أطلبه الان هو أن أرزح تحت نير الاستعباد في مكان آخر • أليس في ميسوري أن أفوز بهذا المطلب اليسير بارادتي أنا ؟ أليس هذا المطلب ممكن التحقيق ؟ ـ أجل ••• أجل ••• ان الغاية ليست بعيـــدة المنال الى هذا الحد ، شرط أن يكون لي ذهن ناشط الى درجة تمكّنه من اكتشاف الوسيلة الى بلوغها » •

واستويت قاعدة في سريري رجاة ايقاظ هذا الذهن وتنبيهه • كانت الليلة باردة ، فطوّقت كتفيَّ بشال ، ثم تقدمت الى التفكير كرة اخرى ، بكل ما أوتيت من قوة •

ـ « ما الذي أرغب فيه ؟ عمل جديد ، في بيت جديد ، بين وجوه جديدة، وفي ظل أحوال جديدة : وانما أرغب في ذلك لان من العبث الذي لا طائل تحته ان اطمع في أيما شيء أفضل • ولكن كيف يجد الناس عمـــلا جديدا ؟ انهم يتصلون بأصدقائهم التماسا لهذا العمل ، في ما احسب • وأنا فتاة لا أصدقاء لها • وأي بأس في ذلك ، فهنـــاك اشخاص كثيرون لا أصـدقاء لهم ، فهم مضطرون الى حك جلدهم بظفرهم • ولكن ما هي وسيلتهم الى ذلك ؟ »

ولم أوفق الى الاجابة ، ان ايما جواب لم يخطر ببالي • عندئذ أمرت عقلي بالبحث عن جواب ، وبالاهتداء اليه في سرعة • فقدح زناد الفكر ، وقدح على نحو أسرع حتى احسست بالعروق تنبض في رأسي وصدغيَّ ولكن قدحه ذاك ظل ، طوال ساعة تقريبـا ، ضربا من التخبط في عَماء ، فاذا بجهوده كلها لا تُسفِر عن نتيجة ما • وأصابني هذا الجهد العـــابث بشبه حمّى فنهضت من فراشي ، وخطوت في الحجرة بضع خطوات ، ثم أزحت الستارة ، وبَصُرتُ

بنجم أو نجمين ، وارتعدتْ أوصالي من البرد ، فانسللتُ عائدة الى الفراش •

ولا ريب في أن جنية كريمة كانت ـ خلال غيبتي ـ قد أسقطت فوق وسادتي ذلك الجواب المنشود • ذلك بأني فيما كنت أضطجع في سريري اتخذ الجواب سبيله الى عقلي ، في سكينة بالغة وعلى نحو طبيعي : ـ « ان اولئك الذين يطلبون وظائف يعلنون عن ذلك • ان عليك ان تعلني في صحيفة « ••• شاير هيرالد » •

ـ « كيف ؟ انا لا أعرف شيئا عن الاعلان ؟ »

وتدفقت الاجوبة ، الآن ، في يُسْر وسرعة :

ـ « ان عليك ان تضعي نص الاعلان ونفقاته في ظرف موجّه الى محرر ال « هيرالد » • وان عليك ان تودعيه بريد لوتون في أول فرصة تتاح لك • ويجب ان توجه الاجوبة الى « ج • أ » في مكتب البريد هناك • وفي استطاعتك ان تشخصي الى ذلك المكتب ، بعد اسبوع من أيداعك الرسالة ، وتسألي هل وردتك اجوبة أم لا ، وتتصرفي على ضوء من ذلك • »

وقلّبت هذه الخطة مثنى وثلاث ، حتى اختمرت في ذهني ، واتخذتْ شكلا عمليا واضحا • وشعرت بالارتياح ، واستسلمت للرقاد •

ولم يكد الصبح يتنفس حتى نهضت من فراشي وصُغتُ صيغة اعلاني ووضعته ضمن ظرف ، وعَنْونته قبل ان يُقرع الجرس لايقاظ المدرسة من الرقاد • وكان هذا نصه :

« شابة متمرسة بالتدريس » (ألم أسلخ سنتين اثنتين في حقل التعليم ؟) « ترغب في الفوز بعمل في اسرة لا يتجاوز الاولاد فيها سن الرابعة عشرة » (لقد بدا لي أنه لا يحسن بي ، وأنا لمّا أبلغ الثامنة عشرة ، أن أتولى تثقيف طلاب تكاد اسنانهم تقارب سني) • « وهي مؤهلة لتعليم الفروع المألوفة التي تشكل ثقافة انكليزية جيدة ، بالاضافة الى الفرنسية ، والرسم ، والموسيقى » (في تلك الايام كانت هذه المواد الدراسية التي تبدو محدودة الافق ، الآن ، تُعتبر ، أيها القارىء ، ذات شمول غير يسير) • « وجهوا الاجوبة الى ج • أ • مكتب البريد ، لوتون ، اقليم •• »

وبقيت هذه الوثيقة حبيسة درجي طوال النهار ، وبعد الشاي استأذنت المديرة الجديدة في الذهاب الى لوتون لانجاز بضعة أعمال صغيرة بعضها خاص بي وبعضها خاص بزميلاتي المعلمات • فما كان منها الا ان أذنت لي في ذلك ، فمضيت • كانت لوتون تقع على مسيرة ميلين ، وكانت الامسية ندية ، ولكن النهارات كانت لا تزال طويلة • وولجت دكانا او دكانين ، ودسَسْت الرسالة في البريد ، ثم انقلبت عائدة تحت زخات مطر غزير : كانت ملابسي تقطر ماء ، ولكن فؤادي كان قد تحرر من كربه •

وبدا الاسبوع الذي تلا طويلا جدا • بيد انه انقضى آخر الامر ، كما تنقضي جميع الاشياء الدنيوية • وكرة اخرى الفَيتُ نفسي ـ أصيل يوم رائق من أيام الخريف ـ أسعى على قدميَّ في الطريق منطلقة الى لوتون • كانت

الطريق ، بالمناسبة ، فاتنة ، وكانت تمتد على طول الجدول وخلال مُنعرَجات الوَهدة الاكثر بهاء · ولكني فكرت في ذلك اليوم بالرسائل ، التي قد تكون أو قد لا تكون في انتظاري في الضيعة الصغيرة التي كنت متجهة نحوها ، أكثر مما فكرت في سحر المرج والماء ·

واذ كانت الذريعة التي اصطنعتها للذهاب الى لوتون هذه المرة هي أخذ قياس قدمي لصنع حذاء جديد فقد انجزت هذه المهمة أولا ، ثم اتخذت سبيلي عبر الشارع الصغير النظيف الهادىء من دكّان الحـــذّاء الى مكتب البريد · وكانت تديره سيدة عجوز تضع على انفها نظارتين مصنوعتين من مادة قرنية ، وتطوق ذراعيها بقفّازين أسودين لا أصابع لهما ·

وسألتها : « هل هناك أية رسالة موجهة الى ج · أ · ؟ »

وحدّقت الي من فوق نظارتيها ، ثم فتحت درجـــا وراحت تبحث بين محتوياته فترة من الزمان طويلة ، طويلة الى حد جعل آمالي تتداعى للسقوط · وأخيرا ، وبعد أن قرّبت احدى الرسائل الى نظارتيها متأملة اياها نحوا من دقائق خمس دفعَتْها الي عبر المنضـــدة ، مُرفقةً صنيعها هـــذا بنظـــرة استطلاعية اخرى حافلة بالشك والارتياب · ـ كانت الرسالة موجهة الى ج· أ·

وسألتُها : « أليس هناك غير رسالة واحدة ؟ »

فقالت : « ليس عندي أية رسالة اخرى » ·

فدسَستُها في جيبي ، واستدرت متخذة سبيلي الى المدرسة : لم يكن في ميسوري ان افضّها آنذاك ، اذ كانت الانظمة تفرض علي العودة قبل الثامنة ، وكانت الساعة قد تجاوزت ، في تلك الآونة ، السابعة والنصف ·

وكانت واجبات عديدة تنتظرني لدُنْ وصولي : كان علي أن أجلس مع الطالبات خلال ساعة المذاكرة ، وكان علي أن أتلو الصلوات بعـد ذلـك على مسامعهن ـ اذ كان الدور في تلك الليلة دوري ـ وأن اراقبهن اثناء أيوائهن الى المضاجع · ثم أني تناولت طعام العشاء مع المعلمات الاخـــريات · وحتى عندما أويت آخر الامر الى حجرة النوم ظلت مس غرايس ، التي لا بد منها تلازمني · ولم يكن لدينا في شمعداننا غير كعب شمعة قصير ، ولقد خشيت أن تسترسل مس غرايس في لغوها حتى تلفظ الشمعة انفاسها الاخيرة ، بيد ان العشاء الثقيل الذي التهمته ما لبث ـ لحسن طالعي ـ ان اغراها بالنوم ، فاستسلمت للغطيط قبل أن أتم خلع ملابسي · كان قد بقي من الشمعة انش واحد ، فأخرجت الرسالة من جيبي ، فاذا بخاتمهـــا يحمل حرف « ف » · وفضَضْتُها ، فاذا بها تنطوي على هذه السطور الموجزة :

« اذا كانت ج· أ· التي اعلنَتْ في عدد « ··· شاير هيرالد » الصادر يومَ الخميس الماضي تتمتع بالثقافة المشار اليها ، واذا كان في استطاعتها أن تقدم شهادات مُرضية تزكي خُلقها وكفاءتها فعندئذ يـــكون في الامكان ان يُعْرض عليها عملٌ في منزل ليس فيه غير طالبة واحدة ، فتاة صغيرة لمّا

تبلغ العاشرة ، وبراتب مقداره ثلاثون جنيها في العام • فالرجاء من ج• أ• أن تبعث بشهاداتها المزكّية ، وباسمها ، وعنوانهـا ، وبمختلف التفاصيل الى العنوان التالي :

مبسز فيرفاكس ، ثورنفيلد ، قرب ميلكوت ، اقليم ••• »

وانعمت النظر في الرسالة ، برهة طويلة • كان الخط عتيق الطراز ، مضطربا بعض الشيء ، فكأنه خط سيدة عجوز • وكان في هذه الواقعة ما طمأنني • ذلك بأن خوفا باطنيا كان قد استبد بي واوقع في نفسي اني ، وقد خطوتُ هذه الخطوة من تلقاء ذاتي ومن غير ما ارشاد من أحد ، غامرت مغامرة قد توقعني في ورطة ما ، وكنت قد تمنيت قبل كل شيء أن تجيء ثمرة جهودي كريمةً ، لا غبار عليها • فاذا بي أشعر الآن ان في وجود هذه السيدة العجوز في المنزل الذي سأعمل فيه عنصرا صالحا يدعو الى الارتياح • مسز فيرفاكس ! لقد تخيلتها ترتدي ثوبا أسود وتعتمر بقبعة من قبعات الارامل • انها قد تكون جافية ، ولكنها لن تكون قليلة الكياسة ، انها سوف تكون نموذجا للوقـــار الانكليزي العريق • ثورنفيلد ! لا ريب في أن هذا كان اســم بيتها ، وهو موطن نظيف يسوده النظام • كنت واثقة من ذلك ، وان عجزتُ برغم جهودي كلها عن تخيل صورةٍ واضحة للمكان • « ميلكوت ، أقليم ••• » ! ورحتُ أنقب في ذاكرتي التماسا لما علق فيهـا من جغرافية انـكلترة • أجل ، لقد بصُرْتُ بهما • بَصرْت بالاقليم وبالمدينة جميعا • كان الاقليم ••• أقرب الى لندن من الاقليم القصي الذي كنت أقيم فيه الآن ، بسبعين ميلا • ولقد كان في ذلك بعض الخير لي • فقد تُقْتُ الى المضي الى حيث توجد حياةٌ وحركة ، وكانت ميلكوت مدينة صناعية كبيرة قائمة على ضفتي نهر آ ••• كانت مكانا يمور بالنشاط ، من غير ريب • وهل أطمـع في شيء أفضل ؟ انه ســوف يمكنني من تغيير وجه حياتي على الاقل • وقلت في ذات نفسي : « ليس معنى هذا ان خيالي كان أسيرَ فكرة المداخن الطويلة وســحائب الدخان ، ولكن ثورنفيلد سوف يكون في أغلب الظن على مسافة كبيرة من المدينة » •

وهنا لفظت الشمعة آخر انفاسها ، وانطفأ فتيلها •

وفي اليوم التالي كان علي أن اقوم بخطوات جديدة • لم يكن في امكاني أن أبقي خططي مكنونةً في صدري ، لقد تعيَّن علي أن أبوح بها لكي أكفل لها النجاح • وهكذا سعيت لمقابلة المديرة ، خلال فرصة الظهيرة ، حتى اذا تمَّ لي ذلك انبأتها بأني قد اوفق الى الفوز بوظيفة جديدة تتيح لي الحصول على ضعف الراتب الذي كنت آخذُهُ حاليا (ذلك بأن راتبي في لووود لم يكن يتجَاوز خمسة عشر جنيها في العــام) ، وسألتُها ان تفــاتح مستر بروكلهورست ، أو أي عضو آخر من أعضاء اللجنة ، بالمسألة ، بالنيابة عني ، وتستيقن هل يوافق على تزكيتي لدى المرجع الذي كان من المنتظر أن أعمل في خدمته ، أم لا • فوافقت على القيام بمهمة الوساطة في هذه المسألة عن رضا وطيب خاطر • وفي اليوم التالي بسَطت القضية لمستر بروكلهورست ،

فقال ان الموقف يوجب الكتابة الى مسز ريد ، بوصفها الوصيَّة الطبيعية علي . وهكذا وُجِّهت مذكرة الى تلك السيدة ، فكان جوابها « بأن في ميسوري أن أفعل ما أشاء ، فقد احجمت منذ عهد طويل عن ادنى التدخل في شؤوني » . وعرضت هذه الرسالة على اعضاء اللجنة واحدا اثر واحد ، وأخيرا ، وبعد فترة خيِّل الي انها انطوت على تأخير ليس ادعى منه الى الاملال مُنِحتُ اذنا رسميا بأن أحسِّن وضعي العام اذا استطعت ، وأكد لي انني سوف اعطَى تزكيةً لخُلُقي وكفاءتي ، موقعة من مفتشي معهد « لووود » ، تقديرا منهم لتمسكي الدائم — سواء بوصفي معلمة أم بوصفي طالبة — بأهداب النظام وحسن السلوك في تلك المؤسسة .

والواقع اني تلقيتُ هذه التزكية بعد شهر تقريبا ، فقدمتُ نسخة منها الى مسز فيرفاكس ، وتلقيت جواب تلك السيدة وكان ينص على انها ارتاحت لبياناتي ، وأمهلتني اسبوعين لتولي اعباء منصبي كمربية في بيتها .

عندئذ انصرفت بكلِّيتي الى اعداد العدة للرحيل . وتقضَّى الاسبوعان في سرعة . أنا لم أكن أملك مجموعة من الثياب ضخمة جدا ، على الرغم من ان ما امتلكته منها كان وافيا بحاجتي ، فاذا باليوم الاخير يتسع لتوضيبها في حقيبتي — وهي الحقيبة نفسها التي كنت قد حملتها من غايتسهيد منذ سنوات ثمان .

وطوَّقت الحقيبة بحبل ، وثبَّتَتْ على ظاهرها بطاقة تحمل اسمي ، وكان مقررا ان يفدَ الحمال بعد نصف ساعة لنقلها الى لوتون ، وأن أمضي أنا الى هناك في ساعة مبكرة منصباح اليوم التالي للقاء المركبة . وكنت قد اعملت الفرشاة في ثوب سفري المخيط من قماش اسود ، وأعددْتُ قبعتي وقفَّازي وفروتي الخاصة بتدفئة الذراعين ، وعاودتُ فتح ادراجي كلها لكي أستيقن من أنني لمأنس أيما شيء فيها . حتى اذا لم يبق لدي أيما عمل اضافي أقوم به جلست ، وحاولت ان أنام ، ولكني لم استطع ، أجل لم استطع أن أنام لحظة واحدة ، على الرغم من أني قضيت ذلك النهار كله واقفة على قدمي او ساعية عليهما ، فقد كنت منفعلة أكثر مما ينبغي . كانت صفحة" من حياتي على وشك ان تُختَتَم تلك الليلة ، وكانت صفحة جديدة منها على وشك ان تفتح غدا ، فمن المتعذر علي ان اعرف الغمض في الفترة الممتدة بينهما . ان علي ان ارقب ، على نحو محموم . اكتمال ذلــك التغير الذي كان يتخذ سبيله الى حياتي .

وقالت خادمة التقتني في المجاز حيث كنــت اذرع المكان جيئة وذهوبا مثل روح قلقة : « في الدور الأسفل رجل يريد ان يراك ، ايتها الآنسة » .

وقلت في ذات نفسي : « انه الحمال ، من غير ريب » . ورحت اهبط السلم على عجل ، من غير ان اطرح ايما سؤال . وكنت اجتاز القاعة الخلفية — او حجرة جلوس المعلمات ، التي كان بابها نصف مفتوح — في طريقي الى المطبخ ، عندما انطلقت منه امرأة اعترضت سبيلي ، وامسكت بيدي ، صائحة :

ـ « انها هي ، انا واثقة من ذلك . لقد كان في امكاني ان اعرفها حيثما وجدتها » .

وانعمتُ النظر اليها ، فرأيت امرأة في زي خادمة حسنة البزة . كانت ملابسها تلك جديرة بكهلة في خريف العمر ، ومع ذلك فقد كانت ما تزال في ربيعه . وكانت وسيمة جدا ، ذات شعر فاحم وعينين سوداوين ، وبشرة ناضرة .

وتساءلتْ في جَرْس وبسمة عرفتهمُا نصف معرفة : « حسنا ، من انا ؟ انكِ لم تنسيني تماما ، في ما اعتقد ، يا مس جين ؟ »

وما هي الا ثانيةٌ اخرى حتى كنت اعانقها واقبلها في ابتهاج غامر : « بيسي ! بيسي ! بيسي ! »

كان ذلك كل ما قلتهُ . فما كان منها الا ان اطلقت نصف ضحكة ، وبكت نصف بكاء ، ومضينا معا الى القاعة الخلفية . وهناك كان يقف الى جانب المدفأة غلام صغير لا يتجاوز عمره الثالثة ، وكان يرتدى بلوزة وبنطلونا من نسيج صوفي مخطط .

وقالت بيسي على نحو مباشر : « هذا هو ولدي الصغير » .

ـ « واذن فقد تزوجتِ ، يا بيسي ؟ »

ـ « اجل ، منذ خمس سنوات تقريبا . وزوجي هو روبرت ليفن ، سائق العربة . ولقد رُزِقت ، بالاضافة الى « بوبي » هذا بنتا صغيرة دَعَوْتها جين » .

ـ « وانت لا تقيمين في غايتسهيد ؟ »

ـ « انا اقيم في كوخ البواب . ان البواب القديم قد رحل » .

ـ « حسن . وكيف حالهم كلهم ؟ اخبريني كل شيء عنهم يا بيسي . ولكن اجلسي اولا . وانت يا بوبي ، تعال واجلس على ركبتي ، ما رأيك ؟ » ولكن بوبي فضَّل الانسلال نحو امه والالتصاق بها .

وتابعت مسز ليفن حديثها : « انكِ لم تبلغي من الطول مبلغا عظيما ، يا جين ، ولم يعرف جسمك مقدارا كافيا من البدانة . واني لاجرؤ على الزعم انهم لم يُعْنوا بأمرك في المدرسة ، عناية حسنة . ان كتفي مس ريد تبلغان مستوى رأسك ، وان جسم مس جورجيانا يبلغ عرضه ضِعف عرضك » .

ـ « جورجيانا بهية الطلعة ، في ما احسب ، اليس كذلك يا بيسي ؟ »

ـ « جدا . لقد ذهبت الى لندن في فصل الشتاء الماضي مع امها ، وهناك كانت موضع اعجاب القوم كلهم . ولقد تدلَّه بحبها لورد غض الاهاب ، ولكن اهله ، عارضوا في زواجه منها ، فهل تدرين ماذا فعلا ؟ لقد عقد هو ومس جورجيانا العزم على الهرب . ولكن امرهما سرعان ما اكتشف ، وبذلك حيل بينهما وبين الفرار . ولقد كانت مس اليزا هي التي اكتشفت الخطة . وانا اعتقد انها فعلت ذلك بدافع من الغيرة والحسد . وهي الآن تحيا مع اختها وكأنهما هر وكلب : انهما تنفقان الوقت في شجار مستمر » .

– « حسنا ، وجون ريد ؟ »

– « اوه ، انه يسلك سلوكا لا يتفق مع ما تتمناه له امه • لقد ذهب الى كلية من الكليات ، وهناك رسب – هذا هو التعبير الذي يستعملونه ، اليس كذلك ؟ – في الامتحانات • ثم ان اخواله ارادوا له ان يصبح محاميا ، وان يدرس الحقوق • ولكنه فتى داعر الى ابعد الحدود ، واحسب انهم لن يوفقوا في ايما يوم من الايام الى جعلهِ رجلا ذا شأن » •

– « وهيئته العامة ، كَيف هي ؟ »

– « انه فارع الطول • وبعض النـــاس يعتبرونه شابا وسيما • ولكن شفتيه غليظتان جدا » •

– « ومسز ريد ؟ »

– « ان السيدة تبدو بدينة ، صحيحة الجسم • ولكني احسب انها غير مرتاحة نفسيًّا • ان سلوك مستر جون لا يعجبها ••• انه يبذر المال تبذيرا » •

– « أهي التي سألتك المجيء الى هنا ، يا بيسي ؟ »

– « اوه ، لا • ولكن الشوق كان قد برّح بي الى لقائك ، وحين سمعت ان السيدة تلقت رسالة منك ، وانك تعتزمين الرحيل الى جزء آخر من البلاد خطر لي ان من الخير ان انطلق لاكحل طرفي برؤيتك قبــل ان تصبحي وراء متناولي تماما » •

– « ارجو ان لا تكون رؤيتي قد خيبت ظنونك ، يا بيسي » ، قلت ذلك مستضحكة • فقد لاحظت ان نظرة بيسي كانت ، برغم ما انطوت عليه مــن احترام ، خلوا من اقل الاعجاب واضأله •

– « لا ، يا مس جين • ليس على وجه الضبط • انك رفيعة التهذيب ، وان سيما السيدات الكاملات لتبدو على وجهك • وهذا كل ما كنت اتوقعه لك دائما • فأنت لم تكوني مليحة الوجه في عهد الطفولة » •

وتقبّلت جواب بيسي الصريح بابتسامة : لقد شعرت بأنه كان صحيحا ، ولكني اقرُّ بأني لم اتلقّ مضمونه في لا مبالاة كاملة • ففي سن الثامنة عشرة ترغب الكثرة الكاثرة من الفتيات في انتزاع اعجاب الناس ، وخليق" باقتناعهن بأنهن لا يملكن مظهرا خارجيا متكافئا مع هذه الرغبة ان يوقع في نفوسهن كل المشاعر ما خلا الرضا والارتياح •

وتابعت بيسي ، على سبيل التعزية : « في استطاعتي ان اقول ، مــع ذلك ، انك بارعة • اي شيء تحسنين ؟ هل تعرفين العزف على البيان ؟ »

– « قليلا » •

وكان في الحجرة بيان • فمضت بيسي وفتحته ، ثم سألتني ان استوي على كرسيه واسمعها لحنا • فعزفتُ فالسا او فالسَيْن ، فَتُنِت بهما بيسي فتونا عظيمـــا ، فقالت متهلّلة : « ان مس جورجيانا ومس الَيـــزا تحسنان العزف احسانكِ اياه ! لقد قلت دائما أنك سوف تتفوقين عليهما في ميــدان العلم والثقافة • وهل تحسنين الرسم ؟ »

ـ « هي ذي لوحة من لوحاتي معلقة فوق المدفأة » • كانت لوحة مائية تمثل مشهدا من مشاهد الريف ، لوحة كنت قد اهديتها الى المديرة تقديرا مني لما تفضلتْ به من التوسط لي عند لجنة المعهد • وكانت المديرة قد زجَّجتها واحاطتها باطار •

ـ « اوه ، انها لوحة رائعة ، يا مس جين ! انها لا تقل روعة عن اية لوحة من لوحات الاستاذ الذي يعلم مس ريد فن الرسم ، فما بالك بلوحات الآنستين نفسيهما ، تلك اللوحات التي تقصّر عن مضاهاتها • وهل تعلـّمت الفرنسية؟ »

ـ « اجل ، يا بيسي ، انا احسن قراءتها والتكلم بها » •

ـ وهل تحسنين الوشي على الموصلين والكانفا ؟ »

ـ « نعم » •

ـ « اذن فانت سيدة بكل ما في الكلمة من معنى ، يا مس جين • ولقد كنتُ واثقة من انكِ هكذا ستصبحين ، ومن انكِ سوف توفقين الى النجاح سواء عُني بك اهلك ام لم يُعْنَوا بك • وعلى اَية حال ، فهناك شيء كنت اريد ان اَسألك عنه • هل قدّر لكِ ان تسمعي ايما نبأ عن اسرة ابيك ، آل ايير ؟ »

ـ « لم يقدّر لي ذلك في أي يوم من ايام حياتي » •

ـ « حسن • انك تعلمين ان سيدتي كانت دائما تقول انهم قوم فقراء ، وانهم حقيرون الى ابعد الحدود • ومن الجائز ان يكونوا فقراء • ولكني اعتقد انهم لا يقلون وجاهة عن آل ريد • ذلك بأن رجلا يدعى مستر ايير وفد ذات يوم ـ وكان ذلك منذ سبع سنوات تقريبا ـ على غايتسهيد وطلب الاجتماع بك ، فقالت له سيدتي انك تتلقين العلـم في مدرسة على مَبْعدة خمسين ميلا • فبدت على وجهه علائم الاستياء البالغ ، اذ لم يكن بقادر على البقاء في الوطن ، فقد كان يعتزم السفر الى بلد اجنبي ، وكان من المقرر ان تقلع السفينة من لندن خلال يوم او يومين • كان مظهره مظهر سيد من كرام القوم ، وانا اعتقد انه كان عمكِ أخا أبيكِ » •

ـ « الى اي بلَد اجنبي كَان مسافرا ، يا بيسي ؟ »

ـ « الى جزيرة نائية تقع على مبعـدة آلاف الاميال ، حيـث يصنعون الخمر ، كما اخبرني كبير الخدم » •

فقلت : « لعلها ماديرا ! »

ـ « اجل ، ماديرا ـ هذه هي الكلمة بعينها » •

ـ « واذن فقد ارتحل ؟ »

ـ « اجل • انه لم يمكث في البيت غير دقائق معدودات • فقد استقبلته سيدتي استقبالا جافا راشحا بالتعالي والتكبر ، ولقـد نعتتهُ بعـد ذلك بـ « التاجر الخسيس » • ويعتقد زوجي روبرت انه كان تاجر خمر » •

فقلت : « محتمل جدا • ولعلهُ موظف عند تاجر خمر او وكيل من وكلاء احد المتاجرين بالخمر » •

وتحدثت انا وبيسي ، ساعة اضافية ، عن الايام الخالية ، ثم اضطُرّت الى مفارقتي • ولقد رأيتها كرة اخرى ، طوال بضع دقائق ، صباح اليوم التالي في لوتون ، فيما كنت انتظر المركبة • وقد افترقنا نهائيا عند باب نُزُل « اسلحة بروكلهورست » هناك ، فمضت هي لسبيلها ومضيتُ انا لسبيلي • لقد اتجهتْ الى اعلى هضبة لوورد لكي تستقل العربة القاصدة الى غايتسهيد • وامتطيت انا متن المركبة التي كان مفروضا فيها ان تقودني الى واجبات جديدة والى حياة جديدة في ضواحي ميلكوت المجهولة •

١١

ان كل فصل جديد في رواية ما هو اشبه شيء بمشهد جديد في مسرحية من المسرحيات • وحين ارفع الستارة هذه المرة ، ايها القارىء ، يتعين عليك ان تتخيل حجرة في نُزل جورج في ميلكوت مزدانة الجدران بذلك الورق المصوّر الذي تغطى به جدران الفنادق عادة ، وان تتخيل ان في تلك الحجرة سجادة ، واثاثا ، وبعض اسباب الزينة الموضوعة على المدفأة ، ورسوما فنية في جملتها لوحة لجورج الثالث واخرى للبرنس اوف ويلز وصورة تمثل وفاة وولف • وكل ذلك انما يتجلى لناظريك على ضوء مصباح زيتي متدلٍّ من السقف ، وضوء نار حسنة الضّرام جلست أنا في جوارها مرتدية معطفي ومعتمرة بقبعتي • كانت مظلتي وفروة ذراعيّ مُلقاتين على الطاولة ، وكنت احاول ان اتعذب على الخدر والقشعريرة اللذين استبدا بي اثر تعرُضي ست عشرة ساعة لرطوبة ذلك اليوم الاكتوبري وبرده القارس • لقد غادرت لوتون في الساعة الرابعة صباحا ، ولقد كانت ساعة مدينة ميلكوت تدق الان معلنةً الثامنة مساء •

صحيح اني كنت ، ايها القارىء ، محاطةً باسباب الرفْه كلها ولكن نفسي لم تكن تنعم بكثير من الطمأنينة • فقد حسبت حين وقفت العَربة هنا ان امرءا ما سوف يستقبلني ، فرحت اجيل الطرف في ما حولي ، في كثير من اللهفة والقلق ، بينا كنت اهبط الدرجات الخشبية التي وضعها خادم الفندق لتمكيني من الترجُل في غير انزعاج ، متوقعة ان اسمع صوتا يناديني باسمي وان المح عربة ما ، تنتظرني لتقلّني الى ثورنفيلد • ولكني لم اوفق الى ايما شيء من ذلك ، وعندما سألت احد النُدُل هل سأل احدٌ عن فتاة تدعى الآنسة ايير ، اجابني بالنفي • وهكذا لم يعد لي مناص من ان اطلب الى النادل ان يقودني الى حجرة خاصة ، وها انا ذي انتظر ، فيما تعصف بفكراتي ضروبُ الشكوك والمخاوف على اختلافها •

انه لاحساسٌ غريب جدا ، بالنسبة الى فتاة غرّة ساذجة ان تستشعر انها وحيدةٌ في هذا العالم ، معزولةٌ عن افراد اسرتها جميعا ، غير متأكدة من انها سوف توفق الى بلوغ الموطن الذي قصدت اليه ، وغيرُ قادرة بسبب من

عوائق كثيرة على العودة الى الموطن الذي فارقته • ان سحر المغامرة ليجعل ذلك الاحساس عذبا سائغا ، وان وهج الكبرياء ليوقع الدفء فيه • ولكن رعدة الخوف خليق بها ان تكدّره ، وكان الخوف قد غلب آنذاك علي ، بعد ان تصرّمت ثلاثون دقيقة وانا لا ازال وحيدة • واخيرا وطنت العزم على قرع الجرس •

وسألت النادل الذي لبى ندائي : « هل يوجد في ضواحي هذه المدينة مكان يدعى ثورنفيلد ؟ »

ــ « ثورنفيلد ؟ لست ادري ، يا سيدتي • سوف اسأل المكلّف بالمَشْرَب » •

قال ذلك ثم توارى عن ناظري ، ولكنه ما لبث ان عاد الى الظهور في الحال وسألني : « هل اسمك ايير ، ايتها الآنسة ؟ »

ــ « نعم » •

« ان ثمة شخصا ينتظرك عندنا » •

ووثبتُ ، وتناولت فروة ذراعيّ ومظلتي ، وهرعت الى رواق الفندق • فألفيت رجلا واقفا على مقربة من الباب المفتوح ، وعلى ضوء مصباح الشارع لمحت عربة ذات جواد واحد •

وحين بَصُرَ بي ذلك الرجل قال في شيء من الخشونة وهو يشير الى حقيبتي التي كانت في الرواق : « هذه هي امتعتك ، في ما احسب ؟ »

ــ « اجل » •

وحمل الرجل الحقيبة ووضعها في العربة ، التي كانت ضربا من المركبات ذوات العجلتين • وبعد ذلك امتطيت انا متنها • وقبل ان يوصد الباب خلفي سألته كم تبعد ثورنفيلد عن ذلك المكان ؟

ــ « نحوا من ستة اميال » •

ــ « وكم ساعة ستستغرق رحلتنا الى هناك ؟ »

ــ « ساعة ونصف ، تقريبا » •

واغلق باب العربة ، وصعد متخذا مقعده الخارجي ، وانطلقنا • لقد مضت بنا العربة في تؤدة ، متيحةً لي فرصة واسعة للتفكير • لقد ابهجني ان تشرف رحلتي آخر الامر ، على نهايتها • وفيما كنت مسترخيةً في العربة المريحة ، برغم بُعْدها عن الاناقة ، اطلقت العنان لتأملاتي •

لقد قلت في ذات نفسي : « يخيل الي ، على اساس من بساطة الخادم والعربة ، ان مسز فيرفاكس ليست امرأة مسرفة في الانفاق ، وذلك افضل على كل حال ، فأنا لم اعش الا مرة واحدة مع قوم اغنياء ، ولقد كنت شديدة التعاسة بين ظهرانَيْهم • تُرى هل تحيا هي وتلك الفتاة الصغيرة منفردتين ؟ واذا كان ذلك كذلك واذا كانت قريبة الى النفس بعض الشيء فلا ريب في اني سوف اوفق الى الانسجام معها • اني سوف ابذل غاية جهدي ، وانه لمن المحزن ان لا يؤدي بذلُ المرء غاية جهده الى ثمرة ما ، في كثير من الاحيان • لقد

اتخذت ، في لووود ، مثل هذا القرار ، والتزمته التزاما دقيقا ، فوُفقت الى انتزاع رضا الجماعة واعجابها • اما مع مسز ريد فانا اذكر ان جهودي كانت تقابل بالازدراء على نحو موصول • واني لاضرع الى الله ان لا تتكشف مسز فيرفاكس عن مسز ريد جديدة • امـا اذا فعلَت فعندئذ لن يكون ثمة ما يكرهني على البقاء في خدمتها • ليحدُثْ اسوأ ما يمكن ان يحدث ، ففي ميسوري في مثل هذه الحال ان انشر اعلانا جديدا • ترى ، ما المسافة التي اجتزناها حتى الان ؟ »

وانزلتُ زجاج النافذة ، واطللت منها : كانت ميلكوت وراءنا • ومن عدد المصابيح استنتجتُ انها مدينة مترامية الاطراف ، مدينة اكبر من لوتون بكثير • كنا الآن ، بقدْر ما استطعت ان ارى ، نجتـاز بضرب من الحديقة العامة ، ولكن كانت ثمة بيوت متناثرة في ارجاء البقعة كلها • لقد استشعرت اننا كنا في منطقة مختلفة عـن لووود ، منطقة اكثر اكتظاظا بالسكان ولكنها اقل جمالا ، واكثر حيوية ولكنها اقل رومانتيكية •

كانت الطرق وعرة ، وكان الليل مثقلا بالضباب • وترك الحوذي جواده يمشي الهُوَينا ، فاذا بالساعة ونصف الساعة يتطاولان ليصبحا ـ في ما اعتقد ـ ساعتين اثنتين • واخيرا استدار من على مقعده وقال :

ـ « انت غير بعيدة ، الان ، عن ثورنفيلد » •

وأطللت من النافذة ، كرة اخرى • كنا نجتاز الان بكنيسة ، ولقد رأيت برجها المنخفض العريض بارزا في السماء ، وسمعت ساعتها تدقدقة الرُبع • ورأيت الى ذلك « مَجَرّة » ضيقة من الاضواء ، فوق سفح هضبة ، فعلمت ان ثمة قرية او دسكرة • وبعد عشر دقائق ترجّل الحوذي وفتح مصراعي باب ، حتى اذا اجتزناهما سمعناهما يصطفقان من ورائنـا • وصعّدنا الان تصعيدا وانيا في احد الممرات ، حتى انتهينا الى بيت ذي واجهـة طويلة • كان ضوءُ شمعة يرشح من قمْرية مسدلة الستارة ، على حين كان الظلام يريـن على سائر المكان • ووقفت العربة عند الباب الامامي • وفتحت خادمةٌ ذلك الباب ، فترجلتُ ودخلت •

وقالت الفتاة : « هل لك ان تسيري من هنا ، يا سيدتي ؟ » وتبعتُها عبر ردهة مربعة تطوقها جدران عالية ، ثم ادخلتني الى حجرة بهرت بصري بادىء الامر بضيائها المزدوج المنبعث من نار وشموع ، وهو ضياء متغاير كل التغاير مع الظلمة التي الِفَتْها عيناي طوال ساعتين مـن الرحلة • حتى اذا استعاد ناظراي قدرتهما على الابصار تبدّى لي مشهد انيق مستساغ •

لقد رأيت حجرة صغيرة حسنة الترتيب ، ومائدة مستديرة على مقربة من نار بهيجة ، وكرسيا ذا ذراعين عالي الظهر عتيق الطراز استوت عليه عجوز ضئيلة الجسم يعجز الخيال عن تصور امرأة اكثر منها نظافة • وكانـت هذه العجوز تعتمر بقبعة من قبعات الارامل ، وترتدي ثوبا حريريا اسود ومئزرا من الموصلين ثلجيّ البياض ، وكانت علـى وجـه الضبط اشبه بالصورة التي

تمثلتها بخيالي لمسز فيرفاكس ، الا انها اقل جلالا واكثر وداعة • كانت منهمكة في الحبك ، وكانت هرة ضخمة تجلس عند قدمها في رصانة • وبكلمة موجزة ، لم يكن يعوز تلك الحجرة شيء تكتمل به هذه اللوحة التي تصور المثل الاعلى في الرفه المنزلي • واحسب انه ليس في الامكان تخيل مقدمة توقع الطمأنينة في نفس ايما مربية جديدة اكثر من هذه المقدمة : لم يكن ثمة فخامة تذهل ، ولا ابهة ترتبك • والى هذا ، فاني ما كدت ادخل حتى نهضت السيدة العجوز ، وتقدمت لاستقبالي في لهفة ولطف •

ـ « كيف حالك ، يا عزيزتي ؟ اني اخشى ان تكون الرحلة الى هنا قد اضجرتك ، ذلك ان جون يقود عربته في بطء شديد • ولا ريب في انك مقرورة ، فاقتربي من نار المدفأة » •

فقلت : « مسز فيرفاكس ، في ما احسب ؟ »

ـ « نعم • لست مخطئة • اجلسي » •

وقادتني الى كرسيها ، ثم شرعت تنزع عني شالي وتحل اشرطة قبعتي • ورجوتها ان لا تكلف نفسها هذا العناء كله فقالت : « أوه ، ليس هذا بعناء • اني لاجرؤ على القول ان يديك خدرتان من شدة البرد • اعدي ، يا ليبيا ، قليلا من شراب النيغوس الحار وشطيرة او شطيرتين • دونك مفاتيح مخزن الاطعمة » •

قالت ذلك واخرجت من جيبها مجموعة من مفاتيح ليس ثمة ما هو اليق منها بربة بيت نموذجية ، وقدمتها الى الخادمة •

ثم انها استأنفت حديثها : « والان ، اقتربي من النار اكثر مما فعلت • لقد اصطحبت امتعتك ، اليس كذلك يا عزيزتي ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدتي » • وغادرت الغرفة في خفة ونشاط •

وقلت في ذات نفسي : « انها تعاملني معاملة الزائرة • والواقع اني لم اكن اتوقع مثل هذا الاستقبال ، الا قليلا • لقد توقعت برودة وخشونة ليس غير • ان هذه المعاملة لا تشبه ما كنت قد سمعته عن معاملة الناس للمربيات • ولكن يتعين علي ان لا ابتهج بأسرع مما ينبغي » •

ثم انها عادت • وبيديها الاثنتين رفعت عن المائدة ادوات حبكها وكتابا او كتابين لكي تفسح مجالا للصينية التي جاءت بها « ليبيا » في اعقابها ، ثم قدمت الي الشراب والطعام بنفسها • وارتبكت بعض الشيء اذ وجدت نفسي موضع رعاية لم يسبق لي ان احطت بمثلها من قبل ، ومن جانب من ؟ من جانب مستخدمتي ورئيستي • ولكن لما كانت هي نفسها لا تعتبر ، في ما بدا لي ، انها تقوم بأيما عمل استثنائي فقد رأيت من الخير ان اتقبل مجاملاتها هذه في هدوء •

وسألتها بعد ان تناولت شيئا مما قدمته الي : « هل سيقدر لي ان اسعد برؤية مس فيرفاكس الليلة ؟ »

فأجابتني السيدة الطيبة وهي تقرب اذنها من فمي : « ماذا قلت ، يا

عزيزتي ؟ اني اشكو بعض الصمم » ·

فكررت السؤال على نحو اشد وضوحا ، فقالت : « مس فيرفاكس ؟ اوه ، انت تعنين مس فارينز ! فارينز هو اسم طالبتك المقبلة » ·

ـ « حقا ! واذن فانها ليست بنتك ؟ »

ـ « لا ، فليس لي اولاد » ·

وكان خليقا بي ان ارغب في اتبـاع سؤالي الاول بالسـؤال عن صلة النسب بينها وبين مس فارينز ، ولكنني تذكرت انه ليس من الكيـاسة ان اسرف في طرح الاسئلة · والى هذا ، فقد كنت واثقة مـن انني سوف اعرف ذلك عاجلا ام آجلا ·

وتابعت تقول وهي تجلس قبـالتي واضعةً الهرة على ركبتها : « انا سعيدة جدا ، سعيدة جدا بمجيئك · ان الحياة سوف تطيب لي هنا ، منذ اليوم ، مع رفيق مؤنس · انها ولا ريب طيبة في كل آن ، ذلك بأن ثورنفيلد قصر عتيق رائع ، قد يكون اهمِل في السنوات الاخيرة ولكنه لا يزال موطنا محترما · ومع ذلك فانت تعلمينَ ان الوحدة ، حتى في افخم القصور ، توقع في نفس المرء بعض الوحشة خلال شهور الشتاء · اقول الوحدة ـ ان « ليبا » فتاة لطيفة من غير ريب ، وجون وزوجته قوم لا غبار عليهم ، ولكنهم كما ترين مجردُ خدم ، وليس في ميسور المرء ان يتحدث اليهم على قدم المساواة : ان عليه ان يبقيهم على مسافة كافية خشية ان يفقد هيبته وسلطانه · واستطيع ان اقول في كثير من الثقة انه في الشتاء المنصرم (لقد كان شتاء قاسيا جدا ، اذا كنت تذكرين ، لم ينقطع ثلجه ـ او يكد ـ عن السقوط ، حتى اذا اتفق ان انقطع يوما ، هطل المطر وهبَّت الرياح) لم يفد على القصر ايما مخلوق غير الجزار وساعي البريد ، من تشرين الثاني (نوفمبر) الى شباط (فبراير) ، ولقد غلبت علي الكآبة حقا اذ رأيت الى نفسي اسلخ الليلـة تلو الليلة منفردة وحيدة · كنت اسأل « ليبا » ان تقرأ لي في بعض الاحيان ، ولكنني لا احسب ان تلك الفتاة المسكينة احبت هذه المهمة كثيرا · لقد وجدتْ فيها معنى الحبس وتقييد الحرية · اما الربيع والصيف فنحيـاة فيهما ادعى الى الامتاع : ان اشعة الشمس والنهارات الطويلة لتشعرك بأن تغيرا كبيرا قد حدث · والى هذا ، ففي مطلع هذا الخريف بالذات وفدت آديلا فارينز الصغيرة وحاضنتها · ان الاطفال ليبعثون الحياة في البيت ، فجأة . اما وقد اقبلتِ انت ايضا فلا ريب عندي في ان البهجة سوف تغمر فؤادي » ·

والحق ان قلبي أنِس الى السيدة الجليلة حيـن سمعتهـا تتحدث · وادنيت كرسيي منها ، بعض الشيء ، وعبَّرت عن رغبتي الصادقة في ان تجد صحبتي سائغة كما توقَّعَتْ ·

وقالت : « ولكنني لن ابقيكِ ساهرة ، الليلة ، حتى وقت متأخر · ها هي ذي الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ، ولقد سلخـتِ النهـار كله في سفر طويل ، ولا ريب انك متعبة · فاذا كانت قدماكِ قد عرفتا الان قدرا كافيا من

الدفء فسوف اقودك الى حجرة نومك . لقد سألتهم ان يعدّوا لك الحجرة الملاصقة لحجرتي . صحيح انها غرفة صغيرة ، ولكني اعتقدت انك قمينة بان تفضليها على الحجرات الامامية الرحيبة . لا ريب في ان اثاثها اغنى ، ولكنها موحشة جدا ، منعزلة جدا ، الى درجة جعلتني انا نفسي لا انام فيها البتة » .

فشكرتها على اختيارها الحصيف ، واذ كنت استشعر الارهاق ، فعلا ، بعد رحلتي الطويلة ، فقد عبرتُ عن استعدادي للايواء الى الفراش . فما كان منها الا ان حملت شمعتها وغادرت الحجرة ، وانا امضي في اثرها . لقد ذهبت اولا لتستيقن من ان باب الردهة مغلق بالمزلاج . حتى اذا نزعت المفتاح من القفل ارتقت السلم امامي . كانت الدرجات والدرابزون من خشب السنديان ، وكانت نافذة السلّم عالية ذات شَعْرية . وكانت هذه النافذة والشرفة الطويلة المفضية الى ابواب حجرات النوم تبدوان اليَقَ بكنيسة منهما ببيت . كان هواء بارد جدا شبيه بهواء السراديب يتخلل السلم والشرفة ، ويوحي بمعانٍ من الاتساع والعزلة بغيضة . وابتهجت آخر الامر عندما اكتشفت ، وقد ادْخِلْتُ الى حجرتي ، انها غير مترامية الاطراف ، وانها ذات اثاث عصري عادي .

حتى اذا تمنّت لي مسز فيرفاكس ليلة طيبة ، واحكمتُ انا اغلاق باب غرفتي ، اجلت بصري في ما حولي في سكينة وهدوء . كان مشهد غرفتي الصغيرة الاكثر ابهاجا قد محا ، الى حد ما ، الانطباعة المرعبة التي اوقعتها في نفسي تلك الردهة الرحيبة ، وتلك السلم العريضة المظلمة ، وتلك الشرفة الطويلة الباردة ، وتذكرتُ انني ، بعد يوم كامل من التعب الجسدي والقلق النفسي ، قد أويت آخر الامر الى مَفْزَع آمن . وفاض فؤادي بعرفان الجميل ، فركعت على مقربة من السرير ، ورفعت آيات الشكر الى مَنْ هو حقيقٌ بالشكر ، غير ناسية ، قبل ان انهض ، ان اسأله العون على اجتياز سبيلي المقبلة ، والقدرة على اثبات اهليتي للفضل الذي اغدق علي قبل ان آتي اي عمل يجعلني جديرة به . ولم يكن مضجعي حافلا بالاشواك هذه الليلة ، ولم تعرف المخاوف سبيلا الى غرفتي الصغيرة المنعزلة . واذ كنت متعبة ومستبشرة في آن معا ، فسرعان ما استسلمت لنوم عميق . حتى اذا استيقظت كان النهار قد ارتفع .

وبدت الغرفة في ناظري ـ عندما تألقت الشمس من بين ستائر النافذة المخيطة من شيت ملوّن ازرق زاهٍ ، كاشفةً عن جدران مغطاة بالورق المصوَّر ، وعن ارض مفروشة بالسجاد ... اقول بدت الغرفة في ناظري موطنا صغيرا بالغ الاشراق ، مختلفا كل الاختلاف عن ارضية لوورد الخشبية العارية وجصّها المتسخ . وابتهجت نفسي بهذا المشهد . والواقع ان للمظاهر الخارجية اثرا عظيما في نفوس الصغار ، وهكذا تراءى لي ان عهدا جميلا من عهود حياتي قد اهلّ ، فترة كان مقدرا لها ان تكون زاخرة بالرياحين والمسرات ، وبالاشواك وضروب الكدح في آن معا . وبدت مَلَكاتي متوفزة

كلها ، بعد ان اثارها تغيُّر المنظر وهذا الحقل الجديد الزاخر بالامل • وليس في ميسوري ان اعيِّن على وجه الضبط ما الذي توقَّعتَه ، ولكنه كان شيئا سارّا قد لا يتم اليوم او بعد شهر ، الا انه لا بد ان يتم في فترة غير محددة من المستقبل •

ونهضت ، وارتديت ملابسي في عناية • صحيح اني كنت مضطرة الى اصطناع البساطة ، اذ لم اكن املك غير ملابس مَخيطة بأقصى قدر من السذاجة ، ولكني كنت بالفطرة شديدة الحرص على الظهور بمظهر انيق • انا لم أتعود في يوم من الايام عدم المبالاة بمظهري ، او بالانطباعة التي اخلّفها في نفوس الناس • على العكس ، كنت ارغب دائما في ان ابدو على احسن وجه استطيعه ، وفي ان انتزع اعجاب معارفي بقدْر ما يجيز لي افتقاري الى الجمال • وكان الاسى يستبد بي في بعض الاحيان لاني لم اكن اكثر وسامةً : لقد تمنيت احيانا لو تكون لي وجنتان متوردتان ، وأنف مستقيم ، وفم صغير احمر كحبة كرز • لقد تمنيت لو كنت فارعة الطول ، مهيبة ، ذات جسد متناسق النمو • واستشعرت ان من سوء الطالع اني كنت ضئيلة الجسم شاحبة الوجه الى أبعد الحدود ، وان تكون قَسَماتي غريبة جدا ، صارخة جدا • ولكن علام اعتلجت في وجداني هذه التطلّعات والتحسُّرات كلها ؟ من العسير علي ان اعلل ذلك : لقد عجزتُ آنذاك عن تعليله لنفسي على نحو واضح ، ومع ذلك فقد كان لدي مبرر • ولقد كان هذا المبرر طبيعيا ومنطقيا ايضا • بيد اني ما ان سرحت شعري تسريحا جعله شديد الصَّقال ، وارتديت ثوبي الاسود ــ الذي كان برغم شبهه بملابس الكويكريين يمتاز على الاقل بأنه منسجم مع تقاطيع جسمي ــ ولبست صُدَيريتي النظيفة البيضاء ، حتى وقع في نفسي ان مظهري لائق الى درجة تمكنني من المثول بين يدي مسز فيرفاكس ، وان تلميذتي الجديدة لن تنفر مني ، على الاقل ، حين تقع عيناها علي • وبعد ان فتحتُ نافذة غرفتي ، والقيت نظرة خاطفة استيقنت بها ان كل ما على منضدة الزينة مرتب ونظيف ، استجمعت شجاعتي وغادرت الغرفة •

حتى اذا اجتزتُ الشرفة الطويلة المفروشة ارضُها بالحُصُر هبطت درجات السلم السنديانية الزلقة ، ثم مضيتُ الى الردهة ، حيث تريَّثت دقيقةً لكي ارى الى بعض الصور المعلقة على الجدران (كانت احداها في ما اذكر تمثل رجلا كالح الوجه لابسا درعا ، وتمثل الاخرى سيدة ذات شعر منضوح بالذرور وعقد من لؤلؤ) ، والى مصباح برونزي متدلٍ من السقف ، والى ساعة جدار ضخمة صُنِع صندوقها من خشب سنديان حُفِرت عليه نقوش غريبة وأحال الزمنُ وتكرارُ الصقل لونه الى اسودَ أبنوسيّ • لقد بدا لي كل شيء جليلا جدا يوقع المهابة في النفس ، ولكني كنت آنذاك بعيدة كل البعد عن تعوُّد الفخامة • كان باب الردهة ، نصف الزجاجي ، مُشرَعا فتخطيت عتبته • وكان ذلك اليوم يوما خريفيا جميلا ، وكانت

شمس الصباح ترسل اشعتها رائعة على الغياض المسمرّة والحقول الرافلة ، ما تزال ، بكسائها الاخضر · وسرت بضع خطوات فوق الارض الخضرة ، ثم رفعت بصري وسرّحته في واجهة القصر · كان مؤلفا من ادوار ثلاثة غير بالغة الضخامة وان تكن على شيء من الاتساع : كان اشبه ببيت ريفي لسيد ماجد منه بمقر نبيل من النبلاء ، وكانت الشرفات التي تطوق ذروته تخلع عليه ثوبا من الحسن · وكانت واجهته الرمادية تشمخ امام خلفية من خمائل راحت زيغانها * الناعبة تحلق الان في الفضاء : لقد طارت فوق الارض الخضرة والبقاع المجاورة لتحط بعد ذلك فوق مرجة واسعة مطوقة بسياج خفيض · وعلى مقربة من هذا السياج نهض صفّ من اشجار جبارة عتيقة شائكة ، تتميز بالقوة وبكثرة العقد ، وتشبه في ضخامتها شجرات السنديان · وقد كشفت لي هذه الاشجار الشائكة ، لاول وهلة ، عن اصل الاسم الذي خلع على القصر ** وابعد بعض الشيء ، ارتفعت هضاب لم تكن شامخة شموخ تلك المحيطة بلووود ، ولا حافلة مثلها بالصخور الخشنة الناتئة ، أو شبيهة بحواجز عالية تفصلك عن عالم الاحياء ، ومع ذلك فقد كانت هضابا وادعة متوحدة ، ولقد بدت وكأنها تكتنف ثورنفيلد بعزلة ما كنت اتوقع ان اجدها على مثل هذه المقربة الدانية من مدينة ميلكوت الزاخرة بالنشاط والحياة · وتوقّلت سفح احدى هذه الهضاب دسكرة صغيرة تمازجت سطوحها بالاشجار · وكانت كنيسة المنطقة اقرب الى ثورنفيلد منها الى الدسكرة · وكان برجها العتيق يقوم خلف رابية بين القصر وبوابته الخارجية ·

وكنت لا ازال استمتع بالمشهد الساجي والهواء العليل ، وأصغي في ابتهاج الى نعيب الزيغان ، واسرّح طرفي في واجهة القصر الشائبة ، وأفكر قائلة في ذات نفسي ان هذا المكان اضخم بكثير من ان تقطنه سيدة ضئيلة الجسم متوحدة مثل مسز فيرفاكس ، عندما برزت تلك السيدة لدى الباب وقالت : « ماذا ! أفي الخارج والصباح لمّا يتنفّس بعد ؟ يبدو لي انك ممن يبكرون النهوض من الفراش » ·

وتقدمت نحوها ، فاستقبلتني بقبلة بشوشة ، وصافحتني متسائلة : « كيف وجدت ثورنفيلد ؟ »

فاجبتها قائلة : « اني معجبة به اعظم الاعجاب » ·

فقالت : « اجل ، انه موطن ظريف ، ولكني اخشى ان يضطرب أمره عما قريب · والواقع ان حال القصر لن تستقيم الا اذا وطّن مستر روتشيستر العزم على المجيء والاستقرار فيه ، او على الاقل الا اذا اكثر

---

* الزاغ غراب صغير ريش ظهره وبطنه ابيض ·

** تقصد ان القصر سمي ثورنفيلد Thornfield لكثرة الاشجار الشائكة Thorn-trees النامية في جواره · (المعرب)

من الاختلاف اليه بين فترة واخرى • ان البيوت الكبيرة وما ينبسط امامها من اراضٍ فاتنة لتتطلبُ اقامة مالكها فيها » •

فهتفت : « مستر روتشيستر ! من هو مستر روتشيستر ؟ »

فأجابت في سكينة : « مالِكِ ثورنفيلد • اما كنتِ تعلمين انه يدعى روتشيستر ؟ »

ولم اكن اعلم ، طبعا ، فانا لم اسمع به قط من قبل • ولكن السيدة العجوز بدت وكأنها تعتبر ان وجوده حقيقة يعرفها الخاص والعام ، ويتعيَّن على كل امرىء ان يدركها بالغريزة •

واردفت : « لقد حسبتُ ان قصر ثورنفيلد ملكك » •

ـ « ملكي انا ؟ فليباركك الله يا صغيرتي ! أيةَ فكرة غريبة ! ملكي أنا ؟ انا لست اكثر من مدبرة لشؤون القصر ، لست غير المرأة المكلفة بأدارته • ولا ريب في ان صلة قربى بعيدة تجمعني ، من جهة امي ، بآل روتشيستر ، او تجمع زوجي بهم على الاقل • لقد كان قسيسا ، كان راعي « هاي » ـ تلك القرية الصغيرة القائمة هناك فوق الهضبة ـ وكانت هذه الكنيسة القريبة من بوابة القصر الخارجية هي كنيسته • لقد كانت امُّ روتشيستر الحالي من آل فيرفاكس ، وكانت بنت عم زوجي كلالةً ※ • ولكنني لا احاول استغلال هذه القرابة البتة ، والواقع انها ليست عندي بشيء • انا اعتبر نفسي مجرد مدبرة منزل عادية • ان مستخدمي ليعاملني دائما في كياسة ولطف ، وانا لا اتوقع اكثر من ذلك على الاطلاق » •

ـ « والفتاة الصغيرة ••• تلميذتي ؟ »

ـ « انها يتيمة قاصرة تحت وصاية مستر روتشيستر ، ولقد عهد الي في البحث عن مربية لها • وهو يعتزم ان ينشئها هنا ، في اقليم •••• على ما اعتقد • ها هي ذي مقبلة ، مع خادمتها bonne كما تسمي حاضنتها » •

عندئذ انحل اللغز : أن هذه الارملة الضئيلة الجسم ، البشوشة ، الكريمة ، لم تكن سيدة ارستقراطية ، بل امرأة مستخدمة مثلي • ولم ينقص حبي لها ، بسبب من ذلك • على العكس ، لقد استشعرتُ الرضا يُداخلني اكثر من ايما وقت مضى • كانت المساواة بيني وبينها حقيقة ، ولم تكن ثمرة تلطفٍ او تنازل من جانبها • وهذا خير وابقى ، لان موقفي امسى الان اكثر تحررا •

وفيما كنت اتأمل هذا الاكتشاف ، أقبلتْ فتاةٌ صغيرة تعدو فوق الارض الخضرة ، تتبعها حاضنتها • والقيتُ نظرة على تلميذتي التي بدا انها لم تفطن بادىء الامر لوجودي • كانت طفلة صغيرة حقا ، ربما في السابعة او الثامنة من العمر ، نحيلة البنية ، ذات وجه شاحب صغير القسمات ، وشعر اثيث يتدلى حلقات حلقات حتى خصرها •

※ اي من الدرجة الثانية second cousin (المعرب)

وقالت مسز فيرفاكس : « طاب صباحك ، يا مس آديلا · تعالي وتحدثي الى السيدة التي ستنهض بمهمة تعليمك وجعلِك امرأة بارعة في يوم من الايام » ·

واقتربت الطفلة ، وقالت بالفرنسية ، مشيرة الي ، مخاطبة حاضنتها : « اهذه هي مربيتي ؟ »

فاجابتها الحاضنة ، بالفرنسية ايضا : « نعم ، من غير ريب » ·

وتساءلتُ انا ، وقد ذهلت لدن سماعي اللغة الفرنسية : « اهما اجنبيتان ؟ »

ـ « الحاضنة اجنبية ، وآديلا وُلدت في اوروبة القاريّة · واحسب انها لم تفارق تلك الديار الا منذ اشهر ستة · ولم تكن ، يوم وفدت اول ما وفدت الى هنا ، بقادرة على الكلام بالانكليزية ، اما الان فقد امسى في استطاعتها ان تحتال على النطق بها ، بعض الشيء · انا لا افهم ما تقول ، انها تمزجه بكثير من الالفاظ الفرنسية ، ولكنك سوف تقدرين على فهم ما ترمي اليه فهما حسنا ، كما يخيل الي » ·

وكان من حسن حظي ان الاقدار شاءت ان اتعلم اللغة الفرنسية على سيدة فرنسية · واذ كنت قد حرصت ، دائما ، اشد الحرص على التحدث الى مدام بييرُو ، ما وجدت الى ذلك سبيلا ، واذ كنت فوق هذا قد اخذت نفسي ، خلال السنوات السبع الاخيرة ، بأن احفظ كل يوم نصا فرنسيا ـ باذلةً قصارى جهدي لتقويم نبرتي ، ومحاكيةً اقصى ما تكون المحاكاةُ طريقة معلمتي في النطق ـ فقد انتهت معرفتي بهذه اللغة الى درجة من الطلاقة والصحة جعلتني خليقةً بأن لا استشعر كبير ارتباك عند التحدث الى الآنسة آديلا · وتقدمتْ وصافحتني عندما علمت اني مربّيتها · حتى اذا قدْتها لتناول الفطور وجهت اليها بضع جمل في لغتها الأم · ولقد اجابت في اقتضاب باديء الامر ، ولكن ما ان جلسْنا الى المائدة ، وانفقتْ نحو عشر دقائق وهي تتأملني بعينيها الكبيرتين الشبيه لونُهما بلون البندق ، حتى شرعت تلغو في طلاقة ·

لقد صاحت بالفرنسية : « آه ، انت تتكلمين لغتي بمثل براعة مستر روتشيستر في النطق بها · ولسوف يكون في استطاعتي ان اتحدث اليك كما اتحدث اليه ، وسيكون في استطاعة « صوفي » ان تفعل ذلك ايضا · ان هذا سوف يُسعدها · ان احدا هنا لا يفهم ما تقول ، فمدام فيرفاكس انكليزية خالصة · و « صوفي » هي حاضنتي · لقد عبرت البحر معي على متن سفينة كبيرة ذات مدخنة تنفث دخانا ـ ويا له منَ دخان كثيف ! ـ ولقد ألمّ بي دوار البحر ، كما المّ بصوفي ، وبمستر روتشيستر · ولقد انطرح مستر روتشيستر على اريكة في حجرة جميلة تدعى الصالون ، في حين تمدّدتُ انا وتمدّدت « صوفي » على سريرين صغيرين في مكان اخر · ولقد كدت اسقط على سريري ، فقد كان أشبه برف من الرفوف · آه ،

مدموازيل ٠٠٠٠٠ ما اسمك ؟ »

ـ « أيير ٠٠٠ جين أيير » ٠

ـ « آيير ؟ اوه! انا لا استطيع ان الفظه٠ حسنا ، لقد ألقت سفينتنا مراسيها ،في الصباح، قبل ان يغمر الضياء الكون ، في مدينةٍ كبيرة ـ مدينة هائلة ، ذات بيوت داكنة يتصاعد الدخان منها كلها ٠ مدينة لا تشبه على الاطلاق تلك المدينة الحلوة النظيفة التي وُلِدْت فيها ، وحملني مستر روتشيستر بين ذراعيه ، فوق لوح خشبي ، الى اليابسة ،وتبعتنا صوفي ، ثم امتطينا كلنا متن عربة أقلَّتنا الى بيت ضخم جميل ، اضخم من هـــذا وأبدع ، يَدعونه فندقا ٠ وهناك مكثنا اسبوعا ، تقريبا ، فكان من عادتي وعادة صوفي ان نتمشى كل يوم في ارض خضراء كبيرة ملأى بالاشـــجار يدعونها « الحديقة العامة » ، وفي هذه الحديقـــة كان كثير مـــن الاطفال ـ بالاضافة الي ـوبركة فيها طيور جميلة كنت ألقي اليها بفتات الخبز »٠

وسألتني مسز فيرفاكس : « هل تستطيعين ان تفهمي ما تقول عندما تتحدث بمثل هذه السرعة كلها ؟ »

الحق اني فهمت ما قالت فهما حسنا جـــدا ، فقـــد كنت متعودةً الاستماع الى مدام بييرو تتدفق في الحديث بلسان ذرِب ٠

وتابعت السيدة الطيبة قائلة : « حبذا لو سألتِها سؤالا او اثنين عن أبويها ٠ ليت شعري هل تتذكرهما ؟ »

فسألتها : « آديل ، مع من عشتِ عندما كنـت في تلك المدينـــــة الحلوة النظيفة التي أشرتِ اليها ؟ »

ـ « لقد عشت منذ زمن بعيد مع ماما ، ولكنها ذهبـــت الى السيدة العذراء ٠ كانت ماما تعلمني الرقص والغناء ، وانشاء الشعر ٠ وكان كثير من الرجال والنساء يأتون لزيـــارة ماما ، فكنت ارقص امامهم ، او اجلس على رُكَبهم ، وأغني لهم ٠ لقد احببت ذلك ٠ هــــل ترغبين في الاستماع اليّ الان ، وانا أغني ؟ »

كانت قد أتمت تناول فَطورها ، ومن اجل ذلك أجزت لها أن تقدّم الي نموذجا من براعتها الفنية ٠ فنزلت عن كرسيهـــا ، وأقبلتْ وجلست على ركبتي ٠ ثم انهـــا صالبت ذراعيهـــا الصغيرتين ، أمامها في رزانـــة ، ونترت رأسَها رادّة حلقات شعرها الصغيرة الى الوراء ، ورفعت عينيهـــا الى السقف ، وطفقت تنشد أغنية منتزعة من « أوبرا » بعَينْنها ٠ كانـــت لحنا يصور سيدة هجرها حبيبها ، فهي بعد ان تنتحب ملتاعةً لغدر هـــذا الحبيب وخيانته تدعو الكبرياء الى نجدتها ، وتكلف وصيفتها ان تُلْبسها انفس فساتينها وتزيّنها بأبهى جواهرها ، وتعقـــد العزم على الاجتماع بفتاها الخائن ، تلك الليلة ، في حفلة راقصة ، وتثبِت له ، بما تتـــكلف من ابتهاج مصنوع ، ان هجره اياها لم يَحزُنْها البتة ٠

لقد بدا لي ان في اختيار هـــذا الموضوع لمغنِّية طفلـــة شيئا مـــن

الغرابة · ولكني احسب ان عنصر الطرافة في تلقينها هذا اللحن كان يتمثل قبل كل شيء في الرغبة في سماع نغمات الحب والغيرة يُغنَّى بها بلثغة الطفولة · ولكنها طرافة تنمُ عن ذوق سقيم · أو هذا ما حسبتُه ، على الاقل ·

وكان اداء آديل هذه الاغنية الخفيفة حسنا على الجملة : لقد أنشدتْها على نحو مطرب ، وبسذاجةٍ تتلاءم وصِغر سنها · حتى اذا تمَّ لها ذلك وثبت من على ركبتي وقالت : « والآن ، ايتها الآنسة ، سوف اسمعك شيئا من الشعر » ·

واتخذت وضعا القائيا ، واستهلت قائلة بالفرنسية : « مؤتمر الفيران، حكاية على لسان الحيوان من شعر لافونتين » · ثم انها ألقت المقطوعة الشعرية ، مراعيةً مواطن الوقف والابتداء ، وتفخيم اللفظ ، ومرونة الصوت ، وموافقة الايماءات لمقتضى الحال · وهي ظاهرة مستغربة جدا ، في مثل سنِّها ، ظاهرةٌ تنهض دليلا على انها دُرِّبت في عناية بالغة ·

وسألتها : « هل كانت امك هي التي لقَّنَتْك هذه المقطوعة ؟ »

— « نعم ، وكان من دأبها ان تقولها بهذه الطريقة (وهنا اعادت آديل اداء احد الابيات ، بأصله الفرنسي : « ما بالكم ، قالت فأرة من هذه الفيران ، تكلموا ! ») · وكانت تطلب الي ان أرفع يدي — هكذا — لكي تذكِّرني برفع صوتي عند هذا السؤال · والان ، هل أريك رقصي ؟ »

— « لا · هذا كافٍ · ولكن بعد ان ذهبت امك الى السيدة العذراء ، كما تقولين ، مع من عشتِ ؟ »

— « مع مدام فريدريك وزوجها · لقد عُنيتْ بي ، ولكنها لا تمت الي بنسب · وأحسب انها فقيرة الحال ، اذ لم يكن عندها بيت جميل كبيت ماما · ولم تطل اقامتي هناك ، فقد سألني مستر روتشيستر ما اذا كنت اودُ الذهاب الى انكلترة والعيش معه فيها فقلت نعم · ذلك لاني عرفت مستر روتشيستر قبل ان اعرف مدام فريدريك ، ولقد كان لطيفا معي دائما· لقد أعطاني ملابس ودمى جميلة ، ولكنه لم يبرَّ بوعده ، كما ترين ، فقد جاء الى انكلترة ثم غادرها وحده ، فلم أره منذ ذلك الحين على الاطلاق » ·

وبعد الفَطور ، انسحبتُ انا وآديل الى حجرة المكتبة ، وكان مستر روتشيستر قد أصدر أمره — في ما يبدو — بجعلها حجرة تدريس · كانت الكثرة الكبيرة من الكتب مصونة خلف ابواب زجاجية مقفلة ، ولكن احدى الخزائن تُركت مفتوحة ، وكانت تشتمل على كل ما قد تمسُ الحاجة اليه من كتب ابتدائية ، وعلى عدد غير قليل من الكتب الخفيفة في الادب ، والشعر ، والسيرة ، والرحلة ، بالاضافة الى بضع روايات الخ · وأحسب أنه اعتقد ان هذه الذخيرة هي كل ما قد تحتاج اليه المربية لاغراضها الخاصة · والواقع اني سررت بها ، مؤقتا ، سرورا عظيما· فقد بدا لي ان في استطاعتها ، اذا ما قورنت بمجموعة الكتب الهزلية التي وفقت بين الفينة

والفينة الى التقاطها في لوورد ، ان تزوّدني بحصاد خصب من التسلية والثقافة . وفي تلك الحجرة ، ايضا ، كان بيانو صغير ، بالغ الجدّة ، وكُرَتان ارضيتان .

ووجدتُ تلميذتي سهلة القياد الى حد غير يسير ، وان تكن غير نزّاعة الى تركيز الفكر والدأب على الدرس ، فهي لم تألف قط من قبلُ القيامَ بالمهام النظامية ، أيا ما كان نوعها . وشعرتُ انه ليس من حسن الرأي ان اقيّد حريتها اكثر مما ينبغي ، بادىء الامر ، وهكذا ما ان تحدثتُ اليها طويلا ولقّنتُها قليلا ، وما ان انتصف النهار او كاد حتى اجزتُ لها ان تعود الى حاضنتها . ثم اني صحّ عزمي على الانصراف ، حتى موعد الغَداء ، الى تحضير بعض الرسوم الاعدادية الصغيرة لكي تستعملها هي وتفيد منها .

وفيما كنت ارتقي السلم التماسا لاقلامي ومحفظتي الخاصة بالرسم نادتني مسز فيرفاكس قائلة : « لقد انتهت ساعاتك التعليمية الصباحية الان ، في ما أظن » . كانت في حجرة فُتِح بابها على مصراعيه ، فلم اكد أسمع نداءها حتى دخلت عليها تلك الحجرة . كانت غرفة رحيبة فخمة ذات كراسي وستائر ارجوانية ، وسجادة شرقية ، وجدران مغطاة بألواح من خشب الجوز ، ونافذة عريضة واحدة غنيّة بالزجاج الملون ، وسقف سامق مزدان بنقوش رائعة . وكانت مسز فيرفاكس تنفض الغبار عن بعض الزهريات البلورية الارجوانية النفيسة المرصوفة على نضد المائدة (بوفيه) .

وهتفتُ وانا اجيل طرفي في ما حولي ، ذلك بأني لم أر من قبل حجرة تتمتع بنصف هذا المقدار من الجلال : « يا لها من غرفة جميلة ! »

ـ « اجل ، هذه هي حجرة الطعام . لقد فتحتُ النافذة منذ لحظة ، لكي يدخلها قليلٌ من الهواء وأشعة الشمس ، لان كل شيء يتشبّع بالرطوبة في الحجرات التي لا يختلف اليها المرء الا قليلا . ان الداخل الى حجرة الاستقبال هناك ليستشعر وكأنه في قبو » .

وأشارت الى قنطرة عريضة مقابلة للنافذة ، وعليها مثلها ستارة ارجوانية اللون كانت الان مرفوعة . وارتقيتُ اليها درجتين عريضتين والقيتُ من خلالها نظرة ، فحسِبْتُني المح موطنا من مواطن الجن ... الى هذا الحد بدا المشهد رائعا في عيني الغِرّتين ! ومع ذلك لم يكن غير مشهد حجرة استقبال رائعة ، اشتملت في جانب منها على بهو للزينة . كانت ارض الحجرة والبهو كليهما مفروشة بسجاد ابيض يبدو لعيني الناظر وكأن اكاليلَ زهر مشرقة قد نُضِدتْ فوقه . وكان سقفا الحجرة والبهو كلاهما ايضا مزدانين بنقوش تمثلَ عناقيد عنب ناصع البياض واوراق كرمة خضراء ، توهجت تحتها ـ في تغاير غنيّ ـ مُتّكآت وأرائك قرمزية . في حين كانت التحف المنضودة على رف المدفأة الرخامي الشاحب

كلها من زجاج بوهيمي متألق ، وبين النوافذ انتصبت مرايا ضخمة تعكس هذا المزيج من ثلج ونار !

وقلت : « أية اناقة رائعة تهيمن ، بفضل عنايتك البالغة ، على تلك الحجرات يا مسز فيرفاكس ! لا غبار ، ولا أغطية من خيش· ولولا ان الهواء بارد الى حد بعيد اذن لحسب المرء انها آهلة" على نحو موصول » ·

ـ « ولكن يا مس ايير، لا تنسي انه اذا كانت زيارات مستر روتشيستر للقصر نادرة فانها تتم دائما على نحو مفاجيء غير متوقع · واذ كنت قد لاحظت ان رؤية الاثاث مغلّفا محزوما وان جلبة الترتيب العاجل لدن وصوله تثيران غضبه فقد بدا لي ان من الخير الاحتفاظ بالحجرات مرتبة انيقة وعلى استعداد دائم لاستقباله » ·

ـ «هل تعتبرين مستر روتشيستر رجلا كثير المطالب صعب الارضاء؟»

ـ « ليس على نحو مغال · ولكن له اهواء السادة الاماجد وعاداتهم ، وهو يتوقع ان يجد كل شيء مرتبا وفقا لهذه الاهواء والعادات » ·

ـ « وهل تحبينه ؟ أهو محبوب بصورة عامة ؟ »

ـ « اوه ، اجل · لقد تمتعت الاسرة دائما باحترام القوم ، في هذه الديار · فمعظم الارض التي تنبسط امامك ، على مدًّ البصر ، في جوارنا ، كانت منذ اقدم العهود ولا تزال ملكا لآل روتشيستر » ·

ـ « حسن · ولكن ، بصرف النظر عن مسألة الاراضي هذه ، هل تحبِّينه ؟ أهو محبوب لِذاته ؟ »

ـ « ليس لديَّ ايما سبب يدعوني الى الشعور نحوه بغير الحب · وانا اعتقد ان الفلاحين المستأجرين ارضَهُ يعتبرونه مالكا عادلا متحررا · ولكنه لم يُطِل الاقامة بين ظهرانيهم في ايما يوم من الايام » ·

ـ « ولكن اليست له خصال" خاصة ؟ وبكلمة مختصرة ، حدثيني عن شخصيته » ·

ـ « اوه ، ان شخصيته لا شائبة فيها ، على ما احسب · ولعله ان يكون غريب الطبع بعض الشيء · لقد قام برحلات عديدة ، ورأى بلدانا كثيرة ، من غير ريب · وان في ميسوري القول انه ذكي ، ولكني لم احظَ في ايما يوم من الايام بالتحدث اليه مطولا » ·

ـ « وعلى اي نحو تتجلى غرابة طبعه ؟ »

ـ « لست ادري · من العسير علي ان اعبر عن ذلك · ليس هناك شيء صارخ ، ولكنك تستشعرينه عندما يتحدث اليك · فأنت لا تستطيعين دائما ان تتأكدي أهو يهزل ام يجدٌ ، اهو راض ام ساخط · وبكلمة واحدة ، انك لا تقدرين على فهمهِ والنفاذ الى غوره · أو اني على الاقل لا اقوى على ذلك · ولكن هذا لا يقدم ولا يؤخر ، انه سيد طيب جدا » ·

وكان هذا كل ما استطعت انتزاعه من مسز فيرفاكس عن مستخدِميها ومستخدِمي · فهناك اناس ليست لديهم ، في ما يبدو ، اية فكرة عن رسم

الاخلاق والشخصيات ، او عن ملاحظة الصفات البارزة ، سواء اكان ذلك في الاشخاص ام في الاشياء • وواضح ان السيدة الصالحة كانت من هذه الطبقة • لقد حيَّرتها اسئلتي ، ولكنها لم تستطع ان تحملها على الافاضة في الوصف • لقد كان مستر روتشيستر في عينيها هو مستر روتشيستر : سيد ماجد ، وصاحب اراض واسعة ـ ولا شيء اكثر من هذا • انها لم تتحرَّ ولم تتقصَّ ما وراء ذلك ، وليس من ريب في انها عجبَتْ لرغبتي في الفوز بفكرة ادق عن شخصيته •

وحين غادرنا حجرة الطعام ، اقترحَتْ علي ان نقوم بجولة تطلعني فيها على سائر اقسام البيت • فتبعتها صاعدة السلم حينا هابطة اياها حينا ، مبدية اعجابي بكل ما ارى ، اذ كان كل شيء جميلا حسن الترتيب • لقد وجدتُ الحجرات الامامية الواسعة فخمة الى حد استثنائي ، كما وجدتُ بعض غرف الدور الثالث ، برغم ظلامها وانخفاضها ، ممتعة بما ران عليها من جو العِتْق والقِدَم • كانت ضروب الاثاث التي لاءمت الحجرات السفلى ، في وقت ما ، قد نُقلت الى هنا ، شيئا بعد شيء ، كلما تغير الزي • فاذا بالضوء الباهت المتسرِّب من نوافذها الضيقة يكشف عن سُرُر يبلغ عمرها مئة عام ، وعن خزائن منخفضة من خشب السنديان او الجوز بدت ، بنقوشها الغريبة التي تمثل سعَف النخل ورؤوس صغار الملائكة اشبه ما تكون بضروب من توابيت العهد العبرانية ، وعن صفوف من كراسي اثرية عريضة عالية الظهور ، وكراسي خفيضة لا ظهر لها ـ وكانت اكثر امعانا في القِدَم ـ لا تزال ترى فوق ذرواتها المنجَّدة آثار وشيٍ نصف مَمحوٍ أبدعته أنامل استحالت منذ جيلين اثنين الى هباء • لقد خلعت هذه المخلفات الاثرية كلها ، على الدور الثالث من قصر ثورنفيلد ، مظهر بيت من بيوت الماضي البعيد ، مظهر حرم للذكريات • ولقد احببتُ السكينة ، والظلمة ، والغرابة التي رانت على هذه المواطن المعزولة، في ساعات النهار، ولكني لم أشتهِ بأية حال ان أضطجع ليلة من الليالي في واحد من هذه السُّرر العريضة ، الثقيلة التي أغلقت على بعضها ابواب من خشب السنديان • والتي ظلِّل بعضها بستائر انكليزية عتيقة مكسوَّة بوشيٍ غليظ يمثل رياحين عجيبة وطيورا اعجب ، وكائنات بشرية ادعى من هذه وتلك الى اثارة العجب ، فقد كان خليقا بهذا كله ان يتخذ ، في ضوء القمر الشاحب ، مظهرا غريبا الى ابعد الحدود •

وسألتُها : « وهل ينام الخدم في هذه الغرف ؟ »

ـ « لا • انهم يحتلون مجموعة غرف اصغر حجما في مؤخرة القصر • ان احدا لا ينام هنا البتة ، اذ ان المرء ليُغْرى بالقول انه لو كان في قصر ثورنفيلد شبحٌ اذن لاتخذ من هذا المكان مثوىً له » •

ـ « ذلك هو رأيي ايضا • واذن فليس لديكم ههنا شبحٌ ما ؟ »

فأجابت مسز فيرفاكس متبسِّمة : « انا لم اسمع بوجود شيء من

ذلك عندنـا » ٠

ـ « وليس ثمة احاديث تُروى عن شبح ما ؟ أليس ثمة خرافات او حكايات تزعم ان اشباحا سكنت القصر في عهد من العهود ؟ »

ـ « لست اظن ذلك ٠ ومع هذا ، فيتحدث الناس بأن آل روتشيستر كانوا في زمانهم قوما اقرب الى العنف منهم الى الهدوء ٠ ولعل هذا هو السبب الذي من أجله يرقدون الان في قبورهم في سكينة » ٠

فغمغمت : « اجل ، انهم ـ كما جاء في القول المأثور ـ « بعد حمَّى الحياة المتشنجة يرقدون في سلام » ٠ الى اين ستذهبين الان ، يا مسز فيرفاكس ؟ ٠ » ذلك بأني رأيتها تتحرك للمضي في سبيلها ٠

ـ « الى السطوح ٠ هل لك ان تجيئي وتريْ المشهد من هناك ؟ »

ورحت اتبعها هذه المرة ايضا ، مرتقيتيْن سلما نقَّالة ضيقة جدا ابلغتنا « العليّة » ، ومن ثم اجتزنا « بابا مسحورا » فاذا بنا نجد نفسيْنا فوق سطح القصر ٠ لقد كنت الآن على مستوى ارتفاع مستعمرة الغربان ، وكان في ميسوري ان ارى الى اعشاشها ٠ واتكأتُ على الشرفات ، وأطللت منها مجيلة طرفي في الاراضي المنبسطة امامي مثل خريطة جغرافية : كان المرج المخملي المشرق يطوق قاعدة القصر الرمادية تطويقا محكما ، وكان الحقل ، العريض مثل حديقة عامة ، منقَّطا بالادواح العريقة ، وكانت الغابة داكنة ذابلة يخترقها مجاز تكسوه طحالب نامية على نحو مرْئي ، وكان هذا المجاز أشدَّ اخضرارا ، بطحالبه ، مما كانت الاشجار بأوراقها ، وكانت الكنيسة القائمة عند السياج ، والطريقُ ، والهضابُ الهادئة كلها هاجعة تحت اشعة شمس الخريف ، وكانت سماءٌ صافية لازوْرْدية مرصَّعة ببياض لؤلؤي تَحُدُّ الافق ٠ ايما مجلىً من مجالي ذلك المشهد لم يكن استثنائيا ، ولكن كل شيء كان سارا ٠ حتى اذا استدرْتُ واجتزت « الباب المسحور » من جديد لم أكد أرى سبيلي وأنا اهبط السلَّم النقالة ٠ لقد بدت « العليّة » سوداء مثل قبو ، بالقياس الى ذلك القوس الازرق الذي كنت أجيل طرْفي فيه ، وبالقياس الى مشهد الغيْضة والمرج والهضبة الخضراء السابحة في نور الشمس ، ذلك المشهد الذي شكَّل القصر واسطة عقدِه ، والذي كنتُ احدق اليه في ابتهاج ٠

وتخلَّفت مسز فيرفاكس لحظة لكي تُحكم ايصاد « الباب المسحور » ٠ وتلمَّستُ طريقي تلمسا حتى اهتديت الى مخرج « العليّة » ، ورحت اهبط السلم الضيقة ٠ وتمهلت في المجاز الضيق الذي افضَتِ السلَّم اليه ، والذي فصَل غرف الدور الثالث الامامية عن غرفه الخلفية ٠ وكان ذلك المجاز الضيق ، الخفيض ، القاتم ، المضاء بنافذة صغيرة واحدة ليس غيرِ ممند طرفِه الاقصى ، يشبه ـ بِصفَّيْ ابوابه الصغيرة السوداء ،

الموصدة كلها ـ رواقا في قصر من قصور « صاحب اللحية الزرقاء » * •

وفيما كنت أخطو ، ثمة ، في رفق ، طرق اذني آخر صوت كنت أتوقع أن اسمعه في بقعة غارقة في السكون كهذه البقعة • ولم يكن ذلك الصوت غير ضحكة ••• ضحكة غريبة ، واضحة ، غير طبيعية . وغير بهيجة • ووقفتُ ، فانقطع الصوت طوال لحظة ليس غير • ثم انطلق على نحو اشد واقوى • ذلك بأنه كان في المرة الاولى ، على الرغم من وضوحه ، خفيضا جدا • ثم انه تلاشى في جلجلة صخابة بدت وكأنها ايقظت صدى في كل حجرة من الحجرات المهجورة ، برغم ان ذلك الصوت انبعث من حجرة واحدة ليس غير ، وانه كان في ميسوري ان أشير الى الباب الذي انبعث منه •

وصحت : « مسز فيرفاكس ! » ذلك بأني سمعتها الان تهبط السلَّم الكبيرة • « هل سمعتِ الضحكة المدوية ؟ ضحكة مَن هي ؟ »

فأجابت : « اغلبَ الظن انها ضحكة احدى الخادمات • ولعلها ضحكة غرايس بول » •

وسألتُها من جديد : « هل سمعتِها ؟ »

ــ « اجل ، وبوضوح • اني كثيرا ما أسمعها • فهي تخيط في واحدة من هذه الغرف • وفي بعض الاحيان تكون « ليبا » معها ، وكثيرا ما يرتفع صوتاهما عندما تلتقيان » •

وتكررت الضحكة ، خفيضة هذه المرة ، واضحة المقاطع ، وانتهت بهمهمة غريبة •

وهتفت مسز فيرفاكس : « غرايس ! »

والواقع اني لم أكن اتوقع ان تجيب نداءَها ايما « غرايس » ، لان الضحكة كانت ضحكة لم اسمع قط من قبلُ اكثر منها تراجيدية وخروجا على الطبيعة • ولولا انها انطلقت والشمس في كبد السماء، ولولا ان جلجلة الضحك لم ترافقها ايما حادثة مخوفة ، ولولا ان ايا من المكان والزمان لم يكن ليغري بالخوف ، اذن لكان خليقا بي ان استشعر مثل تلك المخاوف التي توقعها الخرافات في النفوس • وأيا ما كان ، فأن الحادثة التي تلت اظهرت لي أن مجرد الدهش الذي استبدَّ بي كان ضربا من الحماقة •

وتفصيل ذلك ان الباب الاقرب الي ما لبث ان فُتِح ، وخرجت منه خادم ـ امرأة يتراوح عمرها ما بين الثلاثين والاربعين ، هيكل رزين شبه مربَّع ، ذو شعر احمر ، ووجه صارم بشع • كانت صورة لا يكاد المرء يتصوَّر شيئا اقل رومانتيكية وأقل شبحيةً منها •

وقالت مسز فيرفاكس : « ما هذه الضجة الصاخبة ، يا غرايس ؟

---

* Bluebeard ، في الادب الشعبي ، او الفولكلور ، لقب غلب على الفارس « راوول » الذي دخلت زوجته السابعة ذات يوم الى احدى الغرف المحرمة ، في قصره ، فوجدت فيهما جثث زوجاته الست السابقات • (المعرب)

تـــذكري الاوامر ! »

فانحنت غرايس احترامـــا ، ومن غير ان تنطق بكلمة ، وعـاودت الدخول الى الغرفـة ·

وتابعت الارملة كلامها : « هذه امرأة عهدْنا اليها بأن تخيط وتساعـد « ليبا» في مهامها كخادمة · انها ليست فوق النقد في بعض النقاط ، ولـكن سلوكها حسن على العموم · وبالمناسبة ، كيف سارت الامور مع تلميذتك الجديدة ، هذا الصباح ؟ »

وهكذا استمر الحديث بيني وبينها ، وقد امسـت آديـــل هـــي موضوعهُ ، حتى وصلنا الى المنطقة المنيرة البهيجة في الدور الارضـــي · وهرعت آديل للقائنا في الردهة ، هاتفة بالفرنسية : « سيدتيَّ لقد سُكِب طعامكما ! » ثم اضافت : « لقد استبدَّ بي الجوع ! »

ووجدنا طعام الغداء حاضرا ينتظرنا في حجرة مسز فيرفاكس ·

١٢

ان الشعور الذي وقع في نفسي ، بسبب من هدوء الاستقبال الـذي لقيته لدن وفودي على قصر ثورنفيلد ، والذي بدا وكأنه يَعدني بمهمـــة يسيرة غير شاقة ، لم يخيِّبْهُ تطاولُ الاتصال بالمكان ونزَلائه · فقـد تكشَّفت مسز فيرفاكس ، كما كانت قد بدت لي اول وهلة ، عـن امـرأة رضيَّة النفس دمثة الاخلاق ، ذات ثقافة حسنة وذكاء متوسـط · وكانت تلميذتي طفلة تمور بالحياة ، دُلِّعت وأفسِدتْ ، ومن هنا كانت عنيـدة في بعض الاحيان · ولكن لما كان امر العناية بها موكولا كلُّهُ الي ، ولمـا كان أيما تدخل غير حكيم من أية جهة لم يَعُقْ تنفيذ الخطط التي وضعتهـا لتقويمها ، فسرعان ما نسيت نزواتها الصبيانية وغدَتْ مطواعة قابلـة للتعليم · انها لم تكن تنعم بمواهب ضخمة ، او بصفات خلقية بارزة ، أو أيما نمو خاص في الاحساس او الذوق يرفعها انشا واحدا فـوق مستوى الطفولة العادي · ولكنها ، من ناحية ثانية ، لم يَعبْها اي نقص أو رذيلة يهبطـان بها عن ذلك المستوى · لقد احـرزت تقدما معقـولا وأضمَرتْ لي حبا ، قد لا يكون عميقا جدا ، ولكنه بهيج نابضٌ بالحياة · وببساطتها ولَغْوها المرح وما بذلته من محاولات لارضائي اثارت في نفسي انا درجة مـن التعلق بها كافية لان تجعل كلا منا راضية بمرافقة الاخرى ·

وهنا يحسن ان اقول ، بين هلالين ، ان الاشخاص الذين يؤمنـــون بالفكرات الوقورة عن طبيعة الاطفال الملائكية ، وبأن من واجـب المكلفين بتربيتهم وتعليمهم ان يضمروا لهم حبا يكاد يبلغ مرتبة العبادة ··· اقول ان هؤلاء قد يعتبرون السطور السابقة لغة جريئة حتى الوقاحـة · ولكني لا اكتب ما اكتبه لكي اتملَّق أنانية الآباء ، او لكي اردد اصداء الرياء والتصنع ،

أو لكي أساند الغش والخداع . أني اقول الحقيقة ليس غير . لقد استشعرت قلقا مخلصا على مصلحة آديل ورغبة قوية في مساعدتها على التقدم وحبا هادئا لنفسها الغريرة . تماما كما أضمرت لمسز فيرفاكس عاطفة شكران للطفها وكرمها ، ووجدت ابتهاجا في معاشرتها يتكافأ مع الاهتمام الهادىء الذي احاطتني به ومع رجاحة عقلها واعتدال خلقها .

وليلمني من شاء حين اضيف الى ذلك اني كنت بين الفينة والفينة عندما اتمشى بمفردي في اراضي القصر ، أو أمضي بعيدا حتى البوابة الخارجية وأتطلع من خلالها الى الطريق ، أو ارتقي فيما تكون آديل تلعب مع حاضنتها ، ومسز فيرفاكس تصنع ضروب الحلوى الهلامية في حجرة المؤن ـ السلالم الثلاث ، وأرفع باب « العلية » المسحور ، وأبلغ سطح القصر ، واطل من بعيد على الحقل والهضبة المعزولتين وعلى الافق القاتم ... اقول ليلمني من شاء حين اضيف اني كنت في هذه الاحوال كلها اتمنى لو كانت لي قوة ابصار قادرة على تخطي ذلك التخم ، وعلى بلوغ العالم الناشط والمدن والمناطق الزاخرة بالحياة والتي كنت قد سمعت بها ولكني لم أرها قط ، وأتمنى لو كان لي من الخبرة العملية فوق ما كنت املك ، ولواتيح لي من الاختلاط ببنات جنسي والتعرف الى ضروب متفاوتة من الشخصيات والاخلاق اكثر مما أتيح لي هنا في قصر ثورنفيلد . لقد قدرت كل خير انطوت عليه نفس مسز فيرفاكس حق قدره ، وكل خير انطوت عليه نفس آديل حق قدره ، ولكني امنت بوجود صنوف اخرى من الخير احفل بالحيوية ، ولقد كان من دأبي أن اتوق الى رؤية ايما شيء اؤمن بوجوده .

من ينحي علي باللائمة ؟ طائفة من الناس كبيرة ، من غير ريب . ولسوف يزعم هؤلاء اللائمون ان القناعة تعوزني . والواقع اني لم اكن لاتمالك عن ذلك ، فقد كان القلق في دمي ، ولقد هاجني هذا القلق حتى الالم، في بعض الاحيان . عندئذ كانت سلواي الوحيدة أن اتمشى في رواق الدور الثالث ، جيئة وذهوبا ، مستشعرة الامن في سكينة المكان وانعزاله ، وأن أدع عيني عقلي تطيل التحديق الى ايما رؤى مشرقة تتبدى لها ـ ولقد كانت تلك الرؤي وافرة متألقة ، من غير ريب ـ وان أدع قلبي يختلج بالحركة المنتشية التي وسعت ـ بالحياة ـ نطاقه ، وأثقلت ـ بالهم ـ جناحه ، وأن أفتح أذني الباطنية ـ وكانت هذه السلوى خيرا من سابقتيها ـ لحكاية لا انتهاء لها ابد الدهر ، حكاية ابتدعها خيالي ورواها على نحو موصول ، وبعث فيها النشاط العارم بما ضمنها اياه من احداث، وحياة ، وحرارة ، وأحاسيس كنت اتمناها كلها ولكني لا اجدها في وجودي الواقعي .

انه لمن العبث الذي لا طائل تحته القول ان على الكائنات البشرية ان ترضى بالسكينة : انهم في حاجة ماسة الى الحركة ، ولسوف يخلقونها ان

لم يعثروا عليها · والواقع ان ثمة ملايين قدّر عليهم ان يعيشوا حياة اشد امعانا في الهدوء من حياتي ، وان ملايين من الناس هم في ثورة صامتة على قدرهم · وليس يدري أحد" كم من ثورة تختمر ، الى جانب الثورات السياسية ، في نفوس الجماهير · ويفترض الناس ان النسوة هن ، على الجملة ، هادئات جدا · ولكن النسوة يستشعرن ما يستشعره الرجال على وجه الضبط · انهن في حاجة الى تدريب يهذّب ملكاتهن ، والى حقل يبذلن فيه جهودهن بقدْر حاجة اخوتهنّ الى ذلك · وهن يقاسين عنتا كثيرا من جراء التقييد القاسي الى ابعد الحدود ، والركود المطلق الى ابعد الحدود ، شأنَ الرجالِ لو تعرّضوا لمثل هذا التقييد وذلك الركود ، سواء بسواء · وانه لضيق في افق التفكير عند اخوتهن في الانسانية ، اخوتهن الاكثر تمتعا بضروب الامتياز ، ان يقولوا ان عليهن ان يَقْصُرْن نشاطهن على صنع الحلوى وحبك الجوارب ، والعزف على البيان ، وتَوْشِيَة الحقائب · وانه لحمق ان نذمهُنّ وأن نسخر منهن اذا حاولن ان يعملن او يتعلّمن اكثر مما نص العُرفْ على ضرورته لهن ·

ولم يكن نادرا ان اسمع ، حين اخلو الى نفسي على هذا النحو ، ضحكة غرايس بول : عيْنَ تلك الجلجلة المدوية وعيْنَ تلك الـ « ها ! ها ! » الخفيضة البطيئة التي روعتني يوم سمعتُها اولَ مرة · وكنت أسمع ايضا غمغماتها الشاذة ، وكانت اشد غرابة من ضحكتها · كان ثمة ايام اعتصمت غرايس بول خلالها بالصمت المطلق ، ولكن كانت ثمة ايام اخرى كنت اعجزُ فيها عن تعليل الاصوات التي أطلقتْها · ولقد رأيتها في بعض الاحيان : كانت تغادر غرفتها وفي يدها حوض او طبق أو صينية ، وتهبط الى المطبخ لترجع وشيكا ، حاملةً في كثرة الاحوال (اوه ، اعذُرْني ايها القارىء الرومانتيكي ، اذا قلت الحقيقة الخالصة) وعاءً مليئا بجعَةٍ من صنف دُوْن · ولقد كان في ظهورها ما يوهن ، دائما ، من عزيمة الفضول الذي تثيره غرائبها الصوتية في ذات نفسي : كانت صارمة الاسارير ، رابطة الجأش ، فليس فيها ايما شيء خليق بأن يجذب اهتمام المرء وشوقه · وقمت ببضع محاولات لاستدراجها الى الحديث ، ولكنها بدَتْ لي مخلوقة نَزْرة الكلام · كان من دأبها ان تقطع الطريق على كل جهد مبذول في هذه السبيل بجواب وحيد المَقْطع ·

وكان سائر نُزلاء القصر ، اعني جون وزوجته ، و « ليبا » الخادمة ، وصوفي الحاضنة الفرنسية ، قوما صالحين ، ولكنهم لم يكونوا ممتازين في ايما ناحية من النواحي · وكان من دأبي ان اصطنع الفرنسية في حديثي مع صوفي ، وكنت في بعض الاحيان اوجّه اليها اسئلة عن وطنها ، ولكنها لم تكن نزاعة لا الى الوصف ولا الى القصَص ، وكانت لا تفتأ تجيبني بأجوبة تافهة مضطربة مقصود بها الى صد الفضول بدلا من تشجيعه ·

وتصرم تشرين الاول (اكتوبر) ، وتشرين الثاني (نوفمبر) ، وكانون

الاول (ديسمبر) • وذات اصيل من كانون الثاني (يناير) سألتني مسز فيرفاكس ان امنح آديل عطلة لانها مصابة بزكام ، ولما كانت آديل قد ثنَّتْ على هذا الطلب في حماسة ذكرتني كم كانت العُطَل العَرَضية ذات شأن عندي في صدر طفولتي فقد منحتُها اياها • حاسبة انـي احسن صنعا فـي اظهار شيء من المرونة في هذه المسألة • كان يوما جميلا هادئا ، برغم بـرده القارس • وكنت قد مللت القعود في سكينة ، في حجرة المكتبـة ، طـوال ساعات الصباح • وكانت مسز فيرفاكس قد فرغت منذ لحظات من كتابـة رسالة تنتظر من يحملهـا الى البريـد ، وهـكذا اعتمرت بقبعتي الصغـيرة وارتديت معطفي ، وتطوعت لنقلها الى « هـاي » • وكـانت المسافة التـي تفصل « هاي » عن قصر ثورنفيلد ـ ومقدارها ميلان اثنان ـ خليقة بـأن تتيح لي نزهة مستساغة اقوم بها على قدمي في ذلك الاصيـل الشتوي • حتى اذا اطمأنَنْتُ الى ان آديل قد استوت ، في كثير من الرفـه في كرسيها الصغير على مقربة من نار المستوقد في حجـرة مسز فيرفاكس ، وحتى اذا اعطيتها افضل دمية من دماها الشمعية (التي كان مـن عادتي ان ابقيهـا مغلّفة بورق فضي في احد الادراج) لكي تلعب بها وكتابا قصصيا تتسلـى به اذا سئمت العبث بالدمية ، وبعد ان اجبت على قولهـا لي « ارجعـي في سرعة ، يا صديقتي الطيبة ، يا عزيزتي الانسة جانيت » بقبلة طبَعتُها على خدها ، انطلقتُ ماضية لسبيلي •

كانت الارض قاسية ، وكانت الريح ساكنة ، وكانت طريقي موحشة • ورحتُ اغذُّ السير حتى شاع الدفء في جسمي ، ثـم مشيتُ فـي تؤدة لكي استمتع بالمباهج التي طالعني بها الزمان والمكان واحلّل انواعها • كانت الساعة الثالثة ، وقرع ناقوس الكنيسة فيما كنت امرُّ تحت بُرجه ، وكان سحر تلك اللحظات كامنا في عتمتها الزاحفة ، وفي الشمس المنزلقَة خفيضة عند الافق ، المرسلة اشعة واهنة شاحبة • وكنت قد امسيت على مَبْعـدة ميل من ثورنفيلد ، وانتهيت الى درب معروف في الصيف بوروده البريـة ، وفي الخريف بثمار جوزه وعُلّيقه ، درب كان حتى في تلك الساعة مزدانـا ببضع كنوز مرجانية تتألق في وروده البرية وفي زعروره ، ولكن خير مباهجه الشتوية كانت كامنة في توحّده المطلق ، وهدأته العارية من ورق الشجـر • كان النسيم اذا هبَّ لم يُحدث هناك ايما صوت ، ذلك بانه لم يـكن ثمـة شرَّابة راع ※ ولا نبتة دائمة الخضرة حتى يُسمع لهـا حفيف ، وكـانت آجام الزعرور البري والبندق المجردة من اوراقها ساكنة سكون الحجـارة البيضاء البالية التي عبِّد بها وسَطُ الـدرب • وعلى مبعدة متراميـة ، الى يمين الدرب ويساره ، لم يكن غير حقول خلَت الان من ماشية ترعـى في رحابها • وكانت الطير الصغيرة السمراء المصفقة باجنحتها بين الفينـة والفينة عند السياج ، تبدو وكأنها اوراق خمريـة نسيت ان تسقط عـن اغصانها •

※ ضرب من النبات •

كان هذا الدرب يمتد مصعدًا طوال الطريق الى « هاي » . حتى اذا بلغتُ منتصفه قعدتُ على درجة سلم صغير يفضي الى حقل . وأحكمت التدثر بمعطفي ، وخبأت يدي في فروتهما فلم استشعر البرد برغم الصقيع الشديد الذي نهضتْ دليلا عليه طبقة من جليد غطت الطريق المعبد ، حيث كان جدول صغير متجمد الان قد فاض عقبَ ذوبان جليد مفاجيء حدث منذ بضعة ايام . ومن مقعدي ذاك كان في ميسوري ان أشرف على ثورنفيلد : كان القصر الرمادي ذو الشرفات العالية هو الشيء الرئيسي الذي تجلى لناظري في الوهدة الغائرة تحتي ، وكانت غاباته ومسارح غربانه ترتفع نحو الغرب . وتريثت حتى هبطت الشمس بين الاشجار ، ثم غابت قرمزية صافية خلفها . وعندئذ استدرتُ صوب الشرق .

كان القمر الطالع متربعا فوق قمة الهضبة المشرفة على المكان الذي اتخذتُ منه مقعدا . وكان لا يزال شاحبا مثل سحابة ، ولكن اشراقه كان يتعاظم لحظة بعد لحظة . لقد اطل على « هاي » التي راحت ترْسل نصفَ ضائعة بين الاشجار ، دخانا ازرق من مداخنها القليلة . كانت لا تزال على مبعدة ميل ، ولكني استطعت ، في غمرة السكون المطلق ، ان أسمع على نحو واضح نبضات الحياة الواهنة في صدرها . وتبيَّنت اذناي ايضا تدفق جداول لم ادر في اية اودية ووهاد كانت تجري . ولكن كان ثمة هضاب كثيرة وراء « هاي » ، ولا ريب في ان غدْرانا كثيرة كانت تتمعج شاقة طريقها عبْرها . لقد نمَّ هدوء ذلك المساء عن خرير اقرب الجداول ، وعن غمغمة أبعدِها على حد سواء .

وفجأة قاطعَ هذا الخريرَ وذاك الهمس الساحرين ــ اللذين كانا نائييْن جدا وواضحين جدا في آنٍ معا ــ ضجة عنيفة : وقعُ حوافر صارخ . ثم ان صليلا معدنيا انبعث فحجبَ خريرَ الماء ، كما تحجب كتلة من الصخر الصلد ــ في لوحة فنية ــ أو كما يحجب جذعُ صفصافة ضخمة مرسوم بالوان داكنة قوية في خلفيَّة الصورة ، التلالَ اللازوردية التي ترتفع في المدى البعيد ، والافق الذي يستقبل الشمس الجانحة الى الغروب ، والسحائب المتمازجة الالوان ، حيث الصبْغ يذوب في الصبغ .

كانت الضجة تنبعث من جانب الجزء المعبد من الطريق : لقد اقبلَ جواد ، جواد كانت تعرُّجات الطريق لا تزال تحجبه عن ناظري ، ولكنه كان يقترب . وكنت على وشك ان اغادر درجة السلم الصغير ، ولكني عدتُ ، بسبب من ضيق الطريق ، فآثرت التزام مكاني ذاك لكي امكّن الفارس من المضي في سبيله . وانما كنت في تلك الايام فتاة طرية العود ، وكانت ضروب الصور على اختلافها ، من مشرقة وقاتمة ، تملأ ذهني ، وبين تلك النفايات كانت ذكريات الحكايات التي رُويت على مسمعي في عهد الطفولة ، والتي كانت كلما تمثّلتْ في مخيّلتي اضاف النما الصبا الآخذُ

سبيله الى النضج قوة وحيوية فوق الذي تستطيع الطفولة ان تمنَحَهُ . وهكذا بينا كان الجواد يدنو ، وبينا كنت اترقب بروزه من خلال الغسق ، تذكرتُ حكاية من حكايات بيسي عن روح كانت تظهر في شمالي انكلترة تدعى « جيتراش » ، وكانت تسكن الطرق الموحشة متخذة شكل حصان او بغل او كلب كبير ، وتبرز في بعض الاحيان للمسافرين المتأخرين ، كما كان هذا الجواد على وشك ان يبرز لي الان .

وكان قد أمسى على مقربة دانية مني ، ولكنه لا يزال محجوبا عن ناظري ، عندما سمعت بالاضافة الى وقع الحوافر حركة اندفاعية تحت السياج ، واذا بكلب ينسل على مقربة من جذوع اشجار البندق ، كلب ضخم كان في سواد لونه وبياضه ما ظهّره على نحو بارز بين الاشجار . لقد كان على وجه الضبط واحدا من الاشكال التي تعوّد « جيتراش » بيسي ان يتخذها : كان مخلوقا شبيها بالاسد ذا شعر طويل ورأس ضخم ، بيد انه مرَّ بي في كثير من الهدوء ، غير متلبِّث حتى يتطلع بعينين كلبيَّتين غريبتين ، الى وجهي ، كما توقعتُ نصفَ توقع . وبعد ذلك اقبل الحصان : كان جوادا فارع الطول ، وكان على متنه فارس . وبدّد الرجل ، الكائن البشري ، السحر في الحال . ذلك بأن احدا لم يَمْتَطِ صهوة « جيتراش » قط ، لقد كان متوحدا على نحو موصول . صحيح ان العفاريت كانت في بعض الاحيان تحل في جثث البهائم العجماوات ، ولكنها كانت نادرا ما تشتهي الحلول – اذا صحّت معلوماتي – في صورة بشرية عادية . واذن فلم يكن ذلك الجواد هو « جيتراش » ، لقد كان مجرد مسافر يسلك الى « ميلكوت » طريقا مختصرة . واجتاز بي ، ومضيتُ أنا في سبيلي . ولم أكد امشي بضع خطوات ، حتى استدرت . لقد استبد بانتباهي صوتُ انزلاق ، وهتافُ « يا للشيطان ! ما الذي سأفعله الان ؟ » وكبوة مُقَعْقِعة . كان الرجل والجواد طريحَيّ الارض ، فقد انزلق الجواد فوق صفحة الجليد التي غطت الجزء المعبد من الطريق . ورجع الكلب واثبا ، حتى اذا رأى صاحِبَهُ في مأزق حرج ، وسمع أنين الجواد ، انشأ ينبح حتى رددت هضاب المساء نباحه الذي كان خفيضا بالنسبة الى حجمه الضخم . لقد استروح الجسدين المنطرحين على الارض ، ثم انطلق نحوي ، كان ذلك كل ما استطاع ان يفعله ، فلم يكن في متناوله مَنْ يَفْزَعُ اليه غيري . ولبيت دعوته ، ومضيت نحو المسافر ، وكان في تلك الاثناء قد شرع يناضل للتحرر من جواده . وكانت جهوده هذه من القوة والعنف بحيث اعتقدتُ ان من غير المعقول ان يكون قد اصيب بكبير اذى . ومع ذلك فقد طرحت عليه السؤال :

– « هل اصبت بأذى ، يا سيدي ؟ »

واحسب انه كان يجدف ، ولكني غير واثقة من ذلك . وعلى اية حال ، فقد كان يغمغم بكلام ما ، حال بينه وبين الاجابة عن سؤالي على التو .

فسألته من جديد : « هل استطيع ان اقدم اليك مساعدة ما ؟ »

ـ « ليس عليك الا ان تقفي جانبا » • كذلك اجابني وهو ينهض واقفا ، على ركبتيه اولا ، ثم على قدميه بعد ذلك • ونزلت عند رغبته ، وعندئذ بدأت عمليةُ انتفاض ورفس وصلصلة يُرافقُها نباح وعواء رداني في الحال بِضْعَ ياردات الى الوراء ، ولكني ما كنتُ لارضى بأن اقْصَى عن المكان اقصاء كاملا الا بعد ان اشهد الحادثة • وما لبثت هذه ان انتهت نهاية سعيدة : لقد نهض الجواد على قوائمه ، وأسْكِت الكلب لَدُنْ سماعه هذه الكلمات : « أخفض صوتك ، يا بايلوت ! » وهنا انحنى المسافر ، وراح يتحسس قدمه وساقَهُ ، وكأنما كان يحاول ان يرى هل هما سليمتان ام لا • ويبدو ان شيئا كان يُوْجِعهما ، ذلك بأنه توقَّف عند درجات السلم الصغير ، التي كنت قد نهضت عنها منذ لحظات ، وقعَدَ على احداها •

وأحسب اني كنت آنذاك في وضع نفسي يغريني بأن اكون ذات نفع ، او بأن اكونَ فضولية ، على الاقل • ذلك بأني ما لبثت ان عاودت الاقتراب من الرجل كرة اخرى •

ـ « اذا كنت مصابا بأيما اذى ، راغبا في مساعدة ما ، ففي استطاعتي ، يا سيدي ، ان اذهب اما الى قصر ثورنفيلد او الى « هاي » واجيئك بمن يُسْدي اليك بعض العون » •

ـ « شكرا • ليس ثمة ضرورة لذلك • ان ايا من عظامي لم تُكْسَر ، انها رَضَّة ليس غير » • ونهض من جديد ، وجرَّب ان يسير على قدمه ، ولكن نتيجة التجربة انتزعت منه آهة لا ارادية •

كانت ثمة بقية متخلفة من ضياء النهار ، وكان القمر يزداد تألقا لحظة بعد لحظة : وهكذا كان في ميسوري ان ارى الى الرجل في وضوح • كان متدثرا بمعطف من معاطف الفرسان ، ذي ياقة من فرو ، ومشابك من نحاس • ان سماته التفصيلية لم تكن ظاهرة ، ولكني لاحظت بعض خطوطه الكبرى : كان ربعة في الطول ، عريض الصدر الى حد بعيد • وكان ذا وجه اسمر ، وأسارير متجهّمة . وجبين عريض وكانت عيناه وحاجباه المقطَّبان تنطق في تلك اللحظة بمعاني الحنق والخيبة • كان قد تخطّى صدر الشباب ، ولكنه لمّا يبلغ سن الكهولة ، ولعله كان في الخامسة والثلاثين • ولم أوجسْ منه خيفة ، ولكني استشعرت بعض الحياء منه • ولو قد كان سيدا وسيما غضَّ الاهاب بطوليَّ السمات اذن لما جرؤت على الوقوف مثل موقفي ذاك اوجّه اليه الاسئلة على غير رغبة منه ، واعرض عليه خدماتي من غير ان يلتمسها • فحتى ذلك الحين لم اكن قد رأيت ـ الا نادرا ـ ايما شاب وسيم ، ولم اكن قد تحدثت في حياتي قط الى ايما شاب وسيم • كان يَعْمر نفسي اجلال وتوقير نظريان للجمال والاناقة ، والكياسة ، والفتنة ، ولكن لو قد قدّر لي ان القى هذه الصفات

مجسّدة في شكل رَجُل ، اذن لكان خليقا بي ان ادرك ادراكا غرَزيا ان ليس بينها وبين اي شيء فيَّ ، ولا يمكن ان يكون ، اية مشاركة وجدانية ، واذن لكان خليقا بي ان اجتنبها كما يجتنب المرء النارَ ، والبرق ، وكل ما هو ساطع ولكنه بغيض الى النفس ٠

وحتى لو تبسَّم هذا الغريب وبشَّ في وجهي عندما خاطبتُه ، ولو رفض ما عرضتُه عليه من المساعدة في مرح مقرون بالشكر اذن لكان خليقا بي ان امضي لسبيلي وان لا استشعر ايما رغبة في الحاحي عليه بالسؤال ٠ ولكن عبوس المسافر وجلافته اوقعا الطمأنينة في نفسي ، فلزمت مكاني عندما دعاني الى الانصراف ، بأشارة من يده ، وقلت له : « انا لا استطيع ان افكر في تركك ، يا سيدي ، في مثل هذه الساعة المتأخرة ، وفي مثل هذا الدرب الموحش ، الا بعد ان استيقنَ من انك صرتَ قادرا على امتطاء جوادك » ٠

ونظر اليَّ لدُنْ قولي هذه الكلمات ، ولم يكن قد وجَّه عينيه نحوي قبل ذلك الا قليلا ٠ وقال : « يخيَّل اليَّ ان من حقك انتِ ان تكوني قد بلغتِ الان بيتك ، ان كان لك بيت في هذا الجوار ٠ اين تسكنين ؟ »

ـ « في هذا الوادي القريب ٠ ولستُ اجد اي خوف من التأخر في العودة حين يكون القمر طالعا ٠ اني سوف اعدو الى « هاي » من اجلك ، وفي سرور ، اذا رغبت في ذلك ٠ والواقع اني ذاهبة الى هناك لكي اضع رسالة في صندوق البريد » ٠

ـ « انت تسكنين في هذا الوادي ٠٠٠ هل تعنين انك تسكنين في ذلك البيت ذي الشرفات ؟ » قال ذلك مشيرا الى قصر ثورنفيلد الذي كان القمر يصوِّب اليه شعاعا مبيَضًا ، مُفردا اياه على نحو واضح شاحب ، من بين اشجار الغابة التي بدت ، الان ، بالمقابلة مع السماء الغريبة ، كتلة من ظلام ٠

ـ « نعم ، يا سيدي » ٠

ـ « بيت مَنْ هو ؟ »

ـ « بيت مستر روتشيستر » ٠

ـ « هل تعرفين مستر روتشيستر ؟ »

ـ « لا ٠ أنا لم أره قط في حياتي » ٠

ـ « هو اذن لا يقيم هنا ؟ »

ـ « لا ٠ »

ـ « هل تستطيعين ان تقولي لي آين هو ؟ »

ـ « لا ٠ »

ـ « انت لست خادمة في القصر ، طبعا ٠ انت ٠٠٠ » وكفَّ عن الكلام ، والقى نظرة على ملابسي ، التي كانت ـ على مألوف عادتي ـ بسيطة جدا : معطف اسود من صوف غنم المرينوس ، وقبعة صغيرة سوداء

من جلد السمّور • ولم يكن اي منهما ليليق ، ولو الى حدٍّ جزئي ، بوصيفة من وصائف السيدات • ومن هنا بدا ذاهلا لا يستطيـــع ان يقطـــع في صفتي بـــرأي •

وساعدته على الخروج من حيرته فقلت : « انا المربية » •

فكرر : « آه ، المربية ! فليأخذني الشيطان ان لـم اكـن قـــد نسيت المربية ! » وكرة اخرى اخضعـَتْ ملابسي لامتحان • وما هي غير دقيقتيـــن اثنتين حتى نهض عن درجة السلم الصغير ، وقد نطق وجهه بالالم عندمـــا حاول ان يمشي •

وقال : « انا لا استطيع ان اكلفك الذهابَ لكي تأتيني بمن يساعدني • ولكن في استطاعتـــك ان تسدي اليَّ أنت نفسُك مساعـــدة صغيرة ، اذا تلطّفْت » •

ـ « اني على استعداد ، يا سيدي » •

ـ « أليس عندك مظلة استطيع ان اتخذ منها عصا أتوكأ عليها ؟ »

ـ « لا • »

ـ « حاولي ان تمسكي بعنان جوادي وان تقوديـــه اليَّ • انت لست خائفة ، أليس كذلك ؟ »

ولقد كان خليقا بي أن أخاف لمسَ جواد ما ، لو كنت وحـدي ، امـــا عندما طَلَب اليَّ ذلك فقد أطعته في غير تردد • لقد نزعت فروة ذراعـــي والقيتها على درجات السلم الصغير ، ومضيتُ نحو الجواد الفارع الطـول • لقد حاولت ان امسك بعنانـه ، ولكنه كان مخلوقا عصبيا ، فلم يُجـز لـــي ان ادنو من رأسه • وبذلتَ جهدا أثرَ جهد ، ولكن عـلى غير طائـلٍ ، وفي الوقت نفسه استبد بي خوف قاتل من قائمتيـــه الاماميتين الرافستيـن • وانتظر المسافر مراقبا الموقفَ فترة يسيرة ، واخيرا انفجر ضاحكا •

وقال : « يخيل اليَّ ان لا سبيـــل الى سَوْق الجبـــل الى النبيِّ ، وهكذا فأن اقصى ما نستطيع فعله هو مساعـــدة النبيِّ على المضيِّ الـــى الجبل • هل لي ان التمس منك المجيء الى هنا ؟ »

وتقدمت نحوه •

وتابع قائلا : « ارجو عفوك • ان الضرورة تكرهني على التماس العون منك » • وألقى على منكبي يدا ثقيلة ، وانشأ يعرج متخـــذا سبيله ، الـــى الجواد ، متكئا عليَّ في غير ما ضغط بالغ • حتى اذا وفِّق الى الامساك بعنان الجواد ، سيطر عليه في الحال ، ووثب الى سرجه ، مكشِّرا وجهه فيمـا كـان يبذل ذلك الجهد الذي لوى رجله المرضوضة •

وقال محررا شفته السفلى من عضـــة موجعـــة : « والان ناولينـــي سوطي • انه هناك تحت السياج » •

وبحثت عنه فوجدته •

ـ « شكرا لك • والان عجلي في نقل رِسالتـك الى « هـاي » ، ثـــم

ارجعي على اسرع وجه تستطيعينه » .

ولمس جواده بعقبه ذي المهماز ، فأجفل وشبّ باديء الامر ، ثم وثب الى امام . واندفع الكلب في أثره ، وتوارى الثلاثة عن ناظري :

« مثل نبات الخلنج في المجاهل
وقد عصفت به الريح النكباء »

عندئذ رفعت فروة ذراعي من على درجة السلم الصغير ، ومضيت لسبيلي . كانت الحادثة قد اصبحت منتهية بالنسبة الي : لقد كانت بمعنى من المعاني حادثة خلوا من الاهمية ، خلوا من الرومانسية ، خلوا من الامتاع . ومع ذلك فقد أدخلت شيئا من التغيير على ساعة موحشة من حياتي الرتيبة . لقد احتاج رجل الى معونتي ، وطالب بها . ولقد اسديت اليه هذه المعونة ، وكنت سعيدة بأن اوفق الى عمل شيء . صحيح ان ذلك العمل كان تافها قصير النَّفَس ، ولكنه كان برغم ذلك شيئا فعالا ، وكنت قد مللت وجودا كل ما فيه سلبي . وكان الوجه الجديد ، ايضا ، اشبه بصورة جديدة تُحْمَلُ الى معرض الذكريات ، ولقد كانت هذه الصورة مختلفة عن جميع اللوحات المعلّقة على جدران ذلك المعرض . اولا ، لانها كانت صورة رجل ، وثانيا لانها كانت قاتمة ، قوية ، ومتجهمة . وكانت لا تزال ماثلة امامي عندما دخلت « هاي » ، والقيت بالرسالة في موضعها من مكتب البريد . ولقد بَصُرْتُ بها فيما كنت اهبط الهضبة ، مسرعة في طريق عودتي الى القصر . وحين بلغت درجات السلم الصغير ، تريثت دقيقة وأجلت الطرف في ما حولي وأصغيت ، لقد بدا لي ان حوافر جواد سوف تخبّ من جديد فوق الجزء المعبّد من الطريق ، وان راكبا متدثرا بمعطف وكلبا من كلاب نيوفاوندلاند شبيها بـ « جيتراش » الاسطورة قد يظهران كرة اخرى . ولكن نظري لم يقع الا على السياج ، والا على شجرة صفصاف مشذّبة الاغصان تشق السماء ، في سكون واستقامة ، لتصافح شعاع القمر ، ولم أسمع غير عزف ريح ليس ثمة ما هو أوهن منه ، ريح هائمة على وجهها بين الاشجار المحيطة بقصر ثورنفيلد ، على مبعدة ميل واحد . وحين التفتّ صوب تلك الهمهمة لمحتْ عيني ، وهي تتخطى واجهة القصر ، ضوءا منبعثا من احدى النوافذ . وكان في هذا ما ذكرني باني قد تأخرت ، فرحت أغذّ السير .

كنت غير راغبة في دخول قصر ثورنفيلد من جديد . كان تخطّي عتبته يعني العودة الى الركود . وكان اجتياز ردهته الصامتة ، وارتقاء سلمه المظلمة ، والشخوص الى حجرتي الصغيرة المتوحّدة ، ثم الاجتماع الى مسز فيرفاكس الهادئة ، وقضاء السهرة الشتوية الطويلة معها . ومعها وحدها ... كان ذلك كله خليقا به ان يطفيء ذلك الانفعال الواهن الذي أثارته النزهة في ذات نفسي ، وان يقيد ملكاتي ، كرة اخرى ، بأغلال غير منظورة تتمثل في وجود رتيب يتّسم بالسكون اكثر مما ينبغي ، وجود كنت قد بدأت اصبح عاجزة حتى عن تقدير ميزتَيْه نفسيْهما ، الامن

والرّفه . ما كان احوجني في تلك الآونة الى ما يَطوّح بـي في خضم حياة مناضلة قلقة . والى ما يعلّمني بالتجربة القاسية المريرة ان أتوق الى الهدوء الذي تبرّمتُ الآن به ! اجل ، بقدْر حاجة رجل سئم الجلوس على « كرسي مريح اكثر مما ينبغي » الى القيام بنزهة طويلة على القدمين . فقد كانت رغبتي في الحركة طبيعية مثل رغبته سواء بسواء .

وتلكأتُ عند بوابة القصر الخارجية ، وتلكأتُ عند المرج . وأنشأت أذرع الرصيف جيئة وذهوبا : كان مصراعا الباب الزجاجي موصدين ، فلم يكن في ميسوري أن القي نظرة على داخل القصر . وبدا لي وكأن عيني وروحي كانت تصرف صرفا عن ذلك المثوى المظلم — عن ذلك الغار المليء بالحجيرات التي لا تعرف الضياء ، كما تراءى لي القصر في تلك اللحظة — لترنو الى تلك السماء الممتدة امامي مثل بحر ازرق لا يشوبه ايما سحاب . وكان القمر يصعّد في السماء بجلال بالغ ، وقد بدا قرصُهُ وكأنه ينظر الى أعلى بينا كان يفارق قمم الهضاب التي طلع من ورائها والتي أمست الان تحته ، ويسمو الى السَّمت الحالك السواد بعمقه الذي يسبر غوره وبُعْده اللانهائي . واذ وقعت عيني على تلك النجوم الراجفة التي اتّبعت آثاره ، ارتعد فؤادي واضرمت النار في عروقي . ان بعض الاشياء التافهة لتعيدنا الى الارض . فلم تكد الساعة تدق في الردهة حتى صُرِفت عن القمر وعن النجوم، وفتحت بابا جانبيا ، ودخلت .

لم تكن الردهة مظلمة . لا ، ولم تكن مضاءة بغير مصباح برونزي متدلٍ من السقف على نحو بالغ الارتفاع . كان وهج دافىء يغمر الردهة ودرجات السلم السنديانية السفلى . وكان هذا الضياء المتورد ينبعث من حجرة الطعام الكبيرة ، التي كان بابها مشرعا على مصراعيه ، مُبْديا عن نار بهيجة تضطرم في الموقد ، منيرة برقع المصطلى الرخامي وأدواته النحاسية ، كاشفة عن أثاث مصقول وستائر ارجوانية ترفل بغلالة من الاشراق ليس أبهى منها ولا الطف . ليس هذا فحسب ، بل كشفت تلك النار ايضا عن جماعة متحلقة حول المصطلى . ولم أكد المح هذه الجماعة ، وأفطن الى تمازج اصوات بهيج ، بدا لي اني ميّزت من بينها جرس آديل ، حتى أغلق الباب .

وأسرعت الى حجرة مسز فيرفاكس . كان ثمة نار ايضا ، ولكن لم يكن ثمة لا شمعة ولا مسز فيرفاكس . لقد رأيت بدلا منها كلبا ضخما ذا شعر طويل أسود وأبيض شبيها كل الشبه بـ « جيتراش » الطريق ، مستويا وحده على السجادة ، محدقا في رصانة الى النار المضطرمة . كان الشبه بينه وبين « جيتراش » ذاك قويا الى درجة جعلتني أهتف : « بايلوت ! »

عندئذ نهض الحيوان ، وأقبل نحوي ، وأخذ يستروحني . فلاطفته ، فبصبص بذنبه الطويل . ولكنه بدا لي مخلوقا مرعبا لا قبل لي بالانفراد به تحت سقف واحد . ولم أدر من أين أقبل . فقرعت الجرس ، ذلك بأني كنت اريد الحصول على شمعة ، وكنت أريد بالاضافة الى ذلك أن اعرف نبأه .

ودخلت ليبيا ، فسألتها : « من أين أقبل هذا الكلب ؟ »
ـ « لقد أقبل مع سيدي » ٠
ـ « مع من ؟ »
ـ « مع سيدي ٠٠٠ مستر روتشيستر ٠٠٠ لقد وصل منذ لحظات » ٠
ـ « حقا ؟ ومسز فيرفاكس ٠٠٠ أهي معه ؟ »

ـ « نعم ٠ ومس آديل ٠ انهم في حجرة الطعام ، ولقد ذهب جون ليستدعي طبيبا جراحا ٠ ذلك بأن حادثا قد ألمّ بسيدي ٠ لقد كبا به الجواد ، فأصيب كاحله برضوض » ٠

ـ « وهل كبا الجواد في طريق هاي ؟ »
ـ « نعم ٠ فيما كان يهبط الهضبة ٠ لقد انزلق فوق الجليد » ٠
ـ « آه ! أيتيني بشمعة ، يا ليبيا ، أرجوك » ٠

وجاءتني « ليبيا »بها ٠ ودخلت عليّ الحجرة تتبعها مسز فيرفاكس ، التي كررت النبأ نفسه ، مضيفة ان مستر كرايتر ، الجراح ، قد وصل ، وانه كان في تلك اللحظة يعاين مستر روتشيستر ٠ ثم غادرت الحجرة مسرعة لكي تصدر أمرها باعداد الشاي ، وارتقيت أنا السلم لكي أخلع ملابسي ٠

١٣

أوى مستر روتشيستر الى فراشه في ساعة مبكرة تلك الليلة ـ وكان ذلك بأمر من الطبيب في ما يبدو ـ ولم يغادر صباح اليوم التالي الا في ساعة متأخرة أيضا ٠ حتى اذا هبط الطابق الاسفل انصرف الى العناية بأعماله : كان وكيله وبعض من مستأجري أراضيه قد وفدوا الى القصر ، وكانوا ينتظرون ان يلقَوْه ويتحدثوا اليه ٠

وكان على آديل وعليّ ، الان ، أن نجلو عن حجرة المكتبة ، ذلك بأن الضرورة قضت باصطناعها ، منذ اليوم ، حجرة لاستقبال الزائرين ٠ وهكذا أضرمت نارٌ في احدى حجرات الطابق العلوي ، فحملتُ اليها كُتُبنا ، وأعددتها لتكون هي حجرة الدرس في المستقبل ٠ ولاحظت خلال ساعات الصباح أن قصر ثورنفيلد قد خُلِق خلقا آخر : انه لم يعد صامتا ككنيسة ، ولقد ردد كل ساعة او ساعتين صدى طرق على الباب ، أو رنين جرس من الاجراس ٠ ليس هذا فحسب ، بل لقد اخذت الاقدام تجتاز ردهته أيضا ، بين فينة واخرى ، وتكلمت أصوات جديدة ، ذات نغمات مختلفات ، في الطابق الارضي منه ٠ كان جدول من العالم الخارجي يجري خلاله ٠ لقد امسى ذا ربٍّ ، ولقد سعدتُ أنا بذلك ٠

ولم يكن من اليسير تدريس آديل ، في ذلك اليوم ٠ لقد عجزت عن التركيز والمواظبة على الدرس ، فهي لا تفتأ تهرع الى الباب وتطل من فوق الدرابزون محاولة ان تلمح مستر روتشيستر ولو مجرد لمح ٠ ثم أنها شرعت

تختلق الذرائع للهبوط الى الطابق الارضي لكي تدلف من ثم - كما حزرت في شيء من دهاء - الى المكتبة على الرغم من أن أحدا لم يكن ثمة - كما قد علمت - راغبا فيها • حتى اذا عصف بي بعض الغضب وأكرهتها على التزام مقعد التدريس في سكينة واصلت التحدث ، في غير انقطاع ، عن صديقها مسيو ادوار فيرفاكس دو روتشيستر » ، كما كانت تلقبه (ولم اكن قد سمعت حتى ذلك الحين باسمه الصغير) ، وأخذت تحدس في الهدايا التي حملها اليها • اذ يبدو انه كان قد ألمع ، الليلة البارحة ، الى انها سوف تجد في امتعته ، حين تصل من ميلكوت ، صندوقا صغيرا يشتمل على شيء يهمها •

وقالت ، بالفرنسية : « وهذا يعني من غير ريب انه سيكون في ذلك الصندوق هدية لي ، وربما لك أنت أيضا ، أيتها الآنسة • ان السيد قد تحدث عنك : لقد سألني ما اسم مربيتي ، وهل هي فتاة ضئيلة الجسم ، شديدة النحول ، شاحبة بعض الشيء • فأجبته أن نعم • اذ ان هذا صحيح ، أليس كذلك ، أيتها الآنسة ؟ »

وجريا على مألوف عادتنا ، تناولت أنا وتلميذتي طعام الغداء في حجرة مسز فيرفاكس • وكان الاصيل عاصفا كثير الثلج ، فقضيناه في حجرة الدرس • وعند الغسق اجزت لآديل أن تغلق الكتب وتطرح العمل ، وان تهبط السلم الى الطابق الارضي ، ذلك بأني حزرت ، من السكون النسبي الذي هيمن عليه ومن توقف جرس القصر عن الرنين ، ان مستر روتشستر قد تحرر الآن من مشاغله • حتى اذا وجدت نفسي وحيدة تقدمت نحو النافذة ، ولكن عيني لم تقع من ورائها على شيء • كان الغسق ورقاقات الثلج قد كثفت الهواء ، وحجبت شجيرات المرج • فأسدلت الستارة ، وانقلبت الى جانب المستوقد •

وكنت احاول ان استجمع في ذاكرتي - على وهج الجمرات المتقدة - خطوط لوحة تمثل قصر هايدلبيرغ على الراين كنت قد رأيتها من قبل ، عندما دخلت علي مسز فيرفاكس ، مفسدة بدخولها تلك الفسيفساء النارية التي رحت ألملمها وأعيد التأليف ما بين اجزائها ، ومبددة في الوقت نفسه بعض الخواطر الثقيلة البغيضة التي كانت قد شرعت تغزو وحدتي •

وقالت : « سوف يكون مستر روتشيستر سعيدا اذا تناولت أنت وتلميذتك الشاي معه في حجرة الاستقبال ، هذه الليلة • لقد كان طوال النهار في شغل شاغل لم يتح له أن يطلب الاجتماع بك قبل الآن » •

فسألتها : « وفي أية ساعة يتناول الشاي ؟ »

- « أوه ، في الساعة السادسة • انه يؤثر ، كلما أقام في الريف ، ان يجعل مواعيده مبكرة • ومن الخير لك الآن أن تغيري فستانك • ولسوف أمضي معك لاساعدك في ذلك • اليك شمعة » •

- « أمن الضروري أن أغير فستاني ؟ »

- « أجل ، ذلك أفضل • اني البس ثياب السهرة ، كل مساء ، حين

يكون مستر روتشيستر هنا • »

لقد بدا لي ان الاحتفال الاضافي بالمظهر الخارجي ينطوي على شيء من التكلف والابهة • ومع ذلك فقد شخصت الى حجرتي حيث نزعتُ بمساعدة مسز فيرفاكس ، ثوبي القماشي الاسود ، وارتديت بدلا منه فستانا اسود حريريا كان هو الفستان الاضافي الاجود الذي أملـــكه ، باستثناء فستان رمادي فاتح اعتبرتهُ ، بالنسبة الى ما لُقّنته في لووود من قواعد الزينة ، فستانا نفيسا لا يحسن ارتداؤه الا في المناسبات الاستثنائية •

وقالت مسز فيرفاكس : « أنت في حاجة الى دبوس صدر » • وكان لديَّ دبوس لؤلؤي صغير قدمته مس تامبل الي ، يوم ودعتها ، على سبيل الذكرى • فزينت به صدري ، ثم هبطنا السلم الى الطابق الارضي • واذ كنت غير متعودة ان ألقى أحدا من الغرباء ، فقد كان استدعائي للمثول في حضرة مستر روتشيستر ، على هذا النحو الرسمي ، ضربا من المحنة القاسية• وهكذا تركت مسز فيرفاكس تتقدمني الى حجرة الطعام ، وبقيت مستظلة بها فيما كنا نعبر تلك الحجرة • حتى اذا اجتزنا بالقنطرة ، التي كانت في تلك اللحظة مسدلة الستارة ، دخلنا الحجرة القائمة هناك •

كانت على المائدة شمعتان مضاءتان ، وكان على رف المـــدفأة اثنتان اخريان • وكان الكلب «بايلوت» يصطلي بحرارة النار العامرة وضيائها • وقد ركعت آديل على مقربة منه • وبدا مستر روتشيستر نصف مضطجع على أريكة ، مسندا قدمه الى الوسادة • كان يرنو الى آديل والى الكلب ، وكانت النار تنير وجهه على نحو مشرق • كان هو المسافر الذي لقيته في الطريق ، بحاجبيه الكثيفين الفاحمين ، وجبينه العريض ، وقد زاده عرضا انسدال شعره الاسود المسرَّح على نحو افقي • لقد تبينتُ فيه انفه الصارم ، الذي يلفت النظر بما ينم عليه من قوة الشخصية اكثر مما يلفت النظر بجماله ، ومنخريه اللذين نمَّا ، في ما خيل الي ، عن مزاج صفراوي غضوب • وتبينت فمـــه وذقنه وفكه الكوالح ، أجل لقد كانت ثلاثتها كالحة جدا ، لا ريب في ذلـــك البتة • كان جسمه ، كما بدا لي الان وقد جرِّد من معطفه ، منسجما مـــع وجهه العريض ، وأحسب انه كان جسما حسنا بالمعنى الرياضي للكلمة : جسما ذا صدر عريض وخصر نحيل ، وان لم يكن لا فارع الطول ولا رشيق القد •

وكان خليقا بمستر روتشيستر ان يفطن لدخولي ودخول مسز فيرفاكس، ولكنه لم يكن ــ على ما بدا لي ــ في وضع نفسي يمكنه من رؤيتنا ، ذلك بأنه لم يرفع رأسه قط عندما اقتربنا منه •

وقالت مسز فيرفاكس ، على طريقتها الهادئة : « هي ذي مس ايير ، يا سيدي » •

فانحنى تحية لي ، ولكنه ظل مسمَّرا عينيه على الكلب والطفلة • وقال: « دعي مس ايير تجلس » •

كان ثمة في تلك الانحناءة المتصنعة المتكلفة ، وفي النبرة النافدة الصبر

برغم رسميَّتها شيء اضافي بدا وكأنه يقول : « وهل يعنيني ، وحق الشيطان، أن تكون مس ايير هنا أو أن لا تكون هنا ؟ انا غير مستعد في هـــذه اللحظة للترحيب بها » ·

وجلست في غير اضطراب او ارتباك · ولو قد تلقاني مستر روتشيستر بلطف مصقول اذن لكان في ذلك ، في أغلب الظن ، ما يُربكني ، اذ لم يكن في ميسوري أن أرد على ذلك اللطف بكياسة ورشاقة · ولكن الجلافة التي تكشَّف عنها جعلتني في حلٍّ من هذا كله · والواقع ان الصمت المحتشم ، الذي فرضه على مسلكه الشاذ ، كان فيصالحي · والى هذا ، فقد كانت غرابة تصرُّفه مثيرة : لقد استشعرت اني مشوقة الى معرفة ما سوف يتكشَّف عنه بعد ذلك·

لقد تكشف عن شبه تمثال ، يعني انه لم يتكلم ولم يتحرك · وبدا وكأن مسز فيرفاكس اعتقدت ان الواجب يقضي بأن يـــكون واحدٌ منا أنيسا ، فشرعت تتحدث · ولقد تحدثت ، كمألوف عادتها ، في لطف ـ ولكن كمألوف عادتها ايضا في ابتذال ـ عن الاعمال الكثيرة التي تعيَّن عليه ان يصرِّفها طوال النهار ، وعن الازعاج الذي اورثته اياه ، من غير ريب ، رضة قدمِه المؤلمة · ثم انها أطرت صبره على ذلك كله واحتماله له ·

ـ « سيدتي ، اني راغب في احتساء شيء من الشاي » ، ذلك كان هو الجواب الوحيد الذي فازت به · فسارعت الى قرع الجرس ، حتى اذا جـيء بالصينية شرعت ترتب الفناجين والملاعق وما اليهـــا في رشاقة ناصبة · ومضيت أنا وآديل الى المائدة ، ولكن رب القصر لم يغادر اريكته ·

ووجهت مسز فيرفاكس الخطاب اليَّ قائلة : « هل لك ان تقدمي فنجان مستر روتشيستر اليه ؟ ان آديل قد تريقه » ·

ونزلت عند رغبتها ، وفيما كان يتناول الفنجان من يدي صاحت آديل بالفرنسية ، حاسبة ان اللحظة مواتية للتقدم اليه ، لمصلحتي أنا ، بهـــذا الالتماس : « أليس صحيحا ان ثمة ، يا سيدي ، هدية لمدموازيل ايير ، في صندوق امتعتك الصغير ؟ »

فقال في فظاظة : « من الذي يتحدث عن الهـــدايا ؟ هل كنت تتوقعين هدية ، يا مس ايير ؟ هل أنت مولعة بالهدايا ؟ »

وشرع يمعن النظر الى وجهي بعينين بدتا لي قاتمتين حانقتين ثاقبتين ، فقلت : « اني لا اكاد أدري ، يا سيدي · فليس لي في مسألة الهـــدايا غير خبرة ضئيلة · ولكنها تُعتبر ، عادة ، أشياء مستحبة » ·

ـ « تُعتبر عادة ؟ ولكني أريد أن أسمع رأيك انتِ ؟ »

ـ « أنا مضطرة الىشيء من الروية قبل أن أوفق الى اعطـــائك جوابا جديرا بأن يحظى بقبولك · ان للهدية وجوها متعددة ، أليس كذلك ؟ ويتعين على المرء ان يدرسها من وجوهها كلها قبل ان يبدي رأيا في طبيعتها » ·

ـ « مس ايير ، انت لست ساذجة مثل آديل · انها تطلب مني «هدية» حالما تقع عيناها عليَّ ، وتَطلبها في طبل وزمر · أما أنت فتحومين حـــول

الموضوع مجرد حوم » ·

– « لاني أقل ثقة من آديل بأهليتي للهدية · ان لها عندك شافعا من عشرة قديمة ، ومن حق العادة ايضا · ذلك بأنها تقول انك عوّدتها ان تحمل اليها ، دائما ، ضروبا من الالعاب والدمى · في حين اني لو حاولت أن التمس لنفسي حقا يجيز لي طلب الهدية منك لما وجدت ، لاني غريبة ، ولاني لم آت أيما عمل يجعلني جديرة بتقديرك » ·

– « أوه ، لا تتهربي من الجواب مستعينة بالمبالغة في التواضع · لقد اختبرت آديل ، فوجدت انك بذلت في تلقينها جهدا عظيما · انها ليست ألمعية، وهي محرومة من المواهب · ومع ذلك فقد حققت ، خلال فترة قصيرة ، تقدما غير يسير » ·

– « سيدي ، لقد قدمت الي الان « هديتي » · واني لازجي اليك خالص شكري · ان خير مكافأة يطمع فيها المعلمون ، أكثر ما يطمعون ، هي تحدث المرء عما احرزه طلابهم من تقدم » ·

فقال مستر روتشيستر : « هممممم ! » وراح يحتسي الشاي في صمت ·

حتى اذا رُفعت الصينية ، وانتحت مسز فيرفاكس زاوية انصرفت فيها الى حبكها ، وبينا كانت آديل تطوّف بي حول الحجرة ، ممسكة بيدي ، مطلعة أياي على الكتب والتحف الجميلة الموضوعة على الموائد الصغيرة المرتكزة الى الحائط وعلى الخزائن الخاصة بالمناديل والمطرزات وما اليها ، قال رب القصر : « اقتربا من نار المستوقد ! » ، ففعلنا ما أمرنا به ، كما يقتضينا الواجب · وأرادت آديل ان تتخذ من ركبتي مقعدا لها ، ولكنها أمرت بأن تتسلى بمداعبة بايلوت وملاعبته ·

– « لقد سلخت حتى الان ثلاثة شهور في منزلي هذا ؟ »
– « نعم ، يا سيدي » ·
– « ولقد وفدت من ··· »
– « من مدرسة لووود ، في أقليم ··· »
– « آه ! مؤسسة خيرية · كم سنة قضيت هناك ؟ »
– « ثماني سنوات » ·
– « ثماني سنوات ! لا ريب في انك متعلقة بأهداب الحياة · لقد حسبت ان قضاء نصف هذه المدة في مكان مثل ذلك المكان كفيل بأن يرهق أقوى الاجساد ! فلا عجب ان بدت على وجهك سيماء الوافدين من عالم آخر · لقد تساءلت من أين لك هذا! الضرب من الوجه · وحين التقيتك الليلة البارحة في طريق «هاي» لم أتمالك عن التفكير في الحكايات الخرافية ، ونازعتني نفسي الى سؤالك ما اذا كنت قد سحرت جوادي · وعلى أية حال ، فانا لا ازال في ريب من هذا الامر · حدثيني عن أبويك » ·

– « ليس لي أبوان » ·

ـ « ولم يكن لك ابوان في أيما وقت من الاوقات ، كما يخيل الي ً . الا تتذكرينهما ؟ »
ـ « لا » .
ـ « ذلك ما قدَّرته . وهكذا فقد كنت تنتظرين قومك عندما جلست على درجة تلك السلم ؟ »
ـ « أنتظر من ، ياسيدي ؟ »
ـ « تنتظرين الرجال ذوي الثياب الخضر : كانت الليلة قمراء ، ولا ريب في انها كانت تلائم ظهورهم . هل تخطيتُ حلقة من حلقاتكم حتى نثرتِ ذلك الجليد الملعون فوق الجزء المعبد من الطريق ؟ »

وهززت رأسي وقلت مصطنعة الجدَّ كما قد فعل : « ان الرجال ذوي الثياب الخضر كلهم قد هجروا انكلترة منذَ مئة عام . ولن تستطيع أن تجد أيما أثر لهم حتى في طريق «هاي» أو في الحقول المحيطة به . ولست أحسب أن قمر الصيف أو قمر الحصاد او قمر الشتاء سوف يشرق على اعيادهم الراقصة، أبد الدهر » .

وأطَّرحت مسز فيرفاكس حبكها ، ورفعت حاجبيها وكأنها كانت تتساءل أيُّ ضربٍ من الحديث كان حديثنا ذاك .

وأردف مستر روتشيستر قائلا : « حسنا ، اذا كنت تنكرين أبويك فلا بدَّ ان يكون لك ضرب من الاهل : أعمام وعمات ، مثلا ؟ »
ـ « لا . أنا لم أر في حياتي أعماما لي وعمات » .
ـ « وبيتك ؟ »
ـ « ليس لي بيت » .
ـ « أين يقطن اخوتك وأخواتك ؟ »
ـ « ليس لي أخوة ولا اخوات » .
ـ « من الذي زكّاك لتولي مهام عملك هنا ؟ »
ـ « لقد أعلنت ، ولقد استجابت مسز فيرفاكس لاعلاني » .

فقالت السيدة الصالحة ، التي عرفت الان عن أي شيء كنا نتحدث : « أجل ، وأنا احمد الله كل يوم على حسن الاختيار الذي هدتني العناية الآلهية اليه . فقد كانت مسز أيير وما تزال رفيقة لي لا استطيع ان اقدرها حق قدرها ، ومعلمة لآديل شديدة الاشفاق عليها ، بالغة العناية بها » .

فكان جواب مستر روتشيستر على هذه الملاحظات قوله : « لا تكلّفي نفسك عناء تحليل شخصيتها . ان المدائح لا سلطان لهـا عليَّ . ولسوف اكوّن رأيي فيها بنفسي . لقد استهلت عملها بأن صرعت جوادي وطرحته أرضـا » .

فقالت مسز فيرفاكس : « ماذا تقول يا سيدي ؟ »
ـ « يتعين علي أن اشكر لها هذه الرضة التي أصابت قدمي » .

وبدت على وجه الارملة امارات الانشداه .

ـ « مس ايير . هل عشت ذات يوم في مدينة من المدن ؟ »
ـ « لا . يا سيدي » .
ـ « وهل قدّر لك أن تختلطي كثيرا بطبقات المجتمع العليا ؟ »
ـ « أنا لم اختلط الا بطالبات مدرسة لووود ومعلماتها ، والا بنزلاء قصر نورنفيلد في الفترة الاخيرة » .
ـ « هل طالعت كثيرا ؟ »
ـ « لم اطالع الا تلك الكتب التي وقعت عليها مصادفة . وهي كتب كثيرة ، ولا تنطوي على ثقافة رفيعة » .
ـ « لقد عشت حياة الراهبات . ولا ريب في انك قد تلقيت ثقافة دينية عميقة . ان بروكلهورست ـ الذي يدير معهد لووود ، في ما أعلم ـ هو راعي كنيسة ، أليس كذلك ؟ »
ـ « نعم ، يا سيدي » .
ـ « ولعلك كنت انت وزميلاتك تقدّسنه ، كما تقدس الراهبات ـ في دير من الاديار ـ مرشدهن » .
ـ « أوه ، لا » .
ـ « انت جريئة اكثر مما ينبغي . كيف ؟ راهبة غير مبتمة ولا تقدس كاهنها ؟ يخيل الي ان هذا ضرب من التجديف » .
ـ « كنت ابغض مستر بروكلهورست . ولم يكن ذلك هو شعوري وحدي . انه رجل غليظ القلب . رجل كثير التباهي والتطفل في آن واحد . ولقد اشترى لنا ، رغبة في الاقتصاد ، ابرا وخيوطا رديئة كنا لا نقدر على الخياطة بها الا بشق الانفس » .
فلاحظت مسز فيرفاكس التي أدركت الان ، كرة اخرى ، فحوى الحوار : « لقد كان ذلك اقتصادا زائفا جدا » .
وتساءل مستر روتشيستر : « وهل كان هذا هو كل ما أثار حنقكن عليه ؟ »
ـ « لقد جوّعنا عندما كان هو المشرف الاوحد على دائرة التموين ، قبل ان تعيّن اللجنة ، ولقد أضجرنا بمحاضراته الطويلة مرة كل اسبوع ، وبقراءات مسائية من كتب من وضعه هو ، تدور على موضوع الموت المفاجيء ويوم الحساب . وكانت هذه الكتب تجعلنا نخشى الايواء الى فُرُشنا » .
ـ « كم كانت سنك عندما ذهبت الى لووود ؟ »
ـ « العاشرة تقريبا » .
ـ « ولقد لبثت هناك ثماني سنوات ، فأنتِ الان اذن في الثامنة عشرة ؟ »
فأجبته ان نعم . فقال : « الحساب ، كما ترين ، مفيد . فلولاه لما كان في ميسوري أن احزر مبلغ سنك . ان من العسير على المرء ان يقطع برأي حين يكون التنافر عظيما بين اسارير الوجه وتعبيراته كما هي الحال

بالنسبة اليك · والان ، ما الذي تعلمتِه في لووود ؟ هل تحسنين العزف ؟ »

ــ « قليلا »·

ــ « طبعا ، فهذا هو الجواب التقليـــدي · اذهبي الى المكتبة ــ اعني ، ارجوكِ ان تذهبي الى هناك ــ (اغفري لي لهجة الامر التي اصطنعتها ، فأنا متعود اَن اقول « افعل كذا » فيصدع المخاطب بما آمره به ، وليس في ميسوري ان اغيّر مألوف عاداتي اكراما لوافدة واحدة حلت بين ظهرانينا منذ قريب) · اذهبي ، اذن ، الى المكتبة ، خذي معك شمعة ، دعي الباب مفتوحا ، اجلسي الى البيانو ، واعزفي لحنا · »

ومضيتُ الى المكتبة ، مطيعة اوامره ·

وبعد بضع دقائق صاح قائلا : « كفى · يبدو لي انك تحسنين العزف قليلا ، مثل اية طالبة انكليزية اخرى · وربما افضـــل من بعض اولئـــك الطالبات ، ولكنك لا تجيدين العزف » ·

فأغلقت البيانو ، ورجعت · فتابع مستر روتشيستر حديثه : « لقد اطلعتني آديل على بضعة رسوم اعدادية قالت انها من عملك · والواقع اني لا ادري هل رسمتها كلها بريشتك انتِ ام لا ؟ اغلب الظن ان استاذا من اساتذة الرسم قد عاونك ؟ »

فاعترضت قائلة : « اوه ، لا » ·

ــ « آه ، هذا يجرح كبرياءك · حسنا ، ايتيني بمحفظة رسومك ، اذا كنت تستطيعين ان تقيمي الدليل على ان محتوياتها هي بريشتك انت · ولكن حذار ان تقولي قولا الا اذا كنت على يقين · ان الرســـوم المرقعة لا تخفي عليّ » ·

ــ « اذن فلن اقول شيئا · اني اترك لك ان تحكم بنفسك ، يا سيدي » ·

وجئت بمحفظة رسومي من المكتبة ، فقال : « قرّبي المائدة » ، فدفعتها على عجلاتها نحو اريكته · ودنـــت آديل ومســـز فيرفاكس لكي تريا الى الرسوم ·

عندئذ قال مستر روتشيستر : « لا اريد تجمهرا · كلما فرغت مـــن رسم خذاه من يدي · ولكن لا تلصقا وجهيكما بوجهي » ·

وشرع يدرس كل رسم اعدادي وكل لوحة في كثير مـــن الروية · ثم انه وضع ثلاثة منها جانبا ، اما سائر الرسوم واللوحات فقد نبذها بعد ان فرغ من تأملها ، وقال : « احملي هذه الى المائدة الاخرى ، يا مسز فيرفاكس ، والقي عليها نظرة مع آديل · اما انت (وهنا التفت اليّ) فعـــاودي الجلوس في مقعدك واجيبي عن اسئلتي · انّي ارى ان هـــذه اللوحات الثـــلاث رسمتها يد واحدة · فهل كانت تلك اليد يدك ؟ »

ــ « نعم » ·

ــ « ومتى وجدت متسعا من الوقت لرسمها ؟ لقد استغرق رسمها زمنا طويلا ، واحتاج الى شيء من التفكير » ·

– « لقد رسمتها خلال العطلتين الاخيرتين اللتين قضيتهما في لوورد ، حين لم يكن لدي اي عمل آخر » •

– « ومن أين اقتبست موضوعاتها ؟ »

– « من رأسي • »

– « هذا الرأس الذي اراه الان بين كتفيك ؟ »

– « اجل ، يا سيدي • »

– « وهل هو عامر بموضوعات اخرى من النوع نفسه ؟ »

– « يخيّل الي انه كذلك • بل اني ارجو ان يكون عامرا بما هو افضل • »

ونشر اللوحات امامه ، وانشأ يدرسها من جديد ، واحدة بعد اخرى •

ويحسن بي ، ايها القارىء ، ان اغتنم فرصة انشغاله بها لاحدثك عمّا كانت تمثله • ولكن علي ان اقدّم لذلك بالقول انها ليست شيئا رائعا • والواقع ان موضوعاتها نجمت ، اول ما نجمت ، في مخيلتي على نحو زاخر بالقوة والحيوية • لقد كانت ، كما رأيتها بعين البصيرة ، قبل ان احاول تجسيدها على الورق ، فاتنة تأخذ بمجامع القلوب • ولكن يدي ابت ان تسعف خيالي ، فاذا بها لا تطلع في كل مرة الا صورة شاحبة لما كنت قد تمثلته في ذهني •

كانت تلك اللوحات مرسومة بالوان مائية • لقد مثلت الاولى سحبا خفيضة ضاربة الى الزرقة تجري فوق بحر يعب عبابه • كان اقصى اللوحة كله قاتما جدا ، وكذلك كان صدرها ، او على الاصح اقرب امواجها العارمة ، اذ لم يكن ثمة يابسة • وابرزت ومضة خاطفة صاري سفينة نصف مغمور بالماء جثم فوقه غراب بحر داكن ضخم رقّش الزبد جناحيه • كان منقاره ممسكا بسوار ذهبي مرصع بجواهر اخرجتها بأزهى ما استطاعت لوحة الواني ان تجود به من اصباغ ، وبأسطع ما استطاعت ريشتي ان تضفيه من وضوح • وتحت الطائر والصاري ، التمعت من خلال المياه الخضراء جثة غريق • كانت ذراع جميلة هي العضو الاوحد البادي على نحو واضح ، وكانت تلك الذراع هي التي تقاذف الموج سوارها ، او التي انتزع منها ذلك السوار انتزاعا •

اما اللوحة الثانية فلم يمثل صدرها غير قنّة كثيب قاتمة مالت اعشابها وبعض اوراقها وكأنما بفعل الريح • وفوق ذلك ووراءه امتدت سماء مترامية ، زرقاء داكنة كما تكون السماء عند الغسق • وقد ارتفعت نحو تلك السماء امرأة لا يرى منها غير رأسها وصدرها ، وقد رسمت باقصى ما استطعت مزجه من الوان رقيقة داكنة • لقد توّج جبينها القاتم بنجم ، وتحت هذا النجم بدت الاسارير وكأنها ترى من خلال سحابة بخار • ولقد التمعت العينان سوداوين ضاريتين ، وترقرقت خصل الشعر مثل ظل من الظلال ، مثل سحابة داكنة مزقتها الريح او بددتها الكهرباء السماوية • وعلى جيد تلك المرأة تبدى ضياء حب مثل ضوء القمر ، ولقد مس البريق الباهت نفسه

موكب السحائب الرقيقة التي انبثق منها مشهد « نجمة المساء » هذا ٠

اما اللوحة الثالثة فمثلت قنة جبل جليدي عائم تناطح سماء قطبية في فصل الشتاء ، وعند الافق ، كان حشد من الاضواء الشمالية يرمي بسهاله الشاحبة الى المدى البعيد فيتكسر بعضها على بعض ٠ وفي صدر اللوحة ارتفع رأس ، رأس هائل منحنٍ نحو جبل الجليد ومستند اليه ٠ وتحت الجبين يدان نحيلتان متشابكتان تسنده وتنشر امام الجزء الادنى من الوجه حجابا اسود ، فليس يُرى منه غير ذلك الجبين البالغ الشحوب ، الابيض كالعظام ، وغير عين غائرة جامدة خلوٍ من كل معنى الا زجاجية اليأس ٠ وفوق الصدغين ، وسط طيات متشابكة من قماش اسود مكوّرة على صورة عمامة ، غامضة في صفتها وتركيبها مثل سحابة ، اومضت حلقة من لهب ابيض مرصعة بشرارات صغيرة اشد توهجا ٠ كان ذلك الهلال الشاحب هو « صورة تاج ملكي » ، وكان ما يكلّله هو « الشكل الذي لا شكل له ٠ »

وسألني مستر روتشيستر فجأة : « هل كنت سعيدة عندما رسمت هذه اللوحات ؟ »

ـ « كنت مندمجة بها ، وكنت سعيدة ٠ وبكلمة ، فان رسمها كان يتيح لي التمتع بمسرّة من أقوى المسرات التي عرفتها في حياتي ٠ »

ـ « ولكن هذا لا ينطوي ، عند التحقيق ، على كبير معنى ٠ فقد كانت مسراتك ، باعترافك انت ، قليلة نادرة ٠ ولكني استطيع القول انك ، في الواقع ، عشتِ في جنة من احلام ـ كتلك التي يحيا فيها الفنان ـ عندما مزجت هذه الالوان الغريبة وزاوجت ما بينها ٠ هل كنت تفرغين لهذا الصنيع فترة طويلة كل يوم ؟ »

ـ « لم يكن لدي شيء آخر اعمله ، فقد كنا في عطلة ، ولقد فرغت للوحاتي هذه منذ طلوع الشمس حتى الظهيرة ، ومن الظهيرة حتى الغروب ٠ وكان طول النهارات في غمرة الصيف يساعدني على الانكباب والمثابرة ٠ »

ـ « ولقد استشعرتِ ارتياحا ذاتيا لثمرة جهودك الجاهدة ؟ »

ـ « ليس ثمة ما هو ابعد عن الواقع من هذا ٠ فقد روّعتني وآلمتني تلك المفارقة بين فكراتي ونتاج يدي : ففي كل مرة كنت اجدني قد تخيلت شيئا عجزت كل العجز عن تحقيقه ٠ »

ـ « ليس هذا صحيحا على وجه الضبط ٠ لقد وُفّقت الى تسجيل ظل فكرتك ، لا اكثر من ذلك في ارجح الظن ٠ فلم تكن لديك براعة الفنان وعلمه لكي تنفخي فيها كينونة كاملة ٠ ومع ذلك ، فهذه الرسوم هي ، بالنسبة الى طالبة صغيرة ، عمل فذ ٠ اما الفكرات فهي جنية ٠ وهاتان العينان اللتان في لوحة « نجمة المساء » لا بد انك رأيتهما في حلم ٠ كيف تسنّى لك ان تجعليهما تبدوان في مثل هذا الصفاء كله من غير ان تكونا على شيء من الالتماع البتة ؟ واي فكرة هي هذه التي في عمقها المهيب ؟ ومن ذا الذي علمك ان ترسمي الريح ؟ ان ثمة عاصفة هوجاء في تلك السماء ، وعلى قنة هذه الهضبة ٠ اين

رأيت لاتموس ؟ لان هذه هي لاتموس · حسنا ، ضعي الرسوم جانبا · »

ولم اكد اعقد خيوط محفظة الرسم حتى قال ، على نحو مفاجيء ، وهو ينظر الى ساعته : « امست الساعة التاسعة ! ما الذي ترمين اليه من ابقاء آديل ساهرة حتى هذه اللحظة ، يا مس ايير ؟ امضي بها الى سريرها · »

وتقدمت آديل لتطبع على جبينه قبلة ، قبل ان تغادر الحجرة · فاحتمل ملاطفتها ولكنه بدا وكأنه لم يستسغها باكثر مما كان خليقا بالكلب « بايلوت » ان يستسيغها ، بل وكأنه لم يستسغها بقدر ما كان خليقا بـ « بايلوت » ان يفعل ·

وقال مشيرا الى الباب ، وكأنه يريد ان يفهمنا انه سئم رفقتنا ورغب في صرفنا : « اتمنى لكما ليلة سعيدة · » فطوت مسز فيرفاكس حبكها ، وحملت انا محفظة رسومي ، وودعناه في ادب فرد علينا بانحناءة باردة ، وانسحبنا من الحجرة ·

وقلت مخاطبة مسز فيرفاكس عندما لحقت بها الى حجرتها بعد ان قدت آديل الى السرير : « لقد قلت لي ان مستر روتشيستر ليس غريب الاطوار الى حد كبير · »

ـ « حسنا ، وهل وجدته غريب الاطوار ؟ »

ـ « اظن ذلك · انه سريع التقلب ، شديد الفظاظة · »

ـ « صحيح · انه قد يبدو هكذا لعين الغريب ، من غير شك · ولكني قد الفت عاداته الى درجة تجعلني لا افكر فيها البتة · والى هذا ، فان من واجبنا ـ ان يكن على شيءمن شذوذ الطبع ـ ان نتسامح معه · »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « اولا لان هذه هي طبيعته التي فطر عليها ، وليس في مستطاع اي منا ان يغير طبيعته ، وثانيا لانه من غير ريب ضحية افكار اليمة ـ افكار تضايقه وتوقع الاضطراب في مزاجه · »

ـ « حول ماذا ؟ »

ـ « حول بعض المتاعب العائلية ، في الدرجة الاولى · »

ـ « ولكنه ليس برب عائلة · »

ـ « انه لم يعد اليوم رب عائلة ، ولكنه كان في يوم من الايام ··· او كان له ، على الاقل ، بعض الانسباء · لقد احتسب اخاه الاكبر منذ بضع سنوات · »

ـ « اخاه الاكبر ؟ »

ـ « اجل ، ان هذه الممتلكات لم تنتقل الى مستر روتشستر ، الحالي منذ عهد بعيد · لقد انتقلت اليه منذ تسع سنوات تقريبا ، ليس غير » ·

ـ « ان سنوات تسعا لهي فترة طويلة حقا · هل كان مولعا باخيه الى حد يجعله عاجزا ، حتى اليوم ، عن التأسي والسلوان ؟ »

ـ « اوه ، لا · لست اظن ذلك · والذي اعتقده انه كان ثمة شيء من

سوء التفاهم بينهما • ان مستر راولاند لم ينصف مستر ادوارد ، ولعله ان يكون قد اوغر صدر ابيه عليه • فقد كان السيد العجوز محبا للمال ، حريصا على ان تظل ممتلكات الاسرة في يدي وريث واحد • انه لم يرد ان يفتتها من طريق القسمة ، ومع ذلك فقد كان حريصا على ان يكون لمستر ادوارد ايضا بعض الثروة ، حفاظا على شرف الاسرة واسمها • فلم يكد مستر ادوارد يبلغ سن الرشد حتى اتخذت بضع خطوات لم تكن منصفة كل الانصاف ، خطوات انزلت به اذى كبيرا • ولقد تعاون مستر روتشيستر العجوز ومستر راولاند ، ابتغاء اغناء مستر ادوارد ، على وضعه في مركز اعتبره هو اليما • اما طبيعة ذلك المركز على وجه الضبط فذلــك ما لم اعرفه قط معرفة واضحة ، ولكن نفسه لم تطق صبرا على الآلام التي فرضت عليه • والى هـــذا ، فانه ليس بالرجل الذي ينزع الى الصفح ، فاختصم مع اسرته ، واخذ يحيا منذ سنوات عديدة — وما يزال — ضربا من الحياة غير المستقرة • ولست احسب انه قضى في ثورنفيلد ، في ايما يوم من الايام ، اسبوعين متواصلين ، لان موت اخيه من غير وصية جعله سيد القصر الاوحد • والواقع ان اجتنابه مثواه القديم ليس بالامر الغريب • »

— « وما الذي يحمله على اجتنابه ؟ »

— « لعله يجده موطنا كئيبا • »

كان الجواب مراوغا ، ولقد كان خليقا بي ان ارغب في شيء اوضح • ولكن مسز فيرفاكس لم تستطع ، او لم ترد ، ان تعطيني بيانات اصرح وأكمل عن اصل المحن التي عاناها مستر روتشستر وطبيعتها • لقد اعلنت ان ذلك كله كان لغزا بالنسبة اليها ، وان ما عرفته كان ثمرة الحـدس والتخمين في المقام الاول • وعلى اية حال فقد كان واضحا انها ودّت لو اغير الموضوع ، وهو ما فعلته نزولا عند رغبتها •

١٤

وفي بضعة الايام التالية لم اجتمــع بمستر روتشستر الا قليلا • ففي ساعات الصباح كان يبدو في شغل شاغل باعماله ومصالحه ، وفي الاصيــل كان رجال من ميلكوت او من الجوار يفدون لزيارته ، وكانوا يلبثون في بعض الاحيان لتناول طعام العشاء معه • حتى اذا بلغت قدمه المرضوضة غاية من التحسن تمكّنه من امتطاء جواده ، اسرف في مغــادرة القصر على صهوته ، ولعله انما فعل ذلك لكي يرد هذه الزيارات ، اذ لم يكن لينقلــــب راجعا الى القصر ، عادة ، الا في ساعة من الليل متأخرة •

وفي هذه الفترة ، كانت آديل نفسها نادرا ما تدعى للمثول في حضرته ، واقتصرت صلاتي به على لقاء عابر في الردهة ، او على السلم ، او في الشرفة ، حين كان يمر بي ، في بعض الاحيان ، بترفــع وبرود ، مشعرا اياي بانه قد

رآني بمجرد هزة رأس نائية ، او نظرة فاترة ، واحيانا بانحناءة وابتسامة زاخرتين بلطف يذكّر بلطف السادة الاماجد • والحق ان تقلّب مزاجه لم يُسْخطني لاني رأيت انه لا شأن لي بتعديل ذلك المزاج ، لقد كان مدُّه وجزره مُرْتهنين باسباب لا صلة لي بها البتة •

وذات يوم تناول بعضهم طعام العشاء على مائدته ، فرغب مستر روتشيستر الي في ان ابعث اليه بمحفظة رسومي ، لكي يُطلع ضيفه ، من غير ريب ، على محتوياتها • وانصرف الضيف مبكّرين ، ليشهدوا اجتماعا عاما في ميلكوت ، على ما اعلمتني مسز فيرفاكس ، ولكن مستر روتشيستر لم يرافقهم بسبب من ان الليلة كانت ماطرة قارسة البرد • فما ان انصرفوا حتى رن الجرس ، وحتى تلقيت رسالة تقول بان علي انا وآديل ان نهبط الى الطابق الارضي • فسرّحت شعر آديل وعنيت باظهارها في مظهر انيق • وبعد ان استيقنت اني كنت في هندامي الكويكري ⁂ المألوف ، حيث لا يحتاج شيء الى تسوية او اصلاح ـ وحيث كان كل شيء ، حتى جدائل الشعر ، رصينا بسيطا لا متسع فيه لتشوّش او اضطراب ـ هبطنا الدرج ، وآديل تتساءل تُرى هل وصل صندوق الامتعة الصغير بعد طول الانتظار ، ذلك بان وصوله كان قد تأخر حتى ذلك الحين بسبب من غلطة ما • وكان حَدْسها في محله ، فقد كانت الهدية هناك ، عندما دخلنا حجرة الطعام : علبة صغيرة من كرتون موضوعة على المائدة • لقد بدا وكأنها عرفتها بالغريزة •

وصاحت بالفرنسية وهي تعدو نحوها : « علبتي ! علبتي ! »

ـ « اجل ، هي ذي علبتك ، آخر الامر • امضي بها الى زاوية من الزوايا ، انت يا ابنة باريس الاصيلة ، وتسلّيْ بانتزاع احشائها » ، كذلك قال صوت مستر روتشيستر العميق الساخر ، منبعثا من اعماق كرسي ضخم ذي ذراعين على مقربة من نار المستوقد ، ثم اضاف : « وحذار ان تزعجيني بأية تفاصيل متصلة بعملية التشريح ، او اية ملاحظة عن حالة الاحشاء : قومي بعمليتك الجراحية في صمت ، والزمي الهدوء ، اينتها الطفلة ، هل فهمت ؟ »

ويبدو ان آديل لم تكن في حاجة كبيرة الى مثل هذا التحذير • ذلك بانها كانت قد انسحبت بكنزها الى احدى الارائك ، وانهمكت في حل عقدة الخيط الذي صان غطاء ذلك الكنز • حتى اذا نزعت ذلك الحاجز ، ورفعت بعض رقاقات فضية من ورق الزخرفة الشفاف اكتفت بمجرد الهتاف ، باللغة الفرنسية : « اينتها السماء ! ما اجملها ! » ثم استغرقت في تأمل نشوان •

وهنا تساءل رب القصر ، نصف ناهض من مقعده ليلتفت نحو الباب ، حيث كنت واقفة ما ازال : « هل مس ايير هنا ؟ »

حتى اذا رآني سحب احد الكراسي الى مقربة من كرسيه واضاف : « آه ،

⁂ نسبة الى جماعة الكويكرز ، او الاصدقاء ، وهم فرقة دينية نصرانية متزمتة • والمراد بالهندام الكويكري الهندام المحتشم الى أبعد حدود الاحتشام • (المعرب)

حسنا • تقدمي ، اجلسي هنا • انا لست مولعا بثرثرة الاطفال ، اذ ليس لي ـ بوصفي اعزب عتيقا ـ اية ذكريات عذبة متصلة بلثغتهم • والواقع اني لا اطيق صبرا على قضاء سهرة كاملة ، وجها لوجه مع طفـــل من الاطفال • لا تبعدي هذه الكرسي ، يا مس ايير ، ابقيه حيث وضعته تماما واجلسي ـ اعني اذا سمحت • لعن الله هذه المجاملات ! اني انساها على نحو موصول • لا ، ولست مولعا ، بخاصة ، بالعجائز الساذجات • وبالمناسبة ، يتعين علي ان لا انسى عجوزي ، فليس من الخير ان اغفلها • انها من آل فيرفاكس ، او على الاقل ذات بعل من آل فيرفاكس ، والدم كما يقولون اكثف من الماء • »

ورن جرسا ووجه دعوة الى مسز فيرفاكس • وما هي الا لحظات حتى اقبلت وفي يدها سلة حبكها •

وقال مخاطبا اياها : « مساء الخير ، يا سيدتي • لقد ارسلت في طلبك لغرض خيري : لقد حظرت على آديل ان تحدثني عن هداياها ، وليس من ريب في انها مفعمة بضروب الخواطر الحبيسة التي توشـــك ان تنفجر ، فتلطّفي بمساعدتها كمستمعة وكمحدّثة • ان ذلك خليق به ان يكون عملا من اعظـم اعمال الخير التي قُدر لك ان تؤديها • »

والحق ان آديل لم تكد ترى الى مسز فيرفاكس حتى دعتها الى اريكتها ، وهناك سارعت الى ملء حضنها بما اشتملت عليه علبتها من محتويات خزفية وعاجية وشمعية ، واخذَت تغمرها في الوقت نفسه بضروب الشروح وتعلن لها عن صنوف الابتهاج بقدر ما اسعفتها انكليزيتها المهشمة •

ثم ان مستر روتشيستر اضاف موجها الخطاب الي : « اما وقد اديتُ دور المضيف الطيب واتحت لضيفتيّ مجال الاستمتاع المتبادل فيتعين علي ان استشعر الحرية في التفرغ لمتعتي الخاصة • مس ايير ، قرّبي كرسيك الى الامام ، اكثر بعض الشيء : انك لا تزالين ابعـــد ممـــا ينبغي ، وليس في استطاعتي ان اراك من غير ان افسِد جِلستي في هذا الكرسي المريح ، وذلك شيء لا انوي ان اقوم به • »

وفعلتُ ما امِرتُ ، برغم اني كنت اوثر مئة مرة ان اظل بعيدة بعض الشيء ، ولكن مستر روتشيستر كانت له في اصدار الاوامر طريقة مباشرة الى درجة تجعل الانصياع العاجل لارادته امرا مفروغا منه •

كنا ، كما ذكرت من قبل ، في حجرة الطعام • كانت الثريا ، التي انيرت بمناسبة العشاء ، تغمر الحجرة بفيض من النور الاحتفالي البهيج ، وكانت نار المستوقد العامرة حمراء متوهجة الى حدّ بالغ ، وكانـــت السجف الارجوانية تتدلى جليلة رحيبة امام النافذة العالية ، والقنطرة الاشدّ علوّا • كان كل شيء ساكنا ، فليس يُسْمَع غير لغو آديل المكبوح (انها لم تجرؤ على التحـدث بصوت عالٍ) ، وغير نقر الامطار الشتوية على زجاج النوافذ •

وبدا مستر روتشيسترِ ، فيمـــا كان مستـــويا على كرسيه المكسو بالدمقس ، على غير ما بدا لي من قبل • كان اقلّ تجهما ـ وكان اقل كآبة

بكثير . كانت تطفو على شفتيه ابتسامة ، وكانت عيناه تلتمعان ببريق لم ادر أكان بريق الخمر ام لا ، ولكني احسب ان ذلك محتمل جدا . كان على الجملة في مزاجه المسائي ، وهو مزاج كان اكثر انبساطا وابتهاجا ، واكثر انسياقا مع هوى النفس ايضا ، من مزاجه الصباحي البارد الجافي . ومع ذلك ، فقد بدا مخيفا ، وقد اسند رأسه الضخم الى ظهر كرسيه المنتفخ وانعكس وهج النار على اساريره الصوانية وفي عينيه الواسعتين السوداوين، ذلك بانه كانت له عينان واسعتان ، سوداوان ، عينان جميلتان جدا ايضا ، لم تخلوا في بعض الاحيان من بعض التغير في اعماقهما ، بعض التغير الذي قد لا يكون رقة ولطفا ، ولكنه يذكّرك ، على الاقل ، بالرقة واللطف .

وكان قد سلخ دقيقتين وهو يرنو الى النار ، وكنتُ قد سلخت مثل ذلك الوقت وانا ارنو اليه عندما التفت فجأة فلمح عينيّ مركزتين على محياه .

وقال : « انت تتفرسين فيّ ، يا مس ايير . هل ترينني فتىً وسيما ؟ »

وكان خليقا بي ، لو اصطنعت الروية ، ان اجيب عن هذا السؤال بكلام تقليدي ، كلام ينطوي على ابهام وكياسة . ولكن الجواب زلّ عن لساني بطريقة ما ، قبل ان اعي ذلك فقلت : « لا ، يا سيدي » .

فقال : « آه ، يا الهي ! ان فيك لشيئا فذا حقا . انك لتذكرين المرء براهبة صغيرة . فأنت غريبة ، هادئة ، رزينة ، ساذجة . وانك لتجلسين باسطة ذراعيك امامك ، منكّسةً عينيك في الاعم الاغلب على السجادة (اللهم الا حين تصوّبان تصويبا ثاقبا الى وجهي ، كما كانتا في هذه اللحظة ، مثلا) . وحين يوجه اليك المرء سؤالا او يبدي ملاحظة تجدين نفسك مضطرة الى الاجابة عنها فعندئذ تطلقين جوابا صريحا ان لم يكن فظا فانه على الاقل خشن جاف . ماذا تعنين بهذا ؟ »

ـ « سيدي ، لقد كنت صريحة اكثر مما ينبغي لي . اني التمس عفوك . لقد كان عليّ ان اجيب بقولي انه ليس من اليسير اعطاء جواب مرتجل عن سؤال يتصل بالمظهر الجسماني ، وان الاذواق تختلف ، وان الجمال امرٌ ثانوي او شيء من هذا القبيل . »

ـ « لا ، ما كان يحسن بك ان تجيبني بمثل هذا الكلام . الجمال امر ثانوي . هل هذا صحيح ؟ وهكذا فأنك ـ تحت ستار تلطيف الاساءة السابقة ، وستار ملاطفتي حتى استعيد هدوئي ـ تطعنينني بمدية ماكرة خبيثة تحت اذني ! تابعي كلامك : اية علة تجدينها فيّ ، بربّكِ ؟ انا احسب ان لي اوصالا كاملة وقسمات وجه مثل اي رجل آخر ؟ »

ـ « مستر روتشيستر ، اسمح لي ان ابرأ من جوابي الاول . فالواقع اني لم اكن اقصد اعطاءك جوابا لاذعا . لقد كان ذلك مني مجرد خطأ احمق » .

ـ « تماما . ذلك ما اعتقده انا ايضا . ولسوف تُحاسَبين عليه . انتقديني : هل تجدين في جبيني شيئا لا يعجبك ؟ »

قال ذلك ورفع خصل الشعر السوداء التي كانت تنوس على جبينه ،

كاشفا عن جبهة عريضة ذكية ، ولكنها خلو من ايما امارة من امارات الطيبة ·

ثم اضاف : « والان ، يا سيدتي ، هل تجدينني رجلا ابله ؟ »

ـ « معاذ الله ، يا سيدي · ومن يدري ، فلعلك يا سيدي تحسبني مخلوقة فظة اذا سألتك بدءوري هل انت 'محسن محب' للخير ؟ »

ـ « ها قد عدنا ! وها هي ذي طعنة اخرى من تلك المدية نفسها توجهها الي فيما هي تربت على رأسي ، وما ذلك الا لانني قلت اني لا احب معاشرة الاطفال والنسوة والعجائز (ان من الخير لي ان اخفض صوتي بهذه الكلمات !) لا ، يا سيدتي الصغيرة ، انا لست محسنا محبا للخير ، بالمعنى العام للتعبير · ولكني رجل ذو ضمير » واشار الى النتوء الذي يقال انه ينمّ عن هذه الملَكَة ، والذي كان لحسن طالعه واضحا على نحو كافٍ فهو يضفي على الجزء الاعلى من رأسه سعة ملحوظة ، ثم اردف : « والى هذا ، فقد غلب علي في يوم من الايام ضرب من رقة القلب فيه قسوة وغلظة · فحين كنت في مثل سنك كنت فتى مرهف الاحساس ، عطوفا على الصغار ، وعلى المستضعفين الذين لا نصير لهم ، وعلى البؤساء الذين خانهم الحظ · ولكن الدهر وجّه الي ضرباته القاضية منذ ذلك الحين ، بل لقد عركني بيديْه القويتين ، وها انا ذا الان اتباهى بأنني قاسٍ صلب مثل كرة من مطاط ، كرة مساميّة ينفذ اليها الماء ، من طريق شقٍّ او شقين ، ولكن ليس في وسط كتلتها غير نقطة حسّاسة واحدة · فهل قد بقي لي ، بعد ذلك ، شيء من الامل ؟ »

ـ « الامل في اي شيء ، يا سيدي ؟ »

ـ « في تحوّلي ، كرّة اخرى ، من مطاط الى لحم ؟ »

فقلت في ذات نفسي : « لا ريب في انه قد اسرف في الشراب » · ولم ادر بأي شيء يجب ان اجيب عن سؤاله العجيب · ومن اين لي ان اتكهن هل سيكون في ميسوره ان يتحول من جديد ، ام لا ؟

ـ « اراك مرتبكة جدا ، يا مس ايير · وعلى الرغم من ان ما تتمتعين به من جمال لا يزيد على ما اتمتع به من وسامة فان سيماء الارتباك تناسبك وتليق بك · والى هذا ، فانها تلائمني انا ايضا ، لانها تقصي عينيك المتحرّيتين هاتين عن محيّاي ، وتشغلهما بريّاحين البساط الصوفية · وهكذا استمري في ارتباكك · اني نزّاع ، يا سيدتي الصغيرة ، الى ان اكون الليلة اجتماعيا راغبا في معاشرة الناس » ·

قال هذا ونهض من كرسيه ، ووقف مسندا ذراعه الى رف المستوقد الرخاميّ · وتبدّى قوامه ، وهو في ذلك الوضع ، بمثل الوضوح الذي تبدّى فيه وجهه ، كما تبدى اتساع صدره الاستثنائي الذي كاد يكون غير متناسب مع طول اطرافه · وانا واثقة من ان كثرة الناس الكاثرة خليق بهم ان يعتبروه رجلا دميما ، ومع ذلك فقد كان في هيئته اعتداد" لا شعوري بالغ ، وكان في مسلكه ثقة بالنفس قوية ، وفي سيماه لا مبالاة كاملة بمظهره الخارجي واعتماد" متغطرس على قوة صفاته الاخرى ، فطرية كانت ام مكتسبة ، وكان

في هذا كله ما يعوضه عن فقدان الجاذبية الشخصية ، بحيث ان الناظر اليه لا معدى له عن مشاركته تلك اللامبالاة ، بل لا معدى له عن مشاركته ـ على نحو اعمى ـ تلك الثقة بالنفس ٠

وكرر قائلا : « اني نزاع الى ان اكون ، الليلة ، اجتمـــاعيا راغبا في معاشرة الناس ٠ وهذا هو السبب الذي من اجله دعوتك للمجيء الى هنا : اني لم اجد في النار والثريا ما يُشبع نزعتي الاجتماعية هذه ، كما انه ليس في ميسور « بايلوت » ان يشبعها ، لان ايا منها لا يستطيع الكلام ٠ ان آديل هي فوق النار والثريا و « بايلوت » درجةً ، من غير ريب ، ولكنها مع ذلك تظل دون المستوى المطلوب بكثير ٠ والشيء نفسه يصح في مسز فيرفاكس ايضا ٠ اما انت فاني على مثل اليقين من ان في امكانك ان تلائميني اذا شئت ٠ لقد اذهلتِني في الليلة الاولى التي دعوتكِ فيها الى هنا ، وكنت نسيتـــكِ ـ او كدت ـ منذ ذلك الحين ، فقد صرفتني عن التفكير فيك افكار اخرى استبدت برأسي ٠ ولكني قد عقدت العزم ، الليلة ، على الاخلاد للراحة ، فأطّرح كل ما يزعج ، واستحضر كل ما يوقع الرضا في النفس ٠ وانه ليرضيني الان ان اغريكِ بالكلام ٠٠٠ ان ازداد معرفة بك ٠ هيًا ، اذن ، تكلمي » ٠

ولكني ، بدلا من ان اتكلم ، تبسمت ، ولم تكن ابتسامتي مستبشرةً جدا او مذعنة جدا ايضا ٠

فألح قائلا : « تكلمي ! »

ـ « عمّ ، يا سيدي ؟ »

ـ « عن ايما شيء يروق لك ٠ اني اترك لك كامـل الحرية في اختيار الموضوع وفي طريقة معالجته » ٠

وهكذا قعدت واعتصمت بالصمت ٠ لقد قلت في ذات نفسي : « اذا كان يتوقع مني ان اتحدث لمجرد التحدُث والتفاخر فلسوف يكتشف ان التوفيق خانه فلم يوجه خطابه الى الشخص المناسب » ٠

ـ « اراكِ بكماء ، يا مس ايير » ٠

ولزمت الصمت ، فحنى رأسه نحوي بعض الشـــيء ، وبنظرةٍ مفردة خاطفة بدا وكأنه يغوص في عينيّ غوصا ٠

وقال : « عنيدة ؟ ومتبرمة ٠ هذا طبيعي ، ذلك اني افرغتُ طلبي في صيغة سخيفة ، صيغـــة تكاد تكون وقحة ٠ مس ايير ، اني التمس عفوك ٠ الواقع هو ، وانا اقول ذلك مرة والى الابد ، اني لا اريد ان اعاملك كما اعامل من هم دوني مقاما ، اعني (وقد حاول بهذا التفسير ان يصحح نفسه) انني لا ادّعي لنفسي الا ذلـك التفوق الذي تفرضه عشرون سنة هي فرق ما بين سني وسنك ، ويفرضه قرن من الزمان كامل ، هو فرق ما بيني وبينك في حقل الخبرة والتجربة ٠ وهذا حق من حقوقي المشروعة ، واني لاتشبث به ، كما تعبر آديل بلغتها الفرنسية ٠ وبحكم هذا التفوق ، وبحكمه وحده ، ارغب اليك ان تتلطفي فتحدثيني الان بعض الشيء ، وان تنقذيني من افكاري التي

يثيرها التركيز على نقطة واحدة ، والتي اراها تتآكل مثل مسمار صدىء » ٠

كان قد تنازل فقدّم تفسيرا ، بل شبه اعتذار ٠ ولكني لم استشعر ايما تحجر تجاه تلطفه ، ولقد اردت ان اشعره بذلـــك ، فقلت : « اني راغبة في تسليتك اذا استطعت ، يا سيدي ، جد راغبــة ، ولكني لا اقوى على اختيار الموضوع ، اذ من اين لي ان اعرف ما الذي يروق لـــك ؟ وجه اليّ اسئلة ، ولسوف ابذل غاية جهدي للاجابة عنها » ٠

ـ « اذن فهل تقرّينني ، في المقام الاول ، على ان لي حقا في ان اكون مستبدا بعض الشيء ، فظا بعض الشيء ، وربما كثير المطالـــب ، في بعض الاحيان ، للاعتبارات التي نصصت عليها ، اعني اني بلغت من الســـن مبلغا يجعلني في مقام والدك ، واني خضت غمار تجارب متباينة ، مع كثير مـــن الناس وكثير من الامم ، وطوّفت في البلاد فزرت اكثر مـــن نصـــف الكرة الارضية ، في حين انك عشت عيشا مطمئنا هادئا مع مجموعة مـــن الناس لا تتغير ، في بيت واحد لا يتغير ؟ »

ـ « افعل ما يحلو لك ، يا سيدي » ٠

ـ « هذا ليس بجواب ٠ او انه على الاصح يثير الاعصاب الى حد بعيد ، لانه ينطوي على كثير من التهرب ٠ اجيبيني في وضوح » ٠

ـ « انا لا احسب ، يا سيدي ، ان لك حقا في فرض ارادتك عليّ لمجرد انك اعلى مني سنا ، او لمجرد انك عرفت من بلدان الارض اكثر مما عرفـــت انا ٠ ان دعواك في التفوق تقوم على مدى ما وُفّقْت اليه من حسن الافادة من وقتك وخبراتك » ٠

ـ « همممم ! هوذا جواب مرتجل ٠ ولكني لا اسلّم بانكِ على صواب ، لان هذا لا يدعم قضيتي البتة ٠ ذلك انني اصطنعـــت كلا من وقتي وخبرتي اصطناعا غير مبالٍ ، ان لم اقل اصطناعا سيئـــا ٠ وحتى لو اسقطنا مسألة التفوق هذه من حسابنا ، يتعين عليك ان توافقي على تلقي اوامري بين الفينة والفينة ، من غير ان تثيرك لهجة الامر او تؤذيك ٠ فما رأيك ؟ »

وتبسمت ٠ وقلت في ذات نفســـي : « ان مستر روتشيستر غريـــب الاطوار حقا ، انه يبدو وكأنه قد نسي انه يدفع الي ثلاثين جنيها في العـــام اجرا على تلقي اوامره » ٠

وقال ، مدركا ـ في الحال ـ انطباعتي العابرة : « هذه الابتسامة حسنة جدا ، ولكنْ اردفي الابتسام بالكلام » ٠

ـ « كنت افكر يا سيدي كم هو قليل عدد الرؤساء الذين يكلفون انفسهم عناء السؤال عما اذا كانت اوامرهم تثير مرؤوسيهم المأجورين وتؤذيهم ام لا » ٠

ـ « مرؤوسيهم المأجورين ! ماذا ؟ انت مرؤوستي المأجورة ؟ اوه ، اجل ، لقد نسيت الراتب ! حسن اذن ، هل تجيزيـــن لي ، على هذا الاســـاس الارتزاقي ، ان اناكدك وان اروّعك بعض الشيء ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي ، ليس على هذا الاساس ٠ اما على اساس انك نسيت

ذلك ، وانك حريص على ان يكون تابعك مرتاحا الى تابعيته لك ، فاني اجيزه من صميم الفؤاد » .

ـ « وهل توافقين على الاستغناء عن جمهرة كبيرة من الصيغ والعبارات التقليدية من غير ان يخطر لك ان اغفالها ناشىء عن شيء من الازدراء ؟ »

ـ « انا واثقة يا سيدي من اني لن اخطىء فأتوهم التجاوز عن الشكليات المألوفة احتقارا . والواقع اني اميل الى اول هذين الامرين بعض الشيء ، اما ثانيهما فما احسب ان اي ابن حرة يرضى به ، ولو لقاء راتب يُجزى عليه » .

ـ « هراء ! ان معظم ابناء الحرائر على استعداد لان يرتضوا القيام بأيما شيء لقاء الراتب . من اجل ذلك ، دعي الناس وشأنهم ، ولا تغامري باطلاق الاحكام التعميمية في موضوعات تجهلينها جهلا مطبقا . وعلى اية حال ، فاني اصافحك ، عقليا ، مهنئا اياك على جوابك ، برغم افتقاره الى الدقة . اجل اني اهنئك على ذلك الجواب ، سواء من حيث الطريقة التي قيل بها او من حيث مادة الكلام : لقد كانت الطريقة صريحة ومخلصة . وليس يقع المرء دائما على مثل هذه الطريقة في الاجابة . على العكس ، ان التصنع او البرود ، او سوء الفهم الاحمق الغليظ العقل للمعنى الذي قصده المرء هي المكافآت المعتادة التي تلقاها الصراحة . ولا احسب ان ثمة ثلاث مربيات ، من بين ثلاثة آلاف مربية ، كان يمكن ان يجبنني كما اجبت انت اللحظة . ولكني لا اقصد الى اطرائك . انك اذا كنت قد افرغت في قالب مختلف عن ذلك الذي افرغت فيه الكثرة الكبيرة من بنات جنسك فليس الفضل في هذا لك . انه من عمل الطبيعة . ثم انني ، بعد هذا كله اتعجل اطلاق الاحكام . انا لا اكاد اعرف عنك شيئا . ومن يدري ، فقد لا تكونين خيرا من الاخريات ، وقد تكون فيك علل لا تحتمل تعادل حسناتك القليلة وتطمس عليها » .

فقلت في نفسي : « وكذلك قد تكون انت ! » . والتقت عيني عينه لحظة خطرت لي الفكرة : لقد بدا وكأنه قرأ ما كان يجول في خلدي ، اذ اجاب وكأن فحوى ذلك لم يكن مجرد طائف في الذهن بل كلاما ملفوظا ايضا .

قال : « اجل ، اجل ، انت على حق . انا مثقل بالعلل والعيوب . ذلك شيء اعرفه ، ولست اريد ان ابرزه والتمس له المعاذير ، اؤكد لك . ان الله يعلم اني لست في حاجة الى ان اكون قاسيا في احكامي على الاخرين ، لان لي ماضيا ثقيلا ، وسلسلة افعال ، ولونا من الحياة يتعين عليّ ان اتأملها في ذات نفسي ، وكلها قد ترد سخرياتي وانتقاداتي نفسها الى نحري . لقد اندفعت ، او على الاصح (ذلك بأني ، مثل سائر الآثمين ، اميل الى القاء نصف الملامة على الحظ العاثر والظروف المعاكسة) قد دفعت في طريق الضلال وانا في الحادية والعشرين ، ولما اهتد الى السبيل القويم منذ ذلك الحين ، ولكنه كان من الجائز ان اكون شيئا مختلفا جدا . لقد كان من الجائز ان اكون صالحا مثلك ، واعظم حكمة منك ، وربما في مثل طهارتك . انا اغبطك على ما تتمتعين به من بال مطمئن ، وضمير نقي ، وذاكرة غير مدنسة . ايتها

الفتاة الصغيرة . ان الذاكرة غير المشوبة بأيما لطخة او دنس هي كنز نفيس من غير ريب – معين من الانعاش لا ينضب ، اليس هذا صحيحا ؟ »

– « كيف كانت ذاكرتك يوم كنت في الثامنة عشرة ، يا سيدي ؟ »

– « كانت حسنة آنذاك ، كانت صافية ، صحية ، ولم يكن ايما ماء دافق او راكد قد احالها الى مستنقع آسن . كنت صنوك وانا في الثامنة عشرة ، صنوك تماما . لقد قصدت الطبيعة الى ان تجعل مني رجلا صالحا ، على الجملة ، يا مس ايير ، رجلا من الطراز الافضل ، وانك لترين اني لست كذلك . قد تقولين انك لا ترينه ، فاسمحي لي ان اطري نفسي فاقول اني اقرأ هذا في عينيك (وانتبهي ، بالمناسبة ، فأن ما تعبرين عنه بذلك العضو اترجمه انا عن لغته على جناح السرعة) . والان ، صدقيني اذا قلت لك اني لست وغدا لئيما . فليس لك ان تحسبيني كذلك ، ان تنسبي الي مثل هذه السمعة الرديئة . ولكن بسبب ظروف بعينها – وانا اقول ذلك صادقا – وليس بسبب من ميل فطري عندي ، امسيت آثما تافها متبذلا ، منغمسا في جميع الملذات الصغيرة الحقيرة التي يحاول الاثرياء والتافهون ان يوشحوا بها حياتهم . أتعجبين لاعترافي لك بهذا كله ؟ الا فاعلمي انك كثيرا ما ستجدين نفسك ، في مقبلات ايامك ، وعلى الرغم منك ، موضع ثقة معارفك ومستودع اسرارهم . ذلك بأن الناس سوف يكتشفون ، على نحو غريزي ، كما اكتشفت انا ، ان موهبتك لا تقوم على التحدث عن نفسك بل تقوم على الاستماع بينا يتحدث الآخرون عن انفسهم . انهم سوف يستشعرون ايضا انك لا تستمعين اليهم بروح ضاغنة من الازدراء لحماقتهم وتهورهم ، ولكن بضرب فطري من المشاركة الوجدانية لا يقلل من قيمته الترفيهية والتشجيعية كون مظاهره خلوا من الفضول والتطفل . »

– « ومن اين تعرف ؟ ... كيف تستطيع ان تحزر هذا كله ، يا سيدي ؟ »

– « انا اعرف ذلك جيدا ، من اجل ذلك اتابع حديثي في حرية وكأنني ادون خواطري في يوميات . قد تقولين انه كان علي ان اسمو فوق الظروف . اجل ، كان من واجبي ان افعل ذلك .. كان من واجبي ان افعل ذلك ، ولكني كما ترين لم افعل . فحين ظلمني القدر لم اكن من الحكمة بحيث اعتصم بالهدوء : لقد غلب علي اليأس اولا ، ثم انحدرت في مزالق الانحلال والتفسخ . والان اذا اثار تقززي ايما احمق اثيم ببذاءته الحقيرة اجدني لا استطيع ان اطري نفسي بالقول اني خير منه . اني مضطر الى الاقرار بانني واياه على مستوى واحد . لشد ما تمنيت لو اصمد ... الله يعلم اني تمنيت ! حاذري الندم ، يا مس ايير ، حين تسول لك نفسك ان تزلي . فالندم سم الحياة » .

– « يقولون ان التوبة هي علاجها ، يا سيدي » .

– « انها ليست علاجها . ان اصلاح المرء نفسه قد يكون هو علاجها

الناجع • ولقد كان في امكاني ان اصلح نفسي ـ انا لا ازال املك القدرة على ذلك ـ اذا ••• ولكن اية فائدة ترتجى من التفكير في ذلك ، والعوائق والاعباء واللعنات تحيط بي من اقطاري جميعا ؟ والى هذا ، فما دامت الايام تنكر علي السعادة انكارا قاطعا فأن من حقي ان انتهب من الحياة لذتها • ولسوف انتهبها من غير ريب ، مهما كان الثمن » •

ـ « واذن فلن تزداد الا انحدارا في مزالق الانحلال والتفسّخ ، يا سيدي » •

ـ « ربما • ومع ذلك فلماذا يتعين علي ان اواصل الانحدار في تلك المزالق اذا كان في ميسوري ان افوز بمتعة عذبة نضرة ؟ وقد افوز بها في مثل عذوبة العسل الطبيعي الذي تجنيه النحل من الارض السبخة وفي مثل نضارته ؟ »

ـ « انها سوف تلسعك ••• ان عسلها سوف يكون مرّ المذاق ، يا سيدي » •

ـ « كيف تعرفين ؟ انك لم تجربيها قط • لشدّ ما تبدو عليك امارات الجد البالغ ، والوقار المسرف ، وانك لتجهلين المسألة بقدر ما يجهلها هذا التمثال الصدفي ذو النقوش » (وتناوله من على رفّ المدفأة) • « انت لا حق لك في تقديم المواعظ الي ، ايتها المبتدئة ، التي لمّا تتخطّ عتبة الحياة بعد ،والتي لا تعرف من اسرارها شيئا البتة » •

ـ « انا اذكرك بكلماتك نفسها ، ليس غير ، يا سيدي • لقد قلتَ ان الخطأ يُفضي الى الندم ، ثم اعلنت ان الندم هو سم الوجود » •

ـ « ومن الذي يتحدث الان عن الخطأ ؟ انا لا اظن ان الفكرة التي خطرت في ذهني كانت خطأ • على العكس ، اني اعتقد بانها كانت وحيا اكثر منها اغراء : كانت انيسة ومهدّئة ـ انا واثق من ذلك • وها هي ذي تخطر لي كرة اخرى ! انها ليست شيطانا ، اؤكد لك • فاذا كانت شيطانا فلا ريب في انها قد اتشحت بأثواب ملاك من ملائكة النور • ويخيل الي ان من واجبي ان ارحب بمثل هذه الضيفة الحسناء حين تلتمس الدخول الى فؤادي » •

ـ « خذ حذرك منها ، يا سيدي • انها ليست ملاكا حقيقيا » •

ـ « وكرة اخرى اسألك ، كيف تعرفين ذلك ؟ بأية غريزة تزعمين انك قادرة على التمييز بين مَلاك زلّ فأمسى من نزلاء الجحيم وبين رسول من رسل العرش الازلي ـ بين هادٍ ومغوٍ ؟ »

ـ « لقد اعطيت حكمي استنادا الى سيماك ، يا سيدي ، التي كانت قلقة عندما قلت ان الفكرة خطرت لك كرة اخرى • واني لعلى مثل اليقين من انها سوف تُورِثك شقاء اضافيا اذا أصَخْتَ اليها » •

ـ « لا ، على الاطلاق • انها تحمل اكرم رسالة في العالم • والى هذا ، فأنت لست الوصية على ضميري ، فلا داعي لقلقك • هيا ، ادخلي ،

ايتها التائهة الوسيمة » ·

قال ذلك وكأنه يتحدث الى طيف لا تراه إيما عين غير عينه · ثم انه طوى ذراعيه ـ اللتين كان قد بسطهما نصف بَسْط ـ على صدره ، فبدا وكأنه يعانق بهما ذاك الكائن اللامنظور ·

واضاف معاودا توجيه الخطاب الي : « لقد استقبلتُ التائهة ـ انها الهة متنكرة ، في ما اعتقد من غير ريب · ولقد احسنت اليَّ في الحال : لقد كان قلبي ضربا من مقبرة ، ولسوف يغدو الان مزارا » ·

ـ « اقول لك الحقيقة يا سيدي ؟ انا لا افهمك البتة · انا لا استطيع ان اتابع تطور الحديث ، فقد امسى اعمق من ان افهمه · انا لا اعرف غير شيء واحد ، هو انك لم تكن صالحا بقَدْر ما كان يتعين عليك ان تكون ، وانك نادم على مواطن نقصك الذاتية · وان في استطاعتي ان افهم شيئا واحدا ليس غير ، وهو انك المعت الى ان الذاكرة المدنَّسة نقمة سرمدية · والذي يبدو لي انك اذا بذلت جهدا صادقا فقد تجد ، مع تراخي الايام ، ان من الممكن لك انتصبح ما ترغب انت في ان تصبحه · وانك اذا ما شرعت ، منذ اليوم ، بعزم وطيد ، في اصلاح افكارك وافعالك فلن تنقضي غير بضع سنوات حتى تتم لك ذخيرة من الذكريات جديدة طاهرة ، يكون في ميسورك ان تَفزَعَ اليها في سرور » ·

ـ « فكرة صائبة ، ولقد عبرت عنها فأحسنت التعبير ، يا مس إيير · وفي هذه اللحظة اراني اعبِّد الجحيم في قوة وعزم » ·

ـ « سيدي ؟ »

ـ « اني لاتخذ قرارات طيبة اعتقد انها في مثل قسوة الصوان · وليس من شك في ان رفاقي سوف يصبحون غير ما كانوا وان مطالبي سوف تصبح غير ما كانت » ·

ـ « وافضل مما كانوا وكانت ؟ »

ـ « اجل ، وافضل ··· بقَدْر ما يَفْضُل الذهب الخالص صدأ المعادن الخبيث · يخيَّل الي انك ترتابين بي ، اما انا فلا ارتاب في نفسي · انا اعرف ماهو هدفي ، وما هي دوافعي ، واني لاسنُّ في هذه اللحظة قانونا لا سبيل الى تغييره ، قانونا كقوانين الميديين والفرس ، يقول بأن هذا الهدف وتلك الدوافع هي صالحة » ·

ـ « ليس في إمكانها ان تكون صالحة ، يا سيدي ، اذا احتاجت الى قانون جديد يضفي عليها صفة شرعية » ·

ـ « بل انها صالحة ، يا مس ايير ، رغم حاجتها الماسة الى قانون جديد · ان الاحوال والملابسات الجديدة التي لم يُسمع بمثلها من قبل لتتطلب قواعد جديدة لم يسْمع بمثلها من قبل » ·

ـ « ذلك مبدأ خطر ، في ما يبدو لي ، يا سيدي · لان في ميسور المرء ان يرى ، لاول وهلةَ ، انه عرضة للتعسّف واساءة الاستعمال » ·

ــ « انها حكمة موجزة كأيجاز الامثال · هذا صحيح · ولكني اقسم بآلهة اسرتي اني لن اسيء استعمالها » ·

ــ « انت بشر ، وغير معصوم » ·

ــ « اني كما تقولين · وكذلك انتِ ··· ثم ماذا ؟ »

ــ « ان البشر وغير المعصومين يجب ان لا ينتحلوا سلطة ليس يمكن ان تُمْنح ــ من غير ما خوف او تعسف ــ الا للالهة والكاملين مــن الناس فحســـب » ·

ــ « اية سلطة ؟ »

ــ « سلطة القول تبريرا لايما مسلك غريب محرَّم : « ليكن هـــذا هو السبيل القويم ! »

ــ « ليكن هـــذا هو الســـبيل القويم ! » ذلك ما ينبغــي ان يقال بالحرف · ولقد قلتِهِ انت نفسك » ·

ــ « اسأل الله ان يكون هو السبيل القويمْ اذن ! » قلت ذلك ، وأنا انهض من مقعدي ، معتبرة ان من العبث الذي لا طائل تحته ان اواصـــل حديثا كان كله ظلاما بالنسبة الي ، مدركة بالاضافة الى ذلـــك ان شخصية مخاطِبي كانت ممتنعة على فهمي، في اللحظة الحاضرة على الاقل ، وشاعرة بالحيرة وبحس اللاأمن الغامض اللذين يلازمان اقتناع المرء بأنه جاهل ·

ــ « الى اين انت ذاهبة ؟ »

ــ « لكي اضع آديل في سريرها · لقد آن موعد نومها منذ فترة » ·

ــ « انت خائفة مني لاني اتكلم مثل أبي هَوْل » ·

ــ « ان لغتك مُلَغزة ، يا سيدي· ولكني ــ برغم انشداهي ــ غير خائفة البتـــة » ·

ــ « بل انت خائفة ــ ان أنانيتك تخشى ان ترتكب خطأ فاضحا » ·

ــ « انا ، بهذا المعنى ، خائفة حقـــا · اني لا استشعر اية رغبة في اللغو وفضول الكـــلام » ·

ــ « لو انك نطقتِ بشيء من الهراء اذن لفعلت ذلك على نحو رصين هادىء الى درجة اتوهم معها انك تقولين كلاما منطقيا · الا تعرفين الضحك ابدا ، يا مس ايير ؟ لا تكلفي نفسك عناء الاجابة ، فانا الاحظ انك نـادرا ما تضحكين · ولكن في استطاعتك ان تضحكي في مرح بالغ : صـــدقيني ، انت لست عبوسا بالفطرة باكثر مما انا أثيم بالفطرة · ان الكبت الـــذي فرض عليك في لوورد لا يزال متعلقا بأهدابك ، فهو يسيطر على اساريرك ، ويخنق صوتك ، ويشل اوصالك ، وانك لتخافين ــ في حضرة رجل واخ ، او اب او سيد ، او ما شئت فقولي ــ ان تبتسمي في كثير من المـرح ، او تتحدثي في كثير من الحرية ، او تتحركي في كثير من الســـرعة · ولكني احسب انك سوف تتعلمين، مع كر الايام ، كيف تجرين معيعلى سجيتك، تماما كما اجد من المتعذر علي ان اكون تقليديا متمسكا باهداب العرف حين

اتحدث اليك ، وعندئذ تمور نظراتك وحركاتك برشاقة وتنوّع لا تجرئين اليوم على التكشف عنهما • واني لالمح بين فترة واخرى ، سيماء طائر غريب ، من خلال قضبان متراصة : ان في ذلك القفص لأسيرا ناشطا ، قلقا ، راسخ العزيمة • ولو قد كان هذا الاسير حرا اذن لحلّق فناطح السحاب • الا تزالين مصممة على الانصراف ؟ »

— « لقد دقت الساعة التاسعة ، يا سيدي » •

— « لا بأس • انتظري دقيقة • ان آديل لم تنجز استعدادها للايواء الى سريرها بعد • ذلك بأن وضعي ، يا مس ايير ، وقد وليت النار ظهري ووجهت وجهي الى الحجرة ، يساعد على الملاحظة • ولقد وفقت ، فيما كنت اتحدث معك ، الى مراقبة آديل ايضا بين الفينة والفينة • (ولدي اسباب خاصة تدعوني الى الاعتقاد بأنها ظاهرة غريبة تستحق الدرس — اسباب قد افضي بها اليك في يوم من الايام ، لا بل سأفضي بها اليك من غير ريب) • لقد استلت من صندوقها ، قبل عشر دقائق تقريبا ، ثوبا حريريا قرنفليا صغيرا • فاضاء الابتهاج الغامر وجهها عندما نشرته امامها، ولا عجب فالغنج يجري في دمها ، ويختلط بدماغها ، ويمازج مخ عظامها • ولقد صاحت ، بلغتها الفرنسية : « يجب ان اجربه ! وفي هذه اللحظة بالذات ! » واندفعت مغادرة الحجرة • انها الان مع « صوفي » ، وان صوفي هذه لتساعدها في هذه اللحظة في ارتداء الثوب • ولسوف تنقلب آديل الى هنا ، بعد بضع دقائق ، وانا اعرف ما الذي ستقع عليه عيناي — صورة مصغرة عن « سيلين فارينز » كما كانت تبدو على المسرح عند استهلال ••• ولكن ما لنا ولهذا • وايا ما كان فان ارق مشاعري على وشك ان تصاب بصدمة • بهذا يحدثني قلبي • امكثي الان ، لتري هل يتحقق ذلك ام لا ؟ »

وما هي غير دقائق معدودات حتى سمِعت قدما آديل تخطران في رشاقة عبر الردهة • لقد دخلت الحجرة ، كما توقّع ولي امرها ، وقد استحالت مخلوقا اخر • كان ثوب من الاطلس الوردي اللون ، بالغ القصر ، رحيب التنورة الى اقصى حدود الرحابة قد حل محل الفستان الاسمر الذي كانت ترتديه من قبل ، وكان اكليل من اكمام الزهور يتوج جبينها ، اما قدماها فكانتا تزهوان بجورب حريري وبنعلين صغيرين من اطلس ابيض •

وصاحت ، بالفرنسية ، وهي تثب الى امام : « كيف تجدان ثوبي ؟ اهو لائق بي ؟ ونعلاي ؟ وجوربي ؟ انتبها ، انا اعتقد اني سوف ارقص »•

ونشرت تنورتها ، وانشأت ترقص عبر الحجرة ، حتى اذا انتهت الى مستر روتشيستر دارت امامه — في رشاقة — على رؤوس اصابعها ، ثم ركعت عند قدميه ، على ركبة واحدة ، هاتفة بالفرنسية : « سيدي ، اشكرك الف مرة على كرمك وطيبتك » • ثم اضافت وهي تنهض : « ان

ماما كانت تفعل مثل هـــذا ، اليس كذلك ، يا سيدي ؟ »

فجاءها الجـــواب : « على وجـــه الضبط ! اجل ، وعلى هذا النحو استطاعت ان تستلَّ دنانيري الذهبية الانكليزية مـــن جيـب بنطلوني البريطاني ! لقد كنت انا ايضـا فتى ناضرا ، يا مس ايير ، اجـــل ناضرا كالعشب الاخضر : وثقي ان ما يمور به شبابك الان من غضارة ليس يعـدو البتة ما كان يمور به شبابي آنذاك . وايا كان ، فقد ولى ربيعـــي الان ، ولكنه ترك في يديَّ هذه الزهَـيْرة الفرنسية ، التي اتوق في بعض لحظـات كآبتي ، الى التخلص منهـــــا . واذ كنت ، الان ، لا احترم الجذر الذي انبثقت منه ، بعد ان وجدت انه من ضرب لا يصلح غير غبار الذهب سمادا له ، فاني لا اكنُّ للريحانة غير حب جزئي ، وبخاصة عندما تغلب عليهـــا سيماء التصنع ، كشأنها في هذه اللحظات . والواقع اني اعيلها واربيها عملا بالمبدأ الكاثوليكي الروماني في المقام الاول ، ذلك المبدأ الذي يقول بالتكفير عن جمهرة من الآثام ، الكبيرة والصغيرة ، من طريق القيام بعمـــل صالح مفرد . ولسوف اشرح لك هذا كله في يوم من الايام . طاب مساؤك » .

١٥

ولقد شرح مستر روتبيستر ذلك لي ، في مناسبة لاحقة . وكان ذلك ذات اصيل ، عندما اتفق له ان لقيني وآديل في ناحيـــة مـــن حديقـــة القصر . وفيما كانت هي تلعب مع « بايلوت » ومع شتكها * ، سألني ان اذرع معه ، جيئة وذهوبا ، ممرا طويلا تكتنفه اشـجار الزان ، على مرأى منهـــــا .

ثم انه قال انها كانت ابنة مغنية اوبرا فرنسية ، هي سيلين فارينز التي كان يشعر نحوها ، في يوم من الايام، بما دعاه « حبا عارما » . وكانت سيلين قد تظاهرت بمبادلته هذا الحب بحب مثله ، بل اشد منـه اتقادا . لقد حسب نفسه معبودها ، على الرغم من بشاعته ، ولقد اعتقد ــ عـــلى حد قوله ــ بأنها آثرت « قوامه الرياضي » على رشاقة ابـولو بيلفيدير .

ــ « اجل ، يا مس ايير ، ولقد ازدهاني هذا الايثار الذي صـــدرت عنه الحورية الفرنسية للقزم البريطاني القيِّم على كنوز باطن الارض، وكان هذا الازدهاء من القوة بحيث انزلتها في فندق ، واحطتهـــا بجمهرة مـــن الخدم ، وبعربة ، وشالات من الكنسمير ، وماسات ، ومخرمات من الدانتيل، وباختصار ، استهللت عملية تفليس ذاتي ، من طريق حياتـــي المترفـــة الجديدة ، ككل مغرم ساذج ضعيف العقل . ويبدو اني لم اكن املك مـــن الاصالة ما يجعلني اشق لنفسي طريقا جديدة الى العار والخراب ، فسلكت

---

* الشتك shuttlecock ، لعبة من لعب الاطفال . (المعرب)

السبيل العتيقة ، في دقة بلهاء ، مجتنبا الانحراف انشا واحدا عن وسطه المعبد • ومن هنا انتهيت ــ وكنت استحق ذلك ــ الى مصير كمصير سائر الحمقى من المغرمين • وذات مساء اتفق لي ان وفدت على سيلين على غير ترقب منها لزيارتي ، فلم اجدها • ولكن الليلة كانت قائظة ، وكنت مرهقا من اثر التطواف في شوارع باريس ، وهكذا قعدت في مقصورتها ، سعيدا بأن استنشق الهواء الذي كان وجودها ،قبل ذلك بدقائق معدودات ، قد اضفى عليه صفة مقدسة • لا ، اني اغالي ، فأنا لم افكر في اي يوم ان لها القدرة على اضفاء ايما صفة مقدسة على ايما شيء • كان ذلك مجرد ضرب من عطر « كرات البخور » كانت قد تركته هناك ، كان عبير مسك وعنبر ، لا اريج القداسة • وكنت قد شرعت احس بالاختناق من روائح ازاهير المستنبتات الزجاجية ، والعطور التي نُضِح بها الهواء ، عندما حدثتني نفسي بان افتح النافذة واخرج الى الشرفة • كانت الليلة مقمرة ، وكانت مصابيح الغاز مضاءة ايضا ، وكان الجو ساكنا جدا ، رائقا جدا • وعلى الشرفة كان كرسي او كرسيان ، فجلست ، واخرجت من جيبي سيكارا ، ــ اني سوف آخذ الان واحدا ، اذا اجزت لي ذلك » •

وتمهل ريثما اخرج سيكارا واشعله • حتى اذا وضعه بين شفتيه ونفث في هواء ذلك اليوم المثلوج ، الذي لم يشهد الشمس ، سحابة من دخان هافانا الذكي ، استأنف حديثه قائلا :

ــ « وكنت في تلك الايام احب ضروب الحلوى المغلفة بالسكر ايضا ، يا مس ايير ، وكنت اقرقش (واغفري لي هذا الابتذال في التعبير) ••• اجل كنت اقرقش حبات الشوكولا حينا وادخن حينا ، مراقبا في الوقت نفسه سيل العربات التي كانت تدرج على طول الشوارع الانيقة نحو دار الاوبرا المجاورة ، عندما تبينت عَربة انيقة مقفلة يجرها جوادان انكليزيان رائعان ، عرفت فيها ــ بفضل اضواء المدينة الساطعة ــ تلك العربة التي كنت قد قدمتها الى « سيلين » • كانت عائدة الى الفندق • وراح فؤادي يخفق ، بحكم الطبع ، خفقانا شديدا فارغ الصبر ، على حديد الدرابزون الذي اتكأت عليه • ووقفت العربة ، كما كنت قد توقعت ، عند باب الفندق • وترجلت شعلتي (وهذه هي الكلمة الدقيقة اللائقة بمحبوبة من راقصات الاوبرا) وعرفتها في الحال ، على الرغم من انها كانت تستتر بمعطفها ــ وهو ، بالمناسبة ، حمل ثقيل لا داعي للتدثر به في امسية حزيرانية قائظة الى ذلك الحد ••• اقول عرفتها في الحال من قدمها الصغيرة التي لاحت من وراء تنورتها وهي تثب من عتبة العربة • وكدت اغمغم ــ وانا اطلّ من على الشرفة ــ بهاتين الكلمتين ، « يا ملاكي ! » ، في جرس كان ينبغي ان لا تسمعه غير اذن الحب وحدها طبعا ، عندما وثب خلفها ، من العربة ، شخص اخر متدثر هو ايضا بمعطف • ولكن ما سمعته الان يدوي فوق الرصيف لم يكن غير عقب ذات مهماز : لقد بصرت

برأس معتمر بقبعة يمر تحت باب الفندق المقنطر الخاص بالعربات ٠

« انت لم تستشعري الغيرة ، في يوم من الايام ، يا مس ايير ؟ لا ، بالطبع : وليس ثمة ايما حاجة لطرح هذا السؤال عليك ، فانت لم تعرفي الحب قط ٠ ولسوف تستشعرين هاتين العاطفتين في مقبلات الايام ٠ ان روحك هاجعة الان ، ولا بد ان تصابي ذات يوم بالصدمة التي ستوقظها ٠ انك تحسبين ان الوجود كله يجري في مدّ هادىء كذلك الذي هدهد شبابك حتى هذه الساعة ٠ انك تعومين مغمضة العينين مسدودة الاذنين ، فلست ترين لا الصخور التي تطلع رؤوسها غير بعيد في مجرى المد ، ولا تسمعين الامواج العارمة التي تجيش في قعرها ٠ ولكني اقول لك — ومن الخير لك ان تنتبهي جيدا لما اقول — انك سوف تنتهين يوما الى مأزق تكتنفه شم الصخور ، حيث يتفتتمجرى المياه كله ويتبدد في دوامة وصخب ، وزبد وجلبة ٠ فاما ان تتكسري ذرات فوق الصخور الشامخة ، او تُحملي على كتف موجة عارمة الى تيار اكثر هدوءا ٠٠٠ كمثل حالي انا الان ٠

« انا احب هذا اليوم : احب تلك السماء الفولاذية ، احب تجهُّم العالم وسكينته تحت هذا الصقيع ، احب ثورنفيلد ، احب عتقه ، وتوحُّده ، واشجاره القديمة التي تعشعش فيها الغربان ، واشجاره ذات الاشواك ، وواجهته الشائبة ، وصفوف النوافذ القاتمة التي تعكس تلك السماء المعدنية ٠٠٠ ومع ذلك فما اطول ما ابغضت مجرد التفكير فيه ، وما اكثر ما اجتنبته كما يجتنب المرء موطنا من مواطن الطاعون ! وما اشد ما اكره حتى الان ٠٠٠ »

وصرف باسنانه واعتصم بالصمت ٠ وكف عن السير ، وضرب الارض الصلبة بعقب حذائه ذي الساق الطويلة ٠ لقد بدا وكأن فكرة بغيضة ما قد كبَّلته تكبيلا جعله عاجزا عن ان يتقدم خطوة واحدة الى امام ٠

وكنا نصعد في الممر الذي تكتنفه الاشجار عندما توقف على هذا النحو ٠ كان القصر امامنا ، فرفع عينيه الى شرفاته ، ورشقها بنظرة لم اشهد مثلها لا من قبل ولا من بعد ٠ لقد بدا وكأن الالم والخزي والغيظ — نفاد الصبر ، والاشمئزاز ، والمقت — تصطرع كل لحظة اصطراعا مرتعشا في انسان عينه الكبير المنفسح تحت حاجبه الابنوسي ٠ وضاريا كان ذلك الصراع الذي اتسم بالحسم من غير ريب ، ولكن شعورا اخر ما لبث ان برز وانتصر : شيء قاس وساخر ، شيء عنيد وحازم ٠ لقد اخمد انفعاله وحجَّر قسمات وجهه ، فمضى يقول :

— « وخلال اللحظة التي اعتصمت فيها بالصمت ، يا مس ايير ، صفيت المسألة مع قَدري ٠ لقد وقفت هي هناك ، على مقربة من جذع شجرة الزان هذه — عرّافة مثل هاتيك العرافات اللائي برزن لماكبث في مرج « فور » ٠ لقد سألتني ، رافعة اصبعها : « اتحب ثورنفيلد ؟ » ثم خطت

في الهواء ، تحذيرا تجلّى في احرف هيروغليفية كالحة على طول واجهة القصر ، بين صف النوافذ الاعلى وصف النوافذ الادنى : « أحبَّه اذا استطعت ! » « أحبَّهُ اذا جرؤت ! » فقلت : « سوف احبه ! سوف اجرؤ على حبه ! » (وهنا استدرك في نكد وكآبة) « سوف أبرُّ بوعدي ، سوف اذلل العقبات التي تعترض سبيلي الى السعادة ، الى الطيبة ـ اجل ، الطيبة ، اني اريد ان اكون رجلا خيرا مما كنت ، خيرا مما انا ، كما حطم حوت ايوب الحربة والنبلة والصدرة المزرّدة . ولن ارى في ما يعتبره الناس عقبات من حديد ونحاس الا هشيما وخشبا نخِرا » .

وهنا راحت آديل تعدو امامه هي ولعبتها فصاح في فظاظة : « اغربي عني ! العبي في مكان بعيد ، ايتها الطفلة ، او امضي الى « صوفي » في داخل القصر » . حتى اذا وصل سيره في صمت غامرتُ محاولة اعادته الى النقطة التي كان حديثه قد انحرف عندها على نحو مفاجيء ، فسألته : « وهل غادرت الشرفة ، يا سيدي ، عندما دخلت الانسة فارينز ؟ »

وتوقعت ، او كدت ، ان القي ـ جزاء هذا السؤال الذي طرِح في ظرف غير ملائم البتة ـ صدا قاسيا . ولكنه ، على العكس ، استيقظ من شروده الذهني المنجهم ، وادار عينيه نحوي ، وقال وقد شرع الاكفهرار يزايل جبينه : « اوه ، لقد نسيت سيلين ! حسنا ، سوف استأنف الحديث . عندما رأيت فاتنتي تدخل على هذا النحو برفقة فارس من الفرسان ، بدا لي وكأني سمعت حسيسا ، واذا بأفعوان الغيرة الاخضر ذي الجسم المتموج الملتف يُطلع رأسه من الشرفة التي سفح القمر عليها ضياءه ، ويتسلل الى صدرتي . ثم انه راح ينهش لحمي شاقا طريقه ، في دقيقتين اثنتين ، الى سويداء فؤادي » . وهنا هتف ، مفارقا عمود القصة كرة اخرى مفارقة مفاجئة : « عجبا ! عجبا لي كيف اخترتك لاشكو اليك بثّي كله ، ايتها السيدة الفتية . واعجب من ذلك ان تنصتي الي في سكون ، وكأن انصراف رجل مثلي الى رواية القصص عن خليلته راقصة الاوبرا على مسمعيْ فتاة غريبة غرة مثلك امرٌ مألوف اكثر من ايما شيء آخر في هذا العالم ! ولكن الغرابة الاخيرة تفسر الغرابة الاولى ، كما ألمعتُ ذات مرة : انك ، برصانتك وحذرك ، وحسن تقديرك لمشاعر الاخرين ، قد خلقت لتكوني الصدر الذي يستقبل الاسرار . والى هذا ، فانا اعرف اي ضرب من العقل حاولت ان اصل ما بينه وبين عقلي : انا اعلم انه ليس عقلا قابلا للعدوى . انه عقل غريب ، عقل فذ . ولست اقصد ، لحسن الطالع الى ايذائه ، وحتى لو قصدت اذن لما استطعت الى ذلك سبيلا . اني كلما اخذت معك باطراف الاحاديث كان خيرا وابقى . لان في ميسورك ان تنعشيني بينا اعجز انا عن اذوائك » .

وبعد هذا الاستطراد عاد الى قصته يكملها : « لقد بقيت في الشرفة ،

قائلا في ذات نفسي : « لا ريب في انهما سوف يفدان الى مقصورتهــا ٠ فلأنصب لهما شركا » ٠ وهكذا مددت يدي خلال النافذة المفتوحة فأسدلت الستارة عليها ، تاركا مجرد فجوة استطيع بواسطتها ان اراقب كل شيء ٠ ثم اغلقت النافذة تاركا ايضا مجرد شق كاف لان تتســرب منــــه وعود العاشقين وعهودهم المهموسة ٠ ثم انسللت منقلبا الى كرسيي ٠ ولم اكــد استوي عليه حتى دخلا ٠ وفي الحال رحت اختلس النظر من شق النافـذة ٠ لقد دخلت الخادمة المسؤولة عن غرفة سيلين ، فاضاءت مصباحا ووضعته على المائدة ، وانسحبت ٠ وهكذا كان في ميسوري ان ارى سيلين وفارسها في وضوح : لقد خلعا معطفيهما ، فبدت « لا فارينز » لي متألقة في ثوبهــا الحريري وفي جواهرها ، وهي من هداياي طبعا ، وبدا رفيقهــا في بـــزة ضابط ، فعرفت فيه « فيكونتا » داعرا ــ فتىً احمق اثيما كنت قد التقيته ذات يوم في دنيا المجتمع ، ولم يخطر ببالي قط ان ابغضه لاني احتقرتــه احتقاراً كليا ٠ ولم اكد اتبينهُ حتى انكسرت ناب الافعوان ــ الغيرة ــ في الحال ، لان حبي لسيلين خمد في اللحظة نفسها ٠ فالمرأة التي استطاعت ان تخونني من اجل منافس كهذا لا تستحق ان أناضل في ســبيل الاحتفاظ بها ٠ انهـــا تستحق الاحتقـــار ليس غير ، ولكن اقلّ مما استحقه انا ، انا الذي هو عاشقها المخدوع ٠

وشرعا يتحدثان ٠ وسرّى حديثهما عني تسرية كاملـــة : كان حديثا مستهترا ، ارتزاقيا ، فاترا ، فارغا ، فكأنما قُصِد به ان يسئم السامع لا ان يسخطه ويثير غضبه ٠ وكانت على المائدة بطاقة تحمل اسمي ، واذ وقع بصراهما عليها اخذا يتحدثان عني ٠ ان ايا منهما لم يكن يملـــك القوة او الظرف الكافيين للسخرية بي على نحو حصيف ، ولكنهما اهاناني بأبشــع ما مكنتهما طريقتهما الرخيصة من ذلك ، وبخاصة سيلين التي تكشفت عــن شيء من الذكاء في الكلام على نقائصي الشخصية ــ وقد اطلقت عليها لفـظ « عاهات » ــ وهي التي كان من دأبها ان تتدفق في اظهار الاعجاب المتقـــد بما دعته « جمالي الرجولي » ٠ انها في هذا تختلف اختلافا كليا عنـــك ، انت التي قلت لي ، بصراحة بالغة ، عند لقائنا الثاني ، انك لا تجدينني وسيما ٠ ولقد راعتني هذه المغايرة ، في حينها ، و ٠٠٠ »

وهنا اقبلت آديل تعدو كرة اخرى ، وقالت : « سيدي ، اللحظة جاء جون ليقول ان وكيل اعمالك قد وفد وانه يرجو مقابلتك » ٠

ــ « آه ! في هذه الحال ، يتعين على ان اوجز ٠ لقد فتحت النافذة ، ودخلت المقصورة عليهما ، فحررت سيلين من حمايتي ، وسرّحتهــا مـــن الفندق مقدما اليها بعض المال تستعين به على حاجاتها العاجلــــة ٠ لقــد تصاممت عن صيحاتها ، ونوباتها الهستيرية ، وتوسلاتها ، واحتجاجاتها ، وتشنجاتها ، وتواعدت مع الفيكونت على اللقاء في غابة بولونيا ٠ وفي صباح اليوم التالي سعدت بمقاتلته مخلفا رصاصة في احدى ذراعيــه السقيمتين

المهزولتين الواهنتين مثل جناح دجاجة مصابة بالخانوق · وعندئذ اعتقدت اني تخلصت منهما جميعا · ولكن « لا فيرنز » كانت ، لسوء الطالع ، قد حملت الي ، قبل ستة اشهر آديل الصغيرة هذه مؤكدة انها بنتي · ومن يدري ، فقد تكون ابنتي ، برغم اني لا ارى في سيماها ايما دليل ينهض على مثل هذه الابوة الكالحة · ان الكلب « بايلوت » ليشبهني اكثر مما تشبهني هي · وبعد بضع سنوات انقضت على خصامي مع الام ، تخلت عن طفلتها وفرت الى ايطالية مع موسيقي او مغنٍ · ولم اعترف لآديل بأي حق طبيعي يلزمني بأعالتها ، لا ، ولست اعترف لها الان بمثل هذا الحق ، لانني لست اباها · بيد اني سمعت ان الطفلة المسكينة كانت في حال من العوز الكلي ، فانتشلتها من حمأ باريس ووحلها ، وجئت بها الى هنا لتترعرع في تربة صحية في حديقة من حدائق الريف الانكليزي · ولقد اكتشفتك مسز فيرفاكس وعهدت اليك في تثقيفها · اما وقد عرفت الان انها بنت غير شرعية من مغنية اوبرا فرنسية فلعلك ان تنظري الى وظيفتك والى تلميذتك نظرة مختلفة · ومن يدري ، فقد تأتين الي في يوم من الايام لتحيطيني علما بأنك وجدت عملا اخر ـ ولتتوسلي الي ان ابحث عن مربية جديدة ، الخ ـ ايه ؟ »

ـ « لا ، آديل غير مسؤولة لا عن اخطاء امها ولا عن اخطائك · اني احترمها · والان وقد عرفت انها ، بمعنى من المعاني ، يتيمة الابوين (بعد ان تخلت عنها امها وبعد ان انكرتها انت ، يا سيدي) فلسوف اتعلق بها اكثر من ذي قبل · وكيف اؤثر ابنة مدللة من ابناء الاسر الثرية ، ابنة تنزع الى ان تكره مربيتها كشيء مزعج ضار ، على يتيمة قاصرة متوحدة تميل اليَّ كما يميل المرء الى صديقه ؟ »

ـ « اوه ، اتنظرين الى المسألة على هذا الضوء ؟ حسن · يتعين عليَّ الان ان انصرف · وكذلك يتعين عليك انت ايضا · فقد جنحت الشمس الى المغيب » ·

ولكني لبثت في الحديقة بضع دقائق اخرى مع آديل وبايلوت ـ لقد سابقتُها في العدْو ولعبت معها لعبة الشتك والمضرب * · وعندما دخلنا القصر وساعدتها على نزع قبعتها الصغيرة ومعطفها جلست واجلستها على ركبتي ، وابقيتها ثمة ساعة ، مجيزة لها ان تلغو كما شاء لها اللغو ، غير مؤنبة اياها حتى على بعض مسالكها المألوفة وهناتها الصغيرة التي كانت ميالة الى الانزلاق نحوها حين تعلم انها موضع ملاحظة ومراقبة ، والتي كانت تنمُّ فيها عن ضحالة في الشخصية لعلها موروثة عن امها ، ضحالة لا تكاد تتناسب والعقل الانكليزي البتة · ومع ذلك ، فقد كانت لها فضائلها · وكنت انا نزاعة الى الاعجاب بكل ما فيها من عناصر الخير الى

---

* battledore and shuttlecock

ابعد حد مستطاع ٠ لقد التمست في محياها وقسماتها وجه شبه بينها وبين مستر روتشيستر ، ولكني لم افز من ذلك بشيء ٠ فلم يكن ثمة ايما سمة او ملامح تؤذن بنسب يشدها اليه ٠ وكان ذلك مؤسفا ، اذ لو كان في الامكان اقامة الدليل على انها تشبهه اذن لكان خليقا به ان يوليها مزيدا من تفكيره واهتمامه ٠

ولم افرغ للتفكير في الحكاية التي قصها علي مستر روتشيستر الا بعد ان شخصت الى حجرتي وأويت للرقاد ٠ ولعله لم يكن ثمة ، كما كان قد قال لي ، ايما شيء استثنائي البتة في مادة الحكاية نفسها : فقد كان هيام الاثرياء الانكليز بالراقصات الفرنسيات ثم خيانة هاته الراقصات لعهودهم امرين مألوفين ، من غير ريب ، في دنيا المجتمع ٠ بيد انه كان ثمة شيء غريب على نحو لا لبس فيه في نوبة الانفعال التي عصفت به فجأة عندما راح يعبر عن ارتياحه الحالي الى مزاجه ، والى ولوعه المنبعث حديثا بالقصر العتيق وكل ما يحيط به ٠ وتأملت في هذه الحادثة بكثير من الدهش ولكني ما لبثت ان صرفت تفكيري عنها ، شيئا بعد شيء ، اذ وجدتُها ممتنعة على التفسير ــ مؤقتا على الاقل ــ وانتقلت الى التأمل في مسلك مستر روتشيستر معي ٠ لقد رأيت في الثقة التي شاء ان يوليني اياها اطراء لحصافتي : بهذا النوع من النظر فهمتها وارتضيتها ٠ كان سلوكه نحوي ، خلال الاسابيع الاخيرة ، اشد استواء واطرادا مما كان في البدء ٠ لقد بدا وكأني لم اعد اضايقه البتة ٠ لقد كف عن النظر الي في ترفُّع مثلوج : كان اذا لقيني على غير توقُّع بدا لي وكأنه قد سعد بهذا اللقاء ٠ كانت لديه دائما كلمة رقيقة يقولها لي واحيانا ابتسامة يحييني بها ٠ وكان اذا دعاني رسميا الى الاجتماع به اكرمني بحسن وفادة كانت تشعرني بأني املك فعلا القوة على تسليته ، وبأن هذه الاجتماعات الليلية كانت تلْتمس لمسرّته هو ، ولفائدتي أنا ، على حد سواء ٠

والواقع اني كنت اقتصد ، نسبيا ، في الكلام ، ولكني كنت اصغي اليه في حبور ٠ كان افصاحيا * بفطرته : لقد احب ان يكشف لاحد العقول الجاهلة بالحياة عن ومضات من مشاهدها واساليبها (ولست اعني مشاهدها الفاسدة واساليبها الخبيثة ، ولكن تلك المشاهد والاساليب التي تستمد متعتها من المسرح الضخم الذي مُثلت على خشبته ومن الجدة الغريبة التي اتسمت بها) ٠ ولقد كنت استشعر ابتهاجا عميقا في تلقي الفكرات الجديدة التي ابداها ، وفي تخيُّل الصور الجديدة التي رسمها ، او كنت اسايره ــ بفكري ــ مرافقة اياه الى المناطق الجديدة التي كشف النقاب عنها ، غير مُجْفلة او متضايقة البتة من ايما تلميح مؤْذ ٠

وكان في انطلاقية تصرُّفه ما حررني من كبح اليم ، وكان في صراحته

* اي محبا للافصاح عن نفسه ، وهي تقابل لفظة communicative في الاصل الانكليزي ٠

الودية التي كانت مستقيمة بقدر ما كانت قلبية والتي عاملني بها ما جذبني اليه • لقد استشعرت في بعض الاحيان انه نسيبي لا سيدي ، ومع ذلك فقد كان يتكشف احيانا عن نزعة استبدادية ، ولكني لم اجد في ذلك كبير بأس : لقد ادركت ان هذه هي طريقته • وكنت من السعادة والإبتهاج بهذا الشوق الجديد الطارىء على حياتي بحيث اقلعت عن التوق الى ان تكون لي اسرة وانسباء • لقد بدا ان قدَري الهلالي الرقيق قد اخذ في النمو ، وان فراغ وجودي قد شرع في الامتلاء • لقد تحسنت صحتي الجسدية ، وازداد وزني ، وتعاظمت قوتي •

وهل كان مستر روتشيستر دميما في عيني الان ؟ لا ، ايها القارىء : ان عرفان الجميل وضروب المعاني المتداعية ، وكلها سائغ بهيج ، قد جعلت وجهه احب ما اتطلّع الى تكحيل العين به ، فاذا بوجوده في حجرة من الحجرات يوقع في نفسي ابهاجا اعظم من ذلك الذي توقعه اشد النيران توهجا • ومع ذلك فاني لم انس عيوبه • والواقع ان ذلك لم يكن في طاقتي ، اذ كان من دأبه ان يعرضها على ناظري بين الفينة والفينة • كان متكبرا ، متهكما ، قاسيا على الدونية بمختلف اشكالها • وكنت اعرف ، في قرارة نفسي ، ان لطفه العظيم نحوي كانت تقابله قسوة ظالمة على كثير من الناس • وكان الى ذلك نكد المزاج ، لغير ما سبب يستطيع المرء ادراكه • واكثر من مرة ، حين كان يستدعيني لاقرأ له ، وجدته جالسا وحده في حجرة مكتبته ، منكس الرأس فوق ذراعيه المتصالبتين • حتى اذا رفع بصره نحوي لمحت تجهما نكدا ، تجهما يكاد يكون ضاريا ، يرنّق محياه • ولكني اعتقدت ان كآبته وقسوته وعيوبه الاخلاقية السابقة (اقول « السابقة » اذ بدا لي وكأنه قد تخلص منها) كان مردّها الى محنة قاسية من محن القدر • لقد اعتقدت انه كان بفطرته رجلا ذا نزعات افضل ، ومبادىء اسمى ، واذواق اصفى مما استطاعت ظروفه ان تنميه ، وثقافته ان تغرسه ، واقداره ان تشجع عليه • لقد خيل الي ان في برديه مواد ممتازة ، وان تكن في اللحظة الحاضرة مشوهة ، مشوشة ، مضطربة • وليس في ميسوري ان انكر اني اسيت لأساه ، ايا كان ذلك الاسى ، واني كنت على استعداد لان اضحي بشيء كثير من اجل التسرية عنه •

ومع اني اطفأت الان شمعتي واضطجعت في سريري فاني لم استطع ان انام : كنت ابدا افكر في الانطباعة التي غلبت على وجهه عندما كف عن السير في الممر الذي اكتنفته الاشجار وراح يقصُّ كيف برز له قدَرُه وتحدّاه ان يجرؤ على التمتع بالسعادة في ثورنفيلد •

وسألت نفسي : « لم لا ؟ ما الذي ينفّره من القصر ؟ هل يعتزم مغادرته كرة اخرى ، عما قريب ؟ لقد قالت مسز فيرفاكس انه نادرا ما لبث فيه اكثر من اسبوعين على نحو متصل ، وها قد سلخ الان فيه ثمانية اسابيع متعاقبات• ولو قد غادره اذن لكان التغير محزنا• ولنفرض

ان غيبته عنه استغرقت شهور الربيع والصيف والخريف كلها •• ان اشعة الشمس والايام المشرقة خليق بها عندئذ ان تبدو كئيبة الى ابعد الحدود ! »

ولست ادري على وجه التحقيق هل وفقــت الى الغمض بعــد هــذه التأملات ام لا ؟ وعلي اية حال فقد استيقظت مجفلة لـدن سمــاعي غمغمة مبهمة ، همهمة غريبة مأتمية ، انبعثت ــ في ما بدا لي ــ من فوقي مباشرة • وتمنيت لو لم اطفىء شمعتي : فقد كان الليل حالكا على نحو موحش ، وكنت منقبضة النفس كاسفة البال • فاستويت جالســة في سريري ، وانشــأت اصغي • كان الصوت قد خُنِق •

وحاولت ان استسلم للرقاد كرة اخرى • ولكن فؤادي راح يخفق خفقانا يمور بالقلق والحصر النفسي : كان سكوني الباطني قد تحطم • وبعيدا في ردهة الدور الاسفل دقت ساعة الحائط الثانية بعد نصف الليل • وفي تلك اللحظة بدا لي وكأن شيئا قد مسَّ باب حجرتي •••• وكأن اصابع قد لامست الواحه وهي تتحسس سبيلها في الرواق المظلم • وقلت : « من هناك ؟ » فلم يجبني احد • وسرت في اوصالي رعدة من خوف •

وفجأة تذكرت انه قد يكون بايلوت الذي كان من دأبه ان يتخذ سبيله الى عتبة حجرة مستر روتشيستر كلما شــاءت المصادفة ان يترك باب المطبخ مفتوحا • وكنت قد رأيته بعيني رأسي ، غير مرة ، مضطجعــا هنــاك حتى الصباح • وهدَّأت هذه الفكرة من روعي ، بعض الشيء ، فعاودت الاضطجاع • ان الصمت يريح الاعصاب ، فما ان هيمنــت على القصر كله ، كرة اخرى ، سكينة لا يعكر صفوها شيء ، حتى شرع النعاس يداعب جفوني • بيد انه كان مقدَّرا علي ان لا اعرف النوم في تلك الليلة ، فلم يكد يلمُّ بي حلم من الاحلام حتى فرَّ من بين يدي مذعورا ، وقد روعته حادثة يجمد لها مخ العظم •

لقد انطلقت في تلك اللحظة ضحكة مجنونة ــ ضحكة خفيضة مكظومة عميقة ، بدا لي وكأنها ارسلت عند ثقب باب حجرتي نفســه • وكان مقدَّم سريري على مقربة من البابَ ، فخيِّل الي بادىء الرأي ان الضاحك العفريتي واقف الى جانب سريري ، او على الاصح رابض عند وسادتي • ولكني نهضت من فراشي ، واجلت الطرف في ما حولي ، فلم استطع ان ارى شيئا • وفيما كنت احدق في الظلام تكرر الصوت الغريب ، ولقد عرفت انه انبعث من وراء الباب • فكان اول ما خطر لي ان افعله هو النهــوض لاحكــم ايصــاد الباب بالمزلاج ، ولاصيح بعد ذلك كرة اخرى : « مَن هناك ؟ »

وغمغم شيء ما ، وانَّ • وما هي الا لحظات حتى سمعت اقداما تنكفىء مرتدة على الرواق ، ماضية نحو سلم الدور الثالث • وكان القوم قد جعلوا لهذه السلم منذ فترة يسيرة بابا جديدا ، فسمعت هذا الباب يُفتح ثم يوصد ، ليعود السكون بعد ذلك فيهيمن على كل شيء •

وقلت في ذات نفسي : « اهي غرايس بول هذه المرة ايضا ؟ وهل ركبها شيطان ؟ »

ولم يعد في ميسوري البقاء وحدي لحظة اخرى : ان علي ان افزع الى مسز فيرفاكس • وسارعت الى ارتداء فستاني ، واتشحت بشال ، ورفعت رتاج الباب بيدٍ مرتعشة • كانت ثمة شمعة تحترق عند باب حجرتي مباشرة ، فوق بساط الرواق • وادهشتني هذه الواقعة ، ولكن الذي اذهلني اكثر اني وجدت الهواء كدرا وكأنما مليء دخانا • وفيما كنت انظر يمنة ويسرة ، لاكتشف مصدر هذه السحائب الزرق ، استروحت رائحة حريق قوية •

وصرَّ شيء ما : لقد فُتح باب نصف فتحة • وكان ذلك الباب هو باب حجرة مستر روتشيستر ، ومن هناك انبعث الدخان مثل سحابة كثيفة • ولم اعد افكر لا في مسز فيرفاكس ، ولا في غرايس بول ، ولا في الضحكة • وما هي الا لحظة حتى امسيت داخل الحجرة : كانت السنة من اللهب تندلع حول السرير ، وكانت السجف تشتعل • وفي وسط اللهب والدخان اضطجع مستر روتشيستر ، في غير ما حراك ، مستغرقا في نوم عميق •

وصحت : « افق ! افق ! » ورحت اهزه ، ولكنه لم يزد على اَن غمغم وانقلب على جنبه الاخر • كان الدخان قد خدَّره • ولم يكن في الامكان اضاعة دقيقة واحدة : كانت اغطية الفراش نفسها تحترق • واندفعت الى حوض مستر روتشيستر وابريقه • وكان احدهما ـ لحسن الطالع ـ واسعا ، وكان الاخر عميقا ، وكان كل منهما مليئا ماءً • ورفعتهما عاليا ، وغمرت السرير والمضطجع فيه بمحتوياتهما ، وانطلقت راجعة الى حجرتي ، فجئت بابريقي ، فنضحت الفراش بالماء كرة اخرى ، ووفقت بعون من الله الى اخماد اللهب الذي كان يلتهمه •

وكان في حسيس النار المخمدة ، وانكسار ابريق كنت قد طرحته على الارض بعد ان افرغته من الماء ، وبخاصة رشاش المسحاح (الدوش) الذي اغدقته عليه في سخاء بالغ ، اقول كان في ذلك كله ما ايقظ مستر روتشيستر اخر الامر • وعلى الرغم من الظلام الذي ساد الحجرة من جديد عرفتُ انه قد افاق ، اذ سمعته يُرعِدُ بلعنات غريبة بعد ان وجد نفسه غارقا في بركة ماء •

وصاح : « اهناك فيضان ؟ »

فأجبته : « لا ، يا سيدي • ولكن كان هناك حريق • انهض من فراشك ، انهض ، فانت الان مُغْرَق • سوف آتيك بشمعة » •

وسألني : « باسم جميع جنيَّات العالم المسيحي قولي لي : هل انت جين ايير ؟ ما الذي فعلته بي ايتها العرَّافة ، ايتها الساحرة ؟ مَنْ في غرفتي هذه غيرك ؟ هل ائتَمرت مع احد على اغراقي ؟ »

ـ « سوف آتيك بشمعة ، يا سيدي • ولكن انهض ، باسم السماء • لقد ائتمر بك شخص ما • وليس في مستطاعك ان تكتشف من الذي بيَّت هذه المكيدة وما حقيقتها قبل ان يرتدَّ اليك طرفك » •

ـ « ها انا ذا قد نهضت • ولكن اتيانك بالشمعة قد يعرضك للخطر • انتظري دقيقتين ريثما اجد بعض الملابس الجافة ، ان كان لا يزال ثمة ملابس

جافة ـ اجل هو ذا مبذلي * اركضي الان ! »

وركضت فعلا . وجئته بالشمعة التي كانت ما تزال في الرواق . فتنقاها من يدي ، ورفعها الى اعلى ، وراح يتأمل الفراش ـ وقد امسى كله اسود مسفوعا ـ واغطيته وقد ابتلت ، والبساط وقد سبح في الماء .

وتساءل : « ما هذا ؟ ومن الذي اقدم على ذلك ؟ »

فقصصت عليه ، في ايجاز ، ما عرفته عن المسألة : الضحكة الغريبة التي سمعتها تدوي في الرواق ، والخطى المصعّدة الى الدور الثالث ، والدخان ـ ورائحة الحريق التي ساقتني الى حجرته ، وفي اية حالة وجدتها آنذاك ، وكيف اغرقته بكل ما كان في متناولي من الماء .

واصغى في رزانة بالغة . وعبرت انطباعات وجهه وانا ماضية في الرواية ، عن القلق بأكثر مما عبّرت عن الدهش . حتى اذا بلغت خاتمة قصتي لم يبادر الى الكلام مؤثرا الاعتصام بالصمت .

فسألته : « هل ادعو مسز فيرفاكس ؟ »

ـ « مسز فيرفاكس ؟ لا . ولم تريدين ان تدعيها ، بحق الشيطان ؟ ما الذي تستطيع ان تفعله ؟ دعيها ترقد في سلام » .

ـ « اذن فسوف ادعو « ليبيا » واوقظ جون وزوجته » .

ـ « لا ، ابدا . كل ما عليك ان تفعليه هو التزام الهدوء . هل تتشحين بشال ؟ اذا كنت لا تستشعرين الدفء على نحو كاف ففي ميسورك ان تأخذي معطفي الذي هناك ، وان تتزملي به ، وتستوي على الكرسي ذي الذراعين . سوف البسك اياه بنفسي ، والان ضعي قدميك على الكرسي الخفيض لكي تقصيهما عن الماء . ولسوف افارقك بضع دقائق . سوف آخذ الشمعة . فابقي حيث انت ريثما اعود ، الزمي الهدوء مثل فأرة . ان علي ان اقوم بزيارة الى الدور الثالث . لا تنسي ان من واجبك ان لا تتحركي ، وان لا تنادي احدا » .

ومضى لسبيله ، وراقبت ضوء الشمعة وهو يبتعد . لقد اجتاز الرواق في رفق بالغ ، وفتح باب السلم محدثا اقل ضجة ممكنة ، ثم اوصده خلفه ، وعندئذ تلاشى اخر شعاع من اشعة الشمعة . لقد غودرت الان في ظلام كلي . واصغيت التماسا لصوت ما ، ولكنني لم اسمع اي شيء . وانقضت فترة طويلة . وشرع السأم يستبدُّ بي . واحسست بالبرد ، على الرغم من المعطف الذي تدثرت به . والى هذا فاني لم ار اي فائدة ترتجى من البقاء بعد ان حُظّر علي ايقاظ احد من اهل القصر . وكنت على وشك ان اخاطر فاغضب مستر روتشيستر ، من طريق التمرد على اوامره ، عندما بصرت بالضوء يومض على جدار الرواق كرة اخرى ، وسمعت قدميه الحافيتين تطآن البساط . فقلت في ذات نفسي : « ارجو ان يكون هو ، لا شيئا اسوأ » .

---

* robe de chambre او dressing-gown

ودخل الحجرة ، شاحب الوجه شديد الاكتئاب ، وقال واضعا شمعته على المغسلة الخشبية : « لقد اكتشفت الامر كله • انه كما قدَّرتُ تماما » •

ـ « كيف ذلك ، يا سيدي ؟ »

فلم ينبس بجواب ، بل وقف متصالب الذراعين ، محدقا الى الارض • حتى اذا انقضت دقائق معدودات سألني في جَرْس هو الى الغرابة اميل : « اريد ان اسألك ••• هل قلت لي انك رأيت شيئا ما عندما فتحت باب حجرتك ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي • انا لم ار الا الشمعة على الارض » •

ـ « ولكنك سمعت ضحكة غريبة ؟ ولقد سمعت هذه الضحكة نفسها من قبل . في ما يخيل الي ، او شيئا مثل ذلك ؟ »

ـ « اجل ، يا سيدي • ان ثمة امرأة تخيط هنا ، تدعى غرايس بول••• وهي تضحك على هذا النحو • انها امرأة غريبة الاطوار » •

ـ « تماما • انها غرايس بول •• لقد صدق حدسك • وهي كما تقولين ، غريبة الاطوار ••• غريبة الاطوار الى حد بعيد • حسنا ، سوف افكر في المسألة • وفي غضون ذلك يسعدني ان تكوني الشخص الوحيد ـ بالاضافة الي ـ المطلع على التفاصيل الدقيقة لما حدث الليلة • وانت لست مهذارة بلهاء ، فلا تقولي ايما كلمة عن ذلك • ولسوف اشرح لك بنفسي كيف حدث هذا » (واشار الى السرير) : « والان ارجعي الى حجرتك • ولسوف ارقد بقية الليل ـ في غير انزعاج ـ على الاريكة التي في حجرة المكتبة • كادت الساعة ان تصبح الرابعة ••• وبعد ساعتين يستيقظ الخدم » •

فقلت وانا اغادر الحجرة : « طابت ليلتك اذن ، يا سيدي » •

فبدت عليه امارات الدهش ـ وكان في ذلك انقلاب مفاجىء ، لانه كان قد طلب الي ، منذ لحظة ، ان انصرف •

وهتف : « ماذا ؟ اتتركينني في الحال ، وعلى هذا النحو ؟ »

ـ « ولكنك انت قلت لي ان في استطاعتي ان اذهب ، يا سيدي » •

ـ « اجل ، ولكن ليس من غير استئذان ، ليس من غير كلمة او كلمتين اوجههما اليك عرفانا للجميل وتعبيرا عن الاخلاص والمودة • وبكلمة موجزة ، ليس بهذه الطريقة الجافة • كيف ؟ لقد انقذت حياتي !••• انتشلتني من موت مبرّح رهيب ! ومع ذلك فانت تمرين بي وكأننا غريبان ! صافحيني على الاقل » •

وبسط يده الي ، فبسطت يدي بدوري • فتلقاها بادىء الامر باحدى يديه ، ثم بالاثنتين معا ، وقال : « لقد انقذت حياتي • واني لسعيد بأن اكون مدينا لك بهذا الدين العظيم • انا لا استطيع ان اقول اكثر من هذا • وما كنت لاطيق ان يطوّق عنقي ايما شخص اخر في العالم كله بمثل هذه المنّة • ولكن الامر يختلف حين تكونين انت صاحبة اليد علي • ان فضلك هذا ليس بالعبء الذي يُنْقض ظهري ، يا جين » •

وصمت ، وانشأ يحدق الي • ورأيت ، او كدت ، بضع كلمات ترتعش على شفتيه ، ولكن صوته خانه فلم ينطق بها •

– « طابت ليلتك كرة اخرى ، يا سيدي • ليس ثمة اي دين ، او منة ، او فضل ، او عبء في هذه المسألة » •

وتابع يقول : « كنت واثقا انك سوف تسدين الي يدا ، على نحو ما ، وفي زمن ما • لقد قرأت ذلك في عينيك عندما رأيتك اول مرة • والواقع ان انطباعتهما وابتسامتهما لم توقعا (وهنا كفَّ عن الكلام كرة اخرى) اقول لم توقعا (ثم استأنف حديثه في سرعة) مثل هذه البهجة كلها في صميم فؤادي عبثا ولغير ما غرض • ان الناس يتحدثون عن التعاطف الطبيعي ، ولقد سمعت اشياء كثيرة عن « الجنيّ الصالح » ، وصدقيني اذا قلت ان ثمة بذور صدق في اغرب الاساطير والامثال الموضوعة على السنة الحيوانات • طابت ليلتك يا منقذتي العزيزة ! »

كان في صوته طاقة غريبة ، وكان في محيّاه نار" عجيبة •

وقلت : « انا سعيدة بأن تشاء المصادفة ان اكون مستيقظة عندما حدث ذلك » • ثم هممت بالانصراف •

فقال : « ماذا ؟ اتعتزمين الذهاب حقا ؟ »

– « اني احس بالبرد ، يا سيدي » •

– « البرد ؟ اجل ، وتقفين في بركة ! اذهبي، اذن ، يا جين ، اذهبي ! » ولكنه ظل متشبثا بيدي ، فلم يكن في ميسوري تحريرهـا • وخطر لي ان اتذرع بحجة ما فقلت :

– « يخيل الي اني اسمع مسز فيرفاكس تتحرك ، يا سيدي » •

فأرخى اصابعه وقال : « حسنا ، اذهبي ! » فمضيت لسبيلي •

وبلغت سريري ، ولكني لم افكر في النوم قط • لقد تقاذفني ، حتى مطلع الفجر ، بحر" تطفو الاجسام فيه ، ولكنه هائج – بحر" تلاطمت فيه امواج القلق العظام تحت أواذيّ البهجة • وخيل الي في بعض الاحيان اني لمحت وراء مياهه الثائرة شاطئا ، جميلا كهضاب فلسطين • وبين الفينة والفينـة كانت ريح منعشة توقظ أملي وتحمل روحي ، على نحو مظفَّر ، في اتجـاه الساحل • ولكني لم أوفق الى بلوغه ، حتى في الخيال : فقد هبت من ناحية اليابسة ريح معاكسة فهي تردني الى الوراء على نحو موصول • كان العقل يقاوم الهذيان ، وكانت الحكمة تكبح الهوى • واذ غلبت علـي هذه الحال المحمومة التي أقصت النوم عن عيني فقد رأيت ان انهـض من فراشي مع انبلاج الصباح •

١٦

وفي اليوم الذي تلا هذه الليلة الارقة تمنيت ان أرى مستر روتشيستر وخشيت أن اراه في آن معا • لقد تقت الى أن اسمع صوته كرة اخرى ، ومع

ذلك فقد خفت أن التقي عينه • وخلال ساعات الصباح الاولى كنت اتوقع مجيئه في كل لحظة • صحيح انه لم يكن من دأبه ان يزور حجرة الدرس ، ولكنه كان على أية حال يلم بها احيانا ليقضي معنا بَضع دقائق ، ولقد حدثني قلبي بأنه لا بد سيعرّج عليها ذلك اليوم •

ولكن الصباح تقضَّى كما يتقضَّى كلّ يوم، ولم يحدث ايما شيء يقطع على دروس آديل سياقها الهادىء • ولكني سمعت ، بعد فطور الصباح مباشرة ، جلبة ما في جوار حجرة مستر روتشيستر : سمعت صوت مسز فيرفاكس ، وصوت ليبيا،وصوت الطاهية ـأعني زوجة جونـ بل وصوت جون الاجش نفسه• لقد هتف بعضهم بقوله : « أية رحمة سماوية انقذت سيدنا من الموت احتراقا في فراشه ! » وهتف بعضهم الاخر بقوله : « انه لمن الخطر دائما ان يبقي المرء شمعة مضاءة طوال الليل » أو « أليس من توفيق العناية الالهية أن يكون من حضور البديهة بحيث يفكر في ابريق الماء ! » أو « الذي يدهشني انه لم يوقظ أحدا ! » أو « نرجو أن لا يصاب بالزكام نتيجة لنومه على أريكة حجرة المكتبة!» الخ •

ولقد عقب هذا الحديث الصاخب صوتُ تنظيف وترتيب • حتى اذا مررت بالحجرة ، في طريقي لتناول طعام الغداء في الدور الاسفل ، رأيت من خلال الباب المفتوح ان كل شيء قد أعيد الى وضعه النظـامي الكامل • كان السرير وحده لا يزال عاريا عن ستائره ، وكانت ليبيا منتصبة فوق « مقعد النافذة » تمسح الالواح الزجاجية التي غشاها الدخان • وكنت على وشك أن اخاطبها ، لاني كنت تواقة الى معرفة التفسير الذي أعطاه مستر روتشيستر للحادث ، ولكني رأيت ، وأنا اتقدم بضع خطوات ، شخصا اخر في الغرفة امرأة جالسة على كرسي قرب السرير ، تنجز خياطة بعض الستائر الجديدة وتزودها بحلقات • وكانت تلك المرأة هي غرايس بول بالذات •

لقد جلست هناك ، هادئة مقتصدة في الكلام ، كمألوف عادتها ، مرتدية ثوبها الاسمر ، ومئزرها ذا المربعات ، ومنديلها الابيض ، وقبعتها الصغيرة • كانت منكبة على عملها الذي بدا وكأنه استحوذ على تفكيرها كله • ولم يكن على جبينها القاسي وفي قسمات وجهها العادية لا شحوب ولا قنوط كاللذين يتوقع المرء أن يراهما غالبين على محيا امرأة حاولت القيام بجريمة قتل ، امرأة لحق بها مَنْ ارادته ان يكون ضحيتها حتى وجارِها واتهمها (كما خيل الي) بالجريمة التي شاءت ان ترتكبها • فدهشتُ ، ووقفت كالمأخوذة • لقد رفعت رأسها فيما كنت لا ازال احدق اليها : ان أيما اجفال او تضرج او شحوب مفاجئين لم ينمّ عن انفعال ، أو عن شعور بالاثم ، أو خوف من الانفضاح • لقد قالت لي : « صباح الخير ، أيتها الآنسة » بطريقتها المألوفة ، الموجزة ، الفاترة • ثم انها تناولت حلقة جديدة ومقدارا من الشريط اضافيا وواصلت خياطتها •

وقلت في نفسي : « سوف اخضعها لاختبار ما • ان مثل هذا الاستغلاق

المطلق ليمتنع على الفهم » .

فقلت : « صباح الخير ، يا غرايس . هل حدث ههنا شيء ؟ يخيل الي أني سمعت الخدم كلهم يتذاكرون منذ لحظات » .

ـ « كل ما في الامر ان سيدنا كان يطالع وهو مضطجع في فراشه الليلة البارحة ، فاستسلم للرقاد وشمعته مضاءة ، فاضطرمت النار في الستائر . ولكنه استيقظ ـ لحسن الطالع ـ قبل ان تمتد الى اغطية الفراش او الى الباب والنوافذ وما اليها من أشياء خشبية ، وكافح لاخماد النار بالماء الذي كان في الابريق » .

فقلت في صوت خفيض : « مسألة غريبة حقا ! » ثم حدّقت اليها وأضفت : « ألم يوقظ مستر روتشيستر أحدا ؟ ألم يسمع أحد الضجة ؟ » .

فرفعت عينيها الي كرة اخرى ، وهذه المرة كان فيهما شيء من الوعي . لقد بدت وكأنها تتفرس بي في حذر ، ثم أجابت قائلة : « الخدم ينامون في مكان بعيد جدا ، كما تعلمين ، يا مس ايير ، فليس من المحتمل ان يسمعوا . والواقع ان غرفة مسز فيرفاكس وغرفتك هما أقرب الغرف الى حجرة سيدنا ، ولكن مسز فيرفاكس قالت انها لم تسمع شيئا . ان الناس حين تتقدم بهم السن يصبح نومهم ثقيلا في اكثر الاحيان » . وكفّت عن الكلام ثم أضافت في ضرب من اللامبالاة المصطنعة ولكن في جرْس واضح ذي مغزى : « ولكنك فتاة غضة الاهاب ، يا آنسة ، ومن واجبي أن أقول انك من أصحاب النوم الخفيف ، فلعلك ان تكوني قد سمعت ضجة ما ؟ » .

فقلت خافضة صوتي لكي يتعذر سماعه على «ليبا» التي كانت لا تزال تصقل زجاج النوافذ : « بلى ، قد سمعت ، ولقد ظننت بادىء الامر ان مصدر الضجة هو بايلوت . ولكن بايلوت لا يستطيع أن يضحك ، وأنا واثقة من اني قد سمعت ضحكة ... ضحكة غريبة ايضا » .

فتناولت خيطا جديدا ، وأمرّته في عناية فوق قطعة من شمع ، ثم ادخلته في سمّ الابرة بيد غير مرتعشة ، ثم قالت في رباطة جأش كاملة : « من غير المحتمل ، في ما يخيل الي ، ان يضحك سيدنا ، يا آنسة ، حين يجد نفسه في مثل ذلك الوضع الخطر . لا ريب في أنك كنت تحلمين » .

فقلت في شيء من الحرارة ونفاذ الصبر ، ذلك بأن برودها النحاسي كان قد أثارني : « أنا لم أكن أحلم » .

فنظرت الي من جديد ، وبنفس تلك العين الواعية المتحرّية . ثم سألتني : « هل أعلمت سيدنا انك سمعت ضحكة ؟ » .

ـ « لم تتح لي فرصة التحدث اليه هذا الصباح » .

فسألتني كرة اخرى : « ألم يخطر لك أن تفتحي باب حجرتك وان تلقي نظرة على الرواق ؟ » .

لقد بدت وكأنها تستنطقني ، محاولة ان تنتزع مني بعض المعلومات من غير أن أدري . وخطر لي أنها اذا اكتشفت اني عرفت جريمتها او ارتبت

في أمرها فقد تنتقم مني ببعض مكائدها الخبيثة · من أجل ذلك وجدت من حسن الرأي أن آخذ حذري · فقلت : « على العـــكس · لقد اوصدت باب حجرتي بالرتاج » ·

ـ « واذن فليس من دأبك ان توصدي باب حجرتك بالرتاج ، كل ليلة ، قبل أن تأوي الى سريرك ؟ »

فقلت في ذات نفسي : « يا للشيطان ! انها تريد ان تستطلع عاداتي لكي يكون في ميسورها ان تضع خططها وفْقَها ! » وتغلب الحنق على الحكمة ، كرة اخرى ، فأجبتها في حدة : « كنت حتى الان كثيرا ما لا اوصد باب حجرتي بالرتاج اذ لم أكن لاظن ان ذلك ضروري · كنت خالية الذهن من وجود أيما خطر او ازعاج يتعين على المرء ان يخشاه في قصر ثورنفيلد · أما في المستقبل (وهنا وضعت توكيدا واضحا على كل كلمة) فسوف أعنى عناية بالغة بالاخذ بأسباب السلامة والامن قبل ان اغامر وآوي الى الفراش » ·

فكان جوابها : « مثل هذا الصنيع خليق" به أن يكون حكيما · ان هذه البقعة هي أشد البقاع التي اعرفها سكينة وهدوءا ، ولم أسمع قط ان اللصوص حاولوا اقتحام القصر منذ أن نزلته الاسرة ، على الرغم من ان خزانة الاطباق تشتمل على آنية تساوي مئات الجنيهات ، كما يعلم الناس جميعا · ثم انك ترين ان هذا البيت الكبير لا يضم غير عدد من الخدم يسير جدا ، لان سيدنا لم يطل في أيما يوم من الايام اقامته في هذه الربوع ، وحتى لو جاء ذات يوم فانه لا يحتاج الى كبير خدمة ، لانه أعزب · ولكني من القائلين دائما بوجوب الاخذ بالاحْوَط · فليس ايصاد الباب بالرتاج بالامر العسير ، ومن الخير أن يقيم المرء حاجزا من حديد بينه وبين أيما شر قد يحيط به · ان كثيرا من الناس ، يا آنسة ، يتكلون على العناية الالهية في كل شيء ، ولكني أقول ان العناية الالهية لا تُحِلُّ المرء من واجب العمل واصطناع مختلف الوسائل ، وانها كثيرا ما تباركَها حين تَصْطنع في حكمة » · وهنا ختمت خطبتها ، وكانت خطبة مسهبة بالنسبة اليها ، وهي المرأة المؤثرة للصمت ، ولقد القتها بمثل رصانة سيدة من طائفة « الكويكرز » المتزمتة ·

وكنت لا أزال واقفة وقد استبد بي الانشداه لِما بدا لي انه رباطة جأش أعجوبية من جانبها ورياء ممتنع على التفسير عندما دخلت الطاهية وقالت موجهة كلامها الى غرايس : « مسز بول ، ان غداء الخدم سوف يصبح جاهزا بعد لحظات ، فهل لك ان تهبطي الى الطابق الاسفل ؟ »

ـ « لا · ليس عليك الا ان تضعي كأسا من الجعة وقطعة من الحلوى على صينية ولسوف احملها الى الطابق الاعلى » ·

ـ « الا تريدين شيئا من لحم ؟ »

ـ « حسبي قطعةصغيرة ليس غير ، وقليل من الجبن » ·

ـ « والساغ * ؟

---

* Sago مادة غذائية نشوية مستمدة من لباب ضروب النخيل المعروفة في جزر الملايو وغيرها وهي تصطنع في تحضير الحلوى · (المعرب)

ـ « في الامكان صرف النظر عن هذا مؤقتا • ولسوف أهبط الى الطابق الارضي قبل موعد الشاي ، وعندئذ أعيدّه بنفسي » •

وهنا التفتت الطاهية الي ، قائلة ان مسز فيرفاكس كانت تنتظرني • وهكذا انصرفت •

وخلال تناول الغداء لم أكد اسمع شيئا من رواية مسز فيرفاكس عن احتراق الستارة ، فقد كنت في شُغْل شاغل عن ذلك أحاول ان احلل شخصية غرايس بول الملغَزة واحل معمياتها ، وكنت في شغُل أشْغل أحاول ان انفذ الى حقيقة مركزها المبهم في ثورنفيلد ، وأتساءل لماذا لم يُزجَّ بها في السجن ذلك الصباح ، أو على الاقل لماذا لم تسرَّح من خدمة سيدها ؟ لقد أعلن ، أو كاد ، في الليلة البارحة ، ايمانه بأنها هي التي ارتكبت تلك الجريمة، فلأي سبب خفي أمسَك عن اتهامها ؟ ولماذا أوصاني أنا أيضا بالكتمان ؟ لقد كان ذلك أمرا عجبا :سيد جريء حقود متعال يبدو خاضعا بطريقة ما لسلطان واحدة من أحقر خدمه ، خاضعا لسلطانها الى درجة جعلته ، حتى عندما رفعت يدها لتورده موارد الهلاك ، لا يجرؤ على اتهامها في صراحة بالقيام بمثل هذه المحاولة ، بَلْه معاقبتها من اجل ذلك •

ولو قد كانت غرايس ناضرة العود بهية الطلعة اذن لاغريْتُ بالاعتقاد بأن مشاعر أرق ، من الحكمة او الخوف قد راودت مستر روتشيستر وشفعت لها عنده • ولكن مثل هذه الفكرة ما كانت لتجد قبولا لدي لما اعرفه من بشاعة وجهها ومن تقدمها نحو الكهولة • وقلت في ذات نفسي : « ومع ذلـــك فقد كانت غضة الاهاب في يوم من الايام ، ولا ريب في ان شبابها قد عاصر شباب سيدها • ولقد اخبرتني مسز فيرفاكس مرة انها تقيم هنا ، في القصر ، منذ سنوات عديدة • أنا لا أحسب انه كان في ميسورها في أيما يوم ان تكون جميلة ، ولكني اعلم على أية حال انها ربما ملكت من الاصالة وقوة الشخصية ما عوَّضها عن الجمال • ومستر روتشيستر من هواة اولي الحزم وأصحــاب الاطوار الغريبة ، وغرايس غريبة الاطوار ، على الاقل • أليس جائزا أن تكون أحدى النزوات السالفة (وهو شيء غير مستبعد البتة على طبيعة تتَّسم بالفجائية والعناد) قد اسلمته الى نفوذها ، فهي تتمتــع الان بسلطان على اعماله خفي ـ نتيجة لطيشه هو ـ لا قِبَل له بزعزعته ولا يجسر على اغفاله ؟ ـ ولكن ما ان بلغتُ من الحدس هذه النقطة بالذات حتى تمثل لي شخص مسز بول المربّع الذي تعوزه الحيوية ، ووجهها البشع الجافّ الجلف تمثلا واضحا الى درجة جعلتني أقول في ذات نفسي : « لا • مستحيل • ان افتراضي لا يمكن ان يكون صحيحا • ومع ذلك ، » (هكذا حدثني الصوت الخفي الذي يخاطبنا في افئدتنا) « **فأنت** أيضا غير جميلة ، ومن يدري فلعــل مستر روتشيستر يستلطفك ، وعلى أيَة حال فقد استشعرت في كثير من الاحيان انه يفعل ذلك فعلا • والليلة البارحة •• تذكري كلماته : تذكري نظرته •• تذكري صوته !»

وتذكرت ذلك كله في وضوح ، وفي الحال انبعثت لغته ولمحتهُ وجَرْسه

في ذهني انبعاثا يمور بالحياة • وكنت الان في حجرة الدرس ، وكانت آديل ترسم • فانحنيتُ فوقها ورحت اسدّد خطى قلمها ، فرفعت نظرها الي في ضرب من الاجفال • وقالت بالفرنسية : « ما بالك ، يا آنسة ؟ ان اصابعك ترتعش كالورقة ، وأن خديك أحمران •• ولكنهما احمران مثل حبات كرز ! »

فقلت : « اني محرورة ، يا آديل ، بسبب انحنائي فوقك ! » فمضت هي في رسمها ومضيت أنا في تفكيري •

وسارعت الى تحرير ذهني من الفكرة البغيضة التي تكونت لدي في ما يتصل بغرايس بول : لقد اثارت تلك الفكرة اشمئزازي • وقارنت ما بيني وبينها ، فوجدتُ اننا مختلفتان • كانت بيسي ليفن قد قالت اني سيدة بكل ما في الكلمة من معنى • ولقد نطقَتْ بالصدق : كنت سيدة حقا • واني لأبدو الآن خيرا مما كنت حين رأتني بيسي بكثير • كنت أشد توردُا وأكثر بضاضة ، وكنت أحفل بالحياة وبالحيوية ، اذ كانت آمالي اعظم اشراقا وكانت مباهجي أبعد عمقا •

وقلت لنفسي ، فيما كنت اتطلع نحو النافذة : « هو ذا المساء يدنو ، ولمّا أسمَعْ صوت مستر روتشيستر أو وقع قدميه في القصر ، اليوم • ولكنني سوف أراه ، من غير ريب ، قبل أن يهبط الليل : لقد خشيت لقاءه صباحا ، وها أنا أتوق الى ذلك ، لان تطاول الخيبة وتكررها احالا التوقع الى نفاد صبر » •

وحين رانَ الغسق فعلا ، وحين فارقتني آديل لتذهب وتلعب في حجرة الاطفال مع «صوفي» تلهفت الى ذلك اللقاء أقصى ما يكون التلهف • لقد أرهفت اذني لكي أسمع الجرس يرن في الدور الاسفل ، وأرهفتها لكي اسمع وقع خطى «ليا» مقبلة نحوي ابتغاء دعوتي الى النزول ، وتخيلت ، أحيانا ، اني سمعت وقع خطى مستر روتشيستر نفسه فكنت التفت الى الباب متوقعة ان يُفْتح مُدْخلا اياه علي • ولكن الباب ظل موصدا : ان الظلمة وحدها هي التي دخلت من خلال النافذة • ومع ذلك فان الاوان لم يكن قد فات ، فكثيرا ما أرسل في طلبي في الساعة السابعة او الثامنة ، وكانت الساعة الان لا تعدو السادسة • وليس من ريب في أن آمالي لن تخيب على نحو كلي في هذه الليلة التي تزخر فيها جعبتي بأشياء كثيرة اريد ان اقولها له ! لقد أردت أيضا ان أثير موضوع غرايس بول ، وأن اسمع الى رأيه فيه • أردت أن أسأله في صراحة أيؤمن حقا بأنها هي التي قامت بمحاولة البارحة الشنيعة ، واذا كان ذلك كذلك فلماذا أبقى خبائثها سرا من الاسرار • ولم أجد كبير بأس في أن يؤدي فضولي هذا الى اثارته ، اذ كنت أعرف متعة أغضابه واسترضائه على التوالي ، وكانت تلك المتعة مصدر ابتهاجي الاعظم ، ولقد كانت تعصمني ، دائما ، من الذهاب في ذلك الى أبعد مما ينبغي غريزة واثقة من نفسها • أنا لم أغامر قط بتخطي حد الاثارة ، وكان يطيب لي كثيرا ان اختبر براعتي عند شفيرها الاقصى • والواقع انه كان من دأبي ان اراعي في مثل هذه المواقف ادق مظاهر الاحترام ،

وضروب اللياقات التي يفرضها علي مركزي ، وبذلك استطعت ، في غير ما خوف من كبحٍ قلِق ، أن اقارعه الحجة بالحجة • وكان هذا يلائمه ويلائمني في وقت معا •

وصرّت خطى ، على السلم ، آخر الامر • وبرزت « ليبيا » ، ولــكن لتجتزىء بالقول ان الشاي جاهز في حجــرة مسز فيرفاكس • فقصدت الى هناك ، سعيدة على الاقل بالنزول الى الدور الارضي • ذلك بأن هــذا كان يجعلني ، في مــا خُيِّل لي ، أقرب الى شخص مستر روتشيستر •

وقالت السيدة الصالحة عندما دخلت عليها : « لا ريب في انك بحاجة ماسة الى تناول الشاي ، فأنت لم تأكلي عند الغداء الا قليلا » • وصمتت لحظة ثم أضافت : « انا أخشى ان تكون وعكة" ما قد ألمت بكِ : اني اراكِ محمومة يشيع الدم في وجهك » •

ــ « اوه ، انا في صحة جيدة ! بل ان صحتي لم تكــن في ايما وقت مثلها اليوم » •

ــ « يتعين عليك اذن ان تثبتي ذلك بالتكشف عن شهوة قوية الى الطعام • فهل لك ان تملأي وعاء الشاي ريثما انجز حبكي ؟ »

حتى اذا انجزته نهضتْ لتنزل مصراع النافذة الذي كانت قد رفعته من قبل لكي تفيد ، في ما احسب ، اكثر ما تكون الافادة من ضوء النهار ، على الرغم من ان الغسق كان يغذّ الخطى ، الان . نحو الظلمة الكاملة •

وقالت ناظرةً من خلال زجاج النافذة : الجو جميل الليلة ، على الرغم من ان السماء عاطلة من النجوم • وعلى الجملــة فقــد واتى الحظ مستر روتشيستر بيوم ملائم لرحلته » •

ــ « رحلة ! ••• هل ذهب مستر روتشيستر الى مكان ما ؟ انا ما كنت اعلم انه قد غادر القصر ؟ »

ــ « اوه ، لقد انطلق بُعَيْد طعام الصباح مبــاشرة ! لقد ذهــب الى « ليييس » ، حيث يقوم قصر مستر ايشتون ، على مبعدة عشرة اميال من جانب ميلكوت الاخر • واحسب ان ثمة اجتماعا حاشدا سيلتقي فيه اللورد اينغرام ، والسير جورج لين ، والكولونيل دينت وغيرهم ••• »

ــ « وهل تتوقعين ان يعود الليلة ؟ »

ــ « لا • حتى ولا غدا ايضا • والذي اعتقده انه سوف يلبث هناك ، في اغلب الظن ، اسبوعا او اكثر • ذلك بان هؤلاء القوم البارزيــن المترفين اذا اجتمع شملهم وجدوا انفسهم محاطين بكل ما هو انيق بهيج ، مزودين بكل ما يرضي ويسلّي الى درجة تجعلهم لا يتعجلون تشتّت الشمــل • وكثيرا ما يُلتمس حضور الرجال ، بصفة خاصــة ، في هــذه المناسبــات ، ومستر روتشيستر يتكشف في دنيا المجتمع عن موهبة بارعة وحيوية زاخرة تجعلانه ، في ما اعتقد ، موضع الايثار العام • ان السيدات جد مولعات به ، وان لم يكن في مظهره ما يوحي بأنه مؤهل لانتزاع اعجابهن على نحو مخصوص • ولكني

احسب ان ثقافته وكفاءاته ، وربما ثروته وشرف نسبه ، تعوضه عن ايما هَنَةٍ يسيرة في المظهر » ٠

ـ « وهل في ليبيس سيدات ؟ »

ـ « هناك مسز ايشتون وبناتها الثلاث ، وهن في الحق فتيات انيقات جدا ٠ وهناك النبيلتان بلانش وماري اينغرام وهما في ما اعتقد على جمالٍ لا يُضارَع ٠ والواقع اني رأيت بلانش ، منذ ست سنوات او سبع ، يوم كانت فتاة في الثامنة عشرة ٠ لقد وفدت الى هنا لتشهد حفلة راقصة من حفلات عيد الميلاد اقامها مستر روتشيستر ٠ وكم كنت اتمنى لو رأيت حجرة الطعام ذلك اليوم ، اذن لشهدت مبلغ غنى زخارفها ومدى تألق اضوائها ! ويخيل الي ان خمسين سيدة ورجلاً اجتمعوا هناك تلك الليلة ـ وكلهم من كبريات الاسر في الاقليم ، ولقد اعتُبرت مسز اينغرام نجم السهرة » ٠

ـ « تقولين ، يا مسز فيرفاكس ، انك رأيتها ٠ فهل لك ان تصفيها لي؟ »

ـ « اجل ، لقد رأيتها ٠ كانت ابواب حجرة الطعام مشرعة على مصاريعها ٠ واذ كنا نحتفل بعيد الميلاد فقد اجيز للخدم ان يجتمعوا في الردهة لكي يسمعوا الى بعض السيدات يتغنَّيْن ويعزفن ٠ ورغب الي مستر روتشيستر ان ادخل ، فانتحبت زاوية هادئة وقعدت اراقبهن ٠ انا لم اشهد ، عمري كله ، مشهدا افخم وابهى : كانت السيدات يرفلن بأروع الحلل ، ولقد بدت كثرتهن الكاثرة ـ او كثرة ذوات الشباب النضر منهن ـ وسيماتٍ بهيّات الطلعة ٠ ولكن مس اينغرام كانت نجم السهرة من غير ريب » ٠

ـ « ولكنك لم تصفيها لي ؟ »

ـ « كانت فارعة الطول ، جميلة الصدر ، منحدرة المنكبين ٠ وكان لها جيدٌ طويل رشيق ، وبشرة زيتونية سمراء صافية ، واسارير ترشح نبلا ، وعينان اشبه ما تكونان بعينيّ مستر روتشيستر : فهما واسعتان سوداوان متألقتان تألق جواهرها ٠ وكان لها شعر فاتن اسود كلون الغراب مسرَّح اليق تسريح وابدعه ، فهو يتدلى خلفها تاجا من غدائر اثيثة ، وهو ينسدل امامها خُصَلا متجعدة لم ار في حياتي قط اطول منها ولا اشد صقالا ٠ كانت ترفل في حلة بيضاء ناصعة ، وقد ألقت على كتفها وعبر صدرها وشاحا كهرماني اللون ، عُقد عند خصرها لتتدلى منه اطراف طويلة مُهَدَّبة الى ما تحت ركبتها ٠ وكانت تزين شعرها ايضا بزهرة كهرمانية اللون ، فهي تتغاير تغايرا رائعا مع خصل شعرها الفاحمة » ٠

ـ « ولقد حظيت ، طبعا ، بأعجاب من القوم عظيم ؟ »

ـ « اجل ، من غير ريب ٠ ولم يكن ذلك بحكم جمالها فحسب ، بل بحكم مواهبها ايضا ٠ كانت احدى السيدات اللواتي انشدن ، ولقد صاحبها على البيان سيدٌ من المدعوين ٠ ولقد شاركها مستر روتشيستر نفسه في اداء احدى الاغنيات الثنائية ايضا » ٠

ـ « مستر روتشيستر ؟ انا لم اكن اعرف انه يجيد الغناء » ٠

ـ « اوه ، ان له صوتا جهيرا رائعا ، وذائقة موسيقية ممتازة » ٠
ـ « ومس اينغرام ، من اي ضرب من الاصوات صوتها ؟ »
ـ « انه صوت غنيّ جدا ، قوي جدا ٠ لقد غنت على نحو فاتن ، وكان الاصغاء اليها متعةً من المتع ٠ ثم انها راحت تعزف على البيان ، بعد ذلك ٠ انا لا احسن الحكم على الاداء الموسيقي ، ولكن مستر روتشيستر يحسن ذلك ٠ ولقد سمعتُه يقول ان اداءها كان رائعا » ٠
ـ « وهذه السيدة الجميلة الرفيعة الثقافة لما تتزوج بعد ؟ »
ـ « يبدو انها لم تفعل ٠ ويخيل الي انها واختها لا تملكان ثروة كبيرة ٠ فقد جُعلت ممتلكات اللورد اينغرام الكبير وقفا على وريث واحد ، هو ولده البكر الذَي فاز بالثروة كلها تقريبا » ٠
ـ « ولكني اتساءل ، في كثير من العجب ، لماذا لم يولع بها ايما نبيل ثريٍّ ، او ايما سيد ماجد غني ٠٠٠ مستر روتشيستر مثلا ٠ انه رجل موسر ، اليس كذلك ؟ »
ـ « اوه ، طبعا ، ولكن ثمة ، كما ترين ، فارقا في العمر كبيرا ٠ ان مستر روتشيستر يكاد يبلغ الاربعين ، في حين انها لا تعدو الخامسة والعشرين » ٠
ـ « واي بأس في ذلك ؟ ان زيجات تتفاوت فيها اسنان العروسين تفاوتا اعظم لتُعقد كل يوم » ٠
ـ « هذا صحيح ٠ ومع ذلك ، فانا لا استطيع ان اتخيل ، الا بشق النفس ، ان مستر روتشيستر يمكن ان تراوده فكرة كهذه ٠ ولكنك لم تأكلي شيئا ، ولم يكد فمك يذوق طعم الشطائر ، منذ ان جلست الى مائدة الشاي » ٠
ـ « لا ، انا اشد ظمأ من ان ارغب في شيء من طعام ٠ فهل تسمحين لي بكوب اخر ؟ »
وكنت على وشك العودة الى احتمال زواج مستر روتشيستر من بلانش الحسناء ، ولكن آديل دخلت علينا في تلك اللحظة ، فحوُّل الحديث الى وجهة اخرى ٠
حتى اذا خلوت الى نفسي من جديد راجعت المعلومات التي كانت قد تمّت لي ، ونظرت الى قلبي ، فدرست فكراته واحاسيسه ، وحاولت ان الجُمَ، بيد صارمة ، ما شرد منها في فيافي الخيال اللامحدودة اللامطروقة ، واردّه الى حظيرة العقل السليم الآمنة ٠
ودعوت نفسي الى محكمة اقمتها بنفسي ، فأدلت الذاكرة بشهادتها متحدثة عن الآمال والرغبات والعواطف التي راودتني منذ الليلة البارحة ، وعن الحالة الذهنية العامة التي غلبت منذ اسبوعين اثنين تقريبا ٠ وتقدّم العقل فقص بطريقته الهادئة حكاية بسيطة غير مزوقة تظهر كيف رفضت الواقعي والتهمت المثل الاعلى في سرعة ؛ وعندئذ اصدرت حكمي بما معناه :
ـ ان سطح الارض لم يعرف قط مخلوقا اعظم حماقة من جين ايير ، وان

ايا من الحمقى ذوي المزاج الشاذ لم يُتْخم نفسه قط بالاكاذيب العذبة اكثر مما اتخمتْ نفسها ، ولم يتجرع السم وكأنه شراب الالهة اكثر مما تجرعَتْ ٠

قلت مخاطبة نفسي : « اتزعمين انك انت ، اجل انت ، اثيرة عند مستر روتشيستر ؟ اتحسبين انك قد وُهِبت القدرة على ارضائه ؟ اتتوهمين انك ذات اهمية لديه على نحو من الانحاء ؟ اغَربي عن وجهي ! ان حمـــاقتك تثير اشمئزازي ٠ ولقد استمددت البهجة من امارات ايثـــارٍ عَرَضية ــ امارات مبهمة يبديها سيد" شريف النَسب ، رجل واسع الخبرة بالحياة والنـــاس ، لمرؤوسة من مرؤوسيه، لفتاة غِرة ٠ كيف جرؤت على هذا؟ يا لك من مخدوعة بلهاء مسكينة ! ألم تستطع حتى مصلحتك الذاتية ان تجعلــك اكثر تعقــلا وحكمة ؟ لقد تمثلتِ في مخيلتك ، هذا الصباح ، مشهد البارحة الموجز ؟ ــ فاحجبي وجهك واحمَري خجلا ! لقد قال كلاما اطرى به عينيك ، اليس كذلك ؟ يا لك من مغرورة عمياء ! افتحي جفونك المغمّشة، وانظري الى حماقتك الملعونة! فغير مُجدٍ لاية امرأة ان يطريها سيدها او رئيسها ، الذي لا يستطيـــع ان ينتوي الزواج منها بأية حال ٠ وانه لجنون من جانب النساء جميعا ان يجزن للحب الخفي ان يضطرم في جوانحهن ، لانه ان لم يقابل بمثله او ظل مجهولا فلا بد ان يفترس الحياة التي تَغْذوه ، وان اكتُشِف وحظيَ باستجابة ما فلا بد ان يفضي ، مثل الوهج الاجَميّ * الى مفازاتَ موحلة لا سبيل الى النجاة منها ٠

« اسمعي ، اذن ، يا جين ايير الى الحكم الصادر في حقك : غدا ضعي المرأة امامك ، وارسمي صورتك بالطباشير في دقة بالغة ــ من غير ان تلطّفي ايما عيب ، او تحذفي اي سِرارٍ قاس مـــن اساريرك ، او تخففي اي عِوَجٍ مكدِّر ــ واكتبي تحتها : « رسم مربية ، متنافرة ، فقيرة ، بشعة » ٠

« وبعد ذلك خُذي قطعة من عاج ناعم ــ ان لديك واحدة مُحْضَرة في علبة الرسم ــ واخرجي لوحة الوانـــك ، وامزجي انضر الاصبـــاغ واروعها وازهاها ، واختاري ادق ريشة مصنوعة من وبر الابل ، وارسمي في عنـــاية الخطوط الكبرى لاجمل وجه تستطعين ان تتخيليه ، ثم اصطنعي ارقّ الوانك واعذب اصباغك ، وفقا لوصف مسز فيرفاكس لبـــلانش اينغرام : تذكَري حُلَيْقات الشعر الفاحمة ، والعينين الشرقيتين ٠ ماذا ؟ اتفكرين بان تتخذي من مستر روتشيستر نموذجا ؟! الزمي النظـام ! لا تشرقي بالبكاء ! اطرحي العاطفة ! اطرحي الاسف ! انا لن ارتضي غير العقل الراجح والعزيمة الصادقة٠ تذكَري الاسارير المبهمة ، ولكنِ المتنـــاغمة ، وتذكري عنـــق تمثال اغريقي وصدره ٠ اظهري الذراعين الملفوفتين اللتيـــن تبهران البصر ، واليـــدين الناعمتين ، ولاَ تغفلي الخاتم الماسي والسوار الذهبي ٠ وصوّري الثوب بدقة وصدق ، والتخريم الاثيري اللطيف ، والاطلس اللماع ، والوشاح الظريف ،

---

* ignis-fatuus : ضوء مضلل يتراءى فوق الاجمات في اثناء الليل ٠

والوردة الذهبية • ثم سمّي هذه الصورة : « بلانش ، سيدة كاملة نبيلة » •

« وكلما اتفق لك في المستقبل ان تتخيلي ان لمستر روتشيستر رأيا حسنا فيك اخرجي هاتين الصورتين واعقدي مقارنة بينهما • قولي لنفسك : « يستطيع مستر روتشيستر ، في اغلب الظن ، ان يظفر بحب هذه السيدة النبيلة اذا شاء السعي بسبيله ، فهل من المحتمل ان يضيع ذرة من تفكير جديّ على هذه المرأة العامية المعوِزة التافهة ؟ »

فعقدت العزم قائلة : « سوف افعل ! » حتى اذا اتخذت هذا القرار ، اطمأنت نفسي فاستسلمتُ للرقاد •

واوفيتُ بالوعد • ولم احتج الى غير ساعة او ساعتين لكي انجز رسم صورة لي بالطباشير • وفي اقل من اسبوعين كنت قد اتممت عمل صورة عاجية مصغَّرة لبلانش اينغرام خيالية • لقد بدت بهية الطلعة حقا ، حتى اذا قارنتُها بوجهي المرسوم بالطباشير الفَيت الفرق عظيما بقدر ما يحسُنُ بضبط النفس ان يشتهي • وافادتني هذه المهمة : كانت قد شغلت رأسي ويديَّ ، وكانت قد اضفتْ قوة وثباتا على الانطباعات الجديدة التي اردْتُ ان امهر بها فؤادي على نحو ليس يُمْحَى •

ولم ينقض طويل وقت حتى امسى في مستطاعي ان اهنىء نفسي على الانضباط السليم الذي اكرهتُ مشاعري على الخضوع له • وبفضل هذا الانضباط وُفّقت الى مواجهة الاحداث التالية في هدوء غير يسير ، وهي احداث كان خليقا بي ، لو انها فاجأتني على غير استعداد لها ، ان اعجز عن احتمالها ولو ظاهريا •

١٧

وتصرَّمت سبعة ايام ولم يصلنا اي نبأ عن مستر روتشيستر • وامست الايام السبعة اياما عشرة ولمّا يَعُدْ الى ثورنفيلد • وقالت مسز فيرفاكس انها لن تدهش اذا ما شخص من « ليييس » الى لندن مباشرة ، ومن ثم الى اوروبة القارية ، واذا لم يعد الى ثورنفيلد الا بعد انقضاء عام كامل ، فكثيرا ما كان يتفق له ان يغادر القصر على هذا النحو المفاجىء غير المتوقع • حتى اذا سمعت هذا الكلام شرعت استشعر رعشة غريبة واحسُ بأن قلبي قد غار • كنت في الواقع اجيز لنفسي ان تتجرع مرارة شعور بالخيبة يثير فيها تقززا واشمئزاز • ولكني سرعان ما حشدْتُ حواسي المشتتة ، واستحضرتُ مبادئي ، وبذلك سيطرت على مشاعري • ولقد كانت رائعة حقا تلك الغلبة التي تمَّت لي على الخطأ الفاضح الذي اوهمني ان تنقلات مستر روتشيستر مسألة من حقي ان اوليها اهتماما حيويا • وليس معنى ذلك اني جرحت كبريائي الذاتية من طريق الشعور بالدونيّة التي تساور نفوس الارقاء والعبيد • لا ، لقد اجتزأت ــ على عكس ذلك ــ بالقول :

ــ « ليس لكِ اي شأن بسيد ثورنفيلد يعدو تلقّيك الراتب الذي يقدمه

اليك مقابل تعليم البنت التي كفلها ، ويعـــدو شكره على اية معاملة كريمة محترمة قد يكون من حقك ان تتوقعيها منه اذا ما اديت واجبك اداء حسناً . وثقي ان هذه هي الرابطة الوحيدة التي يعترف هو جدّياً بانها تشده اليك . وهكذا يتعين عليك ان لا تجعليه موضوع مشاعرك الرقيقة . وموضوع افراحك واتراحك وما اليها . انه من طبقة غير طبقتـــك . فالزمي حدود طائفتـــك الاجتماعية . وليكن لديك من احترام الذات ما يعصمك من اغداق الحب الذي يغذوه القلب كله والروح كلها والقوة كلها على امرىء ليس يرغب في مثـل هذه الهِبَة ، ولا يقابلها بشيء غير الاحتقار » .

وواصلت اداء مهمتي اليومية في سكينة وهدوء ، ولكن فكرات مبهمة ظلت تراودني بين فينة واخرى وتوحي الي بضروب مـن الاسبـــاب التي تبرّر مغادرتي قصر ثورنفيلد . وعلى نحو غير ارادي ، رحت اتخيـل اشكالا مـن الاعلانات ، واستغرق في تخمينات متفاوتة حول وظائف جديدة قد تُسنَد لي في المستقبل . ولم ارَ ان واجبي يقتضيني كبح هذه الفكرات . فقـــد تفرخ وتنمو ، وقد يكون في ميسورها ان تؤتي اكُلها .

وكان قد انقضى على غياب مستر روتشيستر اكثر من اسبوعين عندما حمل البريد رسالة الى مسز فيرفاكس .

وقالت لي وهي تنظر الى العنوان : « انها من سيدنا . يخيَّل الي اننا سوف نعرف الان ما اذا كان لنا ان نتوقع عودته ام لا » .

وفيما كانت تفضُ الختم وتقرأ الرسالة في روية واهتمام مضيت في احتساء قهوتي (فقد كنا نتناول طعام الصباح) . كانت حارة ، ولقد عزوت الى هذه الواقعة توهجا ناريا شاع في وجهي على نحو مفاجىء . اما ارتعـاش يدي ، واهراقي على نحو غير ارادي نصـفَ محتويات فنجـــاني في صحنه الصغير فكانا شيئين لم احاول ان ابحث لهما عن تفسير .

وقالت مسز فيرفاكس وهي لا تزال ممسكة بالرسالة امام نظارتيها : « حسنا ، يتراءى لي في بعض الاحيان ان الهدوء يكتنـــف حياتنا اكثر مما ينبغي ، ولكني احسب اننا سوف نجد انفسنا الان في شغل شاغل ، طوال فترة قصيرة على الاقل » .

وقبل ان اجيز لنفسي ان اسألها ايضاحا عقدتُ رباط مئزر آديل الذي كان محلولا آنذاك . حتى اذا قدمتُ اليها كعكة اخرى ، وملأت كوبها بالحليب كرة ثانية ، قلت في فتور : « ليس من المحتمل ان يعود مستر روتشيستر عما قريب ، في ما احسب ؟ »

ـ « بل سيعود ... سيعود بعد ثلاثة ايام ، كمــا يقول . يعني يوم الخميس القادم . ولن يكون وحده ايضا . انا لا ادري عدد نبـلاء « ليييس » الذين سيفدون معه . انه يصدر اوامره باعداد حجرات النوم الفضلى جميعا ، وترتيب حجرة المكتبة وحجرات الاستقبال . ويطلب الي ان استعين بخـدم اضافيين من « فندق جورج » في ميلكوت ومن ايما مكان آخر قد اجدهم فيه .

ولسوف تصطَحبُ السيدات خادماتهن ، ويصطحب الرجال خدمهم ، وهكذا لن يبقى في القصر مقعد شاغر » .

قالت مسز فيرفاكس ذلك وازدردت فطور الصباح ازدرادا وغادرت الحجرة مسرعة لتشرع في القيام بهذه العمليات .

كانت الايام الثلاثة ، كما تنبأت مسز فيرفاكس ، غاصة بضروب الاعمال . وكنت قد حسبت ان حجرات ثورنفيلد كلها نظيفة حسنة الترتيب ، ولكن يظهر أني كنت مخطئة . فقد استعانت مسز فيرفاكس بثلاث نسوة اضافيات وعندئذ بدأت عملية فركٍ ومسح ، ونفض للغبار ، وغسل للاجزاء المدهونة من الحجرات ، وطَرْق للسجاد ، ونزع للوحات الفنية ثم تعليقها من جديد ، وصقل للمرايا والثريات ، واضرام للنار في حجرات النوم ، وتهوية لاغطية السُرُر ولحشايا الريش على مقربة من المواقد ، لم اشهد لها نظيرا لا من قبل ولا من بعد . وجُنَّت آديل فرحا ، وسط ذلك كله ، فكان الاستعداد لاستقبال الضيف ووشْكَ وصولهم قد هاجا في ذات نفسها نشوة روحية . كانت تطلب الى « صوفي » ان تفحص « زينتها » toilettes كلها ، كما كانت تدعو فساتينها ، وان تجدّد نضرة العتيق منها ، وتهوّي وترتب الجديد . اما هي فلم تأتِ اي عمل غير الوثب في الحجرات الامامية ، والقفز الى الاسرة وعنها، والاضطجاع على الحشايا وعلى المخدات والوسائد المركومة امام النيران الضخمة التي كانت تئز في المواقد . لقد احلَّتْ من واجباتها المدرسية ، بعد ان طلبت اليَّ مسز فيرفاكس ، في الحاح كثير ، ان اضع نفسي بتصرفها ، فكنت انفق ساعات النهار كلها في مخزن المؤن اساعدها واساعد الطاهية (او اعوقهما) ، متعلمةً كيف اصنع ضروب القَسْدَر * وفطائر الجبن والمعجنات الفرنسية ، واكتِّف الطيور قبل شيها ، وازخرف أطباق الحلوى وما اليها .

وكان وصول القوم متوقعا اصيل يوم الخميس في موعد العشاء ، اي في الساعة السادسة . وخلال الفترة التي فصلت ما بين وصول الرسالة ووصولهم لم اجد متسعا من الوقت للاستغراق في الاوهام والآمال الباطلة ، واحسب اني لم اكنِ اقل نشاطا وابتهاجا من ايما امرىء آخر — ما خلا آديل . ومع ذلك فقد كان مَرَحي يُكبح بين الفينة والفينة كبحا يُضعف من زخمه ، فاجد نفسي ، على الرغم مني ، وقد رُددْتُ الى دنيا الشكوكَ والنُذُر والظنون القاتمة . وانما المَّ بي ذلك عندما اتفق لي ان رأيت باب السلم المؤدي الى الدور الثالث (الذي كان موصدا ، في الفترة الاخيرة على نحو موصول) يُفتح في تؤدة ويبرز منه شخص غرايس بول بقبعتها الصغيرة البالغة النظافة ، ومئزرها الابيض ، ومنديلها ، وعندما رأيتها تنساب في الرواق في خطىً هادئة خنقت المشاية القماشية وقعها ، وعندما رأيتها تلقي نظرة على حجرات النوم الضاجة المقلوبة رأسا على عقب لكي تقول لاحدى الخادمات العاملات باجر يومي كلمة

---

* custard حلوى من السكر والبيض واللبن . (المعرب)

عن الطريقة الصحيحة في صقل موقد من المواقد ، او تنظيف رف مدفأة رخامي ، او ازالة البقع عن الجدران المغطاة بالورق المصور ، لتمضي بعد ذلك في سبيلها • كانت تهبط الى المطبخ مرة كل يوم ، وتتناول طعام عشائها ، وتدخن « بيبة » صغيرة على مقربة من المستوقد ، وتنقلب بعد ذلك ، حاملة كأس جعتها الدون ، الى حجرتها العلوية المظلمة حيث تنعم بالعزاء والسلوان • وكانت تقضي ساعة واحدة من ساعات اليوم الاربع والعشرين مع زميلاتها ، في الدور الارضي ، اما سائر وقتها فكانت تنفقه في حجرة سنديانية خفيضة السقف في الدور الثالث : هناك كانت تجلس وتخيط ـ ولعلها كانت تضحك بينها وبين نفسها ضحكتها الكئيبة الرهيبة ـ متوحدة كالسجين في زنزانته •

وكان اعجب ما في الامر كله ان ايما امرىء سواي من اهل القصر لم يلاحظ عاداتها ولم يبدُ وكأن هذه العادات كانت تثير دهشه • ان احدا منهم لم يتساءل عن مركزها او وظيفتها ، وان احدا لم يرثِ لتوحدها وعزلتها • وقد اتفق لي ذات مرة ان سمعت على غير قصد مني طرفا من حوار دار بين « ليبيا » واحدى الخادمات العاملات بأجر يومي ، حوار كانت غرايس هي موضوعه • كانت « ليبيا » تقول شيئا لم اوفق الى سماعه ، فعلقت الخادمة قائلة :

ـ « انها تنال راتبا حسنا ، في ما احسب ؟ »

فقالت « ليبيا » : « اجل ، واني لاتمنى لو كان لي مثل راتبها • وليس يعني هذا ان راتبي ضئيل وانني اشكو من هذه الضآلة • لا ، فليس في ثورنفيلد شحٌ البتة • ولكنه لا يبلغ خمس المبلغ الذي تناله مسز بول • وهي تدخر منه جزءا كبيرا • انها تذهب كل ثلاثة اشهر الى المصرف ، في ميلكوت • ولن اعجب اذا ما علمت انها ادخرت من المال مقدارا يمكنها من اعالة نفسها اذا ما آثرت التخلي عن وظيفتها • ولكني اعتقد انها الفت هذا العمل ، والى هذا فهي لما تبلغ الاربعين ، وهي قوية البنية قادرة على كل شيء • فلم يئن لها بعد ان تخلد الى الراحة وتطرح الوظيفة » •

فقالت الخادمة العاملة بأجر يومي : « يخيل الي انها تؤدي عملها في براعة » •

فقالت « ليبيا » بلهجة ذات مغزى : آه ، انها تفهم ما يتعين عليها ان تعمله ••• وتؤدي هذا العمل على نحو لا يضارع • ان احدا لا يستطيع ان يسد مسدها ، ولو تقاضى كامل الاجر الذي تفوز به • »

فكان الجواب : « آه ، من غير ريب • واني لاتساءل ما اذا كان رب القصر ••• »

كانت الخادمة اليومية ماضية في حديثها ، ولكن « ليبيا » التفتت في تلك اللحظة فلمحتني • فما كان منها الا ان نكزت رفيقتها بمرفقها داعية اياها الى الحذر •

وهنا سمعت المرأة تهمس : « اتجهل ذلك ؟ »

فهزت « ليبيا » رأسها ، وقَطع الحديث طبعا • وكانت حصيلتي منه لا تعدو ما يلي : ان في ثورنفيلد سرا غامضا ، واني اقصِيت ، على نحو متعمد ، عن النفاذ الى حقيقته •

واخيرا وافى يوم الخميس • كان العمل كله قد انجز في الليلة السابقة : لقد فُرِشت البُسط ، ووشُحت سُجف السُرر بضروب الزخارف ، ومدت الحفة بيضاء تبهر البصر ، ونسِّقت موائد الزينة ، وصُقل الرياش ، وملئت الزهريات بالرياحين ، وبدت الحجرات والابهاء ناضرة مشرقة الى اقصى حد تستطيع الايدي البشرية ان تبدعه • وبولـغ في تنظيـف الردهة ايضا ، وصُقلت ساعة الحائط الضخمة المزدانة بالنقـوش ، ودرجـات السلم ودرابزَونه ، صقلا جعلها في مثل لمعـان المرايـا • وفي حجرة الطعام كان « البوفيه » يومض متألقا بأدوات المائدة الفضية والذهبية ، وفي المقصـورة وقاعة الاستقبال اشرقت في كل ناحية كؤوس حافلة بضروب الزهور الدخيلة •

واقبل الاصيل ، فارتدت مسز فيرفاكس خير اثوابها ، وكان مخيطا من اطلس اسود ، وقفازها ، وساعتها ، فقد كانت هي المكلفة باستقبال الضيف الوافدين ، وبمرافقة السيدات الى حجراتهن ، الـخ • وارادت آديـل ايضا ان تأخذ زينتها ، مع اني اعتقدت بان امكانية دعوتها للاجتماع بالضيوف كانت ضئيلة في ذلك اليوم على الاقل • وأيا ما كان ، فلكي ادخل السرور على قلبها اجزت ـ « صوفي » ان تلبسها احد فساتينها القصيرة المصنوعة من موصلين • اما انا فلم اكن في حاجة الى اجراء اي تغيير في زينتي ، ذلك باني لن ادعى الى مغادرة حجرة الدرس او على الاصح مغادرة « مَقْدسي » ـ لان تلك الغرفة كانت قد اصبحت بمثابة المقْدس بالنسبة الي ـ « مَلاذ بهيج الى ابعد الحدود في زمن الشدة » •

كان يوما ربيعيا معتدلا رائقا ، وكان واحدا من الايام التي تشرق على الارض ـ في اواخر آذار (مارس) واوائل نيسان (ابريل) ـ لتبشر بوشْك قدوم الصيف • وجنحت الشمس الى الغروب ، ولكن المساء نفسه كان حارا ، فرحت اعمل في حجرة الدرس بعد ان تركت النافذة مفتوحة •

وسرعان ما دخلت علي مسز فيرفاكس ، وقـد احدث ثوبها الحريري حفيفا ، وقالت : « لقد تأخروا • ومن دواعي سروري اني اصدرت الامر بأن يكون العشاء مُعدا بعد ساعة كاملة من الميقات الذي عينه مستر روتشيستر ، لان الساعة تجاوزت السادسة الآن • ولقد طلبت الى جون ان يهبط الى بوابة القصر الخارجية ليرى هل في الطريق احد • ان في استطاعة المرء ان يرى من هناك الى مسافة بعيدة في اتجاه ميلكوت • » وهنا مضت الى النافذة وقالت : « حسنا ، جون » (واطلَّت منها) « ما وراءك ؟ »

فكان الجواب : « انهم قادمون يا سيدتي • ولسوف يصلون بعد عشر دقائق » •

وطارت آديل الى النافذة · وتبعتها في كثير من الحذر ، محاولة ان ابقى محجوبة خلف الستارة ، بحيث ارى من غير ان ارى ·

وبدت دقائق جون العشر طويلة جدا · ولكننا سمعنا آخر الامر دوران عجلات : لقد انطلق في طريق العربات فرسان اربعة ، وعلى اثرهم اقبلت عربتان مكشوفتان · كانت الخمر المرفرفة والريش المتموج تملأ العربتين ، وكان اثنان من الفرسان سيدين ماجدين في ميعة الصبا تبدو على وجهيهما امارات الجراءة والاقدام ، وكان الثالث هو مستر روتشيستر ممتطيا صهوة جواده الاسود « مسرور » ، وكان كلبه « بايلوت » يتواثب امامه · والى جانب مستر روتشيستر كانت سيدة على جواد ، وكان هو وهي في طليعة الركب · كان ثوبها الركوبي الارجواني يكاد يمس الارض ، وكان خمارها الطويل يتماوج مع النسيم ·· وكانت تمتزج بثنايا هذا الخمار الشفافة ، وتلتمع من خلالها ، حليقات شعر فاحمة ·

وهتفت مسز فيرفاكس « مس اينغرام ! » ثم هرعت الى الدور الاسفل لتقف موقف الاستقبال والترحيب ·

واستدار الركب ، متتبعا انحراف الطريق ، عند زاوية القصر ، ليغيب بعد ذلك عن ناظري · والتمست آديل مني ان اجيز لها الهبوط الى الدور الارضي ، ولكني اجلستها على ركبتي ، وافهمتها ان تنزع عن ذهنها كل فكرة قد تغريها بالظهور على مرأى من السيدات ، الان او في ايما وقت آخر ، الا اذا طلب اليها ذلك على نحو لا لبس فيه ، وان كل مخالفة لهذه التوصية خليق بها ان تغضب مستر روتشيستر اغضابا شديدا ، الخ · وسفحت آديل بعض العبرات العفوية لدن قلت لها ذلك ، حتى اذا بدت على محياي امارات الجد البالغ وافقت آخر الامر على كفكفتها ·

وضجت الان في الردهة ، جلبة بهيجة مسموعة · لقد تمازجت اصوات الرجال الخفيضة بنبرات السيدات الفضية تمازجا متناغما ، وقد تميز من بينها كلها ، وان لم يكن مرتفعا ، صوت سيد ثورنفيلد الجهوري وهو يرحب تحت سقف داره بضيفه من نسوة حسان ورجال اولي شهامة واقدام · ثم ان خطى خفيفة صعدت السلم ، وتردد في الرواق وقع اقدام رشيقة ، وضحكات رقيقة مرحة ، واصداء ابواب تفتح وتغلق · وبعد ذلك ساد الصمت فترة قصيرة ·

وقالت آديل بالفرنسية ، وهي التي كانت تصيخ الى ذلك في انتباه بالغ وتتابع كل حركة : « انهن يغيرن ثيابهن » واطلقت زفرة ·

ثم انها اضافت : « كان من دأبي ـ كلما وفد على ماما في بيتها بعض الضيوف ـ ان اتبعهم حيثما كانوا ، الى الصالون والى حجراتهم ، وكثيرا ما كنت ارى الوصائف يسرحن شعر السيدات ويلبسنهن فساتينهن · ولقد كان ذلك مسليا جدا ، ومفيدا جدا » ·

ـ « الا تشعرين بالجوع ، يا آديل ؟ »

« اجل ، ايتها الآنسة · فقد انقضت خمس ساعات او ست لم نطعم

خلالها شيئا ٠ »

ـ « حسنا ، اذن ٠ سوف احاول ، ما دامت السيدات في حجراتهن ان اهبط الى الدور الارضي وآتيك بشيء تأكلينه ٠ »

قلت ذلك وغادرت مَفْزعي في حذر ، واتجهت نحو سلم خلفي يفضي الى المطبخ مباشرة ٠ كان كل ما في تلك البقعة نارا وهرجا ومرجا ٠ كان اعداد الحساء والسمك على وشك الاكتمال ، وكانت الطاهية منحنية فوق قدورها في وضع ذهني وجسدي ينذر بانفجار تلقائي ٠ وفي حجرة الخدم وقف حوذيّان وثلاثة مرافقين حول النار او قعدوا على مقربة منها ٠ اما « الاماء » فكن ، على ما خيل الي ، في الطابق الاعلى مع سيداتهن ٠ واما الخدم الجدد الذين استؤجروا من ميلكوت فكانوا يروحون ويجيئون ، بهمة وصخب ، في كل مكان ٠ ورحت اشق طريقي وسط هذا العماء ، فانتهيت آخر الامر الى خزانة حفظ المأكولات ٠ وهناك اخذت دجاجة باردة ، ورغيفا ، وبعض الاقراص المعجنة ، وصحنا او صحنين ، وشوكة وسكينا ، ثم انسحبت على عجل حاملة هذه الغنيمة ٠ وكنت قد وصلت الى الرواق وهممت بان اوصد الباب الخلفي ورائي عندما انذرتني همهمة متسارعة بان السيدات يوشكن ان يغادرن حجراتهن ٠ ولم يكن في ميسوري ان اتابع سبيلي الى حجرة الدرس من غير ان اجتاز ببعض ابوابهن ، ومن غير ان اعرِّض نفسي للافتضاح بجرم الاستيلاء على حمولتي من الاطعمة ٠ وهكذا وقفت من غير حراك في اقصى الرواق الذي كان مظلما لخلوه من النوافذ ، والذي زاده الآن ظلمة غياب الشمس وهبوط الليل ٠

وسرعان ما غادرت النزيلات الحسان حجراتهن ، واحدة اثر واحدة ، لقد خرجت كل منهن في ابتهاج ومرح ، رافلة بثوب ملتمع في الغسق ٠ ولقد وقفن لحظة ، مجتمعات عند الطرف الآخر من الرواق ، ورحن يتحدثن في جَرْس ناضج بحيوية عذبة مكبوحة ٠ ثم انهن هبطن درجات السلم غير محدثات ، او يكدن ، اي صوت ، كما يهبط الضباب المشرق هضبة من الهضاب ٠ والواقع ان ظهورهن الجماعي كان قد خلَّف في نفسي انطباعة من الاناقة الكريمة المحتد لم اعرف نظيرا لها من قبل قط ٠

والفَيت آديل تختلس النظر من خلال باب حجرة الدرس بعد ان فتحته على نحو جزئي ٠ وصاحت بالانكليزية : « ما اجملهن من سيدات ! اوه ، لشد ما اتمنى لو استطيع الالتحاق بهن ! اتعتقدين ان مستر روتشيستر سوف يرسل في طلبنا ، عما قريب ، بعد طعام العشاء ؟ »

ـ « لا ، لست اظن ذلك في الواقع ٠ ان لدى مستر روتشيستر اشياء اخرى يتعين عليه التفكير فيها ٠ لا تشغلي بالك بالسيدات ، الليلة ٠ لعلك تريهن غدا ٠ هو ذا عشاؤك ٠ »

كانت جائعة حقا ٠ وهكذا ساعدت الدجاجة والاقراص المعجنة على صرف انتباهها عن هذه المسألة ، فترة من الزمن ٠ وحسنا فعلت بأتياني بهذا

« العلف » ، والا لكان من الجائز ان تحرم هي ، واحرم انا و « صوفيْ » ـ التي قدمتْ اليها بعض طعامنا ـ من العشاء ، اذ كان كل من الدور الاسفل في شغل شاغل يحول بينه وبين التفكير فينا • ولم يؤت بضروب الحلوى والفاكهة الا بعد الساعة التاسعة ، وفي العاشرة كان النُدُل لا يزالون يروحون ويجيئون حاملين الصينيات وفناجين القهوة • واجزت لآديل ان تسهر تلك الليلة الى ما بعد ميقات نومها المألوف ، ذلك بانها اعلنتني ان من المتعذر عليها ان تستسلم للرقاد ما بقيت الابواب تفتح وتغلق في الدور الاسفل ، وما دام القوم يهرولون في جلبة ونشاط • ثم اضافت قائلة : والى هذا فقد يرسل مستر روتشيستر في طلبها بعد ان تكون قد خلعت ثيابها ، ويا لها عندئذ من خسارة عظيمة !

وحكيت لها القصص ما وسعها الاستماع اليها ، ثم انتقلت بها الى جو آخر فاصطحبتها الى الرواق • كان مصباح الردهة مُضاءا الان ، ولقد سلاها ان تطل من وراء الدرابزون وتراقب الخدم يروحون ويجيئون • حتى اذا اوغل الليل في التقدم انبعثت من حجرة الاستقبال نغمات موسيقية ، وكانت البيانو قد نقلت الى هناك • وقعدت انا وآديل على الدرجة العليا من السلم ابتغاء الاصغاء • وسرعان ما تساوق مع نغمات البيانو الغنية صوت سيدة تتغنّى ، ولقد كان تغريدها بالغ العذوبة حقا • حتى اذا انتهى الغناء المنفرد ، انطلق في اعقابه غناء ثنائي ، ثم غناء اشتركت في ادائه اصوات ثلاثة او اكثر • وكانت بعض الاحاديث المرحة تملأ الفترات الفاصلة • واصغيت فأطلت الاصغاء ، وفجاة اكتشفت ان اذني كانت عاكفة على تحليل الاصوات المتمازجة ، وانها كانت تحاول ان تميز من خلال خليطها نبرات مستر روتشيستر • حتى اذا ادركَتْها ، وسرعان ما فعلتْ ، واجهت مهمة جديدة هي اعادة صوغ الكلمات التي كان بُعد الشقة قد جعلها ابعد ما تكون عن الوضوح •

ودقت الساعة الحادية عشرة • والتفتُ الى آديل التي كان رأسها مستندا الى كتفي • كان النعاس قد اخذ بمعاقد اجفانها ، فحملتها بين ذراعي ومضيت بها الى فراشها • وكانت الساعة قد بلغت الواحدة عندما آوى السادة والسيدات الى حجراتهم •

وكان اليوم التالي جميلا كسابقه • ولقد كرسته الجماعة لرحلة الى موقع بعينه في الجوار • وانما انطلقوا في صدر النهار ، بعضهم على صهوات الجياد وبعضهم على متون العربات • ولقد شهدتُ ذهابهم وايابهم على حد سواء • كانت مس انغرام ، كشأنها من قبل ، هي الفارسة الوحيدة بين السيدات ، وكان مستر روتشيستر يندفع على صهوة جواده الى جانبها كشأنه في المرة السالفة • لقد تقدّما الجماعة بعض الشيء • ولفتُ نظر مسز فيرفاكس ، التي كانت واقفة معي عند النافذة ، الى هذه الواقعة فقلت :

ـ « لقد قلتِ ان من غير المحتمل ان يفكرا في الزواج • وها انت ترين رأي العين انهَ يؤثرها على سائر السيدات • »

ـ « اجل ، يخيل الي من غير ريب انه معجب بها • »

فأضفت انا : « وانها معجبة به • انظري كيف تميل برأسها نحوه وكأنها تُسِرّ في اذنه حديثا • ليتني استطيع ان ارى وجهها ، فانا لم المحه حتى الآن مجرد لمح • »

فأجابتني مسز فيرفاكس : « سوف ترينها هذا المساء • فقد اتفق لي ان حدثتُ مستر روتشيستر عن رغبة آديل العارمة في الاجتماع الى السيدات فقال : « أوه ! دعيها تفد اليوم ، بعد العشاء ، الى حجرة الاستقبال • واسألي مس أيير ان ترافقها • »

فأجبت : « اجل ، لقد قال ذلك بدافع من اللياقة ليس غير • ولست اجد داعيا للذهاب البتة • »

ـ « حسنا ، لقد قلتُ له انك غير متعودة الاختلاط بالناس ، واني لا احسب انك ترغبين في الاجتماع الى مثل هذه الجماعة الموغلة في المرح والمؤلفة كلها من اناس غرباء • فأجابني بطريقته الحاسمة : « هراء ! قولي لها ، اذا اعترضت ، ان هذه هي رغبتي الخاصة • فاذا اصرت على الاعتراض فقولي اني سوف اجيء بنفسي وأسوقها ، في حال تمردها ، سوقا • »

فأجبت قائلة : « لن اكلفه هذا العناء • سوف اذهب ، ان لم يكن من الذهاب بد • ولكني لست مرتاحة الى ذلك • هل ستكونين انت هناك ، يا مسز فيرفاكس ؟ »

ـ « لا ، لقد التمست منه ان يعفيني من ذلك ، ولقد اقر التماسي • وعلى اية حال ، فسوف اعلمك كيف تتجنبين الارتباك الذي يستشعره المرء حين يدخل على قوم غرباء في مناسبة رسمية ، وهو الجانب الابغض الى النفس في المسألة كلها • ان عليك ان تدخلي حجرة الاستقبال وهي خالية ، اي قبل ان تغادر السيدات مائدة العشاء ، وتختاري لنفسك مقعدا في ايما زاوية هادئة تروق لك • ولست في حاجة الى ان تلبثي طويلا بعد توافد الرجال على الحجرة ، الا اذا أنِستَِ نفسك الى ذلك • كل ما يتعين عليك فعله هو ان تُشعري مستر روتشيستر انك موجودة هناك • حتى اذا تم لك ذلك كان في امكانك ان تتسللي عائدة الى حجرتك •• ان احدا لن يراك • »

ـ « وهل تعتقدين ان هؤلاء القوم سوف يطيلون الاقامة هنا ؟ »

ـ « ربما اقاموا اسبوعين او ثلاثة • ولكنهم لن يقيموا مدة اطول ، من غير ريب • فبعد عطلة الفصح سيتعين على السير جورج لين ، الذي اختير في الفترة الاخيرة ممثلا لميلكوت ، ان يشخص الى المدينة ويحتل مقعده • واستطيع القول ان مستر روتشيستر سوف يرافقه • والواقع ان مُقامه المتطاول حتى الان في ثورنفيلد يثير دهشتي • »

وفي شيء من الارتعاد ترقّبْتُ حلول الساعة التي تعين علي فيها ان

اشخص مع تلميذتي الى حجرة الاستقبال · كانت آديل في حال من الجذل العارم استبدت بها طوال النهار بعد ان سمعت انها سوف تقدَّم عند المساء الى السيدات ، ولم تصحُ الا عندما شرعت « صوفي » في الباسها ثيابها · لقد هدأت خطورة هذه العملية من اهتياجها الجذلان · حتى اذا سُرِّحت خُصل شعرها عناقيد ملساء منسدلة ، وألبِسَتْ فستانها المخيط من اطلس أزهر ، وعُقد وشاحها الطويل وعُدِّل وضع قفازها المخرم الذي لا اصابع له بدت رصينة مهيبة مثل اي قاض من القضاة · ولم تكن ثمة حاجة الى ايصائها بالمحافظة على حسن هندامها ، اذ ما كادت تستكمل اتخاذ زينتها حتى جلست في كرسيها الصغير بكثير من الرزانة ، رافعة تنورتها الحريرية لكي لا تتغضن ، وأكدت لي انها لن تتحرك من مقعدها ذاك حتى افرغ من ارتداء ملابسي · ولقد انجزتُ ذلك في سرعة ، مرتدية افضل فستان عندي ، وهو الفستان ذو اللون الفضي الرمادي الذي اشتُري لمناسبة زفاف مس تامبل ، والذي لم يُلبَس منذ ذلك الحين قط · ثم اني سرحت شعري على عجل ، وتزينت بحليتي الوحيدة ، وهي الدبوس الماسي المرصع باللؤلؤ · وبعد ذلك هبطنا السلم الى الدور الارضي ·

ومن حسن الطالع انه كان لحجرة الاستقبال مدخل آخر لا يحتاج معه المرء الى المرور بحجرة الطعام حيث كان القوم كلهم جالسين الى المائدة · لقد الفينا القاعة خالية ، ووجدنا نارا ضخمة تضطرم في صمت في المستوقد الرخامي ، وشموعا كثيرة تتألق في عزلة مشرقة ، وسط الرياحين الفاتنة التي زُيِّنت بها الموائد · وتدلَّت الستارة القرمزية امام القنطرة · وعلى الرغم من ان هذه الستارة لم تفصل القوم عن حجرة الاستقبال الا فصلا رقيقا فقد كان الجرس الذي تحدثوا به خفيضا الى درجة جعلتنا لا نتبين من كلامهم غير غمغمة مخدِّرة ·

وكانت آديل لا تزال في ما يبدو خاضعة لسلطان انطباعة ليس اشد منها تهيُّبا ، ولقد جلستْ ، من غير ان تنطق بكلمة ، على متَّكأ القدَم الذي دللتُها عليه · اما انا فاعتزلت في مقعد قرب النافذة ، وتناولت كتابا عن مائدة مجاورة ، وحاولت ان اقرأ · ثم ان آديل حملت كرسيها الخفيض واقبلت لتجلس عند قدميَّ · ولم تنقض غير فترة يسيرة حتى لمستْ ركبتي ، فسألتها : « ما بك يا آديل ؟ »

فأجابتني بالفرنسية : « أليس في استطاعتي ان آخذ زهرة واحدة فحسب من هذه الزهور الرائعة ، ايتها الآنسة ؟ لا لشيء ، الا لأكمل بها زينتي · »

فقلت : « انت تفكرين بزينتك اكثر مما ينبغي يا آديل ، ومع ذلك ففي ميسورك ان تأخذي زهرة · »

واخرجتُ واحدة من احدى الزهريات ، وثبتُّها في وشاحها · فأطلقت

تنهّدة تنمّ عن ارتياح ممتنع على الوصف ، فكأن كأس سعادتها امست الان مترعة . وأشحت بوجهي عنها لكي اخفي ابتسامة لم اوفق الى كبحها . فقد كان في حرص هذه الباريسية الصغيرة الصادق الفطري على اسباب الزينة شيء مضحك ومؤلم في آن معا .

وتناهى الينا الآن صوت رقيق كذلك الذي يُسمع عند نهوض الناس عن مائدة الطعام . وردّت الستارة عن القنطرة ، فبدت لناظري حجرة الطعام وقد سكبت ثرياها المضاءة نورا على مجموعة بديعة من اطباق الفاكهة والحلوى الفضية والبلورية كانت تغطي مائدة طويلة بكاملها . وتحت القنطرة مباشرة وقف سرب من السيدات ، حتى اذا دخلن الى حجرة الاستقبال انسدلت الستارة خلفهن .

كن ثماني سيدات ليس غير . ومع ذلك فقد اوقعن في نفسي ، عندما تدفقن على حجرة الاستقبال ، انطباعة تؤذن بان عددهن اكبر بكثير . كان بعضهن فارعات الطول ، وكان كثير منهن يرفلن في ثياب بيضاء ، وكنّ جميعا مرتديات ملابس فضفاضة بدت وكأنها تضخّم اجسامهن كما يضخّم الغمام القمر . ونهضت من مقعدي وانحنيت تحية لهن . فحنت واحدة او اثنتان منهن رأسيهما ردا على تحيتي ، اما سائرهن فاجتزأن بالتحديق الي .

ثم انهن انتشرن في الحجرة فذكّرنني بخفة حركاتهن ورشاقتها بسرب من الطيور البيضاء الوافرة الريش . وانطرح بعضهن في اوضاع نصف مضطجعة على الارائك والمتكآت ، وانحنى بعضهن على الموائد واخذن يتأملن الرياحين ويتصفحن الكتب ، في حين تحلّق سائرهن حول النار . لقد تحدثن كلهن في جَرْس خفيض ولكنه واضح ، جرس بدا لي انه مألوف لديهن . ولقد عرفت اسماءهن في ما بعد ، ففي استطاعتي ان اذكرها منذ الان .

كان ثمة اولا ، مسز ايشتون وابنتاها . وكان واضحا ان هذه السيدة تمتعت في صباها بقسط من الجمال لا تزال محتفظة به حتى اليوم . اما ابنتها الكبرى ، آيمي ، فكانت ضئيلة الجسم بعض الشيء ، ساذجة ، جذابة ، تغلب على وجهها وتصرفاتها سمات الطفولة ، وكان ثوبها الموصليني الابيض ووشاحها الازرق لائقين بها الى حد غير يسير . اما الثانية ، لويزا ، فكانت اطول من اختها قامة واكثر اناقة ، وكانت ذات وجه بهي جدا من ذلك الضرب الذي يدعوه الفرنسيون « ظريف محزون » . وكانت كلتا الاختين بيضاء البشرة كالزنبقة .

وكانت اللايدي لين سيدة ضخمة قوية في نحو الاربعين ، ذات قامة منتصبة الى حد بالغ ، وشموخ مغالىً فيه ، وكانت ترتدي ثوبا غنيا مخيطا من اطلس ذي بريق متموج متحول ، وكان شعرها الاسود يشع على نحو صقيل في ظل ريشة لازوردية ، وضمن نطاق طوق من الجواهر .

اما مسز دينت ، زوجة الكولونيل دينت ، فكانت اقل بهاء ولفتا للنظر ، ولكنها كانت ، في ما خيِّل الي ، ارق شمائلَ وادنى الى صفة السيدة الكاملة . كانت نحيلة القوام ، رقيقة الوجه شاحبتَه ، شقراء الشعر . والواقع ان ثوبها المخيط من اطلس اسود ، ووشاحها المصنوع من مخرمات اجنبية غنية ، وحِلاها اللؤلؤية راقت لي اكثر من اشعاع السيدة النبيلة ❋ ذي الالوان القزحية .

ولكن السيدات الثلاث اللواتي سطعن اكثر ما يكون السطوع ــ ولعل مرد ذلك ، جزئيا ، الى طولهن الفارع الذي لم تزدهِ بمثله اية سيدة اخرى بين السيدات الثمان ــ كنّ الارملة النبيلة اللايدي انغرام وبنتيها بلانش وماري . كانت كل من هاته السيدات الثلاث ذات قوام لم تعرف امرأة نظيره رشاقة ورفعة . ولعل سن الارملة كانت تُراوح ما بين الاربعين والخمسين ، وكانت لا تزال على بقية من جمال . وكان شعرها (كما بدا على ضوء الشموع على الاقل) لا يزال فاحما ، وكانت اسنانها لا تزال ، ظاهريا ، في احسن حال . وخليق بالكثرة الكاثرة من الذين تقع اعينهم عليها ان يحكموا بأنها سيدة باهرة بالنسبة الى سنها ، ولقد كانت كذلك ، من غير ريب ، من وجهة النظر الجسمانية . ولكن محياها كان ينطق عن تشامخ لا يكاد يُحتمل . كانت رومانية السمات ، ذات ذقن اضافية تنتهي عند رقبة اشبه بعمود من الاعمدة . والحق ان هذه القسمات لم تبد لي منتفخة قاتمة فحسب ، بل لقد بدت مغضّنة بالكبر والغرور ايضا . وكانت ذقنها مُعزّزة بالمبدأ نفسه ، فهي ابدا في وضع منتصب الى حد يكاد يكون خارقا . وكان لها ايضا عينان ضاريتان قاسيتان ذكّرتاني بعيني مسز ريد . كانت تتشدق في الكلام ، وكان صوتها خفيضا ، وكانت نبراتها مغرقة في التفاخر ، موغلة في الغطرسة ، وبكلمة موجزة : بغيضة الى حدٍّ لا يطاق . وكان لها من ثوبها المخملي القرمزي ومن الشال الذي اعتمرت به ــ وكان مصنوعا من نسيج هندي تتخلله خيوط ذهبية ــ ما اضفى عليها (او هكذا اعتقدت هي ، في ما اظن) سِيما ملكية حقيقية .

وكانت بلانش وماري متكافئتين من حيث القوام ، وكانتا منتصبتين فارعتي الطول مثل شجرتي حَوْر . كانت ماري بالغة الهزال بالنسبة الى طولها ، ولكن بلانش كانت مفرغة على صورة ديانا ❋❋ . ولقد رنوتُ اليها ، طبعا ، في اهتمام خاص . لقد اردت ، اولا ، ان ارى اينطبق مظهرها على وصف مسز فيرفاكس لها ام لا . واردت ، ثانيا ، ان ارى اتشبه بأية حال من الاحوال تلك الصورة الخيالية المصغرة التي رسمتها انا لها . واردت ثالثا ، وهي حقيقة لن تخفى على القارىء ، ان ارى الى اي مدى يمكن لها ، في اعتقادي الشخصي ، ان تعجب مستر روتشيستر .

❋ تقصد اللايدي لين .

❋❋ الهة القمر والصيد وحامية النساء في الميتولوجيا الرومانية . وبها تشبه الحسان ذوات الجمال الجسماني الخارق . (المعرب)

والواقع انها اشبهت ، من وجهة النظر الجسمانية ، كلا من صورتي ووصف مسز فيرفاكس شبها كاملا • فالصدر النبيل ، والمنكبان المتحدران ، والجيد البديع ، والعينان السوداوان ، وحلَيقات الشعر الفاحم كانت كلها هناك • اما الوجه ؟•• اما الوجه فكان كوجه امها ، كان صورة طبق الاصل عنه ، مع فارق وحيد هو ان وجه البنت ناضر الشباب خلو من التجاعيد • اما الجبين الخفيض ، والسمات المتغطرسة ، والغرور الصارخ فكانت هي هي • بيد ان غرور بلانش لم يكن شديد العبوس كغرور امها : كانت تضحك على نحو موصول ، وكان ضحكها ساخرا ، وكذلك كانت الانطباعة الغالبة على شفتها المقوّسة المتعجرفة •

يقولون ان العبقري معجب بنفسه : انا لا استطيع ان اقرر هل كانت مس اينغرام عبقرية ام لا ، ولكنها كانت معجبة بنفسها ، ومعجبة بهذه النفس الى حد يلفت النظر حقا • كانت قد دخلت في نقاش حول علم النبات مع مسز دينت الدمثة ، الرقيقة • ويبدو ان مسز دينت لم يقدر لها ان تدرس هذا العلم ، على الرغم من انها ، كما قالت ، احبت الازهار ، « والبرية منها بخاصة » • اما مس اينغرام فكانت قد درسته ، فهي تجري مصطلحاته على لسانها كالسيل ، مزهوة بذلك على نحو واضح • وسرعان ما لاحظتُ انها كانت (كما يقال في اللغة العامية) « تنتفع » بجهل مسز دينت وتفيد منه • وجائز ان يكون « انتفاعها » ذاك بارعا ، ولكنه لم يكن لطيفا او وديا ، من غير ريب • لقد عزفت على البيان ، فكان عزفها رائعا • ولقد غنت ، فكان صوتها رخيما • ولقد تحدثت بالفرنسية الى والدتها • فاجادت الحديث في فصاحة وفي نبرة حسنة •

وكانت ماري ذات محيّا الطف واكثر طلاقة من محيّا بلانش • وكانت ذات اسارير ارق ايضا ، وبشرة انصع بعض الشيء (كانت مس اينغرام سمراء مثل بنات اسبانيا) ولكن ماري كانت تعوزها الحيوية ، وكان وجهها يعوزه التعبير ، وكانت عيناها يعوزهما البريق • لم يكن لديها شيء تقوله ، فما ان اتخذت مقعدها حتى ظلت مسمّرة فيه كتمثال في محرابه • وكانت الاختان ترتديان ملابس بيضاء نقية لا عيب فيها •

اما وقد انعمت النظر الى مس اينغرام فهل استطيع القول انها كانت هي المرأة التي يُحتمل ان يختارها مستر روتشيستر لنفسه ؟ الواقع اني لم إستطع ان اجيب ، اذ ما كنت اعرف ذوقه في الجمال الانثوي • فاذا كان يؤثر كل ما هو جليل فليس من ريب في انها كانت هي نموذج الجلال عينه • والى هذا ، فقد كانت رفيعة الثقافة طروبا • وخليق بالكثرة الكاثرة من الرجال ان تعجب بها ، في ما تراءى لي • اما ان يكون هو قد اعجب بها حقا فذلك ما بدا لي اني اصبحت املك الدليل عليه • ولم يبق علي ، لكي ازيل آخر ظل من الشك ، الا ان اراهما مجتمعين •

وليس ينبغي لك ان تحسب ، ايها القارىء ، ان آديل كانت طوال هذا

الوقت جالسة في كرسيها الخفيض ، عند قدمي ، غير مبدية حراكا البتة . لا ، اذ ما ان دخلت السيدات الى حجرة الاستقبال حتى نهضت ، وتقدمت للقائهن ، وحنت رأسها بتحيتهن على نحو فخيم ، ثم قالت في وقار :

ـ « بونجور ، يا سيداتي . »

ونظرت اليها مس اينغرام نظرة ساخرة وقالت : « أوه ، يا لها من دمية صغيرة ! »

ولاحظت اللايدي لين قائلة : « انها الطفلة التي ينهض مستر روتشيستر بعبء الوصاية عليها ، في ما اظن . ـ الفتاة الفرنسية الصغيرة التي كان يتحدث عنها . »

واخذت مسز دينت بيدها في حنان ، وطبعت عليها قبلة . اما آيمي ولويزا ايشتون فصاحتا في آن معاً :

ـ « يا لها من طفلة فاتنة ! »

ثم انهما دعتاها الى احدى الارائك حيث جلست آمنة مطمئنة بينهما ، تثرثر بالفرنسية حينا ، وبانكليزية مهشمة حينا، مستأثرة لا بانتباه السيدتين الشابتين فحسب ، بل بانتباه مسز ايشتون واللايدي لين ايضا ، مسترسلة في دلاعتها ما طاب لها الاسترسال .

وجيء بالقهوة ، آخر الامر ، ودُعي الرجال الاماجد الى الدخول . وقعدت في « الظل » ـ ان كان في تلك القاعة المتألقة بالانوار ظل ما ، وقد حجبتني ستارة النافذة نصف حجب . وتثاءبت القنطرة كرة اخرى ، ودخل القوم . وكان دخولهم الجماعي ، كدخول السيدات الجماعي ، مهيبا جدا . كانوا كلهم يرتدون بذلات سوداء ، وكان معظمهم فارعي الطول ، وكان بعضهم في ميعة الصبا . والواقع ان هنري وفريدريك لين كانا غز لَيْن جسورين الى ابعد الحدود ، وكان الكولونيل دينت مثال الرجل العسكري الجليل . كان شعره أشيب كله ، وكان السواد لا يزال غالبا على حاجبيه وشاربيه ، مما اضفى عليه شيئاً من مظهر « الاب النبيل » كما يصوَّر عادة على خشبة المسرح . اما اللورد اينغرام فكان ، مثل شقيقتيه ، فارع الطول ، وكان مثلهما ايضا وسيم الوجه . ولكنه يشارك ماري طَلعتها الفاترة المتوانية . لقد بدا وكأنه يملك من طول الاطراف اكثر مما يملك من الحيوية او نشاط الذهن .

ولكن اين مستر روتشيستر ؟

هوذا قد أقبل آخر الامر . انا لم انظر الى القنطرة ، ومع ذلك فقد رأيته يدخل ، وحاولت ان اركِّز انتباهي على ابرتَيْ الحبك وعلى العيون المؤلّفة شبكةَ كيس النقود الذي كنت اصنعه ، محاولة ان احصر تفكيري في العمل الذي بين يدي ، وان لا ارى غير الخرزات الفضية والخيوط الحريرية المنشورة في حجري: ولكني برغم هذا كله رأيت وجهه في وضوح، ولم استطع الا ان اتذكر تلك اللحظة التي نعمتُ فيها برؤيته آخر مرة ، بعد

دقائق معدودات انقضت على اسدائي اليه ما اعتبره خدمة اساسية ، وقد امسك هو بيدي ، وانشأ ينظر الى وجهي ،ويتأملني بعينين تنمّان عن فؤاد طافح يتوق الى ان يفيض ، فؤاد كان لي في انفعالاته نصيب • الا ما كان ادنى ما اقتربت منه في تلك اللحظة ! فهل كان ما حدث ، منذ ذلك الحين ، من أشياء مقصودا به تغيير وضعه بالنسبة الي ووضعي بالنسبة اليه ؟ ومع ذلك فما اشد ما يبدو احدنا الان بعيدا عن الاخر غريبا عنه ! غريبا الى درجة اني لم اتوقع من مستر روتشيستر ان يُقبل ويتحدث الي • ولم يخامرني العجب عندما اتخذ ، من غير ان ينظر الي ، مقعدا في الجانب الآخر من الحجرة ، وشرع يتحدث مع بعض السيدات •

ولم اكد ارى ان انتباهه قد سُمِّر عليهن ، وان في ميسوري ان ارنو اليه من غير أن يلحظني احد حتى جُذِبت عيناي ، على نحو لا ارادي ، الى وجهه • انا لا استطيع السيطرة على جفنيهما : كانا يرتفعان دائما فتستقر مقلتاي عليه • لقد رنوت اليه ، ووجدت متعة حادة في الرنو ـ متعة نفيسة ولكنها موجعة ، لكأنها حلية من الذهب الخالص في طرفها رأس فولاذي يورث المرء آلاما مبرحة : متعة اشبه ما تكون بتلك التي يستشعرها الرجل الذي يكاد يموت من الظمأ والذي يعرف ان البئر التي زحف اليها مسمومة ، ومع ذلك فهو ينحني فوقها ويطفىء ظمأه بجرعات كأنها شراب الآلهة !

ما اصدق المثل الذي يقول : « الجمال في عين الناظر اليه » • فوجه سيدي الشاحب ولونه الزيتوني ، وجبينه المربّع الضخم ، وحاجباه الكثيفان الفاحمان ، وعيناه الغائرتان ، وقسماته المتجهمة ، وفمه الكالح القاسي ـ وكلها راشح بالقوة والعزم والارادة ـ لم تكن ، في منطق القاعدة والمقاييس ، على شيء من الجمال ، ولكنها كانت في نظري انا اكبر من جميلة : كانت مفعمة بشوق ونفوذ هيمنا على هيمنة كاملة ، وأخرجا مشاعري عن دائرة سلطاني ليخضعاها لسلطانه هو • انا لم اعتزم ان اهيم بحبه قط ، والقارىء يعرف اني بذلت جهدا كبيرا لكي استأصل من قلبي بذور الحب التي اكتشفتُها هناك ، وها هي ذي الان عند اول اجتماع يتاح لي فيه ان اراه من جديد ـ تنبعث ، على نحو تلقائي ، نضرة شديدة البأس ! لقد جعلني احبه من غير أن ينظر الي •

لقد قارنت ما بينه وبين ضيوفه • فاذا بلطف شمائل هنري وفريدريك « لين » وحسن تودّدهما للنساء ، واناقة اللورد اينغرام الفاترة المتوانية ، وحتى جلال الكولونيل دينت العسكري ، تبدو في عيني هزيلة تافهة بالقياس الى حيويته الفطرية ونشاطيته الاصيلة • أنا لم استشعر ايما مَيْل الى مظاهرهم الخارجية وملامح وجوههم ، ومع ذلك فقد خيل الي ان الكثرة الكبيرة ممن يرى اليهم خليق بها ان تعدّهم ذوي جاذبية ووسامة ومهابة، في حين تحكم بان مستر روتشيستر قاسي الاسارير كئيب الطلعة في آن معا •

لقد رأيتهم يبتسمون ، ورأيتهم يضحكون ، فوجدت الفراغ في ابتسامهم وضحكهم : كان في ضوء الشموع من الروح بقَدْر ما في بسماتهم ، وكان في رنين الجرس من المعنى بقَدْر ما في ضحكاتهم • ورأيت مستر روتشيستر يبتسم فرأيت اساريره المتجهمة ترقُّ ، ورأيت عينيه تموران بالبريق واللطف معا ، وشعاعهما ينضح بالحدة والعذوبة في آن واحد • كان يتحدث ، في تلك اللحظة ، الى لويزا وآيمي ايشتون • فعجبت اذ رأيتهما تتلقّيان في هدوء بالغ تلك النظرة التي بدت لي ثاقبة الى أبعد الحدود : لقد توقعت أن تغض هاتان السيدتان من طرْفيهما ، وأن تتضرَّج وجناتهما بالدم تحت سهامها • ومع ذلك فقد سرني اني وجدتهما غير متأثرتين بنظراته تلك ، البتة • وقلت في ما بيني وبين نفسي : « انه لا يحتل في قلبيهما مثل المنزلة التي يحتلها في قلبي • انه ليس من معدنهما • لا ، أنا اعتقد انه من معدني ، بل اني لمتأكدة انه كذلك ••• أنا احسُّ ان بيني وبينه نسبا ••• أنا أفهم لغــة ملامحه وحركاته • وعلى الرغم من ان الوضع الاجتماعي والثروة يباعدان ما بيننا كثيرا فان في دماغي وقلبي ، في دمي واعصابي ، شيئا يجعلني شبيهة به ذهنيا • هل قلت ، منذ أيام معدودات ، أن لا شأن لي به يعدو تناولي الراتبَ من يده ؟ هل حرمت علي نفسي ان أفكر فيه الا بوصفه سيدا يدفع الي أجري ؟ يا للتجديف على الطبيعة ! أن كل ما يجيش في صدري من مشاعر صالحة ، صادقة ، عارمة ، لتدورُ ــ على نحو غير اراديٍّ ــ حول محوره • أنا ادري ان علي ان اكتم عواطفي، ان علي ان اخنق الامل، ان علي ان اتذكّر انه لا يستطيع ان يبالي بي كثيرا • ذلك بأني حين أقول اني من معدنه فلست أعني ان لي مثل قوته على التأثير ، ومثل قدرته السحرية على الجذب • كل ما اعنيه هو اني اشاركه بعض الاذواق والمشاعر • واذن فيتعيَّن علي أن اكرر على نحو موصول اننا سوف نظل منفصلين الى الابد ••• ومع ذلك فيتعيَّن علي أن احبه ما بقيتُ قادرة على التنفس والتفكير » •

وقدّمت القهوة • وكانت الحيوية قد دبَّت الى نفوس السيدات ، منذ ان وفد الرجال على الحجرة ، فهنَّ أشبه بالقبَّرات مرحا وخفة • وغدا الحديث ناشطا طروبا • وشرع الكولونيل دينت ومستر ايشتون يتجادلان في بعض القضايا السياسية ، على حين اصغت زوجتاهما اليهما • وتسامرت الارملتان المتكبرتان ، اللايدي لين واللايدي اينغرام • ووقف السير جورج ــ الذي نسيت ، بالمناسبة ، ان أصفه ، والذي كان رجلا من سَراة أهل الريف ، ضخم الجسم ناضر البشرة الى حد بعيد ــ على مقربة من اريكتهما ، وفنجان قهوته في يده ، فهو يشاركهما الحديث بين الفينة والفينة ببضع كلمات ينطق بها • وكان مستر فريدريك لين قد استوى في كرسي محاذٍ لماري اينغرام ، فهو يُريها بعض الرسوم المنشورة في مجلد فخم • وكانت هي تنظر ، وتبسم بين الفينة والفينة ، ولكنها لا تتكلم ، في ما يبدو الا قليلا • أما اللورد اينغرام ، الفارع الطول الفاتر الهمة ، فقد اتكأ متصالب الذراعين على ظهر كرسي آيمي ايشتون الضئيلة الجسم البهجة النفس • وكانت هي ترفع بصرها اليه

وتثرثر مثل الصَفْراغون * الفرِد : كانت تستلطفه اكثر مما تستلطف مستر روتشيستر • وكان هنري لين قد احتل متكأ خفيضا عند قدمي لويزا ، وكانت آديل تقاسمه ذلك المتكأ • وكان هو يحاول ان يتحدث معها بالفرنسية ، فتضحك لويزا لاخطائه الفاضحة • وبلانش اينغرام ••• مع من كانت تتجاذب اطراف الحديث ؟ لقد وقفت وحدها الى المائدة ، منحنية في رشاقة فوق « البوم » من البومات الصور ، فكأنها كانت تنتظر ان يسعى اليها ساع • بيد ان انتظارها لم يطل كثيرا ، لقد اختارت هي بنفسها الرفيق المؤانس •

ذلك بأن مستر روتشيستر وقف ، بعد ان فارق لويزا وآيمي ايشتون ، على مقربة من المستوقد وحيدا كوحدة بلانش على مقربة من المائدة • كانت واقفة تجاهه ، متخذة موقعها عند الجانب الاخر من رف المستوقد •

وقالت له مستهلة الحديث : « مستر روتشيستر ، لقد حسبتُ أنك غير مولع بالاطفال ؟ »

ـ « لستِ مخطئة ، على كل حال » •

ـ « واذن ، فما الذي أغراك بأن تكفل مثل هذه الدمية الصغيرة ؟ » (وأشارت الى آديل) • « من أين التقطتَها ؟ »

ـ « أنا لم التقطها التقاطا ، لقد تُرِكت في كنفي » •

ـ « كان عليك ان تبعث بها الى المدرسة » •

ـ « لم يكن لي قِبَلٌ بذلك • المدارس ثقيلة النفقات » •

ـ « ولكنني أحسب انك قد عهدت بتعليمها الى احدى المربيات : لقد رايت الى جانبها ، في هذه اللحظة ، مخلوقة ما ••• هل ذهبَتْ ؟ أوه ، لا ! هاهي ذي واقفة ، ما تزال ، خلف ستارة النافذة • أنت تدفع اليها راتبا ، طبعا • ويخيل الي ان ذلك يكلفك نفقات لا تقل عن نفقات المدرسة ، ان لم اقل أكثر • اذ يتعيَّن عليك ، فوق الذي تدفعه ، ان تعيل التلميذة والمعلمة ايضا » •

وخشيت ـ ومن يدري ، فلعلي رجَوْت ؟ ان يكون في تلك الاشارة الي ما يدعو مستر روتشيستر الى الالتفات نحوي • فازددت انكماشا في الظل ، على نحو غير ارادي : ولكنه لم يحوّل عينيه صوبي ، البتة •

وقال في لامبالاة ناظرا امامه مباشرة : « أنا لم أفكر في هذه المسألة قط » •

ـ « لا • انتم الرجال لا تراعون جانب الاقتصاد والعقل السليم • وانه لخليق بك ان تستمع الى ماما تحدثك حديث المربيات • ويخيَّل الي ان دزينة منهن على الاقل تعاقبت علي وعلى اختي ماري في زماننا • كان نصفهن بغيضات الى النفس ، وكان نصفهن الاخر مضحكات ، وكن كلهن كوابيس ـ ألم يكن كذلك ، يا ماما ؟ »

ـ « هل وجهتِ الخطاب الي ، يا ثروتي ؟ »

فلم يكن من السيدة ، التي اعتبِرت ، على هذا النحو ، من ممتلكات

---

* طائر غريد

الارملة الخاصة ، الا ان كررت سؤالها مع شيء من التوضيح • فقالت الارملة :

ـ « لا تذكري المربيات على مسمعٍ مني ، يا أعز الناس ! ان الكلمة نفسها تثير أعصابي • لقد قاسيت حتى الاستشهاد من شذوذهن وعدم كفاءتهن • واني لاحمد الله على اني قد تخلصت الآن منهن ! »

وهنا مالت السيدة دينت على اللايدي الورعة ، وأسرّت في أذنها كلاما • وأحسب ، على ضوء الجواب الذي اقتضاه كلامها ذاك ، انها قصدت الى تذكيرها بأن واحدة من أفراد تلك الزمرة المغضوب عليها موجودة في الحجرة •

فقالت اللايدي : « لأمها الهَبَل ! واني لارجو ان يعود عليها هذا ببعض الفائدة ! » ثم أنها أضافت ، في نبرة اشد انخفاضا ولـــكنها احتفظت من الارتفاع بقَدْر مكّنني من سماعها : « لقد تأملتها • أنا بارعة في علم الفراسة ، واني لاقرأ في وجهها جميع عيوب جماعتها » •

فسألها مستر روتشيستر ، في صوت عالٍ : « وما هي تلك العيوب ، يا سيدتي ؟ »

فأجابت وهي تهز « عمامتها » ثلاث هزات ذات مغزى استثنائي : « سوف أهمس بها في اذنك ، في ما بعد » •

ـ « ولكن شهوة فضولي قد تخمد عندئذ • انها جائعة الى القوت الآن » •

ـ « اسأل بلانش ، فهي أقرب اليك مني » •

ـ « أوه ، لا تحيليه علي ، يا ماما ! فأنا لا أملك غير كلمة أقولها في افراد تلك القبيلة كلها ، هي انهنّ بلاء • وليس معنى هذا اني قاسيت منهن كثيرا ، في أيما وقت من الاوقات ، لا ، فقد كنت أعرف كيف انتـــزع منهن زمام المبادرة • وما كان أكثر المكائد التي كنت أنا وتيودور ندبرها لمس ويلسون ، ومسز غرايز ، ومدام جوبير ! اما ماري فكانت أبلد من تشارك في أي من هذه المكائد في حيوية وحماسة • ولكننا خصصنا مدام جوبير بأبرع احابيلنـــا وأدعاها الى التسلية • والواقع ان مس ويلسون كانت مخلوقة بائسة ، معتلة الصحة ، بكّاءة ، فاترة الهمة ، وبكلمة موجزة ، انها لم تكن تستحق منا عناء السعي الى قهرها والتغلب عليها • وكانت مسز غرايز غليظة ، فاقدة الحس ، لا تؤثر فيها اللطمات • في حين كانت مدام جوبير مسكينة حقا ! أنا لا أزال قادرة الان على رؤيتها وقد ثارت ثائرتها ، بعد ان احرجناها فأخرجناها : لقد أهرقنا شاينا ، وفتّتنا شطائرنا المدهونة بالزبدة ، وقذفنا بكتبنا الى السقف ، وأحيينا حفلة موسيقية تصمّ الآذان كانت آلاتها هي المسطرة والمنضدة ، وحاجز نار الموقد ، وأدوات المدفأة • أتذكر تلك الايام المرحة البهيجة ، يا تيودور ؟ »

فقال اللورد اينغرام وهو يمطّ كلماته متشدّقا : « أجل • أنا أذكرها من غير ريب • ولقد كان من دأب العجوز البَليدة الخرقاء ان تصيح : « أوه ، يا لكما من طفلين نذلين ! » وبعد ذلك كنا نقدم اليها المواعظ مستغربين ان تتصدر ، وهي المغرقة في الجهل ، لتعليم ولدين وقحين بارعين مثلنا » •

– « أجل ، هذا ما كنا نفعله • وكثيرا ما كنتُ ، يا تيدو * اساعدك في محاكمة (او في تعذيب) ** مهذبك ، مستر فايننغ، ذي الوجه الماصل، أو الخوري المصاب بخانوق الدجاج كما تعودنا ان ندعوه • لقد اجاز لنفسه ان يقع في غرام مس ويلسون ، وأجازت هذه لنفسها أن تقع في غرامه – أو هكذا حسبتُ أنا و « تيدو » على الاقل • فكثيرا ما فاجأناهما وهما يتبادلان ضروبا من النظرات ويطلقان صنوفا من الزفرات اعتبرناها نحن امارات على « العاطفة الحلوة » • واؤكد لك ان القوم سرعان ما عرفوا باكتشافنا ذاك • ولقد اتخذنا نحن منه مخلا لاقتلاع عبئينا الثقيلين من البيت • وما ان سمعت ماما العزيزة بمجرد تلميح الى المسألة حتى وجدت انها نزعة لا اخلاقية • أليس هذا صحيحا ، يا أمي النبيلة ؟ »

– « من غير ريب ، يا خير الناس • ولقد أصبت في ما فعلتُ غاية الاصابة • الا فتأكدي ان هناك الف سبب تجعل التزاوج بين المربيات والمهذبين أمرا لا يجوز التسامح به لحظة في أيما بيت من البيوتات الحسنة التنظيم • أولا ••• »

– « أوه ، يا امي الكريمة ! وفري علينا عناء تعدادها ! والى هذا ، فنحن كلنا نعرفها : خطر القدوة السيئة على براءة الطفولة والتهاء العروسين عن واجبهما وتقصيرهما من ثم في ادائه ، والتحالف المتبادل والاتكال المتبادل ، والثقة الناشئة عن ذلك ، وما يرافق هذا من وقاحة وقلة حياء ، والتمرد والانفجار • فهل انا على حق ، أيتها البارونة اينغرام ، بارونة اينغرام بارك ؟»

– « أنت على حق ، الآن ، كشأنك دائما ، يا زنبقتي البيضاء ! »

– « اذن فلا داعي الى مزيد من الكلام على هذه المسألة ، فلنغيِّر الموضوع » •

ويبدو ان آيمي ايشتون لم تسمع هذا القول الفصل أو لم تحفل به ، فضمَّت صوتها الى صوت الجماعة ، وقالت في نبرتها الناعمة الطفلية : « لقد كان من دأبي ودأب لويزا ان نسخر من مربيتنا ايضا • ولكنها كانت من الطيبة بحيث تحتمل كل شيء • ان ايما شيء لم يكن قادرا على اثارتها • والواقع انها لم تغضب منا قط • ألست أقول الحقيقة ، يا لويزا ؟ »

– « من غير ريب • انا كنا نفعل ما يحلو لنا • كنا نسطو على مكتبها وعلى صندوق أشغالها ، وكنا نقلب ادراجها رأسا على عقب • ولكنها كانت دمثة الاخلاق الى حد بعيد ، فهي تعطينا ايما شيء نسألها اياه » •

وهنا قالت مس اينغرام مجعِّدة شفتها في سخرية : « يخيل الي اننا على وشك ان نقدِّم موجزا لذكرياتنا عن جميع المربيات اللواتي لا يزلن على

---

* تصغير تيودور ، للتحبب • (المعرب)

** بين لفظ المحاكمة prosecuting ولفظ التعذيب persecuting في الانكليزية جناس شبه تام يضفي على العبارة في اصلها ، جمالا خاصا • (المعرب)

قيد الحياة • ولكي نتفادى مثل هذه العقوبة اقترح من جديد ان ننتقل الى موضوع آخر • مستر روتشيستر ، هل تُثنّي على اقتراحي ؟ »

ــ « سيدتي ، اني أؤيدك في هذه النقطة تأييدي اياك في سائر النقاط » •

ــ « واذن فلأنهض انا بعبء اثارة الموضوع • سينيور ايدواردو ، هل تؤانس في نفسك القدرة على الغناء ؟ »

ــ « اذا أصدرت امرك بذلك ، أيتها الدونّا بيبيانكا ، فعلْتُ » •

ــ « اذن ، أيها السينيور ، أنا أفرض عليك مشيئتي الملكية التي تقضي بأن تجلو رئتيك وسائر اعضائك الصوتية ، لتكون في خدمة شخصي الملكي السامي » •

ــ « ومن الذي لا يتمنى ان يمثل دور « ريزيو »* أمام « ماري » كهذه كلها قدسية وسناء ؟ »

فصاحت رادّةً شعرها ــ بكل خصلاته المعقوصة ــ الى الوراء ، فيما كانت تمضي الى البيانو : « تعسا لريزيو ! أنا أعتقد أن « دايفيد » ** عازف الكمان كان شخصا تافها من غير ريب ، واني لأؤثر عليه « بوثوويل » *** الاسود • وعندي ان الرجل ليس شيئا اذا لم يكن في اعطافه شيء من طيْب الشيطان وعبيره • وفي ميسور التاريخ أن يقول ما يشاء عن جايمس هيببورن ولكني أؤمن انه يمثل النموذج الصحيح للبطل قاطع الطريق الوحشي الضاري الذي كان خليقا بي أن لا أتردد في منحه يدي » •

فصاح مستر روتشيستر : « أيهاَ السادة ، هل تسمعون ؟ والآن أيكم يشبه بوثوويل أكثر ما يكون ؟ »

فأجابه الكولونيل دينت : « يخيل الي انك أنت موضع التفضيل » •

فكان الجواب : « أقسم لك بشرفي اني شاكر لك هذا اللطف ! »

وهنا استهلت مس اينغرام ، التي جلست الآن ، في رشاقة متكبرة ، الى البيانو ، ناشرة ثوبها الثلجي حولها في سعة ملكية ، أقول استهلت العزف بفاتحة بارعة ، متحدثة في الوقت نفسه الى بعض القوم • لقد بدت شديدة الاعتداد بنفسها تلك الليلة • ولقد بدا وكأن كلماتها وسيْما وجهها لم يُقْصد بها الى اثارة اعجاب المستمعين اليها فحسب ، بل الى اثارة دهشهم أيضا • كان واضحا انها نزعت الى ان تبهرهم بشيء جريء الى أبعد الحدود حقا •

لقد هنفت ، وهي تداعب البيان بأناملها : « أوه ، لقد سئمتُ شبان عصرنا هذا ! انهم مخلوقات بائسة ضئيلة الجسم غير مؤهلين لان يخطوا خطوة واحدة ابعد من حديقة « بابا » ، بل انهم لا يذهبون الى هذا الحد من غير اذن « ماما » ورعايتها ! مخلوقات لا هم لهم الا التفكير بوجوههم الوسيمة ،

---

* هو دايفيد ريزيو David Rizzio (١٥٣٣ ؟ ــ ١٥٦٦) وكان موسيقيا ايطاليا اثيرا لدى ماري Mary ملكة الاسكتلنديين • (المعرب)

** أي ريزيو الموسيقي الايطالي الذي عرفنا به في الحاشية السابقة • (المعرب)

*** James Bothwell (١٥٤٦ ؟ــ١٥٧٨) الزوج الثالث لماري ملكة الاسكتلنديين(المعرب)

وأيديهم البضة ، وأقدامهم الصغيرة ، كأن للرجل ايما شـــأن بالجمال ! كأن الملاحة ليست امتيازا خاصا بالمرأة ، وهِبَة خصَّتها الطبيعة بها ، وميراثا من مواريثها الشرعية ! أنا أؤمن بأن المرأة الدميمة لطخة في محيًا الخليقة الوسيم • أما الرجال فيحســن بهم أن لا يشغلوا بالهم بغير التحلي بصفتين اثنتين : القوة والبسالة • ليكن شعارهم : « الصيد والقنص والحرب ، أما ما عدا ذلك فليس يساوي نَقْرة بالظُفْر » • ولو قد كنت رجلا اذن لكان هذا شعاري أيضا » •

ثم انها أضافت بعد تمهُّل لم يقاطعها خلاله أحد : « لقد عقدت العزم، في حال زواجي ، على أن لا أجد في زوجي منافسا لي • اني أريده أن يكون وسيلة الى اظهار حُسْني ، كما يُظهر الضد حُسْنَ الضد • أنا لن احتمل وجود أيما مزاحم على مقربة من العرش ، ولسوف اطالبه بولاء لا يتجزأ ، وبكلمة اخرى فان عواطفه ينبغي أن لا تكون موزعة بيني وبين الصورة التي يراها في مرآته • مستر روتشيستر ، في استطاعتك الآن أن تغني • سوف أعزف لك » •

فكان الجواب : « أنا الطاعة مجسَّدة ! »

— « دونك اذن اغنية من اغنيات القرصان • الا فاعلـــم اني أهيم بالقراصنة حبا • ومن أجل ذلك أسألك ان تفرغ روحك كلها في الاداء » •

— « أن أمرا يصدر من شفتي مس اينغرام لخليق به ان ينفخ الروح في ابريق حليب وماء » •

— « خذ حذرك اذن : اذا لم تنتزع اعجابي فسوف أخزيك بأن أظهر لك كيف ينبغي لمثل هذه الاشياء ان تؤدّى » •

— « الواقع ان هذا ضربٌ من مكافأة المرء على عجزه وتقصيره • ومن أجل ذلك سأحاول ان اخفق » •

— « انتبه جيدا ! اذا اخفقت عامدا متعمدا فعندئذ استنبط لك عقوبة متناسبة » •

— « على مس اينغرام ان تكون رؤوفة طويلة الاناة ، لأن في طاقتها أن تُنْزِل بي عقوبة تتجاوز حدود الاحتمال البشري » •

فأصدرت اللايدي أمرها قائلة : « ها ! أوضِحْ ! »

— « معذرة ، يا سيدتي • لا حاجة الى الايضاح • ان حسك المرهف نفسه يجب ان ينبئك بأن عَبْسة واحـــدة من عبساتك تغني عن عقوبة الموت » •

فقالت : « غنِّ » ، ومسَّت أصابع البيان ، كرة اخـــرى ، وانشأت تعزف على نحوٍ مشبوب •

وهنا قلت في ذات نفسي : « تلك هي الفرصـــة التي يحسن بي أن اغتنمها للانسحاب » • ولكن الاغنية التي تخللت اللحن اسرتني • كانت مسز فيرفاكس قد قالت أن صوت مستر روتشيستر جميل • والواقع إن صوته كان كذلك : صوتا خفيضا قويا عذبا ، أفرغ فيه احساسه كله وقوته كلها . فهو

يشق سبيله من الاذن الى القلب ، ليوقظ هناك ضروبا من الاحساس غريبة · وتريثت حتى تلاشت آخر ذبذبة عميقة ملأى ، حتى استأنفت موجة الحديث ، التي كُبحت لحظة ، اندفاعها الاول · عندئذ فارقت زاويتي الظليلة وانسللت خارجة مَن الباب الجانبي ، وكان لحسن الحظ غير بعيد عني · ثم ان مجازا ضيقا افضى بي الى الردهة ، وبينا كنت اجتازه استشعرت أن واحدا من رباطي حذائي كان محلولا ، فوقفت لكي اعقده ، منحنية من أجل ذلك فوق البساط المنشور عند ادنى السلم · وفجأة سمعت باب حجرة الطعام يُفتح فيخرج منه واحد من السادة · ونهضت على عجل فاذا بي اجد نفسي معه وجها لوجه : كان السيد الذي خرج من الباب هو مستر روتشيستر ·

وسألني : « كيف انت ؟ »

ـ« بخير كثير ، يا سيدي » ·

ـ « لمَ لم تأتي وتتحدثي الي في حجرة الاستقبال؟ »

وخطر لي ان أوجه هذا السؤال نفسه الى طارحِه · ولكني لم اجترىء على ذلك · فأجبت :

ـ « أنا لم ارد ان أزعجك ، بعد ان بدا لي انك كنت في شغل شاغل ، يا سيدي » ·

ـ « وما الذي كنت تفعلينه في أثناء غيابي ؟ »

ـ « لا شيء جديرا بالذكر · كنت ادرس آديل كالعادة » ·

ـ « وكنت تزدادين شحوبا ، الى حد بالغ ، كما تبدّى لي من النظرة الاولى · ما بكِ ؟ »

ـ « لا شيء على الاطلاق ، يا سيدي » ·

ـ « هل أصبتِ بزكام ما في تلك الليلة التي اغرقتني فيها نصف اغراق ؟ »

ـ « لا ، لم اصب بشيء من ذلك » ·

ـ « ارجعي الى حجرة الاستقبال · لقد غادرتِها أبكر مما ينبغي » ·

ـ « أنا متعبة ، يا سيدي » ·

وحدق الي لحظة ، ثم قال : « ومحزونة بعض الشيء · علام حزنك هذا ؟ أخبريني » ·

ـ « لا شيء ، لا شيء ، يا سيدي · أنا لست محزونة » ·

ـ « ولكني اؤكد انك محزونة ··· محزونة جدا حتى ليخيل الي ان في ميسور بضع كلمات اخرى ان تفجّر الدموع من عينيك ـ الواقع اني أراها الآن في مقلتيك ، لامعة مترقرقة ، وان لؤلؤة منها قد زلّت عن الهدب وسقطت على السوسنة · ولو قد كان لدي متسع من وقت ولو لم أكن اخشى أشد الخشية ان يمر بنا خادم مزعج مهذار اذن لعرفت ما معنى هذا كله · حسنا ، سوف التمس لك الليلة عذرا ، ولكن عليكِ ان تفهمي أني اتوقع وفودك على حجرة الاستقبال كل ليلة ، ما بقي ضيوفي في رحابي ، تلك هي رغبتي ، فلا

تغفليها • والآن ، أمضي في سبيلك ، وارسلي « صوفي » لكي تأخذ آديل ، طابت ليلتك يا •••»

وأمسك عن الكلام ، وعضّ على شفتيه ، وفارقني على نحو مفاجىء •

١٨

كانت اياما مرحة بهيجة تلك التي قضاها الضيوف في قصر ثورنفيلد ، أياما كلها عمل" ايضا • لشد ما كانت مختلفة عن الثلاثة الشهور الاولى التي سلختها تحت سقفه والتي كانت مفعمة بالسكينة ، والرتابة ، والاعتزال ! لقد بدا الآن وكأن جميع الاحاسيس المحزونة قد طُردت من القصـــر ، وان جميع المعاني الكئيبة قد نُسيت : كان ثمة حياة في كل مكان ، وحركة طوال الليل والنهار • ولم يعد في ميسورك الآن أن تجتاز بالرواق ـ وكان من قبل ساكنا الى أبعد حد ـ أو أن تدخل الى الحجرات الامامية ـ وكانت من قبل خالية الى أبعد حد ـ من غير ان تلتقي بوصيفة نشيطة لاحدى السيدات ، أو بخادم متأنق لاحد السادة •

كان المطبخ ، وبيت المؤونة ، وقاعة الخدم ، والردهة الامامية مفعمة كلها بالحيوية والنشاط • ولم تكن ابهاء الاستقبال لتخلو وتهدأ الا حين تدعو سماء الربيع البهيج واشعة شمسه الوادعة محتليّها الى الارض الفضاء • وحتى حين كان التغير يُلمُّ بذلك الجو الجميل فتنهمر الامطار طوال أيام على غير انقطاع لم يكن الفتور ليتطرق الى مرح القوم وابتهاجهم • على العكس ، لقد كان الحظر المفروض على اسبـــاب المتعة في الهواء الطلق لا يزيـــد ضروب التسليـــة في داخل الجدران الا حياة وتنوُّعا •

وتساءلت ما الذي سوف يفعلونه خلال اول ليلة اقتُرِح فيها اجراء تعديل في أسباب التسلية : لقد تحدثوا عن رغبتهم في أن يلعبوا « لعبة الاحاجي » ❋ ولكني ـ لعظيم جهلي ـ لم أفهم هذا الاصطلاح • وسرعان ما دُعي الخدم الى القاعة ، واخرِجت موائد حجرة الطعام ، وعُدّلت أوضاع المصابيح ، وصُفّت الكراسي على شـــكل نصف دائرة مواجهة للقنطـــرة • وفيما كان مستر روتشيستر وغيره من الســـادة الاماجد يشـــرفون على هذه التعديلات كانت السيدات يصعدن السلالم ويهبطنها داعياتٍ وصائفهنَّ برنّات الاجراس • واستُدعيَتْ مسز فيرفاكس لتدلي بما لديها من معلومات عما يحتويه القصر من شالات ، وفساتين ، وبياضات من مختلف الصنوف والانواع • وقُلِبَت خزائن مخصوصة ، في الدور الثالث ، رأسا على عقب ، وحملت « الأماء »

❋ charades لعبة يلعبها الانكليز داخل الجدران ، وفيهـــا يمثل اللاعب او اللاعبون كلمة من الكلمات او معنى من المعاني تمثيلا صامتا ، ويطلب الى سائر القوم ان يحزروا الكلمة او المعنى • (المعرب)

محتوياتها من تنانير موشّاة موسّعة بأطواق صـــلبة ، وسترات نسائية فضفاضة مخيطة من « الساتان » ، واقمشة ســوداء ، وذيول فساتين من « الدانتيل » ـ حملت الاماء هذا كله الى الدور الارضي اكداسا اكداسا · ثم اجريَت عملية تنخّل وغربلة ، ليُحمَل ما وقع عليه الاختيار ، بعد ذلك ، الى المقصورة المحاذية لحجرة الاستقبال ·

وفي غضون ذلك ، كان مستر روتشيستر قد دعـا السيدات ، كرة اخرى ، الى التحلّق حوله ، وكان قد شرع يختار « فريقه » من بينهن · وقال : « مس اينغرام سوف تكون من حصتي ، طبعا » · وبعد ذلك اختار الآنستين ايشتون ، ومسز دينت ، ونظر الي ، وشاءت المصادفة ان أكون على مقربة منه ، اذ كنت أشبك سوار مسز دينت بعد ان انفكّ ·

وسألني : « هل تحبين ان تشــاركي في اللعبة ؟ » فهززت رأسي علامة النفي · ولم يلحّ علي في ذلك ، وكنتُ اخشى ان يفعل : لقد اجاز لي ان ارجع في هدوء الى مقعدي المألوف ·

عندئذ انسحب هو واعوانه الى ما وراء الستارة ، وقعد الفريق الآخر ـ وكان برئاسة الكولونيل دينت ، على الكراسي التي رُصِفت على صورة هلال · ولمحني احد السادة ـ مستر ايشتون ـ وبدا وكأنه اقترحَ ان اشاركهم اللعب ، ولكن اللايدي اينغرام سارعت الى رفض الاقتراح · لقد سمعتها تقول : « لا · انها تبدو اشد بلاهة من ان تشارك في ايما لعبة من هذا النوع » ·

وما هي الا لحظات حتى رنّ جرس ، وارتفعت الستارة · وداخل القنطرة رئي شخصُ السير جورج لين ، الضخم الجسم ـ وكان مستر روتشيستر قد ضمّه الى فريقه ـ متلفّعا في ملاءة بيضاء · وامامه ، على احدى الموائـد كان سِفر مفتوح ، والى جانبه ، وقفت آيمي ايشتــون ، متدثرة بمعطـف مستر روتشيستر ، وفي احدى يديها كتاب · ورن شخص غير مرئيّ الجرس رنينا مرحا · وعندئذ وثبت آديل (التي كانت قد اصرّت على الانضمام الى فريق كافلها) الى الامام ، ناثرةً حولها محتويات سلة رياحين كانـت تحملها في ذراعها · وبعد ذلك ظهر شخصُ مس اينغرام البهيْ متّشحا بالبياض ، وعلى رأسها خمار طويل ، وحول جبينها اكليـل مـن ورود · لقـد مشى مستر روتشيستر الى جانبها ، وراحا يتقدمان معا نحو المائدة · ثم انهما ركعا ، بينا اتخذت مسز دينت ولويزا ايشتون وقد اتشحتا ايضا بالبيـاض ، موضعيهما خلفهما · وعقبت ذلك شعائر مُثلتْ تمثيلا ابكم ، فلم يكن من العسير على المرء ان يحزر ان المشهد يمثل حفلة زواج · وعند انتهاء تلك الشعائر تشاور الكولونيل دينت واركان فريقه تشاورا مهموسا استمر دقيقتين اثنتين ، وبعد ذلك صاح الكولونيل :

ـ « عروس ! » فانحنى مستر روتشيستر ، واسدلت الستارة ·

وانسلخت فترة غير يسيرة قبل ان تُرفع الستـارة كرة اخرى · فاذا بارتفاعها يكشف عن مشهدِ مُعَدٍّ على نحو اكثر احكاما من المشهد الاول ·

كان مستوى حجرة الاستقبال ، كما سبقت مني الملاحظة ، اعلى من مستوى حجرة الطعام بدرجتين اثنتيــن • وفوق الدرجة العليــا ، بدا حوضٌ رخامي ضخم وُضِع على مبعدة ياردة او ياردتين داخل حجرة الاستقبــال ، حوض عرفت فيه احدى حلي المُسْتَنْبَت الزجاجي ، حيث كان يقوم عادةً ، محوطا بنباتات مجلوبة نادرة ، آهلا بالسمكَ الذهبي • لقد نقلوه من هناك متجشِّمين في ذلك بعض العناء ، بسبب من ضخامته وثقله •

والى جانب هذا الحوض رئي مستر روتشيستر جالسا على السجادة ، متشحا بعدد من الشالات ، ومعتمرا بعمامته • كانت عيناه السوداوان وبشرته السمراء وملامحه المشرقية متناغمة مع زيه تناغما كاملا : لقد بدا وكأنه النموذج الحقّ لأمير شرقي ، وكأنه جلاد مشنقة تركي او واحد من ضحاياها • وما هي الا لحظة حتى برزت مس اينغرام • كانت هي ايضا ترفل في زي شرقي : لقد عقدت حول خصرها وشاحا قرمزيا ، وعقدت حول صدغيها منــديلا مطرَّزا ، وكانت ذراعاها المفرغتان في قالب الجمال عاريتين ، وكانت احداهما مرفوعة لكي تسند بها جرَّة توازنت على رأسها في رشاقة • كان شكلها واساريرها ، وبشرتها وهيئتها العامة كلها تذكّر المرء بصورة اميرة عبرانية من اهل العهد الابوي القديم • ولا ريب في ان هذه هي الشخصية التي ارادت مس اينغرام ان تمثلها •

وتقدمت نحو الحوض ، وانحنت فوقه وكأنما تودّ ان تملأ جرتها ، ثم عادت فرفعتها الى رأسها من جديد • وهنا بدا وكأن الشخص القاعد عند حافة البئر قد بادرها بكلام ما ، ملتمسا منها شيئا ، « فسارعت هي ، وانزلت جرتها عن رأسها ، وقدمت اليه جرعة ماء » • عندئذ اخرج من صدر ثوبه علبة حليٍّ ، وفتحها واخرج منها اســاور باهرة وقرطيـــن بهيَّين • فتظاهرت بالدهش والاعجاب ، وركع هو فطرح الكنز عند قدميها • فبــدتْ على محياها امــارات الجذل وعدم التصديق ، فما كان من الرجــل الغريــب الا ان طوَّق بالاساور ذراعيها ، وزين بالقرطين اذنيها • لقد كان ذلك هو مشهد اليعازر وروبيكا ، لا ينقصه غير الابل •

وراح افراد الفريق المتكهِّن يتهامسون كرة اخرى • لقد بدا وكأنهم لم يستطيعوا الاتفاق على الكلمة ـ او المقطع ـ التي يمثلها هذا المشهد ، وعندئذ طالب الكولونيل دينت ، الناطق بلسانهم ، بعرض المشهد الاخير ، فأسدلت الستارة من جديد •

حتى اذا رفعت للمرة الثالثة لم يظهر غير جانب من حجرة الاستقبال ، في حين حجب سائرَها حاجز (بارافان) مصنوع من قماش داكنٍ خشن • كان الحوض الرخامي قد اقصي ، وكانت قد نهضت مكانه مائدة مصنوعة من خشب الشربين وكرسي من كراسي المطبخ ، وكانت هذه الاشيــاء مرئية على ضوء مصباح باهت جدا ، بعد ان اطفئت الشموع كلها •

وسط هذا المشهد الحقير جلس رجــل ناكس الرأس ، مسنــدٌ يديه

المقبوضتين الى ركبتيه • كان هو مستر روتشيستر ، عرفته في سهولة ويسر ، على الرغم من ان وجهه المتسخ ، وبزّته المشوشة (كانت سترته تتدلى من احدى ذراعيه ، وكأنما كان ظهرها قد مُزّق ـ او كاد ـ في مشاجرة) وقسمات وجهه اليائسة المقطبة ، وشعره الخشن الشائك كان خليقا بها ان تخفي هُويته• لقد تحرك ، فتناهى الى آذاننا صليل : كان معصماه مكبّلين بالاصفاد •

فهتف الكولونيل دينت : « اصلاحية ! »، وحلّت الاحجية •

وبعد ان انقضت فترة من الوقت كافية لتمكين الممثلين من ارتداء ملابسهم العادية انقلبوا الى حجرة الطعام من جديد • كان مستر روتشيستر يقود مس اينغرام ، وكانت مس اينغرام تطري تمثيله •

لقد قالت : « اتدري أني احببتك اكثر ما احببتك وانت تمثّل الشخصية الثالثة والاخيرة ؟ اوه ، لو ان الدهر سلّف بك بضع سنوات اذن لكنت قاطع طريق ماجدا شهما يكاد يعزُ نظيره ! »

فتساءل ملتفتا نحوها : « هل ازيل السُخام كله عن وجهي ؟ »

ـ « اجل ، مع الاسف • وكلما كان زواله اتمّ كان الاسف اعظم ! فليس ثمة ما يلائم بشرتك اكثر من هذا الصبغ الذي يخلع عليك سيْما سفاح من السفاحين » •

ـ « واذن فقطاع الطرق يروقون لك ؟ »

ـ « اجل ، واني لأوثر قاطع الطرق الانكليزي على قاطع الطرق الايطالي ، ولست أؤثر على هذين غير قرصان مشرقيّ » •

ـ « حسنا • وايا ما كنتُ فيتعيَّن عليك ان تذكري انك زوجتي • لقد عقِد قراننا منذ ساعة ، في حضرة هؤلاء الشهود كلهم » •

فقهقهت وشاع الدم في وجنتيها •

وتابع مستر روتشيستر : « والآن ، يا دينت ، جاء دورك » •

حتى اذا انسحب الفريق الاخر احتل مستر روتشيستر ورفاقه المقاعد الشاغرة • وجلست مس اينغرام الى يمين زعيمها ، في حين شغل سائر المتكهنين الكراسي القائمة الى جانبه وجانبها • والحق اني ما عدت الان اراقب الممثلين ، وما عدت انتظر ارتفاع الستارة في شوق بالغ • كان انتباهي منصبّا على النظارة : وكانت عيناي ـ اللتان سُمِّرتا من قبلُ على القنطرة ـ منجذبتين الان على نحوم لا يقاوَم نحو صف الكراسي نصف الدائري • انا لم اعد اذكر اية احجيَّة مثّلها الكولونيل دينت وفريقه ، واي كلمة اختاروها ، وكيف أدوا ادوارهم • ولكني لا ازال ارى الى الان المشاورة التي كانت تدور اثر كل مشهد : انا ارى مستر روتشيستر يلتفت الى مس اينغرام، ومس اينغرام تلتفت اليه • انا اراها تميل برأسها عليه حتى لتكاد غدائرها تمسُ كتفه وتتماوج على خده ، انا اسمع همسهما المتبادل ، انا اذكر نظراتهما المتبادلة • بل اني لا ازال اذكر في هذه اللحظة طرَفا من الشعور الذي اوقعه المشهد في نفسي •

لقد اخبرتك من قبل ، ايها القارىء ، اني تعلمت ان احب مستر روتشيستر • والواقع اني لم استطع الان ان اقلع عن حبه لمجرد اني وجدته يكف عن النظر اليّ •• لمجرد اني قضيت في حضرته ساعات من غير ان يدير عينيه نحوي مرة واحدة ••• لمجرد اني رأيت اهتمامه كله تستأثر به سيدة عظيمة تأنف ان تمسّني بأهداب فستانها وهي تمرّ بي ، سيدة لو اتفق لعينيها السوداوين ان وقعتا علي مصادفةً اذن لاشاحت بهما عني وكأنما كانت تشيح بهما عن شيء احقر من ان يستحق منها التفاتة • لا ، انا لم استطع ان اقلع عن حبه لاني تأكدت انه سوف يتزوج وشيكا من هذه السيدة نفسها ، او لاني قرأت في وجهها كل يوم معاني اطمئنانها المتكبر الى نيّاته نحوها ، او لاني شهدت منه في كل ساعة ضربا من مطارحتها الغرام قد لا يكون لامباليا وقد يؤثر ان يُسْعَى اليه بدلا من ان يسعى هو الى المحبوب ولكنه آسرٌ في لامبالاته هذه ، لا يقاوَم حتى في تكبُّره ذاك •

ولم يكن في هذه الملابسات كلها ما يسكّن الحب او ينفيه من الفؤاد ، وان يكن فيها كثير مما يورث اليأس • ولعلك ان تظن ، ايها القارىء ، انه كان فيها ايضا كثير مما يولد الغيرة ، ان كان لامرأة في مثل مركزي ان تجترىء على الشعور بالغيرة من امرأة في مثل مركز مس اينغرام • ولكني لم اكن غيورا ، او اني لم اكن كذلك الا في احوال نادرة جدا : ــ ان طبيعة الالم الذي قاسيته لا سبيل الى تفسيرها بتلك اللفظة • كانت مس اينغرام غير جديرة بأن يغار المرء منها ، كانت ادنى من ان تثير في النفس هذا الشعور • التمس عفو القارىء لهذا التناقض الظاهري ، فأنا اعني ما اقول • لقد كان مظهرها الخارجي بهيًّا جدا ، ولكنه زائف غير حقيقي • كانت جميلة ، ذات براعات ساطعة ، ولكن عقلها كان سقيما ، وفؤادها كان مجدبا بالفطرة : ان ايما شيء لم يكن ليتفتح تفتُّحا تلقائيا في تلك التربة ، وان ايما ثمرة طبيعية غير منتزعة بالقَسْر لا تزهو ثمة بنضرتها • انها لم تكن صادقة غير متكلفة ، ولم تكن ذات فكر اصيل : كانت كثيرا ما تردد بعض العبارات الطنانة المنتزعة من الكتب ، ولكنها لم تدلِ في ايما يوم من الايام بأيما رأي خاص ، ولم يكن لها مثل هذا الرأي • كانت تتحدث عن العاطفة حديث المحبذ المُطري ، ولكنها لم تعرف عاطفتي العطف والشفقة • كانت جوانحها خلوا من الحنان والصدق ، وكثيرا ما تكشّفت عن ذلك من طريق اطلاق العنان ، على نحو ظالم ، للكراهية الحقود التي كانت تضمرها لآديل الصغيرة ، فهي تردها عنها ، نابزةً اياها بمختلف الالقاب المهينة ، اذا ما اتفق لها ان اقتربت منها ، وهي تأمرها احيانا بمغادرة الحجرة ، وتعاملها دائما في برود وفظاظة • وكانت عيون اخرى غير عينيَّ تراقب هذه الظواهر الخلقية ايضا ــ تراقبها عن كثب ، وفي انتباه وذكاء • أجل ، لقد كان عروس المستقبل ــ مستر روتشيستر نفسه ــ يُخضع خطيبته لرقابة موصولة • ومن هذه الحصافة بالذات ، من هذا الاحتراس ، من هذا الوعي الكامل الواضح لنقائص مليحته ، ومن هذا الفتور الجلي في عاطفته نحوها نشأ الالم الذي كان يعذبني تَعذيبا ما ينقضي •

لقد رأيت انه يزمع الزواج منها لاسباب عائلية او ربما لاسباب سياسية ، ذلك بأن منزلتها الاجتماعية والمكانة التي يتمتع بها انسباؤها واصدقاؤها كانتا تلائمانه · لقد شعرت انه لم يهَبْها حبه ، وانها لا تملك من المؤهلات ما يجعلها قمينة بأن تنتزع منه ذلك الكنز · ذلك كان جوهر المسألة ، وتلك كانت هي النقطة الذي مُسَّت عندها الاعصاب واثيرت ·· والتي حُضِنت عندها الحمَّى وغُذّيت : انها لا تستطيع ان تفتنه ·

ولو قد وفِّقت الى احراز النصر على التو ، ولو قد القى السلاح امامها وطرح قلبه عند قدميها اذن لكان خليقا بي ان احجب وجهي واستدير الى الجدار ، وان اموت (بالمعنى المجازي) في سبيلهما · ولو قد كانت مس اينغرام امرأة صالحة نبيلة النفس وهبتها الطبيعة قوة وحماسة وحنانا ورجاحة عقل اذن لتعين علي ان اخوض صراعا مهلكا مع نمريْن اثنين ، هما الغيرة واليأس · واذن لتعين علي ، وقد مُزّق قلبي وسُحِق ، ان اعجَبَ بها ، ان اقرّ بتفوقها ، وان استسلم للطمأنينة بقية ايام حياتي ، وكلما كان تفوقها اكمل كان اعجابي اعمق ، وكانت طمأنينتي اصدق وأصح · اما في الوضع الراهن فقد كان في مراقبتي جهود مس اينغرام بسبيل استهواء مستر روتشيستر ، وفي مشاهدتي اخفاقها المتكرر ـ من غير ان تعي هي ان جهودها قد مُنيَت بالفشل ، متوهمةً على غير طائل ان كل سهم اطلقته كان يصيب الهدف ، معتزّة بالنجاح اعتزازا مخبّلا في حين كان غرورها ورضاها عن نفسها لا يزيدان الرجل الذي رغبت في ان تفتنه الا صدودا ونفورا ـ اقول كان في هذا كله ما اخضعني ، في آن معا ، لاهتياج موصول ولكبح لا يعرف الرحمة ·

ذلك بأنني رأيت ـ حين اخفقَتْ ـ كيف كان من الممكن ان تتحقق بالنجاح · فقد كنت اعلم ان السهام التي إرتدت على نحو موصول عن صدر مستر روتشيستر والتي تساقطت عند قدميه من غير ان تمسّه بسوء كان في امكانها لو رمَتْها يدٌ اشد ثباتا ان تنفذ الى صميم قلبه الفخور ، بعد ان تدعو الحب الى عينيه الصارمتين ، والرقة الى وجهه الساخر · بل لقد كنت اعلم ان انتصارا صامتا كان في الامكان احرازه بغير سلاح ·

وسألت نفسي : « ما الذي يجعلها غير قادرة على مزيد من السيطرة عليه ، وهي التي تنعم بحق الاقتراب منه الى هذا الحد ؟ ليس من ريب في انها لا تستطيع أن تحبه حقا ، او لا تستطيع ان تحبه حبا مشبوبا بعاطفة صادقة ! ولو قد كانت قادرة على ذلك اذن لما احتاجت الى اطلاق ابتساماتها بمثل هذا السخاء البالغ ، وتصويب نظراتها على هذا النحو الموصول ، ولما احتاجت الى تكلف هذه المظاهر المجوّدة كل هذا التجويد ، واصطناع هذه الاناقات المتنوعة الى هذا الحد · لقد بدا لي انه كان في ميسورها ، بمجرد الجلوس بجانبه في هدوء ودعة ، وبشيء من الاقتصاد في الكلام وارسال النظرات ، ان تمسي ادنى الى قلبه · ولقد سبق لي ان رأيت في وجهه انطباعة مختلفة اختلافا بعيدا عن تلك التي تقسّيه الان فيما هي تخاطبه بكثير من النشاط والمرح · ولكن هذه

الانطباعة انبعثت آنذاك من تلقاء نفسها ، انها لم تُنتَزَع انتزاعا بضروب من الحيل المبهرجة والمناورات المدروسة · ولم يكن على المرء الا ان يتقبّلها ـ والا ان يجيب عن اسئلته في غير ما ادعاء ، وان يوجه الخطاب اليه عند الاقتضاء في غير ما تجهُم ـ ليجد في الحال انها نمتْ وغدت الطف وابهج ، وانها اوقعت الدفء في نفسه مثل اشعة شمس محيية · كيــف ستوفق الى ارضائه حين يجمع الزواج ما بينهما ؟ لست اظن انها ستوفق الى ذلك ، ومع هذا فقد توفق بطريقة ما · وعلى اية حال فأنا أؤمن ايمانا راسخا بأن زوجته سـوف تكون اسعد امرأة تشرق عليها الشمس » ·

انا لم اقــل حتى الان ايما شيء يُشعِر باستنكاري لرغبــة مستـر روتشيستر في الزواج بدافع من المصلحة والاعتبارات العائلية · ولقد دهشت عندما اكتشفت ، اول ما اكتشفت ، ان هذه كانت هي نيته : كنت قد حسبتُه رجلا لا يمكن ان يتأثر بعوامل مبتذلة مثل هذه في اختيار الزوجة ، ولكني كلما اطلت التفكير في مركز الفريقين الاجتماعي وثقافتهما الخ استشعرت ان لا حق لي في ادانته وادانة مس اينغرام او في لومهما بسبب من تصرفهما وفقا لفكرات ومبادىء نُشّئا عليها ، من غير ريب ، منــذ طفولتهما · ان افراد طبقتهمـا ليعتنقون هذه المبادىء · لقد حسبــت ، آنذاك ، ان لهما اسبابا تبرر هــذا الاعتناق ، ولكنها اسباب لم استطع ان ادرك كنهها · ولقد بدا لي اني لو كنت رجلا مثله اذن لما ضممت الى صــدري الا زوجة حبيبة الى قلبي ، ولكن مجرد وضوح افضلية هذا الضرب من زواج الحب الذي يورث الرجل السعادة والهناءة اقنعني بأنه لا بد ان تكون ثمة اعتبارات تحول دون تبنّي الناس له على نحو شامل ، اعتبارات كنت اجهلها كل الجهل · ولولا ذلــك لكان خليقا بالبشر كلهم ـ وقد كنت على مثل اليقين من ذلــك ـ ان يتصرفوا مثلما وددتُ ان اتصرف ·

ولكن الايام كانت قد اخذت تجعلني شديدة التساهل في بعض النقاط الاخرى ـ كشأني في هذه النقطة ـ مع مستر روتشيستر · كنت قد شرعت انسى جميع عيوبه ، التي كنت من قبل اقف منها موقف الحذر البالغ · لقد كان من دأبي في ما مضى ان احاول دراسة جوانب شخصيته كلها ، ما طاب منها وما خَبُثَ ، وان ازن كلا منها لاصـدر بعد ذلك حكما عادلا · اما الان فلم اعد ارى فيها اي شيء خبيث · لقد أمست سخريته التي كانت من قبل تثير نفوري وفظاظته التي افزعتني في يوم من الايام مجردَ توابل حادّة في طبق طعام ممتاز : كان وجودهما حرّيفا ، ولكن غيابهما كان يوقع في النفس معنى من التفاهة النسبية · اما ذلكَ الشيء الغامض ـ هل كان انطباعة مشؤومة ام محزونة ، انطباعة مصمّمة ام يائسة ؟ ـ الذي ينكشف في عينيه ، بين الفينة والفينة ، للمتأمل البصير ثم لا يلبث ان ينغلق قبل ان يوفــق المرء الى سبر غوره العجيب المنفتح على نحو جزئي ، ذلك الشيء الذي كان من دأبه ان يوقع في قلبي الرعب والرغبة في الانكماش وكأني كنــت هائمة على وجهي في

هضابٍ بركانية السمات ثم استشعر فجأة ان الارض تميد من تحت قدمي وأراها تفغر فاها ، ذلك الشيء بالذات كنت لا افتأ اشهده ، بين الفينة والفينة ، بقلب واجف ، ولكن ليس بأعصاب مشلولة • وبدلا من ان ارغب في تحاشيه ، اصبحت لا اتوق الا الى الجرأة على التكهن به • ولقد خيّل الي ان مس اينغرام امرأة سعيدة ، لانها سوف توفق ذات يوم الى انعام النظر في تلك الاعماق ، في اناة ورَيْث ، فتكتشف اسرارها ، وتحلل طبيعة هذه الاسرار •

وفي غضون ذلك ، بينا كنت لا افكر الا في سيدي وعروسه المقبلة ـ لا ارى غيرهما ، ولا اسمع غير حديثهما ولا اولي اهتمامي غير حركاتهما ـ كان سائر القوم منهمكين في اشواقهم ومُتَعهم المستقلة الخاصة • لقد واصلت اللايدي لين واللايدي اينغرام اضاعة الوقت في احاديث رزينة ، كانتا خلالها تهزان برأسيهما المتوجين بـ « عمامتيـن » هزات ذات مغزى ، وترفعان ايديهما الاربع في ايماءات مواجِهة تنمّ عن دهش او تحيّر او ذعر ، وفقا للموضوع الذي دارت عليه ثرثرتهما ، وكأنهما دميتان مجسَّمتان • وتحدثت مسز دينت الدمثة الى مسز ايشتون الانيسة ، ومنَّت كل منهما علي في بعض الاحيان بكلمة لطيفة او ابتسامةٍ مجامِلة • اما السير جورج لين ، والكولونيل دينت ، ومستر ايشتون فتناقشوا في السياسة ، او في شؤون الاقليم ، او قضايا العدالة • وغازل اللورد اينغرام آيمي ايشتون ، وعزفت لويزا وغنَّت لاحد السيدين « لين » او معه ، في حين اصغت ماري اينغرام في وهنٍ وفتور الى احاديث الآخر الرقيقة الراسخة بالتودد • وفي بعض الاحيـان كان القوم كلهم يقطعون حديثهم الجانبي ، وكأنما يفعلون ذلك باتفاق اجماعي ، ليراقبوا الممثلين الرئيسيين او يصغوا لهما ، اذ كان مستر روتشيستر على اية حال ومس اينغرام ـ بحكم ارتباطها الوثيق به ـ هما حياة الجماعة وروحها • كان اذا غاب عن الحجرة ساعة ، بدا وكأن فتورا ملحوظا قد انسلّ الى نفوس ضيوفه ، حتى اذا عاد خلع دخوله على الاحاديث حيوية جديدة •

ولقد افتُقد سلطانُه المحيي ، اكثر ما يكون الافتقاد ، في ذات يوم دعي فيه الى ميلكوت لقضاء بعض الاعمال ، وكان من غير المحتمل ان يرجع في ساعة مبكرة • كان ذلك الاصيل ماطرا • وكان الاتفاق قد انعقد على ان تقوم الجماعة بنزهة على الاقدام لرؤية مخيم من مخيمات الغجر نُصِبَ مؤخرا في ساحة عمومية وراء « هاي » ، فلما ارتحل مستر روتشيستر اضطروا الى ارجاء النزهة • لقد ذهب بعض المدعوين الى الاسطبلات ، وانصرف فريق منهم اصغر سنا ، مع السيدات الانضر شبابا ، الى لعب البليارد في حجرة البليارد • والتمست الارملتان اينغرام ولين السلوان في دورة هادئة من دورات لعب الورق • وكانت بلانش اينغرام ـ بعد ان ردَّت ، في صمت متشامخ ، بعض محاولات مسز دينت ومستر ايشتون لاستدراجها الى الحديث ـ قد شرعت تغمغم ، على البيانو ، عازفةً بعض الالحان العاطفية لتعود بعد ذلك فتبحث عن قصة في المكتبة ، حتى اذا وجدت طِلْبتها استلقت في توانٍ متكبِّر على

احدى الارائك ، واخذت اهبتها لكي تبدّد ، من طريق سحر الرواية ، ساعات الغياب الراشحة بالسأم . كان الصمت يرينُ على الحجرة والقصر ، وبين الفينة والفينة كان مرح لاعبي البليارد ليس غير ، يُسْمع من فوق .

كانت الشمس قد جنحت للغروب ، وكانت ساعة الجدار قد اعلنت ان موعد ارتداء ملابس العشاء قد آن ، عندما صاحت آديل الصغيرة وكانت راكعة على مقربة مني فوق المقعد القائم تحت عتبة النافذة في حجرة الاستقبال :

ـ « هو ذا مسيو روتشيستر ! لقد عاد ! »

فاستدرتُ ، ووثبت مس اينغرام من اريكتها ، ورفع الاخرون اعينهم عما كانوا فيه من اعمال وملاه ، اذ سُمعت في الوقت نفسه قرقعةُ عجلات ووقعُ حوافر خيل تثير الرشاش فوق حصباء الطريق الندية . كانت عربة من عربات البريد تقترب .

وقالت مس اينغرام : « ما الذي استحوذ عليه فجعله يعود على هذه الصورة ؟ لقد امتطى متن مسرور (الجواد الاسود) عندما غادر القصر ، اليس كذلك ؟ ولقد كان بايلوت معه ، فأي شيء فعله بالبهيمتين ؟ »

قالت ذلك وأدْنَتْ قوامها الطويل وملابسها الفضفاضة من النافذة الى حدٍّ اضطرني الى الانحناء الى الوراء حتى لقد كاد عمودي الفقري ينكسر . كانت اللهفة قد غلبت عليها فلم تلمحني بادىء الامر ، حتى اذا وقع نظرها علي زمت شفتها وانتقلت الى نافذة اخرى . ووقفت عربة البريد ، ورن الحوذي جرس الباب ، وترجّل سيد مُرتدٍ بزة سفر . بيد انه لم يكن مستر روتشيستر ، كان رجلا فارع الطول انيق المظهر ، غريبا من الغرباء .

وهنا صاحت مس اينغرام : « شيء يثير الحنق ! من الذي وضعك فوق النافذة (ووجهت الكلام الى آديل) ، ايتها القردة المتعبة ، لكي تذيعي اخبارا خادعة ؟ » ورشقتني بنظرة غضبى ، وكأني انا الجديرةَ بالملامة .

وفي الردهة سُمِع شيء من الاخذ والرد ، وسرعان ما دخل الوفد الجديد . لقد انحنى تحيةً للايدي اينغرام ، معتبرا اياها كبرى السيدات الحاضرات سنا .

وقال : « يبدو اني اقبلت في وقت غير مناسب ، يا سيدتي ، خلال غيبة مستر روتشيستر عن البيت . ولكني راجع من رحلة طويلة جدا . واحسب ان في استطاعتي استنادا الى ما بيني وبينه من ودٍّ قديم ، ان اجترىء على النزول في هذا القصر حتى يؤوب » .

كان مسلكه مهذبا . ولقد بدهتني نبرته في الكلام ، بوصفها غير مألوفة بعض الشيء ، ـ انها لم تكن اجنبية بالمعنى الدقيق ، ولكنها لم تكن في الوقت نفسه انكليزية خالصة . ولعل سنه كانت قريبة من سن مستر روتشيستر ، ـ بين الثلاثين والاربعين . كانت بشرته شاحبة على نحو فريد ، ولولا ذلك لكان رجلا بهي الطلعة ، عند النظرة الاولى بخاصة . حتى اذا راح المرء يتفرس فيه عن كثب اكتشف ان في وجهه شيئا لا يرضي ، او على الاصح شيئا لم

يستطع ان يوقع الرضا في النفس • كانت قسمـــات وجهه متناغمة ، ولكنها كانت مسترخية اكثر مما ينبغي • كانت عيناه واسعتين نجلاوين ، ولكن الحياة التي كانت تطل من خلالهما كانت تافهة فارغة ـ او هكذا ظننت على الاقل •

وبدّد الجرس الخاص بارتداء ملابس السهرة شمل الجماعة • ولم ار الوافد الجديد ، كرة اخرى ، الا بعد العشاء • لقد بدا آنذاك مطمئن النفس الى ابعد حد • ولكني كرهت سيماءه اكثر مما كرهتها من قبل ، فقد لاح لي انها قلقة وانها تعوزها الحياة في آن معا • كانت عيناه شاردتين ولكن شرودهما كان خلوا من المعنى ، ولقد اكسبه ذلك هيئة عجيبة لا اذكر البتة اني شهدت ضريبا لها من قبل • والواقع اني نفرت منه نفورا عظيما على الرغم من ملاحة وجهه وقربه الى النفس : فلم يكن ثمة اية قوة في ذلك الوجه الناعم البشرة ، البيضاوي الشكل ، ولم يكن ثمة اي عزم في ذلك الانف الاقنى ، وذلك الفم الصغير الشبيه بحبة كرز ، ولم يكن ثمة اي فكر في ذلـــك الجبين الخفيض المستوي ، ولا اي حزم في تلك العين البنية التي تفتقر الى التعبير •

وفيما كنت جالســـة في زاويتي المألوفة انظر اليه وقـــد انعكس ضوء الشمعدان ، الموضوع فوق رف الموقد ، على وجهه انعكاسا كاملا ـ اذ كـــان يحتل كرسيا ذا ذراعين ، ادناه الى قريب من النار ولم يكفّ عن ادنائه اليها على نحو موصول وكأنما كان البرد يستبد به ـ قارنت ما بينه وبين مستر روتشيستر • لقد بدا لي ـ مع الاحترام الواجب ـ ان الفروق بين ذكر اوز ناعم وبين صقر ضارٍ ، بين حَمَل وديع وبين حاميه من الذئاب ، الكلب الخشن الشعر الثاقب العينين ـ اقول لقد بدا لي ان هذه الفروق لا يمكن ان تكون اكبر من الفرق بينه وبين مستر روتشيستر •

كان قد تحدث عن مستر روتشيستر فقال انه صديق له قديم • وليس من ريب عندي في ان صداقتهما هذه لا بد ان تكون صداقة غريبة • انها مثل صارخ على صدق الحكمة القديمة القائلة « ان طرفَيْ النقيض يلتقيان » •

لقد جلس على مقربة منه رجلان او ثلاثة رجال ، فكان يقع في سمعي بين الفينة والفينة اطراف من حديثهم عبر الحجرة • انا لم استطع بادىء الامر ان افهم شيئا مما سمعته ، ذلك بأن حديث لويزا ايشتون وماري اينغرام ـ وكانتا جالستين في مكان مـــن الحجرة هو الي اقرب ـ شوّش علي الجمـــل المتقطعة التي تناهت الى اذني بين حين وآخر • وكانت هاتان السيدتان تتحدثان عـــن الغريب وتبديان رأيهما فيه • لقد اعتبرته كل منهما « رجلا وسيما » • وقالت لويزا انه « مخلوق فاتن » و « انها تعبده » واعتبرت ماري « فمه الصغير الحلو وانفه الرائع » مثلها الاعلى في الفتنة •

وصاحت لويزا : « ما ابدع جبينه الراشح بعذوبة الخلق ! انه املس الى ابعد الحدود ، منزّه عن تلك التغضنات المقطبة التي اكرهها كراهة التحريم ! وعينه وابتسامته ؟ انما آية في الوداعة ! »

« هنا دعاهما مستر هنري لين ـ وقد وقعت دعوته هذه في نفسي احسن

موقع ـ الى الجانب الاخر مـــن الحجرة ليبتّوا في امر ما ذي صلة بالنزهة المرجأة الى ساحة هاي العمومية ٠

لقد اصبح في ميسوري ، الان ، ان اركز انتباهي على الجمع المتحلّق حول النار ، وسرعان ما فهمت ان الوافد الجديد يدعى مستر مايسون ، ثـم علمت انه وصل الى انكلترة منذ ساعات ليس غير ، وانه قادم من احد البلدان الحارة ، وهذا من غير ريب ما جعل وجهه على ذلك الشحوب كله ، وما جعله يدني كرسيه الى المستوقد كل هذا الادناء ويتـــدثر بمعطف ، ضمن جدران البيت ٠ وسرعـــان ما دلّ ورود هـــذه الكلمـــات ، جامايكا ، كينغستون ، سبانيشتاون ، في حديثه على انه كان يقيم في جزائر الهند الغربية ٠ وما هي الا لحظات حتى استنتجت ـ في شيء غير قليل مـــن الدهش ـ انه كان قد التقى هناك بمستر روتشيستر وتعرف اليه اول ما تعرّف ٠ لقد تحدث عن كراهية صديقه للقيظ اللاهب ، والرياح الهوج ، وفصول المطر في تلك الديار ، والواقع اني كنت اعرف ان مستر روتشيستر كان في ما مضى رحالة كثير الاسفار ، فقد سبق لمسز فيرفاكس ان قالت ذلك ، ولكني حسبت ان اسفاره هذه لم تتعدّ حدود القارة الاوروبية ، اذ لم يقدر لي ان اسمـــع ـ حتى في تلك اللحظة ـ اي الماع الى رحلات له في ديار اشد بعدا ٠

وكنت مستغرقة في التفكير في هذه الاشياء عندما قطعـــت علي خيط تأملاتي حادثة ما ، حادثة غير متوقعة بعض الشيء ٠ ذلك بأن مستر مايسون ، وقد ارتعد حين اتفق لاحدهم ان فتح الباب ، طلب مزيدا من الفحـــم لاذكاء النار ، التي كانت قد خبت ، برغم ان رمادها المتراكم كان لا يزال يتوهـــج بالحرارة والحمرة ٠ ووقف الخادم الذي جاءه بالفحم ، فيما هو يغادر الحجرة ، على مقربة من كرسي مستر ايشتون وحدّثه في صوت خفيض بكلام لم اسمع منه الا هذه الالفاظ : « امرأة عجوز » ، ـ مزعجة الى اقصى حد » ٠

فاجابه القاضي : « قل لها انهـــا اذا لم تنصرف وضعـــت قدميها في الدّهق ※ » ٠

فقاطعه الكولونيل دينت : « لا ٠٠ على رسلك ٠ لا تطردها يا ايشتون ٠ فقد نستطيع ان ننتفع بها ٠ ومن الخير لنا ان نشاور السيدات » ٠

ثم جهر بالكلام واضاف : « ايتها السيدات ، لقد تحدثتنّ عن الذهـــاب الى ساحة « هاي » العمومية لتقمن بزيارة مخيم الغجر ٠ وها ان « سام » يقول ان في حجرة الخدم ، في هذه اللحظة بالذات ، واحدة من العجـــائز ذوات الحدَبات ، وانها تصر على الاذن لها في المثول امام « النخبة المختارة » لكي تكشف لافرادها عن طوالعهم ٠ فهل ترغبن في الاستماع اليها ؟ » ٠

فصاحت اللايدي اينغرام : « لست اشك ، ايها الكولونيل ، في انـــك لن تشجع مثل هذه الدجالة الوضيعة ٠ اطردها في الحال ، مهما كلف الامر ! »

※ الدهـــق stocks آلة خشبية لتعذيب المجرمين ٠

فقال الخادم : « ولكني لا اقوى على اقناعها بالانصراف ، يا سيدتي النبيلة ، بل لا يقوى على ذلك اي من الخدم · ان مسز فيرفاكس مجتمعة بها الان تتوسل اليها ان تنصرف ، ولكنها اتخذت لنفسها كرسيا وقعدت على مقربة من نار المستوقد وهي تقول ان ايما قوة لن تستطيع ان تزحزحها من هناك حتى يؤذن لها في الدخول الى هنا » ·

فسألته مسز ايشتون : « ماذا تريد ؟ »

ـ « هي تقول ، يا سيدتي ، انها تريد ان تكشف لحضرات الاعيان عن طوالعهم ، وهي تقسم قائلة ان عليها ان تفعل ذلك ، وانها لا بد ان تفعله » ·

فتساءلت الآنستان ايشتون في آن معا : « وكيف شكلها ؟ »

ـ « مخلوقة دميمة تتقزز النفس منها ، ايتها الآنسة · سوداء مثل قدر يعلوها السخام ، تقريبا » ·

فصاح فريدريك لين : « ولكنها عرافة حقيقية ! دعونا ندخلها في غير تردد » ·

واضاف : اخوه : « بلا ريب · وانه لمن اعظم الخطل والخسارة ان نضيع هذه الفرصة المفعمة باسباب المرح والهزل » ·

فهتفت مسز لين : « ما الذي تفكران فيه ، يا ولديّ العزيزين ؟ »

وضمت الارملة اينغرام صوتها الى صوت مسز لين وقالت : « انا لا استطيع ان اؤيد ، البتة ، مثل هذا الصنيع غير اللائق » ·

ـ « حقا ، يا ماما ، ولكنك تستطيعين ··· ولسوف تستطيعين » كذلك قالت بلانش بصوتها المتكبر ، فيما كانت تستدير فوق كرسي البيانو ، حيث جلست ـ حتى تلك اللحظة ـ صامتة تتأمل في ما يبدو مختلف صحائف الالحان الموسيقية · « اني لاستشعر فضولا الى الاستماع الى عرافة تكشف لي بختي · واذن ، ادخل العجوز الشمطاء ، يا سام » ·

ـ « يا عزيزتي بلانش ، تذكري ··· »

ـ « اني اتذكر ··· اتذكر كل ما ترغبين في قوله · ومع ذلك فيجب ان انفذ ارادتي · عجل ، يا سام ، عجل ! »

وهنا صاح الشباب جميعا ، من سيدات وسادة : « اجل ! اجل ! اجل ! ادخلها ··· انها سوف تتيح لنا فرصة للمزاح ممتازة ! »

فقال الخادم وهو لا يزال يتلكأ : « انها تبدو جلفةً الى ابعد الحدود » ·

فصاحت مس اينغرام : « اذهب ! »

وفي الحال استبد الهياج بالجماعة كلها · كان دفّق موصولٌ من السخرية والمزاح قد انطلق عندما رجع سام ·

لقد قال : « انها لن تجيء الان · هي تقول انه ليس من واجبها ان تَمْثُل امام « قطيع الرعاع » (كما عبَّرت بالحرف الواحد) · وان علي ان ادخلها الى حجرة خالية ، ومن ثم يتعين على الراغبين في استشارتها ان يدخلوا عليها واحدا أثر واحد » ·

فقالت اللايدي اينغرام : « ها انت ترين ، الان ، يا بلانشتي الملكية . انها تتطاول . كوني عاقلة . يا فتاتي الملائكية ... و ... »

فقاطعتها « الفتـــاة الملائكية » قائلة : « ادخلها الى المكتبة . هذا شيء طبيعي ، فليس من واجبي ، انا ايضا ، ان اسمع نبوءاتها امام قطيع الرعاع . اني اريد ان أخلو بها وحدي . هل في حجرة المكتبة نار موقدة ؟ »

ــ « نعم ، يا سيدتي . ولكنها تبدو صخَّابة مهذارة الى ابعد حد » .

ــ « كفَّ عن هذه الثرثرة ، ايها الاحمق ! ونفِّذ ما امرتك به » .

وكرة اخرى توارى سام . وكرة اخرى جرفت الجماعة موجة عارمة من الفضول ، والنشاط ، والتوقع .

وقال الخادم لدن عودته : « انها على استعداد ، الان ، وهي تريـــد ان تعرف من سيكون زائرها الاول » .

فقال الكولونيل دينت : « ارى من الخير ان القي عليها مجرد نظرة قبل ان تذهب اي من السيدات للاجتماع بها » .

ــ « قل لها ، يا سام ، ان زائرها الاول سوف يكون رجلا » .

فمضى سام ثم رجع ليقول : « لقد قالت ، يا سيدي ، انها لن تستقبل ايما رجل . فلا داعي لان يتجشموا عناء الدنو منها » . وسكت لحظة ثم اضاف كابحا ، في عسر ، ضحكة توشـــك ان تنطلق : « لا ، ولا داعي لان تتجشَّم السيدات مثل هذا العناء . فهي لن تقابل منهن الا الشابات غير المتزوجات » .

فهتف هنري لين : « وحق الاله ، انها لتتمتع بذوق رفيع ! »

عندئذ وقفت مس اينغرام في جلال ، وقالت في لهجة تليق بقائد مغامرة يعتزم ان ينهض وحده ، من دون طليعة رجاله كلهم ، بعبء القتال . « سأذهب انا اولا » .

فما كان من امها الا ان صاحت : « اوه ، اوه يا خير الناس عندي ! اوه ، يا اعز الناس عندي ! تمهلي ... فكري ! » ولكنها اندفعت متجاوزةً اياها في صمت مهيب ، وخرجت من البـــاب الذي فتحه الكولونيـــل دينت ، وسمعناها تدخل حجرة المكتبة .

وران ، بعد ذلك ، صمت نسبي . واعتبرت اللايدي اينغرام ان الموقف يقتضيها ان تفرك يديها جزعا . وهو ما فعلته حقا . واعلنت مس ماري انها ، في ما يتصل بها شخصيا ، اعجز من ان تقدم على مثل هذه المغامرة في يوم من الايام . وضحكت آيمي ولويزا ايشتون ضحكا مهموسا ، وبدت على وجهيهما امارات ذعر طفيف .

وتقضَّت الدقائق في بطء بالغ . واحصينا خمس عشرة دقيقة قبل ان يُفتح بابُ حجرة المكتبة من جديد . لقد عادت الينا مس اينغرام من خـــلال القنطرة .

هل ستضحك ؟ هل ستعتبر الامر كله مجرد مزحة ؟ لقـــد استقبلتها الاعين كلها بنظرة فضول متلهِّف ، واستقبلت هي الاعين كلها بنظرة صدوف

وفتور . انها لم تبدُ لا مضطربة ولا مبتهجة . لقد تقدمت الى كرسيها في خطىً تعوزها الرشاقة ، واستوت عليه في صمت .

وسألها اللورد اينغرام : « ما وراءك يا بلانش ؟ »

وسألتها ماري : « ماذا قالت لك ، ايتها الشقيقة ؟ »

وقالت الآنستان ايشتون متسائلتين : « ما رأيك الان ؟ ما هو شعورك ؟ اهي عرافة حقيقية ؟ »

فما كان من مس اينغرام الا ان ردت عليهم جميعا : « كفى ، كفى ، ايها القوم الطيبون . لا تلحفوا علي في السؤال . الواقع ان حاسَّتي الدهش والتصديق عندكم تُستثاران في سهولة ويسر . ويبدو لي ، من الاهمية التي تعلِّقونها جميعا ـ وفيكم والدتي الطيبة نفسها ـ على هذه المسألة ، انكم تؤمنون ايمانا راسخا بأن عندنا في هذا القصر عرافة حقيقية ، على اوثق الاتصال بالشيطان ! لا ، يا سادتي ، لقد رأيت غجرية من الغجريات الرحل ، ولقد اصطنعَتْ ، بطريقة مبتذلة ، علم قراءة الكف ، وراحت تكرر على مسمعي ما يقوله امثال هؤلاء القوم عادة . لقد اشبعتُ نزوتي ، ويخيل الي الان ان مستر ايشتون يحسن صنعا اذا ما وضع قدمَيْ تلك الحيزبون في الدُّهق ، غدا صباحا ، كما توعَّد من قبل » .

وتناولت مس اينغرام كتابا ، وغارت في كرسيها رافضةً بذلك ايما مواصلةٍ للحديث . وراقبتها نحوا من نصف ساعة ، لم تقلب خلالها صفحة واحدة من صفحات الكتاب ، في حين كان وجهها يزداد اكفهرارا لحظة بعد لحظة ، ويزداد تعبيرا عن معاني السخط والخيبة المريرة . انها لم تسمع ، من غير ريب ، اي شيء في مصلحتها ، ولقد بدا لي من نوبة الكآبة والصمت الطويلة التي المَّت بها انها هي نفسها كانت ، برغم ما تظاهرت به من لامبالاة وعدم اكتراث ، تعلق اهمية لا مبرر لها على النبوءات التي ادلي اليها بها ، ايا ما كانت هذه النبوءات .

وفي غضون ذلك اعلنت ماري اينغرام ، وآيمي ولويزا ايشتون ، انهن لا يجدن في انفسهن الجرأة على الشخوص الى حجرة المكتبة على انفراد ، ومع ذلك فقد كنَّ كلهن راغبات في ذلك . وهكذا افتُتِحت مفاوضات من خلال السفير ، سام ، وبعد كثير من الذهاب والاياب ، نفد خلاله صبر الفتيات الثلاث ، وافقت « سيبيل » الصارمة في عُسْر بالغ ـ على استقبالهن مجتمعاتٍ .

ولم تكن زيارتهن ساكنةً سكون زيارة مس اينغرام . فقد تناهى الى سمعنا خلالها قهقهات هستيرية وصرخات طفيفة منبعثة من حجرة المكتبة . وبعد عشرين دقيقة ، او نحوها ، فتحن الباب في قوة ، واندفعن مهرولات عبر الحجرة ، وكأن الرَّوع قد ذهب بصوابهن .

لقد صحن ، دفعةً واحدة : « انا واثقة من ان لهذه المرأة قدرة خارقة ! كيف استطاعت ان تنبئنا بهذه الاشياء كلها ؟ انها تعرف كل شيء عنا ! »

وغرقن لاهثات في الكراسي المختلفة التي سارع الرجال الاماجد الى تقديمها اليهن .

حتى اذا الح عليهن القوم طالبين شرحا اضافيا اعلنَّ انها حدثتهن عن اشياء قلنها او فعلنها يوم كنَّ في صدر طفولتهن ، ووصفت لهن كتبا ونفائس اشتملت عليها مقاصيرهن الخاصة ، وهدايا وتذكارات كان قد قدمها اليهن انسباء لهن مختلفون . واكدن انها ذهبت الى حد قراءة ما كان يجول في افكارهن ، وانها همست في اذن كل منهن باسم الشخص الذي تؤثره بأعظم الحب ، في هذا العالم ، وانبأتهن بغاية ما كانت نفوسهن تهفو اليه وتتمناه .

وهنا قاطعهن الرجال متوسلين اليهن في حرارة ولهفة ان يزدنهم تفصيلا حول النقطتين الاخيرتين ، فلم يفوزوا منهن ، بعد هذا الالحاح كله ، بغير حمرة الخجل وضروب الصيحات والتشنجات والضحكات . وفي غضون ذلك قدَّمت اليهن النسوة المتزوجات علبا صغيرة فيها صنوف من العطور القوية ، ورحن ينعشنهن بالمراوح . وكررن مرة بعد اخرى ، التعبير عن قلقهن بسبب من أن الفتيات لم يعملن في الوقت المناسب وفقا لنصائحهن وتحذيراتهن . وضحك الرجال المتقدمون في السن ، والحف الشبان في عرض خدماتهم على الحسان اللواتي استبد بهن الاهتياج .

وفي غمرة من هذه الجلبة ، وفيما كانت عيناي واذناي مستغرقة في المشهد البادي امامي ، سمعت شخصا يتنحنح عند مرفقي . والتفتُ فاذا بي اجد سام .

لقد قال لي : « عفوا ، يا آنسة ، تعلن الغجرية ان في الحجرة شابة اخرى غير متزوجة لمّا تفِد عليها بعد ، وهي تقسم انها لن تغادر القصر الا بعد ان تتم لها رؤية الفتيات جميعا . ولقد قدَّرتُ انك أنت الشابة المعنية ، فلم يبقَ في الحجرة من ينطبق عليها هذا الوصف غيرك . ما الذي تودين ان اقوله لها ؟ »

فاجبته : « اوه ، سوف امضي اليها مهما كلف الامر » . وكنت سعيدة بان تتاح لي تلك الفرصة اللامرتقبة لاشباع فضولي الذي استثير الى حد بعيد . فانسللت من الحجرة ، في غفلة من الاعين جميعا — ذلك بأن القوم كانوا كلهم متحلقين حول الثلاثي المرتعد الذي انقلب الى الحجرة منذ قريب — واوصدت الباب خلفي في سكون .

فقال سام : « سوف انتظرك في الردهة ، ايتها الآنسة ، ان شئت ، حتى اذا روَّعتك لم يكن عليك الا ان تناديني ، فأهرع لنجدتك » .

— « لا ، يا سام ، عد الى المطبخ . انا غير خائفة البتة » .

والحق اني لم اكن خائفة . ولكني كنت شديدة التطلع والانفعال .

١٩

وبدت حجرة المكتبة ، لحظة دخلتها ، ساكنة جدا . وكانت « سيبيل »

ـ اذا صحّ انها كانت « سيبيل » ـ مستوية على نحو مريح في كرسي وثير ، غير بعيد عن المستوقد . كانت ترتدي عباءة حمراء ، وتعتمر بقلنسوة سوداء ، او على الاصح بقبعة عريضة الحافة من قبعات الغجر مشدودة الى ما تحت الذقن بمنديل مخطّط . وعلى الطاولة كانت شمعة مطفأة ، وكانت هي منحنية فوق النار ، وقد بدت وكأنها تقرأ في كتيّب اسود ، شبيه بكتاب صلاة ، على ضوء اللهب . لقد غمغمت بالكلمات في ما بينها وبين نفسها ، فِعْلَ الكثرة الكاثرة من العجائز حين يقرأن . ولم تكفّ عن القراءة لدن دخولي عليها مباشرة : لقد بدا وكأنها تريد ان تتم تلاوة فقرة من الفقرات .

ووقفت على السجادة ، ودفأت يدي اللتين كان الجلوس على مبعدة من نار حجرة الاستقبال قد ذهب بحرارتهما . واستشعرت الان طمأنينة" لا تقلّ عن طمأنينتي المألوفة في الاحوال العادية . فالواقع انه لم يكن في مظهر الغجرية ما يعكر سكينة المرء . لقد اغلقت كتابها ، ورفعت بصرها في اناة . كانت حافة قبعتها تحجب وجهها على نحو جزئي ، ومع ذلك فقد استطعت ان اتبيَّن ، حين رفعته ، انه كان وجها غريبا . لقد بدا اسمر واسود كله ، ومن تحت العصابة البيضاء المعقودة عند ذقنها برزت خصل شعرها الشائك الشبيه بشعر السَّعالى ، فحجب نصف خديها ، او على الاصح نصف فكّيها . وفي الحال رشقتني عينها بنظرة جسورة مباشرة .

وسألتني في صوت حازم مثل نظرتها ، خشن مثل قسمات وجهها : « حسنا ، وانت ايضا تريدين ان اكشف لك عن طالعك ؟ »

ـ « انا لا ابالي به ، يا اماه . في امكانك ان تكشفي لي عنه اذا كان في هذا ما يسرك . ولكن علي ان احذرك ، فانا لا أؤمن بهذه الامور » .

ـ « هذا الكلام الذي تقولينه يتناغم كل التناغم مع وقاحتك . كنت اتوقع هذا منك ، لقد سمعته في خطوك وانت تجتازين العتبة » .

ـ « صحيح ؟ ان لك لاذنا مرهفة حادة » .

ـ « اجل . وبصرا حادا ، وذكاء حادا » .

ـ « انت تحتاجين الى هذا كله في صناعتك » .

ـ « هذا صحيح . وبخاصة حين يتعين علي ان اكشف طوالع زبائن من مثلك . لماذا لا ترتعدين ؟ »

ـ « لست اشعر بالبرد » .

ـ « لماذا لا يغلب الشحوب على وجهك ؟ »

ـ « انا لست مريضة » .

ـ « لماذا لا تفزعين الى فني تلتمسين عنده المشورة ؟ »

ـ « لاني لست بلهاء » .

عندئذ ضحكت العجوز الحيزبون ضحكة اختفت تحت قبعتها وعصابتها ، ثم اخرجت « بيبة » قصيرة سوداء ، واشعلتها ، وانشأت تدخن . حتى اذا انغمست برهة يسيرة في هذه المتعة المخدّرة تصدّرت ، واخرجت « البيبة »

من بين شفتيها ، ثم قالت في روية مفرطة وهي تحدق الى النار على نحو موصول :

ـ « انت تشعرين بالبرد ، انت مريضة ، انت بلهاء » .

فاجبتها : « برهني على ذلك » .

ـ « سوف افعل ، في كلمات معدودات . انت تشعرين بالبرد لانك متوحدة ، لا احتكاك يقدح منك النار الكامنة فيك . وانت مريضة ، لان انبل ما وُهِبه الانسان من شعور وأكثره سموا وعذوبة ينأى بجانبه عنك . وانت بلهاء ، لانك برغم ما يعتلج في صدرك من أسىً وألم ، لا تومئين الى ذلك الشعور ان يدنو . لا ، ولا تتقدمين خطوة واحدة لكي تلتقيه حيث ينتظرك » .

ووضعت بيبتها السوداء القصيرة بين شفتيها ، كرةً اخرى ، واستأنفت تدخينها في قوة .

ـ « في ميسورك ان تقولي هذا كله لايما امرىء ـ تقريبا ـ تعرفين انه يحيا حياة مرتزق متوحد في قصر كبير » .

ـ « اجل ، في ميسوري ان اقوله لايما امرىء تقريبا . ولكن هل يصح في ايما امرىء تقريباً ؟ »

ـ « اذا كانت ظروفه مثل ظروفي » .

ـ « اجل . بالضبط ، في مثل ظروفك انت . ولكن دلّيني على شخص آخر تكتنفه نفس الملابسات التي تكتنفك انت على وجه الدقة » .

ـ « من اليسير علي ان أدلك على آلاف من مثل هذا الشخص » .

ـ « لن يكون في امكانك ان تدليني على شخص واحد الا بشق النفس . ان وضعك في الواقع ، يكاد يكون معدوم النظير : السعادة على مقربة دانية منك . اجل انها في متناول يدك . واسبابها كلها مهيأة لك ، وهي لا تحتاج الا الى حركة تجمع شتاتها . لقد وضعتها المصادفة في نقاطَ متناثرة بعض الشيء . اعمدي الى الجمع ما بينها تحمدي العواقب قبل ان يرتدَّ اليك طرفك » .

ـ « انا لا افهم الاحاجي . ولم استطع في ايما يوم من ايام حياتي ان احزر لغزا واحدا » .

ـ « اذا اردتني ان اخاطبك بلغة اوضح فليس عليك الا ان تريني باطن كفك » .

ـ « وان اضع في يديك بعض النقود ، اليس كذلك ؟ »

ـ « من غير ريب » .

ومنحتها شلنا ، فوضعته في « قَدَم » جورب عتيق اخرجته من جيبها ، حتى اذا فتلَتْه واحكمت عقده واعادته الى موضعه سألتني ان ابسط يدي . فنزلت عند ارادتها ، فأدنت وجهها الى باطن كفي ، وانعمت النظر اليه من غير ان تمسَّه ثم قالت :

ـ « ان راحتك ناعمة اكثر مما ينبغي . انا لا استطيع ان افهم شيئا من

يد كهذه ، تكاد تخلو من الخطوط · والى هذا ، فأي شيء في راحة اليد ؟ ان قـدَر الانسان ليس مسطورا فيها » ·

فقلت : « هذا شيء اقرك عليه » ·

فتابعت تقول : « لا · انه مسطور في الوجه : على الجبين ، حول العينين ، في العينين نفسَيْهما ، في اسارير الفم · اركعي ، وارفعي رأسك الى اعلى » ·

وقلت وانا امتثل امرها : آه ! لقد اخذت ، الان ، تقتربين من الحقيقة · ولسوف ابدأ منذ هذه اللحظة في الايمان بك بعض الشيء » ·

وركعت على مبعدة نصف ياردة عنها · وراحت تؤجج النار حتى لقد اندلع من بين الفحمات المُهاجة لهب متموج · بيد ان وهج النار لم يلق على وجهها ، في جِلستها تلك ، غير ظل اكثف · اما وجهي انا فقد اضاءه الوهج ونوّره ·

وقالت بعد ان تأملتني مليًا : « اني لاتساءل بأي المشاعر وفدت الي الليلة ، واي الخواطر كانت تضج في فؤادك خلال تلك الساعات الطويلة التي تسلخينها جالسةً في تلك الحجرة ، حيث ينطلق امامك اولئك القوم المترفون وكأنهم صورٌ في فانوس سحري · انك لا تخالطينهم الا في أيسر قدْر من المشاركة الوجدانية ، فكأنهم في الواقع اطياف لشخوص من البشر ، لا الشخوص الحقيقيين انفسهم » ·

ــ « اني كثير ما استشعر التعب ، وفي بعض الاحيان يغلب علي النعاس · ولكني نادرا ما استشعر الحزن » ·

ــ « اذن فأن لديك املا خفيا يستنهض همتك ويهيج نفسك بهمسات عن المستقبل ؟ »

ــ « لا ، على الاطلاق · ان اقصى ما اطمح اليه هو ان اقتصد من مكاسبي بعض المال استعين به ، في مقبلات الايام ، على انشاء مدرسة خاصة بي في مبنىً استأجره لهذا الغرض » ·

ــ « غذاء حقير لا يسمن الروح ولا يغنيها من جوع · وخلال جلوسك المألوف في المقعد القائم تحت قاعدة النافذة (انت تلاحظين اني اعرف عاداتك) ···· »

ــ « لقد اطلعت عليها من طريق الخدم » ·

ــ « آه ، انت تحسبين نفسك متقدة الذهن · حسنا ، ربما كان ذلك صحيحا · ولاقل الحقيقة : اني لاعرف واحدةً منهم ··· هي مسز بول ··· »

واجفلت واقفة على قدمي لدن سماعي هذا الاسم · وقلت في ذات نفسي : « انت تعرفين ··· هل تعرفينها ؟··· ان في المسألة اذن لسحرا شيطانيا ، على كل حال ! »

فاردفت المخلوقة الغريبة : « لا تراعي ! ان مسز بول خادمة مأمونة ، امرأة هادئة قريبة الى النفس ، وفي ميسور المرء ان يوليها ثقته · ولكن ، كما

كنت اقول ، الا تفكرين ـ خلال جلوسك المألوف في المقعد القائم تحت قاعدة النافذة ـ بغير المدرسة التي تعتزمين انشاءها في المستقبل ؟ اليس لك ايما اهتمام حالي بأحد من الجماعة الذين يحتلون الان الارائك والكراسي تجاهك ؟ اليس ثمة بينها وجه واحـــد يحلو لك ان تدرسيه ؟ وجه واحـــد تتابعين حركاته ، على الاقل ، في فضول ؟ »

ـ « انا احب ان الاحظ جميع الوجوه » .

ـ « ولكن الا تؤثرين احيانا ملاحظة وجه واحد من بينها جميعا ، او ربما وجهين اثنين ؟ »

ـ « انا افعل ذلك في كثير من الاحيان . عندما تبدو ايماءات الرجـل والمرأة ونظراتهما وكأنها تروي حكاية : اني لاجد في مراقبتهما ـ في هـــذه الحال ـ متعة وتسلية » .

ـ « اية حكاية تحبين ان تسمعيها اكثر ما يكون ؟ »

ـ « اوه ، ليس مجال الاختيار واسعا امامي ! ان الحكايات كلها تدور عادة على موضوع واحد ، هو المغازلة ، وتعِدُ بأن تنتهي الى كارثة لا تتغير ، هي الزواج » .

ـ « وهل تحبين ذلك الموضوع الرتيب ؟ »

ـ « لا ، من غير ريب . انا لا ابالي به . انه ليس عندي بشيء » .

ـ « ليس عندك بشيء ؟ عندما تجيء سيدة ناضرة العود . مفعمة بالحياة والصحة ، فاتنة الجمال ، ذات مركز اجتماعي رفيع وثروة طائلة ... وتجلس وتبسم في عيني رجلٍ انت تـ .... »

ـ « انا ماذا ؟ »

ـ « رجل انت تعرفينه ... وربما تطيلين التفكير فيه » .

ـ « لست اعرف الرجال في هذا القصر . اني نادرا ما تبادلت مع احد منهم كلمة واحدة ، او مقطعا من كلمة . اما في ما يتصل بالتفكير فيهم فأني اعتبر بعضهم قوما محترمين مهيبين بلغوا ســن الكهولة ، وبعضهـــم الاخر شبابا ذوي اناقة ووسامة وحيوية . ولكن لهم جميعا ، من غير ريـــب ، ملء الحرية في ان يتلقوا الابتسامات من شفتي اية سيدة تعجبهم ، مـــن غير ان اشعر بأيما رغبة في النظر الى هذا الصنيع وكأن له اية اهمية بالنسبة الي » .

ـ « انت لا تعرفين الرجال في هذا القصر ؟ انت لم تتبادلي مع احـــد منهم كلمة واحدة او مقطعا من كلمة ؟ هل تستطيعين ان تقولي هذا عن رب القصر أيضا ؟ »

ـ « انه ليس في القصر الان ؟ »

ـ « ملاحظة عميقة ! ومغالطة ليس ابرع منها ! لقد ذهب الى ميلكوت هذا الصباح ، ولسوف يؤوب الليلة ، او غدا : ايكون في هذه الواقعة ما يقصيه من لائحة معارفك ... ما يمحوه ـ اذا جاز التعبير ـ من الوجود ؟ »

ـ « لا ، ولكني لا اكاد ارى اي شأن لمستر روتشيستر بالموضوع الذي

اثرتِه » .

ــ « كنت اتحدث عن سيدات يتبسّمن في عيون الرجال . وفي الفترة الاخيرة سَفحت في عيني مستر روتشيستر ابتسامات لا تكاد تحصى ، حتى لقد فاضتا مثل كأسين اترعتا على الشفة . الم تلاحظي ذلك البتة ؟ »

ــ « ان للمستر روتشيستر حقا في الاستمتاع بمعاشرة ضيوفه » .

ــ « لست اجادل في حقه هذا . ولكن الم تلاحظي ان مستر روتشيستر قد خَصّ ، من بين جميع الحكايات المروية هنا عن الزواج ، بالحكاية الاكثر حيوية وديمومة ؟ »

ــ « ان لهفة المستمع تجعل لسان المتحدث اكثر فصاحة وذرابة » قلت ذلك لنفسي اكثر مما قلته للغجرية التي كانت قد وفقت الان ، بحديثها العجيب وبصوتها ومسلكها الغريبين ، الى ان تلفني بضرب من الحُلْم . ذلك بأن الجمل غير المتوقعة انطلقت من بين شفتيها واحدة اثر اخرى ، حتى لقد علقتُ في شرك من التعمية والابهام ، ورحت اتساءل : اية روح غير منظورة كانت تقعد طوال اسابيع على مقربة دانية من قلبي ، فهي تراقب افعاله وتسجل كل نبضة من نبضاته . ــ

وكررت الغجرية : « لهفة المستمع ! أجل ، لقد جلس مستر روتشيستر ساعات وساعات مرهفا أذنه للشفتين الفاتنتين اللتين وجدتا اعظم البهجة في النهوض بمهمة التحدث . وكان مستر روتشيستر راغبا اشد الرغبة في الاستماع . وكانت أمارات وجهه تنطق بأعمق الامتنان لما اتيح له من لهو ماتع . هل لاحظت ذلك ؟ »

ــ « الامتنان ! أنا لا أذكر أني تبينت أمارات الامتنان على وجهه . »

ــ « تبينت ! إذن فقد كنت تدرسين وجهه . وما الذي تبيّنته إن لم يكن ما تبيّنته هو الامتنان ؟ »

ولم أنبس بكلمة .

ــ « لقد رأيت حباً . . أليس هذا صحيحا ؟ واذ نظرت بعين الخيال الى المجهول رأيته وقد تزوّج ، ورأيت زوجته ترفل في السعادة ؟ »

ــ « لا . ليس على وجه الدقة . إن براعتك في الكشف عن الطالع لتتردّى في الخطأ . أحيانا » .

ــ « واذن فما الذي رأيته ، بحق الشيطان ؟! »

ــ « دعي عنك هذا . لقد جئت إلى هنا لكي أستطلع ، لا لكي أعترف . هل صحيح أن مستر روتشيستر سوف يتزوج ؟ »

ــ « نعم . ومن مس اينغرام الجميلة » .

ــ « عما قريب ؟ »

ــ « ان المظاهر لتبرر مثل هذا الاستنتاج . ولا ريب (على الرغم من أنك تشكين في ذلك ، على ما يبدو ، بوقاحة يجب أن تعاقبي عليها) في أنهما سوف يكونان أسعد زوجين في الوجود . انه لا يستطيع الا ان يحب مثل

هذه السيدة الوسيمة ، النبيلة ، الذكية المثقفة . وارجح الظن انها هي تحبه ، او تحب على الاقل امواله ان لم تحب شخصه . انا اعلم انها تعتبر ممتلكات آل روتشيستر شيئا مرغوبا فيه الى ابعد الحدود ، برغم اني (وليغفر الله لي !) قد اخبرتها شيئا عن هذه المسألة قبل ساعة تقريبا ، شيئا جعلها تبدو مغتمة الى حد عجيب ، وجعل زوايا شفتيها تتدلى نصف انش . واني لانصح طالب يدها الاسمر بان يأخذ حذره . لانها خليقة بأن تخذله وتتخلى عنه حالما يتقدم لخطبتها رجل آخر ، قائمة ايجاراته اطول او اكثر تحررا من القيود » .

ـ « ولكني ما جئت ، يا اماه ، لاستمع الى حديث عن طالع مستر روتشيستر . لقد اقبلت لاسمع اليك تتحدثين عن طالعي انا . وها انت ذي لم تنبئيني بايما شيء عنه » .

ـ « ان طالعك لا يزال حتى الان موضع شك . فحين تفرست في وجهك الفيت كل واحدة من اساريره تناقض الاخرى . لقد خصك القدر بقسط من السعادة : هذا شيء اعرفه . وانما عرفته قبل ان افد الى هنا ، هذا المساء . لقد وضعه لك جانبا ، بكثير من العناية . ولقد رأيته بأم عيني يفعل ذلك . ان امر الفوز بتلك السعادة منوط بك وحدك ، وليس عليك اذا شئت اكتسابها ، الا ان تمدّي يدك نحوها ، وتستولي عليها . ولكن هل ستفعلين ؟ تلك هي المشكلة التي ادرسها الان . اركعي على السجادة كرة اخرى » .

ـ « لا تبقيني راكعة فترة طويلة . ان النار تسفع وجهي » .

وركعتُ . ولم تنحنِ نحوي ، ولكنها اجتزأت بالتحديق الي ، وهي غائصة في كرسيها . ثم شرعت تغمغم :

ـ « اللهب يتواثب في العين . والعين تلتمع كالندى . انها تبدو رقيقة مفعمة بالاحساس ، وهي تبتسم ساخرة من رطانتي . انها سريعة التأثر . والانطباعة تتلو الانطباعة في صفحتها الصافية . وحيثما كفّت عن الابتسام كان الحزن اغلب عليها . ان كلالا لا شعوريا ليُثْقِل جفنها ، وهذا يدل على الكآبة الناشئة عن التوحد . انها تتحول عني ، فهي لا تقوى على احتمال مزيد من التحري والدرس . انها تبدو وكأنها تنكر ، بنظرة ساخرة ، صدق المكتشفات التي وفقتُ اليها ... وكأنها تنكر تهمتي الحساسية والحزن جميعا . ولكن كبرياءها وتحفظها لا يزيدانني الا ثقة بصحة رأيي . ان العين لمسعِفة .

« اما الفم فيعلن عن ابتهاجه ، بين الفينة والفينة ، بالضحك . انه ميال الى الافصاح عن كل ما يتصوره الدماغ . برغم اني استطيع القول انه يؤثر الصمت عن كثير مما يخامر الفؤاد . انه بما فطِر عليه من نشاط ومرونة لم يُجْعَل لكي يبقى ابد الدهر مكرها على صمت الوحدة السرمدي . انه فم خلقته الطبيعة لكي يتكلم كثيرا ولكي يبتسم في كثير من الاحيان ،

وهو يكنُّ حنانا انسانيا لمن يوجه اليه الخطاب · هذه السمة مُسعفة ايضا ·

« انا لا ارى اي عدو للطالع السعيد الا على صفحة الجبين · ان هذا الجبين يتظاهر بأنه يقول : – « في استطاعتي ان احيا وحيدا ، اذا ما دعاني احترام الذات ودعتني الظروف الى مثل هذه الحياة · انا في غير ما حاجة الى ان ابيع روحي لاشتري الهناءة القصوى · اني لأملك كنزا باطنيا وُلِد معي ، كنزا قادرا على ابقائي على قيد الحياة اذا ما حبِست عني جميع المسرات الدخيلة او اذا لم تقدّم اليّ الا بثمن لا قِبل لي بدفعه · » ويتابع الجبين حديثه فيعلن : « ان العقل لراسخ القدم مسيطر على الزمام ، وهو لن يدع العواطف تنفجر وتسوقها الى مهاوٍ آبدة · ان الاهواء قد تثور على نحو ضار كما يثور الوثنيون الحقيقيون ، وان الرغبات قد تتخيل مختلف ضروب الاشياء الباطلة ، ولكن سوف يظل هو صاحب الكلمة الفصل في كل مناقشة ، وصاحب الصوت ا لمرجَّح في كل قرار · وان العاصفة الهوجاء ، وصدمة الزلزال ، والنار قد تلمُّ بي ولكني سوف اهتدي بهدي ذلك الصوت الصغير الهادىء الذي يعبِّر عن اوامر الضمير · »

« لقد تحدثت فاحسنت الحديث ، ايها الجبين · وان تصريحك سوف يكون موضع الاحترام · لقد وضعت خططي – واني لاعتبرها خططا صحيحة – وفيها اصغيت لدعاوي الضمير وارشادات العقل · انا اعلم مدى السرعة التي يذبل بها الشباب ويذوي بها ريعانه اذا ما اكتشف في كأس السعادة المقدّم ثفالة واحدة من خزي او نكهة واحدة من ندم · ولست ابعي التضحية ، والاسى ، والفسوق ، فليس ذلك متناغما مع مزاجي · انا اريد ان اغذو لا ان اؤذي ··· ان اكسب عرفان الجميل لا ان اعتصر دموعا من دم ··· لا ، ولا دموعا من ماء مالح · ان حصادي يجب ان يتألف من ابتسامات ، ومشاركات وجدانية ، وخبرات عذبة سائغة · كفى ، حسبي هذا · يخيِّل اليَّ اني اهذي في ضرب من البُحران اللذيذ الى ابعد الحدود · وان عليّ الان ان اطيل هذه اللحظة الى ما لا نهاية له ، ولكني لا اجرؤ على ذلك · لقد سيطرت على نفسي ، حتى الان ، اكمل سيطرة ، ولقد عملت وفق ما عاهدت نفسي على ان اعمل ، ولكن الذهاب الى ابعد من ذلك قد يرهقني ارهاقا يتجاوز طاقتي على الاحتمال · انهضي ، يا مس ايير ، وفارقيني · لقد تمَّت الرواية · »

اين كنت ؟ اكنت يقظى ام نائمة ؟ هل كنت احلم ؟ وهل لا يزال حلمي مستمرا ؟ كان صوت المرأة العجوز قد تغير : اصبحت نبرتها ، وايماءاتها ، وكل ما فيها مألوفا لديَّ كصورة وجهي انا في مرآة ··· كحديث لساني انا · ونهضت ، ولكني لم امض لسبيلي · واجلت الطرف في ما حولي · وحركت جمرات المستوقد لكي ارى على نحو افضل ، واجلت الطرف كرة اخرى · ولكنها انزلت قلنسوتها فوق جبينها واحكمت تطويق وجهها

بالعصابة ، واومأت الي من جديد تأمرني بالرحيل • واضاء اللهب يـدها المبسوطة • واذ كنت قد استعدت الان رشدي ، وأمسيت متيقظة لمختلف صنوف الاكتشافات فقد لاحظت تلك اليد على التو • انها لم تعد يد الشيخوخة الذاوية ، الا اذا كانت يدي انا يد عجوز شمطاء • كانت ذراعا رخصة ملفوفة ، ذات اصابع رقيقة مفرغة في قالب الانسجام • وكان خاتم عريض يلتمع في خنصرها • وانحنيت الى امام ، ورحت احدّق اليه ، فبَصُرْت بجوهرة كنت قد رأيتها مئات المرات من قبل • وعاودت النظر الى الوجه نزْلة اخرى ــ انه لم يعد معرضا عني ، لا ، على العكس ، كانت القلنسوة قد خُلعت ، وكانت العصابة قد ازيحت من موضعها ، وكان الرأس ممالا الى نَاحيتي •

وسألني الصوت المألوف : « حسنا ، جَيْن ، هل تعرفينني ؟ »

ــ « اخلع اذن هذه العباءة الحمراء ، يا سيدي ، وبعد ذلك ••• »

ــ « ولكن الشريط معقود ، ساعديني ••• »

ــ « اقطعه ، يا سيدي » •

ــ « حسنا ، اذن ، فلاخرج من هذه الثياب المستعارة ! » وخرج مستر روتشيستر من ملابسه التنكرية •

ــ « اية فكرة عجيبة هذه التي خطرت لك ، يا سيدي ! »

ــ « ولكنها نُفِّذت في براعة • الا تقرينني على ذلك ؟ »

ــ « لا ريب في انك اجدت تمثيل دورك مع السيدات ! »

ــ « ومعك ، الم اجد تمثيل دوري ؟ » •

ــ « انت لم تمثل ، معي ، شخصية عجوز غجرية » •

ــ « اية شخصية مثلت اذن ؟ شخصيتي انا ؟ »

ــ « لا • شخصية لا سبيل الى تحديدها • وبكلمة موجزة ، اعتقد أنك كنت تحاول ان تستدرجني • كنت تنطق بالهراء لكي تحملني على النطق بالهراء • وليس في هذا كبير انصاف ، يا سيدي » •

ــ « هل تغفرين لي ، يا جين ؟ »

ــ ليس في امكاني ان اجيب الا بعد ان افكر في الامر مليا • فاذا ابدى لي التفكير اني لم اتورط في ايما حماقة فاحشة فعندئذ سأحاول ان اغفر لك • ولكن ما اقدمت عليه لم يكن من العدل في شيء » •

ــ « اوه ! لقد كنت مثالية ••• كنتِ شديدة الحذر ، كثيرة التعقّل» •

وقلّبت الرأي في المسألة ، فبدا لي اني كنت ، على الجملة ، كما يقول • وسرّى ذلك عني • والواقع اني قد اخذت حذري ، منذ بدء المقابلة تقريبا • فقد حدثني قلبي بأن في الامر ضربا من التنكر المساخري • اذ كنت اعلم ان الغجريات وقارئات الكف لا يعبرن عن انفسهن على النحو الذي عبرت به هذه العجوز ، الظاهرية ، عن نفسها • اضف الى ذلك انني كنت قد لاحظت صوتها المتكلف وحرصها المضطرب على اخفاء اسارير وجهها•

ولكن ذهني كان يتجه آنذاك الى غرايس بول ـ تلك الاحجية الحيـــة ، أو لغز الإلغاز كما كنت اعتبرها • انا لم افكر قط بمستر روتشيستر •

وقال : « حسنا، فيم تفكرين؟ اي شيء تعنيه هذه الابتسامة الرزينة؟ »

ـ « الدهش وتهنئة الذات ، يا سيدي • استطيع ان استأذنـــك في الانصـراف ، الان ، على ما أظن ؟ »

ـ « لا • ابقي لحظة ، وقولي لي ما الـــذي يفعله القـوم في حجرة الاستقبـــال ؟ »

ـ « اغلب الظن انهم يتجادلون في امر الغجرية » •

ـ « اجلسي !••• دعيني اسمع ما الذي قالوه عني » •

ـ « من الخير ان لا اطيل المكث هنا ، يا سيدي • لقد قاربت الساعة الحادية عشرة ، من غير ريب • اوه ، هل تعلم ، يا مستر روتشيستر ، ان غريبا قد وفد على القصر بُعَيد رحيلك هذا الصباح ؟ »

ـ « غريب !••• لا •• ومن تراه يكون ، هذا الغريب ؟ انا لم اتوقع قدوم احد ؟ هل مضى لسبيله ؟ »

ـ « لا ، لقد زعم انه يعرفك منذ عهد بعيد ، وان في ميسوره ان يبيح لنفسه حرية الاقامة هنا ريثما تؤوب » •

ـ « يا للشيطان ! هل ادلى اليكم باسمه ؟ »

ـ « ان اسمه مايسون ، يا سيدي • ولقد اقبل من جزر الهنـــد الغربية ، من سبانيشتاون ، في جامايكا ، على ما اظن » •

كان مستر روتشيستر واقفا على مقربة مني ، وكان قد اخذ بيـــدي وكأنما يريد ان يقودني الى كرسي • وفيما كنت اتكلم ، ضغط على رسغي ضغطا متشنجا ، وتجلّدت البسمة على شفتيه : لقد بدأ وكأن تشنجا قـد استبدَّ بِنَحْرِه فعلا •

وقال في مثل اللهجة التي قد يخيَّل للمرء ان الانسان الاوتوماتيكـي يُطْلق بها كلماته المفردة : « مايسون !••• جزر الهند الغربية ! » وكرر : « مايسون !••• جزر الهند الغربية ! » واعاد مقاطع هذه الكلمـــات ثلاث مرات وقد امسى لون وجهه ، وهو يتكلم ، اشد بياضا من الرماد • وبـدا وكأنه لا يكاد يفقه ما كان يفعل •

وسألته : « هل تستشعر انك مريض ، يا سيدي ؟ »

فترنح قائلا : « جين ، لقد ألمّت بي مصيبة ، لقد ألمّت بي مصيبة ، يـــا جيـــن ! »

ـ « اوه ! توكأ علي ، يا سيدي » •

ـ « جَيْن ، لقد عرضت علي كتفك ، ذات مرة • فدعينـــي استنـد اليهـــا الان » •

ـ « اجل ، يا سيدي ، اجل • والى ذراعي ايضا » •

وقعد ، واقعدني الى جانبه • لقد أخذ يدي بين يديـــــه الاثنتين ،

وانشأ يفركها التماسا للدفء ، محدقا الي في الوقت نفسه بنظرة ليس احفل منها بالقلق والكآبة .
وقال : « يا صديقتي الصغيرة . اتمنى لو كنت انا وانت وحدنا في جزيرة هادئة . ولو اقصي عني البلاء والخطر والذكريات الراعبة » .
ـ « هل استطيع ان اساعدك ، يا سيدي ؟ انا على استعداد لان اقدم حياتي ثمنا لراحتك » .
ـ « جَيْن ، اذا احوجتني الظروف الى مساعدة فاني سوف التمسها على يديك . انا اعد بذلك » .
ـ « شكرا ، يا سيدي . قل لي ما الذي يجب علي ان أعمل ... سوف احاول ، على الاقل ، ان اعمل ما تامرني به » .
ـ « ايتيني الان ، يا جين ، بكأس خمر من حجرة الطعام . انهم سوف يكونون هناك ، على مائدة العشاء . واعلميني هل مايسون معهم ، وما الذي يفعله ؟ »
ومضيت . فوجدت القوم كلهم في حجرة الطعام يتناولون عشاء منتصف الليل ، كما كان روتشيستر قد قال . انهم لم يكونوا جالسين الى المائدة : كانت صنوف الطعام قد مُدّت على البوفيه ، وكان كل امرىء يتخيّر منها ما يشاء ، وكان القوم واقفين جماعات جماعات ، ههنا وههناك ، وفي ايديهم اطباقهم وكؤوسهم . لقد بدا كل منهم في جذل عارم ، وكان الضحك شاملا والحديث مشبوبا . اما مستر مايسون فقد وقف على مقربة من النار : كان يتحدث الى الكولونيل ومسز دينت ، ولقد بدا مرحا مثل أيما واحد منهم . وملأت احد الكؤوس خمرا (لقد رأيتُ مس اينغرام تراقبني في عبوس ، بينما كنت اصب الخمر في الكأس . ويخيل اليّ انها توهمت اني كنت اتصرف في حرية ليست من حقي) ، ثم عدت الى حجرة المكتبة .
وكان الشحوب الاقصى الذي ران على مستر روتشيستر قد زايل وجهه الان ، وكان قد استعاد سيماءه الحازمة الصارمة . وتناول الكأس من يدي وقال :
ـ « اني اشربها في صحتك ، ايتها الروح المؤاسية ! » وتجرّع ما اشتملت عليه من خمر ثم اعادها الي ، قائلا : « ما الذي يفعلونه ، يا جين ؟ »
ـ « انهم يضحكون ويتحدثون ، يا سيدي » .
ـ « الا تبدو على وجوههم امارات التفكير العميق والانشداه ، وكأنما قد سمعوا حديثا عجبا ؟ »
ـ « لا ، على الاطلاق . انهم يفيضون مزاحا وبهجة » .
ـ « ومايسون ؟ »
ـ « كان يضحك ايضا » .
ـ « لو ان هؤلاء القوم كلهم مَشَوا مِشْية رجل واحد وبصقوا في

وجهي ، فما الذي تفعلينه ، يا جين ؟ »

ــ « اطردهم من الحجرة ، يا سيدي ، ان استطعت الى ذلك سبيلا » .

فتبسَّم نصف ابتسام ، ثم اضاف : « ولكـــن اذا تعيَّن علي ان امضي اليهم ، فاجتزأوا بالنظـــر الي في برود وشرعوا يتهامسون في سخرية ، ثم انسحبوا من الحجرة وغادروني واحدا اثر واحد .. ما الذي تفعلينه عندئذ ؟ هل تهجرينني معهم ؟ »

ــ « لست اظن ذلك ، يا سيدي : ان ابتهاجي خليق به ان يكون اعظم اذا بقيتُ معك » .

ــ « لكي تسرّي عني ؟ »

ــ « اجل ، يا سيدي ، لكي اسري عنك ، على احسن وجه استطيعه » .

ــ « واذا ما فرضوا عليك ضَرْبا من الحَرْم لتعلّقك بي ؟ »

ــ « اغلب الظن اني لن اعرف شيئا عن هذا الحَرْم . اما اذا عرفت فخليقٌ بي ان لا ابالي به البتة » .

ــ « واذن ، ففي ميسورك ان تتحدّي العذل والتعنيف من اجلي ؟ »

ــ « واذن ، ففي ميسوري ان اتحدّاهما من اجل اي صديق استحق ثقتي وولائي . وليس يخامرني ريب في انك انت قد استحققت مني ذلك » .

ــ « ارجعي الان الى الحجرة . وتقدمي نحو مايسون في خطى خافتة ، واهمسي في اذنه ان مستر روتشيستر قد عاد وانه يحب ان يراه . ثم قوديه الى هنا وانصرفي » .

ــ « سمعاً وطاعة ، يا سيدي » .

ونزلت عند ارادته . فحدّق القوم كلهم الي وانا اشق طريقي بينهم . وشخصت الى مستر مايسون ، وابلغته الرسالة ، وغادرت الحجرة امامه . ثم اني ادخلته الى المكتبة ، وارتقيت السلم الى الدور العلوي .

وفي ساعة متأخرة من الليل ، وكان ذلك بعد ان أويت الى فراشي بفترة ما ، سمعت الضيوف ينقلبون الى حجراتهم . وتبينت صوت مستر روتشيستر بين الاصـــوات ، وسمعته يقول : « من هنـــا ، يا مايســـون . هـــذه هي حجرتـــك » .

لقد تحدّث في بِشْر ومرح . فسرّت النبرات البهيجة عني ، واوقعت الطمأنينة في فؤادي . وسرعان ما استسلمت للرقاد . »

٢٠

وكنت قد نسيت ان اسدل الستائر ، وهو ما جرت به عادتي كل ليلة ، وان اوصد ايضا مصراع نافذتي . فكان من آثار ذلـــك ان القمر ، الذي كان بدرا ساطعا (فقد كانت الليلة رائقة صافية السماء) لم يكد ينتهي في سُراه الى رقعة من السماء مواجهة لنافذتي ويطل علي من خلال زجاج النافذة غـير

المحجّب حتى ايقظني تحديقُه المجيد . واذ افقت في سكون الليل فقد فتحتُ عيني على قرصه ، الفضي البياض ، البلوري الصفاء . كان جميلا ، ولكنه كان مهيبا اكثر مما ينبغي . واستويت في فراشي نصف جالسةٍ ، وبسطت ذراعي واسدلت الستارة .

ـ « يا الهي ! يا لها من صرخة رهيبة ! »

فقد مزّقت الليلَ ، صمتَ الليل وسكونه ، صرخةٌ وحشية ، حادة ، مجلجلة ، انطلقت من اقصى قصر ثورنفيلد الى اقصاه .

وانقطع نبضي : لقد كف قلبي عن الحركة ، وشُلَّت ذراعي المبسوطة . وتلاشت الصرخة ، ولم تتكرر . والواقع ان المخلوق الذي اطلق تلك الصرخة الرهيبة ، ايا ما كان ، لم يكن في ميسوره ان يكررها في سرعة : ان اقوى النسور الفحّاحة في جبال الآنديز * لا يستطيع ان يطلق ، مرتين متعاقبتين ، مثل هذه الصرخة من السحابة التي تغطّي فراخه . ان الشيء المطلقَ مثلَ هذه الصيحة يجب ان يستريح قبل ان يكرر الجهد الذي بذله في ارسالها .

لقد انبعثت من الدور الثالث ، لانها انقضَّت من فوق سَمْت الرأس . وفوق سَمْت الرأس ـ اجل ، في الحجرة القائمة فوق سقف حجرتي مباشرة ـ سمعت الان صراعا : كان صراعا مميتا ، على ما يؤخذ من مدى الضجة . وصاح صوت نصفُ مكبوت : « النجدة ! النجدة ! النجدة ! » ثلاث مرات على عجل . ثم اضاف : « الن يأتي احد ؟ » وبعد ذلك استطعت ، فيما كان الترنح وضَرْبُ الارجل مستمرين على نحو واسع ، ان اتبين من خلال الجبس والواح السقف الخشبية ، صوتا ينادي :

ـ « روتشيستر ! روتشيستر ! تعال ، اكراما لله ! »

ـ وفُتح باب حجرة ما ، وانشأ رجل يعدو ، او يندفع ، في الرواق . ووطئَت قدمان اخريان ارضية الحجرة العلوية ، وسقط شيء ما ، ثم ران الصمت .

ولبست بعض ثيابي ، برغم ان الذعر اوقع الرعدة في اوصالي كلها . وانطلقت من حجرتي . كان النائمون كلهم قد اوقظوا من رقادهم ، وكانت اصداء الصيحات والغمغمات المروّعة تتردد في كل حجرة . وراحت الابواب تُفتح واحدا اثر واحد . واطلّ منها شخص بعد شخص ، وغص الرواق بالقوم . كان الرجال والسيدات على حد سواء قد هجروا مضاجعهم ، وكانت اسئلتهم تنطلق ، في اختلاط وتشويش ، من كل ناحية : « اوه ! ما المسألة ؟ » ـ « من الذي اوذي ؟ » ـ ماذا حدث ؟ » ـ « ايتوا بمصباح ! » ـ « اهو حريق ؟ » ـ « هل داهم القصر لصوص ؟ » ـ الى اين يجب ان نفرّ ؟ » ولولا ضوء القمر اذن لوجدوا انفسهم في ظلام كامل . وانشأوا يجرون جيئة

---

* Andes سلسلة من الجبال الشاهقة في الجزء الغربي من اميركة الجنوبية . (المعرب)

وذهوبا • وتعنقد بعضهم على بعض : لقد تنهدت منهم طائفة ، وتعثّرت طائفة : وبلغ الاختلاط الذروة التي ما بعدها •

وصاح الكولونيل دينت : « ولكن اين روتشيستر ، بحق الشيطان ؟ انا لم اجده في سريره » •

فجاءه الجواب صائحا : « هنا ! هنا ! اطمئنوا ، كلكم ، انا آت » •

وفُتح الباب الذي في اقصى الرواق ، وتقدم مستر روتشيستر وفي يده شمعة • كان قد هبط ، اللحظة ، من الدور الاعلى • وهرعت احدى السيدات نحوه ، مباشرة ، وامسكت بذراعه : كانت هي مس اينغرام •

وقالت : « اية حادثة رهيبة وقعت ؟ تكلم ! دعنا نعرف اسوأ ما في المسألة ، في الحال ! »

فاجابها : « ولكن لا تطرحنني ارضا ولا تخنقنني » •

ذلك بان الآنستين ايشتون كانتا قد تعلّقتا به الان ، على حين كانت الارملتان النبيلتان تندفعان نحوه بسرعة ، في دثارين ابيضين فضفاضين ، وكأنهما مركبان نُشِرت اشرعتهما كلها •

وصاح : « ليس ثمة ما يدعو الى الذعر ! ليس ثمة ما يدعو الى الذعر ! انها مجرد اعادة لرواية « ضجة كبيرة حول لا شيء » * ايتها السيدات ، لا تقربن مني ، والا غدوتُ خطِرا » •

لقد بدا خطِرا حقا ، وكانت عيناه السوداوان تقذفان الشرر ، غير انه هدّأ من روعه ، في كثير من الجهد ، ثم اضاف :

ــ « لقد الم باحدى الخادمات كابوس ، هذا كل ما في الامر • انها مخلوقة سريعة الاهتياج عصبية المزاج • وليس من ريب في انها تخيلت في منامها ان شبحا قد هاجمها ، او شيئا من مثل ذلك ، فعصفت بها نوبة من ذعر • والان ، يجب ان تنقلبوا كلكم الى حجراتكم ، اذ لن نستطيع ان نتدبّر امر الخادمة الا اذا هيمن السكون على القصر • ايها السادة ، تفضلوا بضرْب المثل الصالح للسيدات • مس اينغرام ، انا واثق من انك سوف توفقين الى السيطرة على مخاوفك التي لا تجدي • وانتما ، يا آيمي ولويزا ، ارجعا الى عشّيكما مثل حمامتين ، وانكما لكذلك • اما انتما يا سيدتي ، (وهنا وجه الخطاب الى الارملتين النبيلتين) « فسوف تصابان بالزكام ــ اؤكد لكما ذلك اشد توكيد ــ اذا لبثتما في هذا الرواق البارد فترة اطول » •

وهكذا سعى جاهدا ، من طريق التملق حينا واصدار الاوامر حينا ، الى اعادتهم كلهم ، كرة اخرى ، الى مخادعهم المستقلة • ولم انتظر حتى يأمرني بالعودة الى حجرتي ، بل انسللت منكفئة اليها من غير ان يراني احد ، كشأني عندما غادرتها •

بيد اني لم انكفىء لكي آوي الى الفراش • على العكس ، لقد شرعت

---

* «Much Ado About Nothing» مسرحية معروفة من مسرحيات شكسبير • (المعرب)

ارتدي ملابسي في عناية . ذلك بأن الاصوات التي سمعتها بعد الصرخة ، والكلمات التي نُطِق بها ، لم يسمعها في اغلب الظن ـ أحدٌ غيري ، اذ كانت قد انبعثت من الحجرة القائمة فوق حجرتي مباشرة ، ولكنها جعلتني على مثل اليقين من ان الذي اوقع الرعب في ارجاء القصر على هذا النحو لم يكن حلم خادمة ، وان التفسير الذي قدمه مستر روتشيستر كان مجرد اختراع قُصد به الى طمأنة ضيوفه وتهدئة روعهم . لقد ارتديت ملابسي ، اذن ، لكي اكونَ على استعداد للطوارىء كلها . حتى اذا فرغت جلست برهة طويلة على مقربة من النافذة ، ورحت اطلُّ على حدائق القصر الصامتة والحقول المفضَّضة ، وانتظر شيئا لم اكن اعرف كنهه . لقد بدا لي ان حادثة ما لا بد ان تعقب تلك الصرخة الغريبة ، وذلك الصراع والنداء العجيبين .

ولكن السكون ما لبث ان ساد كرة اخرى ، وشيئا بعد شيء تلاشت الغمغمات كلها ، والحركات كلها . وما هي غير ساعة او نحوها حتى غلب الهدوء ، من جديد ، على قصر ثورنفيلد فهو اشبه بصحراء مقفرة . لقد بدا وكأن الرقاد والليل استردا سيادتهما المطلقة . وفي غضون ذلك جنح القمر الى الافول ، وكاد ان يتوارى بالحجاب . واذ لم ارتح للجلوس في البرد والظلمة فقد بدا لي أن اضطجع في فراشي ، من غير ان اخلع ملابسي . وهكذا غادرت النافذة ، ورحت انقل الخطى ، في اناة واحتراس ، عبر السجادة . حتى اذا انحنيت لاخلع نعلي قرعت الباب ، في رفق ، يد حذرة .

وسألت : هل انت في حاجة الي ؟ »

فأجابني الصوت الذي توقعت ان اسمعه ، اعني صوت سيدي :

ـ « هل انت يقظى ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي » .

ـ « وفي لباسك الكامل ؟ »

ـ « نعم » .

ـ « اخرجي ، اذن ، في هدوء » .

وامتثلت امره ، فاذا بي اجد مستر روتشيستر واقفا في الرواق ، وفي يده شمعة .

وقال : « انا في حاجة اليك . تعالي من هنا . على رسلك ، وحذار ان تحدثي ضجة » .

كانت نعلاي رقيقتين ، وكان في ميسوري ان اجتاز ارض الحجرة المفروشة بالبُسُط في مثل خفة الهرة ورشاقتها . وانسلَّ هو عبر الرواق ، ثم ارتقى السلم ، ليقف بعدُ في المجاز المظلم الخفيض المنبسط في الدور الثالث المشؤوم . وكنت قد تبعته ، ووقفت بجانبه .

وسألني في صوت مهموس : « الديك في حجرتك اسفنجة ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي » .

ـ « الديك بعض الاملاح ؟ .. الاملاح الطيارة اعني ؟ »

ـ « نعـم » .
ـ « ارجعي وائتي بهما » .
وانقلبت عائـدة الى حجـرتي ، فجئـت بالاسفنجة مـن على المغسلة ، وبالاملاح من درجي ، ورجعت ادراجي كرة اخرى . كان لا يزال ينتظرني وفي يده مفتاح . وتقدم نحو باب من الابواب الصغيرة السوداء ، وادخل المفتاح في ثقب القفل ، ثم تمهَّل لحظة ووجَّه الخطاب الي من جديد :
ـ « هل يصيبك الدوار لمرأى الدم ؟ »
ـ « لست اظن ذلك . وعلى اية حال فانا لم اجرب نفسي قبل اليوم » .
وسرت في اوصالي ، وانا اجيبه ، رعشة . ولكني لم استشعر اي برد او اغمـاء .
وقال : « هاتِ يدك . فليس من الخير ان تتعرضي للاغماء » .
ووضعت يدي في يده . فلاحظ قائلا : « انها دافئة ، رابطة الجأش » . ثم ادار المفتاح ، وفتح الباب .
عندئذ بصرتُ بحجرة تذكرتُ اني رأيتها من قبل ، يوم صعـدت بي مسز فيرفاكس الى سطـح القصر . كانـت هـذه الحجرة مزدانة بقطعة مـن قماش مزركش ، ولكن هذه القطعة القماشية كانت الان مرفوعة مـن جانـب واحد ، وقد بدا مـن ورائهـا باب كان آنذاك محجوبا . وكان ذلـك البـاب مفتوحا ، وكان ينبعث من الغرفة التي وراءه ضوء مصباح . ومن هناك تناهى الى سمعي صوتٌ نابحٌ ناهشٌ ، اشبه شيء بعواء كلـب في غمرة شجار . وقال لي مستر روتشيستر وهو يضع شمعته : « انتظري دقيقة ! » وتقـدم نحو الغرفة الداخلية . فاستقبلته لدن دخوله ضحكة بدأت صاخبة اول الامر ثم انتهت بقهقهة غرايس بول نفسها : « ها ! ها ! » واذن فقـد كانـت هي هناك . واجرى بعض الترتيبات من غير ان ينطق بكلمة ما ، برغم اني سمعت صوتا خفيضا يخاطبه . ثم انه غادر الغرفة الداخلية واوصد الباب خلفه .
وقال : « من هنا ، يا جين ! » فانعطفت الى الجانب الاخر من سرير ضخم حجب بأستاره المسدلة جزءا غير يسير مـن الحجرة . وكان على مقربة مـن مقدَّم السرير كرسي ذو ذراعين جلس عليه رجل مرتدٍ كامل ملابسه ، ما عدا السترة . كان ساكنا ، وكان رأسه مُمالا الى وراء ، وكانت عيناه مغمضتين . ورفع مستر روتشيستر الشمعة فوقه ، فتبينت في وجهه الشاحب الخالي ، في ما يبدو ، من الحياة ، مايسونَ الغريب ، ورأيـت ايضا ان الغطاء الذي يحجب احدى ذراعيه وأحد جنبيه كان يقطر دما او يكاد .
وقال مستر روتشيستـر : « خـذي الشمعة » ، فتناولتها منه . وجاء بحوض ماء كان فوق المغسلة وقال : « امسكي هذا » . فامتثلت امره . فاخذ الاسفنجة ، وغمسهـا فيه وراح يبلل الوجه الشبيه بوجه جثة . وسألني ان اناوله زجاجة الاملاح التي حملتها من حجرتي ، فادناها من منخري الرجـل . وسرعان ما فتح مستر مايسون عينيه ، وانشأ يئن . وازاح مستر روتشيستر

قميص الرجل الجريح ، وكانت ذراعه وكتفه مضمدتين • وبالاسفنجة ، اخذ يمسح الدم المتدفق في سرعة بالغة •

وغمغم مستر مأيسون : « هل من خطر مباشر ؟ »

ــ « لا ! لا ! مجرد خدش ليس غير • لا تستسلم لليأس ، ايها الرجل • تشجَّع ! سوف آتيك الان بجراح •• انا بنفسي • ولسوف يكون في ميسورك ان ترحل مع منبلج الصباح ، في ما ارجو » •

ثم وجه الخطاب الي قائلا : « جين ! »

ــ « سيدي ؟ »

ــ « سوف يتعين علي ان اتركك في هذه الغرفة مع هذا الرجل ، ساعة من زمان ، او ربما ساعتين • ولسوف يكون عليك ان تمسحي الدم ، كما كنت افعل ، اذا ما تدفق الدم من جديد • اما اذا احس باغماء فعندئذ ضعي على شفتيه كأس الماء التي ترينها فوق تلك المنضدة ، وقرّبي املاحك الى انفه • وحذار ان تتحدثي اليه مهما تكن الذريعة • اما انت يا ريتشارد فان ايما كلمة توجهها اليها خليق بها ان تعرّض حياتك لاعظم الخطر • انا لن اكون مسؤولا عن العواقب اذا ما خطر لك ان تفتح شفتيك او تتزحزح من موضعك » •

وكرةاخرى انشأ الرجل البائس يئن : لقد بدا وكأنه لا يجرؤ على الحركة ، لكأن الخوف ــ الخوف من الموت او من شيء آخر ــ قد شلّه او كاد • ووضع مستر روتشيستر الاسفنجة ، وكانت الان مشبعة بالدم ، في راحة يدي ، ورحت انا اصطنعها على نحو ما كان قد فعل • وراقبني لحظة ، ثم غادر الحجرة قائلا : « تذكري ! لا اريد اي حديث ! » حتى اذا صرّ المفتاح في القفل ، وتناءت خطاه المنسحبة فلم يعد في الامكان سماعها استبدّ بي شعور غريب •

وهكذا وجدت نفسي في الدور الثالث ، مشدودةً الى احدى حجراته المجلببة بالالغاز • كان الليل يحيط بي من اقطاري ، وكان المشهد الشاحب الدامي مسمَّرا تحت عينيَّ ويديَّ ، وكان بابٌ مفرد يفصلني ، وما يكاد ، عن امرأة فاتكة قاتلة • والحق ان هذه الواقعة الاخيرة كانت افظع ما في الامر كله وادعاه الى الرعب : لقد كان في ميسوري ان احتمل سائر الدواهي ، ولكني ارتعدت لمجرد التفكير في غرايس بول وفي انها قد تنقض علي •

وايا ما كان ، فقد تعين علي ان الزم مكاني • ان علي ان اراقب هذا الوجه الشمعي ، وهاتين الشفتين الزرقاوين الساكنتين المحظّر عليهما ان تنفرجا ، وهاتين العينين المغمضتين حينا ، المفتوحتين حينا ، الشاردتين عبر الحجرة طورا ، المركزتين علي تارة، والمزجّجتين ابدا بفتور الرعب • ان علي ان اغمس يدي مرة ومرة في حوض الدم والماء ، وان امسح الدم الناضح ، وان ارى الى ضوء الشمعة غير المجردة من فتيلها المحترق يضمحل وانا في غمرة العمل ، والى الظلال تَعْتِم على الستارة القماشية العتيقة من حولي ، وتسوَد تحت سُجف السرير الضَخم القديم ، وترتعش ارتعاشا غريبا على ابواب

خزانة ضخمة قائمة تجاهي ، خزانة كانت واجهتها المقسومة الى اثني عشر لوحا مؤطَّرا تحمل ، في تصميم كالح ، رؤوس الرسل الاثني عشر ، وقد طُوّق كل منها في لوحه المستقل وكأنه اطار ، على حين ارتفع فوقها جميعا صليب من آبنوس ومسيح يلفظ انفاسه ·

وتبعا لتخييم الظلمة المتنقلة ههنا ولالتماع الوميض المختلج هيناك كانت الصورة التي انيرت هي حينا صورة لوقا ، الطبيب الملتحي ، وقد حنى جبينه ، وحينا صورة القديس يوحنا وقد تماوج شعره الطويل ، وحينا وجه يهوذا الشيطاني وقد برز من اللوح المؤطر وبدا وكأنه يسترد عازب حياته ويتهدّد بالتكشف عن الخائن الاعظم ـ عن الشيطان نفسه ـ في صورة تابعه ومرؤوسه ·

ووسط هذا كله كان علي ، بالاضافة الى المراقبة ، ان ارهف اذني في الاصغاء ، الاصغاء الى حركات البهيمة المتوحشة او العفريتة الجاثمة في جُحرها الجانبي · ولكنها بدت ، منذ زيارة مستر روتشيستر ، وكأن سحرا ما قد جمَّد نشاطها فانا لم اسمع طوال الليل غير ثلاثة اصوات في ثلاث فترات متباعدة : وقع خطى على الارضية الخشبية ، وتجدّد مؤقت للضجة الكلبية النابحة ، وانين بشري عميق ·

ثم ان افكاري الخاصة شرعت تقلقني · اية جريمة كانت هذه الجريمة التي عاشت متقمصة في هذا القصر المعزول ، فليس في ميسور صاحبه ان يطردها او يُخضعها ؟ اي لغز كان ذلك اللغز الذي تفجَّر نارا حينا ، ودما حينا ، في جوف الليل البهيم ؟ واية مخلوقة كانت تلك المخلوقة المتنكرة في صورة امرأة عادية والتي اطلقت صوت عفريتة ساخرة تارة ، وصوت جارحة من جوارح الطير الباحثة عن الجيف طورا ؟

وهذا الرجل الذي انحنيت فوقه ـ هذا الغريب الهادىء المبتذل ـ كيف قُدّر له ان يقع في شرك الرعب ؟ وما الذي جعله ضحية الهياج المجنون ؟ ما الذي ساقه الى هذا الجزء من القصر في ساعة غير ملائمة كان يتعين عليه فيها ان يستسلم للرقاد في فراشه ؟ لقد سمعت مستر روتشيستر يُفرد له حجرة في الدور الاسفل ، فما الذي جاء به الى هنا ؟ ولماذا يتكشف الآن عن كل هذه الوداعة في ظل هذا العنف او ذلك الغدر الذي انزِل به ؟ لماذا استسلم بمثل هذا الهدوء للتكتم الذي فرضه مستر روتشيستر عليه ؟ ولماذا فرض مستر روتشيستر هذا التكتم ؟ لقد اعتُدي على ضيفه ، ولقد دُبرت في مناسبة سابقة مؤامرة بشعة ضد حياته هو ، ومع ذلك فقد خنق كلتا المحاولتين في الكتمان ، واغرقهما في النسيان ! واخيرا ، لقد لاحظت ان مستر مايسون كان شديد الاذعان لمستر روتشيستر ، وان ارادة الاخير المتهورة كان لها سلطان كامل على سكون الاول وجموده ، وهو ما اكدته لي الكلمات القليلة التي دارت بينهما · كان واضحا ان نزعة احدهما المنفعلة كانت متعودة ، في الاتصالات السالفة ، الخضوع لطاقة الاخر الفاعلة ، واذن فمن ايـن نشأ الرعب الذي

استبد بمستر روتشيستر عندما سمع بمجيء مستر مايسون ؟ لماذا سقط مجرد اسم هذا الفرد الذي لا يقاوم ــ والذي استطاعت كلمة واحدة منه ، هو روتشيستر ، ان تسيطر عليه وكأنه طفل من الاطفال ــ على رأسه ، قبل ساعات قليلة ، مثل سقوط الصاعقة على شجرة سنديان ؟

اوه ! انا لم استطع ان انسى هيئته وشحوب وجهه عندما همس : « جين ، لقد المَّت بي مصيبة ... لقد المَّت بي مصيبة ، يا جين . » ولم استطع ان انسى كيف ارتعدت الذراع التي اسندها الى كتفي . ان حادثا يستطيع ان يلوي على هذا النحو روح فيرفاكس روتشيستر العازمة وان يهز جسده الجبار لا يمكن ان يكون حادثا عاديا بسيطا .

ــ « متى سيأتي ؟ متى سيأتي ؟ » هكذا رحت اصيح في اعماق نفسي عندما تباطأ الليل وتطاول ... وعندما خارت قوى مريضي الجريح وانشأ يئن ثم غاب عن الوعي . ولكن لا النهار جاء ولا النجدة وصلت . وكنت قد ادنيت الماء ، كرة بعد كرة ، الى شفتي مايسون البيضاوين ، وكرة بعد كرة قدَّمت اليه الاملاح المنبِّهة ، ولكن جهودي كلها بدت عبثا لا طائل تحته ، فقد كان الألم الجسدي ، او الألم العقلي ، أو نزف الدم ، او الثلاثة مجتمعة قد انهكت قواه . لقد انَّ انينا واهنا وبدا غريب النظرات شاردها الى درجة خفت معها ان يكون قد دخل في النزع الاخير ، وليس في ميسوري ان أوجه اليه ولو كلمة واحدة !

وذابت الشمعة آخر الامر ثم انطفأت . وفيما هي تلفظ انفاسها الاخيرة لمحتُ شعاعات من نور رمادي تحاذي ستائر النافذة : كان الضحى يرتفع آنذاك . وما هي الا لحظات حتى سمعت بايلوت ينبح بعيدا ، خارج وجاره النائي في فِناء القصر ، فانبعث في نفسي ميت الامل . ولم يكن املي ذاك في غير محله . فلم تكد تنقضي خمس دقائق اخرى حتى انبأني المفتاح الصارّ والقفل المستسلم اني اعفيت من مهمة المراقبة التي عُهد بها اليَّ . ان تلك المهمة لم تدم اكثر من ساعتين اثنتين باية حال ، ومع ذلك فقد بدت الاسابيع المتعددة اقصر منها .

ودخل مستر روتشيستر ودخل معه الطبيب الجراح الذي كان قد ذهب لاستدعائه .

وقال للطبيب : « والان ، يا كارتر ، انتبه جيدا ، اني امنحك نصف ساعة ليس غير تضمِّد خلالها الجرح ، وتشد العصائب ، وتنزل الجريح الى الدور الاسفل وتتم كل شيء . »

ــ « ولكن اهو قادر على الحركة ، يا سيدي ؟ »

ــ « لا ريب في هذا . فليس الامر بخطير البتة . انه عصبي المزاج ، ويجب ان نعمل على رفع معنوياته . هيا ، باشر العمل . »

وردَّ مستر روتشيستر الستارة الكثيفة ، ورفع مصراع النافذة المصنوع من نسيج كتاني ، مجيزا لاكبر قدر من ضياء النهار النفاذ الى الحجرة ، فيما

كنت اعجب اعظم العجب واستشعر اعمق البهجة لرؤية المدى البعيد الذي بلغه ارتفاع الضحى والشعاعات الوردية التي شرعت تنير المشرق • ثم انه تقدَّم نحو مايسون ، وكان الطبيب قد بدأ في عمله •

وسأله مستر روتشيستر : « والان كيف انت ، يا صديقي الطيب ؟ »

فجاءه الجواب الواهن : « اخشى ان تكون قد قتلتني » •

ـ « هراء ! تشجع ! فلن ينقضي غير اسبوعين حتى يزول اخر اثر من آثار هذا البلاء • لقد فقدت بعض دمك ، هذا كل ما هنالك • كارتر ، أكِّدْ له ان ليس ثمة خطر على حياته » •

فقال كارتر ، الذي كان قد نزع الضمادات : « استطيع ان اؤكد له ذلك في اطمئنان وراحة ضمير ، وان كنت اتمنى لو استطعت الوصول الى هنا بأسرع مما فعلت • ولو تمَّ لي هذا ، اذن لما نزف من دمه مثل هذا القدر كله • ولكن كيف كان ذلك ؟ ان لحم الكتف ممزَّق ومجروح في آن معا • هذا الجرح لم يُحْدَث بمدية •• هل ما ارى آثار اسنان ؟ »

فغمغم : « لقد عضتني • لقد نهشتني مثل انثى النمر ، عندما انتزع روتشيستر المدية من يدها » •

فقال مستر روتشيستر : « لم يكن من حقك ان تستسلم • كان جديرا بك ان تقاومها في الحال » •

فأجابه مايسون : « ولكن ما الذي يستطيع المرء ان يفعله في ظروف كهذه ؟ » وتمهَّل لحظة ثم اضاف وهو يرتعد : « اوه ، لقد كان ذلك رهيبا ، وما كنت اتوقعه البتة • لقد بدت وادعة الى ابعد الحدود بادىء الامر » •

فكان جواب صديقه : « لقد انذرتك • لقد قلت لك : خذ حذرك عندما تدنو منها • والى هذا ، فقد كان في ميسورك ان تنتظر حتى غد وان تصطحبني اليها • ولقد كانت محاولتك مقابلتها الليلة ، ومقابلتها منفردا ، مجرد حماقة » •

ـ « لقد حسبت ان في استطاعتي ان اؤدي خدمة ما » •

ـ « لقد حسبت ! لقد حسبت ! اجل ، ان الاستماع اليك ليضجرني • ولكنك قد دفعت الثمن ، على اية حال ، واغلب الظن انك سوف تواصل دفعة طويلا بسبب من عدم عملك بنصيحتي • وهكذا ، فأني لن اتكلم اكثر مما فعلت • كارتر ، عجِّل !••• عجِّل ! ان الشمس سوف تشرق عما قريب ، ويتعين علي ان ارحِّله من هنا » •

ـ « دقيقة اخرى ليس غير ، يا سيدي • لقد فرغت اللحظة من تضميد الكتف • وعلي ان اعني الان بالجرح الاخر الذي في الذراع • لقد انشبت اسنانها هنا ايضا ، في ما اعتقد » •

فقال مايسون : « لقد امتصت دمي ، وقالت انها سوف تشرب دم قلبي كله » •

ورأيت مستر روتشيستر يرتعد • لقد لفتت محياه انطباعة صارخة ترشح بالتقزز والرعب والكراهية ، انطباعة كادت تلوي ذلك المحيا وتشوِّهه •

ولكنه اجتزأ بالقول :

ــ « دع عنك هذا ، والزم الصمت يا ريتشارد • انسَ حديثها الاحمق • لا تكرره » •

فكان الجواب : « ليتنني استطيع ان انساه » •

ــ « سوف تنساه حين تصبح خارج البلاد • اجل ، حين ترجع الى سبانيشتاون تستطيع ان تعتبر انها ماتت ودفنت ، بل انك لن تكون في حاجة الى التفكير فيها البتة » •

ــ « ولكن من المتعذر علي ان انسى هذه الليلة ! »

ــ « انه غير متعذر : ليكن لديك شيء من عزم ، ايها الرجل • لقد خُيِّل لك منذ ساعتين ليس غير انك ميت مثل سمكة رنكة ، وها انت ذا الان حي ، وحي يتحدث ايضا • انتبه !••• لقد فرغ كارترَ منك ، او كاد • ولسوف البسك ملابس لائقة بأسرع من ارتداد الطرف • جين !•• » (والتفت الي للمرة الاولى منذ عودته الى الحجرة) « خذي هذا المفتاح ، واهبطي الى حجرة نومي ، وامضي الى غرفة زينتي مباشرة ، فافتحي الدرج الاعلى من ادراج خزانة الثياب واخرجي منه قميصا نظيفا ووشاح عنق ، فاحمليهما الى هنا ، وكوني رشيقة خفيفة الحركة » •

ومضيت ، فالتمست المستودع الذي اشار اليه ، وجئت بما كلَّفني ان اجيء به ، وانقلبت عائدة •

فقال : « والان ، امضي الى الجانب الاخر من السرير ريثما اشرف على تغيير ملابسه • ولكن لا تغادري الحجرة ، فقد نحتاج اليك من جديد » •

فانسحبت الى حيث امرني •

وما هي الا لحظة حتى سألني روتشيستر : هل سمعت احدا يتحرك في الدور الاسفل ، عندما هبطت اليه ، يا جين ؟ »

ــ « لا ، يا سيدي ، كان كل شيء ساكنا جدا » •

ــ « سوف ننقلك من هنا في احتراس ، يا « ديك » • ولسوف يكون هذا افضل ••• افضل لك وللمخلوقة البائسة القابعة هناك • لقد سعيت طويلا لاجتناب الفضيحة ، ولست اريد ان تذهب جهودي كلها عبثا • والان ساعده ، يا كارتر ، على ارتداء صدرته • اين تركت معطفك المُفرَّى ؟ انك لا تستطيع ان تسافر ميلا واحدا بدونه ، انا اعرف ذلك ، في هذا الجو القارس اللعين • في حجرتك ؟••• جين ! اهبطي في سرعة بالغة الى حجرة مستر مايسون ــ الحجرة المحاذية لحجرتي ــ وائتيني بمعطف سوف ترينه هناك » •

واسرعت هابطة ، كرة اخرى • ثم انقلبت عائدة كما فعلت اول مرة ، حاملة معطفا ضخما بُطِّن ووشّحت اطرافه بالفراء •

فقال سيدي الجَلْد الذي لا يعرف التعب سبيلا الى نفسه : « جين ، عندي مهمة اخرى اريد ان اعهد اليك بها • يجب ان تذهبي الى حجرتي كرة اخرى • وعلى اية حال فمن حسن الطالع انك تنتعلين حذاء مخمليا ، يا جين !

فالرسول الجلف ليس يَصْلح البتة في هذه الورطة . ان عليك ان تفتحي درج منضدة زَينتي الاوسط وتخرجي منه قارورة صغيرة وكأسا صغيرة سوف تجدينهما هناك ... هيا ، اسرعي ! »

وهرعت الى هناك ثم انقلبت عائدة على جناح السرعة حاملة الوعاءين المطلوبين . فقال مستر روتشيستر : « حسن جدا . والان ، ايها الطبيب ، سوف اجيز لنفسي ان اقدّم اليه بذاتي جرعة ، وان اقدمها على مسؤوليتي انا . لقد فزت بهذا العقار المنبِّه في رومة ، من دجال ايطالي .. وهو فتىً كان خليقا بك لو رأيته ، يا كارتر ، ان ترفسه بقدمك . وعلى اية حال فليس هذا العقار من الضرب الذي يجوز اصطناعه في غير روية او تمييز ، ولكنه مفيد في بعض المناسبات ، كهذه المناسبة مثلا . جين ، ايتيني بقليل من الماء ».

وبسط يده بالكأس الصغيرة فملأتها نصف ملء من زجاجة الماء التي كانت على المغسلة .

ـ « هذا كاف ، والان ، اميلي القارورة حتى تترطّب شفتها بالشراب » .

ففعلت . فأحصى اثنتي عشرة قطرة من سائل قرمزي ، ثم قدّم الكأس الى مايسون ، قائلا : « اشرب ، يا ريتشارد ، ان هذا الشراب سوف يَهَبك الشجاعة التي تنقصك ، طوال ساعة او نحوها » .

ـ « ولكن هل يعود علي ذلك بأذىً ما ؟ أهو مهيِّج ؟ »

ـ « اشرب ! اشرب ! اشرب ! »

وامتثل مستر مايسون الامر ، فقد كان واضحا ان المقاومة لن تجديه نفعا . كان في لباسه الكامل الان ، ولكنه ظل باديَ الشحوب ، وان لم يعد قذر المظهر ، مضرّجا بالدم . واجاز له مستر روتشيستر ان يمكث ثلاث دقائق بعد تجرعه الشراب ، ثم انه امسك بذراعه وقال : « انا واثق الان من ان في استطاعتك الوقوف على قدميك . حاوِل ذلك ! »

ونهض الجريح ، وقال مستر روتشيستر : « أمسكْ به من ذراعه الاخرى ، يا كارتر . هيا ، تشجّع ، يا ريتشارد ، واخطُ الى امام ... هذا كل ما هنالك »

فلاحظ مستر مايسون : « اني اشعر فعلا بشيء من التحسن » .

ـ « انا على مثل اليقين من ذلك . والان ، انطلقي امامنا ، في رشاقة ، الى السلم الخلفي ، فارفعي مزلاج باب المجاز الجانبي وقولي لسائق عربة البريد الذي ستجدينه في فناء الدار ـ فقد طلبت اليه ان لا يجري بعجلاته المجلجلة فوق الطريق المعبدة ـ ان يكون على استعداد . نحن قادمون . واذا اتفق لك ، يا جين، ان شاهدت احدا هناك فارجعي الى ادنى السلم وتنحنحي » .

كانت الساعة آنذاك قد بلغت الخامسة والنصف وكانت الشمس على وشك ان تشرق . ولكني الفيتُ المطبخ مظلما صامتا ، ما يزال . كان باب المجاز الجانبي موصدا بالمزلاج ، ففتحته بأقل قدر من الضجة مستطاع . كان

السكون يرين على الفناء كله ، ولكن باب القصر الخارجي كان مفتوحا على مصراعيه ، وكانت هناك عربة بريد ، مُسْرجة الجياد ، وحوذي متربع في مقعده • فتقدمت نحوه ، وقلت له ان القوم قادمون ، فأومأ برأسه ، ثم انني اجلت الطرف في ما حولي بانتباه ، وانشأت اصغي • كان سكون الصباح الباكر ناعس الجفن في كل مكان ، وكانت الستائر ما تزال مُسْدلة فوق نوافذ حجرة الخدم • كانت صغار الطير قد شرعت تزقزق في شجرات الحديقة المنوّرة ، التي تدلّت افنانها وكأنها اكاليل بيضاء فوق الجدار المطوّق لجانب من جوانب الفناء • وبين الفينة والفينة كانت جياد العربة تضرب الارض بقوائمها ، اما سائر الاشياء فكانت مستسلمة للسكون •

وبرز الرجال الثلاثة • لقد بدا لي ان مايسون كان يمشي ، مستندا الى مستر روتشيستر والجراح ، في يُسْر غير قليل • ثم انهما ساعداه على الصعود الى العربة • وصعد كارتر من بعده •

وقال مستر روتشيستر لهذا الاخير : « اعتن به ، وابقه في منزلك حتى يشفى • ولسوف اهبط عليك ، ممتطيا صهوة جوادي ، بعد يوم او يومين ، ابتغاء الاطمئنان عليه • كيف تجد نفسك الان ، يا ريتشارد ؟ »

ـ « ان الهواء الطلق ينعشني ، يا فيرفاكس » •

ـ « دع النافذة مفتوحة من ناحيته ، يا كارتر ، فليس ثمة ريح • وداعا ، يا ديك » •

ـ « فيرفاكس ••• »

ـ « حسنا ، ماذا تريد ان تقول ؟ »

ـ « دعهم يُعْنَون بها • دعهم يعاملونها بأقصى ما يستطيعون من رفق • دعهم ••• » وكفّ عن الكلام ، وانفجر بالبكاء •

فكان الجواب : « سوف ابذل قصارى جهدي • لقد بذلته ، ولسوف استمر في بذله » واغلق باب العربة ، فمضت لسبيلها •

ـ « ومع ذلك فأنا اسأل الله ان يضع حدا لهذا كله ! » كذلك اضاف مستر روتشيستر وهو يغلق باب الفناء الثقيل ويدعمه بالمزلاج • حتى اذا اتمّ ذلك تقدم في خطى وئيدة وسيماء ذاهلة شاردة اللب نحو باب في الجدار المتاخم للحديقة • واذ حسبت انا انه لم يعد في حاجة الي فقد اخذت اهبتي للعودة الى القصر • بيد اني سمعته يناديني من جديد : « جين ! » كان قد فتح الباب ووقف عنده ، في انتظاري •

وقال : « تعالي الى حيث تجدين بعض النسائم العليلة ، وقفي معي دقائق معدودات • ان ذلك المنزل لا يعدو ان يكون سجنا مظلما • الا تشعرين انه كذلك ؟ »

ـ « انه يبدو في ناظري قصرا فخما ، يا سيدي » •

فاجابني : « ان سَدَر الغرارة واللاخبرة ليغشي عينيك • وانك لترين اليه من خلال مرآة مسحورة : انت لا تستطيعين ان تتبيّني ان مذهبّاته طينٌ

لزج ، وستائره الحريرية نسيج عنكبوت ، وان رخـامه اردواز حقير ، وان رياشه المصقول مجرد شظايا خشب مرذولة ولحـاء شجر خسيس • اما هنا (واشار الى حظيرة مورقة كنـا قد دخلناها) فكل شيء حقيقي ، عـذب ، خالص » •

وراح يمشي ، هائما ، في مجاز تكتنفه اشجار البقس والتفاح والكمثري ، والكرز من جانب ، ورقعة متطاولة حافلة بمختلف ضروب الرياحين التقليدية ، وزهر المنثور ، وقرنفل الشاعر ، وآذان الدبّ ، وزهرة الثالوث (بانسيه) ممتزجة بنبات الشَّيْبة ، وورد النسرين ، ومختلف الاعشاب الفاغمة ، من جانب اخر • لقد غدت الان ناضرة بقدر ما يستطيع تعاقبُ امطار نيسـان وايماضاته المتألقة بين يدي صباح حلو من اصباح الربيع ، ان ينضِّرهـا • كانت الشمس قـد اخـذت تصعَّد ، منذ لحظـات ، في سمـاء المشرق المرقَشة ، وكانت اشعتها تضيء شجرات الحديقة المكللة بالـزهور المثقلـة بالندى ، وتنير ما امتدَّ تحتها مـن ممرات هادئة وادعـة •

ـ « هل تريدين زهرة ، يا جين ؟ »

وقطف وردة نصف متفتحة، كانت هي اول ورود العُلّيقة، وقدمها الي•

ـ « شكرا ، يا سيدي » •

ـ « اتحبين شروق الشمس هـذا ، يا جين ؟ هـذه السـماء ذات السحب الشامخة الرقيقة التي لا بد ان تذوب حين يحور النهار دافئا ••• وهذا الجو الوادع العليل ؟ »

ـ « اجـل ، يا سيدي » •

ـ « لقد قضيت ليلة عجيبة ، يا جين ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي » •

ـ « ولقد جعلتِ الشحوب يرين على وجهكِ ••• هـل أوجسـت خيفة حين خلّفتك وحيدة مع مايسون ؟ »

ـ « لقد خفت ان يخرج شخص ما من الحجرة الداخلية » •

ـ « ولكني كنت قد اوصدت الباب ••• وكان المفتاح في جيبي • لقد كان خليقا بي ان اكون راعيا مهملا لو تركت حمَلا ـ حملي الوديع المحبوب ـ من غير حراسة ، على مثل ذلك القرب من وجار ذئب ضار • لقد كنـتِ في مـأمن »•

ـ « وهل ستبقى غرايس بول مقيمة في القصر ، يا سيدي ؟ »

ـ « اوه ، نعم ! لا تقلقي بالك بها ••• اطردي صورتها من ذهنك » •

ـ « ومع ذلك فيبدو لي انك لن تنعم بالسلامة ما بقيتَ هنا » •

ـ « لا تخافي علي البتة ، سوف اصون نفسي منها » •

ـ « وهل زال الان ذلك الخطر الذي خشيتَه الليلـة البارحـة ، يـا سيدي ؟ »

ـ « لا استطيع ان اقطع بذلك الا بعد ان يغادر مايسون انكلترة ، بل

حتى بعد ان يغادرها ٠ ان الحياة ، بالنسبة الي ، يا جين ، تعني الوقوف على فوهة بركان قد ينفجر وينفث الحمم في ايما يوم من الايام » ٠

ـ « ولكن مستر مايسون يبدو رجلا سهل القياد ٠ وان سلطانك عليه ، يا سيدي لقوي الى حد جلي ٠ انه لن يتحداك ابد الدهر ، ولن يسعى الى ايذائك عامدا » ٠

ـ « اوه ، لا ٠ ان مايسون لن يتحداني ، لا ، ولن يعمل على ايذائي عامدا ٠ ولكنه قد حرمني في لحظة واحدة ، وعن غير قصد منه ، سعادة الحياة الى الابد ، ان لم يحرمني الحياة نفسها ، بكلمة واحدة تندُّ ، طائشة ، من بين شفتيه » ٠

ـ « قل له ان يلزم الحذر ، يا سيدي ٠ اشعِرْهُ بمخاوفك ، وبيِّنْ له كيف يجتنب الخطر ٠ »

فارسل ضحكة صفراوية ، وسارع الى الامساك بيدي ثم ما لبث ان اقصاها عنه بمثل السرعة التي امسكها بها ٠ وقال : « لو استطعت ان افعل ذلك ، ايتها البلهاء ، فأين يكمن الخطر عندئذ ؟ ان الخطر خليق به ان يزول ، في مثل هذه الحال ، في لحظة واحدة ٠ لقد تعيَّن علي ، منذ عرفت مايسون ، ان اكتفي بأن اقول له : « افعل هذا ! » فيصدع بأمري ٠ ولكنني لا استطيع ان اوجه اليه الاوامر في هذا الصدد ٠ انا لا استطيع ان اقول له : « حذار ان تؤذيني ، يا ريتشارد ! » لانى اعتبر من الجوهري بالنسبة الي ان ابقيه جاهلا ان ايذاءه اياي امر" ممكن ٠ انا ارى الان امارات الدهش البالغ على وجهك ، واني لن ازيدك مع الايام الا دهشا على دهش ٠ انت صديقتي الصغيرة ، اليس كذلك ؟ »

ـ « انا احب ان اخدمك ، يا سيدي ، وان اطيعك في كل ما هو حق » ٠

ـ « على وجه الضبط ، واني لاراك تفعلين ذلك ٠ انا المح الرضا الاصيل في مشيتك وسيمائك ، في عينك ووجهك ، حين تسدين الي العون وتوقعين في نفسي السرور ٠٠٠ حين تعملين من اجلي ، ومعي ، في « كل ما هو حق » كما عبَّرتِ أدق تعبير واكثره تمييزا ٠ اذ لو أمرتكِ بأن تفعلي ما تحسبينه باطلا اذنَ لما كان ثمة جري خفيف القدم ولا رَشاقة انيقة اليد ، ولا نظرة مشبوهة ، ولا بشرة تمور بالحياة ٠ واذن لالتفتت صديقتي الي ، رابطة الجأش شاحبة الوجه وقالت : « لا ، يا سيدي ، هذا متعذر ٠ انا لا استطيع ان اقوم به ، لانه باطل » ٠ وعندئذ تلزم موقفها لا تتزحزح عنه مثل نجمة ثابتة ٠ حسنا ، ان لك انت ايضا سلطانا علي ، وفي ميسورك ان تؤذيني : ومع ذلك فلست اجرؤ على اظهارك على موطن الانجراح عندي ، مخافة ان تعمدي الى طعني في الحال ، برغم ما يعمر نفسك نحوي من ولاء ومودة » ٠

ـ « اذا كان ما تخشاه من مستر مايسون لا يعدو ما تخشاه مني فانعم بطول سلامة ، يا سيدي » ٠

ـ « اسأل الله ان يكون الامر كذلك · ههنا تعريشة ظليلة ، يا جين ، فـــاجلسي » ·

وكانت التعريشة كناية عن قوس محفور في الجدار يكتنفه اللبلاب ، وكانت تظلل مقعدا ريفيا ساذجا · فاستوى مستر روتشيستر عليه ، تاركا لي مكانا فيه ، بيد انني بقيت واقفة امامه ·

وقال : « اجلسي · المقعد طويل يتسع لشخصين · انا لا اظنـــك تترددين في الجلوس الى جانبي ، اليس كذلك ؟ هل تعتبرين ذلك ضربا من الباطل ، يا جين ؟ »

فكان جوابي هو الجلوس · لقد بدا لي ان الرفض خليق بأن يـكون عملا تعوزه الحكمة ·

ـ « والان ، يا صديقتي الصغيرة ، بينا تشرب الشمس الندى ، بينـا تستيقظ جميع الرياحين في هذه الحديقة العتيقة وتتفتَّح ، وبينـا تلتمس الطير فطور فراخها في الحقول المنبسطة وراء تورنفيلد ، وبينا النحـــلات المبكرات يؤدين اولى نوبات عملهن ··· سوف ابْسُط لك قضـية ، يتعين عليك ان تحاولي اعتبارها قضيتك انت · ولكن انظري الي ، اولا ، وقولي ، لي انك مطمئنة النفس ، غير خائفة ان يكون في ابقائي اياك ههنا اي بأس ، او ان يكون في لقائك معي اي أثم » ·

ـ « لا ، يا سيدي · انا مطمئنة النفس » ·

ـ « حسنا ، اذن ، يا جين ، التمسي العون مـــن خيالك : افترضـي انك ما عدت فتاة نشّئَت على التمسك باهداب الخلق والنظام ، ولكن فتىً نُشّئ في الدلال منذ ان كان طفلا · تخيلي نفسك في ارض اجنبية نائية ، وتصوري انك ارتكبت هناك خطيئة عظمى ، ايا ما كانت طبيعتها او الدوافع التي افضت اليها ، ولكنها خطيئة لا بـد لعواقبها ان تلزمك مدى الحياة كما يلزمك طفلك ، وان تلوّث وجودك كله · انتبهي جيدا ، انا لا اقول **جريمة** ، انا لا اتحدث عن سفك دم او اي عمل اجرامي اخر يعرّض مقترفه لعقوبات القانون · لا ، ان الكلمة التي استعملتها هي **خطيئة** · ومع الايام تصبـــح نتائج ما فعلتـه لا تطاق بأية حال ، فتتخذين اجراءات تستهدفين مـــــن ورائها بعض العَزاء : اجراءات غير عادية ، ولكنها ليست غير قانونية وليست محرّمة · ومع ذلك ، يظل الشقاء حليفك ، ذلك بأن الامل قد هجرك منـذ مطلع حياتك نفسه : ان شمسك ليغشاها ظـلام الكسوف في منتصـف النهار ، وهو ظلام تحسبين انه لن يفارقها حتى ساعـة الغروب · وما هـي الا فترة حتى تصبح المعاني المريرة والحقيرة هي غذاء ذَاكرتك الاوحد : انك لتهيمين على وجهك ضاربةً في الارض ، باحثة عـــن السلوان في ديـــار الغربة ، ملتمسة السـعادة في الملـذات ـ الملذات الحسيّة ، البهيمية ، اعني ـ التي تبلّد الفكر ، وتصوّح الشعور · ثم تنقلبين الى ارض الوطن ، بعد سنوات من النفي الاختياري ، وفي بُرْدَيْك فـــؤاد مضنى ، وروح

ذابلة . وتنشئين صداقة جديدة ، اما كيف واين ؟ فأمر" لا يقدم ولا يؤخر ، وتجدين في هذا الغريب كثيرا من الصفات الخيِّرة المشرقة التي التمستها طوال عشرين عاما ، والتي لم تهتدِ اليها البتة ، وكلها صفات نضرة ، معافاة ، لا يشوبها دنس ، ولا يصِمها عار . ومثل هذه الصحبة يحيي النفس ، ويجدّد الفؤاد . وتستشعرين ان اياما افضل تنتظرك ، اياما حافلة بأماني اسمى ، واحاسيس اطهر . وترغبين في استئناف حياتك من جديد ، وفي انفاق ما بقي لك من ايام بطريقة اجدر بمخلوقٍ غير فانٍ . فهل يبرر لك الحرصُ على بلوغ هذا الهدف ان تتخطّي عقبة من عقبات العرف — مجرد حاجز تقليدي لا يقدّسه ضميركِ ولا يقرّه عقلكِ ؟ »

وتمهل انتظار الجواب ، ولكن ما الذي كان يجدر بي ان اقوله ؟ اوه ، لشد ما تقت آنذاك الى روح من الارواح الخيِّرة تسرُّ في اذني جوابا عاقلا مرضيا ! ولكن يا له من امل لا طائل تحته ! لقد شرعت ريح الغرب توشوش شجرات اللبلاب من حولي ، ولكن ايما روح رقيقة منجدة لم تستعر أنفاسها لتتخذ منها وسيلة للكلام . وغرّدت الطير في قنن الاشجار ، ولكن تغريدها — برغم عذوبته كلها — كان ابكم ممتنعا على الفهم .

وكرة اخرى طرح مستر روتشيستر سؤاله : « أيَسوّغ لهذا الرجل الضال الآثم ، ولكن الذي امسى الان تائبا يلتمس الراحة ، ان يتحدى رأي الناس لكي يشد اليه ، مدى الحياة ، هذا الغريب ، الانيس ، الكريم ، اللطيف ، وبذلك يحقق طمأنينة فؤاده ويوفق الى تجديد حياته ؟ »

فأجبت قائلة : « سيدي ، ان راحة الضال وتوبة الآثم يجب ان لا يكونا ، بأية حال ، رهنا بمخلوق بشري . فالرجال والنساء يموتون ، والفلاسفة يتلعثمون بالحكمة ، والنصارى يترددون في العمل الصالح . فاذا كان بين معارفك امرؤ تألم وضلّ عن سواء السبيل فدعهُ يتطلّع الى اعلى ، ويلتمس القوة المصلحة والسلوان الشافي عند من هو فوق اقرانه جميعا » .

— « ولكن هناك الوسيلة ... الوسيلة ! ان الله ، الذي يخلق العمل ، يفرض الوسيلة . لقد كنت انا نفسي — واني لاقول لك ذلك في غير مداورة — رجلا قلق النفس ، دنيوي الهوى ، منغمسا في الملذات ، واحسب اني وجدت الوسيلة الى الشفاء ، في ... »

وأمسك عن الكلام . وواصلت الطير تغريدها ، واوراق الشجر حفيفها الواهن . وكدت اعجب لمَ لم تقطع اغانيها ووشوشاتها لكي تتلقّف هذا الاعتراف المعلّق ، ولكنها لو فعلت اذن لتعين عليها ان تنتظر دقائق متعددة — فقد تطاول الصمت الى هذا الحد فعلا . واخيرا ، رفعت بصري الى المتحدث المتواني ، فألفيته ينظر الي في شوق بالغ .

وقال في نبرة مختلفة كل الاختلاف ، بينا تغيّر وجهه ايضا ، فاقدا كل وقته وكآبته ، ليمسي جافيا ساخرا : « ايتها الصديقة العزيزة ، لقد

لاحظتِ ولوعي الغض بمس اينغرام ، افلا تعتقدين انها قادرة ، اذا ما تزوجتَ منها ، على ان تجدّد فؤادي في قوة وعزم ؟ »

ونهض في الحال ومضى الى اقصى الطرف الآخر من المجاز ، حتى اذا رجع سمعتُه يدندن بلحن من الالحان ·

وقال ، واقفا امامي : « جين ، جين ، لقد اورثك سهرك هذا الطويل شحوبا بالغا · فهل ستلعنينني لاقلاقي راحتك ؟ »

ــ « العنك ؟ لا ، يا سيدي » ·

ــ « صافحيني ، توكيدا لهذا العهد · يا للاصابع الباردة ! لقد كانت اشد دفئا ، الليلة البارحة ، عندما لمستُها عند باب الحجرة التي تكتنفها الاسرار · جين ، متى ستسهرين الليل معي كرة اخرى ؟ »

ــ « كلما وجدتُ نفسي ذات نفع ، يا سيدي » ·

ــ « عشية زواجي ، مثلا ! انا واثق من اني لن أقوى ، تلك الليلة ، على النوم ، فهل تعدينني بأن تسهري معي لكي ترافقيني ؟ ان في استطاعتي ان افضي اليك انتِ بالحديث عن فتاتي المحبوبة ، ذلك بأنك قد رأيتِها الان وعرفتِها » ·

ــ « اجل ، يا سيدي » ·

ــ « انها نادرة المثال ، اليست كذلك يا جين ؟ »

ــ « اجل ، يا سيدي » ·

ــ « فتاة فارعة الطول قوية البنية ، اجل يا جين · وهي ضخمة الجسم ، سمراء ، ممتلئة عافية ، ذات شعر هو اشبه ما يكون بشعر سيدات قرطاجة · رباه ! اني المح « دينت » و « لين » في الاسطبل · ارجعي الى القصر عبر هذه الخميلة ، ومن خلال ذلك البُويب » ·

ومضيت انا من طريق ، ومضى هو من طريق ، وسمعته في الفِناء يقول في بِشْر وابتهاج :

ــ « كان مايسون اسبقكم جميعا الى النهوض هذا الصباح · لقد ارتحل قبل طلوع الشمس · ولقد افقت في الساعة الرابعة لكي اكون في وداعه » ·

٢١

ما اعجب الهواجس ! وما اعجب ضروب التحاسس والنُذُر ! ان هذه الثلاثة مجتمعة لتؤلف لغزا لمّا تعثر البشرية حتى الان على مفتاحه · والواقع اني لم اسخر قط ، طوال حياتي ، من الهواجس لاني خبرتُ بنفسي صنوفا منها غريبة · والتحاسس ، في اعتقادي ، موجودة : (مثلا ، بين الانسباء الذين باعدت ما بينهم المسافات ، وتطاولت فترات غيابهم ، فأمسوا غرباء بعضهم عن بعض بكل ما في الكلمة من معنى · انهم يؤكدون

ـ برغم تباعدهم ـ وحدة الارومة التي يردون اليها اصلهم) ، وان مفاعيله لتذهل العقل البشري • اما النذر فهي ، بقَدْر ما نعرف ، لا تعدو ان تكون مشاركة وجدانية من جانب الطبيعة نحو الانسان •

حين كنت بُنيَّة لا يزيد عمري على ست سنوات سمعت بيسي ليفن تقول ، ذات ليلة ، لمارتا آبوت انها رأت في ما يراه النائم طفلا صغيرا ، وان رؤية الاطفال في المنام نذير" لا يكذب بأن بلاء سوف يحل اما بصاحب الحلم او باحد افراد اسرته • ولقد كان خليقا بذلك الكلام ان يمحى من ذاكرتي لو لم تَعقُبْ ذلك مباشرة حادثة ساعدت على ترسيخه هناك فليس من سبيل الى طمسه : لقد استدعيت بيسي في اليوم التالي ، الى بلدتها ، لتشهد وفاة اختها الصغيرة •

لقد تذكرت هذا القول وتلك الحادثة ، مرات عديدة ، في الفترة الاخيرة • اذ نادرا ما انسلخ عني الليل ، خلال الاسبوع الماضي ، من غير ان ارى في المنام طفلا ـ طفلا كنت في بعض الاحيان اسْكته بين ذراعي ، وفي بعضها ادلّله فوق ركبتي ، بعضها الاخر اراقبه وهو يلعب بضروب الاقاحي في مرجة خضراء ، او يبلل يديه بالماء الجاري • لقد كان طفلا مسرفا في العويل في ليلة، مشرق الاسارير بالضحك في ليلة، وكان يستكن على مقربة دانية مني حينا، ويعدوها هاربا مني حينا• ولكن ايا ما كان المزاج الذي تكشَّف عنه ذلك الطيف وايا ما كان المظهر الذي اتخذه فأنه لم يكف مرة عن الالمام بي ، طوال سبع ليال متعاقبات ، حال دخولي دنيا الرقاد •

ولم ارتح لهذا التكرار من جانب فكرة واحدة ، لهذا التعاقب العجيب لصورة مفردة • فكانت اعصابي تتوتر كلما دنا موعد الايواء الى الفراش وكلما دنت ساعة الرؤى والاحلام • والواقع اني اوقظت من صحبة ذلك الطيف ـالطفل ، في تلك الليلة المقمرة ، عندما سمعت الصرخة الرهيبة ، حتى اذا كان اصيلُ اليوم التالي دعيت للهبوط الى الدور الاسفل حيث كان شخص ما يريد مقابلتي في حجرة مسز فيرفاكس • وحين شخصت الى هناك وجدت رجلا ينتظرني ، تبدو عليه امارات خادم من خدم السادة • كان يرتدي ثوب حِداد داكنا ، وكانت القبعة التي حملها بيده مطوَّقة بعصابة من قماش اسود •

وقال واقفا لي عندما دخلت : « استطيع ان اقول انك لا تكادين تتذكرينني ، ايتها الآنسة • ولكن اسمي ليفن • لقد كنت اعمل حوذيا عند مسز ريد يوم كنت انت في غايتسهيد قبل ثماني سنوات او تسع ، ولا ازال مقيما هناك •

ـ « اوه ، روبرت ! كيف أنت ؟ انا اتذكرك جيدا • لقد كنت تجيز لي احيانا ان امتطي صهوة فرس مس جورجيانا ،الضئيل الجسم ، الكميت اللون • وكيف حال بيسي ؟ لقد تزوجت من بيسي ، اليس كذلك ؟ »

ـ « اجل ، ايتها الانسة • وزوجتي في صحة جيدة ، شكرا • ولقد

انجبت لي طفلا اخر منذ شهرين تقريبا ـ ان عندنا الان ثلاثة اولاد ـ وكل من الام والوليد في أحسن حال » .

ـ « وهل الاسرة ، هناك ، في القصر في حال حسنة ، يا روبرت ؟ »

ـ « يؤسفني ان لا استطيع اعطاءك انباء عنها افضل ، ايتها الآنسة . انها الان في اسوأ حال ... لقد ألمَّ بها خطب عظيم » .

فقلت وانا انظر الى ثوبه الاسود : « ارجو ان لا يكون احدٌ قد مات! »

فخفض بصره الى العصابة المطوقة قبعتَه واجابني قائلا : « لقد مات مستر جون في مثل يوم امس من الاسبوع المنصرم ، في شقته بلندن » .

ـ « مستر جون ؟ »

ـ « نعــــم » .

ـ « وكيف تلقت امه هذه الضربة ؟ »

ـ « ان المصيبة ، يا مس ايير ، لم تكن مصيبة عادية ، على اية حال . فقد كان يحيا حياة طائشة الى ابعد الحدود ، ولقد استسلم فــي السنوات الثلاث الاخيرة لمسالك عجيبة . وكان موته مروعا حقا » .

ـ « لقد سمعت من بيسي انه لم يكن حسن السيرة » .

ـ « حسن السيرة ! ان سيرته ما كان يمكن ان تكون اسوأ مما كانت. لقد اتلفت صحته وامواله بمعاشرة اسوأ الرجال ، واسوأ النساء . ولقــد رزح تحت اعباء الديون والقي به في غياهب السجن . ومرتين اثنتيـــن مدت اليه امه يد العون ، ولكنه كان لا يكاد يغادر السجن حتى ينقلـــب الى رفاقه القدماء ، ويعود سيرته الاولى . انه لم يكن ذا روية وتعقُّل ، ولقــد خدعه القوم اللئام الذين عاش بين ظهرانيهم خداعا لم اسمع بمثله مـــن قبل . ومنذ ثلاثة اسابيع تقريبا وفد على غايتسهيد وطلـــب الى سيدتي ان تتنازل له عن كل شيء . ولكن سيدتي رفضت : ذلك بأن اسرافه كان قد استنزف مواردها او كاد . فعاد من حيث اتى ، وكان اول نبأ جاءنا عنه بعد ذلك هو نعيه . اما كيف مات فهذا شيء لا يعلمه الا الله !... ولكن هناك من يقول انه انتحر » .

واعتصمت بالصمت ، فقد كان النبأ رهيبـــا . واستأنف روبرت ليفن حديثه فقال :

ـ « وكانت صحة سيدتي نفسها قد اعتلت فترة من الزمان : لقد امست بدينة جدا ، ولكن ذلك لم يكن دليل قوة وعافية ، ثم ان ما مُنِيت به من نقص في الاموال وما اعتراها من خوف الفقر كانا قد قصما ظهرها قصما . وعلى حين غرة جاءها نعي مستر جون والطريقة التي لقي بها حتفه ، فكانت الصدمة اعنف من ان تطاق . لقد اعتُقِل لسانها ثلاثة ايام متواليات ، ولكن حالها تحسَّنت ، يوم الثلاثاء الماضي ، بعض الشيء : لقد بدت وكأنها تريد ان تقول شيئـــا ، وراحت تومىء لزوجتي وتتمتم على نحو موصول . ولم تفهم بيسي ، الا صباح امس ، انها كانت تلفظ اسمـــك . واخيرا ادركـــت انهـــا تقول : « ايتوني

بجيئن ••• ابحثوا عن جين ايير ••• انا اريد ان اتحدث اليهـا » • وبيسي ليست واثقة من انها كانت في كامل قواها العقلية ، وغير موقنة من انها عنت بهذه الكلمات شيئا ما • ولكنها انبأت الانسة ريد والانسة جورجيانا بذلك ، ونصحتهما باستدعائك • وابت السيدتان الشابتان ان تعملا ، بادىء الامر ، وفق هذه النصيحة • ولكن القلق غلب على امهمـا الى ابعد حدٍّ ، فأنشـأت تقول : « جين ! جين ! » على نحو مكرور حملهما آخر الامر على الموافقة • لقد غادرتُ غايتسهيد امس ، واني لاحب ان اعود بك الى هناك ، في ضحى الغد ، ان استطعتِ ان تكوني آنذاك على اتم الاستعداد للرحلة » •

ــ « اجل ، يا روبرت • سوف اكون على اتم الاستعداد • يبدو لي ان واجبي يقتضيني الذهاب » •

ــ « وانا اظن ذلك ايضا ، ايتها الانسة • لقد قالت بيسي انها على مثل اليقين من انك لن ترفضي • ولكني احسب ان عليك ان تلتمسي الاذن بالرحيل قبل ان توفَّقي الى الذهاب » •

ــ « اجل ، ولسوف افعل ذلك الان » •

حتى اذا قدته الى حجرة الخدم وعهدت الى زوجة جون ، والى جون نفسه ، في العناية به ، رحت ابحث عن مستر روتشيستر •

انه لم يكن في اي من الحجرات الدنيـا ، ولم يكن في الفِنـاء ، او في الاسطبل ، او في الارض الواسعة المحيطة بالقصر • وسألت مسز فيرفاكس هل رأته ، فقالت نعم ، وعبرت عن اعتقادها بانه كان يلعب البليارد مع مس اينغرام • فهرعت الى حجرة البليارد : كانت اصـداء التصـادم بين الكرات والاصوات المختلطة المبهمة تنبعث من هناك ، وكان مستر روتشيستر ومس اينغرام والانستان ايشتون والمعجبون بهن منهمكين كلهم في اللعبة • وكان ازعاج مثل هذه الجماعة المستغرقة في لهوها امرا يحتاج الى بعض الشجاعة • ولكن مهمتي كانت من ضرب يتعذر عليَّ ارجاؤه ، وهكذا تقدَّمت نحو رب القصر ، وكان واقفا بجانب مس اينغرام • حتى اذا اقتربت منه التفتت اليَّ وحدجتني بنظرة متشامخة : لقد بدت عيناها وكأنهما تسألان : « اي شيء يمكن لهذه المخلوقة الزاحفة ان تطلبه في مثل هذا الوقت ؟ » وحين قلت في صوت خفيض : « مستـر روتشيستر » أتت بحركة أوقعـت في نفسي انها تود لو تطردني من الحجرة • انا اتذكر حتى الان كيف كان مظهرها في تلك اللحظة • كان جميلا جدا وفاتنا جدا : لقد ارتدت ثوب صباح مخيطا من « كريب » ازرق بلون السماء ، وعقصت الى شعرها وشاحا لازورديا شفافا • كان اللعب قـد استأثر بكامل حيويتها ، ولم تطامن الكبريـاءُ المثـارةُ من اساريرها الناطقة بالتشامخ والعجرفة •

وسألت مستر روتشيستر : « هل هذه المخلوقة تريدك ؟ » فالتفـت مستر روتشيستر ليرى من كانـت تلـك « المخلوقة » • فلوى فمه على نحو غريب ــ وهي احدى طرائفه العجيبة المبهمة في اظهار الشعور ــ ثم طرح عصا

البليارد وتبعني الى خارج الحجرة .

وقال ، وهو يسند ظهره الى بـاب حجرة الدراسة ، وكان قد اغلقه : « حسنا ، ماذا يا جين ؟ » .

ـ « اني ارجو ان تمنحني ، يا سيدي ، اجازة تغيُّب مدتها اسبـوع او اسبوعان . » .

ـ « وما تريدين ان تفعلي فيها ؟ والى اين سوف تذهبين خلالها ؟ » .

ـ « اريد ان اعود سيدة مريضة ارسلت في طلبي » .

ـ « اية سيدة مريضة ؟... واين تقيم هذه السيدة ؟ » .

ـ « في غايتسهيد ، في اقليم ... » .

ـ « اقليم ؟... انه يقع على مبعدة مئة ميل من هنا ! ومن تكون هـذه السيدة التي تكلف الناس ان يجتازوا هذه المسافة الشاسعة لكي يروها ؟ » .

ـ « ان اسمها ريد ، يا سيدي ... مسز ريد . » .

ـ « مرع آل ريد الغايتسهيديين ؟ كان ثمة قاض من آل ريد الغايتسهيديين هؤلاء . » .

ـ « انها ارملته ، يا سيدي » .

ـ « واي شأن لك بها ؟ كيف اتفق لك ان عرفتِها ؟ » .

ـ « لقد كان مستر ريد خالي ، شقيق امي » .

ـ « يا للشيطان ! انك لم تنبئيني بهذا قط منْ قبل . لقد كنت دائما تقولين لي أنك فتاة لا انسباء لها » .

ـ « اجل ، ليس لي انسباء يعترفون بأني واحدة منهم ، يا سيـدي . فقد توفي مستر ريد ، ولقد نبذتني زوجته » .

ـ « لمـــاذا ؟ » .

ـ « لاني كنت فقيرة ، متعِبة ، ولانها كانت تكرهني » .

ـ « ولكن ريد ترك اولادا ، ولا بد ان يكون لك ابنـاء خال ، ولقد كان السير جورج لين ، يتحدث ، امس ، عن واحد من آل ريد الغايتسهيديين ... كان ، على حد قوله ، واحدا من اخبث اوغـاد البلدة على الاطلاق . وكانـت الآنسة اينغرام تتحدث عن فتاة من الموطن نفســه تدعى جورجيانا ريـد كان جمالها موضع اعجاب عظيم في لندن منذ فصل او فصلين » .

ـ « لقد توفي جون ريد ايضا ، يا سيدي ، بعد ان اضاع امواله وكـاد يضيع اموال اسرته . ومن المفروض انه مات منتحرا . ولقد وقع النبأ على امه موقعا شديدا اصيبت على اثره بالفالج » .

ـ « واي نفع تستطيعين انت ان تسديه اليها ؟ هراء ، يا جين ! لو كنت مكانك لما فكرت لحظة واحدة في اجتياز مئة ميل لكي ارى سيدة عجوزا قـد تقضي نحبها ـ فمن يدري ؟ ـ قبل ان اصل اليها . والى هذا ، فانت تقولين انها نبذتك » .

ـ « نعم ، يا سيدي ، ولكن ذلك كان منذ فترة بعيـدة ، ويوم كانـت

ظروفها مختلفة جدا عن ظروفها الحالية • ان وجداني لن يرتاح اذا اغفلت رغباتها الان » •

— « وكم سوف تلبثين ؟ »

— « اقصر مدة مستطاعة ، يا سيدي » •

— « عديني بأن تلبثي اسبوعا واحدا ليس غير ••• »

— « من الخير لي ان لا اعدك بشيء • اني قد اضطَر الى الحنث في الوعد » •

— « انك سوف تعودين ، على اية حال ، ولن تُغْرَيْ ، مهما تكن الذريعة ، بالاقامة الدائمة الى جانبها ؟ »

— « اوه ، لا ! سوف اعود من غير ريب اذا جرى كل شيء وفق المرام » •

— « ولكن من سيذهب معك ؟ انك لا تستطيعين السفر وحدك مسافة مئة ميل » •

— « لا ، يا سيدي • لقد ارسلت الي حوذيها » •

— « وهل هو موضع ثقة ؟ »

— « اجل يا سيدي • لقد عاش مع الاسرة عشر سنوات كاملة » •

ففكر مستر روتشيستر لحظة ، ثم قال : « ومتى ترغبين في الرحيل ؟ »

— « في ضحى الغد ، يا سيدي » •

— « حسنا ، يجب ان تتزودي بشيء من المال • انك لا تستطيعين السفر من غير مال ، وفي ميسوري ان اقول ان ما عندك من ذلك ليس بكثير • فانا لم ادفع اليك ايما راتب حتى الان » • وتبسَّم ضاحكا وسألني : « كم تملكين من حطام الدنيا ، يا جين ؟ »

فأخرجت كيس دراهمي ، وكان هزيلا جدا • ثم قلت : « خمسة شلنات ، يا سيدي » • فأخذ الكيس ، وافرغ ذخيرته في راحة يده ، وانشأ يضحك وكأن هزالها اوقع السرور في نفسه • ثم انه سارع الى اخراج حافظة نقوده ، وقال وهو يقدِّم الي ورقة مالية : « دونك هذه ! » كانت ورقة من فئة الخمسين جنيها ، وكانت المدة التي سلختها في تعليم آديل تجعله مدينا لي بخمسة عشر جنيها ليس غير • فقلت له اني لا املك من قطع النقد الصغيرة ما يساعدني على رد بقية الحساب اليه •

— « انا لا اريد هذه البقية ، انت تعرفين ذلك • هذه الخمسون جنيها هي اجرك » •

ورفضت ان آخذ اكثر من حقي ، فزوى ما بين حاجبيه ، بادىء الامر ، ثم قال وكأنما تذكر شيئا :

— « صحيح ، صحيح ! من الخير لي ان لا اعطيك اجرك كله الان • من يدري ، فقد تمكثين هناك ثلاثة اشهر اذا كان معك خمسون جنيها • دونك عشرة جنيهات ، اليس هذا كافيا وزيادة ؟ »

— « نعم ، يا سيدي • ولكنك مدين لي ، الان ، بخمسة » •

ـ « ارجعي اذن من اجلها • اما الاربعون جنيها الباقية فسوف اعتبرها وديعة لك في خزائن « مصرفي » •

ـ « مستر روتشيستر ، سوف اجيز لنفسي ان اتحدث اليك في مسألة اخرى من مسائل العمل ما دمت اجد الفرصة سانحة » •

ـ « مسألة من مسائل العمل ؟ اني مشوق الى سماع حديثها » •

ـ « لقد تلطفت بانبائي ، يا سيدي ، انك على اهبة الزواج ؟ »

ـ « اجل ، ثم ماذا ؟ »

ـ « في هذه الحال ، يا سيدي ، يتعين على آديل ان تذهب الى المدرسة • انا واثقة من انك سوف تدرك الحاجة الى ذلك » •

ـ « لكي ابعدها من طريق عروسي ، التي قد تدوسها ، ان لم افعل ، بقدميها في قسوة بالغة • ان اقتراحك منطقي ، هذا امرٌ لا ريب فيه : يتعيَّن على آديل ، كما تقولين ، ان تذهب الى المدرسة ، وانت ، طبعا ، يتعين عليك ان تذهبي مباشرة ••• الى الشيطان ؟ »

ـ « ارجو ان لا انتهي الى ذلك ، يا سيدي • ولكن علي ان ابحث عن وظيفة اخرى في مكان ما » •

ـ « على التوالي ! » كذلك هتف في خنَّة صوت والتواء قَسَمات يثيران الاستغراب بقدر ما يبعثان على الضحك • ثم نظر الي بضع دقائق • واخيرا قال : « ولسوف تتوسلين الى السيدة ريد العجوز او الى الآنستين ، ابنتيها ، ان يبحثن لك عن وظيفة ، في ما اعتقد ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي • ان صلاتي مع انسبائي ليست طيبة الى حد يسوّغ لي ان التمس منهن اسداء مثل هذا المعروف الي • ولكنني سوف اعلن في الصحف » •

فدمدم قائلا : « ولسوف تتسلقين اهرام مصر ! انك سوف تعلنين ، غير حاسبة حسابا للاخطار التي ستتعرضين لها ! ليتني اعطيتك جنيها واحدا بدلا من عشرة جنيهات • ردّي الي تسعة جنيهات ، يا جين • اني لفي حاجة اليها » •

ـ « وانا كذلك ، يا سيدي » • ووضعت يديَّ وكيس دراهمي وراء ظهري • « اني لا استطيع الاستغناء عنها بأية حال » •

فقال : « ايتها الشحيحة الصغيرة ! اترفضين لي طلبا ماليا ؟ اعطيني خمسة جنيهات ، يا جين ! »

ـ « ولا خمسة شلنات ، يا سيدي • حتى ولا خمسة بنسات » •

ـ « اذن دعيني انظر الى نقودك مجرد نظر » •

ـ « لا ، يا سيدي ، ليس من حسن الرأي ان اثق بك » •

ـ « جين ! »

ـ « سيدي ؟ »

ـ « عديني بشيء واحد » •

ـ « سوف اعدك ، يا سيدي ، بأيما شيء اعتقد ان في ميسوري اداءه » ·
ـ « عديني بأن لا تعلني في الصحف ، وان تعهدي الي انا بمهمة البحث هذه عن وظيفة جديدة · سوف اجد لك واحدة في الوقت المناسب » ·
ـ « سوف اكون سعيدة بأن افعل ذلك ، يا سيدي ، اذا وعدتني انت بدورك بأن اغادر انا وآديل القصر قبل ان تدخله عروسك » ·
ـ « حسن جدا ! حسن جدا ! اني اعاهدك على ذلك · سوف تسافرين غدا ، اذن ؟ »
ـ « نعم ، يا سيدي ، وفي ساعة مبكرة » ·
ـ « هل ستهبطين الى حجرة الاستقبال بعد العشاء ؟ »
ـ « لا ، يا سيدي · ان علي ان اتأهب للرحلة » ·
ـ « اذن ، فأن على كل واحد منا ان يودع الاخر لفترة قصيرة ، اليس كذلك ؟ »
ـ « احسب ذلك ، يا سيدي » ·
ـ « وكيف يؤدي الناس شعائر الفراق ، يا جين ؟ علميني ، انا شديد الجهل في هذه الامور » ·
ـ « انهم يقولون : وداعا ، او اية صيغة اخرى يفضلونها » ·
ـ « اذن قولي هذه الكلمة » ·
ـ « وداعا يا مستر روتشيستر ، مؤقتا » ·
ـ « وما الذي يجب ان اقوله انا ؟ »
ـ « الشيء نفسه ، اذا شئت ، يا سيدي » ·
ـ « وداعا ، يا مس ايير ، مؤقتا : اهذا كل شيء ؟ »
ـ « نعم » ·
ـ « هذا يبدو ـ في رأيي ـ شحيحا ، جافا ، وغير ودي · واني لأوثر شيئا اخر : اضافة صغيرة الى هذه الشعيرة المقدسة · لو اردفنا ذلك بالمصافحة ، مثلا · ولكن لا ··· حتى هذا لن يرضيني ايضا · واذن ، فلن تأتي ايما شيء غير التلفظ بكلمة وداعا ، يا جين ؟ »
ـ « انها كافية ، يا سيدي ، على اعتبار ان كلمة واحدة صادرة من القلب يمكن ان تُحمَّل من معاني المودة مقدار ما تتسع له الكلمات العديدة » ·
ـ « هذا محتمل جدا · ولكن « وداعا » هذه لفظة جوفاء ، فاترة » ·
وسألت نفسي : « الى متى سيظل واقفا على هذا النحو وظهره الى الباب ؟ اني اريد ان اشرع في حزم امتعتي » ·
وهنا رنَّ جرس العشاء · فولى مدبرا ، على نحو مفاجىء من غير ان ينطق ولو بمقطع من كلمة · ولم اره بعد هذا خلال ذلك اليوم ، ثم ارتحلت قبل ان يستيقظ في الصباح التالي ·
وبلغت كوخ البواب ، في قصر غايتسهيد ، حوالي الساعة الخامسة من اصيل اول نوار (مايو) · فدخلته قبل ان امضي الى القصر · كان بالغ النظافة

والترتيب ، وكانت ستائر صغيرة بيضاء تتدلى من نوافذه الزخرفية • لقد بدت ارضه مبرّأة من اية لطخة او شائبة ، وبدا الموقد وادواته مصقولة على نحو لمّاع ، في حين اضطرمت النار وهّاجة لا اثر فيها لدخان • كانت بيسي جالسة على مقربة من الموقد ، ترضع مولودها الاخير ، وكان روبرت واخته يلعبان في هدوء ، في احدى الزوايا •

فهتفت مسز ليفن عندما دخلت عليها : « فليباركك الله !•• كنت واثقة من انك ستأتين ! »

فقلت ، بعد ان قبّلتها : « نعم ، يا بيسي • آملُ ان لا اكون قد تأخرت اكثر مما ينبغي • كيف حال مسز ريد ؟ انها ما تزال على قيد الحياة ، في ما ارجو » •

ـ « اجل ، انها على قيد الحياة • واشد وعيا ورباطة جأش مما كانت من قبل • والطبيب يقول انها قد تعيش اسبوعا آخر او اسبوعين آخرين ، ولكنه يكاد يجزم بانها لن تشفى نهائيا » •

ـ « هل ذكرتني في الفترة الاخيرة ؟ »

ـ « كانت تتحدث عنك صباح هذا اليوم بالذات ، متمنية لو تأتين • ولكنها نائمة الان ، او انها كانت نائمة منذ عشر دقائق ، حين كنت في القصر • انها تقضي الاصيل كله ، عادة ، وهي مستغرقة في ضرب من النوم العميق ، ثم تستيقظ حوالي الساعة السادسة او السابعة • هل لك ان تستريحي هنا ، ساعة ، ايتها الانسة ، وبعد ذلك اصعد معك الى القصر ؟ »

وفي هذه اللحظة دخل روبرت ، فوضعت بيسي وليدها النائم في المهد ، ومضت لترحب به • وبعد ذلك طلبت الي في الحاح ان اخلع قبعتي الصغيرة ، واتناول شيئا من الشاي ، ذلك بأنها قالت اني أبدو شاحبة مجهَدة • وسعدت بحسن ضيافتها ، واجزت لها ان تحررني من ثوب سفري بمثل الاستسلام الذي تعودت ان ابديه ، وانا طفلة صغيرة ، كلما عمدتْ الى مساعدتي في نزع ملابسي •

وعاودتني ذكريات الايام السالفة زرافاتٍ زرافاتٍ ، بينا كنت اراقب بيسي وهي تطوّف في الحجرة خفيفة ناشطة ، مزينة صينية الشاي بأفضل ما عندها من الاقداح الخزفية ، قاطعة الخبز والزبدة ، محمّصة الكعك المحلّى ، مُرَبِّتَةً بين الفينة والفينة على كتف روبرت الصغير او جين الصغيرة او رادّةً اياهما عنها كما كانت تفعل بي في الايام الخوالي • لقد احتفظت بيسي بخُلُقها النزق ، كما احتفظت بخفة الخطو ووسامة الوجه •

وتمّ اعداد الشاي ، وهممت بالاقتراب من المائدة ، ولكنها رغبت الي ، بنفس نبرتها القديمة الحاسمة ، ان الزم مكاني ، قائلة ان من واجبها ان تحمل الي الشاي الى حيث كنت اجلس على مقربة من الموقد • ووضعت امامي منضدة مستديرة صغيرة عليها قدح من الشاي وطبق حافل بالكعك المحلّى المحمّص ، كشأنها في عهد الصبا ، يوم كانت تسرق لي بعض الاطعمة اللذيذة وتقدمها الي

على كرسي من كراسي حجرة الحضانة · فابتسمت ، واطعتها ، كدأبي في ماضيات الايام ·

لقد ارادت آن تعرف ما اذا كنت سعيدة في قصر ثورنفيلد ام لا ، واي ضرب من الناس كانت سيدتي · وحين انبأتها ان لي سيدا ليس غير ، سألتني ان احدثها عن شخصيته ، وهل هو رجل نبيل النفس ، والى اي مدى كنت معجبة به · فقلت لها انه اقرب الى الدمامة منه الى الوسامة ، ولكنه رجل نبيل النفس بكل ما في هذا التعبير من معنى ، وانه عاملني معاملة كريمة ، واني كنت سعيدة راضية · ثم مضيت فحدثتها حديث القوم المرحين الذين نزلوا ضيفا عليه ، في قصره ، خلال الفترة الاخيرة · فأصغت بيسي الى هذا الحديث في شوق بالغ ، فقد كانت تفصيلاته من ذلك الضرب عينه الذي تأنس اليه نفسها وترتاح لسماعه ·

وانفقنا في مثل هذا الحديث ساعة تقضت على نحو خاطف · ثم ان بيسي جاءتني بقلنسوتي وغيرها ، وصحبتني الى القصر · والواقع انها كانت قد صحبتني ايضا ، منذ تسع سنوات تقريبا ، يوم هبطتُ هذا المجاز نفسه الذي كنت اصعّد فيه الان · ففي ذات صباح قاتم ، بارد ، رطب ، يكتنفه الضباب من صباح كانون الثاني (يناير) كنت قد هجرت سقفا بغيضا معاديا ، وفي نفسي يأس وفي قلبي مرارة وشعور بالنبذ والحرمان من حماية القانون ، لكي اشخص الى ملجأ لووود البارد ـ ذلك الجدول النائي غير المستكْشَف · وها هو ذا السقف البغيض المعادي نفسُه يرتفع الان ، كرة اخرى ، امامي · كان مستقبلي ما يزال موضع شك ، وكان في جوانحي حتى ذلك الحين قلب مُوجَع · وكنت لا افتأ اشعر اني تائهة اهيم على وجهي فوق ظهر الارض · ولكني عرفت الان ثقة بنفسي وبقواي الذاتية اشد رسوخا ، وخوفا من الاضطهاد اقل اذبالا للروح · ليس هذا فحسب ، بل لقد كان جرح مظالمي الفاغر قد اندمل الان بالكلية ، وكان لهبُ غيظي قد اخمِد ·

وقالت بيسي ، وهي تتقدمني عبر الردهة : « سوف تدخلين الى حجرة الفطور ، اولا · ان السيدتين الشابتين ستكونان هناك » ·

وما هي الا لحظة حتى وجدت نفسي داخل تلك الحجرة · كانت كل قطعة من قطع الاثاث تبدو كما بدت في ذلك الصباح الذي قُدّمت فيه ، اول ما قدّمت ، الى مستر بروكلهورست ، تماما · وكانت نفس السجادة التي وطئها آنذاك لا تزال في موضعها على مقربة من المستوقد · واذ وجهت طرفي نحو رفوف الكتب خيل الي ان في استطاعتي ان اتبين مجلّدَيْ كتاب « الطيور البريطانية » لـ « بيوويك » في مكانهما القديم من الرف الثالث ، وكتابي « رحلات جيليفر » و « الف ليلة وليلة » فوق ذينك المجلدين تماما · كانت الاشياء الجامدة هي هي لم تتغير ، ولكن الاشياء الحية كانت قد تغيّرت حتى ليتعذر على المرء ان يعرفها ·

وبرزت امامي سيدتان شابتان ، فاما احداهما فكانت فارعة الطول ، في

مثل طول مس اينغرام تقريبا ، شديدة الهزال ايضا ، ذات وجه شاحب جدا وطلعة صارمة . وكان في مظهرها شيء تقشّفي عززه وضاعف من بروزه ثوبٌ قماشي اسود مغرق في البساطة ، وتنورة مستقيمة ، وياقة كتانية منشّاة ، وشعر مرجَّلٌ الى ما وراء الصدغين ، وعقد من خرز آبنوسي ، كعقود الراهبات ، يتدلى منه صليب . ولم تكد عيني تقع عليها حتى وثقت انها اليزا ، برغم اني لم استطع ان اجد غير شبه ضئيل بين هذه الصورة المتطاولة الشاحبة وبين صورتها في عهد الطفولة .

واما الاخرى فكانت هي جورجيانا من غير ريب ، ولكنها غير جورجيانا التي تذكرتها ـ تلك الفتاة النحيلة ، الشبيهة بالجنيّات ، ذات الاحد عشر ربيعا . لقد كانت هذه آنسة كاملة التفتح ، شديدة امتلاء الجسم ، جميلة مثل دمية من شمع . وكانت ذات سمات حلوة لا شائبة فيها ، وعينين زرقاوين ناعستين ، وشعرٍ ذهبي معقوص على صورة حُلَيْقات وخواتم . وكان لون ثوبها اسود ايضا ، ولكن زيه كان مختلفا جدا عن زي ثوب اختها ـ فهو فضفاض ولائق الى حد اعظم بكثير . وبكلمة ، لقد بدا ممعنا في الاخذ باسباب « الموضة » ، بقدر ما بدا ثوب اختها ممعنا في التعلق باهداب النسك والتطهّر .

وكانت في كل من الشقيقتين سمة من سمات الام ، سمة واحدة ليس غير . فأما الاخت الكبرى النحيلة الشاحبة فكان فيها من امها عيناها الصفراء . واما الفتاة الصغرى المنوّرة الناضرة ، فكان فيها من امها شكل فكّها وذقنها ، ولعل ذلك الشكل كان الطف بعض الشيء ، ولكنه خلع على محياها برغم ذلك قسوة بالغة لا تكاد توصف ، ولولاه لكان ذلك المحيا شديد البشاشة ، مغاليا في المرح .

ولم اكد اتقدم حتى نهضت كلتا الفتاتين للترحيب بي ، وحتى خاطبتني كل منهما باسم « مس ايير » . وكان ترحيب اليزا بي موجزا ، جافا ، ومن غير ما ابتسامة ، عاودت بعده الجلوس في مكانها ، مركزة عينيها على نار المستوقد ،وكأنها نسيتني . اما جورجيانا فاضافت الى قولها « كيف حالك ؟ » عددا من الملاحظات المبتذلة حول رحلتي ، وحول الجو ، وما اليه ، اطلقتها في نبرة بطيئة مطّت الكلمات فيها مطا ، وارفقتها بمختلف النظرات الجانبية التي تفحّصتني من اعلى الرأس الى اخمص القدم ، مجتازة حينا طيات ثوبي المخيط من نسيج من صوف الغنم الاسباني ، ومتلكّئة حينا عند زركشة قلنسوتي الريفية البسيطة . والحق ان للفتيات طريقة رائعة في اشعارك بأنهن يعتقدن انك « موضوع سخرية » ، من غير ان ينطقن بهاتين الكلمتين فعلا . انهن يعبّرن اكمل تعبير عن مشاعرهن في هذا الصدد ، بضرب من التشامخ في النظرة ، والبرودة في المسلك ، والفتور في اللهجة ، من غير ان يحتجن في ابلاغها الى ايما فظاظة فعلية في القول او العمل .

بيد ان السخرية ، سواء أكانت مبطّنة او صريحة ، لم يَعُدْ لها علي ، الان ، مثل ذلك السلطان الذي كان لها من قبل . ولقد دهشت ، ـ حين

اكتشفت ـ وانا في مجلسي بين ابنتي خالي ـ مبلغ لامبالاتي باهمال الاولى اياي اهمالا كليا ، وبملاطفات الاخرى لي على نحو نصف ساخر · ان مسلك اليزا لم يجرحني ، وان موقف جورجيانا لم يزعجني · فالحق انه كانت لدي اشياء اخرى تقتضيني التفكير فيها · ففي خلال الشهور القليلة الماضية كانت قد اثيرت في ذات نفسي مشاعر اقوى بكثير من ايما مشاعر كان في وسعهما ان تثيراها ، وآلامٌ ومسراتٌ اشد حدة واروع روعة من ايمـا آلام ومسرات كان في مستطاعهما ان توقعاها او تغدقاها ··· بحيث لم ابالِ بعجرفتهمـا البتة ·

وسارعت الى السؤال : « كيف حال مسز ريد ؟ » ، ناظرة في هدوء الى جورجيانا ، التي رأت ان من الخير ان تحدجني بنظرة متكبرة ، وكأن سؤالـي المباشر كان ضربا من الوقاحة غير منتظر ·

ـ « مسز ريد ؟ آه ، تعنين ماما · انها عليلةٌ الى ابعد حد · واني لأشك في انه سيكون في ميسورك ان تَريها الليلة » ·

فقلت : « اني لأكون شاكرة لك اعظم الشكر اذا تلطفـت بالصعود الى الدور الاعلى وابلاغها اني قد اقبلت » ·

واجفلت جورجيانا او كادت ، وفتحـــت عينيها الزرقاويـــن اقصى ما استطاعت فتحهما ، على نحو ضارٍ ، فأضفـتُ : « انا اعلـم انها ابدت رغبة خاصة في رؤيتي ، ولست احب ارجاء النزول عند رغبتها الى ابعد مما تقضي به الضرورة القاهرة » ·

فلاحظت اليزا : « ان ماما لتكره ان تُزعَج في الامسيات » ·

فما كان مني الا ان نهضت ، من غير ان ادعى الى ذلك ، ونزعت قلنسوتي وقفازي ، وقلت اني سوف امضي الى بيسي ـ التي كانت ، في ما خيِّل الي ، في المطبخ ـ واسألها ما اذا كانت حال مسز ريد تساعدهـا على استقبـالي ، الليلة ، ام لا · وغادرت الحجرة ، حتى اذا وجدت بيسي ، وعهدت اليهـا في المهمة التي اخترتها لها ، تقدمت الى اتخاذ اجراءات اضافية · والواقع انه كان من دأبي دائما ، في ما مضى ، ان اجفـل من التعـاظم والعجرفة ، ولو قـد استُقبِلْت ، قبل عام واحد ، كما استُقبِلت اليوم ، اذن لوطنت العزم على مغادرة قصر جايتسهيد في صباح اليوم التالي بالذات · اما الان فقد تجلّى لي في الحال ان مثل هذا الصنيع خليقٌ به ان يكون خطة حمقاء · فلقد اجتزت مئة ميل لكي ارى امرأة خالي ، وان من واجبي ان ابقى الى جانبها حتى تبرأ ·· او تموت · اما غرور بنتيها وحماقتهما فيجب ان اطرحهما ورائي ظهريا ، وان لا اتأثر بهما البتة · وهكذا وجهت الخطاب الى مدبرة شؤون المنزل وسألتها ان توصلني الى احدى الحجرات ، وقلت لها ان من الراجح ان تطول اقامتي في القصر اسبوعا او اسبوعين ، وطلبت الى بعض الخدم ان ينقل حقيبة امتعتي الى حجرتي ، وتبعتها الى هنـــاك بنفسي ، فاذا بي التقي بيسي عنـــد منبسط السلَّم ·

وقالت : « ان سيدتي يقظى . لقد قلت لها أنك هنا . تعالي ولنر هل ستعرفك ام لا » .

ولم اكن في حاجة الى من يقودني الى الحجرة الشهيرة ، التي طالما دُعِيتُ اليها لانال قصاصا ما او لاستمع الى تقريع ما ، في الايام الخالية . وهكذا اندفعت متقدمة بيسي ، وفتحت الباب في رفق . كان على الطاولة مصباح مظلّل ، فقد كان الليل يتقدم ، الان . وكان ثمة ذلك السرير الضخم ذو العَمَد الاربعة ، وقد اسدلتْ حوله سُجُفٌ عنبرية اللون كعهدي به في السنين الخوالي . وكانت ثَمة منضدة الزينة ، والكرسي ذو الذراعين ، ومتكأ القدم الذي حُكِم علي عشرات المرات بأن اركع عنده والتمس الغفران عن ذنوب لم اقترفها. وتطلعت الى زاوية مجاورة، نصفَ متوقعة أن ارى شبح عصا مهزولة كانت في يوم من الايام توقع الرعب في قلبي ، عصا كانت تكمن هناك ، في انتظار ان تثب مثل عفريت صغير وتلهب راحة يدي المرتعدة او عنقي المنكمشة . وتقدمتُ نحو السرير ، وفتحت السجف ، وانحنيت فوق الوسائد المركوم بعضها فوق بعض .

وكنت لا أزال اتذكر وجه مسز ريد في كثير من الوضوح . فرحت ابحث في السرير عن هذا الوجه غير الغريب علي . وانه لمن حسن الطالع ان الزمان يُخمد التوق الى الانتقام ، ويُسكت حوافز الغيظ والنفور : كنت قد فارقت هذه المرأة وانا فريسة الحقد والكراهية ، وها انا ذا اعود اليها الان وليس في صدري نحوها غير ضرب من الاشفاق عليها لما تعاني من آلام مبرّحة ، وغير توقٍ عارمٍ الى ان انسى كل ما انزلته بي من اذى واغفره لها ، والى ان اصالحها واضع يدي بيدها في قوة ومحبة .

كان الوجه المألوف هناك : كالحا قاسيا كعهدي به من قبل ، وكانت هناك تلك العين الفريدة التي ما كان شيء بقادر على ان يكسر من حدّتها ، وذلك الجبين المرفوع الآمر المستبد . كم من مرة صبّ علي جام وعيده وبغضائه ! ويا لذكريات مخاوف الطفولة واحزانها كيف انبعثت حية وانا اتفرس في اساريره القاسية ! ومع ذلك فقد انحنيت فوقها وقبلتها .

فنظرت الي وقالت : « هل هذه هي جين ايير ؟ »

ــ « نعم ، يا امرأة خالي . كيف حالك ، يا امرأة خالي العزيزة ؟ »

كنت قد اخذت على نفسي عهدا ، في يوم من الايام ، بأن لا ادعوها امرأة خالي بقية عمري كله ، ولقد رأيت انه ليس من الاثم ان انسى هذا العهد واحنث به الان . وكانت اصابعي قد تشبثت بيدها المبسوطة فوق غطاء السرير ، ولو انها ضغطت هي على يدي في محبة اذن لاستشعرت بهجة صادقة . ولكن الطبائع الممتنعة على التأثر لا تُرَقَّق حاشيتها بمثل هذه السرعة كلها ، وضروب التنافر الطبيعي لا تُستأصل بمثل هذا اليُسْر كله . لقد سحبت مسز ريد يدها ، واشاحت بوجهها عني قائلة ان الليل حارٌ . وكرة اخرى نظرت الي نظرة مثلوجة الى درجة ادركت معها ، على التوّ ، ان رأيها في

ـ وشعورها نحوي ـ لم يتغيرا ، وانهما غير قابلَيْن للتغير ٠ لقد عرفت من عينها المتحجرة ـ المستعصية على الحنان ، الممتنعة على الدموع ـ انها كانت مصممة على اعتباري مخلوقة طالحة ابدا ٠ ذلك بأن الايمان بأني مخلوقة صالحة ما كان ليوقع في نفسها اي ابتهاج كريم ، لقد كان خليقا به ان يُشْعِرها بالغم والكمد ليس غير ٠

واحسست بألم ، ثم احسست بحنق ، ثم احسست بعزم على اخضاعها ـ على ان اكون سيدتها برغم طبيعتها وبرغم ارادتها جميعا ٠ وكانت عبراتي قد طفرت ، كدأبي في عهد الطفولة تماما ، فأمرتها بالعودة الى مصدرها ٠ وادنيت كرسيا الى مقدَّم السرير ، وقعدت ، وانحنيت فوق الوسادة ٠

وقلت : « لقد ارسلت في طلبي ، وها انا قد جئت ، واني لاعتزم ان ابقى حتى ينحسر عنك الداء » ٠

ـ « اوه ، طبعا ! هل رأيت بنتيَّ ؟ »

ـ « حسنا ، في امكانك ان تخبريهما اني اريد منك ان تبقي هنا الى ان يصبح في ميسوري ان اتحدث اليك في اشياء تشغل ذهني ٠ لقد فات الاوان ، هذه الليلة ، واني لاجد عسرا في تذكرها ٠ ولكن كان ثمة شيء احببت ان اقوله ٠٠٠ دعيني ارى ٠٠٠ »

وكان في تلك النظرة التائهة وتلك اللهجة المتغيرة ما انبأني بان الخراب قد المَّ بهذا الهيكل الذي كان في يوم من الايام ذا بأس شديد ٠ واستدارت في قلق وضيق ، وجذبت غطاء الفراش محاولة ان تغلّف نفسها به ٠ ولكن مرفقي ، المستند الى زاوية اللحاف ، ثبَّت الغطاء في مكانه ، فأثار ذلك ثائرتها ، في الحال ، وقالت :

ـ « استقيمي في جلستك ! لا تزعجيني بتشبثك بغطاء السرير ٠٠٠ هل انت جين ايير ؟ »

ـ « انا جين ايير ! »

ـ « لقد عانيت من تلك الطفلة اكثر مما يتصور اي انسان ٠ يا لها من ثقل ثقيل تُرِكَ في يدي ! وما اعظم الازعاج الذي اورثتني اياه في كل يوم وكل ساعة ، بطبعها الغامض ، وخلقها النزق ، ومراقبتها غير الطبيعية لحركات المرء !انا اعلن انها خاطبتني ذات يوم مثل فتاة مجنونة ، او مثل عفريتة ـ ان ايما طفل لم يخاطبني او ينظر الي قط من قبل بهذه الطريقة ٠ ولقد كنت سعيدة باخراجها من البيت ٠ ما الذي فعلوه بها في لووود ؟ لقد تفشَّت الحمى هناك ، وتخطَّف الموت كثيرا من التلميذات ٠ اما هي فقد نجت من الموت : ولكني قلت انها ماتت ٠٠٠ لشد ما اتمنى لو انها ماتت ! »

ـ « امنية عجيبة ، يا مسز ريد ٠ لماذا تكرهينها هذا الكره كله ؟ »

ـ « لقد كنت اكره امها ، دائما ٠ ذلك بانها كانت اخت زوجي الوحيدة ، وكانت اثيرة عنده: لقد عارض انكار الاسرة لها عندما عقدتْ زواجها الوضيع، وعندما جاءه نعيها بكى مثل فتىً غرٍّ ساذج ٠ كان يرسل في طلب الطفلة ،

برغم اني توسلت اليه ان يعهد في تربيتها الى حاضنة وان يدفع نفقات اعالتها . لقد ابغضتُها اول ما وقعتْ عيناي عليها - كانت مخلوقة معتلة الصحة ، كثيرة العويل ، شديدة الهزال ! وكان من دأبها ان تَعْوِل في مهدها طوال ساعات الليل كلها - انها لم تكن تصرخ من صميم فؤادها مثل ايما طفل اخر ، ولكنها كانت تنشج نشيجا وتئن انينا . لقد اشفق عليها ريد ، وكان من دأبه ان يرعاها ويرفق بها وكأنها بنته . بل لقد رفق بها اكثر مما رفق بأيٍ من اولاده في تلك السن . وكان لا يفتأ يحاول حمل اولادي على اتخاذ موقف ودي من الشحاذة الصغيرة ، ولم يكن في ميسور احبَّتي ان يحتملوا ذلك ، فنقم عليهم عندما اظهروا بغضهم لها . وفي مَرَضته الاخيرة ، كان يطلب منا على نحو موصول ان نحملها اليه ، وقبل ساعة واحدة من وفاته انتزع مني عهدا بأبقاء تلك المخلوقة في القصر . ولقد كنت أوثر ان اكلَّف برعاية طفل معوز من اطفال الملاجىء ، ولكنه كان ضعيفا بالفطرة . ان جون لا يشبه اباه البتة ، وانا سعيدة بذلك . جون يشبهني ، ويشبه اخوتي - انه « جيبسونيّ » حقيقي . اوه ، لشد ما اود لو يكفّ عن تلويعي برسائله التي يبعث بها الي طلبا للمال ! فلم يَعُدْ لدي فضلٌ من مالٍ اعطيه اياه : اننا نتخذ سبيلنا الى الفقر . ويتعيَّن علي منذ اليوم ان اسرح نصف الخدم ، وان اوصد جزءا من القصر ، او ان أوجر منه جزءا . انا لا استطيع ان اقر مثل هذا الصنيع - ومع ذلك فكيف لنا ان نحتفظ بمستوى عيشنا القديم ؟ ان فائدة الرهن تلتهم ثلثي دخلي . وجون يقامر على نحو رهيب ، والخسارة حليفهُ ابدا ... يا له من ولد بائس ! انه محاط بجماعة من النصَّابين . لقد تردّى في هوة الشقاء والخزي ... ان سيماءه لرهيبة ... واني لاستحي به كلما وقعت عليه عيناي » .

كان الاهتياج البالغ قد شرع يستبد بها . فقلت لبيسي ، وكانت واقفة عند الجانب الآخر من السرير : « يخيل الي ان من الخير ان افارقها الان » .

- « احسب ذلك ، ايتها الآنسة ، ولكنها كثيرا ما تتحدث على هذا النحو عندما يتقدم الليل ... انها لتكون في الصباح اكثر هدوءا » .

ونهضت . فهتفت مسز ريد : « قفي . عندي شيء آخر احببت ان اقوله . انه يتوعدني ... انه لا يفتأ يتوعدني بموته ، او موتي . وانا ارى في المنام ، احيانا ، اني انظر اليه ممدَّدا وقد جرى الدم من جرح بليغ في نحره ، او وقد انتفخ وجهه واسودّ . لقد انتهيتُ الى مأزق غريب ، واني لارزح تحت عبء من المتاعب ثقيل . ما الذي يجب ان افعله ؟ من اين لي ان احصل على المال ؟ »

وهنا حاولت بيسي ان تقنعها بأخذ جرعة من عقَّار مسكِّن ، فوفِّقَتْ الى ذلك في عسر . وسرعان ما هدأت نفس مسز ريد ، وغلب عليها النعاس . وعندئذ فارقتها .

وتصرمت عشرة ايام قبل ان يدور بيني وبينها ايما حديث آخر . كانت

ابدا تترجّح بين حالين من هذيان وسبات • ولقد اوصانا الطبيب بان نجنّبها كل ما يثير شجونها • وفي غضون ذلك عايشتُ جورجيانا واليزا على احسن وجه استطعته • والواقع انهما وقفتا مني ، بادىء الامر ، موقفا يتميز بالبرود الشديد • فكانت اليزا تسلخ نصف النهــار في الخيــاطة ، او المطالعة ، او الكتابة ، من غير ان توجّه الي او الى اختها كلمة واحدة الا في النادر النادر • وكانت جورجيانا تسلخ ساعات وساعات وهي تحدّث كنارها بضروب الهراء من غير ان تلقي الي بالا • ولكني كنت قد وطنت العزم على الاصطبار وعلى التسلي عن ذلك بما يملأ فراغ وقتي • وكنت قد تزودت ، عند ارتحالي الى غايتسهيد ، بأدرات الرسم ، فوجدت فيهــا مــا يشغلني ويسليني على حــد بســـواء •

كان من دأبي ان احمل علبة اقلامي وبضع صحائف من الورق ، وان اتخذ لي مقعدا نائيا عنهما ، على مقربة من النافذة ، واشْغَلَ نفسي بتسويد مختلف صنوف الرسوم الصغيرة المتخيلة التي تمثل ايما مشهد اتفــق له ان تشكّل آنذاك في منظار خيالي ذي القطع الزجاجية الملونة التي ما تستقر على حال او وضع : لمحة من البحر بين صخرتين ، القمر الطالع وسفينة تمخر مُجَلْبَبَةً بضياء قرصه المنعكس على صفحة الماء ، مجموعة من القصب وقد انبثق منها رأس جنيّة ماء متوجة بأزهار اللوتس ، وسعلاة متربعة في عش « عصفــور شوك » ، تحت اكليل من زهر الزعرور البري •••

وذات صباح شرعت في رسم وجه •• امــــا اي ضرب مــن الوجه كان متدّرا له ان يكون فذلك ما لم ابالِ به او اعرفه • وتناولت قلما اسود طريا ، وروّست طرفه على نحو عريض ، وواصلت العمل • وسرعــان ما سوّدت على الورق جبينا عريضا بارزا وذقنا مربعة • واوقعت هذه الخطوط البهجة في نفسي ، وسرعان ما راحت اصابعي تملأها ، في خفة ونشــاط ، بملامــح واسارير • وكان لا بد لي من ان ارسم ، تحت ذلك الجبين ، حاجبين افقيين صارخين ، وان اتبع ذلك كله ، طبعا ، بأنف بارز مستقيــم ذي منخريــن ضخمين ، وبفَم غضٍّ طري غير صغير بأية حال ، وبذقن عنيــدة في وسطها « طابعٌ » عميق • ولقد احتجت ، طبعا ، الى رسم سالفَين اسودين ، وشعر فاحم ، مُعَنْقَدٍ عند الصدغيْن ومموّج فوق الجبين • بقيت العينان ، وكنت قد تركتهما الى النهاية لانهما اقتضتا اعظم قدر من العناية والتجويد • ولقــد صورتهما نجلاوين وقوّمتهما احسن تقويم : لقد اطلت الاجفان وعتّمتهمــا ، وجعلت انسيابهما نيّرين كبيرين • وقلت في ذات نفسي ، وانا القي نظرة على ما صنعت يداي : « حسن ! ولكنها لا تمثل الاصل تمثيلا كاملا • انها في حاجة الى فضل من قوة وروح » • وعمدت الى الظلال فجعلتها اشد ســوادا ، لكي يكون في ميسور الجوانب المنيرة ان تومض على نحو اشد سطوعا ، ولقد حققت نجاحي في ذلك لمسةً قلميــة محظوظة او لمستــان ليس غير • وهكذا الفيت تحــت ناظري وجه صديــق : فأي بأس في ان توليني هاتان الشابتان

ظهريهما ؟ وتأملت ذلك الوجه وابتسمت للشبه الناطق • كنت مندمجة راضية •

وسألتني اليزا ، وكانت قد تقدمت نحوي من غير ان الحظها : « أهذه صورة شخص تعرفينه ؟ » فأجبتها قائلة انها مجرد وجه متخيَّل ، وسارعت الى اخفائها تحت الصحائف الاخرى • ولقد كذبتُ ، من غير ريب • فقد كانت في الواقع ، صورة امينة جدا لمستر روتشيستر • ولكن اية اهمية كان لذلك عندها ، او عند اي امرىء آخر ، غيري انا ؟ واقتربت جورجيانا ايضا لترى الى الرسم • واعجبتها الرسوم الاخرى اعجابا عظيما ، ولكنها علَّقت على هذه بقولها : « رجل دميم » • وبدت الشقيقتان وكأنهما دهِشتان لبراعتي ، وعرضت ان أرسم وجهيهما ، فقعدت كل منهما ، بدورها ، لكي اخرج لها صورة قلمية • ثم ان جورجيانا جاءت بألبومها • فوعدتها بان اصورها صورة مائية ، فانفرجت اساريرها في الحال ، واقترحت عليَّ ان اقوم معها بنزهة في الحقول • ولم نكد نمضي ثمة ساعتين اثنتين حتى شرعنا نتجاذب اطراف حديث شخصي فتحت لي خلاله قلبها : لقد تكرَّمت عليَّ بوصف لذلك الشتاء الرائع الذي قضته في لندن منذ فصلين اثنين ، محدِّثة اياي عن الاعجاب الذي اثارته ، والحفاوة التي حظيَتْ بها • بل لقد استشففتُ ملامح من الغزو الذي وفِّقت اليه لقلب احد النبلاء • وخلال ساعات الاصيل والمساء توسَّعت في تصوير هذه الملامح ، واوردت ضربا من المحاولات الرقيقة ، وصوَّرت صنوفا من المشاهد العاطفية • وبكلمة موجزة ، ارتجلَتْ في ذلك اليوم ، لأمتاعي ، رواية كاملة عن حياة الترف والمترفين • وجُدِّدت هذه الاحاديث يوما بعد يوم . وكانت كلها تدور حول الموضوع نفسه ـ حولها هي ، وحول قصص حبها واحزانها • ومن عجب انها لم تشر ، ولو مرة واحدة ، الى مرض امها او الى موت اخيها ، او الى وضع الاسرة القاتم ومستقبلها المظلم • لقد بدا وكأن عقلها كان مستغرقا استغراقا كاملا في ذكريات الحبور السالف ، وفي التطلع الى ملذات المستقبل • كانت تنفق نحوا من خمس دقائق ، كل يوم ، في حجرة امها المريضة ، ليس غير •

اما اليزا فأقامت على صمتها : كان واضحا انه لم يكن لديها متسع من الوقت للكلام • والحق اني لم ار في حياتي شخصا اكثر انشغالا منها كما تبدَّت لعين الناظر • ومع ذلك ، فقد كان من العسير على المرء ان يحزر ما الذي كانت تعمله ، او بالاحرى ان يكتشف ايما ثمرة من ثمرات كدِّها • وكان لديها ساعة منبهة لايقاظها في ساعة مبكرة من الصباح • ولست ادري كيف كانت تَشغل نفسها قبل الفطور ، اما بعد تلك الوقعة فكانت تقسِّم وقتها الى اجزاء نظامية ، مخصصة كل ساعة لمهمة بعَيْنها • وثلاث مرات في اليوم كانت تطالع في كتاب صغير ظهر لي ، عند التحقيق ، انه كتاب من كتب الصلاة العامة • وسألتها ذات مرة عن ابرز ما كان يستأثر بأعجابها في ذلك السِّفر فأجابت « قانون الفرض الكنسي والقداس » • وكانت تفرِد ثلاث

ساعات لتطريز حاشية قماشة قرمزية مربعة ، تكاد تكفي لصنع سجادة ، بخيط ذهبي . حتى اذا الحفتُ عليها في السؤال عن فائدة هذه القماشة اعلمتني انها حجاب لمذبح كنيسة انشئت منذ فترة قريبة في مكان مجاور لغايتسهيد . وكانت تكرّس ساعتين اثنتين لكتابة يومياتها ، وساعتين اخريين للعمل بمفردها في حديقة المطبخ ، وساعة واحدة لتنظيم حساباتها . لقد بدت وكأنها راغبة عن الانس الى ايما رفيق ، زاهدة في ايما حديث . وانا اعتقد انها كانت سعيدة بطريقة حياتها هذه : لقد كان هذا الروتين يكفيها ، ولم يكن ثمة ما يزعجها اكثر من وقوع ايما حادثة تكرهها على تعديل نظاميته التي تضاهي دقتها دِقة ساعة من الساعات .

وقد انبأتني ، ذات ليلة ، عندما كانت اكثر ميلا الى التحدث من مألوف عادتها ، ان سلوك جون والخراب الذي كان يتهدد الاسرة اورثاها غما عميقا ، ولكنها قد وطنت الان نيتها ، كما قالت ، وعقدت عزمها على امر . لقد عُنيت بالعمل على صيانة مستقبلها ، حتى اذا ما قضت امها نحبها ـ وقد كان من غير المحتمل بأية حال ان تشفى او ان يتطاول مقامها في هذه الدنيا ، كما لاحظتَ في رباطة جأش ـ عمدت الى انفاذ خطتها تلك ، التي راودتها منذ فترة بعيدة ، فالتمست العزلة في مَفْزَع تكون الحياة فيه صارمة جدا ، دقيقة جدا ، واقامت حواجز آمنة تفصل ما بينها وبين العالم المستهتر الطيّاش . وحين سألتها ما اذا كانت جورجيانا ستصحبها أجابت بما معناه : لا ، طبعا . فلم يكن بينها وبين جورجيانا ، في ايما يوم من الايام ، اي قاسم مشترك . وهي لا تريد ان تُحمَّل عبء مرافقتها لايما سبب او اعتبار . ان على جورجيانا ان تتخذ سبيلها التي اختارتها لنفسها ، ولسوف تتخذ هي ـ اليزا ـ سبيلها التي اختارتها لنفسها .

وكان من دأب جورجيانا ـ حين لا تبثني شجون قلبها ـ ان تنفق معظم وقتها مضطجعة على الاريكة ، متبرمة برتابة الحياة في القصر متمنية على نحو موصول لو وجهت اليها خالتها ، مسز جيبسون ، دعوة للذهاب الى لندن . ولقد قالت ذات يوم ان من الخير لها ، الف مرة ، ان تنأى بنفسها عن هذا الجو ، شهرا او شهرين ، وان لا تنقلب راجعة الا بعد ان ينقضي كل شيء . ولم اسألها ماذا عنت بقولها : « بعد ان ينقضي كل شيء » ، ولكني اعتقد انها اشارت الى موت امها المرتقب والى ما سيعقب ذلك من طقوس الجنازة وشعائرها . ولم تول اليزا ، على وجه عام ، تواني اختها وشكاواها اهتماما كبيرا ، فكأن تلك المخلوقة المتذمرة المتكاسلة لا تقيم معها تحت سقف واحد . بيد انها اغلقت دفتر حساباتها وطوت تطريزها ، ذات يوم ، واندفعت تعنفها تعنيفا مفاجئا على هذا النحو :

ـ « جورجيانا ، انا لا اشك في انه لم يَنْجزْ لبهيمة اكثر منك سخفا واعجابا بالنفس ان تزعج الارض في ايما يوم من الايام . والواقع انه لم يكن

من حقك ان تولدي ، ذلك بانك لا تفيدين من الحياة ٠ فبدلا من ان تعيشي لنفسك ، وفي نفسك ، ومع نفسك ، كما يتعين على المخلوقة الحصيفة ان تفعل ، أراكِ لا تسعَيْن الا الى القاء ضعفك على كتفي شخص اخر قوي ٠ اما اذا عدمت شخصا يرضى بأن يُثقل كاهله بهذا الحمل البدين ، الضعيف ، المنتفخ ، الَذي لا غناء فيه ، جأرت بالشكوى زاعمة انك بائسة ، مضطهدة ، مهمَلة ٠ ليس هذا فحسب ، بل انكَ تريدين ان يكون وجودك مشهدا موصول التغيُّر والاثارة والا اعتبرت الحياة سجنا مظلما ٠ انك تريدين دائما أن تكوني موضع اعجاب الناس ، وتوددهم ، واطرائهم ٠٠٠ تريدين ان تحيَيْ دائما حياة حافلة بالموسيقى ، والرقص ، والصخب والا ألمَّ بك الذبول وتلاشَيْت تلاشيا ٠ اليس لديك من العقل ما يساعدك على ابتداع نظام يجعلك مستغنية عن ايما جهد او ارادة غير جهدك انت وارادتك انت ؟ خذي يوما واحدا من ايامك ، وقسِّميه الى اجزاء ، وعيِّني لكل جزء عملا خاصا به ٠ املاي كل ربع ساعة ، كل عشر دقائق ، بل كل خمس دقائق ، بعمل ما ، بحيث لا تتركين لحظة واحدة شاغرة ٠ وادّي كل عمل من الاعمال في ميقاته ، وفي نظامية صارمة ٠ وعندئذ تجدين ان ساعات اليوم سوف تنقضي قبل ان تستشعري انها بدأت ، وتجدين انك غير مدينة لايماء امرىء بمساعدتك على التخلص من ايما لحظة شاغرة ٠ انك لن تلتمسي بعد ذلك انس ايما امرىء او حديثه او عطفه او حلمه ٠ وبكلمة ، سوف تحيين كما ينبغي للكائن المستقل ان يحيا ٠ دونك هذه النصيحة ، وهي اول نصيحة وآخر نصيحة اسديها اليك ، وعندئذ لن تحتاجي الي ، او الى ايما شخص آخر ، مهما حدث ٠ اما اذا نبذتها وراء ظهرك ، واقمت على ما الفتِه حتى الان من اشتهاء واعوال وتكاسل فعندئذ يتحتم عليك ان تتحمَلي عَواقب بلاهتك ، مهما تكن سيئة كريهة ٠ اني اقول لك هذا في وضوح ، فاسمعي : اذ على الرغم من اني لن اكرر ما اعتزم ان اقوله الان فلسوف اعمد الى تنفيذه في حزم ٠ اني سأنفض يدي منك بعد وفاة والدتي ، وسانفصل عنك ، حالما يُحمَل نعشها الى عقد كنيسة غايتسهيد ، وكأن احدانا لم تعرف الاخرى قط ٠ ولا داعي الى ان تتوهمي اني سوف ارضى بأن توثقيني اليك بايما رابطة مهما وهت ، لمجرد ان المصادفة شاءت ان تنحدر من صلب أب واحد وأم واحدة ٠ وفي استطاعتي ان اقول لك ما يلي : لو أن افراد الجنس البشري كلهم ، ما عداي انا وما عداك انت — مُحُوا محوا ، ووقفنا نحن وحدنا على ظهر الارض اذن لتركتك في العالم القديم ومضيتُ انا الى العالم الجديد » ٠

قالت ذلك واطبقت شفتيها ، فأجابتها جورجيانا : « كان في امكانك ان توفري على نفسك عناء شن هذه الحملة علي ٠ ان كل امرىء ليعلم انك المخلوقة الاكثر انانية وتحجّر قلب ، في هذا الوجود ٠ وانا اعرف كراهيتك الحقود لي : لقد ابتليت بنموذج منها قبل اليوم ، في المكيدة التي دبرتها صدي في موضوع اللورد ايدوين فير ٠ فانت لم تطيقي ان تري اليَّ وقد

رفعني الناس فوقك درجة ، وان احظى بلقب من الالقاب النبيلة ، وان تفتح في وجهي ابواب حلقات لا تجرؤين انت على اظهار وجهك فيها ، ومن اجل ذلك مثلت دور الجاسوس والنمّام ، وقضيت على مستقبلي الى الابد » .

وهنا اخرجت جورجيانا منديلها وراحت تتمخّط طوال ساعة كاملة . اما اليزا فقد جلست غير مكترثة ، ولا متأثرة ، مواصلة كدحها في جد بالغ .

ان ثمة طائفة من الناس لا تقيم كبير وزن للعاطفة الكريمة الصادقة . ولكننا ههنا امام طبيعتين اثنتين اعوزتهما هذه العاطفة فاذا بالاولى حرّيفة الى حد لا يطاق ، واذا بالثانية تافهة الطعم الى حد يغري بالازدراء . ذلك بأن العاطفة من غير عقل هي في الواقع شراب مخفّف « سائط » ، ولكن العقل الذي لا تلطّفه العاطفة هو لقمة مريرة جافة في البلعوم، فليس في ميسور البشر ازدرادهـــــا .

كان اصيلا ممطرا عاصفا . وكانت جورجيانا قد استغرقت في النـوم ، على الاريكة ، وفي يدها رواية كانت تطالعها . وكانت اليزا قد مضت لتشهد قداسا أقيم في الكنيسة الجديدة احياء لذكرى احد القديسين ــ اذ كانـت ، في شؤون الدين ، متزمتة شديدة المحافظة على الشكليات ، لم يوفق تقلـب الاحوال الجوية في ايما يوم من الايام الى الحؤول بينها وبين اداء ما اعتبرته واجبها المقدس في ميقاته المعلوم . كانت تشخص الى الكنيسة كل يوم احـد ثلاث مرات ، سواء اكان الجو رائقا أو عاصفا ، وتشخص اليهـــــا في ايام الاسبوع بقَدْر عدد الصلوات المقامة خلاله .

وخطر لي ان ارتقي السلم وأرى كيف كانت حال المرأة المحتَضرة التـــي اضطجعت هناك مُهْمَلة او شبه مهملة . كان الخدم انفسهم لا يولونها غير اهتمام متقطّع ، وكانت الممرضة المستأجرة ، غير الخاضعة لمراقبة شديدة ، تنسل من الحجرة كلما وجدت الى ذلك سبيلا . اما بيسي فقد اخلصـــــت لسيدتها ، ولكنها كانت مضطرة الى الاهتمام بشؤون اسرتها هي ، ولم تكن بقادرة على الاختلاف الى القصر الا لماما . والحق اني وجدت حجرة المريضة مهجورة ، كما توقعتُ من قبل : لم يكن ثمة ممرضة ، وكانت مسز ريـــــد مضطجعة في سكون ، وقد استغرقت على ما بدا لي في سبات عميـق . كان وجهها الازرق الرصاصي غارقا بين الوسائد ،وكانت النار تخبو في المستوقَد فأذكيتها بشيء من الوقود ، وسوّيت اغطية السرير ، ورحت احدق اليهـــا فترة ، بعد ان امست عاجزة عن التحديق الي ، ثم اتخذت سبيلي الى النافذة.

كان المطر ينقر زجاج النافذة نقرا عنيفا ، وكانت الريـــح تهب علـى نحو عاصف . وقلت في ذات نفسي : « ههنا تضطجع مخلوقة لن تلبث ان تصبح بعيدة عن حرب العناصر الارضية . فالى اين ستمضي تلـك الروح ــ التي تكافح الان لمغادرة مثواها المادي ــ عندما تتحرر من عقالها اخر الامر ؟»

وفي ما كنت افكر في اللغز العظيم تذكرت هيلين بيرنز ... تذكرت اخر كلماتها وقد حضرتها الوفاة ، وتذكرت ايمانها ، ومذهبها في تســـاوي

الارواح المفارقة اجسادَها . وكنت لا ازال اصغي ، بالفكر ، الى نبراتها التي لم أنسها قط ، متصورة مظهرها الشاحب الاثيري ، ووجهها المضْنَى ، ونظرتها العلوية فيما كانت مضطجعة في فراش احتضارها الوادع وفيما كانت تهمس بتوقعها للعودة الى صدر ابيها السماوي ... عندما غمغم من جانب السرير القائم خلفي صوتٌ واهن : « من هناك ؟ »

وكنت اعلم ان مسز ريد لم تنطق ، منذ ايام ، بكلمة ما ، فتساءلت : هل عادت الى الوعي ؟ وتقدمت نحوها .

ــ « انا ، يا امرأة خالي » .

فكان جوابها : « من هو انا هذا ؟ من انت ؟ » ونظرت الي في دهش وفي ضرب من الذعر ، ولكن في غير ضراوة واهتياج . « انت غريبة عني الى ابعد الحدود ... اين بيسي ؟ »

ــ « انها في كوخ البواب ، يا امرأة خالي »

فكررت : « امرأة خالي ؟ من يدعوني « امرأة خالي » ؟ أنت لست واحدة من آل جيبسون ، ومع ذلك فانا اعرفك ... هذا الوجه وهاتان العينان وهذا الجبين مألوفة عندي الى ابعد الحدود . انت تشبهين ... اجل ، انت تشبهين جين ايير ! »

ولم اقل شيئا . لقد خشيت ان اورثها ، بالاعلان عن هويتي صدمة ما .

وقالت : « ومع ذلك ، فأنا اخشى ان أكون قد اخطأت : ان افكاري تخدعني . لقد اردت ان ارى جين ايير ، واني لاتخيل بعض المَشَابه حيث لا مُشابهة البتة . والى هذا ، فلا بد انها قد تغيرت تغيرا كبيرا في غضون سنوات ثمانٍ » .

عندئذ أكدت لها ، في رفق ، اني أنا الشخص الذي توهمتني اياه وارادتني أن اكونه . حتى اذا لاحظت انها تدرك ما أقول ، وانها مالكة زمام حواسها شرحت لها كيف بعثت بيسي زوجها ليجيء بي من ثورنفيلد .

فما عتَّمت ان قالت : « أنا جد مريضة .. هذا شيء اعرفه . لقد كنت احاول ، منذ بضع دقائق ، ان انقلب على جانبي الاخر فوجدت اني لا اقوى على تحريك اي من اوصالي . ولكن علي ان اريح ضميري قبل ان الفظ انفاسي الاخيرة ، ذلك بأن ما لا نفكر فيه ــ ونحن في عافيتنا ــ الا قليلا انما يُنيخ علينا بكلكله في ساعة كمثل هذه الساعة التي أجدني فيها الآن . هل المرضة هنا ؟ وهل ليس في الحجرة أحد غيرك ؟ »

وأكدت لها انا كنا وحدنا .

ــ « حسنا ، لقد اسأت اليك ، مرتين ، اساءة انا عليها الآن نادمة . الاولى عندما حنثت بما عاهدت زوجي عليه من تنشئتك مثل ولد من اولادي . والاخرى ... »

وكفت عن الكلام . وغمغمت مخاطبة نفسها : « على أية حال ، انها ليست ذات أهمية كبيرة ، ربما . والى هذا ، فاني قد ابلُّ من دائي . ان اذلالي

نفسي لها ، على هذا النحو ، لموجع » .

وبذلت جهدا لتغيير وضعها في الفراش ، ولكنها اخفقت . وتغير وجهها، لقد بدت وكأنها استشعرت احساسا باطنيا ما ، لعله كان هو النذير بدخولها في النزع الاخير .

ثم قالت : « حسنا ، يجب ان اتغلب على ترددي . فالابدية امامي . من الخير لي ان اخبرها ... اذهبي الى حقيبة زينتي ، افتحيها ، واخرجي منها رسالة سوف تجدينها هناك » .

وامتثلت اوامرها . فقالت : « اقرئي الرسالة » .

كانت موجزة ، وكانت كلماتها تجري على النحو التالي :

« سيدتي ،

« هل لك ان تتكرمي فتبعثي الي بعنوان ابنة اخي ، جين ايير ، وتنبئيني عن حالها ، فأنا اعتزم ان اكتب اليها عما قريب ، وارغب اليها في الالتحاق بي في ماديرا . لقد بارك الله جهودي ، فأمسيت ذا غنى . واذ كنت غير ذي زوجة ولا اولاد فاني اود ان اتبنّاها خلال حياتي وان اوصي لها بكل ما سيقدر لي ان اتركه عند وفاتي .

« وتفضلي ، يا سيدتي » الخ .. الخ ..

« جون ايير ، ماديرا »

كان تاريخها يرقى الى ثلاث سنوات خلت .

وسألتها : « لماذا لم أسمع بهذه الرسالة من قبل ؟ »

– « لاني ابغضتك بغضا راسخا بعيد الغور جعلني عاجزة ابد الدهر عن بسط يدي لرفعك الى دنيا الرخاء والرفاهية . أنا لم أستطع قط ان انسى موقفك مني ، يا جين – والهياج المجنون الذي حملت به علي ، واللحظة التي أعلنت بها انك تبغضينني أكثر مما تبغضين أي امرىء اخر في العالم ، والنظرة والصوت غير الطفليين اللذين أكدت بهما ان مجرد التفكير بي يثير تقززك ، واني عاملتك في وحشية بالغة تبعث على الرثاء . ولم استطع ان انسى ما احسست به عندما انتفضت ونفثت سمّ تفكيرك . لقد عصف بي الخوف ، وكأني ضربت وحشا ضاريا او رفسته فراح يحـــدق الي بعينين بشريتين ويلعنني بصوت بشري . أيتيني بقليل من الماء ! أوه ! عجلي ، عجلي ! »

فقلت وأنا اقدم اليها الجرعة التي طلبت : « لا تفكري ، منذ اليوم ، بهذا كله ، يا امرأة خالي العزيزة . انسي ذلك نسيانا كامـــلا ، واغفري لي ما اصطنعت من لغة انفعالية . لقد كنت مجرد طفلة صغيرة آنذاك . ولقد انقضت الآن على ذلك اليوم ثماني سنوات او تسع سنوات » .

ولم تلتفت الى ما قلته البتة . ولكنها لم تكد تتجرع الماء وتستريح قليلا، حتى استرسلت قائلة :

– « أقول لك اني لم استطع ان انسى ذلك ، ولقد انتقمت منك . ذلك بأن التفكير في تبني عمك لك وفي تقلبك في اعطاف الطمأنينة والرفه كان هو

الشيء الذي لا أقوى على احتماله ٠ فكتبت اليه قائلة اني آسفة لما سيُمْنى به من خيبة أمل ، فجين ايير قد ماتت ، لقد قضت نحبها بحمى التيفوس في لووود ٠ والآن ، تصرفي على النحو الذي يروق لك ، اكتبي اليه واثبتي له ان ما قلته غير صحيح ٠٠٠ افضحي كذبي حالمـا تجدين ذلك مناسـبا ٠ لقد خُلِقْتِ ، في ما احسب ، لشقائي وتعذيبي ، وها هي لحظـاتي الاخيرة تنغّصها ذكرى عمل ما كان خليقـا بي ، لولاك انتِ ، ان أغرى بارتكابه بأية حال » ٠

ــ « ليتني استطيع أن اقنعك ، يا امرأة خالي ، بالاقلاع عن التفكير في ذلك ، وفي النظر الي بعين الحنان والغفران ٠٠٠ »

فقالت : « ان لك لمزاجا رديئا جدا ، مزاجا لا ازال استشعر حتى اليوم ان من المتعذر علي ان افهمه : كيف استطعت الاخلاد الى السكون والصبر على مختلف ضروب المعاملة ، طوال تسع سنوات متواليات ، حتى اذا كانت السنة العاشرة تفجّرتِ نارا وعنفا ؟ هذا ما لا استطيع فهمه ابد الدهر » ٠

ــ « ان مزاجي ليس من الرداءة بالقدر الذي تحسبين ٠ انا انفعالية ، ولكني لست نزاعة الى الانتقام ٠ فكم من مرة استشعرت ، وانا طفلة صغيرة ، رغبة في حبك واسعاد نفسي بهذا الحب ٠٠٠ ولكني لم أجد منك ما يشجعني على ذلك ٠ واني لاتوق الآن أخلص التوق الى مصالحتك ٠ قبليني ، يا امرأة خالـي » ٠

وادنيت خدي الى شفتيها ، فأبت ان تمسه ٠ لقد قالت اني ضايقتهـا بانحنائي فوق السرير ، وسألتني كرة اخرى ان آتيها بشيء من الماء ٠ وفيما انا اساعدها على الاضطجاع من جديد ــ ذلك بأني كنت قد رفعتها قليلا واسندتها الى ذراعي وهي تشرب ــ وضعت يدي على يدها المثلوجة الراشحة بالعرق ٠ ولكن الاصابع الواهنة انكمشت مجفلة من لمسة يدي ٠٠٠ واجتنبت عيناها شبه الزجاجيتين النظر الى وجهي ٠

واخيرا قلت : « احبيني ، اذن ، ان شئت ، واكرهيني ان شئت ، فقد غفرتُ لك من تلقاء نفسي غفرانا كاملا ٠ اسـألي الله ، الان ، ان يمنحك غفرانه ، واطمئني نَفَسا » ٠

يا للمرأة المعذبة البائسة ! لقد كان من المتعذر عليهـا ان تغير مساق تفكيرها ٠٠ كان أوان ذلك قد فات ٠ لقد ابغضتني طوال حياتي ، فكـان حتما عليها ان تموت وصدرها يضطرب بالحقد علي » ٠

وهنا دخلت المرضة ، تتبعها بيسي ٠ فتلكأتُ نصف ساعة اخرى ، راجية ان ألمح امارة تؤذن بالمودة ، ولكنها لم تتكشف عن شيء من ذلك ٠ كانت تتخذ سبيلها ، في خطى حثيثة ، نحو غيبوبة جديدة لم يقدَّر لها ان تصحو منها ٠ وفي الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة لفظت نفسها الاخير ٠ ولم أكن الى جانبها ، آنذاك ، لاغمض عينيها ، بل لم تكن اي من بنتيها الى جانبها ٠ وصباح اليوم التالي انبئنا بأن كل شيء قد انتهى ٠ وفي غضـون ذلك كانت

الفقيدة قد كُفِّنت • فمضيت انا واليزا لنودعها الوداع الاخير • أما جورجيانا، التي انفجرت في النحيب ، فلم تجرؤ على المضي معنا • وهناك الفينا جسد سارة ريد ، الذي كان في يوم من الايام قويا فعـالا ، مسجى في السرير ، متصلبا ساكنا • كانت عيناها الصوانيتان محجوبتين بجفنيها الباردين ، وكانت جبهتها واساريرها الصارمة لا تزال تحمل طابع روحها العنيدة • والحق ان ذلك الجثمان بدا في ناظري شيئا غريبا مهيبا • لقد رنوت اليه في كآبة وألم ، فلم يوحِ الي بأيما شيء رقيق ، بأيما شيء عذب ، بأيما شيء يثير العطف او الامل او الاستسلام ••• لا ، انه لم يوحِ الي بغير الاسى الموجع لبلاياها **هي** ••• لا لمصابي **أنـا** ، وبغير رعب كئيب عصيّ الدمع أمام رهبة الموت على ذلك النحو •

وتأملت اليزا امها في سكون • وبعد صمت استغرق بضع دقائق قالت :

ــ « لقد كان خليقا بها ، بما رُزقت من بنية قوية ، ان تعمِّر طويلا • ولكن الهموم قصَّرت حياتها » •

ثم ان التشنج قلَّص فمها لحظة • حتى اذا زايَلها ، استدارت وغادرت الغرفة • وحذوت انا حذوها • ان ايا منا لم تكن قد سفحت عبرة واحدة •

٢٢

كان مستر روتشيستر قد منحني اجازة اسبوع واحد ليس غير ، ومع ذلك فقد انسلخ شهر قبل ان اوفق الى مغادرة غايتسهيد • كنت راغبة في الرحيل بُعَيْد الجنازة مباشرة ، ولكن جورجيانا توسلت الي أن ابقى حتى تتم استعدادها للسفر الى لندن ••• لندن التي دعاها لزيارتها اخر الامر خالها مستر جيبسون الذي كان قد وفد ليشرف على دفن شقيقته وليسوي شؤون الاسرة • لقد قالت لي جورجيانا انها تخاف ان تخلَّف وحيدة مـع اليزا ، فهي لم تلق منها لا مشاركة وجدانية في انكسار خاطـرها ، ولا عونا على مخاوفها ، ولا مساعدة في استعداداتها للرحيل ، وهكذا احتملت جبنها المخبول ونواحها الاناني ما استطعت ان احتمل ، وبذلت قصارى جهدي في خياطـة الملابس لها وفي حزم امتعتها ، برغم انها كانت تستسلم ــ خلال انهماكي في هذا العمل ــ للكسل والتراخي ، حتى لقد قلت في ذات نفسي : « لو قُدِّر علي وعليك ، يا ابنة خالي ، ان نحيا معا على نحو موصول اذن لتعين علينـا ان نقيم علاقاتنا على اساس مغاير • اني لن ارضى ، في وداعة وخنوع ، بأن أكون الفريق الصابر المتحمل ، وخليق بي في مثل هذه الحـال ان اعين لك قسطك من العمل وأن أكرهك على ادائه ، والا تُرِك مُهْمَلا غير مُنْجَز • ليس هذا فحسب ، بل انه لخليق بي في مثل هذه الحـال ان أصر على ابقاء بعض شكاواك المتشدقة نصف الكاذبة مكبـوتة في صدرك • واذا كنت قد رضيت بالصبر على هذا الوضع والاذعان له فلمجرد ان المصادفة شاءت أن تكون علاقتنا قصيرة الاجل الى حد بعيد ، وان تنشأ في ظرف فاجع جدا » •

واخيرا ودّعتني جورجيانا وارتحلت ، فاذا بأليزا تسألني بدورها ، أن أمكث اسبوعا اخر . كانت خططها تستغرق وقتها كلـه وعنايتها كلها ، كما قالت . وكانت على وشك ان ترحل الى موطن مجهول ، وكانت تسلخ يومها كله في حجرتها ، بعد ان تحكم ايصاد بابها بالمزلاج ، معبئـــة حقائبها ، مفْرغة ادراجها ، محرقة بعض الاوراق ، غيرَ متصلة بأحد او متحدثة الى أحد. لقد رغبت الي في العناية بأمر المنزل ، واستقبال الزائرين ، والرد على رسائل التعزية .

وذات صباح قالت لي ان في امكاني ان ارحل واضافت قائلة : « أنا شاكرة لك خدماتك القيمة وسلوكك العاقل الرصين ! ان ثمة بعض الفرق بين الحياة مع فتاة من مثلك والحياة مع جورجيانا ، فأنت تؤدين دورك في الحياة ، وتأبين ان تكوني عالة على أحد » . وصمتت لحظة ثم اردفت: « غدا ، سوف امضي الى اوروبة ، ولسوف افــزع الى بيت من بيوت اللـــه ، قرب « ليل » ... سمِّه ديرا اذا شئت . وهناك سوف انعم بالراحة وأحيا بعيدة عن كل ازعاج . وسوف أكرس نفسي ، فترة من الزمان ، لدراسة المعتقدات الرومانية الكاثوليكية ، وللتبحر في الطرائق التي يعمـــل بها نظامها . فاذا وجدت ، كما اتوقع نصف توقع ، انها المذهب المؤهل اكثر من سائر المذاهب لان يكفل اداء الاشياء كلها على نحو مناسب منظم ، اعتنقت معتقدات رومة ، وترهبت في أغلب الظن » .

ولم اعبر عن دهشتي لهذا القرار ولم احاول ان اثنيها عنه . لقد قلت في ذات نفسي : « ان هذا العمل سوف يلائمك ملاءمة كاملة ، وأنا اسأل الله ان يعود ذلك عليك بخير عظيم ! »

وحين ودعتني قالت : « الى اللقاء ، يا ابنة عمتي جين ايير . انا اتمنى لك احسن التمنيات ، فأنت فتاة على شيء من العقل » .

فأجبتها : « انت لست عاطلة عن العقل ، يا ابنة خالي اليزا . ولكني أحسب ان ما تملكينه منه سوف يدفن حيا ضمن جدران دير فرنسي . وعلى أية حال ، فليس هـــذا من شأني ، واذا كان ذلك يلائمـــك فلست ابالي كثيرا ... »

فقالت : « لقد نطقت بالحق » . ومضت كل منا في سبيلها . واذ كنت لن أجد ايما فرصة اخرى للاشارة اليها او الى اختها فيحسن بي ان انص هنا على ان جورجيانا وفقت الى الزواج من رجل ثري انهكه طول الانغماس في الملذات ، وان اليزا ترهبت فعلا ، وهي اليوم رئيسة الدير الذي انفقت فيه الفترة التحضيرية السابقة للترهب ، والذي وقفت له ثروتها .

كيف يشعر الناس عندما يؤوبون الى ديارهم بعد غيبة ما ، طويلة كانت أم قصيرة ؟ لست ادري ، فأنا لم اخبُرْ مثل هذا الاحساس قط من قبل . لقد سبق لي ان عرفت ، وأنا طفلة ، ما معنى العودة الى غايتسهيد بعد نزهة على القدمين طويلة ، لكي اقابل هناك بالتعنيف بسبب ما يبدو على وجهي

من امارات البرد والكآبة • كما عرفت في ما بعد ما معنى العودة من الكنيسة الى لووود ، لكي أتوق هناك الى وجبة طعام خصبة ونار متوهجة ، ولكي يتعذر علي الفوز بأي منهما • والواقع ان كلتا العودتين لم تكن سائغة جـــدا ، او مشتهاة الى حد بعيد • فلم يكن ثمة ايما جاذبية تجذبني الى نقطة بعينها ، جاذبية تقوى وتشتد كلما اقتربت من مركزها • وهكذا كان علي أن اختبر معنى العودة الى ثورنفيلد قبل أن أدرك ما يشعر به الناس عندما يؤوبون الى ديارهم بعد الغياب عنها •

لقد بدت رحلتـــي مرهقة ــ مرهقة جدا : خمسون ميلا في اليوم الاول ، ومبيت ليلة في نزل ، وخمسون ميلا اخرى في اليوم التالي • وخلال الساعات الاثنتي عشرة الاولى فكرت في مسز ريد وهي تعالج سكرات الموت : لقد رأيت وجهها الشائه الشاحب ، وسمعت صوتها المتغير على نحـــو عجيب • لقد استغرقت في التفكير في الجنازة ، والكفن ، وعربة الموت ، وموكب المستأجرين والخدم ــ كان عدد الانسباء الذين شهدوا الجنازة قليلا ــ والسَّرَبِ الصغير المتثائب ، والكنيسة الصـــامتة ، والصلاة المهيبة • ثم فـــكرت في اليزا وجورجيانا ، لقد رأيت احداهما مطمح الابصـــار في قاعة رقص ، ورأيت الاخرى حبيسة حجيرة من حجيرات دير • واستغرقت في تحليل خصائصهما المتفاوتة التي تميز شخصية كل منهما وشكلها الخارجي • ولكن وصولي ، بعد أن هبط الظلام ، الى مدينة ••• الكبيرة ما لبث ان بدد هذه الافكار ، لقـــد وجّهها الليل وجهة اخرى • فلم أكد استلقي على فراش السفر حتى انتقلت من دنيا الذكريات الى عالم التوقّع •

كنت عائدة الى ثورنفيلد : ولكن كم سيطول مُقامي هنـــاك ؟ فترة غير مديدة •• ذلك امرٌ كنت منه على مثل اليقين • والواقع اني تلقيت أثناء غيبتي رسالة من مسز فيرفاكس عرفت منها ان عقد ضيوف القصر كان قد انفرط ، وان مستر روتشيستر كان قد ارتحل الى لندن قبل اسابيع ثلاثة ، ولكن عودته متوقعة بعد اسبوعين اثنين • ولقد قدّرت مسز فيرفاكس ان ارتحاله كان ابتغاء الترتيبات الخاصة بعرسه ، اذ سبق له ان تحدث عن شراء عربة جديدة : لقد قالت ان فكرة زواجه من مس اينغرام لا تزال تبدو في نظرها شيئا غريبا ، بيد انه لم يعد في ميسورها ــ بعد الذي سمعته من أقوال الناس جميعا وبعد الذي رأته هي بأم عينها ــ ان تشك في أن الحدث واقعٌ عما قريب • وكان تعليقي الذهني على هذا قولي بيني وبين نفسي : « خليق بك ان تكوني مغالية في عدم التصديق الى حد عجيب ان شككتِ في ذلـــك • أمّا انا فليس يخامرني أي شك » •

وتلا ذلك سؤال : « الى أين ينبغي ان اذهب ؟ وطوال الليل رأيت مس اينغرام في ما يرى النائم • وفي حلم من احلام الصباح الجلية رأيتها توصد ابواب ثورنفيلد في وجهي ، وتطردني منه • ورأيت مستر روتشيستر يشهد ذلك طاويا ذراعيه ، ويبتسم لها ولي ــ في ما خُيل الي ــ ابتسامة ساخرة •

ولم أكن قد احطت مسز فيرفاكس علما بموعد عودتي على وجه الضبط ، ذلك بأني كنت غير راغبة في ان تستقبلني في ميلكوت لا عربة ولا مركبة . لقد اعتزمت ان اجتاز المسافة بمفردي ، سعيا على قدمي ، في هدوء . وهكذا لم اكد اعهد في امر العناية بحقيبتي الى خادم « فندق جورج » حتى انسللت من الفندق ، في سكينة بالغة ، حوالي الساعة السادسة من مساء يوم من أيام حزيران (يونيو) واتخذت الطريق القديمة المؤدية الى ثورنفيلد ، وهي طريق تنساب ، في المقام الاول ، عبر الحقول ، وكانت الان غير مطروقة الا قليلا .

انها لم تكن ليلة من ليالي الصيف المشرقة او الرائعة ، على الرغم من انها كانت رائقة عليلة النسيم . كان مجففو العشب منصرفين الى عملهم على طول الطريق ، وكانت السماء – برغم انها لم تكن خلوا من الغيوم – تعدُ بجو جميل في مقبلات الايام . كانت زرقتها – حيث بَدت الزرقة لعين النَاظر – معتدلة هادئة ، وكانت طبقات سحابها شاهقة رقيقة . وكانت الريح الغربية حارة ، أيضا – لا يرطبها اي التماعٍ مائي : لقد بدت وكأن خلف حجابها المنسوجِ من بخار مرمري نارا موقدة ، ومذبحا يضطرم فيه اللهب . ومن خلال كُوى السحاب توهج احمرار ذهبي .

وغمرتني السعادة اذ رأيت الطريق تتقاصر أمامي : غمرتني الى درجة جعلتني اكف عن السير ، مرة ، لاسائل نفسي عن معنى هذه البهجة ، ولاذكرها بأني ما كنت ماضية الى بيتي ، أو الى مثوى دائم ، أو الى موطن يترقبني فيه وينتظر وصولي اليه اصدقاء مولعون بي . وقلت مخاطبة نفسي : « ان مسز فيرفاكس سوف ترحب بكِ بابتسامة هادئة ، هذا شيء لا ريب فيه . وان آديل الصغيرة سوف تصفق وتثب لتراك . ولكنك تعلمين علم اليقين انك تفكرين في شخص آخر غير مسز فيرفاكس وآديل ، وان هذا الشخص لا يفكر فيك » .

ولكن أي شيء اشد عنادا من الشباب ؟ أي شيء اشد عمىً من الغرارة ؟ لقد اكد لي كلاهما ان مجرد تكحيل عيني ، كرة اخرى ، برؤية مستر روتشيستر هو بهجة من المباهج ، سواء انظرَ هو الي أم لم ينظر . ثم أضافا قائلين : « عجلي ! عجلي ! كوني الى جانبه ما دمت قادرة على ذلك ، فلن تنقضي غير ايام قليلة او اسابيع قليلة ، على الاكثر ، حتى تفارقيه الى الابد ! » وعندئذ خنقت في صدري ألما مبرحا وليدا – مخلوقا شائها لم استطع ان اقنع نفسي بالاعتراف به او احتضانه – وأخذت اغذّ الخطى .

وكان العمال يجففون العشب ايضا ، في مروج ثورنفيلد ، أو بالاحرى كانوا قد اطرحوا عملهم منذ لحظات ، وانقلبوا الى بيوتهم ، وقشاشاتهم على مناكبهم ، ساعة وصلت . ولم يبق علي غير اجتياز حقل او حقلين ، ومن ثم اعبر الطريق وابلغ ابواب القصر الخارجية . لشد ما كانت الوشائع حافلة بالورود ! ولكني لم أجد متسعا من الوقت لقطفها . فقد اردت ان ابلغ القصر على جناح السرعة . واجتزت عليقة طويلة ، مطلقة اغصانها مورقة منوّرة عبر

المجاز ، ورأيت درجات سلم السياج الضيقة ، ثم لمحت ... مستر روتشيستر قاعدا هناك ، وفي يده دفتر وقلم : لقد كان يكتب .

حسنا ، انه لم يكن شبحا من الاشباح ، ومع ذلك ، فقد عجزت عن التحكم بأي عصب من أعصابي ، وانسلخت فترة فقدت فيها السيطرة على نفسي . فما معنى هذا ؟ وما كنت لاتوهم اني سوف ارتعد على هذا النحو حين اراه ، او يتهدج صوتي او أفقد القدرة على التحرك في حضرته . وعلى أية حال ، فلسوف انقلب راجعة حالما اوفق الى الحركة ، ولا داعي لأن أخدع نفسي . أنا اعرف طريقا اخرى تفضي الى القصر . ولكن أية قيمة لذلك ، بل أية قيمة لمعرفتي عشرين طريقا الى القصر ، لقد قضي الامر ووقعت عينه علي .

وصاح وهو ينحي دفتره وقلمه جانبا : « هالو ! ها أنت ذي قد عدتِ ! تقدمي ، اذا سمحتِ » .

واحسب اني قد تقدمت ، وان لم ادرِ بأية طريقة فعلت ذلك ، اذ كنت لا أعي حركاتي الا قليلا ، واذ كنت لا أحرص الا على الظهور بمظهر الشخص الهادىء وعلى السيطرة ـ قبل كل شيء ـ على عضلات وجهي المختلجة ، التي استشعرت انها تتمرد على ارادتي في وقاحة وتكافح للتعبير عما اعتزمت اخفاءه . ولكن لدي قناعا ، ولقد اسدلته : لقد بذلت قصارى جهدي للاحتفاظ برباطة جأشي .

وأضاف قائلا : « أهذا انتِ ، يا جين ايير ؟ أقادمة انتِ من ميلكوت ، وسعيا على القدمين ؟ أجل ... انها لمجرد حيلة من حيلك انَ لا تبعثي في طلب عربة تنطلق بك عجلاتها مجلجلة فوق حصباء الطريق كما يفعل أي مخلوق بشري ، وان تتسللي بدلا من ذلك ، مع الغسق ، الى جوار مثواك ، وكأنك حلم من الاحلام ، أو شبح من الاشباح . قولي لي ، بحق الشيطان ، ما الذي فعلتِه بنفسك طوال هذا الشهر الاخير ؟

ـ « كنت ، يا سيدي ، مع امرأة خالي التي ماتت » .

ـ « يا له من جواب جَيْنِي ※ نموذجي! فليحرسني الملائكة الصالحون ! انها تقبل من العالم الاخر ـ من موطن الاموات ـ ولا تتورع عن انبائي بذلك حين تلقاني وحيدا هنا عند الغسق ! لو اني آنست من نفسي الجرأة اذن لعمدت الى لمسك لارى أأنت مادة أم خيال ، ايتها العفريتة الصغيرة ! ولكن ذلك اشبه بمن يحاول ان يتقرّى السراب الازرق في ارض سبخة » . وصمت لحظة ، ثم اضاف : « يا لك من شاردة ! يا لك من شاردة ! لقد تعمدت التغيب عني شهرا كاملا ، ونسيتني نسيانا كاملا ! اني لمستعد لان أقسم على ذلك ! »

كنت اعلم ان الالتقاء بسيدي ، من جديد ، خليق به ان يوقع البهجة في نفسي ، برغم ما كان يعكر صفو تلك البهجة من خوفي ان تنقطع هذه الصلة التي تربطني به ، عما قريب ، ومن ادراكي اني لم أكن عنده شيئا ذا خطر .

※ Janian ، نسبة الى جين . (المعرب)

ولكن مستر روتشيستر كان يتمتع ابدا (او هذا ما اعتقدته على الافل) بحظ وافر من القدرة على ادخال السعادة الى القلوب بحيث كان مجرد تذوق الفتات الذي نثره لامثالي من الطيور الغريبة التائهة ضربا من الوليمة البهيجة · لقد كانت كلماته الاخيرة بلسما لقلبي : لقد بدت وكأنها تدل على انه كان يعلق أهمية ما على نسياني او عدم نسياني له · ثم انه قد تحدث عن ثورنفيلد وكأنه مثواي ··· الا ليته كان مثواي حقا ! »

ولم يغادر مجلسه عند سلم السياج · ولم أجد في نفسي كبير نزوع الى استئذانه في الانصراف · وسرعان ما سألته هل ارتحل الى لندن ؟

فأجاب : « أجل ، وأحسب انك عرفت ذلك من طريق الكشف والفراسة »·

— « لقد انبأتني مسز فيرفاكس بذلك في رسالة كتبتها الي » ·

— « وهل انبأتك بالغرض الذي من أجله شخصت الى هناك ؟ »

— « أوه ، أجل ، يا سيدي · لقد عرف كل امرىء بالمهمة التي مضيت لادائها » ·

— « يجب ان تلقي نظرة على العربة ، يا جين ، وتقولي لي هل تليق ، في رأيك ، بالسيدة روتشيستر ، بكل ما في الكلمة من معنى ، وهل ستبدو هذه السيدة فيها — وقد استراحت الى وسائدها الارجوانية — مثل الملكة بوديقا* ؟ اني لاتمنى ، يا جين ، لو كنت اكثر اهلية ، بمقدار ذرة واحدة ، لملاءمتها في مظهرها الخارجي · الا قولي لي ، وفيك ما فيك من روح الجن ، أليس في ميسورك ان تمنحيني رقية او شرابا سحريا أو ايما شيء من هذا القبيل قادرا على ان يجعل مني رجلا وسيما ؟ »

— « ان ما تطلبه ، يا سيدي ، خليق به ان يُعجز سحر الساحر ! » ثم اضفت في ما بيني وبين نفسي قائلة : « ان الرقية التي تحتاج اليها لا تعدو ان تكون عينا مُحبة · وانك لتبدو ، لمثل هذه العين ، على قدر من الجمال غير يسير · ولعل الاصح القول ان لتجهم وجهك قوة اين منها قوة الجمال » ·

وكان مستر روتشيستر قد قرأ في بعض الاحيان افكاري اللاملفوظة ببراعة عجزت عن فهمها · أما في هذه اللحظة بالذات فانه لم يسمع حتى جوابي المقتضب الملفوظ · ولكن ثغره افتر لي عن ابتسامة فريدة خاصة به — ابتسامة كان لا يرسلها الا في احوال نادرة · فقد بدا وكأنه يعتقد انها اعذب وأكرم من ان تُصطنع للاغراض العادية · كانت هي اشراقة الشعور الحقيقية ، ولقد سفحها الان من اجلي ·

وقال وهو يفسح لي مجالا يمكنني من عبور سُلّم السياج : « اذهبي الى القصر ، وضعي قدميك الصغيرتين التائهتين المرهقتين فوق عتبة صديق لكِ » ·

---

* Boudicca أو Boadicea ملكة بريطانية توفيت عام ٦٢ بعد الميلاد قادت ثورة فاشلة ضد الحكم الروماني في بريطانيا · (المعرب)

ولم يكن علي الا ان امتثل امره في صمت ولم تكن بي حاجة الى فضل كلام • فعبرت السياج من غير ان انطق ببنت شفة ، موطنة العزم على مفارقته في هدوء • ولكن حافزا باطنيا جمدني في مكاني ••• لقد اكرهتني قوة ما على الالتفات والعودة • وقلت ـ او ان شيئا في داخلي قال بالنيابة عني ، وبالرغم مني :

ـ « اشكرك ، يا مستر روتشيستر على عطفك العظيم • اني لسعيدة على نحو غير مألوف بالعودة اليك من جديد • وحيث تـــكون انت فثمة مثواي ••• مثواي الوحيد » •

وانشأت اعدو في سرعة بالغة كان من المتعذر معها ، حتى عليه هو ، ان يدركني لو حاول ذلك • وكادت آديل الصغيرة تطير فرحـــا عندما رأتني • وتلقتني مسز فيرفاكس بمودتها المألوفة الصادقة • وابتسمت « ليبا » ، وحتى « صوفي » قالت لي بالفرنسية « مساء الخير » في جذل وحبور • وكان هذا عذبا جدا ، فليس ثمة سعادة اعظم من ادراك المرء انه موضع حب اخوانه في الانسانية ، وشعوره بأن وجوده مدعاة الى تعزيز راحتهم ورفاهيتهم •

وتلك الليلة اغمضت عيني عن المستقبل في قوة وعزم ، واوصدت اذني دون الصوت الذي ظل يذكرني بالفراق الوشيك والغم القريب • حتـــى اذا فرغنا من تناول الشاي ، واستأنفت مسز فيرفاكس حبكها ، واتخذتُ مقعدا خفيضا على مقربة منها ، وركعت آديل على السجادة ملتصقة بي ، وبدا وكأن جوا من الحنان يطوقنا بحلقة من الامن الذهبي سألتُ الله ، في صلاة صامتة ، ان لا يتبدد شملنا وشيكا والا تشط بنا النوى • ولكن ما ان دخل علينا مستر روتشيستر على حين غرة ، ونحن في مجلسنا ذاك ، وبدا لي وكأنه ابتهج اذ رأى الى اجتماع شملنا على ذلك النحو الناضح بالمحبَّة ••• وما ان قال انه يحسب ان السيدة العجوز لا بد ان تكون مغتبطة الان بعد ان استردت بنتها بالتبنـّي ، وانه واثق من ان آديل مستعدة لان « تقرقش » امها الانكليزية الصغيرة•• ـ اقول ما ان دخل مستر روتشيستر علينا حتى جرؤتُ على مداعبة الامل بأن يلهمه الله ، حتى بعد زواجه ، ابقاءنا معا في مكان ما في ظل رعايته ، وعـدم اقصائنا كل الاقصاء عن اشعاع وجوده ما بيننا •

وتلت عودتي الى قصر ثورنفيلد فترة اسبوعين من الهدوء المريـب • ان ايما شيء لم يُقَل عن زواج رب القصر ، ولم اشهد انا اي استعدادات خاصة بمثل هذا الحدث • كنت اسأل مسز فيرفاكس ، كل يوم تقريبا ، عما اذا كانت قد سمعت بأيما قرار اتخذَ في هذه المسألة ، ولكن جوابها كان منفيا ، دائما • ولقد قالت لي انها سألتَ مستر روتشيستر فعلا ، ذات مرة ، متى يعتزم ان يصحب عروسه الى قصر ثورنفيلد فلم يجبها بغير مزحة اطلقها ، وبغير نظرة من نظراته الغريبة ، فلم تدر ما الذي ينبغي لها ان تفهم من ذلك كله •

بيد ان الذي ادهشني ، اكثر ما يكون الدهش ، احجامه عن الارتحال عن القصر بين الفينة والفينة ، وانقطاعه عن زيارة « اينغرام بارك » • صحيح

انه كان يقوم على مبعدة عشرين ميلا ، عند تخوم اقليم اخر ، ولكن اي شيء كانت تلك المسافة في نظر عاشق تضطرم في قلبه نار الشوق ؟ انها لا تعدو ان تكون ، بالنسبة الى فارس متمرس لا يعرف الكلل كمستر رونسيستر ، نزهة صباحية . وهكذا شرعت اغذو آمالا لم يكن من حقي ان اغذيها : لقد قلت في ذات نفسي ان الخطبة قد فُسخت ، وان اشاعة الزواج كانت كاذبة ، وان احد الفريقين ، او كليهما ، قد غيرَ رأيه . وكان من دأبي ان ارنو الى وجه سيدي لارى هل هو محزون او مغيظ ، ولكني لم استطع ان اتذكر اني الفيته ، في ايما يوم مضى ، اكثر صفاء واشد خلوا من سحائب الحزن والكمد . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان اذا ما اتفق لي ان تكشفت — في اللحظات التي اعتدت انفاقها انا وتلميذتي في حضرته — عن شيء من الاكتئاب او استغرقت في غم لا مفر منه ، تنبسط اسارير وجهه ويغلب عليها البشر . ولست اعرف انه دعاني الى المثول في حضرته ، في ايما يوم مضى ، اكثر مما دعاني في هذه الفترة ، او انه كان اكثر ملاطفة لي وانا بين يديه . واأسفاه ! اني لم احبه في ايما فترة سالفة اكثر مما احببته آنذاك .

٢٣

وكان منتصف الصيف قد اشرق على انكلترة بهيا رائعا . ان مثل هذه السماء المسرفة في الصفاء وهذه الشمس المغالية في الائتلاف ، اللتين نعمنا بهما آنذاك فترة طويلة على غير انقطاع ، نادرا ما تحابيان ، ولو على نحو منفرد ، ارضنا المكتنفة بالامواج . لكأن عصبة من الايام الايطالية قد وفدت من الجنوب مثل سرب من الطيور الرحالة السنية ، وحطت السماسا للراحة فوق شواطيء بريطانيا الصخرية . كان التبن كله قد خزن ، وكانت الحقول المحيطة بثورنفيلد خضراء مجزوزة ، وكانت الطرق بيضاء مسفوعة ، وكانت اوراق الشجر في ميعة الاسمرار . ولقد بدت المغايرة قوية صارخة بين الاسيجة والغابات المثقلة بالاوراق والممعنة في الاخضرار وبين المروج المكشوفة القائمة بينها والتي غلبت عليها صبغة الشمس .

وعشية اليوم الرابع والعشرين من حزيران (يونيو) اوت آديل الى فراشها مكدودة مرهقة ، مع غروب الشمس ، بعد ان انفقت نصف النهار في جني الفريز البري من درب « هاي » . حتى اذا استغرقت في النوم ، فارقتها ومضيت الى الحديقة .

كانت هذه الساعة هي اعذب الساعات الاربع والعشرين . « كان النهار قد استنفد نيرانه الموقدة » . وكان الندى يسقط باردا على السهول اللاهثة ، والقمم المسفوعة . وحيث جنحت الشمس الى الغروب في فخامة بسيطة — مبرأة من ابهة الغيوم — انتشر وهج ارجواني مهيب ، متقد بمثل وميض جوهرة حمراء وبمثل لهب فرن في ناحية ، فوق قنة احدى التلال ، وممتد امتدادا عاليا عريضا ، رقيقا ثم اشد رقة ، فوق نصف السماء . وكانت للمشرق ايضا فتنته

الخاصة المتميزة بزرقة عميقة بديعة ، وجوهرته المتواضعة الخاصة ايضا ، وهي نجمة متوحدة تتخذ سبيلها في معارج السماء ٠ ولن يمضي طويل وقت حتى يزهو بالقمر ٠ ولكن القمر كان لا يزال وراء الافق ٠

وتمشيت برهة في المجاز المعبّد ، ولكن اريجا لطيفا مالوفا لدي ـ عبير سيجار ـ ما لبث ان تسلل نحوي من نافذة ما ٠ والتفت فرأيت نافذة حجرة المكتبة مفتوحة فتحة لا يزيد عرضها على عرض اليد البشرية ٠ وكنت اعلم ان في امكان العين ان تراقبني من هناك ٠ وهكذا مضيت الى البستان ٠ والحق انه لم يكن في اراضي القصر بقعة اورف ظلالا ، واكثر شبهـا بجنة عدن ٠ كان غاصا بالاشجار ، منوّرا بالازهار ٠ وكان يفصله عن فناء القصر ، من ناحية ، جدار شامخ ، ويحجبه عن المرج ، من ناحية اخرى ، ممر تكتنفه شجرات الزان ٠ وفي اقصاه كان سياج غائر هو الفاصل الوحيد بينه وبين الحقول المنعزلة ٠ وكان يفضي الى هذا السياج مجاز متعرج تكتنفه اشجار الغار ، وينتهي عند شجرة ضخمة من شجرات الشهبلّوط الهندي طوّقت قاعدتها بمقعد ٠ وههنا كان في ميسور المرء ان يطوّف في نجوة من اعين الرقباء ٠ وفي ما كان هذا المنّ يتساقط ، وذاك الصمت يهيمن ، وتلك الظلمات تتجمع ، شعرت وكأن في ميسوري ان افيء الى هذه الظلال ابد الدهر ٠ ولكن خطاي ما لبثت ان صُدّت عن سبيلها بينا كنت اذرع احواض الرياحين والشجرات المثمرة في الجزء الاعلى من البستان ، وقد اغراني بالذهاب الى هناك ذلك الضوء الذي كان يلقيه القمر البازغ منذ قريب على تلك الرقعة الاكثر انكشافا ٠٠٠ ولم يكن الذي صد خطاي عن سبيلها صوتا ما ، او مشهـدا ما ، ولكنه كان هـذه المرة ايضا عبيرا منذرا ٠

كان النسرين ، ونبات الشّيْبة ، والياسمين ، والقرنفل والورد قـد شرعت تقدم قرابين بخورها الليلية منذ فترة بعيدة٠٠٠وهذا العبير ليس عبير عشب ولا زهر ، انه ـ ولقـد عرفت ذلك جيـدا ـ عبير سيجـار مستر روتشيستر ٠ واجلتُ الطرف في ما حولي ، واصغيت ، فرأيت اشجارا دانية القطوف ، وسمعت هزارا يغرد في غابة تقع على مبعدة نصف ميل ، ولكني لم ار اي شخص يتحرك ولم اسمع اية خطى تتقدم ٠ ومع ذلك فها هو ذا ذلـك العبير يقوى ويشتد ، ولا بد لي من الركون الى الفرار ٠ وهكذا شخصت الى البُوَيب المؤدي الى الخميلة ، فاذا بي ارى مستر روتشيستر قادما ٠ عندئذ ارتددت الى فجوة اللبـلاب قائلة في ما بيني وبين نفسي انه لن يمكـث فترة طويلة ، وانه سوف يرجع وشيكا من حيث اتى ، وانه لن يراني البتة اذا مـا لزمت السكينة والهدوء ٠

ولكن لا ٠٠٠ ان هذه العشية خليق بها ان توقع في نفسه البهجة كما اوقعتها في نفسي ، وان هذه الجنينة العتيقة خليق بها ان تجذبه اليها بقـدر ما جذبتني ٠ وها هو ذا يتقدم في سبيله ، رافعا حينا اغصان شجرة عنـب الثعلب ليرى الى ما يُثقلها من ثمرات في مثل ضخامة الخوخ ، قاطفا حينا حبة

كرز ناضجة من على الجدار ، منحنيا حينا فوق مجموعة من الرياحين اما لكي يستروح اريجها واما لكي يمتع طرفه بمشهد حبات النـدى على خَصَلاتها • وتدندن فراشة ضخمة على مقربة مني ، وتحط عـلى نبتة قائمة عنـد قدمي مستر روتشيستر • ويلمـح مستر رونشيستر الفراشـة ، وينحني لكي يتأملها •

وقلت في ذات نفسي : « انه يوليني الان ظهره ، وهو في شُغُل عني ايضا • ومن يدري ، فلعلي اذا ما خففت الوطأ أن اوفق الى الانسلال من غير ان يشعر بي » •

ورحت امشي الهوينا على حافة الارض المكسوة بالعشب خشية ان ينم علي الحصى اذا وطئته : كان واقفا بين احواض الرياحين على مبعدة ياردة او ياردتين من المكان الذي كان علي ان اجتازه ، وكانت الفراشة تستأثر بانتباهه في ما يبدو • فقلت في ذات نفسي : « سوف انسلُّ ، في سهولة ويسر » • وفيما كنت اجتاز ظله ، الذي بسطه القمر ، غير المرتفع عاليـا في السمـاء ، بَسْطا متطاولا على ارض الحديقة ، قال في هدوء ومن غير ان يلتفت :

ــ « جين ، تعالي وانظري الى هذه المخلوقة » •

ولم اكن قد احدثت ضجة ما ، ولم تكن له عينان من خِلاف ، فهل كان في ميسور ظله ان يشعر ؟ واجفلت باديء الامر ، ثم تقدمت نحوه •

وقال : « انظري الى جناحيها • انها تذكّرني بحشرة من حشرات جـزر الهند الغربية • والواقع ان المرء نادرا ما يرى فرصانا ليليا في مثـل هـذه الضخامة والمرح في انكلترة • انظري ! لقد طارت • »

وطوَّفت الفراشة بعيدا عنه ، وكنت انا اتراجع ايضا على نحو خجول اخرق • ولكن مستر روتشيستر تبعني ، حتى اذا بلغنا البوَيب قال :

ــ « ارجعي • فمن العار في مثل هذه الليلة البديعة ان يقبع النـاس في منازلهم • ولا ريب في انه ما من انسان يتمنى المضي الى فراشه حين يلتقي غروب الشمس مثل هذا الالتقاء الرائع مع طلوع القمر • »

ان بين عيوبي عيبا يتمثل في ان لساني ، برغم ما يجيـده احيانا مـن سرعة الاجابة ، يعجز في احيان اخرى عجزا محزنا عن صياغة عذر من الاعذار • وهذا العجز لا يحدث الا وانا في غمرة ازمة ما ، حين اكون في امس الحاجة الى كلمة مطاوعة او ذريعة معقولة للتخلص من ارتباك موجع • فالواقع اني كنت راغبة عن السير انا ومستر روتشيستر ، وحدنا ، في البستان الظليل ، وفي مثل تلك الساعة بالذات ، ولكني لم استطع ان اجد عذرا انتحله لمفارقتـه • فرحت اتبعه في خطىً متلكئة ، وقد عكفـت افكاري على اكتشـاف وسيلـة للخلاص • ولكنه هو نفسه بدا رابط الجأش رزينا الى درجة خجلت معها مـن ذلك الاضطراب الذي المَّ بي • لقد تراءى لي ان الشر ــ ان يكن ثمة شر فعلي او محتمل ــ كان كامنا في ذات نفسي فحسب • اما ذهنه هو فكان وادعا خاليا من ذلك كله •

واستأنف حديثه حين بلغنا المجاز الذي تكتنفه شجرات الغار ، وهبط في تؤدة نحو السياج الغائر وشجرة الشهبلوط الهندي ، فقال : « ثورنفيلد موطن بهيج في فصل الصيف ، أليس كذلك ؟ »

— « نعم ، يا سيدي . »

— « من المفروض ان تكوني قد اصبحت مولعة بعض الشيء بهذا الموطن ... انت التي تملكين عينا ذوّاقة للجمال الطبيعي ، وتتمتعين بقدْر غير يسير من حس الالفة » .

— « انا مولعة به حقا » .

— « وعلى الرغم من اني لا افهم كيف تمّ ذلك ، الاحظ انك اكتسبت قدرا من الحب لآديل الصغيرة ايضا ، وحتى للسيدة فيرفاكس الساذجة » .

— « نعم ، يا سيدي . اني لاحبهما كليهما ، بطريقتين مختلفتين . »

— « وهل تعتقدين ان ابتعادك عنهما خليق بأن يُحزن نفسك ؟ »

— « نعــم . »

فقال : « واحسرتاه ! ثم اطلق زفرة وصمت لحظة ، ليعود بعد ذلك الى القول : « تلك هي السبيل التي تنتهجها الاحداث في هذه الحياة . فما ان يستقر المقام بالمرء في موطن من مواطن الاستراحة بهيج حتى يدعوه صوت ما الى النهوض والارتحال ، لان ساعة الراحة قد انقضت . »

فسألته : « وهل يتعيَّن علي ان ارتحل ؟ هل يتعين علي ان اغادر ثورنفيلد ؟ »

— « اعتقد انه يتعين عليكِ ذلك ، يا جين . انا آسف ، يا جانيت ، ولكني اعتقد حقا انه يتعين عليكَ ذلك . »

وكانت هذه ضربة قاسية . ولكني لم اجِزْ لها ان تصرعني .

وقلت : « حسنا ، يا سيدي ، سوف اكوَن مستعدة للرحيل حالما ابلَّغ الامر بذلك . »

— « اني ابلـِّغك اياه الان ... ان علي ان اصدره الليلة . »

— « واذن فقد اعتزمت ان تتزوج ، يا سيدي ؟ »

— « تمـ...اما ، بالـ....ضبط . لقد وفـّقت ، بذكائك المعهود ، الى اصابة كبد الحقيقة . »

— « وفي وقت قريب ، يا سيدي ؟ »

— « في وقت قريب جدا ، يا ... اعني يا مس ايير . ولسوف تذكرين ، يا جين ، انه في اول مرة المعتُ لك فيها او المعت الاشاعات لك فيها الى انني اعتزم ان اضع رقبتي العجوز العزباء في الانشوطةَ المقدسة ، وان ادخل حظيرة الزواج الالهية ، وان اضم مس اينغرام الى صدري ، وبكلمة مختصرة (انها ضخمة بعض الشيء ، ولكن هذا لا صلة له بالموضوع ، ولكن المرء لا يكاد يُتخَم من مخلوقة ممتازة جدا مثل بلانشتي الجميلة) حسنا ، كما كنت اقول لكِ ، اصغي اليَّ يا جين ! انت لا تديرين رأسك لكي تبحثي عن فراشات

اضافية ، اليس كذلك ؟ لقد كانت مجرد حشرة حمراء ، اينتها الطفلة الغريرة ، مرتحلة الى موطنها ٠٠٠ اقول اني احب ان اذكرك بانك كنت اول من قال لي ، بتلك الحصافة التي احترمها فيك ـ بذلك التبصر والتعقل والوداعة التي تليق بمركزك المرؤوس والمسؤول في وقت واحد ـ ان من الخير لـك ولآديل الصغيرة معا ، في حال زواجي من مس اينغرام ، ان تغادرا القصر في الحال ٠ ولسوف اتغاضى عما ينطوي عليه هذا الاقتراح من ذمٍّ لشخصية محبوبتي ، اجل اني سأحاول ان انساه ، حين تبرحين القصر يا جين ، وان لا اتذكر منه غير جانبه الحكيم الذي قررت ان اجعله هاديا لي الى سواء السبيل ٠ ان على آديل ان تذهب الى المدرسة ، وان عليك انت ـ يا مس ايير ـ ان تبحثي عن عمل جديد » ٠

ـ « اجل ، يا سيدي ، سوف اعلن في الصحف على التو ، وفي الوقت نفسه احسب ٠٠٠ » وكنت على وشك ان اقول : « احسب ان في استطاعتي ان ابقى هنا ريثما اجد مفزعا اخر افيء اليه » ٠ ولكني امسكت عن الكلام ، وقد شعرت انه ليس من الخير لي ان اغامر بتطويل الجملة ، ذلك بان صوتي لم يكن طوع امرى تماما ٠

وتابع مستر روتشيستر حديثه قائلا : « انا ارجو ان اصبح عريسا في مدة لا تتجاوز شهرا واحدا ، وفي خلال ذلك سأبحث لك بنفسي عن عمل ومفْزع » ٠

ـ « اشكرك ، يا سيدي ٠٠ يؤسفني ان اجشمك ٠٠٠ »

ـ « اوه ، لا داعي للاعتذار ! انا اعتبر انه حين تؤدي مرؤوسة واجبها بمثل الاجادة التي ادبت انت بها واجبك يصبح من حقها على مستخدمها ان يسدي اليها اية خدمة صغيرة يجد نفسه قادرا على اسدائها في غير مشقة ٠ والواقع اني كنت قد سمعت من أم زوجتي المقبلة عن وظيفة احسب انها تلائمك ، وظيفة تقتضيك ان تتولي تربية بنـات مسز ديونيسيوس اوغول الخمس ، وهي احدى سيدات بيترنوت لودج ، كونوت ، في ارلنده ٠ ولسوف تحبين ارلنده ، في ما اعتقد ٠ ان اهلها على ما يقال ، قوم يتميزون باللطف البالغ والمودة الغامرة ٠ »

ـ « ولكنها نائية جدا ، يا سيدي ٠ »

ـ « ليس هذا بالامر المهم ٠ ان فتاة تتمتع بمثل عقلك الراجح لن تعترض لا على الرحلة ولا على البعد ٠ »

ـ « انا لا اعترض على الرحلة ، ولكن اعترض على البعد ٠ ثم ان البحر يشكل حاجزا يفصلني عن ٠٠٠ »

ـ « يفصلك عن اي شيء ؟ »

ـ « عن انكلترة ، وعن ثورنفيلد ٠٠٠ وعن ٠٠٠ »

ـ « وعن ماذا ؟ »

ـ « عنك انت ، يا سيدي » .

قلت ذلك على نحو لا ارادي تقريبا . وعلى الرغم مني سالت العبرات من عينيّ . بيد اني لم ابك بكاء صارخا ، لا ، لقد اجتنبت النحيب . ولقد كان مجرد التفكير بمسز اوغول و بـ « بيترنوت لودج » قد اورثني انقباضا في الصدر . وكان التفكير في كل ذلك الماء الاجاج وذلك الزبد المقدّر لهما ، في ما بدا لي ، ان يفصلاني عن سيدي الذي كنت امشي الان الى جانبه قد اورثني انقباضا اقوى . ولكن التفكير في الاوقيانوس الاوسع ـ الثروة ، الطبقة الاجتماعية ، والاعراف التي حالت بيني وبين من احببته حبا طبيعيا لا منجىً منه ـ كان هو الذي اورثني من انقباض الصدر غاية الغايات ، ونهاية النهايات .

وعدت اقول : « انها نائية جدا » .

ـ « هذا صحيح ، من غير ريب . وحين تنتهين الى بيترنوت لودج ، كونوت ، ايرلندة ، فلن اوفق الى رؤيتك بعد ذلك ابدا ، يا جين . تلك حقيقة لا يعتورها اي لبس . فانا لا اسافر الى ايرلندة البتة ، بسبب من اني لا استشعر ميلا كبيرا الى تلك البلاد . لقد كنا صديقين حميمين ، يا جين ، الم نكن كذلك ؟ »

ـ « اجل ، يا سيدي » .

ـ « وحين يلتقي الصديقان عشية الفراق فانهما يحبان ان ينفقا ما تبقى لديهما من سويعات قليلة ، متناجييْن جنبا الى جنب . تعالي ... سوف نتحدث عن الرحلة وعن الفراق القريب ، في هدوء ، طوال نصف ساعة او نحو ذلك ، بينما تستهل النجوم حياتها المشعة في القبة الزرقاء هناك . هي ذي شجرة الشهبلوط الهندي ، وهو ذا المقعد القائم عند جذورها العتيقة . تعالي ، سوف نجلس هناك في امن وسكينة ، هذه الليلة ، على الرغم من انه لن يقدر لنا ، بعدُ ، ان نجلس ههنا معا ، ابد الدهر » .

ثم اقعدني وقعد ، واضاف قائلا : « ان الشقة بعيدة ما بين ثورنفيلد وايرلندة ، يا جانيت ، وانه ليؤسفني ان اطوح بصديقتي الصغيرة في امثال هذه الرحلات الشاقة ، ولكن ما حيلتي اذا لم اوفق الى ما هو افضل ؟ هل تحسبين ، يا جين ، ان بيننا نَسَبا ؟ » .

وهنا لم استطع المغامرة بجواب ، فقد كانت مشاعري اعمق من ان يعبَّر عنها بكلام .

فقال : « انما وجهت اليك هذا السؤال لاني احس في بعض الاحيان بمودة غريبة نحوك ـ وبخاصة حين تكونين على مقربة مني ، كشأنك الان ، فكأن ثمة في مكان ما تحت اضلاعي اليسرى سلكا معقودا عقدا مُحكَما لا انفصام له بسلك مماثل قائم في الموطن المقابل من جسدك الصغير . واني لأخشى ، اذا ما فصلت بيننا تلك القناة الصاخبة ونحو مئتي ميل من الارض المترامية ، ان ينقطع هذا الحبل الذي يربط ما بيننا ، وعندئذ لا بد ان يقطر

فؤادي دما ، او هذا ما تحدثني به هواجسي • اما انـت ••• فأنـك سوف تنسينني » •

ـ « لا ، انا لن انساك ابد الدهر ، يا سيدي • انت تعلم ••• » وتعذّر عليّ ان اتم •

ـ « جين ، أتسمعين ذلك الهزار المغرد في الغابة ؟ اصيخي له ! »

وتنهدت ، وانا أصيخ ، على نحو تشنجي • ذلك بأني لم اعد بعدُ قادرة على كبت ما كابدتهُ • لقد اضطررت الى الاستسلام ، وكانت عاصفة من الاسى الحاد قد لفتني من قمة رأسي الى اخمص قدمي • حتى اذا تكلمـت لم ازد على ان قلت ، في انفعال متهور : « ليتني لم اولد قط ، او لم اجيء الى ثورنفيلد في ايما يوم من الايام ! »

ـ « وكل ذلك لانك محزونة لمغادرتها ؟ »

كانت حُمَيّا الانفعال ، وقد اثارها ما اعتلج في فؤادي من اسىً وحب ، قد تصدرت للمطالبة بالسيادة وكانت تنـاضل لبسط سلطانها الكامل عليّ ولتوكيد حقها في ان تهيمن : ان تتغلب ، ان تحيا ، ان تفوز ، وان تسود آخر الامر ، اجل ، وفي ان تتكلم ايضا •

ـ « انا آسى لمغادرة ثورنفيلد : انا احب ثورنفيلد • احبها ، لاني عشت فيها حياة خصبة بهيجة ، موقتا على الاقـل • ان احـدا لم يُذلني هنا ، ولم يَصْعَقْني • انا لم ادفَن هنا ، حية ، مـع عقول منحطة ، ولم احرَم ادنى الاتصال بكل ما هو مشرق ، وفعّال ، وسامٍ • لقد تحدثت ، وجها لوجه ، الى ما ابجل ، الى ما به ابتهج ـ الى عقل اصيل ، ناشط ، مستنير • لقد تعرفت اليك ، يا مستر روتشيستر ، وانه ليرعبني ويوقع في نفسي اعظم الحزن ان استشعر ان قوة قاهرة تفصلني عنك الى الابد • اني ادرك ضرورة الفراق ، وهي تبدو لي حتمية كالموت » •

فسألني على التو : « واين ترين هذه الضرورة ؟ »

ـ « اين ؟ انك انت الذي وضعتها نصب عيني ، يا سيدي » •

ـ « في اية صورة ؟ »

ـ « في صورة مس اينغرام ••• امرأة كريمة المحتد بهية الطلعة ••• عروسك » •

ـ « عروسي ؟ اية عروس ؟ ليس لي عروس ! »

ـ « ولكنه سيكون لك عروس » •

ـ « آه ••• سيكون لي ! سيكون لي ! » وكزّ على اسنانه •

ـ « وعندئذ يتعين علي ان ارحل ••• لقد قلت ذلك بنفسك » •

ـ « لا • يتعين عليك ان تبقي ••• اني اقسم على ذلك ••• ولسـوف أفي بقسمي » •

فقلت ، وقد غلب علي شيء كالانفعال : « اقول لك ان علي ان ارحل ! اتحسب ان في استطاعتي ان ابقى لاصبح شيئا لا قيمة له عندك ؟ اتحسب اني

انسان ميكانيكي ؟ ··· آلة من غير مشاعر ؟ واني اطيق ان ارى الى لقمة خبزي تُنْتَزَع من بين شفتي ، والى ماء حياتي يُهرق من كأسي ؟ وهل تظنني ـ لمجرد كوني فقيرة ، مغمورة ، دميمة ، ضئيلة الجسم ـ مخلوقة لا روح لها ولا قلب ؟ انك ان فعلت كنتَ مخطئا ! فانا اتمتع بقدر من الروح لا يقل عما تتمتع به انت ، وبقلب لا يقل احساسا عن قلبك ! ولو قد وهبني الله شيئا من جمال ، وشيئا من ثروة اذن لكان خليقا بي ان اجعلك تأسى لفراقي كما آسى انا ، الان ، لفراقك · انا لا اخاطبك الان بلغة العرف والتقاليد وحتى بلغة الجسد الفاني ·· لا ، ان روحي هي التي تخاطب روحك ، وكأننا التقينا من وراء القبر ، ووقفنا عند قدمي الله متساويين ، كشأننا في الحقيقة ! »

فكرر مستر روتشيستر : « كشأننا في الحقيقة ! » ثم طوقني بذراعيه ، وضمني الى صدره ، ضاغطا شفتيه على شفتي ، واضاف : « هكذا ··· هكذا ، يا جين ! »

فقلت : « اجل ، هكذا ، يا سيدي ··· ومع ذلك فليس هكذا ··· لانك رجل متزوج ··· او في حكم الرجل المتزوج ، المقترن بأمرأة ادنى منك ··· بأمرأة لا تشدك اليها اية مشاركة وجدانية ··· امرأة لا اعتقد انك تحبها حبا حقيقيا ، ذلك باني رأيتك وسمعتك تسخر منها · اني لازدري مثل هذا الزواج، ومن هنا كنت انا خيرا منك ··· دعني انصرف ! »

ـ « الى اين ، يا جين ؟ الى ايرلندة ؟ »

ـ « اجل ، الى ايرلندة · لقد صارحتك بحقيقة ما يجول في ذهني ، وفي ميسوري الان ان اضرب في ارض الله الواسعة »

ـ « جين ، الزمي الهدوء ، ولا تحاولي الافلات مني مثل طير طائش مذعور يغريه اليأس بالفرار ولو جُرِّد من ريشه كله ! »

ـ « انا لست طيرا ، وليس في طاقة ايما شرك ان يُطبق علي · انا كائنة بشرية حرة ذات ارادة مستقلة امارسها الان اذ اعلن اني سأفارقك » ·

ومكنني مجهود اخر بذلته من الافلات من قبضته ، وعندئذ انتصبت واقفة أمامه ·

فقال : « وارادتك هذه سوف تقرر مصيرك · اني امنحك يدي ، وقلبي ، وجزءا من كامل ممتلكاتي » ·

ـ « انك لتمثل مهزلة لا اقابلها بغير السخرية » ·

ـ « اني اسألك ان تنفقي العمر الى جانبي ··· ان تكوني نفسي الثانية ورفيقة حياتي الفضلى في هذه الدنيا » ·

ـ « لقد سبق لك ان اخترت هذه الرفيقة · وان عليك ان تَلتزم مَن وقع عليها اختيارك » ·

ـ « جين ، اعتصمي بالهدوء بضع لحظات · انتِ مهتاجة اكثر مما ينبغي · ولسوف اعتصم انا بالهدوء ايضا » ·

وهبَّ على المجاز المطوق بشجرات الغار نسيم عليل ارتعش خلل الغصان

الشهبلوط الهندية ، ثم هام على وجهه بعيدا ·· بعيــدا ــ الى مســافة غير متناهية ــ وتلاشى · لقد امسى تغريد الهزار هو وحده الصوت المسموع في تلك الساعة ، وفيما كنت اصغي اليه سفحتُ الدمع من جديد ، وقد قعد مستر روتشيستر ساكنا ينظر الي في رقة ورزانة · وتقضّت فترة لم ينبس خلالها بكلمة · واخيرا قال :

ــ « تعالي الى جانبي ، يا جين ، ودعينا نتفاهم » ·

ــ « انا لن اقعد الى جانبك منذ اليوم · لقد انفصلت عنك ، وليس في مستطاعي ان اعود » ·

ــ « ولكني ادعوك ، يا جين ، بوصفك زوجتي : انكِ انت وحدك المرأة التي اعتزم ان اتزوج منها » ·

وبقيت صامتة · لقد حسبتُ انه يسخر مني ·

ــ « تعالي ، جين ! تعالي الى هنا ! »

ــ « ان عروسك لتقف حاجزا يفصل ما بيننا » ·

فنهض · وبخطوة واحدة امسى بجانبي · وقال وهو يجذبني نحوه كرة اخرى : « ان عروسي هنا · لان المرأة التي هي كفؤ لي والتي تشبهنــي هي هنا · جين ، هل تقبلين بي زوجا ؟ »

ولزمت الصمت هذه المرة ايضا ، ورحت اتلوى محاولة الافلات مــن قبضته · فقد كنت لا ازال غير مصدقة ·

ــ « اترتابين بي يا جين ؟ »

ــ « كل الارتياب » ·

ــ « اليس لكِ ثقة بي ؟ »

ــ « لا ، ليس لي ذرة من الثقة بك » ·

فسألني في انفعال : « هل انا ، في نظرك ، مخادع كذاب ؟ ايتها المرتابة الصغيرة ، انك سوف تقتنعين · هل اكنّ انــا اي حــب لمس اينغرام ؟ لا ، البتة ، وهل تكنّ هي اي حب لي ؟ لا ، البتة ، وهو ما بذلت قصارى جهدي لكي اقيم الدليل عليه : لقد روجتُ اشاعة ، اردتها ان تتناهى الى سمعهــا ، اشاعة تقول بأن ثروتي لا تبلغ ما توهمه الناس ، وبعد ذلك اتصلت بها لارى النتيجة ، فاذا بها برود منها ومن امها في آن معا · انا لا اريد ، بل لا استطيع ، ان اتزوج من مس اينغرام · اما انت ــ انت الغريبة ، انت المخلوقة التي تكاد تكون لا ارضية ــ فاني احبك كما احب نفسي · اني اتوسل اليــك ــ انــت الفقيرة ، المغمورة ، الضئيلة الجسم ، الدميمة الوجه ــ ان ترضيني بعلا لك » ·

فصحت ، وقد بدأت اثق بأخلاصه بعد الذي لمسته من حماسته ، وعلــى الاخص ، من جلافته : « ماذا ؟ انا ! انا التي لا صديق لي في الدنيا غيرك ــ ان صح انك صديق لي حقا ــ والتي لا املك من المال غير ما قدمته الي ؟ »

ــ « اجل ، انت يا جين · يجب علي ان استأثر بك ··· ان استأثر بك من دون كل الناس · فهل ترضين ان تكوني ملكي ؟ قولي نعم ، بسرعة » ·

ـ « مستر روتشيستر ، دعني انظر الى وجهك ٠ التفت نحو ضيـــاء القمر » ٠

ـ « لـمــــاذا ؟ »

ـ « لانى اريد ان اقرأ ملامحك ٠ التفت ! »

ـ « ها قد التفتُّ ٠ انك لن توفقي الى قراءتها الا بمقدار ما يوفق المرء الى قراءة صفحة ممزقة ممحوة ٠ هيا ، اقرئي ٠ ولكن عجلي ، لاني اتألم » ٠

كان وجهه منفعلا جدا ، متضرجا بالدم الى ابعد الحدود ، وكان ثمة ارتعاد في قسماته ، والتماع عجيب في عينيه ٠٠

وصاح : « اوه ، جين ، انت تعذبينني ٠ انك تعذبينني بهـــذه النظرة الفاحصة ، على الرغم مما تنطوي عليه من اخلاص وكرم ! »

ـ « كيف استطيع ان اعذبك ؟ اذا كنت صادقا في ما قلت ، جادا في ما عرضت فليس ينبغي لي ان احس نحوك بغير العرفـان والولاء ٠ والعرفـان والولاء لا يمكن ان يكونا مصدر عذاب » ٠

ـ فصاح : « عرفان ! » ثم اضاف ، في ضراوة : « سارعي الى الرضا بي ، يا جين ٠ قولي لي يا ادوارد ـ ـ اجـل ، خاطبيني بأسمي ، ادوارد ـ سوف اتزوجك » ٠

ـ « اصادق انت في ما تقول ؟ هل تحبني حقا ؟ اراغب انت ، باخلاص ، في ان اكون زوجتك ؟ »

ـ « اجل ، يا جين ٠ واذا كانت اليمين ضرورية لاقناعك اقسمت لك يمينا » ٠

ـ « اذن ، فسوف اتزوجك ، يا سيدي » ٠

ـ « لا تقولي يا سيدي ٠ قولي يا ادوارد ـ يا زوجتي الصغيرة ! »

ـ « يا عزيزي ادوارد » ٠

فقال : « تعالي الي ، تعالي الي الان بكليتك ! » ثم اضاف في اعمق نبرة من نبرات صوته، هامسا في اذني، اذ كان خده على خدي : «هبيني السعادة٠٠ أهَبْكِ السعادة ! »

وصمت لحظة ثم اردف : « فليغفر الله لي ، وليجنبني تدخل الانسان ! لقد فزت بها ، ولسوف احتفظ بها » ٠

ـ « لن يتدخل بيننا احد ، يا سيـدي ٠ فليس لي اي نسيـــب حتى يتدخـــل » ٠

ـ « لا ٠ وهذا خير ما في المسألة » ٠

ولو قد كان حبي له اقل اذن لوجدت في نبرته وفي محياه المتهلل شيئا وحشيا ٠ اما وقد كنت جالسة الى جانبه ، بعد ان اوقظت من كابوس الفراق ودُعيْت الى جنة الزواج ، فاني لم افكر بغير النعمة التي اسبغها الله علي ، نعمة العبّ من مثل هذا الفيض السخي ٠ وقال مرة ومرة : « أسعيدة انت يا جين ؟ » فاجبته مرة ومرة : « نعم ٠ » فغمغم : « ان في ذلك لكفّارة ٠٠٠ إن

في ذلك لكفّارة • ألم اجدها منبوذة ، مقرورة ، لا يعرف السلوان سبيلا الى قلبها ؟ الن احميها ، وارعاها ، واواسيها ؟ أليس في فؤادي حب وفي قراري ثبات ؟ ان هذا سوف يشفع لي في محكمة الله • انا اعلم ان خالقي يقر ما اعمله • اما احكام الدنيا فاني اغسل يدي منها • اما رأي الانسان ••• فاني اتحداه ! »

ولكن ماذا دهى الليل ؟ ان القمر لما يأفل بعد ، ومع ذلك فقد لفنا الظلام ، وامسيت لا اكاد المح وجه سيدي ، برغم اني كنت منه على مقربة دانية • وما الذي اوجع الشهبلوطة الهندية ؟ لقد تلوّت وانّت ، بينما كانت الريح تهدر في المجاز التي اكتنفته شجرات الغار وتعصف بنا عصفا •

وقال مستر روتشيستر : « يجب ان ندخل الى القصر • الجو آخذ في التغير • ولولا هذا لجلست معك حتى مطلع الفجر ، يا جين » •

وفكرت بيني وبين نفسي : « ولجلست انا معك حتى مطلع الفجر ايضا » • ولعله كان يجمل بي ان اصرح بذلك ايضا ، ولكن وميضا ساطعا ضاربا الى الزرقة انبثق من سحابة كنت ارنو اليها ، وتلا ذلك فرقعة ، قرقعة ، هزيم رعد مجلجل دان • هنالك لم افكر الا في حجب عيني المبهورتين واخفائهما بكتف مستر روتشيستر •

وانهمر المطر • فحثني مستر روتشيستر على العدْو في المجاز ، ثم عبر حاشية الحديقة ، ابتغاء الوصول الى القصر • ولكنا لم نبلغ عتبته الا بعد ان تبللت ملابسنا فهي تقطر ماء • وكان ينزع شالي عن كتفي ، في الردهة ، وينفض حبات المطر عن شعري المنسدل عندما نبعتْ مسز فيرفاكس من حجرتها • ولم المحها بادىء الامر ، ولم يلمحها مستر روتشيستر ايضا • وكان المصباح مضاء ، وكانت ساعة الجدار تعلن الثانية عشرة •

وقال : « سارعي الى نزع ملابسك المبللة • وقبل ان تمضي اتمنى لك ليلة طيبة ••• ليلة طيبة يا عزيزتي » •

وقبلني مرة ومرة • وحين رفعت بصري ، بعد ان فارقت ذراعيه ، الفيت الارملة امامي شاحبة الوجه ، متجهمة الاسارير ، مشدوهة ، فاجتزأت بالابتسام لها ، واندفعت مرتقية السلم الى الدور الاعلى • وقلت في ذات نفسي : « سوف اشرح لها الامر في مناسبة اخرى » • ومع ذلك ، فلم اكد اصل الى حجرتي حتى استشعرت غصة في النفس لمجرد التفكير في انها لا بد ستسيء ، ولو موقتا ، فهم ما رأته عيناها • ولكن الجذل سرعان ما محا كل شعور آخر • كانت الريح تهب عنيفة وكان الرعد يقصف على نحو دان عميق ، وكان البرق يومض ضاريا متواترا • وظل المطر ينهمر انهمار الشلال خلال عاصفة استمرت ساعتين اثنتين ، ومع ذلك فلم استشعر اي خوف ، ولم احس الا بقدر يسير من الرهبة • وفي غضون ذلك اقبل مستر روتشيستر الى باب حجرتي ثلاث مرات ليسألني هل انا آمنة مطمئنة • وكان في هذا عزاء لي ، وكان في هذا قوة استعين بها على كل شيء •

وقبل ان ابرح سريري صباح اليوم التالي اقبلت آديل الصغيرة تعدو لتنبئني بأن صاعقة انقضت الليلة البارحة على شجرة الشهبلوط الهندي الضخمة في اقصى البستان ، ففلقتها فلقا .

٢٤

وفيما كنت انهض من فراشي وارتدي ملابسي فكرت في ما قد حدث ، وتساءلت هل كان ذلك حلما ؟ ولم استيقن من الحقيقة الا بعد ان رأيت مستر روتشيستر من جديد ، وسمعته يجدد لي عهده ويكرر آيات حبه .

وبينا كنت اسرح شعري ، نظرت الى وجهي في المرآة ، فاستشعرت انه لم يعد دميما : كان ثمة امل في اساريره ، وحياة في لونه ، ولقد بدت عيناي وكأنهما ابصرتا ينبوع البهجة ، واستعارتا تألقهما من تماوجه الصقيل . وكان من دأبي ان أزهد في النظر الى سيدي ، خشية ان لا تروقه طلعتي ، ولكني آنست في نفسي ، ثقة قويه اشعرتني بأن في استطاعتي ان ارفع وجهي الى وجهه من غير ان يفتر حبه لي من جراء ملامحه . واخرجت من درجي فستانا بسيطا ، ولكنه نظيف رقيق ، من فساتين الصيف ، وارتديته . فبدا لي وكأن ايما ثوب لم يلق بي قط بقدر ما لاق هذا الثوب بي ، لانني لم ارتدِ من قبل ثوبا ما بمثل المزاج البهيج الذي ارتديت به هذا الثوب .

ولم يستبد بي الدهش عندما رأيت ، وانا اهبط السلم الى الردهة ، ان صباحا متألقا من اصباح حزيران (يونيو) قد خلف عاصفة الليلة البارحة ، وعندما داعبتني ، من خلال الباب الزجاجي المفتوح ، انفاس نسيم عليل فاغم . لا ريب ان الطبيعة كانت مغتبطة بسعادتي البالغة . وفي هذه اللحظة ، صعدت في المجاز شحاذة تصحب ولدها الصغير –وكان كل منهما شاحب الوجه رث الملابس – فهبطتُ نحوها مسرعة ونفحتها كل ما اتفق ان كان في كيسي من نقود ، وكان يبلغ ثلاثة شلنات او اربعة : فسواء أكان هذان المخلوقان صالحين ام طالحين فأن من حقهما ان يشاركاني ابتهاجي . ونعبت الغربان السُحْم ، وغردت الطيور الاكثر بشرا . ولكن ايما شيء لم يبلغ من الطرب وحسن الايقاع ما بلغه فؤادي المتهلل .

وفاجأتني مسز فيرفاكس بالاطلال من النافذة ، محزونة المحيا ، وبقولها لي في اكتئاب : « مس ايير ، الا تريدين ان تتناولي فطور الصباح ؟ » وخلال الطعام غلبت عليها السكينة والفتور ، ولكنني لم استطع ان اكاشفها ، آنذاك ، بواقع الامر . ان علي ان انتظر حتى يقدم سيدي ايضاحاته ، وان عليها هي ايضا ان تنتظر . واكلت ما وسعني ،ثم هرعت الى الطابق العلوي ، فالتقيت آديل وهي تغادر حجرة الدرس .

– « الى اين انت ذاهبة ؟ لقد حانت ساعة التدريس » .

– « لقد امرني مستر روتشيستر بالانتقال الى حجرة الحضانة » .

ـ « وايـــن هو ؟ »
ـ « هناك » ، واشارت الى الحجرة التي كانت قد غادرتها • فدخلتها ، فاذا هو واقف في احدى نواحيها •

وقال : « تعالي وتمني لي صباحا طيبا » •

فتقدمت في ابتهاج ، فلم يكن ما تلقيته الان مجرد كلمة بـاردة او حتى مصافحة ، ولكنه كان عناقا وقبلة • وبدا لي ان غمره اياي بهذا الحب كلـه ومعانقته لي بهذه الحرارة كلها كانا شيئا طبيعيا ••• شيئا بهيجا •

وقال : « جين ، اني لاراك منوّرة ، بسّامة ، بهية الطلعة ••• بهيـة الطلعة حقا في هذا الصباح • أهذه هي عفريتتي الصغيرة الشاحبة ؟ أهذه هي حبة خردلي ؟ هذه الفتاة الصغيرة المبتهجة ذات الوجنة التي تزينهـــا غمازة والشفتين الورديتين ، والشعر البندقي الاملس كالحرير ، والعينيـن المشعّتين بلون البندق ايضا ! » (لقد كانت لي ، ايها القارىء ، عينـــان خضراوان ، ولكن عليك ان تغفر له هذه الغلطة ، فقد بدتا لـــه مصبوغتين بصِبْغ جديد ، في ما احسب) •

ـ « هذه الفتاة هي جين ايير ، يا سيدي » •

فأضاف : « التي ستصبح جين روتشيستر عما قريب ، بعد اسابيـع أربعة يا جانيت ، اسابيع أربعه لن تزيد يوما واحدا • هل تسمعيـــن هـذا الذي اقولـــه ؟ »

لقد سمعته ، ولكني لم اوفق الى فهمه تماما : لقد اصابني ذلك بدوار • كان الشعور الذي اوقعه هذا الاعلان في نفسي اقوى من ان يتناغم مـــع البهجة •• كان شيئا يُذهل ويَصْعق : كان ، في ما خيل الي ، خوفـا او شبه خوف •

ـ « لقد احمر وجهك بادىء الامر ، وها هو ذا الان شـــاحب اشـد الشحوب ، فعلام ذلك يا جين ؟ »

ـ « لانك منحتني اسما جديدا : جين روتشيستر • وهو اسم يبدو لي غريبا كل الغرابة » •

فقال : « اجل ، مسز روتشيستر ، مسز روتشيستر الشابـــة ، عروس فيرفاكس روتشيستر » •

ـ « هذا لا يمكن ان يكون ابدا ، يا سيدي • انه لا يبدو محتملا • ان البشر لا يستمتعون بالسعادة الكاملة في هذا العالم • ولم اخلق انا لقَدر غير القدر الذي كتِب على سائر بنات جنسي • وان التفكير في ان الســـعادة مقدرة لي هو مجرد حديث خرافة ••• مجرد حلم من احلام اليقظة » •

ـ « حلم استطيع ان احققه ، ولسوف احققه • اني سأبدأ اليــــوم بالذات ، فقد كتبت الى المصرف الذي اعامله في لندن اسألـــه ان يبعث الي ببعض الجواهر المودعة عنده ـ ميراث موقوف على سيدات ثورنفيلد • ولن ينقضي يوم او يومان ، في ما ارجو ، حتى انثرها في حِجْرك • ذلك بأنــي

سوف اخصك بمختلف ضروب الامتياز والعناية التي يجدر بي ان اخص بها بنت لورد من اللوردات لو كنت على وشك الزواج منها » ٠

ـ « اوه ، يا سيدي ! دعنا من الجواهر ! انا لا احب الاستماع الى حديثها ٠ جواهر لجين ايير ؟ ان هذا ليبدو شيئا غريبا ٠٠٠ شيئا غير طبيعي ٠ انا اؤثر ان لا افوز بها » ٠

ـ « سوف اطوق جيدك ، بنفسي ، بالعقد الماسي ، ولسوف اكلل جبينك بالتاج ، الذي سيكون لائقا به ، لان الطبيعة ، على الاقل ، قد دمغت هذا الجبين ، بطابع نبلها ، يا جين ، ولسوف اشبك الاساور حول هذين المعصمين الرائعين ، واثقِل بالخواتم هذه الاصابع الشبيهة بأصابع الجنيات » ٠

ـ « لا ، لا ، يا سيدي ! فكر في موضوعات اخرى ، وتحدث عن اشياء اخرى ، باسلوب آخر : لا تخاطبني وكأنني امرأة بارعة الجمال ٠ انا لا اعدو ان اكون تلك المربية الكويكرية الدميمة العاملة في خدمتك » ٠

ـ « انت بارعة الجمال في ناظريَّ ، وبارعة الجمال على النحو الذي يشتهيه فؤادي تماما : رقيقة واثيرية » ٠

ـ « تعني ضئيلة الجسم ، تافهة ٠ انت تحلم ، يا سيدي ، والا فانت تسخر ٠ اسألك بحق الله ان لا تتهكم علي » ٠

فأردف قائلا ، بينا ضقت ـ في الواقع ـ ذرعا بالاسلوب الذي اصطنعه ، لاني استشعرت انه قصد بذلك الى احدى غايتين ، اما ان يخدعني واما ان يخدع نفسه : « ولسوف احمل العالم على الاعتراف بك امرأة بارعة الجمال ، ايضا ٠ وسألبس حبيبتي جين ثياب الاطلس والدانتيل ، واشكل شعرها بالورود ٠ وساحجب الوجه الذي احبه اعظم الحب بخمار نفيس لا يقوَّم بمال » ٠

ـ « وعندئذ لن تعرفني ، يا سيدي ، ولن اعود محبوبتك جين ايير ، ولكن قردة في ثياب مهرج ٠٠٠ زريابا ※ في ريش مستعار ، ولسوف اراك وشيكا ، يا مستر روتشيستر مثقل الجسم بالزخارف المسرحية ، كما ارى نفسي رافلة في ثوب سيدة من سيدات البلاط ٠ انا لا ازعم انك وسيم ، يا سيدي ، برغم اني اهيم بك حبا ٠٠٠ اهيم بك الى حد يتعذر علي معه ان أتملقك ٠ فلا تتملقني » ٠

بيد انه تابع الضرب على الوتر نفسه ، غير حافل بتوسلي : « واليوم بالذات سوف اصحبك في العربة الى ميلكوت اذ يتعين عليك ان تختاري لنفسك بعض الفساتين ٠ ولقد قلت لك اننا سنتزوج في مدى اربعة اسابيع ٠ ولسوف يتم الزفاف في سكينة وهدوء ، في الكنيسة القائمة هناك ، ومن ثم سأمضي بك ، في الحال ، الى لندن ٠ وبعد مُقام وجيز في رحابها سأحمل

※ الزرياب ، او ابو زريق ، اسم طائر ٠ (المعرب)

كنزي الى بقاع هي الى الشمس اقرب : الى كروم العنب الفرنسية والسهول الايطالية • ولسوف ترى هناك كل ما هو شهير في التاريخ القديم وفي الحقبة الحديثة • ليس هذا فحسب ، بل انها سوف تتذوق شيئا من حياة المدن ، وتتعلم كيف تقوِّم نفسها بمجرد المقارنة مع الاخريات » •

ــ « وهل سأسافر ؟••• ومعك انت ، يا سيدي ؟ »

ــ « سوف تنزلين في باريس ، ورومة ، ونابولي ، وفي فلورنسة ، والبندقية ، وفيينا : جميع الديار التي طوفتُ انا فيها سوف تطوفين فيها انت ، وايما ارض وطئتها انا بحافري سوف تطئينها انت ايضا بقدمك الرقيقة الجديرة بحورية من الحوريات • قبل عشر سنوات اندفعت اجوب ارجاء اوروبة كالمجنون ، و في نفسي تقزز وكراهية وغيظ كالتي في نفوس رفاقي ، واليوم سوف اعاود زيارتها وقد شُفيت وتطهرت ، وبرفقتي ملاك حقيقي يدخل البهجة على قلبي » •

وضحكت منه حين قال ذلك • واكدت : « انا لست ملاكا ، ولن اكون ملاكا حتى يدركني الموت : سوف اكون ما انا ، يا مستر روتشيستر ، وعليك ان لا تتوقع مني ، وان لا تقتضيني ، ايما شيء سماوي ــ لانك ان فعلت لم توفق الى الفوز به اكثر من توفيقي الى الفوز بأيما شيء سماوي منك ، وهو شيء لست اتوقعه البتة » •

ــ « وماذا تتوقعين مني ؟ »

ــ « لعلك ان تظل ، طوال فترة يسيرة ، كما انت الان ، ــ اقول طوال فترة يسيرة ، ومن ثم ستصبح فاترا ، وبعد ذلك ستصبح حوَّلا قُلَّبا ، ثم ستصبح متجهم الوجه ، ولسوف القى عسرا بالغا في ارضائك : ولكنك قد ترغب فيَّ من جديد بعد ان تألفني جيدا ••• اقول « قد ترغب فيَّ » ، لا « قد تحبني » • انا احسب ان حبك سوف يحتفظ بمحيَّاه ستة اشهر ، او اقل • فقد لاحظت في الكتب التي الَّفها الرجال ان هذه المدة تعتبر حدا اقصى لاحتفاظ الزوج بحماسته واتقاد حبه • ومع ذلك فانا ارجو ، بوصفي صديقة ورفيقة ، ان لا اصبح في ايما يوم من الايام بغيضة ، بكل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من معنى ، الى قلب سيدي العزيز » •

ــ « بغيضة ! وارغب فيك من جديد ! الذي احسبه اني سوف ارغب فيك ابد الدهر • ولسوف احملك على الاعتراف بأني لا اكتفي بمجرد الرغبة، بل اعدو ذلك الى الحب ــ الى الحب الصادق ، المتقد ، السرمدي »

ــ « ولكن •• الست ذا طبع حوَّل قُلَّب ، يا سيدي ؟ »

ــ « انا الشيطان نفسه في معاملتي للنسوة اللواتي لا يرضينني الا بوجوههن ، عندما اكتشف انهن لا يملكن لا ارواحا ولا قلوبا ••• عندما يفتحن امامي عالما من الرتابة ، والتفاهة ، وربما من البلاهة ، والجلافة ، والنزق • اما بالنسبة الى العين الصافية ، واللسان الفصيح ، بالنسبة الى الروح التي خلِقت من نار والخُلُق الذي ينثني ولكنه لا ينكسر ••والذي يتميز

باللیونة والرسوخ ، والوداعة والتماسك ، في آن معا ، فأني ابد الدهر رقيق القلب صادق الود » ٠

ـ « هل خبرتَ مثل هذا الخلق ، ذات يوم ، يا سيدي ؟ هل سبق لك ان احببت امرأة تتحلى بمثل هذا الخلق ؟ »

ـ « انا احب واحدة الان » ٠

ـ « ولكن هل احببت مثل هذه المرأة قبلي ٠٠٠ اذا صح اني احقق ، باي وجه من الوجوه ، هذا المثل الاعلى العسير الذي اتخذته لنفسك ؟ »

ـ « انا لم ألق في ايما يوم من عمري نظيرا لك ٠ جين ، انك تعجبينني ، وتهيمنين علي ـ انت تظهرين وكانك مذعنة ، واني لاحب حس الطواعية الذي توحين به ٠ وفيما انا افتل الخصل الحريرية الناعمة حول اصبعي توقع هذه الخصل في ذراعي ارتعاشة لا تلبث ان تسري الى فؤادي ٠ اني اشعر اني خاضع لسلطان قاهر ، واني مغلوب على امري ، وهذا السلطان هو اعذب من ان اقوى على التعبير عنه ، وان لهذه الغلبة التي استشعرها لسحرا دونه سحر ايما نصر استطيع ان احرزه ٠ لماذا تبتسمين ، يا جين ؟ وما معنى هذه الاسارير الساذجة الممتنعة على التفسير ؟ »

ـ « كنت افكر ، يا سيدي ، (ولسوف تغفر لي هذه الفكرة ، لقد كانت لا ارادية) كنت افكر في هرقل وشمشون وفاتنتيهما » ٠

ـ « لقد كنتِ ، ايتها العفريتة الصغيرة ٠٠٠ »

ـ « صه ، يا سيدي ! انك تتحدث الان حديثا تعوزه الحكمة بقدر ما اعوزت الحكمة هذين الرجلين في تصرفاتهما ٠ وعلى أية حال ، فلو قد كانا متزوجين اذن لعوّضا من غير ريب ، بقسوتهما كزوجين ، عن رقتهما كعاشقين ٠ وكذلك سوف تكون حالك ، في ما اخشي ٠ واني لاتساءل اي جواب يخلق بي ان افوز به منك لو سألتك ، بعد عام واحد ، ان تسدي الي منّة لا يلائمك او لا يسرك اسداؤها الي ؟ »

ـ « اسأليني شيئا الان ، يا جانيت ٠٠٠ اسأليني اقل شيء ٠ انا احب ان ارى الناس يتوسلون الي ٠٠٠ »

ـ « سوف افعل ، من غير ريب ٠ لقد اعددت عريضتي » ٠

ـ « تكلمي ! اما اذا اكتفيت بالدنو الي وبالابتسام بهذه الملامح فسأقسم لاجيبنك الى سؤلكِ قبل ان اعرف ماهيته ، وهذا ما يظهرني بمظهر الرجل المغفل » ٠

ـ « معاذ الله ، يا سيدي ٠ انا لا اسألك غير شيء واحد : لا تبعث في طلب الجواهر ، ولا تتوجني بالورود ٠ وفي استطاعتك في الوقت نفسه ان تطوق هذا المنديل البسيط الذي تحمله بحاشية من خيوط ذهبية » ٠

ـ « في استطاعتي ايضا ان اذهّب الذهب الخالص ٠ انا اعرف هذا ٠ ان مطلبك اذن مجاب ، مؤقتا على الاقل ٠ سوف اسحب التعليمات التي اصدرتها الى البنك الذي اعامله ٠ ولكنك لم تسأليني حتى الان شيئا ، كل ما فعلته هو انك توسلت الي ان اعفيك من هدية اعتزمت تقديمها اليك ٠

جربي مرة ثانية » .
ـ « حسنا ، اذن ، يا سيدي ، تكرّم باشباع فضولي الـذي تثيره ، اشد ما تكون الاثارة ، نقطة بعينها » .
فبدت على وجهه امارات القلق ، وسارع الى القول : « ماذا ؟ مـــاذا ؟ الفضول عريضة خطرة ، لقد احسنت صنعا اذ لم آخذ على نفسي عهـــــدا بأجابتك الى اي مطلب ... »
ـ « ولكن اجابتي الى مطلبي هذا لا يمكن ان تنطوي على خطر مـــا ، يـــا سيدي » .
ـ « صرحي به ، يا جين . ولكني اتمنى لو تطلبين الي التنازل عـــن نصف اقطاعتي بدلا من ان تسأليني ـ فمن يدري ؟ ـ عن سر من الاسرار » .
ـ « كفى ايها الملك احشويروش ❋ ! ما حاجتي الى نصف اقطاعتك ؟ اتحسبني مرابيا يهوديا يبتغي تثمير ثروته في الاراضي تثميرا ناجحا ؟ اني لأوثر الف مرة ان احظى بثقتك . انك لن تخرجني من رحاب ثقتك اذا مـــا ادخلتني الى رحاب قلبك ، اليس كذلك ؟ »
ـ « مرحبا بك في دنيا ثقتي الكاملة التي ارجو ان تكون جديرة بـــأن يُسعى الى اكتسابها يا جين . ولكن بحق الله لا ترغبي في عبء غير مفيد ! لا تتوقي الى سم ... لا تنقلبي الى مجرد حواء كل همها تعذيبي ! »
ـ « ولم لا ، يا سيدي ؟ لقد حدثتني منذ لحظات عن مدى الارتيـــاح الذي تستشعره كلما فكرت في انك مغلوب على امرك ، وعن مدى العذوبة التي تجدها في الانقهار . الا ترى ان من الخير لي ان افيد من هذا الاعتراف فأشرع في التملق والتوسل ـ بل في البكاء والتجهم اذا اقتضى الامر ذلك ـ ابتغاء القيام بمجرد تجربة لسلطاني ؟ »
ـ « اني اتحداكِ ان تقومي بمثل هذه التجربة . تطاولي ، تعـدّي ، فلن تلبث الخطة ان تفشَل » .
ـ « اتظن ذلك ، يا سيدي ؟ انك لتلقي السلاح بسرعة بالغة . لشد ما يغلب التجهم على وجهك ، الان ! لقد امسى حاجباك في مثل كثافة اصبعي . وان جبينك ليشبه ما عبر عنه بعض الشعراء ، في قصيدة له مدهشة جدا ، بقوله : « صاعقة مشحونة بنيران جهنم » . هل ستكون هذه هي ملامـــح وجهك ، بعد الزواج ، يا سيدي ؟ »
ـ « لو كانت هذه هي ملامح وجهك **أنت** ، بعد الزواج ، اذن لسارعت ، بوصفي مسيحيا ، الى اطراح فكرة الاقتران من مجرد غول او عنقاء . ولكن ما الذي تريدين ان تسأليني اياه ، ايتها المخلوقة ؟ افصحي ! »
ـ « ها انت الان اقلّ كياسة . اني لأوثر الجلافة، الف مرة، على التملق .

❋ ملك من ملوك الفرس القدماء ، كان زوج « أستير » اليهوديـــة وله معها قصة معروفة مروية في الكتاب المقدس . (المعرب)

وافضل ان اكون « مخلوقة » على ان اكون « ملاكا » . هذا ما اريد ان اسألك اياه : لماذا بذلت كل تلك الجهود لحملي على الاعتقاد بأنك راغب في الزواج من مس اينغرام ؟ »

ـ « اهذا كل شيء ؟ احمد الله على انك لم تسأليني سؤالا اسوأ ! » وهنا حل عقدة حاجبيه الاسودين ، وخفض بصره ، مبتسما لي ، وداعب شعري وكأنما سره ان يرى الى نفسه وقد اجتنب خطرا محدقا . ثم اردف قائلا : « احسب ان في ميسوري ان اعترف ، حتى ولو افضى ذلك الى اثارة سخطك ، يا جين ... ولقد سبق لي ان رأيت كيف تلتهبين التهابا حين يشتد بك السخط . لقد انفعلت غاية الانفعال ، في ضوء القمر البارد ، الليلة البارحة ، عندما تمردت على القدر وزعمت ان منزلتك تضارع منزلتي . وبالمناسبة ، انك انت التي اقترحت علي ذلك ، يا جانيت » .

ـ « لقد فعلت ، من غير ريب . ولكن فلنعد الى الموضوع ، من فضلك ، يا سيدي . حدثني عن مس اينغرام ... »

ـ « حسنا ، لقد تظاهرت بمغازلة مس اينغرام ، لاني اردت ان اجعلك متيمة بحبي بقدْر ما كنت متيما بك ، وكنت اعلم ان الغيرة هي خير حليف استطيع ان استعين به على بلوغ تلك الغاية » .

ـ « ممتاز ! انك الان لصغير جدا ... انك في حجم انملة خنصري تماما . لقد كان من العار اللاهب والخزي الفاضح ان تتصرف على هذا النحو . الم تفكر قط بمشاعر مس اينغرام ، يا سيدي ! »

ـ « ان مشاعرها تتركز حول شيء واحد : ـ التكبر . والتكبر يقتضي اذلالا . هل استبدت بك الغيرة آنذاك ، يا جين ؟ »

ـ « دع عنك ذلك ، يا مستر روتشيستر . فليس مما يهمك بأية حال ، ان تعرف ذلك . اجبني في صدق كرة اخرى . اتحسب ان مس اينغرام لن تتألم لغزلك الكاذب ؟ ألن تستشعر انك قد هجرتها وتخليت عنها ؟ »

ـ « مستحيل ! والواقع انها هي التي تخلت عني ، كما اخبرتك من قبل . لقد كان في مجرد توهمها اني مفلس ما برد نارها ، بل ما اخمدها ، في لحظة واحدة » .

ـ « ان لك عقلا عجيبا ماكرا ، يا مستر روتشيستر . واني لاخشى ان تكون مبادئك ، في ما يتصل ببعض القضايا ، غريبة شاذة »

ـ « ان مبادئي لم تعرف في ايما يوم من الايام اي تثقيف او تهذيب . ولعلها قد انحرفت بعض الشيء بسبب من الاهمال » .

ـ « انبئني ، كرة اخرى ، في جد : هل اطمع في الاستمتاع بالخير العظيم الذي اسبغ علي من غير ان اخشى ان تقاسي امرأة اخرى ذلك الالم المرير عينه الذي استشعرته انا منذ فترة يسيرة ؟ »

ـ « في استطاعتك ان تطمئني من هذه الناحية ، يا فتاتي الصغيرة الطيبة ، فليس في العالم كله مخلوقة اخرى تكنُّ لي ما تكنينه انت لي من

حب محض ـ ذلك بأني امسح روحي بهذا البلسم العذب ، يا جين ، بلسم الايمان بحبك » .

وحولت شفتيّ الى اليد الملقاة على كتفي . لقد احببته حبا عارما ... اكثر مما استطيع ان افصح ... اكثر مما في طاقة الكلمات ان تعبر عنه .

وسرعان ما قال : « اسأليني شيئا اخر ، اني ليُبهجني ان اراك تتوسلين الي وان اسارع الى النزول عند ارادتك » .

وكنت هذه المرة ايضا قد اعددت مطلبي ، فقلت : « « أشْعِرْ مسز فيرفاكس بما اعتزمت عليه ، يا سيدي . لقد رأتني معك ، الليلة البارحة ، في الردهة ، فكان في ذلك صدمة لها . قدم اليها تفسيرا ما ، قبل ان التقيها من جديد . انه ليؤلمني ان تخطىء في الحكم عليّ امرأة في مثل صلاحها وطيبتها » .

فأجابني : « امضي الى حجرتك ، واعتمري بقلنسوتك . انا اريدك ان ترافقيني الى ميلكوت هذا الصباح . وسأعمد ، فيما تستعدين انت للرحلة ، الى احاطة السيدة العجوز علما بكل شيء . هل ظنت ، يا جانيت ، انك تخليت عن العالم كله في سبيل الحب ، وانك اخذت تنظرين اليه نظرتك الى شيء مفقود ؟ »

ـ « احسب انها ظنت اني نسيت مركزي ونسيت مركزك ، يا سيدي » .

ـ « مركز ! مركز !... ان مركزك لفي قلبي ، وفوق اعناق اولئك الذين قد يهينونك اليوم او غدا ... اذهبي » .

وسرعان ما ارتديت فستاني . حتى اذا سمعت مستر روتشيستر يغادر حجرة مسز فيرفاكس ، هبطت اليها في سرعة . وكانت السيدة العجوز تتلو نصيبها الصباحي من الكتاب المقدس ، وكان الكتاب المقدس مفتوحا امامها ونظارتاها فوقه . لقد بدت وكأنها قد نسيت ، الان ، ما كانت تؤديه من فريضة بعد ان ابلغها مستر روتشيستر ما سعى لابلاغها اياه : كانت عيناها ، المثبّتتان على الجدار العاري تجاهها ، تعبران عن دهش عقل وادعٍ استثارته انباء غير عادية . وحين بَصُرَتْ بي انتزعت نفسها من غمرة الشرود الذهني ، وبذلت بعض الجهد لتبتسم ، وصاغت بعض كلمات التهنئة . ولكن ابتسامتها ما لبثت ان تلاشت ... وأهملت الجملة قبل اكتمالها . لقد وضعت نظارتيها على عينيها ، وطوت الكتاب المقدس ، وابعدت مقعدها شيئا ما عن المنضدة .

ثم استهلت كلامها بالقول : « ان الدهش ليعصف بي ، واني لا اكاد ادري ما الذي يتعين علي ان اقوله لك ، يا مس ايير . انا لم اكن في حُلم ، من غير ريب . هل كنت في حلم ؟ انه ليتفق لي في بعض الاحيان ، وانا قاعدة وحدي ، ان تأخذني سِنة من النوم فأتصور اشياء لم تحدث في ايما يوم من الايام . لقد بدا لي غير مرة ، وانا في مثل تلك السِنة ، ان زوجي العزيز الذي التحق بالرفيق الاعلى منذ خمس عشرة سنة قد وفد علي وقعد بجانبي ، ليس هذا فحسب ، بل لقد بدا لي اني سمعته يناديني باسمي ، آليس ،

كشأنه في الايام الخالية . والآن ، قولي لي هل صحيح ، حقـا ، ان مستر روتشيستر طلب يدك ؟ لا تسخري مني . ولكني اعتقدت فعلا آنه اقبل الى هنا منذ خمس دقائق وقال انك سوف تصبحين له زوجة بعد شهر واحد . »

فأجبتها : « لقد قال لي الشيء نفسه . »

ـ « لقد فعل ! هل تصدقينه ؟ هل قبلتـهِ بعلا ؟ »

ـ « نعـــم . »

فنظرت الي مشدوهة ثم قالت : « لم يقم ذلك في وهمي في اي يوم من الايـام . انه رجل متكبر . لقد كان آل روتشيستر كلهم متكبرين ، وكان ابوه ، على الاقل ، يحب المال . وهو نفسه معروف بشدة الحذر . اذن فهو ينوي الزواج منك ؟ »

ـ « هذا ما يقوله لي » .

ونظرت الي من قمة رأسي الى اخمص قدمي . ولقد قرأت في عينيها ما يفيد انهما لم تقعا عندي على ايما سحر قادر على حل الاحجية .

ثم اردفت قائلة : « ذلك شيء يعدو قدرتي على التصـديـق . ولكنه صحيح من غير ريب ما دمت تقولين ذلك . اما كيف سينجح في ما اعتـزم عليه فهذا ما لا استطيع التنبؤ به ... انا في الواقع لا ادري . ان التكـافؤ في المركز والثروة كثيرا ما يكون مستصوَبا في مثل هذه الحالات . ثم انه اكبر منك بعشرين سنة . انه يكاد يكون في سن ابيك » .

فهتفت ، مغيظة : « لا ، لا ، يا مسز فيرفاكس ! انه ليس في سن ابي . وما من احد يرانا معا يتوهمه كذلك ولو لحظة واحدة . ان مستر روتشيستر ليبدو في مثل نضرة بعض الشبان الذين لم يجاوزوا الخامسة والعشرين ، بل انه لفي مثل نضرتهم . »

فسألتني : « هل صحيح انه سوف يتزوجك بدافع من الحب ؟ »

وجرحني برودها وارتيابها حتى لقد طفرت الدموع الى عينيّ .

فتابعـت الارملة : « يؤسفني ان احزنـك ، ولكني اردت ان احذّرك بوصفك فتاة في مقتبل العمر ... فتاة لا علم لها بالرجال . هنـاك مثـل قديم يقول : « ما كل ذي بريق ذهبا » . واني لاخشى ، في هـــذه الحالة الحاضرة ، ان يُكتَشف شيء مغاير لما تتوقعينه انت او لما اتوقعه انا . »

فقلت : « عجبا ! وهل انا مسخ او هولة ؟ ايكون من المتعذر على مستر روتشيستر ان يضمر لي حبا صادقا ؟ »

ـ « لا ، ان الجمال لا يعوزك ، ولقد تحسّنتِ في الفترة الاخيرة تحسنا كبيرا . وفي ميسوري القول ان مستر روتشيسترَ مولع بك . لقـد لاحظت دائما انك كنت مدلّلته او شيئا من هذا القبيل . ولقـــد عبرت بي ساعات استشعرت فيها بعض الجزع عليك بسبب من تفضيله اياك تفضيلا صارخا ، فرغبت في تحذيرك ، ولكني لم احـب ان اوحي اليـك حتى بان ثمة امكانية شر . لقد عرفت ان هذه الفكرة خليق بها ان تروعك ، بل ان تغضبك ، ولكنك

كنت من الحصافة ومن شدة الاحتشام والحساسية بحيث اعتقدت ان في ميسورك ان تحمي نفسك بنفسك · ولا استطيع ان اصف لك كم قد تألمت ، الليلة البارحة ، عندما بحثت عنك في ارجاء القصر كله فلم اجدك في اي مكان ، ولم اجد سيد القصر ايضا ، وعندما رأيتك بعد ذلك في الساعة الثانية عشرة وقد دخلت القصر معه · »

فقاطعتها بفروغ صبر : « حسنا ، دعي عنك ذلك الان · بحسبك انك علمت ان كل شيء كان حسنا · »

فقالت : « ارجو ان يكون كل شيء حسنا في النهاية ، ولكن صدقيني اذا قلت لك ان المغالاة في الحذر تظل امرا مرغوبا فيه · حاولي ان تبقي مستر روتشيستر على مبعدة : ارتابي في نفسك وارتابي به ايضا ، فالرجال الذين ينسبون الى مثل طبقته الاجتماعية لم يتعودوا الزواج من مربيات اولادهم » ·

كان الغيظ قد قد شرع يستبد بي حقا · وفي هذه اللحظة اندفعت آديل ، لحسن الطالع ، ودخلت علينا صائحة : « دعيني اذهب ··· دعيني اذهب انا ايضا الى ميلكوت · لقد ابى مستر روتشيستر علي ذلك ، برغم ان في العربة الجديدة متسعا كبيرا · توسلي اليه ان يجيز لي الذهاب ، يا مدموازيل ! »

ـ « سأفعل ذلك ، يا آديل » واسرعت الى مغادرة الحجرة معها ، سعيدة بفراق مرشدتي الكئيبة · كانت العربة معدة ، وكانوا يدفعونها الى واجهة القصر ، وقد راح سيدي يذرع المجاز المعبَّد جيئة وذهوبا ، وكلبه « بايلوت » يتبعه في غُدوه ورواحه ·

ـ « في استطاعة آديل ان ترافقنا ، اليس في استطاعتها ذلك يا سيدي ؟ »

ـ « لقد قلت لها لا · انا لا اريد ان اصطحب اطفالا ··· انا لن اصطحب احدا غيرك » ·

ـ « اسمح لها بالذهاب ، يا مستر روتشيستر ، ارجوك · ان ذلك افضل » ·

ـ « على العكس ، انها سوف تقيد حريتنا » ·

كانت ملامحه وصوته تنم عن جَزْم لا لبس فيه · وكانت تحذيرات مسز فيرفاكس وشكوكها لا تزال توقع الرعدة في اوصالي : لقد اوهن آمالي بعض التردد واللايقين ، واستشعرت اني فقدت ، او كدت ، حس السيطرة عليه · وكنت على وشك الاذعان له على نحو آلي ، من غير مزيد من الاعتراض والاحتجاج ، ولكنه لم يكد يساعدني على الصعود الى العربة ويرى الى وجهي حتى سألني : « ما بالك ؟ لقد زايلك الاشراق كله · اترغبين في اصطحاب هذه الطفلة حقا ؟ ايزعجك ان نخلّفها هنا ؟ »

ـ « اني لأؤثر ان تذهب معنا ، يا سيدي » ·

فصاح موجها الخطاب الى آديل : « اذن انطلقي التماسا لقبعتك ثم

ارجعي بمثل سرعة البرق » .

فامتثلت امره بأقصى ما وفقت اليه من اسراع .

وقال : « ليس ثمة على اية حال كبير بأس في هذا الازعاج يلم بنا صباح اليوم ما دام ازعاجا مفردا لن يتكرر وما دمت اعتزم ان استأثر بك قريبا - ان استأثر بأفكارك ، وبحديثك ، وبرفقتك - مدى الحياة » .

ولم تكد آديل تُرفع الى العربة حتى شرعت تقبلني كتعبير عن شكرها لي على الوساطة التي قمت بها من اجلها . ولكن مستر روتشيستر سرعان ما ردها عني مُقعدا اياها في زاوية ما بجانبه من الناحية الاخرى . فراحت تختلس النظر الى حيث كنت اجلس ، فخليق بمثل جارها المتجهم ان يفرض على حريتها قيودا اثقل مما ينبغي : انها لم تجرؤ ، وقد قرأت في وجهه معاني الشكاسة ، على الهمس في اذنه بأية ملاحظة ، او على سؤاله اي ايضاح .

فتوسلت اليه : « « دعها تجلس في جانبي . انا اخشى ان تزعجك ، يا سيدي . ان ثمة متسعا كبيرا في هذه الناحية » .

فرفعها واسلمها الي وكأنها كلب صغير . وقال : « ومع ذلك ، فسوف ارسلها الى المدرسة » . ولكن فمه افتر الان عن ابتسامة .

وسمعته آديل ، فسألته : « وهل سأذهب الى المدرسة بدون المدموازيل ؟ »

فأجابها : « اجل . بدون المدموازيل ، تماما . ذلك بأنني سوف آخذ المدموازيل الى القمر ، وهناك سوف ابحث عن غار في احد الاودية البيضاء بين قمم البراكين ، ولسوف تعيش المدموازيل معي هناك ، ومعي وحدي » .

فلاحظت آديل : « ولكنها لن تجد ثمة ما تأكله . انك سوف تجوعها » .

- « سوف اجني لها المن صباح مساء . ان المن ليغطي سهول القمر وسفوح هضابه بطبقة بيضاء لا نهاية لها ، يا آديل » .

- « ولكنها سوف تضطر الى تدفئة نفسها . فمن اين تأتي بالنار ؟ »

- « ان الجبال القمرية لتنفث نارا حامية . فاذا ما استشعرت البرد حملتها الى احدى القمم ووضعتها على حافة فوهة من فوهات البراكين » .

- « اوه ، لشد ما سيكون ذلك سيئا ، بعيد عن الرفه ! وثيابها ؟ انها سوف تبلى من غير ريب ، فأنى لها ان تفوز بثياب جديدة ؟ »

- وتظاهر مستر روتشيستر بالانشداه . وقال : « هممم ! وما الذي تفعلينه انت يا آديل لو وجدت نفسك في مثل ذلك الموقف ؟ اقدحي زناد فكرك بحثا عن وسيلة . اليس في استطاعتها ان تتخذ من احدى السحائب البيضاء او القرنفلية فستانا ؟ ان المرء قد يوفق هناك الى ان يفصل من قوس قزح وشاحا عريضا » .

فقالت آديل بعد ان فكرت في الامر بعض الشيء : « انها كما هي الان احسن حالا بكثير ، والى هذا ، فان العيش معك وحدك في القمر لا بد ان يوقع السأم في نفسها . ولو كنت انا مكان المدموازيل لما رضيت بالذهاب معك

البتة » .

ـ « ولكنها قد رضيت . لقد عاهدتني على الذهاب » .

ـ « ولكنك لا تستطيع ان تحملها الى هناك ، فليس ثمة ايما طريق الى القمر . ان الفضاء ليفصلكما عنه ، وليس في ميسور اي منكما ان يطير » .

ـ « آديل ، انظري الى ذلك الحقل ! » كنا الان خارج ابواب ثورنفيلد ، وكانت العربة تَدْرُجُ بنا في رفق فوق الطريق الملساء المفضية الى ميلكوت ، حيث كانت العاصفة الراعدة قد نشرت بساطا من غبار ، وحيث كانت الاسيجة الخفيضة والادواح السامقة ، على كلا الجانبين ، تتألق خضراء كساها المطر ، من جديد ، لباس النضارة .

ثم اضاف : « في ذلك الحقل ، يا آديل ، كنت امشي ذات مساء ، قبل اسبوعين اثنين ـ مساء ذلك اليوم الذي ساعدتني فيه على جمع العشب اليابس في مروج البستان . حتى اذا غلب علي التعب ، جلست التماسا للراحة فوق سلم سياج . وهناك اخرجت من جيبي دفترا صغيرا وقلما ، وشرعت اصف بلاءً المَّ بي منذ عهد بعيد واعبر عن تطلعي الى ايام سعيدة في المستقبل . وفيما كنت اكتب في سرعة بالغة ، برغم هبوط الليل ، سمعت وطء قدمي مخلوقة تمشي في الطريق ، لتقف على مبعدة ياردتين اثنتين مني . ونظرت اليها . كانت مخلوقة صغيرة على رأسها خمار رقيق من شاش . واومأت اليها ان تقترب مني ، وسرعان ما وقفت عند ركبتي . انا لم اتحدث اليها قط ، وهي لم تتحدث الي بلغة الكلام ، ولكني قرأت افكارها في عينيها ، وقرأت افكاري في عيني ، وهذه هي ترجمة حديثنا غير الملفوظ :

ـ « لقد قالت انها جنية اقبلت من ارض الجنيات ، وانها مكلفة بأسعادي ، وان علي ان انفذ معها من اقطار العالم المعروف الى مكان منعزل ـ الى القمر مثلا ـ واومأت برأسها نحو احد قرْني الهلال ، المرتفع فوق هضبة « هاي » ، وحدثتني عن الكهف المرمري وعن الوادي الفضي الذي سنعيش فيه . فقلت اني احب ان امضي الى هناك ، ولكنها ذكرتني ـ كما فعلت انت ـ بأنني لا املك جناحين استعين بهما على الطيران .

« ثم ان الجنية قالت : « اوه ، هذا لا يهم ! دونك هذا الطِلّسم الذي يذلل العقبات جميعا » . وقدمت الي خاتما ذهبيا جميلا وقالت : « البسه في بنصر يدك اليسرى ، وعندئذ اصبح انا ملكك وانت ملكي . ولسوف نغادر الارض وننشيء جنتنا الخاصة هناك » . ثَم انها اومأت نحو القمر كرة اخرى . آديل ، ان الخاتم في جيب بنطلوني متنكرا في صورة ليرة ذهبية ، ولكني اعتزم ان احوله عما قريب الى صورته الاولى ... الى خاتم » .

ـ « ولكن ما علاقة المدموازيل بذلك ؟ انا لا ابالي بالجنية .. لقد قلت انك تريد ان تأخذ المدموازيل ، لا اي كائن اخر ، الى القمر ... »

فقال في همس مُلْغَز : « المدموازيل جنية » . وهنا سالتها ان لا تلقي بالا الى مزاحه ، وتكشفت هي ، بدورها ، عن ذخيرة من الارتياب الفرنسي

الاصيل ، ناعتة مستر روتشيستر بـ « الكذاب الحقيقي » ، ومؤكدة له انها لم تبال قط بحكاياته عن الجنيات ، وانه ليس ثمة ـ على اية حال ـ جنيات البتة ، وحتى لو كان ثمة جنيات فلا ريب عندها في انهن لا يظهرن له هو ، ولا يمكن ان يقدمن اليه خواتم او يبدين رغبتهن في العيش معه في القمر ٠

كانت الساعة التي قضيناها في ميلكوت مزعجة لي بعض الشيء ٠ فقد اكرهني مستر روتشيستر على الذهاب الى احد مخازن المنسوجات الحريرية حيث اصدر امره الي باختيار نصف دزينة من الفساتين ٠ وكرهت هذه المسألة ، وتوسلت اليه ان يسمح لي بارجائها ، فأصر على ضرورة انجازها في الحال ٠ وبفضل موجة من الضراعات التي عبرت عنها في همسات مشبوبة وُفقتُ الى انقاص عدد الفساتين من ستة الى اثنين ، بيد انه ابى الا ان يختار هذين الفستانين بنفسه ٠ وفي قلق ، رحت اراقب عينه وهي تطوّف في ارجاء المخزن ، ليثبتها اخر الامر على قطعة حريرية غالية ذات لون شديد التألق احمر ضارب الى الزرقة ، وعلى قطعة نفيسة من الاطلس القرنفلي ٠ فقلت له ، في سلسلة جديدة من الهمسات ـ ان في ميسوره ان يشتري لي ايضا جلبابا ذهبيا وقبعة فضية في الحال ، ولكني لن اغامر في ايما يوم من الايام بارتداء ما اختاره لي ٠ وفي صعوبة لا نهائية ـ فقد كان عنيدا كجلمود صخر ـ اقنعته بأن يستعيض عن هاتين القطعتين بقطعة من الاطلس الاسود الرصين وبأخرى من الحرير الرمادي الضارب لونه الى لون اللؤلؤ ٠ فقال : « سوف اسايرك هذه المرة ، ولكني مع ذلك احب ان اراك تتألقين مثل حوض من احواض الزهور » ٠

وسعدت بمغادرة مخزن المنسوجات الحريرية ثم بمغادرة محل خاص ببيع الجواهر ٠ كان كلما اسرف في الشراء من اجلي اتقدت وجنتاي بحس من التبرم والمهانة ٠ حتى اذا امتطينا متن العربة من جديد ، واستويت فيها محمومة متعبة تذكرت ما كنت قد نسيته في زحمة الاحداث ، القاتم منها والمشرق ، نسيانا كاملا ، اعني رسالة عمي ، جون ايير ، الى مسز ريد ، التي اعلن فيها عزمه على ان يتبناني ويوصي لي بثروته ٠ وقلت في ذات نفسي : « ان مما يسري عن النفس ، حقا ، ان افوز في يوم من الايام بمثل هذه الثروة الصغيرة ٠ انا لا اطيق البتة ان يكسوني مستر روتشيستر كما تُكسَى الدمى ، او ان اجلس مثل « دانيه » ※ جديدة وغيوث الذهب تنهمر من حولي كل يوم ٠ سوف اكتب الى ماديرا حالما ارجع الى القصر ، واخبر عمي جون باني سوف أتزوج ، وممَّن ٠ فلو قد كان امامي مجرد امل في ان احمل الى مستر روتشيستر بعض الثروة في يوم من الايام فعندئذ يكون في ميسوري ان احتمل ، على نحو افضل ، انفاقه علي الان » ٠ واذ سرَّت هذه الفكرة عني بعض الشيء (هذه الفكرة التي لم اغفل عن تنفيذها ذلك اليوم) فقد تجرأت

※ Danae في الميثولوجيا الاغريقية ، عذراء سجنها والدها ، آكريسيوس ملك آرغوس ، في برج نحاسي،فما كان من زيوس الا ان زارها على صورة غيث منهمر من الذهب٠ (المعرب)

كرة اخرى على النظر الى عيني سيدي وعاشقي ، اللتين التمستا النظر الى عيني في عناد ، برغم اني اجتنبت كلا من وجهه ونظرته ٠ وابتسم ، وبدا لي ان بسمته كانت اشبه بتلك التي قد يغدقها سلطان ، في لحظة من لحظات الحبور والحب ، على جارية كان قد غمرها بذهبه وجواهره ٠ وسحقتُ يده ، التي كانت لا تفتأ تبحث عن يدي ، في قوة وعنف ، ثم رددتها اليه دامية بالضغط الانفعالي ٠٠٠

وقلت : « لا حاجة بك الى النظر الي على هذا النحو ٠ اما اذا فعلت فعندئذ لن ارتدي ، حتى النهاية ، غير ثوبي القديم الذي كنت البسه في لوورد ٠ اني سوف ازف اليك في هذا الثوب القطني المخطط ذي اللون البنفسجي الفاتح ٠ وفي ميسورك انت ان تخيط لنفسك مبذلا (روب دو شامبر) من هذا الحرير الرمادي الضارب لونهُ الى لون اللؤلؤ ، وسلسلة لا نهاية لها من الصدرات من هذا الاطلس الاسود » ٠

فضحك وانشأ يفرك يديه ، ثم هتف : « اوه ! ان في رؤيتها والاستماع اليها لتسلية بالغة ٠ أهي غريبة الاطوار ، أهي قارصة اللسان ؟ الا اني لن اتخلى عن هذه الفتاة الانكليزية الصغيرة ولو اعطِيْتُ مقابلها سراي السلطان التركي الكبير كلها ، بما اشتملت عليه من عيون الغزلان وقامات الحوريات وكل شيء ! »

وآذتني هذه الصورة البيانية المشرقية ، فقلت : « لو كنت جارية من جواري السلطان لما وجدتني ذات نفع لك البتة ٠ واذن ، فكف عن اعتباري مساوية لاحدى هاته الجواري ٠ واذا كانت لك رغبة في ايما شيء من هذا الطراز فاذهب ، يا سيدي ، الى اسواق استانبول في غير ابطاء ، وأنفق في شراء الرقيق ، على نطاق واسع ، بعض هذا الفائض من المال الذي يبدو وكأنك لا تدري كيف تنفقه هنا في صورة مُرْضية » ٠

ــ « وما الذي ستصنيعنه ، يا جانيت ، وانا اساوم على شراء كل هذه الاطنان من اللحم ، ومثل هذه التشكيلة من العيون السود ؟ »

سأكون منصرفة الى اتخاذ الاهبة للضرب في الارض ، كمبشرة من المبشرات ، ابتغاء الدعوة الى تحرير المستعبدين ــ وفي جملتهم جواري حريمك ٠ سوف احتال للدخول الى هناك ، ولسوف اثير حركة تمرد عليك ٠ وعندئذ ستجد نفسك ، ايها الباشا ذو الاذناب الثلاثة ، وقد كُبِّلت يداك ، بمثل لمح البصر ، بالاصفاد ٠ ولن ارضى انا ، ولن يرضى غيري ، ان يحطم اغلالك الا بعد ان توقع « براءةً » ، لم يقدم ايما طاغية الى شعبه ما يضارعها تحررا وسماحة » ٠

ــ « اني لاقبل بأن أكون تحت رحمتك ، يا جين » ٠

ــ « لن يعرف قلبي الرحمة ، يا مستر روتشيستر ، اذا ما التمستها بعين مثل هذه العين ٠ ذلك بأنك اذ تنظر الي هكذا استيقن ان اول عمل سوف تقوم به بعد اطلاق سراحك ، ايا ما كانت « البراءة » التي وقعتها

بالاكراه ، هو انتهاك حرمة احكامها » ٠

ــ « ولكن ما الذي تطمحين اليه ، يا جين ؟ انا اخشى ان تكرهيني على اقامة حفلة زواج خصوصية ، بالاضافة الى تلك التي تقام عند المذبح ٠ ولسوف تفرضين علي ، في ما يخيل الي ، شروطا غريبة ٠٠٠ فما هي هذه الشروط ؟ »

ــ « كل ما اريده ، يا سيدي ، هو الاطمئنان وراحة البال ، وان اجد نفسي غير مثقلة بالالتزامات ٠ اتذكر ما قلته عن سيلين فارينز الفرنسية ؟ ــ عن الحلى الماسية والشالات الكشميرية التي قدمتها اليها ؟ انا لن اكون سيلين فارينز الانكليزية ٠ لا ، بل سأظل اعمل كمربية لآديل ، ومن هذه الطريق سأكسب نفقات قوتي وسكناي ، بالاضافة الى ثلاثين جنيها في العام ٠ ولسوف أجهز خزانة ملابسي بملابس اشتريها بجزء من ذلك المال ، ولن تمنحني انت شيئا غير ٠٠٠ »

ــ « حسنا ، غير ماذا ؟ »

ــ « غير احترامك ٠ واذا ما منحتك انا ، بدوري ، احترامي ، فعندئذ اكون قد وفيتك د َينك هذا » ٠

ــ فقال : « حسنا ، انت فتاة لا نظير لها من حيث الجرأة الفطرية الهادئة ، والغرور الغَرزي المحض ٠ » وكنا الان نقترب من ثورنفيلد ٠ حتى اذا اجتزنا ابوابه الخارجية سألني : « هل يسرك ان تتناولي طعام العشاء معي ؟ »

ــ « لا ، اشكرك يا سيدي » ٠

ــ « واي حاجة الى هذه الـ « لا ، اشكرك » ، اذا كان لامرىء ان يسأل ؟ »

ــ « انا لم اتناول طعام العشاء معك من قبل قط ٠ ولست ارى ايما سبب يدعوني الى ذلك الان : حتى ٠٠٠ »

ــ « حتى ماذا ؟ انك لمولعة بانصاف الجمل » ٠

ــ « حتى لا يعود لي قِبَلٌ بالامتناع » ٠

ــ « اتحسبين اني آكل مثل غول حتى ترتعدي من تناول الطعام على مائدتي ؟ »

ــ « انا لم اكو ّن ايما فكرة عن الموضوع يا سيدي ٠ ولكني اريد ان اقيم على مألوف عادتي شهرا آخر » ٠

ــ « بل ستخلعين نير عبوديتك ، عبودية تربية الاطفال ، في الحال » ٠

ــ « حقا ! التمس عفوك ، يا سيدي ، واقول اني لن افعل ٠ سوف اواصل حمل هذا النير وفقا لما جرت به عادتي ٠ ولسوف ابتعد عن طريقك طوال ساعات النهار ، كما ألِفْتُ ان افعل ٠ وفي ميسورك ان تدعوني الى الاجتماع بك مساء ، حين تؤانس من نفسك رغبة في رؤيتي ، ولسوف افد عليك عندئذ ، ولكني لن افد في ايما وقت آخر » ٠

ــ « اني لاحتاج الى « سجار » ادخنه او الى قبضة سعوط ، لكي اتسلى عن هذا كله ، يا جين ، او « لكي اهدىء اعصابي » كما تقول آديل ٠ ولكني لا احمل ــ لسوء الطالع ــ لا علبة « اسجرتي » ولا صندوق سعوطي ٠ ولكن

اصغي الي : ان الدور هو الان دورك ، ايتها الطاغية الصغيرة ، بيد انه سوف يصبح دوري عما قريب • حتى اذا وُفقتُ الى امتلاكك والاخذ بناصيتك قيدتك ـ بمعنى مجازي ـ بسلسلة مثل هذه » (واشار الى سلسلة ساعته) • « اجل ، ايتها المخلوقة الوسيمة البالغة الصِغر ، سوف احملك في صدري ، خوفا على جوهرتي من الضياع » •

قال ذلك وهو يساعدني على الترجل من العربة • وبينا انهمك بعد ذلك في انزال آديل منها دخلت انا القصر ، وارتقيت السلم منسحبة الى حجرتي في سرعة •

وما ان هبط الليل حتى دعاني الى الاجتماع به • وكنت قد اعددت له مهمة ينصرف الى ادائها ، ذلك باني كنت قد وطدت النية على ان لا انفق الوقت كله في محادثة مقتصرة علينا نحن الاثنين • لقد تذكرت صوته العذب : وكنت اعلم انه يحب ان يغني ، وتلك شيمة جميع البارعين في الغناء • ولم اكن انا نفسي اجيد الانشاد ، بل لم اكن ـ في ذوقه الذي لا يسهل ارضاؤه ـ اجيد العزف ايضا ، ولكني كنت اجد متِعة في الاصغاء حين يكون الاداء جيدا • فما ان شرع الغسق ، تلك الساعة الشاعرية ، يبسط لواءه الازرق المرصع بالنجوم على شَعْرية النافذة ، حتى نهضت ، وفتحت البيانو ، وتوسلت اليه ، بحق السماء ، ان يسمعني اغنية • فقال اني ساحرة متقلبة الاهواء ، وانه يؤثر ان يغني في وقت اخر • ولكني اكدت له ان ليس ثمة مناسبة خير من تلك المناسبة •

وسألني : « هل يعجبك صوتي ؟ »

فقلت : « كثيرا » • انا لم اكن مولعة بدغدغة غروره الشديد الحساسية، ولكني لم اتورع في تلك المناسبة بالذات ، ولحاجة في نفسي اريد قضاءها ، عن تملق ذلك الغرور واثارته •

ـ « اذن فيتعين عليك ، يا جين ، ان تصاحبيني في العزف على البيان » •

ـ « حسن جدا ، يا سيدي • سوف احاول » •

ولقد حاولت فعلا • ولكنه سرعان ما دفعني عن كرسي البيانو وهو يقول : « يا لك من مهملة صغيرة ! » اجل ، لقد دفعني عن الكرسي في غير تلطف ولا كياسة ـ وهذا على وجه الضبط ما كنت اسعى اليه ـ واغتصب مكاني اغتصابا ، وراح يعزف اللحن بنفسه ، ذلك بانه كان يحسن العزف بقَدْر احسانه الغناء • وسارعت انا الى فجوة النافذة • وفيما كنت جالسة هناك اطل على الشجرات الساكنة والمرج القاتم أدّيَتْ هذه الابيات بنغمات رقيقة بمصاحبة لحن عذب :

« ان حبا لم يعرف القلب
في سويدائه الملتهبة اصدق منه
قد سكب في كل عرق من عروقي ،
دفق حياة متسارعا •

كان قدومها هو املي كل يوم .
وكان ذهابها هو المي .
وكان كل ما يعوق خطاها
ثلجا في عروقي جميعا .

لقد حلمتُ ان غاية الغايات في السعادة
ان يبادلني من احبه حبا بحب .
وفي سبيل هذا الهدف سعيتُ
بلهفة وعلى نحو اعمى .

ولكن الشقة الفاصلة ما بين حياتنا
كانت واسعة وغير مطروقة ،
وكانت محفوفة بالمخاطر مثل تيار مزبد
من تيارات المحيط المصطخبة الخضراء .

وكانت راعبة مثل درب من دروب اللصوص
في قفر من القفار او غابة من الغابات ،
ذلك بأن القوة والحق ، والويل والحنق
تفصل ما بين روحينا .

واقتحمت المخاطر ، وسخرتُ من العقبات ،
وتحديت نُذُر الشر ،
وكل ما كان يهدد ، او يضايق ، او ينذر
تخطّيْتُهُ في قوة واندفاع .

وانطلق قوس قزحي ، بمثل سرعة البرق ،
وطرت انا وكأنني في حلم ،
ذلك بأن ابن المطر والضياء هذا
ارتفع امام ناظري بهيًّا سَنِيًّا .

ان ذلك الابتهاج الرقيق المهيب
لا يزال يشرق ساطعا على سحب الالم القاتمة ،
فانا لا ابالي الان بالارزاء المجتمعة من حولي
مهما تكاثفت وتجهّمت .

انا لا ابالي في هذه اللحظة الحلوة ،
برغم ان كل ما اقتحمته وتغلبت عليه

لا بد ان ينقض علي ، انقضاض جوارح الطير ،
قويا رشيقا ، طالباً الثأر الممِض ،

وبرغم ان البغض المتشامخ سوف يصرعني
والى محكمة الحق سيقدمني
وان القوة الماحقة سوف تقسم ،
في تجهم ضار ، على معاداتي الى ما لا نهاية ٠

لقد وضعت حبيبتي يدها الصغيرة ،
بثقةٍ نبيلة ، في يدي ،
واقسمت ان رابطة الزواجِ المقدسة
سوف توحد ما بين وجودَيْنا ٠

لقد اقسمت حبيبتي ، ماهرةً قَسَمها بقبلة ،
على ان تحيا معي ، وتموت معي ،
وهكذا بلغت اخر الامر غاية غايات السعادة :
فأنا عاشق ، ومعشوق ، في آنٍ معا ٠

ونهض واقبل نحوي ، فرأيت وجهه كله ملتهبـــا وعينيه الصقريتين مومضتين ، ولمحتُ الرقة والهيام في اســاريره جميعــا ٠ وجَبنتُ بادىء الامر ، ثم استجمعت قواي ٠ انا لم اكن راغبة لا في المشاهد الرقيقة ولا في المكاشفات العاطفية الجريئة ٠٠٠ وها انا ذا اجد نفسي مهددة بكلا الخطرين ٠ ان علي ان اعد سلاح الدفاع : وهكذا رحت اشحذ لساني ٠ حتى اذا انتهى الي سألته في غلظة : « من هي المرأة التي تعتزم الزواج منها الان ؟ »

فقال : « غريب ان يصدر هذا السؤال عنك أنت ، يا حبيبتي جين » ٠

ـ « على العكس ، اني اعتبره سؤالا طبيعيا جدا ، وضروريا جدا ٠ لقد زعمت ان زوجتك المقبلة سوف تموت معك ، فما الذي عنيته بهــذه الفكرة الوثنية ؟ اما انا فلست اعتزم الموت معك ٠٠٠ في استطاعتك ان تكون على ثقة من ذلك ٠

ـ « اوه ، كل ما اتوق اليه ، كل ما اصلي من اجله ، هو ان تعيشي معي ! ان الموت لم يُخلق لفتاة مثلك » ٠

ـ « بلى ، لقد خُلِق لي ٠ ان لي حقا في ان اموت ، عندمـــا يحيــن اجلي ، لا يقل عن حقك ٠ ولكن علي ان انتظر هذا الاجل متمهلة ، لا ان اسابق اليه سَوقا وكأنني زوجة هندوسية تلقي بنفسها في النار التي تحرق بعلها الميت » ٠

ـ « هل اغفر لك هذه الفكرة الانانية ، واقيم الدليل على غفراني بقبلةِ مصالِحة ؟ »

ـ « لا ، انا أؤثر ان اعفى من ذلك » ٠

وهنا سمعته يناديني بقوله : « ايتها المخلوقة الصغيرة الصلبة » ثـم يضيف : « لقد كان خليقاً بأية امرأة ان تذوب ذوبانا كاملا لدن سماعها هذه الابيات تُغَنّى في مديحها » ٠

واكدت له اني صلبة بطبيعتي ـ صخرية الى حد بعيـد ، وانه سـوف يجدني هكذا في كثير من الاحيان ، واني وطنت النية على اطلاعه على مختلف مواطن الفظاظة في خُلقي قبل انقضاء الاسابيع الاربعة القادمة ، وان عليه ان يدرك اكمل الادراك اي ضرب من الصفقة قد عقد ، ما دام ثمة متسع من الوقت لفسخهـا ٠

ـ « هل لك ان تلزمي الهدوء وان تتكلمي على نحو عقلاني ؟ »

ـ « سوف الزم الهدوء اذا رغبت انت في ذلك ٠ اما التكلـم على نحو عقلاني فهذا ما ازعم بكثير من الفخر اني فعلتُهُ حتى الان » ٠

فاغتاظ واطلق اصواتا تنم عن الازدراء وفروغ الصبر ٠ فقلت في ذات نفسي : « حسن جدا ، في استطاعتـك ان تغضـب وان تتململ ما شاء لـك الغضب والتململ ، ولكني على مثل اليقين من ان هذه هي خير خطة استطيع ان اواصل انتهاجها معك ٠ انا احبك حبا يفوق قدرتي على التعبير ، ولكني لن اسفَّ الى دركٍ من العاطفة ٠ وبأبرة البديهة الحاضرة هذه سوف ابقيـك بعيدا عن شفا الهاوية ايضا ٠ ليس هذا فحسب ، بل سوف احافظ ، بعَونها اللاذع ، على تلك المسافة التي تفصل ما بيني وبينك والتي تفضي اكثر من ايما شيء اخر الى خيرنا الحقيقي المتبادل » ٠

ورحت امعن في اثارته اكثر فأكثر حتى لقد غلب عليه الانفعال ٠ حتى اذا انسحب في حنق بالغ ، الى اقصـى الحجـرة نهضـتُ انا قائلة ، بطريقتي الطبيعية المألوفة الراشحة بالاحترام : « اتمنى لك ليلة طيبة ، يا سيدي » ، وانسللت من الجدار الجانبي ، وانصرفت ٠

وطوال فترة الاختبار اصطنعتُ هذا النظـام الذي دشنته على ذلـك النحو ، ولقد وُفِّقت في اصطناعه اقصى ما يكون التوفيق ٠ وليس من ريب في ان ذلك جعله دائم الغضب والنكد ولكني استطعت ان ارى ، على الجملة ، انه قد اتاح له تسلية ممتازة ، واني لو تكشفت له عن اذعان كأذعان الحمل وحساسية كحساسية اليمامة اذن لارضيت عقله وذوقـه ـ برغـم تعزيزي لنزعته الاستبدادية ـ ارضاء اقل ٠

اما في حضرة الاخرين فكنت التزم ، جريا على مألوف عادتي ، جانـب الاحترام والسكون ٠ واذ لم تكن ثمة حاجة الى انتهاج ايما مسلك اخر فأني لم اعمد الى معارضته ومضايقته الا في احاديثنا المسائية ٠ ولقد واصل دعوتي الى الاجتماع به كلما دقت الساعة السابعة من كل ليلة ، برغم انه لم يعـد يتلقاني الان بضروب الالفاظ المعسولة من مثل « حبيبتي » و « منية نفسي » ، وبرغم ان خير الكلمات التي امسى يضعها تحت تصرفي هي ـ « دمية مستفزة »

و « عفريتة خبيثة » ، و « جنية » ، و « بلهاء » الخ · وبدلا من الملاطفـات اصبحت لا احظى منه بغير التجهم · ليس هذا فحسب بل لقد حلت القرصة في الذراع محل الضغط على اليد ، وفركة الاذن الموجعة محل القبلة على الخد · وكان كل ذلك حسنا ، فقد آثرت هذه المنن الضارية ، في تلك الفترة بالذات ، على ايما بادرة من بوادر الرقة والتلطف ، ايثارا لا لبس فيه · واقرتني مسز فيرفاكس ، كما لاحظت ، على هذا النهج : لقد تبدد قلقها علي ، ومن هنا ثبت لدي اني تصرفت تصرفا حكيما · وفي غضون ذلك اكد لي مستر روتشيستر اني ابليته فلم يبق منه غير الجلد والعظم ، وتهددني بأن ينتقم لنفسه من سلوكي الحالي انتقاما رهيبا في مستقبل قريب · فضحكت في سري من تهديداته تلك ، وقلت في ذات نفسي : « في استطاعتي ان اواصل كبحك ، الان ، كبحا معقولا ، ولست اشك في اني قادرة على مثل ذلك في ما بعد · واذا ما فقدت احدى الوسائل فاعليتها تعيَّن علي ان استنبط وسيلة اخرى » ·

ومع ذلك فان مهمتي لم تكن بالمهمة اليسيرة · وما اكثر ما تاقت نفسي الى ارضائه بدلا من اغاظته · ذلك بأن زوجي المقبل كان قد اصبح عندي هو العالم كله ، بل أكثر من العالم : كان قد اصبح املي في الجنة او يكاد · لقد حال ما بيني وبين ايما تفكير في الدين كما يحول الكسوف بين الانسان وبين الشمس في وضح النهار · لقد تعذر علي ، في تلك الايـام ، ان ارى الله بسبب من مخلوقه ، هذا المخلوق الذي كنت قد جعلت منه معبودا ·

٢٥

كان شهر الغزل قد تقضَّى ، وكانت ساعـاته الاخيرة قد امست معدودة · ولم يحدث ايما ارجاء لليوم الذي كان يغذ الخطى – يوم الزفاف · وكانت جميع الاستعدادات لاستقباله قد اكملت · ولم يكن بقي علي انا ، على الاقل ، ما أصنعه : كانت حقائبي قد ملئت ، واقفلت ، وشُدَّت بالحبـال ، ورُصفت في محاذاة جدار حجرتي الصغيرة · وغدا ، في مثل هذا الوقت ، سوف تكون في طريقها الى لندن ، وكذلك سأكون انا (اذا شاء الله لي هذا) ، او على الاصح ستكون جين روتشيستر ، وهي شخص لم يكن قد قُدِّر لي بعدُ ان اعرفه · ولم يبق غير تعليق البطاقات ، التي تحمل عنواني ، على الحقائب ، وكانت ملقاة هناك ، مجرد مربعات صغيرة اربعة ، في الدرج · كان مستر روتشيستر قد خط بنفسه العنـوان ، « مسز روتشيستر ، فندق ··· ، لندن » على كل منها ، ولقد عجزت عن اقناع نفسي بتثبيتها على الحقائب ، او بتكليف احد بتثبيتها · مسز فيرفاكس ! انها لم توجد بعد ، انها لن تولد الا في غد ، حوالي الساعة الثامنة صباحا ، واني لأوثر ان انتظر واستيقن من انها قد وُلدت حية قبل ان احول اليها هذه الملكية كلها · بحَسْبي ان الفساتين التي في الخزانة المواجهة لمنضدة زينتي ، والتي يقال

انها مِلك لها ، قد حلت محل فستاني الاسود وقبعتي القشيَّة اللذين كنت ارتديهما في لووود ، لان بذلة العرس تلك ، وهذا الفستان اللؤلؤي اللون ، وذاك الخمار الوهمي ، المتدلية من المشجب المغتصب لم تكن لي انا ٠ لقد اوصدت الخزانة لاحجب ما اشتملت عليه من جهاز طيفي غريب انبعث منه في هذه الساعة المسائية ـ الساعة التاسعة ـ عبر قتام حجرتي ، وميض شبحي الى ابعد الحدود ٠ وقلت : « سوف ادعك وشأنك ، ايها الحلم الابيض ٠ ان الحمى لتعصف بي ٠ واني لاسمع الريح تهب ، ولسوف امضي الى خارج الغرفة لكي استمتع بشيء من الهواء الطلق » ٠

ولم تكن زحمة الاستعداد ليوم الزفاف هي وحدها التي اوقعت الحمى في اوصالي ، لا ، ولم يكن ترقب التغير الكبير ـ هذه الحياة الجديدة التي كان من المفروض ان تستهل غدا ـ هو الذي اوقعها ٠ كان لكل من هذين الحدثين اثره ، من غير ريب ، في خلق هذا المزاج القلق المهتاج الذي دفع بي في تلك الساعة المتأخرة الى حديقة القصر المحلولكة ٠ ولكن كان ثمة سبب ثالث خلّف في نفسي أثرا اعظم من الاثر الذي خلّفاه ٠

كانت قد استحوذت علي فكرة غريبة لاهفة ٠ لقد حدث الليلة البارحة شيء لم اهتد الى فهمه ، شيء لم يعلم به او يره احد غيري ! كان مستر روتشيستر قد غادر القصر الليلة البارحة ، ولم يكن قد عاد بعد ٠ لقد قصد الى مِلك له صغير يتألف من مزرعتين او ثلاث على مبعدة ثلاثين ميلا ، لقضاء بعض الاعمال التي حتمت ذهابه لتسويتها بنفسه قبل مغادرته المتوقعة لانكلترة ٠ وكنت الان انتظر عودته لابثه مكنون صدري ولالتمس عنده حلَّ الاحجية التي حيرتني ٠ ولكن يحسن بك ان تنتظر ، ايها القارىء ، ريثما يعود ، حتى اذا افضيتُ اليه بسري شاركته ثقتي ٠

وشخصت الى البستان تحدوني الى ظلاله تلك الريح التي كانت قد هبت طوال النهار ، من ناحية الجنوب ، شديدة عارمة ولكن من غير ان تحمل ذرة من مطر ٠ وبدلا من ان تخمد مع تقدم الليل بدت وكأنها تزيد من قوة اندفاعها وتعمّق من زئيرها : لقد مالت الاشجار الى ناحية واحدة على نحو موصول ، فهي لا تلتوي البتة نحو الناحية الاخرى ، وهي ما ترد اغصانها الى الوراء الا مرة كل ساعة ٠٠٠ فقد كان الضغط الذي فرض على رؤوسها المتفرعة ان تنحني نحو الشمال مستمرا لا ينقطع ٠ واندفعت السحب من جهة الى جهة ، متعاقبة في سرعة ، متراكبة طبقة فوق طبقة : ان عين المرء لم تقع على ايما رقعة زرقاء في سماء ذلك اليوم التموزي ٠

والواقع اني رحت اعدو مع الريح في شيء من الحبور الضاري ، مُلقية بالهموم التي تشغل بالي الى سيل الهواء العارم الهادر في الفضاء ٠ حتى اذا هبطتُ المجاز الذي تكتنفه شجرات الغار واجهتُ حطام شجرة الشهبلوط الهندي : كانت الشهبلوطة منتصبة هناك ، سوداء مفلوعة ؟ وكان جذعها المنفلق عند منتصفه يلهث فاغر الفم شاحب اللون كالموتى ٠ ان

نصفيها المشقوقين لم ينفصل احدهما عن الاخر ، لان اصلها الثابت وجذورها القوية ابقتهما غير مشطورين في الجزء الادنى من الشجرة • ولكن وحدة الحيوية فيها كانت قد تعطلت ، وكفّ النسغ عن السّريان ، وماتت الاغصان الكبرى في كل من جانبيها ، وكان خليقا بعواصف الشتاء المقبل ان تصرع واحدا من الشقين ، او كليهما ، وتسوّيه بالارض ••• ومع ذلك ففي امكان المرء ان يلاحظ ان هذين الشقين كانا يشكلان شجرة واحدة •• طللا من الاطلال ، ولكنه طلل كامل •

وقلت وكأن الفلقَيْن الهائلين كانا مخلوقين حيين قادرين على سماع كلماتي : « لقد احسنتما صنعا بتماسككما هذا • انا احسب انه لا يزال فيكما ــ برغم ما يبدو عليكما من امارات التلف والتفحيم والسَّفع ــ بقية من حياة ، منبثقة من ذلك التلاصق عند جذوركما المخلصة الامينة • انكما لن تنعما بعد اليوم بشيء من الورق الاخضر ، ولن تريا بعد اليوم طيورا تبني اعشاشها وتنشد اغاني الرعاة على اغصانكما • لقد انقضى عهد الحبور والحب بالنسبة اليكما ، ولكنكما لا تعيشان في عزلة موحشة • ان لكل منكما رفيقا يحنو عليه في محنته » •

وفيما كنت ارفع بصري اليهما بدا القمر ، لحظة واحدة ، في ذلك الجزء من السماء الذي استطعت رؤيته من خلال الشق • كان قرصه احمر داميا ، وكان نصف محجوب بالغمام : لقد بدا وكأنه يلقي علي نظرة مشدوهة كئيبة ليسارع بعد ذلك فيدفن نفسه من جديد في خضم السحاب العميق • وهدأت الريح ، لحظة ليس غير ، حول ثورنفيلد ، اما بعيدا هناك فوق الغابات والجداول فقد اطلقت عويلا ضاريا كئيبا يوقع الحزن في النفس ، وهكذا آثرت الفرار من جديد •

لقد همت على وجهي ههنا وههناك ، خلَل البستان ، جامعة التفاح المتناثر بكثرة على العشب المحيط بجذور الاشجار ، ثم رحت اتسلى بفرز الناضج منه عن غير الناضج لاحمل ذلك ، بعد ، الى القصر فأضعه في مخزن الاطعمة • ثم اني شخصت الى حجرة المكتبة لاستيقن من ان نار الموقد قد اضرمت ، اذ كنتُ اعلم ان مستر روتشيستر يؤثر ــ ولو ان الفصل صيف ــ ان يرى ، لدن عودته ، الى النار تضطرم في الموقد على نحو بهيج • فوجدت النار مضرمة ، منذ فترة يسيرة ، ومتوهجة توهجا قويا • فأدنيت كرسيه ذا الذراعين الى زاوية المدفأة ، ثم دفعت المائدة ذات العجلات الى جوارها ، واسدلتُ الستارة ، وطلبتُ ادخال الشموع الى الحجرة استعدادا لاضاءتها • واستبد بي القلق ، عندما اتممت هذه الترتيبات ، اكثر مما استبد بي في أية لحظة سابقة حتى لقد تعذر علي ان الزم مقعدي بل ان ابقى في القصر • واعلنت ساعة صغيرة معلقة على جدار الحجرة وساعة الردهة العتيقة ، في آن معا ، العاشرة مساء •

٣

وقلت في ذات نفسي : « لشد ما قد تقدم الليل ! لسوف اهبط مسرعة

الى ابواب القصر الخارجية ، فثمة بين الفينة والفينة شيء من ضياء القمر ، وفي ميسوري ان ارى طريقي الى مسافة صالحة . ومن يدري فلعله ان يكون قادما الان ، وان في لقائه لما يوفر علي بضع دقائق من الترقب والقلق » .

وزأرت الريح زئيرا داويا في الشجرات الضخام التي ظللت الابواب الخارجية . ولكن الطريق كانت ، بقَدْر ما استطعت ان ارى ، ساكنة موحشة ، من ناحية اليمين ومن ناحية الشمال على حد سواء . ولولا ظلال السحب التي عبرتها بين حين واخر ، كلما اطل القمر عليها ، لكانت مجرد خط طويل شاحب لا تضطرب فيه ذرّة متحركة .

وترقرقت في عيني ، وانا ارى الى الطريق ، دمعة صبيانية ـ دمعة خيبة وفروغ صبر . وغلب علي الخجل فكفكفتها . وتباطأت في السير : كان القمر قد اوصد ابواب حجرته عليه ايصادا كاملا ، واحكم اسدال ستارته المنسوجة من سحائب كثيفة ، وكان الليل قد اظلم ، وكان المطر قد اندفع ممتطيا متن العاصفة الهوجاء .

ـ « لشد ما اتمنى ان يجيء ! لشد ما اتمنى ان يجيء ! » كذلك هتفت، وقد استبد بي هاجس سوداوي . . كنت قد توقعت عودته قبل موعد الشاي ، وها قد هبط الليل الان ، فما الذي عاقه ؟ هل اصابه مكروه ؟ وتذكرت حادثة الليلة البارحة ، فرأيت فيها نذيرا ببلاء قريب . وخشيت ان تكون آمالي من شدة الاشراق بحيث يتعذر تحقيقها . وكنت قد استمتعت ، في الفترة الاخيرة ، بقدر من الهناءة ضخم ، حتى لقد خيل الي ان سعادتي قد جاوزت خط هاجرتها وانها لا بد ان تأخذ سبيلها ، الان ، نحو الافول .

وقلت في ذات نفسي : « ومع ذلك ، فليس في ميسوري ان ارجع الى القصر . انا لا استطيع ان اجلس الى جانب المستوقد في حين لا يزال هو في قارعة الطريق ، في مثل هذا الجو البارد العاصف . فلأن أتعِب ساقي خير لي من ان ارهق قلبي . سوف امضي للقائه » .

وانطلقت مغذّةً السير ، ولكني لم امض الى بعيد . فلم اكد اجتاز ربع ميل حتى سمعت وقع حوافر ، وبصرت بفارس ينهب الارض بجواده ، والى جانبه كلب يعدو . الا بُعْدا لهواجس الشؤم ! كان ذلك هو ، كان هو من غير ريب ، ممتطيا صهوة جواده « مسرور » وفي اعقابه كلبه « بايلوت » . وبَصُر بي ، ذلك ان القمر كان قد شق سبيلا ازرق في السماء، وراح يتقدم فيه ساطعا مؤذنا بوشك هطول المطر . ونزع قبعته وراح يلوح بها حول رأسه . فانطلقت اعدو للقائه .

وهتف ، وهو يبسط لي يده وينحني من على السرج : « هاها ! انك لا تستطيعين العيش لحظة واحدة بدوني ... هذا شيء واضح . طاي على مقدّم حذائي ، ومدي الي يديك الاثنتين : اصعدي ! »

وامتثلت امره : كانت البهجة قد جعلتني رشيقة خفيفة الحركة ،

فوثبت واستويت على صهوة الجواد امامه ، فرحب بي بقبلة قلبية وبتمدح مزهو بالانتصار احتملته ما وسعني الاحتمال . ثم انه كبح جماح اعتزازه ذاك ليسألني : « هل حدث ، يا جانيت ، ما دعاك الى الخروج للقائي في مثل هذه الساعة ؟ اتشكين امرا ؟ »

ــ « لا . ولكني حسبت انك لن تعود ابدا . فلم اطق انتظارك في القصر ، وبخاصة في مثل هذا الجو الممطر العاصف » .

ــ « حقا انه جو ممطر عاصف ! اجل ، وان المياه لتقطر من ثيابك مثل عروس من عرائس البحر . تدثري بمعطفي : ولكني اظنك محمومة ، يا جين ! ان النار لتتقد في خدك ويدك . وكرة اخرى اسألك : هل تشكين امرا ؟ »

ــ « لا ، انا لا اشكو الان شيئا . انا لم اعد لا خائفة ولا تاعسة » .

ــ « اذن فقد كنت من قبل خائفة وتاعسة ؟ »

ــ « الى حد ما . ولكني سوف افضي اليك بكل ذلك عما قريب ، يا سيدي . واستطيع القول انك لن تقابل آلامي بغير السخرية مني » .

ــ « سوف اسخر منك ، من صميم قلبي ، عندما ينقضي الغد . اما قبل ذلك فأني لن اجرؤ على مثل هذا الصنيع ، لان فوزي بغنيمتي لا يزال موضع شك . ولكن اهذا انت ؟ انت التي كنت خلال هذا الشهر الاخير فرّارة مثل الانكليس ، شائكة مثل الوردة البرية ؟ انا لم اكن بقادر على ان امسك بأصبعي من غير ان تدمى ، ومع ذلك فها انا ذا اراني الان اضم بين ذراعي حملا شاردا . لقد شردتِ من الحظيرة بحثا عن راعيك ، أليس كذلك يا جين ؟ »

ــ « لقد اردتك ، ولكن لا يأخذك الزهو ! ها نحن قد بلغنا ثورنفيلد ، فدعني اترجل الان » .

وانزلني في المجاز المعبد . حتى اذا اخذ جون جواده لحق بي الى الردهة وسألني ان اسارع لأرتداء بعض الملابس الجافة وان اوافيه بعد ذلك الى حجرة المكتبة . ثم انه اوقفني ، عندما تقدمت نحو السلم ، لينتزع مني وعدا بأن لا ابطيء في العودة . والحق اني لم ابطيء ، فما هي غير دقائق خمس حتى دخلت عليه ، فألفيته جالسا الى مائدة العشاء .

ــ « اجلسي وابقي معي ، يا جين . سوف تكون هذه ، اذا شاء الله ذلك ، هي الوجبة قبل الاخيرة التي ستتناولينها في قصر ثورنفيلد حتى نعود اليه بعد فترة طويلة » .

فجلست قربه ، ولكني قلت له اني لا استطيع ان آكل .

فقال : « لماذا يا جين ؟ الأن ثمة رحلة تنتظرك ؟ ايكون التفكير في الذهاب الى لندن قد ذهب بشهوتك الى الطعام ؟ »

ــ « انا لا استطيع الليلة ان ارى ، في وضوح ، ما الذي ينتظرني ، يا سيدي . واني اكاد أجهل اي افكار تراودني . ان كل ما في الحياة ليبدو

وهميا في عيني » ٠
ــ « ما عداي ٠ انا شيء مادي ٠ المسيني ! »
ــ « انت يا سيدي اكثر الاشياء شبحيةً ٠ انك مجرد حلم » ٠
فبسط يده ضاحكا وقال وهو يقربهـــا الى عينيّ : « أهـــذه حلـم ؟ » كانت له يد ممتلئة عضِلة ذات بأس ، وكانت له ذراع طويلة قوية ٠ فقلت وانا اردها عن وجهي : « اجل ، انها برغم لمسي لها مجرد حلم ٠ هل فرغت من عشائك ، يا سيدي ؟ »
ــ « نعم ، يا جين » ٠
وقرعت الجرس ، واصدرت الامر بأخراج الصينية ٠ حتى اذا خلَونا الى بعضنا من جديد حركت جمرات النار ، ثم اتخذت مقعدا خفيضا عنـــد ركبة سيدي ٠
وقلت : « لقد اوشك الليل ان ينتصف » ٠
ــ « اجل ، ولكن تذكّري يا جين : لقد وعدتّني بأن تسهري معي طوال الليلة السابقة ليوم زفافي » ٠
ــ « اجل ، لقد ِعدتك ٠ ولسوف ابرُ بوعدي ، طوال ســـاعة او ساعتين على الاقل ٠ فليست بي ، الان ، رغبة في الرقاد » ٠
ــ « هل انجزتِ ترتيباتك كلها ؟ »
ــ « كلها ، يا سيدي » ٠
فقال : « وكذلك فعلت أنا بدوري ٠ لقد سويـت كل شيء ، ولســوف نغادر ثورنفيلد ، غدا ، بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة » ٠
ــ « حسن جدا ، يا سيدي » ٠
ــ « بأية ابتسامة عجيبة اطلقتِ هاتين الكلمتين « حســـن جدا » يا جين ! اي تورُدٍ يبدو على كل وجنة من وجنتيك ! واي بريق غريب هــذا الذي يلتمع في عينيك ! أأنت في حال صحية حسنة ؟ »
ــ « احسب ذلك » ٠
ــ « تحسبين ! ما بالك ، يا جين ؟ قولي لي بماذا تشعرين » ٠
ــ « لا استطيع ، يا سيدي ٠ ان الكلمات أعجز من ان تصور مـا احس به ٠ انا اتمنى ان لا تنقضي هذه الساعة التي نحن فيها ، اذ من يــدري اي قَدَر تخبئه لنا الساعة التالية ؟ »
ــ « هذه هي الميلانخوليا ، يا جين ٠ لقد رزحتِ تحت عبء ثقيل من الاهتياج او من الاجهاد » ٠
ــ « وهل تشعر انت ، يا سيدي ، بالهدوء والسعادة ؟ »
ــ « الهدوء ؟ ٠٠٠ لا ٠ أما السعادة ٠٠٠ فقد نفذت الى شـــغاف قلبي بالـــذات » ٠
وتطلعت اليه لاقرأ امارات الهناءة على وجهـــه ٠ لقـــد كان متّقدا مضرجا بالـــدم ٠
وقال : « امنحيني ثقتك ، يا جين ٠ حرّري ذهنك من أي هم يثقله ، بأن تفضي الي به ٠ ما الذي تخافينه ؟ ــ اتخـــافين ان اتكشّف عن زوج

غير صالح ؟ »

ـ « هذا آخر ما يخطر في بالي • »

ـ « اترهبين هذه الدنيا الجديدة التي تقفين على عتبتها ؟ ••• هذه الحياة الجديدة التي تأخذين سبيلك اليها ؟ »

ـ « لا • »

ـ « انت تحيرينني ، يا جين • ان سيماءك ونبرتك المثقلة بالجرأة المحزومة لتوقعان في نفسي مزيجا من الارتباك والالم • انا اسألك ايضاحا • »

ـ اذن . فاسمع ، يا سيدي • لقد غادرتَ القصر ، الليلة البارحة ، أليس كذلك ؟ »

ـ « اجل ، غادرته • انا اعلم ذلك ، ولقد ألمعتِ منذ لحظات الى ان شيئا قد حدث في اثناء غيبتي ••• شيئا هو في اغلبِ الظن غير ذي شأن ، ولكنه اقلقك على كل حال • دعيني اسمعه • اتكون مسز فيرفاكس قد قالت لك شيئا ؟ ام انك سمعت الخدم يتحدثون ؟ هل جُرِح احترامك الذاتي الحسّاس ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي • »

واعلنت الساعة الثانية عشرة • وتريثت ريثما اكملت ساعة الحجرة الصغيرة دقاتها الفضية ، وساعة الردهة الكبيرة ضرباتها المتذبذبة المبحوحة، ثم استأنفت الكلام فقلت :

ـ « لقد كنت طوال يوم امس في شغل شاغل سعدتُ به اعظم السعادة • ذلك باني لم اكن ، كما يبدو انك تعتقد ، فريسة ايما خوف من الحياة الجديدة الخ •• ان ما يداعب نفسي من امل العيش معك هو في ذاته شيء رائع ، لاني احبك • لا ، يا سيدي ، لا تلاطفني الان ••• دعني اتحدث غير معترَضة • امس كانت ثقتي عظيمة بالعناية الالهية ، ولقد آمنت بأن الاحداث كانت تتعاون لتحقيق خيري وخيرك • لقد كان يوما رائقا ، اذا كنت تذكر ـ وكان في سكون الهواء والسماء ما يحول دون انشغال بالي على سلامتك او راحتك في الرحلة التي قمت بها • وبعد تناول الشاي تمشيت فترة قصيرة في المجاز المعبّد ، وانا افكر فيك • لقد رأيتك بعين الخيال على مقربة دانية مني الى حد جعلني لا افتقد وجودك الفعلي الا قليلا • لقد فكرت في الحياة التي تنتظرني ـ حياتك ، انت يا سيدي ـ وهي وجود يفوق وجودي سعة وخصبا ، بقدر ما تفوق اعماق البحر الذي يصب فيه الجدول مجرى هذا الجدول الضيق الضحل عمقا وبُعْد غور • وعجبت كيف يشبه علماء الاخلاق هذا العالم بالقفز الموحش الكئيب ، ذلك بانه كان منوّرا في نظري مثل وردة ناضرة • ولم تكد الشمس تجنح للغروب حتى برد الهواء وانتشرت السحب في السماء ، فانقلبتُ الى القصر • ودعتني « صوفي » الى الدور الاعلى لارى الى ثوب زفافي وكان قد جيء به منذ فترة يسيرة ليس غير • وتحته ، في العلبة وجدت هديتك ـ ذلك الخمار الذي

غير صالح ؟ »

ـ « هذا آخر ما يخطر في بالي • »

ـ « اترهبين هذه الدنيا الجديدة التي تقفين على عتبتها ؟ ••• هذه الحياة الجديدة التي تأخذين سبيلك اليها ؟ »

ـ « لا • »

ـ « انت تحيرينني ، يا جين • ان سيماءك ونبرتك المثقلة بالجرأة المحزومة لتوقعان في نفسي مزيجا من الارتباك والالم • انا اسألك ايضاحا • »

ـ اذن . فاسمع ، يا سيدي • لقد غادرتَ القصر ، الليلة البارحة ، أليس كذلك ؟ »

ـ « اجل ، غادرته • انا اعلم ذلك ، ولقد ألمعتِ منذ لحظات الى ان شيئا قد حدث في اثناء غيبتي ••• شيئا هو في اغلبَ الظن غير ذي شأن ، ولكنه اقلقك على كل حال • دعيني اسمعه • اتكون مسز فيرفاكس قد قالت لك شيئا ؟ ام انك سمعت الخدم يتحدثون ؟ هل جُرِح احترامك الذاتي الحسّاس ؟ »

ـ « لا ، يا سيدي • »

واعلنت الساعة الثانية عشرة • وتريثت ريثما اكملت ساعة الحجرة الصغيرة دقاتها الفضية ، وساعة الردهة الكبيرة ضرباتها المتذبذبة المبحوحة، ثم استأنفت الكلام فقلت :

ـ « لقد كنت طوال يوم امس في شغل شاغل سعدتُ به اعظم السعادة • ذلك باني لم اكن ، كما يبدو انك تعتقد ، فريسة ايما خوف من الحياة الجديدة الخ •• ان ما يداعب نفسي من امل العيش معك هو في ذاته شيء رائع ، لانِي احبك • لا ، يا سيدي ، لا تلاطفني الان ••• دعني اتحدث غير معتَرَضَة • امس كانت ثقتي عظيمة بالعناية الالهية ، ولقد آمنت بأن الاحداث كانت تتعاون لتحقيق خيري وخيرك • لقد كان يوما رائقا ، اذا كنت تذكر ـ وكان في سكون الهواء والسماء ما يحول دون انشغال بالي على سلامتك او راحتك في الرحلة التي قمت بها • وبعد تناول الشاي تمشيت فترة قصيرة في المجاز المعبَّد ، وانا افكر فيك • لقد رأيتك بعين الخيال على مقربة دانية مني الى حد جعلني لا افتقد وجودك الفعلي الا قليلا • لقد فكرت في الحياة التي تنتظرني ـ حياتك ، انت يا سيدي ـ وهي وجود يفوق وجودي سعة وخصبا ، بقدر ما تفوق اعماق البحر الذي يصب فيه الجدول مجرى هذا الجدول الضيق الضحل عمقا وبُعْد غور • وعجبت كيف يشبه علماء الاخلاق هذا العالم بالقفز الموحش الكئيب ، ذلك بانه كان منوّرا في نظري مثل وردة ناضرة • ولم تكد الشمس تجنح للغروب حتى برد الهواء وانتشرت السحب في السماء ، فانقلبتُ الى القصر • ودعتني « صوفي » الى الدور الاعلى لارى الى ثوب زفافي وكان قد جيء به منذ فترة يسيرة ليس غير • وتحته ، في العلبة وجدت هديتك ـ ذلك الخمار الذي

اعصابي لكي ادركك ، وبذلت الجهد تلو الجهد للنطق باسمك وللتوسل اليك ان تقف ــ ولكن حركاتي كانت مغلولة ··· ولكن صوتي تلاشى قبل ان يطلق لفظة واحدة · في حين كنت انت ــ او هكذا احسست ــ لا تزداد عني ، في كل لحظة ، الا بعدا » ·

ــ « وهل لا تزال هذه الاحلام تنكد عيشك الان ، يا جين ، وانا على مقربة دانية منك ؟ يا لك من مخلوقة عصبية صغيرة ! تناسَي هذا البلاء الوهمي ولا تفكري الا بالسعادة الواقعية · انت تزعمين انك تحبينني ، يا جانيت : اجل ، انا لا استطيع ان انسى هذا ، وليس في استطاعتك انتِ ان تنكريه · ان هذه الكلمات لم تمت ، غير ملفوظة ، على شفتيك · لقد سمعتَها واضحة ، رقيقة : وقد تكون الفكرة مهيبة اكثر مما ينبغي ، ولكنها عذبة كالموسيقى ــ « اعتقد ان ما يداعب نفسي من امل العيش معك ، يا ادورد ، هو في ذاته شيء رائع ، لاني احبك » هل تحبينني ، يا جين ؟ اسمعيني هذه الكلمة كرة اخرى » ·

ــ « اجل ، احبك ، يا سيدي ، احبك بكل قلبي » ·

وبعد صمت استمر بضع دقائق قال : « حسنا ، هذا غريب ، ولكن تلك الجملة نفذت الى صدري على نحو موجع · لماذا ؟ لانك ، في ما احسب ، قلتها في حرارة صادقة ··· حرارة تكاد تكون دينية ، ولان نظرتك الان الي هي الايمان والصدق والولاء في اسمى معانيها · وهذا فوق ما اطيــق : لكأن في جانبي روحا من الارواح لا بشرا من البشر · الا فانظري الي نظرة ماكرة ، يا جين ، وهو شيء تتقنينه احسن اتقان · افتري عن ابتسامة من ابتساماتــك الغريبة ، الحيية ، المثيرة · قولي لي انك تبغضينني ــ ناكديني ، اغيظيني : افعلي ايما شيء شرط ان تثيريني ، فلأن استشعر الحنق خير لي مــن ان استشعر الحزن » ·

ــ « سوف اناكدك واغيظك ما طابت لك المناكدة والاغاظة ، عندمــا اتم قصتي · ولكن استمع الي حتى النهاية » ·

ــ « لقد حسبت ، يا جين ، انكِ قلت كل ما ترغبين في قوله · لقــد حسبت اني اكتشفت مصدر كآبتك في حلم من الاحلام » ·

فهززت برأسي ، فقال : « ماذا ؟ الا يزال لديك ما تضيفينه ؟ ولكني لن اعتقد انه ذو بال · انا انبهك ، سلفا ، الى اني غير مستعـد للتصـــديق · تابعي » ·

وادهشني ما بدا على محياه من اضطراب ، ومن نفـــاد صبر مشــوب بالخشية · ولكني مضيت في حديثي قائلة :

ــ « لقد رأيت حلمــا اخر ، يا سيدي · حلمت ان قصــر ثورنفيلد قــد استحال طللا موحشا اوت اليه الخفافيش والبوم · وتراءى لي انه لم يبق من واجهته الفخمة غير جدار هيكلي الشكل ، عال جدا ، هش جدا · وهمت على وجهي ، في ليلة مقمرة ، خلال الاعشاب التي نبتت ضمن نطاقه ، فكنت اتعثر ههنا بموقد رخامي ، واتعثر ههناك بقطعة ساقطة من افريز · كنت متلفعــة

بشال، وكنت لا ازال احمل الطفل الصغير المجهول • لقد ابيت ان القيه في ايما مكان ، برغم كل ذلك الكلال الذي استبد بذراعي • ولقد تعين علي الاحتفاظ به على الرغم من ان ثقله كان يعوق تقدمي الى حد بعيد • وعلى مسافة ما ، سمعت جوادا يخب على الطريق ، وكنت على مثل اليقين من انك كنت انت الفارس المتطي صهوته : كنت مرتحلا الى بلد قصي لن ترجع منه الا بعد سنوات عديدة • فتسلقت الجدار الرقيق في عجلة مسعورة مخاطرة ، وكلي شوق الى ان ألمحك ، من قمته ، ولو مجرد لمح • وتدحرجت الحجارة من تحت قدمي ، وانقصفت اغصان اللبلاب التي تشبثت بها ، وطوق الطفل عنقي بذراعيه ، في ذعر ، حتى لكاد يخنقني • واخيرا بلغت قمة الجدار ، فرأيتك اشبه شيء بذرّة في طريق بيضاء ، ذرة تتضاءل لحظة بعد لحظة • وعصفت الريح عصفا شديدا لم اطق عليه صبرا • فقعدت على القمة الضيقة • ووضعت الطفل المذعور في حجري ورحت اهدىء من روعه • واستدرت عند منعطف من منعطفات الطريق ، فانحنيت الى امام لكي القي عليك نظرة اخيرة • وفي هذه اللحظة انهار الجدار ، فاجفلت ، وهوى الطفل من على ركبتي ، وفقدت توازني ، وسقطت ، وأفقت من نومي » •

— « والان ، يا جين ، هذا كل شيء ، اليس كذلك ؟ »

— « هذا ليس الا المقدمة ، يا سيدي • اما القصة فسوف أشرع الان في روايتها : حين افقت من نومي بهر عيني ضياء ، خيل الي معه ان الشمس قد طلعت • ولكني كنت مخطئة : ان ذلك الضيـــاء لم يكن غير ضوء شمعة • وحسبت ان « صوفي » قد دخلت علي • كان ثمة شمعة على منضدة الزينة ، وكان باب الخزانة ، حيث كنت قد علقت قبل ذهابي الى الفراش ثوب زفافي وخماري ، مُشرعا • وسمعت ثمة حفيفا • فسألت : « صوفي ، مـــا الذي تفعلينه ؟ » فلم يجبني احد • ولكن شبحا ما لبث ان انبثق من الخزانـــة ، فتناول الشمعة ، ورفعها عاليا وراح يتـــأمل الملابس المتدلية من المشجب • وصحت كرة اخرى : « صوفي ! صوفي ! » ومع ذلك ، لم اسمع رجعَ جواب • وكنت قد نهضت من فراشي ، فانحنيت الى امام : لقد استبد بي بادىء الامر دهشٌ ، ثم حيرة ، وبعد ذلك جرى الدم باردا في عروقي • ان ذلك الشبح ، يا مستر روتشيستر ، لم يكن صوفي ، ولم يكن « ليا » ، ولم يكـن مسز فيرفاكس ، بل انه لم يكن — لا ، لقد كنت واثقة من ذلك ، ولا ازال واثقة — حتى تلك المرأة العجيبة ، غرايس بول » •

فقاطعني سيدي : « يجب ان يكون واحدة منهن » •

— « لا ، يا سيدي ، اؤكد لك ، في صدق واخلاص ، انه لم يكن واحدة منهن • ان الشخص الذي رأيته منتصبا امامي كان مخلوقا لم تقع عليه عيناي قط من قبل ضمن نطاق قصر ثورنفيلد • كان طوله وشكله العام غريبين علي » •

— « صفيه لي ، يا جين » •

— « لقد بدا ، يا سيدي ، امرأة ، فارعة الطول ، ضخمة الجسم ، ذات

شعر اثيث قاتم تتدلى غدائره طويلة على ظهرها • ولست ادري ماذا كانت تلبس : كان شيئا ابيض مستقيما ، ولكني لا استطيع القول هل كان ثوبا ام شرشفا ام كفنا » •

ـ « هل رأيت وجهها ؟ »

ـ « انا لم اره بادىء الامر • ولكنها سرعان ما تناولت خُماري من موضعه ، ورفعته عاليا ، وحدّقت اليه طويلا ، ثم طرحته على رأسها هي واستدارت الى المرآة • وفي تلك اللحظة رأيت منعكس الوجه والاسارير ، في وضوح كامل ، على المرآة المستطيلة المظلمة » •

ـ « وكيف كانت ؟ »

ـ « رهيبة ومروّعة ـ اوه ، يا سيدي ، انا لم أر في حياتي وجها مثل ذلك الوجه ! كان وجها متغير اللون ••• وجها وحشيا • لشد ما اتمنى لو انسى دوران تينك العينين الحمراوين في محجريهما ، وانتفاخ تلك الملامح الرهيبة المكفهرّة » •

ـ « الاشباح شاحبة ، عادة ، يا جين » •

ـ « ولكن هذا الشبح ، يا سيدي ، كان ارجوانيا : كانت شفتاه متورمتين داكنتين ، وكان جبينه متغضنا ، وكان حاجباه الاسودان مرفوعين رفعا مسرفا فوق العينين المحتقنتين • أأقول لك بأي شيء ذكرتني هذه المرأة ؟ »

ـ « في امكانك ان تقولي » •

ـ « بالشبح الالماني الشرير ••• بالشبح المصاص لدماء النيام » •

ـ « آه ••• وماذا فعلت بعد ذلك ؟ »

ـ « لقد نزعت خماري عن رأسها الرهيب ، ومزقته قطعتين ، ثم طرحت كلتا القطعتين على الارض وداست عليهما » •

ـ « وبعد ذلك ؟ »

ـ « لقد ازاحت ستارة النافذة واطلت منها : لعلها رأت الضحى يرتفع ، ذلك بأنها سرعان ما حملت الشمعة وانكفأت الى الباب • ثم انها وقفت عند سريري وانشأت تحدق الي بعينيها الناريتين ••• لقد دفعت شمعتها نحو وجهي ، واطفأتها تحت عينيّ • واحسست بوجهها المتوهج يتأجج فوق وجهي ، وغبت عن الوعي : للمرة الثانية في حياتي ـ للمرة الثانية فحسب ـ اغمي علي من شدة الذعر » •

ـ « ومن كان الى جانبك عندما ثبتِ الى رشدك ؟ »

ـ « لا احد ، يا سيدي ، غير وضح النهار • لقد نهضت ، وغسلت رأسي ووجهي بالماء ، ثم شربت جرعة طويلة ، واستشعرت اني لم اكن ، برغم وهن قواي ، مريضة ، ووطنت النية على ان لا افضي بنبأ ذلك الى احد غيرك • والان ، يا سيدي ، قل لي من كانت تلك المرأة ؟ »

ـ « مخلوقة من مخلوقات عقلك المستثار اكثر مما ينبغي ، ذلك امر لا ريب فيه • ان علي ان اكون لطيفا بك ، يا كنزي • ان اعصابك المرهفة لم

تخلق للمعاملة الخشنة » ·

- « صدقني يا سيدي اذا قلت لك ان اعصابي لم تكن ملومة · كانت المخلوقة حقيقية ، ولقد حدثت المسألة فعلا » ·

- « واحلامك السابقة ، هل كانت حقيقية ايضا ؟ هل استحـــال قصر ثورنفيلد الى طلل؟ هل فصلتني عنك عِقابٌ لا سبيل الى قهرها ؟ اتستطيعين القول اني فارقتك من غير دمعة ··· مَن غير قبلة ··· من غير كلمة ؟ »

- « ان هذا لمّا يحدث بعد » ·

- « وهل ترينني على وشك ان افعل ذلك ؟ كيف ، وهـا هو ذا اليوم الذي سيجمع ما بين روحينا الى الابد قد اطل علينا فعلا ؟ وما ان تتحد روحانا حتى تزايلك هذه المخاوف الذهنية : انا زعيم لك بذلك » ·

- « مخاوف ذهنية ، يا سيدي ! لشد ما اتمنى لو استطيع الاعتقاد انها لم تكن الا مخاوف ذهنية · اني لاتمنى ذلك الان ، اكثر من اي وقت اخر ، ما دمت حتى انت نفسك عاجزا عن حل لغز تلك الزائرة الرهيبة » ·

- « وما دمت انا نفسي عاجزا عن ذلـــك ، يا جين ، فلا بد ان تلك الزائرة كانت زائرة وهمية » ·

- « ولكني لم اكد اقول ذلك في ما بيني وبين نفسي عندما نهضت من فراشي هذا الصباح ، يا سيدي ، ولم اكد اجيل طرفي في الحجرة لكي استمد من مشهد الاشياء البهيج في وضح النهار شجاعة وعزاء حتى رأيت هناك ، هناك على السجادة ، ما جعل من افتراضي مجرد كذبة بلقاء : لقد رأيت الخمار وقد شُطر ، من اعلى الى ادنى ، شطرين اثنين ! »

وبصرتُ بمستر روتشيستر يجفل ويرتعد · ثم انه سارع الى تطويقي بذراعيه وهتف : « اذا صح ان شيئا خبيثا قد الم بك الليلة البارحة فاحمدي الله على ان الخمار هو وحده الذي اصيب بأذى · اوه ، لشد ما يروعني مجرد التفكير في ما كان يمكن ان يحدث ! »

وانشأ يلهث ، وضمني اليه في قوة جعلتني لا اكاد اقوى على اللهاث · وبعد صمت استمر بضع دقائق ، اردف في بِشر :

- « والان ، يا جين ، سوف اشرح لك كل شيء · لقد كان ما رأيتــه مزاجا من الحلم والحقيقة · فليس من ريب في ان امرأة قد دخلت غرفتــك ، وان تلك المرأة كانت - بل يجب ان تكون - غرايس بول · لقد قلـــت انت نفسك انها مخلوقة عجيبة ، وان لك ، على ضوء كل ما تعرفينه عنها ، لحقّــاً في ان تصفيها بهذا الوصف · اتذكرين ما صنعته بي ؟ ما صنعته بمايسون ؟ لقد لاحظتِ دخولها واعمالها وانت في حـــالٍ وسطٍ بين النوم واليقظة · ولكنك ، عزوتِ اليها - وقد عصفت بك الحمى واخذتِ أو كدت في الهذيان - مظهرا عفريتيا غَير مظهرها الحقيقي : ان الشعر الطويـــل المنفوش ، والوجه الاسود المنتفخ ، والقامة المغالى فيها ليست غير تلفيق من تلفيقات الخيال ، وثمرة من ثمرات الكابوس · اما تمزيق الخمار تمزيقا حقودا فكان حقيقيــا ·

وهو يتفق ومزاجها وطريقتها • انا ارى انك لتتساءلين لماذا ابقي على مثل هذه المرأة في بيتي ، الا فاعلمي اني سوف افضي اليك بالسبب بعد ان ينقضي على زواجنا عام ويوم واحد ، ولكن ليس الان • ايقنعك هذا ، يا جين ؟ هل تقبلين حلي للغز ؟ »

وفكرت مليا ، فبدا لي في الحق ، ان تفسيره ذاك هو التفسير الوحيد الممكن • انا لم اقتنع ، ولكني حاولت التظاهر بذلك لكي ارضيه • وليس من ريب في ان كلامه كان قد سرّى عن نفسي ، وهكذا اجبته بابتسامة راضية • واذ كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة منذ فترة غير يسيرة فقد اخذت الاهبة لمفارقته •

فسألني وانا اشعل شمعتي : « اتنـام صوفي مـع آديـل في حجرة الاطفـال ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي » •

ـ « وان في سرير آديل الصغير لمتسعا لك • يتعين عليك ان تشاطريها اياه ، هذه الليلة ، يا جين • ذلك بأن الحادثة التي رويتها لي خليق بهـا ان تثير اعصابك ، واني لأؤثر ان لا تنامي وحدك • عديني بأن تنامي في حجرة الاطفـال » •

ـ « ان ذلك ليسعدني كثيرا ، يا سيدي » •

ـ « احكمي ايصاد الباب من داخل • وايقظي صوفي عندما تصعديـن بحجة انك تريدين ان تكلفيها ايقاظك في ساعة مبكرة من صباح غد ، ذلك بأن عليك ان تفرغي من ارتداء ملابسك وتناول فطورك قبل الساعة الثامنة • والان ، اطردي الافكار القاتمة ، وطاردي الهموم الكئيبة ، يا جانيت • الا ترين كيف هدأت الريح واستحال زئيرها الى وشوشات ناعمة ؟ الا تلاحظين ان حبـات المطر كفَّت عن النقر على زجاج النافذة ؟ (وهنا رفع الستارة) يا له من ليل رائـع ! »

والواقع انه كان ليلا رائعا • كان نصف السماء صافيا لا تشوبه شائبة : كانت السحب ، وقد احتشدت الان امام الريـح التي اخذت تهب من ناحية الغرب ، قد انكفـأت نحو الشرق في صفوف طويلة مفضَّضة • وكان القمر يسفح النور في طمأنينة •

وقال مستر روتشيستر وهو يحدق الى عيني على نحـو استطلاعي : « وكيف حال جانيتي الحلوة الان ؟ »

ـ « الليل رائق ، يا سيدي ، وكذلك انا » •

ـ « ولن تحلمي ، الليلة ، احلاما كلهـا فراق واسى • بل ستحلمين بالحب السعيد وبالزواج الهنيء » •

ولقد تحققت هذه النبوءة نصف تحقق ليس غير • صحيح اني لم احلم بالاسى ، ولكني لم احلم بالبهجة ايضا ، ذلك بأن جفني لم يعرفا الغمض قط • لقد طوقت آديل الصغيرة بذراعي واخذت اتأمل نوم الطفولة ـ نوم الطفولة

الساجي ، الرصين ، البريء ـ وارتقب انبلاج الصباح • كانت حياتي كلها يقظى مضطربة في كياني ، فما ان نهضت الشمس بازغة حتى نهضت انا ايضا • واذكر ان آديل تشبثت بي عندما فارقتها ، واني قبلتها وانا اقصي يديها الصغيرتين عن عنقي • لقد ملْتُ عليها وانشأت ابكي في انفعال عجيب ، ثم فارقتها خشية ان تعكر تنهداتي صفو رقادها العميق • لقد بدت في عيني رمزا لحياتي السالفة ، اما هو ـ مَنْ كان علي الان ان ارتدي ملابسي للقائه ـ فقد بدا في عيني وكأنه النموذج المخوْف ، ولكن المحبوب ، لايامي القادمة المجهولة •

٢٦

وفي الساعة السابعة اقبلت « صوفي » لتساعدني في ارتداء ملابسي والحق انها كانت بطيئة جدا في اداء مهمتها ، بطيئة الى درجة دعت مستر روتشيستر ، بعد ان ضاق ذرعا بتأخري ، الى ارسال من يسأل عن السر في عدم مجيئي • وكانت قد شرعت تثبت خماري (تلك الرقعة الحريرية البسيطة المربعة ، على اية حال) الى شعري بواسطة دبوس نفيس ، فما كان مني الا ان انسللت من بين يديها حالما وفقتُ الى ذلك •

فصاحت بالفرنسية : « قفي ! انظري الى صورتك في المرآة ، فأنت لم تلقي ولو نظرة واحدة مختلَسَة ، على نفسك » •

فعدت ادراجي ، وكنت قد انتهيت الى الباب ، فرأيت في المرآة مخلوقة مرتدية ثوب عرس وخمارا ، مخلوقة لا شبه بيني وبينها البتة • حتى لقد خيل الي انها تكاد ان تكون صورة امرأة غريبة • وناداني صوت : « جين ! » فرحت اهبط السلم على عجل ، ليتلقاني مستر روتشيستر عند درجاتها الدنيا ، قائلا : « ايتها المتلكئة ، ان دماغي ليغلي على نار من نفاد الصبر ومع ذلك فانت تتباطئين كل هذا التباطؤ ! »

وقادني الى حجرة الطعام ، وانشأ يتأملني ، في انتباه بالغ ، من قمة رأسي الى اخمص قدمي ليعلن بعد ذلك اني كنت « جميلة مثل زنبقة » واني لم اكن « فخرَ حياته فحسب ، بل مشتهى عينيه ايضا » • ثم قال لي انه سوف يمنحني عشر دقائق ليس غير اتناول خلالها شيئا من طعام ، وسارع الى دق الجرس فلبّاه نادلٌ من اولئك الخدم الذين كان قد استأجرهم في الفترة الاخيرة •

ـ « أيعد جون العربة ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي » •

ـ « وهل أُنزِلت الحقائب ؟ »

ـ « انهم ينزلونها ، يا سيدي » •

ـ « امضِ الى الكنيسة لترى ما اذا كان مستر وود (الكاهن) والقندلفت هناك • ثم ارجع واخبرني » •

وكانت الكنيسة ، كما يعلم القارىء ، تقوم على بضع خطوات من ابواب القصر الخارجية • فما هي غير دقائق حتى رجع النادل وقال : ان مستر وود في غرفة الملابس ، يا سيدي ، يرتدي حلته الكهنوتية البيضاء » •

ــ « والعربــة ؟ »

ــ « انهم يُسْرجون جيادها » •

ــ « نحن لن نحتاج اليها في ذهابنا الى الكنيسة ، ولكنها يجب ان تكون جاهزة لحظة نعود : يجب ان تكون جميع الصناديق والحقـائب قد نضِّدت وشدت بالسيور ، وان يكون الحوذي في مقعده » •

ــ « سمعا وطاعة ، يا سيدي » •

ــ « جين ، أمستعدة انت ؟ »

فنهضت • لم يكن ثمة لا اشابين ولا اشبينات ، ولا انسباء يجـب ان يُنْتظروا او ينظموا في صفوف • اجل ، لم يكن ثمة غير مستر روتشيستر وغيري • ولقد وقفت مسز فيرفاكس في الردهة عندما اجتزناها • وكان خليقا بي ان اسعد بالتحدث اليها ، ولكن قبضة من حديد كانت تضغط على يدي : لقد اكرِهتُ على الاسراع بسبب من خطوات روتشيستر الواسعة التي لم اوفق الى مسايرتها الا بشق النفس ، وكان في النظر الى وجه مستر روتشيستر ما يُشعرني بأنه لن يتسامح بالتأخر ولو ثانية واحدة ايا ما كان السبب • وتساءلت بيني وبين نفسي : هل قدِّر لايما عروس اخر ان يبدو كما بــدا هو : مشدودا بكل هذا الاحكام الى غرض ما ، عازما على تحقيقه بكل هـذا العبوس والتقطيب ، او هل قدِّر لايما عروس اخر ان يتكشف ، تحت مثـل هذين الحاجبين الراسخين ، عن مثل هاتين العينين الملتهبتين الومضتين ؟

ولم ادر هل كان جو ذلك اليوم جميلا ام رديئا • ولم انظر ، فيما نحن نهبط طريق المركبات ، لا الى السماء ولا الى الارض : كان قلبي في عيني ، ولقد بدا وكأنهما كليهما كانا قد هاجرا الى شخص مستر روتشيستر • كنت اريد ان ارى ذلك الشيء غير المنظور الذي بدا وكأن عروسي كان يحدق اليــه ، طوال الطريق ، تحديقا ضاريا قاسيا • كنت أريد ان المس تلك الافكار التي بدا وكأنه كان يكافح سلطانها ويقاومه •

حتى اذا بلغنا بوَيْب فـناء الكنيسة كف عن السير : لقد اكتشف اني كنت الهث لهاثا موصولا ، فقــال : « أأنا وحشي في حبي ؟ تمهلي لحظة : استندي الى جسمي ، يا جين » •

والان استطيع ان اتذكر صورة بيت الله العتيق الرمادي المنتصب امام ناظري في هدوء ودعة ، وصـورة غراب اسـود يطوِّف حول برج الكنيسة ، وسماءٍ صباحية تمتد متوردة خلفه • وانا اذكر ، ايضا ، شيئـا مـن القبور الساذجة الخضراء ، ولمّا انس حتى الان ذينك الرجلين الغريبين اللذين هاما على وجهيهما وسط الروابي الصغيرة الخفيضة ❋ ، وراحا يقرءان الكلمـات

❋ تقصد : بين القبور • (المعرب)

التذكارية المنقوشة على الشواهد القليلة المكسوة بالطحلب . وانما وُفقت الى رؤيتهما لانهما ما ان بَصُرا بنا حتى استدارا متجهين نحو الجزء الخلفي من الكنيسة ، فلم اشك في انهما كانا يعتزمان دخولها من البــاب الجانبي ، ويشهدا الحفلة . اما مستر روتشيستر فلم تقع عينه عليهما ، فقد كان ينظر ، في اهتمام بالغ ، الى وجهي الذي خيل الي ان الدم قد غاض منه مؤقتا ، ذلك بأني استشعرت العرق يتصبب من جبيني ، واستشعرت البرد يتمشّى في وجنتيَّ وشفتيَّ . حتى اذا استجمعــت قواي ، وهو امرٌ سرعان ما وُفقــت اليه ، سار معي سيرا رفيقا حتى مدخل الكنيسة .

ودخلنا الهيكل الوادع المتواضع . كان الكاهن ينتظر في حلته الكهنوتية البيضاء عند المذبح الوضيع ، والقندلفت الى جانبه . وكان كل شيء ساكنا : لقد تحرك شبحان اثنان ، ليس غير ، في زاوية قصية . كان حدسي صحيحا : ذلك بأن الغريبين انسلا الى الكنيسة قبلنا ، وكانا الان واقفين قرب سرداب آل روتشيستر ، وقد ولانا كل منهما ظهره ، يتأملان عبر القضبان الحديدية ذلك القبر الرخامي العتيق الذي اكل الدهر عليه وشرب ، حيث ركع ملاك من رخام حارسٌ رفات « دامر دو روتشيستر » ، الذي ذبح في « مارستون مور » ايام الحرب الاهلية ورفات اليزابيث ، زوجته .

كنا قد استوينا في المقعد الخاص بمتناولي القربان المقدس . حتى اذا سمعت من ورائي وقع قدم حذرة التفت نصـــف التفاتة : ان احد الغريبين ـ وكان رجلا من غير شك ـ كان يتقدم نحو المذبح . وبدأت الخدمة الدينية . وانجِز شرح الغرض من الزواج . ثم ان الكاهن تقدم خطوة اخرى الى امام ، فانحنى بعض الشيء نحو مستر روتشيستر ، وتابع كلامه :

ـ « اني اسألكما معا وآمركما معا (اذ ستكونان مسؤولين عن ذلك في يوم الحساب الرهيب ، يوم يكشف الغطاء عــــن اسرار القلوب جميعا) بأن تعترفا الان بأيما عقبة خليق بها ان تحول دون ارتباطكما شرعيا برباط الزوجية ان كان اي منكما عالما بوجود عقبة كهذه ، اذ يتعين عليكما ان تثقا ثقة كاملة بأن اولئك الذين زُوِّجوا على غير النحو الذي تفرضه كلمة الله لم يجمع الله ما بينهم ، لا وليس زواجهم شرعيا » .

وتمهل ، تبعا للعادة . وهل قدِّر للصمت الذي يعقب تلك الجملــة ان يُقطع ذات يوم بجواب ؟ لعل ذلك لم يحدث ولو مرة في كل مئة عام . وهكذا كان الكاهن ـ الذي لم يرفع عينيه عن كتابه والذي لم يحبس انفاسه الا لحظة واحدة ـ على وشك ان يتابع مهمته ، وكانــت يده قد بسطت نحو مستر روتشيستر وشفتاه تنفرجان لتسألا : « هل تقبل هذه المرأة زَوجة لك » ... عندما قال صوت واضح قريب :

ـ « هذا الزواج لا يمكن ان يتم . انا اعلن ان ثمة عقبة » .

ورفع الكاهن بصره الى المتكلم ، معقود اللسان كالاخرس . وكذلك فعل القندلفت . واتى مستر روتشيستر بحركة يسيرة ، وكأن الارض زلزلــت

زلزالها تحت قدميه • ثم انه ثبت رجليه في موضعهما ، ومن غير ان يدير رأسه او عينيه قال للكاهن : « تابع ! »

حتى اذا نطق بهذه الكلمة في نبرة عميقة خفيضة هيمن على الكنيسة صمت عميق • وسرعان ما قال مستر وود : « انا لا استطيع ان اتابع من غير شيء من التحقيق في ما زُعم ، ومن غير ما بينة على صدقه او كذبه » •

فاضاف الصوت من خلفنا : « لقد عُطّلت حفلة الزواج تعطيلا كاملا • واني لفي وضع يمكنني من اقامة الدليل على صحة دعواي : هناك عقبة لا تذلل تحول دون عقد هذا الزواج » •

وسمع مستر روتشيستر هذا الكلام ، ولكنه لم يبال به • لقد ظل حَرونا متصلب الاوصال ، ممتنعا عن القيام بأية حركة ، الا ابتغاء التعلق بيدي • ما كان اقوى قبضته واشدها حرارة ! وما كان اشبه جبينه الشاحب ، الثابت ، الضخم ، في هذه اللحظة ، بقطعة من الرخام مربعة ! وما كان اقوى بريق عينيه ، الساكنتين الحذرتين ، برغم ضراوتهما ، تحت ذلك الجبين !

وبدا وكأن الحيرة استبدت بمستر وود • ثم سأله : « ما طبيعة هذه العقبة ؟ لعل في الامكان تذليلها ••• او تبريرها ؟ »

فكان الجواب : « لست اعتقد • لقد قلت انها عقبة لا تذلل ، واني لانطق عن علم وحسن اطلاع » •

وتقدم المتكلم الى امام ، وانحنى فوق الدرابزون • ثم تابع حديثه ، لافظا كل كلمة في وضوح ، وهدوء ، وثبات ، ولكن من غير ان يرفع صوته :

ـ « انها تتمثل ، في بساطة ، بوجود زواج سابق • ان لمستر روتشيستر زوجة ما تزال على قيد الحياة » •

وارتجت اعصابي لدن سماعي هذه الكلمات الملفوظة بصوت خفيض كما لم ترتج قط من قبل لهزيم الرعد ••• واستشعر دمي عنفها الماكر كما لم يستشعر قط من قبلُ صقيعا او نارا ، ولكني بقيت محتفظة برشدي ، وفي نجوة من خطر الاغماء • ونظرت الى مستر روتشيستر ، وحملته على النظر الي • كان وجهه كله صخرا لا لون له وكانت عيناه شررا وصوانا في آن معا • انه لم ينكر شيئا ولم ينفِ شيئا ، لقد بدا وكأنه يتحدى كل شيء • ومن غير ان يتكلم ، ومن غير ان يبتسم ، ومن غير ان يبدو وكأنه يرى فيَّ كائنة بشرية اجتزأ بأن لوى خصري بذراعه ، وسمَّرني الى جانبه •

وسأل الواغل المتطفل : « من انت ؟ »

ـ « اسمي بريغز ••• محام في شارع ••• بلندن » •

ـ « وتريد ان تنسب الي زوجة ؟ »

ـ « اني لاذكرك بوجود زوجتك ، التي يعترف بها القانون ان لم تعترف بها انت » •

ـ « تكرَّم علي ببيان عنها ـ واذكر اسمها واسمي ابويها والمكان الذي تقيم فيه » •

ـ « من غير ريب » · وفي هدوء اخرج مستر بريغز من جيبه ورقة ، وتلا في ضرب من الصوت الرسمي الاخن :

ـ « اني أؤكد ، وفي استطاعتي ان اقيم الدليل ، على انه في العشرين من تشرين الاول (اكتوبر) عام ··· للميلاد (وكان تاريخا يرقى الى ما قبل خمسة عشر عاما) عُقِد قران ادورد فيرفاكس روتشيستر صاحب قصر ثورنفيلد في مقاطعة ··· ، وصاحب « فيرنديان ماينور » ، في انكلترة ، على شقيقتي ، بيرتا انطوانيتا ، وهي خلاسية ، في كنيسة ··· ، سبانيشتاون في جامايكا · ومحضر هذا الزواج محفوظ في سجلات تلك الكنيسة ، ولكن في حوزتي الان نسخة عنه · التوقيع : ريتشارد مايسون » ·

ـ « هذا المحضر ـ اذا كان صحيحا غير زائف ـ قد يثبت اني تزوجت ، ولكنه لا يثبت ان المرأة التي ينص على انها زوجتي لا تزال على قيد الحياة » ·

فأجاب المحامي : « لقد كانت على قيد الحياة منذ اشهر ثلاثة » ·

ـ « كيف عرفت ؟ »

ـ « ان لدي شاهدا على هذه الواقعة · شاهدا لا تقوى حتى انت ، يا سيدي ، على مجادلته الا قليلا » ·

ـ « قدِّمْه ··· او اذهب الى الجحيم ! »

ـ « سوف اقدمه اولا ·· انه معنا ههنا : مستر مايسون ! تفضَّل بالتقدم » ·

ولم يكد مستر روتشيستر يسمع هذا الاسم حتى كز على اسنانه ، وحتى عصف به ايضا ضرب قوي من الارتعاد التشنجي · واذ كنت على مقربة دانية منه فقد احسست بحركة الغيظ او اليأس التشنجية تسري في جسده · وهنا ، دنا الغريب الثاني وكان قد لزم ، حتى تلك اللحظة ، الجانب الخلفي من الكنيسة · واطل من فوق منكب المحامي وجه شاحب ·· اجل ، لقد كان هو مايسون نفسه · واستدار مستر روتشيستر وحدق اليه · كانت عيناه ، كما قلت غير مرة ، سوداوين ، ولكنهما كانتا الان صفراوين ضاربتين الى سواد ، بل لقد كان في قتامهما ضياء دامٍ · وشاع الدم في وجهه ، فتلقَّى خده الزيتوني وجبينه الشاحب وهجا يخيل الى الناظر انه انبعث من نار فؤاده المنتشرة الصاعدة · وتململ في مكانه ، ورفع ذراعه القوية ··· لقد كان في ميسوره ان يصفع مايسون ··· ان يصرعه على ارض الكنيسة ··· ان يخمد انفاسه بضربة منه لا ترحم ··· ولكن مايسون انكمش نائيا بنفسه عنه ، وصاح في صوت واهن : « يا الهي الطيب ! » فرمقه روتشيستر بنظرة ازدراء هدأت معها نفسه ، وخمد انفعاله وكأن آفة قد اذبلته ، فأجتزأ بالسؤال :

ـ « وماذا تريد أن تقول ؟ »

فندَّ من شفتي مايسون البيضاوين جواب خافت لا يُسْمع ·

ـ « فليأخذك الشيطان اذا كنت لا تستطيع الاجابة في وضوح · اني اسألك من جديد : ماذا تريد ان تقول ؟ »

فقاطعه الكاهن : « سيدي ··· سيدي ··· لا تنس انـــك في حَرَم مقدس » ثم وجه الخطاب الى مايسون سائلا اياه في تلطف : « هل تعلم ، يـا سيدي ، ما اذا كانت زوجة هذا الرجل الماجد لا تزال على قيد الحياة ام لا ؟ »

فحرضه المحامي قائلا : « تشجّعْ !·· اجْهَرْ بالقول ! »

عندئذ قال مايسون ، في نبرات اكثر ابانة :

ـ « انها تقيم الان في قصر ثورنفيلد · لقد رأيتها هناك في شهر نيسان (ابريل) المنصرم · انا اخوها » ·

فصاح الكاهن : « في قصر ثورنفيلد ؟ مستحيل ! انا واحدٌ من المقيمين القدامى في هذا الجوار ، يا سيدي ، ولم اسمع قط من قبـــل بامرأة تعرف بمسز روتشيستر في قصر ثورنفيلد » ·

فلمحت ابتسامة كالحة تلوي شفة مستر روتشيستر ، وسمعته يغمغم :

ـ « لا ، وحق الاله ! لقد جهدتُ لكي لا يعلم احد بالامر او لكي لا يسمع بها بهذا الاسم » · ثم استغرق في التأمل ··· وراح يشاور نفسه طوال عشر دقائق ، واخيرا اتخذ قراره ، واعلنه :

ـ « كفى ··· اصرح بكل شيء دفعة واحدة كما تنطلق الرصاصة من اسطوانة البندقية ··· اطوِ كتـــابك ، يا وود ، واخلـع حلتـك الكهنوتية البيضاء · وانت يا جون غرين (والتفت الى القندلفـت) غادِرِ الكنيسة ، فلن يُعقد اليوم اي قران » ·

وامتثل الرجل امره ·

عندئذ تابع مستر روتشيستر كلامه في قوة وتهوُّر : « ان الزواج من امرأتين تعبير بشع ، ومع ذلك فقد اعتزمت ان اجمع بين زوجتين · ولكـن القَدَر احبط خطتي ، بل الراجح ان العناية الالهية صدّتني عن سبيلي · انا لست في هذه اللحظة غير شيطان مَريد ، او احسن قليلا · وليس من شك في انني استحق ـ كما يجدر بكاهني هذا ان يقول لي ـ اقسى عقاب اعدّه الله للخاطئين ··· حتى النار التي لا ينطفىء غليلها والدودة التي لا تموت · ايها السادة ، لقد فسدت خطتي ! ان ما يقوله هذا المحامي وموكله لصحيح · لقـد سبق لي ان تزوجت ، وان المرأة التي سبق لي ان تزوجتها لا تزال على قيـد الحياة ! انت تقول انك لم تسمع قط من قبل بامرأة تعرف بمسز روتشيستر في ذلك القصر القائم هناك ، يا وود · ولكني استطيع القول انك كثيرا مـا ارهفت اذنك لسماع ما يلغو به الناس عن تلك المجنونة الغامضة المحتجزة هناك تحت الحراسة والحفظ · ولقد همس بعضهم في اذنك قائلا انها اخـت لي ، غير شرعية ، من ابي ، وهمس آخرون قائلين انها خليلة لي مهجورة · ولكني اعلمك الان انها زوجتي ، التي تزوجتها منذ خمس عشرة سنة ، واسمها بيرتا مايسون ، وهي اخت هذا الرجل ذي العزم الشديد ··· الذي يريك الان ، بأوصاله المرتعدة وخديه اللذين غار منهما الدم ، اي قلب باسل جريء قد يحمله الرجال بين ضلوعهم · استبشر يا « دك » ··· لا توجس خيفة مني

البتة !··· فلأن اضرب امرأة خير" عندي من ان اضربك · ان بيرتا مايسون امرأة مجنونة ، وانها لتتحدر من اسرة مجنونة - اسرة من المعتوهين والمخالطين في عقولهم خلال اجيال ثلاثة · كانت امها - الخلاسية - مجنونة وسكيرة في آن معا !··· كما اكتشفت بعد ان تزوجت البنت ، اذ كانوا صامتين عن اسرار الاسرة من قبل · ولقد طبعت بيرتا - مثل طفلة مطيعة - على غرار امها في هاتين الخصلتين جميعا · لقد كانت لي شريكة حياة فاتنة - شريكة حياة طاهرة ، حكيمة ، محتشمة ، وفي ميسوركم ان تتخيلوا اي رجل سعيد كنتُ ! لقد تعاقبت علي مشاهد رائعة ! اوه ! لقد كانت تجربتي ، لو علمتم ، تجربة سماوية ! ولكن ليس من واجبي ان اقدم اليكم مزيدا من شرح · بريغز ، وود ، مايسون ، انا ادعوكم كلكم للوفود الى القصر وزيارة مريضة مسز بول ، اعني زوجتي · ولسوف ترون اية مخلوقة هي هذه التي خُدعت بالزواج منها ، وتحكمون في ما اذا كان من حقي ان انكث العهد ، وان التمس المشاركة الوجدانية عند شيء انساني على الاقل ··· ام لا ؟ ان هذه الفتاة (قال ذلك ونظر الي) لا تعرف عن السر الكريه اكثر مما تعرفه انت يا وود · لقد حسبت ان كل شيء كان شرعيا خاليا من الشوائب ، ولم تحلم قط انها تقع في شرك زواج مزيف من وغد مغبون مرتبط بشريكة حياةٍ شريرة مجنونة لا تكاد ترتفع عن مستوى البهائم في شيء ! تعالوا كلكم ، اتبعوني ! »

وغادر الكنيسة وهو لا يزال متشبثا بي · وعلى اثرنا مضى الرجال الثلاثة · حتى اذا بلغنا باب القصر الامامي الفينا العربة ، فقال مستر روتشيستر في فتور : « ارجعها الى حظيرة العربات ، يا جون ، فلن يُحتاج اليها اليوم » ·

ولحظة دخلنا الردهة هرعت مسز فيرفاكس ، وآديل ، وصوفي ، وليبيا للقائنا والترحيب بنا ·

فصاح رب القصر : « انصرفوا ··· كلكم ! ابعدوا عني تهنئاتكم ! من الذي يريدها ؟ - لست انا ، على كل حال ! - لقد جاءت متأخرة اكثر مما ينبغي ··· لقد تأخرت على كل حال ! - لقد جاءت متأخرة اكثر مما ينبغي ·· لقد تأخرت خمس عشرة سنة ! »

وتابع سبيله وارتقى السلم ، وهو لا يزال متشبثا بيدي ، مشيرا الى الرجال ان يتبعوه ، ففعلوا · وانتهينا الى قمة الجزء الاول من السلم ، ثم اجتزنا الرواق ، وتابعنا الصعود الى الدور الثالث · وفتح مستر روتشيستر ، بمفتاحه الرئيسي ، الباب الخفيض الاسود ، وادخلنا الى الحجرة ذات الجدران المزينة بالقماش المزركش ، وذات السرير الضخم ، والخزانة المحلاّة بالرسوم ·

وقال دليلنا : « انت تعرف هذا المكان ، يا مايسون · لقد عضتك وطعنتك هنا ! »

ورفع الستار عن الجدار كاشفا عن الباب الثاني · ثم انه فتح هذا الباب ايضا · فاذا نحن في حجرة لا نافذة لها ··· حجرة يحيط بموقدها المضطرمة

نار،ه، سياج عالٍ قوي ، ويتدلى من سقفها مصباح معلق بسلسلة • كانت غرايس بول منحنية فوق النار ، وكأنها تطهو شيئـــا في قـِدر • وفي الظل العميق ، عند الطرف الاقصى من الحجرة ، كان شبح يعدو جيئة وذهوبا • اي شيء كان ذلك الشبح ، أبهيمة ام مخلوقا بشريا ؟ ذلك ما لم يكن في امكان المرء ان يقطع به لاول وهلة • لقد دب ، في ما بدا لنا ، على الاربـع ، وراح ينشب اظفاره ويزمجر مثل حيوان عجيب ضارٍ • ولكنه كان مكسوا ببعض الملابس ، وكان مقدار الشعر الداكن الاشيب ، المنفوش مثل لبـدة الاسـد ، يخفي رأسه ووجهه •

وقال مستر روتشيستر : « صباح الخير ، يا مسز بول ! كيف حالكِ ، اليوم ، وحال من عُهِد اليك في العناية بأمرها ؟ »

فأجابت غرايس : رافعة الطعام الغالي ، في حذر ، الى رف الموقد : « نحن في حال لا بأس بها • انها فظة في الواقع ، ولكنها ليست مسعورة » •

وهنا انطلقت صيحة ضارية بدت وكأنها تكذّب تقريرها المشجع : لقد نهضت الضبع المكسوّة بالملابس ، ووقفت فارعة الطول عـلى قائمتيهـا الخلفيتين •

وهتفت غرايس : « آه ، يا سيدي ، انها تراك • ومن الخير لك ان لا تبقـى » •

ــ « لن ابقى غير لحظات قليلة ، يا غرايس • ان عليـك ان تمنحيني لحظات قليلة » •

ــ « خذ حذرك اذن ، يا سيدي • اكراما لله ، خذ حذرك ! »

وزمجرت المجنونة : لقد ردّتْ شعرها الاشعث عن وجهها ، وانشـأت تحدّق تحديقا ضاريا الى وجوه زائريها • والواقع ان ذلك الوجه الارجواني وتلك الملامح المتورمة لم تكن غريبة علي : لقد عرفتُها معرفة حسنة • وتقدمت مسز بول •

فقال مستر روتشيستر ، وهو يدفعها جانبا : « أبتعدي من هنا • ان في يدها ، الان ، مدية ، في ما اظن ؟ واني لمحترسٌ منها » •

ــ « ان المرء لا يعرف ما في يدها البتة ، يا سيدي • فهي ماكرة الى حد بعيد • وليس في ميسور الفطنة البشرية ان تسبر غور دهائها » •

فهمس مايسون : « كان من الخير لنا ان نفارقها » •

فجاءته هذه النصيحة من ابن عمه : « اذهب الى الشيطان ! »

وصاحت غرايس : « حذار ! »

فتراجع الرجال الثلاثة في آن معـا • وردّني مستر روتشيستر الى الوراء حاجبا اياي بظهره • ووثبت المجنونة عليه وانشبت اظفارها في عنقه على نحو يرشح بالشر والاثم ، وحاولت ان تعض خده باسنانها • واصطرعا • كانت امرأة ضخمة يكاد طولها ان يبلغ طول زوجها ، وكانت ممتلئة الجسم بدينة • ولقد تكشفت ، في الصراع ، عـن قوة كقوة الرجـال ، وكادت ان

تخنقه غير مرة ، برغم انه كان رياضيا • كان في ميسوره ان يصرعها بضربة شديدة . ولكنه ابى ان يضرب : لقد اجتزأ بالمصارعة ليس غير • واخيرا وفق الى تثبيت ذراعيها • وناولته غرايس بول حبلا ، فأوثقهما به خلف ظهرها • وبحبل اخر ، كان في متناوله ، اوثقها الى احد الكراسي • وانما تمت هذه العملية وسط اشد الصيحات ضراوة ، واكثر الوثبات تشنجا • وعندئذ التفت مستر روتشيستر الى النظارة : لقد نظر اليهم وعلى شفتيه ابتسامة لاذعة وكئيبة في آن معا ، وقال :

— « هذه هي **زوجتي** • وهذا هو كل ما قدّر علي ان اعرفه من عناقها الزوجي ••• تلك هي ضروب التحبب المفروض فيها ان تحمل العزاء الى ساعات فراغي ! **وهذه** هي التي اردتها لنفسي (ووضع يده على كتفي) : هذه الشابة التي تقف بكل هذه الرصانة والسكون عند فوهة جهنم ، ناظرة في رباطة جأش الى وثب عفريتة من العفاريت • لقد اردتها طمعا في شيء من التغيير ، ليس غير ، بعد هذا الطبق الحرّيف الضاري • انظرا ، يا بريغز ويا وود ، الى الفرق ! قارنا ما بين هاتين العينين الصافيتين وهاتين الكرتين الحمراوين هناك ••• بين هذا الوجه وذلك القناع ••• بين هذا القوام وتلك الكتلة من اللحم ، ثم احكما علي ، يا كاهن الانجيل ويا رجل القانون ، واذكرا انه بالطريقة التي تدينان بها الناس سوف تدانان ! اغربوا من وجهي الان • ان علي ان اوصد الباب على غنيمتي » •

فانسحبنا جميعا • اما مستر روتشيستر فتخلف عنا لحظة ليصدر الى غرايس بول امرا اضافيا • وفيما نحن نهبط السلم وجّه المحامي الخطاب الي فقال : « ليس عليك ، يا سيدتي ، ايما لوم البتة ، ولسوف يسعد عمك ان يسمع بهذا الذي حدث — ان يكن ما يزال على قيد الحياة — عندما يرجع مستر مايسون الى ماديرا » •

— « عمي ؟ ما الذي تستطيع ان تخبرني عنه ؟ هل تعرفه ؟ »

— « مستر مايسون يعرفه ، فقد كان مستر ايير هو العميل الفونشالي * لمؤسسته التجارية طوال بضع سنين • وعندما تلقى عمك رسالتك التي اشرت فيها الى ما ازمعت عليه من الزواج بمستر روتشيستر اتفق ان كان مستر مايسون الى جانبه بعد ان لبث اياما في ماديرا ، ابتغاء استعادة صحته المعتلة ، في طريق عودته الى جامايكا • فابلغه مستر ايير النبأ اذ كان يعلم ان موكلي هذا كان على معرفة برجل من آل روتشيستر • فما كان من مايسون ، وقد استبد به الدهش والغم كما تستطيعين ان تفترضي ، الا ان كشف له عن حقيقة الوضع • ان عمك — ويؤسفني ان اقول ذلك — ليتقلب الان على فراش مرض ليس من المحتمل ان يشفى منه في ايما يوم من الايام ، بالنظر الى طبيعة الداء - السل — والمرحلة التي انتهى اليها • ولم يكن في استطاعته ،

* نسبة الى فونشال Funchal ، وهي عاصمة جزائر ماديرا الواقعة على الساحل الشمالي الغربي من افريقية • (المعرب)

آنذاك ، ان يشد الرحال الى انكلترة بنفسه لكي ينتشلك من الشرك الـــذي وقعت فيه ، فتوسل الى مستر مايسون ان يعمد في الحال الى اتخاذ الخطوات الكفيلة بالحيلولة دون الزواج الزائف ، واحاله الي لاساعده على ذلـــك • فاصطنعت اقصى السرعة الممكنة ، واني احمد الله على اني لم اجيء بعد فوات الاوان ، كما يتعين عليك انت ايضا ، من غير ريب ، ان تحمديه • ولو لم اكن على مثل اليقين من ان عمك سوف يلفظ انفاسه الاخيرة قبل ان تصلي الى ماديرا اذن لنصحتك بمرافقة مستر مايسون عند عودته الى هناك • اما والحال على ما هو عليه فاني اعتقد ان من الخير لك ان تبقي في انكلترة حتى يأتيك من مستر ايير ، او عنه ، نبأ جديد » • ثم انه التفت الى مستر مايسون فسأله : « هل ثمة ايما شيء اخر يدعونا الى البقاء ؟ »

فجاءه الجواب اللاهف : « لا ، لا ، فلنمضِ لسبيلنا » •

ومن غير ان ينتظرا حتى يستأذنا مستر روتشيستر في الانصراف غادرا القصر من باب الردهة • اما الكاهن فلبث لكي يتبادل بعض عبارات التحذير او التعنيف ، لست ادري ، مع ابن ابرشيته المتكبر • حتى اذا اتم القيام بهذا الواجب غادر هو القصر ايضا •

ورأيت اليه وهو يمضي لسبيله فيما كنت واقفة بباب حجرتي نصف المفتوح ، هذه الحجرة التي كنت قد انسحبت اليها • حتى اذا خلا القصر من الزائرين ، اوصدت الباب على نفســي ، واحكمـــت اغلاقه بالمزلاج حتى لا يتطفل علي احد ثم اخذت ــ لا في البكاء ، ولا في النحيب ، فقد كنت لا ازال اهدأ من ان اقدم على ذلك ــ ولكن في نزع ثوب الزفاف ، على نحو آلي ، والاستعاضة عنه بثوبي القماشي المتواضع الذي لبسته في اليوم الســـابق متوهمة اني افعل ذلك لاخر مرة • ثم اني جلست ، فقـــد استشعرت اني موهونة متعبَة • واسندت ذراعي الى الطاولة ، فتدلى رأسي عليهما • وانشأت افكر : حتى الان كان كل ما فعلته هــو الاستمـــاع ، والنظر ، والتحرك ، والانتقال الى حيث وجدت نفسي مَقُودةً او مسوقة ، ومراقبةً الاحداث تندفع في اثر الاحداث ، والسر ينكشف تلو السر ••• اما **الان** فأني **افكر** •

لقد كان ذلك الصباح صباحا هادئا الى حد غير يسير ، اجل ، كان كل ما فيه ، ما خلا الشجار القصير مع المجنونة ، متسما بطـــابع الهدوء : ان حادثة الكنيسة نفسها لم تكن صاخبة ، فلم يكن ثمة اي انفجار عاطفي ، اية مشاحنة صارخة ، اي نزاع ، اي تحدٍّ ، اية دموع ، اي نشيج • لقد قيلـت كلمات معدودات ، وقـــدِّم اعتراض هادىء على الـــزواج ، وطرح مستـــر روتشيستر بضعة اسئلة قصيرة متجهمة ، فقدِّمت اجوبة وشروح واقيـــم دليل ، واطلق سيدي اعترافا بالحقيقة صريحا ، وبعد ذلك شوهد البرهان الحي ، ومضى المتطفلون لسبيلهم ••• وقضي الامر !

كنت الان في حجرتي كالعادة ــ كما انا تماما ، ومن غير ايّمـــا تغيير واضح : ان ايما آفة لم تصبني ، أو تؤذني، او تشوهني • ومع ذلك فأين كانت

جين ايير الامس ؟٠٠ واين كانت حياتها ؟٠٠ اين كانت آمالها ؟

ان جين ايير التي كانت امرأة متقدة النشاط بعيدة مرامي الامل ـ والتي كادت ان تصبح عروسا ـ قد عادت الان من جديد فتاة باردة متوحدة : كانت حياتها شاحبة ، وكانت آمالها موحشة ٠ كان صقيع اشبه بصقيع عيد الميلاد قد اجتاح الارض في عز الصيف ، وكانت عاصفة من عواصف كانون الاول (ديسمبر) المثلوجة قد دوّمت في حزيران (يونيو) ، لقد زجّج الجليد التفاحات اليانعة ، وسحقت أكوام الثلج الورود المنوّرة ٠ كان يحجب حقل التبن وحقل القمح كفن جليدي ، وكانت الدروب التي احمرت وجناتها الليلة البارحة بما حفلت به من رياحين قد امست اليوم وعرة المسالك بما تراكم عليها من ثلج لمّا تطأهُ الاقدام ، وكانت الغابات التي تمايلت ـ قبل اثنتي عشرة ساعة ـ مورقة فاغمةً وكأنها غياض في بعض المناطق الاستوائية قد انبسطت الان جرداء موحشة بيضاء مثل غابات الصنوبر في بلاد النرويج ايام فصل الشتاء ٠ كانت آمالي كلها قد ماتت ٠٠ بعد ان المّ بها هلاك خبيث كذلك الذي المّ ، ذات ليلة ، بجميع المواليد في ارض مصر * ٠ لقد القيت نظرة على ما غذوته من آمال كانت امس منوّرة جدا متوهجة جدا فاذا بها الان جثث يابسة باردة مزرقّة لا سبيل الى بعثها من جديد ٠ ونظرت الى حبي : تلك العاطفة التي كانت ملكا لسيدي ٠٠٠ والتي كان هو قد خلقها ، فرأيته يرتعد في فؤادي مثل طفلٍ موجَع في مهد بارد ٠ كان المرض والالم المبرّح قد استبدا به ، ولم يكن في ميسوره ان يلتمس ذراعي مستر روتشيستر ـ لم يكن في ميسوره ان يستمد الدفء من صدره ٠ اوه ، انه ما عاد قادرا على ان يفزع اليه البتة ، ذلك بأن الايمان كان قد صُوِّح ، والثقة كانت قد حُطّمت ! ان مستر روتشيستر لم يعد ، عندي ، ما كانَهُ من قبل ، ذلك بأنه لم يكن ما كنت قد حسبته ٠ انا لا انسب اليه اثما ما ، انا لا اقول انه قد خانني : ولكن صفة الحقيقة التي لا تشوبها شائبة كانت قد فارقت صورته ، وكان علي ان انأى بنفسي عنه ٠٠٠ ذلك شيء ادركته ادراكا حسنا ٠ اما متى وكيف ، والى اين فهذا ما لم اكن قد تبينته بعد : ولكنه هو نفسه كان خليقا ، من غير ريب ، بأن يتعجل ابعادي عن ثورنفيلد ٠ لقد بدا لي وكأنه ما كان قادرا على ان يكنّ لي حبا صادقا ، كانت عاطفته نحوي مجرد عاطفة محمومة مؤقتة ، ما لبثت ان كُبحت ، ومن هنا فلن يستشعر ايما حاجة الي منذ اليوم ، بل ان علي ان اخشى الآن مجرد المرور به ، فليس من ريب في ان رؤيتي امست بغيضة الى نفسه ٠ اوه ، لشد ما كانت عيناي مكفوفتين ! لشد ما كان سلوكي ضعيفا !

كانت عيناي محجوبتين مغمضتين ٠ ولقد بدا لي وكأن ظلاما عاصفا يسبح من حولي ، وتدفقت افكاري كالسيل سوداء مشوشة ٠ وفي حالٍ من الهيجان الذاتي والاسترخاء وعدم الكد بدا لي وكأنني منطرحة في قعر نهر عظيم جفّت

---

* اشارة الى ما حدث قبل ولادة النبي موسى مما اضطر امه الى وضعه في صندوق والقائه في اليم على ما ورد في الكتب المقدسة ٠ (المعرب)

مياهه . وتناهى الى سمعي هدير سيل اطلق من عقاله في جبال قصية، واحسست بالتيار يندفع نحوي : لم تكن بي في النهوض رغبة ، ولم يكن لي على الفرار قوة . وهكذا لزمت مكاني فاقدة الرشد ، تواقة الى الموت . ان فكرة واحدة ظلت تختلج في جوانحي اختلاجة نابضة بالحياة ، ولم تكن تلك الفكرة غير تذكر الله . وعن هذا التذكر نشأت صلاة مغمغمة : لقد هامت هذه الكلمات على وجهها في ذهني المظلم ، كشيء يجب ان يُهمس به ، ولكنني لم اجد في نفسي القدرة على التعبير عنها .

ـ « ربِّ لا تبتعد عني، فالبلاء قريب ، وليس ثمة من يمد الي يد العون » .

ولقد كان قريبا مني حقا . واذ لم ارفع الى السماء ايما ضراعة لدفعه ، ولم اشبك ذراعي في الصلاة او احني ركبتي او احرك شفتي فقد اقبل ذلك البلاء . لقد اندفع السيل نحوي عارما طاغيا ، وسرعان ما سحقني وعيي الكامل لحياتي المضيَّعة ، وحبي المفقود ، وأملي المخمَد ، وايماني الطعين ... سحقني بكلكله المتجهم الجبار الذي جثم علي دفعة واحدة . ان البيان ليعجز عن وصف تلك الساعة : فالحق « ان المياه نفذت الى صميم ذاتي . لقد غصت في حمأة بعيدة الغور ، لم اجد فيها موطئا لقدمي . ولقد انتهيت الى مياه عميقة ، وهناك غمرتني السيول » .

٢٧

وفي فترة ما من اصيل ذلك اليوم رفعت رأسي ، واذ اجلت الطرف في ما حولي ورأيت الشمس الآخذة سبيلها نحو الغرب ترسم على الجدار صورة غروبها بصبغ ذهبيٍّ اخذت اتساءل : « ما الذي يتعين علي ان افعله ؟ »

ولكن الجواب الذي اعطاه عقلي ـ « غادري ثورنفيلد على التوّ » كان سريعا ورهيبا الى حد جعلني اصمّ اذني عنه . لقد قلت اني لا اقوى على احتمال كلمات مثل هذه الان . وزعمت « ان عدم زواجي من ادورد روتشيستر هو الجانب الاهون من بلائي . وان يقظتي من اروع الاحلام واكتشافي انها كلها جوفاء باطلة هما هولٌ استطيع ان اطيقه واتغلب عليه . ولكن الذي لا استطيع الصبر عليه هو فراقه في غير تردد ، وفي الحال ، وبالكلية . لا ، هذا شيء ليس لي قِبَلٌ به » .

ولكن صوتا في اعماق نفسي ما لبث ان جزم بأني اقدر على ذلك ، وتنبأ بأني سوف اقدم عليه . وشرعت اصارع قراري : لقد اردت ان اكون من العجز بحيث اجتنب سلوك ذلك المجاز الرهيب ، الحافل بمزيد من الالم ، الذي رأيته منبسطا امامي . ولكن الضمير استحال الى طاغية ، فأخذ بخناق الحب ، وقال له معنِّفا انه * لم يزد على ان غمس قدمه الناعمة في الحمأة ، واقسم ليقذفنّ

* اي الحب

به ــ بذراعه الحديدية تلك ــ في اعماق من الالم المبرح لا يُسبر لها غور ٠

وصحت : « فلأمزّق اربا اربا اذن ! فلتهرع يد اخرى الى نجدتي ! »

ــ « لا ٠ انك سوف تمزقين نفسك بنفسك ، ولن يهرع الى نجدتك احد ٠ انك سوف تفقئين ، بنفسك ، عينك اليمنى ، وبنفسك سوف تقطعين يدك اليمنى : ان قلبك سوف يكون الفداء ، ولسوف تكونين انت الكاهن الذي يطعنه » ٠

ونهضت فجأة وقد روعتني الوحدة التي عكر صفوها مثلُ هذا القاضي المتحجر الفؤاد ، والصمت الذي ملأه مثلُ هذا الصوت الرهيب ٠ ودار رأسي وانا انهض واقفة ، ولاحظت ان الاهتياج والجوع كادا يُسلمانني الى الاغماء : ان شيئا من اللحم او الماء لم يَعْبُر شفتي ذلك اليوم ، اذ لم اكن قد تناولت طعام الصباح حتى تلك الساعة ٠ وفي غُصةٍ عجيبة لاحظت الان ان مستر روتشيستر لم يبعث الي ، منذ ان اوصدت الباب على نفسي هنا ، من يسألني عن حالي او يدعوني للهبوط الى الدور الاسفل ٠ حتى آديل الصغيرة لم تقرع باب حجرتي ٠٠٠ وحتى مسز فيرفاكس لم تسعَ الي ٠ وغمغمت وأنا ارفع المزلاج واغادر الحجرة : « الاصدقاء ينسون دائما من يتخلى الحظ عنهم » ٠ وتعثرت بعقبة ما : كان الدوار لا يزال يعصف برأسي ، وكانت غشاوة ترين على بصري ، وكانت اطرافي واهنة ٠ وعجزت عن لمّ شتات قواي ، فسقطت ، ولكن ليس على الارض : لقد امسكت بي ذراع مبسوطة ٠ ورفعت بصري ، فاذا بي مستندة الى مستر روتشيستر ، الجالس على كرسي عند عتبة حجرتي ٠

وقال : « ها قد خرجتِ آخر الامر ٠ حسنا ، لقد انتظرتك منذ فترة طويلة ، ورحت اصغي ، ولكنيَ لم اسمع اية حركة ، ولم اسمع اية زفرة ٠ ولو قد استمر هذا الصمت الشبيه بصمت الموت خمس دقائق اخرى اذن لكان خليقا بي ان اقتحم عليك الحجرة الموصدة مثل لص من اللصوص ٠ واذن فأنت تتجنبينني ؟ ٠٠٠ انت تغلقين الباب على نفسك وتأسَيْن بمفردك ! لقد كنت اؤثر لو هبطت الى الدور الاسفل وعنّفتني في حدة بالغة ٠ انك فتاة انفعالية ، ولقد توقعتُ انفجارا عاطفيا من هذا النوع ٠ كنت مستعدا لوابل دموعك الحار ، بيد اني اريد ان اراها تُسفح على صدري انا ، بدلا من ان تسفح على ارض الحجرة التي لا حس فيها وعلى منديلك المبلل ٠ ولكني مخطئ : انت لم تذرفي عبرة واحدة ! اني ارى وجنة شاحبة وعينا ذابلة ، ولكني لا ارى اي اثر لدموع ٠ ويخيل الي ، اذن ، ان فؤادك كان يبكي دما ٠٠٠

ــ « حسنا ، يا جين ، أليس عندك كلمة لوم ؟ أليس عندك ايما شيء مرير ٠٠٠ ايما شيء موجع ؟ أليس عندك ما يجرح شعورا او يلدغ عاطفة ؟ انت تقبعين حيث وضعتكِ وتنظرين الي نظرات كليلة سلبية ٠

ــ « جين ، انا لم ارد أن اجرحك على هذا النحو ٠ ولو ان الرجل الذي كان لا يملك غير نعجة صغيرة اثيرة على قلبه وكأنها بنته فلذةُ كبده ، نعجة أكلت من خبزه وشربت من كأسه واضطجعت في صدره ٠٠ اقول لو ان هذا الرجل

ذبح هذه النعجة نتيجة لخطأ ما في المسلخ اذن لما ندم على غلطته الداميه اكثر مما افعل انا الان . الن تغفري لي ابد الدهر ، يا جين ؟ »

ايها القارىء ، لقد غفرت له في الحال ، وفي تلك اللحظة نفسها . فقد كان في عينيه من الندم العميق ، وفي نبرته من الاشفاق الصادق . وفي مسلكه من القوة الجديرة بالرجال ، بل لقد كان في محياه كله من الحب الثابت غير المتغير ما دعاني الى ان اغفر له كل شيء ... ومع ذلك فانا لم اغفر له بكلمات ملفوظة ، لم اغفر له جهارا ... لقد غفرت له في سويداء قلبي ليس غير .

وسرعان ما سألني في كآبة وقد عجب ، في ما احسب ، لصمتي ووداعتي اللذين كانا ثمرة العنف اكثر مما كانا ثمرة الارادة :

ـ « اتعتقدين اني وغد ، يا جين ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي » .

ـ « اذن قولي لي ذلك في صراحة وقسوة .. ولا تقتصدي في تعنيفي » .

ـ « لست استطيع . انا متعبة يعصف برأسي الدوار . انا اريد جرعة ماء » . فأطلق ضربا من الزفرة المرتعدة ، واحتواني بين ذراعيه، وهبط بي السلم الى الدور الاسفل . ولم ادر بادىء الامر الى اية حجرة حملني ، فقد كان كل شيء غائما في عيني شبه الزجاجتين ، ولكني سرعان ما استشعرت دفء النار المحيي، بعد ان تمشى البرد المثلوج في جسدي ، متحديا فصل الصيف ، خـلال احتجابي في حجرتي . وبلل شفتي بقطرات من خمر . وتذوقتها واستعدت وعيي . ثم اني اكلت شيئا قدمه الي ، وما لبث النشاط ان دبّ في اوصالي . كنت في حجرة المكتبة ، جالسة على كرسيــــه ، وكان هو على مقربة دانية مني . وقلت في ذات نفسي : « اذا استطعت ان افارق الحياة الان ، من غير ان استشعر كربا بالغا ، كان ذلك خيرا لي ، وعندئذ لن أضطر الى بذل ايما جهد لفصل نياط قلبي عن نياط قلب مستر روتشيستر فصـــلا لا بدّ ان تنقطع معه وتتمزق . ان عليّ ، في ما يبدو ، ان افارقه . ولكني لا اريد ان افارقه ... انا لا استطيع ان افارقه » .

ـ « كيف انت الان ؟ »

ـ « احسن كثيرا ، يا سيدي . ولسوف استعيد كامل نشاطي عمـــا قريب » .

ـ « خذي جرعة اخرى من الخمر ، يا جين » .

وامتثلت امره . ثم انه وضع الكأس على الطاولة ، ووقـف تجاهي ، وانشأ يرنو الي في انتباه . وفجأة استدار مطلقا صيحة بكماء ، حافلة بضرب من الانفعال المشبوب . وذرع الغرفة في سرعة ، ثم رجع ومال عليّ وكأنه يريد ان يقبلني ، ولكني تذكرت ان المعانقات امست الان محظورة . فأشحت بوجهي عنه ، ورددت وجهه جانبا .

فصاح في اهتياج : « ماذا ؟ كيف ذلك ؟ اوه ، انا ادري ! انت لن تقبّلي زوج بيرتا مايسون ؟ انت تعتبرين ذراعي مليئتين ، وقبلاتي ملكا لغيرك ؟ »

ـ « ليس لي ، على اية حال ، لا مكان في قربك ولا حق في حبك ، يا سيدي » .

ـ « لماذا ، يا جين ؟ سوف اكفيك مؤونة الكلام ، سوف اجيب بالنيابة عنك ، فأقول انك تقفين مني هذا الموقف لان لي زوجة ... أمصيبٌ انا في حدسي ؟ »

ـ « نعــم » .

ـ « اذا كنت تفكرين هكذا فلا بد ان يكون لك رأي عجيب فيّ . لا شك في انك تنظرين الي نظرتك الى متهتك متآمر ـ نظرتك الى فاجر سافل وضيع كان يتظاهر بالحب النزيه لكي يجذبك الى شرك نصبَهُ عامدا متعمدا ، ولكي يجردك من شرفك ، ويسلبك احترامك الذاتي . ما قولك في هــذا الكلام ؟ انا ارى انك لا تستطيعين ان تقولي شيئا : فأنت ، اولا ، لا تزالين في حال من الاغماء وانك لتجدين في مجرد التنفس مشقة كافية ؛ وانت ، ثانيا ، لا تزالين عاجزة عن تعويد نفسك اتهامي وشتمي . والى هذا فان سدود دموعك مفتوحة على مصاريعها ، وخليق بهذه الدموع ان تتدفق اذا ما اسرفتِ في الكلام . وليست بك رغبة في العتاب ، في التعنيــف ، في المشاجرة . انت تفكرين في ما يتعين عليك ان **تعمليه** ، اما **الكلام** فانــت تعتبرينه عبثا لا طائل تحته . انا اعرفك ... واني لعلى حذر » .

فقلت : « انا لا اريد ان اعمل ضدك » ونبهني صوتي المتهــدج الى ضرورة بتر جملتي .

ـ « انت ترسمين خطة للقضاء علي ، لا بمفهومك **انت** للكلمة ، ولكن بمفهومي **انا** . لقد قلتِ لي ، عمليا ، انني رجل متزوج ـ وبوصفي رجــلا متزوجا سوف تتجنبينني ... سوف تبتعدين من طريقي : ولقد رفضــت منذ لحظة ان تقبّليني . انت تعتزمين ان تجعلي من نفسك مخلوقة غريبة عني بالكلية ، وان تعيشي تحت هذا السقف كمربية لآديل ليس غير . فاذا وجهت اليك في ايما يوم كلمة ودية ، واذا ما احسست نحوي من جديد ايما شعور ودي فعندئذ ستقولين : « هذا الرجل كاد ان يجعل مني خليلته : يجب ان اكون معه ثلجا وصخرا » . ولسوف تصبحين ، وفقا لذلك ، ثلجا وصخرا » .

وجلوت حنجرتي وثبّتُّ صوتي لكي اجيب ، ثم قلت : « كل شيء من حولي قد تغير يا سيدي ، فيجب ان اتغير انا ايضا ـ هذا شيء لا ريب فيه . وليس امامي ، لكي اجتنب تقلبات العاطفة واتحاشى الصراع الموصول مــع الذكريات ، غير سبيل واحدة : يجب ان تعهد في تربية آديل الى مربيــة جديدة ، يا سيدي » .

ـ « اوه ، آديل سوف تذهب الى المدرسة . لقد عقدت العزم على ذلك ، الان . ولست ابتغي ، في الوقت نفسه ، ان اشقيك بذكرياتك البشعة في قصر ثورنفيلد ... هذا الموطن الملعون ... الشبيه بخيمة آخان ... هذا

السرداب الوقح الذي يقدم الى ضيـــاء الشمس الطلقة شحـــوب الموت في الحياة ... هذا الجحيم الحجري الضيق بعفريتته الحقيقية الوحيدة التي هي اسوأ من كتيبة كاملة من العفاريت المتخيلة ! جين ، انك لن تبقي هنا ، لا ، ولن ابقى انا ايضا . لقد اخطأت خطأ كبيرا عندما اجزت لك ان تفدي علي قصر ثورنفيلد ، برغم علمي انه قصرٌ مسكون بالاشباح . ولقد اصدرت امري اليهم بأن يكتموا عنك ، قبل ان تقع عليك عيناي ، لعنة هذا المكان . وانما فعلت ذلك لمجرد خوفي ان لا توفق آديل الى مربية ترضى بالبقاء الى جانبها اذا ما عرفت هذه المربية مع من ستجد نفسها في هذا البيت . ولم تساعدني خططي على نقل المجنونة الى مكان اخر ، برغـــم اني املك بيتا عتيقا ، في فيرندِيان ، هو اشد انعزالا وتواريا عن الانظار حتى من هذا القصر . بيتا كان في ميسوري ان انزلها فيه في سلام ، لولا ان ساورني ريب في مـدى ملاءمة موقعه – في قلب احدى الغابات – لصحتها ، فاذا بضميري يكرهني على الاحجام عن ذلك الصنيع . واغلب الظن ان تلك الجدران الرطبة كان خليقا بها ان تريحني ، وشيكا ، من عبئها ، ولكن لكل وغد عيبه ، وعيبي هو اني لا انزع الى الاغتيال غير المباشر ، حتى لمن اكنّ له اعظم البغض .

« بيد ان كتمان جوار المرأة المجنونة عنك كان اشبه شيء بتغطية طفل بمعطف ووضعه قرب شجرة يوباس * : ان جوار تلك الشيطانة سامٌ ، ولقد كان دائما ساما . ولكني سوف اغلق قصر ثورنفيلد : ســوف أسمّر بابه الامامي ، واسد نوافذه السفلى بألواح خشبية . ولسوف ادفع الى مسز بول مئتي جنيه في العام لتعيش هنا مع **زوجتي** ، كما تسمين انــت هذه الشمطاء الرهيبة . ان غرايس لمستعدة لان تعمل اشياء كثيرة في سبيـــل المال ، ولسوف تكلف ابنها ، حارس غريمسبي ريتريـــت ، بالاقامة معها وبالاسراع الى نجدتها كلما عمدت قرينة ** زوجتي الى اغرائها ، في نوبة من نوباتها المسعورة ، باحراق الناس في مضاجعهم ليلا ، وبطعنهم بالمدية ، او بعضِّهم وسلخ لحمهم عن عظامهم الخ .. »

فقاطعته قائلة : « انت يا سيدي قاسٍ على تلك السيدة التعيسة : انك تتحدث عنهـا في بغض ... في كراهيــةٍ حقودٍ ... هذه وحشيــة منك .. اذ ليس لها في جنونها حيلة » .

–« جين ، يا حبيبتي الصغيرة (هكذا سوف ادعوك ، لانك هكذا في الواقع) ، انت لا تعرفين ماذا تقولين . انك تجورين في الحكم علي ، كرة اخرى : انا لا اكرهها لانها مجنونة ، اذ لو اصـابك انـت مس من جنون اتحسبين اني لا بد مبغضك ؟ »

---

* upas tree شجرة سامة تنبت في « جاوا » ويتخذ من نسغها (عصيرهـا) سـم يعرف بالاسم نفسه . (المعرب)

** أي الجنية الملازمة لها .

ـ « من غير ريب ، يا سيدي » •

ـ « اذن فانت مخطئة ، وانت لا تعرفين ايما شيء عني وعن نوع الحب الذي يستطيع قلبي ان ينبض به • ان كل ذرة من لحمك اثيرة لدي مثل اي ذرة من لحمي ، ولسوف تبقى اثيرة لدي في حالي الالم والمرض • ان عقلك هو كنزي ، فاذا ما قدر عليه ان يصاب بمس فعندئذ يظل هو كنزي ابد الدهر • واذا ما اهتجت فعندئذ ستضمك ذراعاي لا صدرة ضيقة • ان قبضتك ، حتى في حال الحنق والثورة ، سوف يكون لها عندي سحر وفتنة : واذا ما انقضضت علي بمثل الضراوة التي غلبت على تلك المرأة هذا الصباح فعندئذ سأتلقاك بعناقٍ ، فيه من الحنان بقدْر ما فيه من التقييد والكبح • وخليق بي ان لا اجتنبك في اشمئزاز كما حاولت ان اجتنبها • اما في لحظاتك الوادعة فلن ينهض بعبء السهر عليك والعناية بصحتك احدٌ غيري • سوف يكون في ميسوري ان الازمك في حنان لا يعتوره كلل ، ولو لم تمنحيني لقاء ذلك ابتسامة واحدة ، ولن املّ النظر الى عينيك ولو خلتا من ايما وميض يؤذن بأنك تعرفين من انا ••• ولكن لماذا اتبع هذا المجرى الفكري البغيض ؟ لقد كنت اتحدث عن رغبتي في نقلك من ثورنفيلد • وانت تعلمين ان كل شيءٍ مُعَدٌ للرحيل العاجل : انك سوف ترحلين غدا ، وكل ما اسألك اياه هو ان تحتملي الاقامة ليلة اخرى ، ليس غير ، تحت هذا السقف ، يا جين ! إن لدي مثوى أفيء اليه ، مثوى سوف يكون حرما آمنا من الذكريات البغيضة ••• من التطفل غير المستحب ••• بل من البهتان والنميمة » •

فقاطعته بقولي : « وخذ آديل معك ، يا سيدي • انها سوف تكون لك بمثابة الرفيق المؤنس » •

ـ « ماذا تعنين ، يا جين ؟ لقد قلت لك اني سوف ارسل آديل الى المدرسة ، وما حاجتي الى رفقة طفلة مثلها ؟ طفلة ليست هي ابنتي ايضا ••• ولكنها بنت غير شرعية لراقصة فرنسية ؟ وعلام هذا الالحاف كله في امرها ؟ اقول ، لماذا تفرضين علي ان اتخذ منها رفيقة ؟ »

ـ « لقد تحدثت عن العزلة يا سيدي ؟ والعزلة والتوحد موحشان ••• موحشان الى حد لا يستطيع مثلك احتماله » •

فردّد في انفعال : « التوحد ! التوحد ! يخيل الي ان من واجبي ان اوضح هذه النقطة • ولست ادري اية انطباعة من انطباعات ابي الهول ترتسم على محياك • ان عليك **انت** ان تشاطريني توحدي • اتفهمين ؟ »

فهززت رأسي • والواقع ان مجرد المغامرة بابداء امارة المخالفة الخرساء هذه كان يتطلب قدرا من الشجاعة غير قليل ، بالنظر الى سورة الغضب التي كانت قد شرعت تعصف به • كان يذرع الحجرة في عصبية ، فما ان رأى الى هزة رأسي تلك حتى توقف وكأنه سُمِّر فجأة الى بقعة واحدة • وانشأ يحدق الي تحديقا طويلا قاسيا ، فحولت عيني عنه وثبتّهما

على النار ، محاولةً ان اصطنع مظهرا هادئا رابط الجأش وان الزم هـذا المظهر ٠

واخيرا قال ، متكلما بنبرة احفل بالهدوء من تلك النبرة التي اوحت اليّ ملامحه بأنه سوف يصطنعها : « ها قد وصلنا الى العقـدة في خُلق جين ايير ٠ ان بكرة الحرير قد دارت ، حتى الان ، في سلاسة غير يسيرة ٠ ولكني كنت اعلم دائما انها لا بد ان تنتهي الى عقدة او عقبة ٠ وها هي ذي العقدة قد اطلعت رأسها ٠ والان حدِّث عن الاغاظة والاسخاط والبلاء المقيم ولا حرج ! وحق الاله اني لتواق الى بذل جزء من قوتي الشمشونية لاقطع هذه العقدة كما تُقطع نسالة القنَّب ! »

واستأنف ذرع الحجرة ، ولكنه ما لبث ان وقف ، ولكن تجاهي مباشرة هذه المرة ، وقال :

ـ « جين ! ارجوك ان تصيخي الى صوت العقل ! » (وانحنى وادنى شفتيه من اذني) « لانك ان لم تفعلي لجأت الى العنف » ٠ كانَ صوته اجش ، وكانت اساريره اشبه بأسارير رجل يوشك ان يحطم قيدا ثقيلا لا يطـاق وينفدع في تهور ورعونة نحو حرية طائشة لا تخضع لضابط ٠ وادركت اني ان تشبثت بموقفي لحظة اخرى وان هبت عليه هو رياح الحنق هبّة اضافية فلن اقوى عندئذ على مقاومته ٠ كانت الثانية الحاضرة ـ تلك الثانية المندفعة في مجرى الزمن ـ هي كل ما املكه لكبحه والسيطرة عليه ٠ وكان خليقـا بأيما حركة نفور او فرار او خوف ان تفضي بي ، وبه ايضا ، الى الهلاك ٠ ولكني لم استشعر خوفا ٠٠٠ لم استشعر ذرة من خوف ٠ لقد آنست في ذات نفسي قوة باطنية ، ولمسـت فيهـا احساسا بالسلطان اعانني وشـد ازري ٠ كانت الازمة محفوفة بالمخاطر ، ولكنهـا لم تكـن لتخلو من فتنة وسحر ٠٠ فتنة وسحر شبيهين بذينك اللذين ربما كان الهندي يستشعرهما حين يندفع بزورقه في موضع من النهر جارف التيـار موفور الصخـور ٠ وهكذا امسكت بيده المتشنجة ، وارخيت اصابعه المنقبضة ، وقلـت له في لهجة مهدئة :

ـ « اجلس ٠ سوف اتحدث اليك ما شئت لي ان اتحدث ، ولسـوف اصغي الى كل ما تريد ان تقوله ، سواء أكان معقولا أم غير معقول » ٠

وجلس ، ولكنه لم يوفق الى الكلام مباشرة ٠ ذلك بأني كنت قد غالبت الدموع برهة ، وكنت قد بذلت جهدا بالغا في كبحها لعلمي انه لم يكن يحب ان يراني ابكي ٠ اما الان فقد رأيت من المستحسن ان ادعها تتـدفق مـا وسعها التدفق ٠ فاذا ما غاظه ذلك كان خيرا وابقى ٠ وهكذا استسلمت ، وانشأت ابكي بكاء مريرا ٠

وسرعان ما سمعته يتوسل الي في حرارة ان اهدىء من روعي ٠ فقلت اني لا اقوى على ذلك ما بقي هو مستسلما للانفعال ٠

فقال : « ولكني لست مغضبا ، يا جين ٠ كل ما في الامر اني احبك

حبا عارما ، وانك كنت قد فولذت وجهك الشاحب الصغير بانطباعة مثلوجة مصممة لم يكن لي قبل باحتمالها . اهدأي الان ، وكفكفي عبراتك » .

وكان في الرقة التي اتسم بها صوته ما اشعرني بأن ثورته قد خمدت . وهكذا اخلدت انا بدوري الى السكينة . عندئذ حاول ان يريح رأسه على كتفي ، ولكني لم اجز له ذلك . ثم جرب ان يجذبني اليه ، فامتنعت .

فقال في نبرة من الحزن المرير اوقعت القشعريرة في كل عصب من اعصابي : « جين ! جين ! انت لا تحبينني اذن ؟ انت لم يعجبك مني غير مكانتي الاجتماعية وغير المنزلة التي يجدر بمن اختارها زوجة لي ان تنعم بها ؟ اما وقد اعتقدت الان انني غير اهل لان اصبح لك زوجا فأنك تنفرين كلما لمستك وكأنني قرد او ضفدع بري » .

واوجعتني هذه الكلمات ، ومع ذلك فما الذي كان في ميسوري ان اقوله او ان افعله ؟ اغلب الظن انه كان من واجبي ان لا افعل شيئا او ان لا اقول شيئا ، ولكن حسا من الندم كان يعذبني لاني جرحت مشاعره على هذا النحو تعذيبا مبرحا ، فلم استطع ان اقاوم الرغبة في وضع شيء من البلسم على الجرح الذي احدثته .

فقلت : « انا احبك اكثر مما احببتك في أي وقت مضى . ولكن من واجبي ان لا اظهر هذا الشعور او انغمس فيه . وهذه هي اخر مرة يتعين علي أن اعبر فيها عنه » .

— « اخر مرة ، يا جين ! ماذا ؟ اتحسبين ان في استطاعتك ان تعيشي معي ، وتشاهديني كل يوم ، ومع ذلك تظلين — اذا أقمت على حبي — باردة دائما ، نافرة دائما ؟ »

— « لا ، يا سيدي . انا واثقة من اني لا استطيع . ومن اجل ذلك ارى ان ثمة سبيلا واحدة ليس غير ، ولكن سورة الغضب سوف تعصف بك اذا ما ذكرتها » .

— « اوه ، اذكريها ! فاذا ما ثرت لجأت انت الى حيلتك الماكرة : سفح الدموع » .

— « مستر روتشيستر ، ان علي ان افارقك » .

— « الى متى ، يا جين ؟ بضع دقائق ، ريثما تسرحين شعرك ... الذي هو مشعث بعض الشيء ، وتغسلين وجهك الذي تبدو عليه امارات الحمى ؟ »

— « علي ان افارق آديل وثورنفيلد . علي ان انفصل عنك بقية عمري كله : علي ان استهل حياة جديدة بين وجوه غريبة ومشاهد غريبة » .

— « من غير ريب : لقد قلت انا لك ان عليك ان تفعلي ذلك . وعلى اية حال فاني سأضرب صفحا عن حماقة انفصالك عني . انت تعنين من غير

ريب انك تريدين ان تصبحي جزءا مني ※ • اما الحيـــاة الجديدة فشيء حسن جدا : انك ، برغم كل ما حدث ، سوف تصبحين زوجتي • انا لست متزوجا • ولسوف تصبحين مسز روتشيستر ، بالواقع وبالاسم على حـد سواء • سوف أبقى الى جانبك ما دمت انت وما دمت انا على قيد الحياة • انك ستمضين الى مكان املكه في جنوب فرنسة : دارة بيضاء على شواطىء البحر الابيض المتوسط • وهناك سوف تحيين حياة سعيدة ، آمنة ، وطاهرة الى اقصى حدود الطهارة • ولا تحسبي اني اريد ان اغريك باقتراف الاثم ••• ان اجعلك خليلتي • لماذا تهزين رأسك ؟ جين ، يجب ان تحكمي العقل ، والا جن جنوني كرة أخرى من غير ريب » •

وتهدج صوته ، وارتعدت يده ، واتسعت خياشيمه الضخام ، والتهبت عيناه : ومع ذلك فقد جرؤت على القول : « سيدي ، أن زوجتـــك لا تزال على قيد الحياة : هذه حقيقة اعترفت بها انت نفسك هذا الصباح • فاذا ما عشت معك كما تبتغي فعندئذ اصبح خليلتك • وكل زعم مخالف هو مجرد سفسطة ••• مجرد بهتان » •

ـ « جين ، انا لست رجلا دمث الطبع ••• انك تنسين ذلــك • انــا لست رجلا طويل الاناة ••• لست فاترا ولست رزينا • من اجل ذلـــك اسألك ، رحمةً بي وبنفسك ، ان تجسي نبضي وتري الى تسارعه ••• وان تأخذي حذرك ! »

وكشف عن معصمه ، وبسطه نحوي : كان الدم يفارق خديه وشفتيه فهي تزرقّ ازرقاقا رصاصيا • ومن هنا المَّ بي الكرب من اقطاري جميعا • فلأن اثيره اعمق الاثارة بمقاومة يبغضها كل هذا البغض ضرب من القسوة يجاور الوحشية • ولأن استسلم له امرٌ غير وارد البتة • واخيرا فعلت ما يفعله البشر ، على نحو غرزي ، عندما ينوءون بأثقال الغم وتسد في وجوههم سبل النجاة : لقد التمست العون عند من هو فوق الانسان ، فاذا بالكلمات « ساعدني يا رب ! » تنفجر من شفتيَّ انفجارا غير ارادي •

فصاح مستر روتشيستر ، فجأة : « اني لمعتوه حقا ! فانا لا افتأ اقول لها اني غير متزوج ، ولكني لا اشرح لها كيف ذلك • اني انسى انها لا تعرف شيئا عن خُلق تلك المرأة وعن الملابسات التي رافقت زواجي الجهنمي منها • اوه ، انا واثق من ان جين سوف تتفق معي في الرأي عندما تعلـم كل مـا اعلمه ! انا لا اسألك الا ان تضعي يدك في يدي ، يا جانيت ـ لكي اتـأكد ، ببيّنة اللمس وبيّنة البصر على حد سواء ، من انك على مقربة مني ـ ولسوف اصور لك بكلمات قليلة حقيقة الحال • هل تستطيعين ان تصغي الي ؟ »

ـ « اجل ، يا سيدي ، وطوال ساعات اذا شئت » •

ـ « لا اسألك غير دقائق معدودات • جين ، هل سمعت ذات يوم او

※ في الاصل تلاعب لفظي ظاهر بين parting from me (الانفصال عني) وبين to become a part of me (ان تصبحي جزءا مني) • « المعرب »

علمت اني لم أكن أرشد اخوتي : انه كان لي أخ اكبر مني سنا ؟ »

– « اذكر ان مسز فيرفاكس انبأتني بذلك ذات مرة » ٠

– « وهل سمعت في ايما يوم من الايام ان ابي كان رجلا بخيلا منقبض الكف ؟ »

– « حسنا ، يا جين ، لقد حدا به شحه هذا الى عقد النية على ابقاء ممتلكاته سليمة متماسكة ٠ انه لم يكن ليطيق فكرة تقسيم هذه الممتلكات بحيث يترك لي نصيبا عادلا منها ، وهكذا قرر ان يجعل ثروته كلها وقفا على اخي راولاند ٠ بيد أنه لم يطق ، في الوقت نفسه ، التفكير في ان ولدا متحدرا من صلبه سوف يقضي حياته فقيرا : كان لا بد له من ان يكفل لي رفاه العيش من طريق زواج ثري ٠ وسرعان ما راح يبحث لي عن شريكة حياة ٠ وكان مستر مايسون ، احد مزارعي جزر الهند الغربية وتجارها ، صديقا من اصدقائه القدماء ٠ وكان ابي على مثل اليقين من ان مستر مايسون كان يتمتع بثروة عقارية ضخمة ، فراح يجري بعض الاستطلاعات ، فاكتشف ان لمستر مايسون ولدا وبنتا ، وعرف منه ان في امكانه ، وفي نيته ، ان يهب هذه الاخيرة ثروة مقدارها ثلاثون الف جنيه : وكان هذا كافيا ٠ فما ان تركت الكلية حتى أرسلت الى جامايكا لاتزوج عروسا كانت قد خطبت لي من قبل ٠ ولم يقل لي ابي اية كلمة عن ثروتها ، ولكنه قال لي ان مس مايسون كانت في جمالها الساحر مفخرة « سبانيشتاون » وموضع اعتزازها ٠ ولم يكن هذا كذبا ٠ فقد الفيتها امرأة فاتنة ، من طراز بلانش اينغرام : امرأة فارعة الطول ، سمراء ، مهيبة ٠ وكانت اسرتها حريصة على الفوز بي لنبل محتدي ، وكذلك كانت مس مايسون نفسها ٠ كانوا يبدونها لناظري، في الحفلات الساهرة ، رافلة بأبهى الحلل واسناها ٠ ولكني نادرا ما رأيتها منفردة ، ونادرا ما ادرت معها حديثا شخصيا موجزا ٠ كانت تتملقني ، وتسرف في محاولة امتاعي باظهار مفاتنها ومواهبها ٠ ولقد بدا لي وكأن جميع الرجال من حولها كانوا معجبين بها ، وكانوا يحسدونني عليها ٠ وبهرت ، واثرت ، وغلب على حواسي الاهتياج ، واذ كنت جاهلا ، غرا ، قليل التجربة ، فقد خيل الي اني احببتها ٠ والواقع انه ليس ثمة من حماقة يعجز التنافس المعتوه في دنيا المجتمع المترف ويعجز شبق الشباب وطيشه وعماه عن دفع المرء الى ارتكابها ٠ وشجعني انسباؤها ، واثارني المنافسون ، واغوتني هي : وهكذا تم زواجي منها قبل ان اعرف ٠ او اكاد ، اين انا ٠ اوه ، انا لا انظر الى نفسي نظرة احترام عندما افكر في ذلك الصنيع !٠٠٠ ان ازدراء باطنيا مبرحا ليستحوذ علي ٠ انا لم احبها قط ٠ انا لم احترمها قط ، بل اني لم اعرفها قط ٠ ولم اكن واثقا من وجود ايما فضيلة في طبيعتها : انا لم المح في ذهنها او في مسلكها لا تواضعا ولا طيبة ولا صراحة ولا دماثة ٠ وتزوجتها ٠٠٠ فما كان اشد حماقتي وخساستي وعنادي وعماي ! ولو قد كانت خطيئتي اقل خطورة اذن لاستطعت ان ٠٠٠

ولكن يحسن بي ان اذكر مع من اتحدث ٠

« اما والدة العروس فاني لم ارها قط ٠ لقد توهمت انها ميتة ٠ حتى اذا انقضى شهر العسل ادركت خطأي ، فقد كانت مخبَّلة حبيسة في مستشفى للامراض العقلية ٠ وكان لزوجتي اخ اصغر منها سنا ايضا ٠ اخ معتوه اخرس ٠ اما اخوها الاكبر ، الذي رأيته (والذي لا استطيع ان ابغضه برغم اني اكره افراد اسرته جميعا ، لأنَّ في عقله الضعيف بضع ذرات من الحنان تتمثل في اهتمامه الموصول بأخته البائسة وفي المودة البالغة ، الشبيهة بمودة الكلب ، التي كان يكنُّها لي في يوم من الايام) فأغلب الظن انه سوف ينتهي الى المصير نفسه ذات يوم ٠ لقد عرف والدي واخي راولاند هذا كله ولكنهما لم يفكرا الا بالثلاثين الف جنيه ، ولقد شاركا في المؤامرة المدبرة ضدي ٠

« كانت هذه مكتشفات خسيسة ٠ ولكن لولا الخداع الذي انطوى عليه اخفاؤها عني لما جعلتُها موضوع تعنيف لزوجتي ٠ وحتى عندما وجدت اطوارها مختلفة كل الاختلاف عن اطواري ، واذواقها بغيضة الى نفسي ، وطراز عقلها حقيرا ، وضيعا ، ضيقا ، عاجزا عجزا فريدا عن الانقياد الى ما هو اسمى وعن الانفساح لما هو ارحب ٠٠٠ عندما وجدت اني لا استطيع ان انفق معها ليلة واحدة او ساعة من ساعات النهار في اطمئنان ورفه ، وان لا سبيل الى الاستمرار في ايما حديث لطيف معها اذ كنت لا اكاد استهل موضوعا من موضوعات الكلام حتى اتلقى منها جوابا جافيا مبتذلا ، فاسدا واحمق في آن معا ٠٠٠ عندما ادركت اني لن اوفق الى خدم يرتضون الاستقرار في بيتي لان ايا منهم ما كان ليطيق سورات غضبها العنيفة غير المعقولة ومضايقات اوامرها الحمقاء المتناقضة ، المتطلبة ـ اقول حتى عندما اكتشفت ذلك كله كبحت جماح نفسي : لقد اجتنبت التعنيف ، واوجزت في الاحتجاج ٠ لقد حاولت ان ازدرد ندمي وتقززي في غير ما ضجة ، ولقد كظمت تلك الكراهية العميقة التي اعتملت في نفسي ٠

« جين ، انا لن ازعجك بسرد مختلف التفاصيل البغيضة : ان بعض الكلمات اللاذعة سوف تعبر عما اريد ان اقوله ٠ لقد عشت مع تلك المرأة التي في الدور الاعلى اربع سنوات ، لم تكد تنقضي حتى كنت قد بُليت منها بمحنة قاسية حقا : لقد اينعت شخصيتها وتطورت في سرعة رهيبة ، واطلعت رذائلها رأسها على نحو زنخٍ راسخ الجذور : كانت من القوة بحيث تعذر كبحها الا بالقسوة الوحشية ، ولكني ابيت اصطناع القسوة الوحشية ٠ لشد ما كان عقلها قزما ، ولشد ما كانت نزواتها عملاقة ! وما افظع البلايا التي انزلتها بي هذه النزوات ! لقد اورثتني بيرتا مايسون ـ الابنة البارة لأم فاقدة الاهلية ـ جميع ضروب الآلام الشنيعة المذلة التي لا بد ان تلازم رجلا موثقا الى امرأة هي في آن معا سكيرة وخليعة العذار ٠

« وفي غضون ذلك كان اخي قد توفي ، حتى اذا تصرَّمت السنوات

الاربع توفي ابي ايضا . وكنت انعم آنذاك بقدر من الغنى كافٍ ، ومع ذلك فقد كنت معسرا ابشع ما يكون الاعسار : كانت حياتي قد شُدّت الى مخلوقة لم ار اشد منها فظاظة وبذاءة وفسوقا ، مخلوقة يعتبرها القانون ويعتبرها المجتمع جزءا مني . وعجزت عن التخلص منها من طريق اللجوء الى الشرع واجراءاته المألوفة . ذلك بأن الاطباء اكتشفوا الان ان **زوجتي** مجنونة – كانت اشتطاطاتها قد ولّدت ، قبل الاوان ، بذور الخبل والجنون . جين ، انت غير مرتاحة الى سماع قصتي هذه ، اني لارى على وجهك امارات التقزز والغثيان ... هل ارجىء بقية القصة الى يوم آخر ؟ »

– « لا ، يا سيدي . اتمها الان : انا ارثي لك ... انا ارثي لك من كل قلبي » .

– « الرثاء ، يا جين ، لا يعدو ان يكون – حين يصدر من بعض الناس – ضربا من المنحة الوبيلة المهينة ، يحق للمرء ان يقذفها في وجوه واهبيها ، بيد ان هذا النوع من الرثاء خليق بالقلوب الانانية المتحجرة : انه الم هجينٌ اناني يعتور صاحبه عند سماعه ويلات الناس ، المٌ ملقّح بالازدراء الجاهل للذين المّت بهم تلك الويلات . ولكن هذا الرثاء ، ليس هو رثاءك ، يا جين . انه لا يتناغم مع العاطفة التي يطفح بها وجهك كله في هذه اللحظة ... والتي تكاد عيناك ان تفيضا بها الان ... والتي يجيش بها فؤادك ... والتي ترتعد بها يدك وهي في يدي . ان رثاءك ، يا حبيبتي ، هو أمُّ الحب المعذبة : وان الم المبرح هو الكرب نفسه الذي يرافق ولادة العاطفة الالهية . انى اتقبّله ، يا جين ، قبولا حسنا . دعي البنت ترى النور في حرية ... ان ذراعيَّ لمشوقتان الى استقبالها » .

– « والان ، تابع يا سيدي . ما الذي فعلته عندما وجدت انها قد خولطت في عقلها ؟ »

– « لقد اشرفت على شفير اليأس ، ولم يحل بيني وبين تلك الهاوية غير بقية من احترام الذات . كنت في أعين الناس مجلببا – من غير ريب – بلباس من الخزي قذرٍ ، ولكني وطنت العزم على ان اكون طاهرا في عين ذاتي ... ونأيت بنفسي ، حتى النهاية ، عن دَنَس جرائمها وترفعت عن كل اتصال بنقائصها العقلية . ومع ذلك فقد ربط المجتمع اسمي وشخصي باسمها وشخصها . وبرغم هذا كله بقيت اراها واسمعها كل يوم : كان شيء من انفاسها (أف !) يمازج الهواء الذي تنشّقته ، والى هذا فقد تذكرت اني كنت في يوم من الايام زوجها .. وكانت تلك الذكرى مقيتة الى نفسي آنذاك ، كشأنها اليوم ، على نحو يجل عن الوصف . وفوق هذا ، فقد ادركت اني لن اوفق البتة الى ان اصبح زوجا لامرأة اخرى ، لامرأة افضل ، ما بقيت هي على قيد الحياة . وعلى الرغم من انها كانت اكبر مني بخمس سنوات (لقد خدعتني اسرتها وخدعني ابوها حتى في مسالة سنها) فقد كان من المحتمل ان يُفْسَح من اجلها فتعمَّر قدر ما أعمِّر ، اذ لم يكن ثمة

ما يضارع ضعف عقلها غيرُ قوة بنيتها · وهكـذا انتهيـت ، وانا بعد في السادسة والعشرين ، الى حالٍ ميؤوس منها ·

« وذات ليلة ايقظتني صيحاتها من نومي (وكنـــا قد احتجزناهــا ، طبعا ، في احدى الحجرات بعد ان اعلن الاطباء جنونها) · وكانـــت ليلة نارية من ليالي جزر الهند الغربية ، من ذلك الضرب الذي يسبق ، عادة ، هبوب الاعاصير في تلك المناخات · واذ عجزت عن الاستسلام للنوم مـن جديد ، فقد نهضت من فراشي وفتحت النافذة · كان الهواء اشبه بأبخرة الكبريت ، فلم اجد في أي مكان ما ينعش نفسي · وتوافد البعوض بطنينه وازيزه ، وراح يدندن على نحو كالحٍ في ارجاء الحجرة · كان البحر ــ الذي سمعت هديره من هنــاك ــ يدمدم دمدمة مكظوظة مثـــل زلزال ، وكانـت السحب السوداء تتلبد فوقه ، وكان القمر يأفل بين الامواج ، عريض الوجه احمر اللون ، مثل قنبلة مدفع حارة ··· لقد القى آخر نظرة من نظراتـه الدامية على عالم يرتعد امام اختمار العاصفة · وكان الجو والمشهد قد اثرا في جسدي ، وكانت اذناي مليئتين باللعنات التي كانت المجنونة ما تـزال تطلقها ، مقحمة اسمـي فيهـــا ، بين الفينة والفينة ، بنبرة مـــن البغض الشيطاني وبلغة لم تصطنع ايما عاهرة محترفة اقذر من الفاظها قط · وعلى الرغم من ان غرفتين اثنتين كانتا تفصلانني عنها فقد سمعت كل كلمة ندت من فمها : ان جدران ذلك البيت من بيوت جزائر الهند الغربية لـم يعـق انطلاق صيحاتها الذئبية الا قليلا ·

« وقلت أخر الامر : هذه الحياة هي جهنم عينها ! وهذا هو هواؤهـا ··· وهذه هي أصداء هاويتها التي لا قرار لها ! ان لي لملء الحق في النجاة بنفسي منها اذا استطعت · وعندئذ تفارقني آلام هذه الحال المميتة مع هذا اللحم الثقيل الذي يرهق الان روحي · امـــا ابدية المتعصبين اللاهبة فــلا اخافها ، فليس ثمة حياة مستقبلة اسوأ من حيــاتي الحاضرة ··· فلأولٌ فرارا ، ولانقلب عائدا الى الله !

« قلت ذلك وانا اركع وافتح صنـدوقا اشتمـــل على مسدسيـــن مشحونين : كنت قد عزمت على الانتحـــار · ولكـن هذه النية لم تستحوذ عليّ الا لحظة واحدة ليس غير · ذلــك بأن ازمة القنوط الشديد الصِّرف ، التي كانت قد ولّدت الرغبة في قتل النفس والعزم عليه ما لبثت ــ بوصفي عاقلا غير مخبول ــ ان تلاشت في ثانية واحدة ··

« وهبت على الاوقيانوس ريح عليلة مقبلة من اوروبة ، واندفعت عبر النافذة المفتوحة · وانفجرت العاصفة ، وامطرت ، ورعَدت ، واومضت ، وغدا الهواء نقيا · عندئذ اتخذت قرارا وعقدت العزم على تنفيذه · فبينـا كنت اتمشى تحت شجرات البرتقال المبللة في حديقتي الندية وبين شجرات الرمان والاناناس المطورة ، وبينا كان فجر المناطق الاستوائية المتألق البهي يتقد من حولي ساورتني فكرة ، يا جين ··· والان اصيخي لي ، لان الحكمة

الحقيفية هي التي حملت الي العزاء في تلك الساعة ، وهدتني سواء السبيل ٠

« كانت الريح الاوروبية العليلة لا تزال توشوش اوراق الاشجار التي انتعشت بعد ذبول ، وكان المحيط الاطلسي لا يزال يرعد في حرية مجيدة ٠ واستبشر فؤادي بذلك اللحن ـ بعد ان اتت عليه فترة طويلة جف فيها وتصوّح ـ وفاض بالدم المحيي ٠٠٠ وتاق كياني الى التجدد ٠٠٠ وظمئت روحي الى جرعة صافية ٠ ورأيت الامل يبعث حيا ، واستشعرت ان التجدد ممكن ٠ ومن قوسٍ مزهرٍ في اقصى حديقتي رنوت الى البحر ـ وكان اشد من السماء زرقة ـ فألفيت العالم القديم وراءه ، وانفسحت مجالي المستقبل أمام ناظري على هذا النحو :

« لقد قال لي الامل : اذهب وعش في اوروبة من جديد ٠ فهناك لا يعرف احد اي اسم ملوث تحمل ، ولا اي عبء قذر يُنْقض ظهرك ٠ وفي استطاعتك ان تصطحب المجنونة الى انكلترة ٠ احبسها في ثورنفيلد واحطها باسباب الرعاية والاحتراس الضرورية ، ثم ارتحل انت الى ايما منطقة تشاء ، وانشىء ضروب العلاقات الجديدة التي تحلو لك ٠ ان هذه المرأة التي طالما لوثت اسمك ، وهاجت شرفك ، وصوحت شبابك ليست امرأتك ٠٠٠ لا ولست انت زوجها ٠ احرص على العناية بها وفقَ ما تقتضيه حالها تكن قد اديت كل ما يكلفك اياه الله وتكلفك اياه الانسانية ٠ ادفن هويتها وصِلَتها بك في مطاوي النسيان : ان عليك ان لا تفضي بهما الى ايما كائن حي ٠ احطها باسباب السلامة والرفه ، غلّف هوانها بالكتمان ، واهجرها ٠

« وعملت بهذا الايحاء في دقة بالغة ٠ كان ابي واخي قد كتما نبأ زواجي عن معارفهما ٠ لاني كنت قد الححت ، حتى في اول رسالة كتبتها اليهما معلنا اياهما نبأ زواجي ـ بعد ان شرعت بالغثيان من نتائجه ، وبعد ان رأيت على ضوء خُلق الاسرة ومزاجها ان مستقبلا بشعا ينتظرني ـ اقول لاني كنت قد الححت عليهما في تلك الرسالة ان يبقيا النبأ سرا من الاسرار ٠ وسرعان ما استفحل السلوك الشائن الذي سلكته الزوجة التي اختارها لي ابي استفحالا جعله يخجل من الاعتراف بها زوجة لولده ٠ واذ زهد في اعلان هذه المصاهرة على الناس فقد امسى حريصا على كتمانها كحرصي انا سواء بسواء ٠

« الى انكلترة نقلتها اذن ، ولقد كانت رحلة رهيبة حقا ومثل هذه الهولة على ظهر السفينة ! وسعدت اعظم السعادة عندما انتهيت بها اخر الامر الى ثورنفيلد ، وعندما رأيتها تُنْزَل آمنة في تلك الحجرة التي في الدور الثالث ، حيث جعلت من جزئها الداخلي الخفي ، طوال عشر سنوات متعاقبة ، وِجارا من اوجرة السباع الضارية ـ زنزانة غول من الغيلان ٠ ولقد لقيت بعض العسر في العثور على خادم تلازمها ، اذ كان علي ان اختار خادما ذات اخلاص يجعلها موضع الثقة ، ذلك بأن هذيانها كان لا بد له ان

يفضح سري . والى هذا فقد كانت لها فترات صحو او تعقل تستمر اياما ـ واحيانا اسابيع ـ تعودت ان تملأها بسببي وشتمي . واخيرا استأجرت غرايس بول من مستشفى المجاذيب في غريمسبي . وهي والجراح كارتر (الذي ضمد جراح مايسون ليلة طَعن ونُهش) هما الشخصان الوحيدان اللذين افضيت اليهما بسري . وجائز ان تكون مسز فيرفاكس قد ساورتها الريب . ولكنها ما كانت بقادرة على النفاذ الى الحقائق نفاذا دقيقا . فقد اثبتت غرايس ، على الجملة ، انها حارسة يقظة ، برغم ان يقظتها هذه خُدعت غير مرة واغريت بالتراخي ، وبعض ذلك راجع الى علة فيها هي ، علة يبدو ان ايما شيء لا يستطيع ان يشفيها منها وانها من الظواهر الملازمة لمهنتها المزعجة . فالمجنونة ماكرة ومؤذية في آن معا . وهي لم تغفل قط عن الافادة من الهفوات التي ارتكبتها حارستها ، فأخفت ذات مرة تلك المدية التي طعنت بها اخاها ، واستولت مرتين على مفتاح زنزانتها فغادرتها تحت جنح الظلام . وفي اولى هاتين المناسبتين حاولت احراقي وانا مضطجع في فراشي ، وفي ثانيتهما زارتك تلك الزيارة المروعة . واني لاحمد العناية الالهية ، التي حرستك ، على انها صبت نقمتها على ثوب زفافك ، الذي ربما اعاد الى مخيلتها بعض ذكريات عرسها الغامضة . ولكني لا اطيق التفكير في ما كان يمكن ان يحدث نتيجة لثورتها تلك . اني كلما تخيلت تلك المخلوقة التي انقضت على عنقي هذا الصباح تنحني بوجهها الاسود القرمزي على عُش يمامتي الحلوة ترتعد اوصالي ويجف الدم في عروقي .. »

فسألته وقد تمهل لحظة : « وما الذي فعلته ، يا سيدي ، بعد ان انزلتها هنا ؟ الى اين رحلت ؟ »

ـ « ما الذي فعلته ، يا جين ؟ لقد حولت نفسي الى وهم اجمي* . الى اين ارتحلت ؟ لقد همت على وجهي هيام الارواح على التخوم ما بين انكلترة واسكتلندة . ولقد شخصت الى اوروبة وطوفت في ارجائها كلها . كانت رغبتي الراسخة ان اهتدي الى امرأة صالحة ذكية استطيع ان احبها ... امرأة مغايرة كل المغايرة لتلك المسعورة التي خلّفتها في ثورنفيلد .. »

ـ « ولكنك لم تستطع ان تتزوج ، يا سيدي » .

ـ « كنت قد عقدت العزم على ذلك وكنت موقنا من ان في امكاني ذلك . ولم يكن في نيتي ، بادىء الامر ، ان اخدع عروسي عن نفسها كما قد خدعتك عن نفسك . لقد اعتزمت ان اقص عليها قصتي في وضوح وان اقدم اليها عروضي في صراحة . ولقد بدا لي ان من المنطقي ان اعتُبر حرا في ان احب واحَب . وكان هذا الظن من القوة والرسوخ بحيث لم اشك لحظة في اني لا بد واجدٌ امرأة ترغب في فهم قضيتي ، وتقدر على هذا الفهم ، ومن ثم ترتضيني زوجا لها ، على الرغم من اللعنة التي تنقض ظهري » .

---

* وهج يتراءى فوق الآجام في اثناء الليل . (المعرب)

ـ ثم ماذا ، يا سيدي ؟ »

ـ « كلما غلب عليك الفضول ، يا جين ، غلب علي الابتسام . انك تفتحين عينيك مثل طائر متلهف وتأتين بين الفينة والفينة بحركة قلقة . لكأن الاجوبة التي يشتمل عليها كلامي لا تتدفق نحوك في سرعة كافية ، او لكأنك تريدين ان تقرأي ما خُط على لوح فؤادي . ولكن قولي لي ، قبل ان اتابع الحديث ، ماذا تعنين بقولك « ثم ماذا ، يا سيدي ؟ » انها عبارة قصيرة كثيرا ما يضطرب بها لسانك ، عبارة استطاعت في كثير من الاحيان ان تستدرجني ، ولست ادري لماذا ، الى الافاضة في حديث لا نهاية له » .

ـ « اعني .. وماذا حدث بعد ذلك ؟ ما الذي فعلته ؟ ما الذي نشأ عن هذه الحادثة ؟ »

ـ « تماما . وما الذي تريدين ان تعرفيه الان ؟ »

ـ « اريد ان اعرف هل وجدت ايما امرأة خفق بحبها قلبك ، وهل سألتها ان تقبل بك بعلا ، وماذا كان جوابها ؟ »

ـ « في استطاعتي ان اقول لك ما اذا كنت قد وجدت ايما امرأة خفق بحبها قلبي ، وما اذا كنت قد سألتها ان تقبل بي بعلا ، اما جوابها فلمّا يدوَّن بعد في سجل القدر . لقد ضربت في الارض طوال عشر سنوات ، اقيم في هذه العاصمة مرة ، وفي تلك العاصمة مرة : احيانا في سانت بطرسبرج ، ومعظم الاحيان في باريس ، وبين الفينة والفينة في رومة ، او نابولي ، او فلورنسة . واذ كنت متزودا بثروة ضخمة وبجواز سفر يحمل اسما عريقا فقد استطعت ان اصطفي المجتمعات التي تاقت اليها نفسي : ان ايما وسط من الاوساط لم يوصد ابوابه في وجهي . لقد رحت ابحث عن المرأة التي اعتبرتها المثل الاعلى لبنات جنسها ، فالتمستها بين السيدات ※ الانكليزيات ، والكونتيسات الفرنسيات ، والسينيورات الايطاليات ، والغرافينات الالمانيات . ولكني لم اهتد اليها . وكان يخيل الي في بعض الاحيان ، خلال لحظة عابرة ليس غير ، اني لمحت نظرة او سمعت جَرْسا او شهدت شكلا يؤذن بتحقيق حلمي ، ولكني سرعان ما كنت افيق على الحقيقة . ولا يذهب بك الظن الى اني نشدت الكمال ، سواء في العقل او في الجمال . لا ، لقد تقت الى نقائض تلك المرأة الخلاسية ، ولكن توقي كان على غير طائل . فبينهن جميعا لم اجد واحدة خليقا بي لو كنت املك الحرية ـ انا الذي خبرتُ مخاطر الزواج غير الملائم واهواله وتقززاته كلها ـ ان اسألها الزواج مني . واحالتني خيبة الامل الى فتى متهور طيّاش . ففزعت الى الملذات انغمس فيها ، ولكن ليس الى الفسوق البتة : فهذا شيء كرهته ولا ازال اكرهه . كانت هذه هي حسنة « ميسّالينتي » ※※

※ في الاصل ladies وهي جمع « لايدي » . (المعرب)

※※ Messalina الزوجة الثالثة للامبراطور الروماني كلوديوس وكانت معروفة بفسوقها . وقد توفيت عام ٤٨ بعد الميلاد . (المعرب)

الهندية : ان اشمئزازي منها ومن فسوقها ذلك الاشمئزاز الراسخ الجذور كان يكبح من جماحي اشد الكبح ، حتى في لحظات الانغماس في الملذات • ولقد خيل الي ان كل متعة معربدة كانت تدنيني منها ومن رذائلها ، فانأى بنفسي عنها واجتنبها •

« ومع ذلك فلم استطع ان اعيش وحيدا • وهكذا جربت معاشرة الخليلات • ولقد وقع اختياري اول ما وقع على سيلين فارينز ـ وتلك خطوة اخرى من تلك الخطى التي تجعل المرء يزدري نفسه حين يتذكرها • وانت تعرفين حقيقة هذه المرأة وكيف انتهت صلتي بها • وكانت لسيلين خليفتان : احداهما ايطالية ، هي جيبيا سينتا ، والاخرى المانية ، هي كلارا • وكان الناس يعتبرون كلا منهما امرأة ذات جمال فذ • ولكن الامَ انتهى جمالهما ، في نظري ، بعد اسابيع معدودة ؟ كانت جيبيا سينتا امرأة مخادعة نزاعة الى العنف فسئمتها في مدى ثلاثة اشهر • وكانت كلارا مخلصة مؤثرة للهدوء ، ولكنها كانت بليدة ، حمقاء ، متحجرة الفؤاد ، لا يسيغها ذوقي البتة • ولقد سعدت بان امنحها مبلغا من المال كافيا لان يمكنها من العيش من احدى الصناعات الصالحة ، وهكذا تخلصت منها بطريقة لائقة • ولكني اتبين في وجهك ، يا جين ، انك لم تكوّني عني حتى الان فكرة حسنة جدا • انت تحسبينني خليعا عاطلا عن الشعور ، فاجرا لا يقيم للمبادىء وزنا • اليس كذلك ؟ »

ـ « الواقع اني لا اكنّ لك مثل ذلك الحب الغامر الذي استحوذ عليّ في فترة سابقة ، يا سيدي • الم يبدُ لك ، بأية حال ، ان من الخطل ان تحيا على ذلك النحو : مع هذه الخليلة حينا ، ومع تلك حينا ؟ انك تتحدث عن مسلكك هذا وكأنه مسلك طبيعي الى ابعد الحدود » •

ـ « كان مسلكا طبيعيا بالنسبة الي ، ولكني لم احبه • كان ضربا من الحياة الخسيسة ، وخليق بي ان لا انزع الى العودة اليه البتة • ان استئجار خليلة ما لصنيعٌ بغيض الى النفس ـ صنيع ليس ثمة ما هو اشنع منه غير شراء جارية ما • وكلتا الخليلة والجارية وضيعة بفطرتها في اكثر الاحوال ، وضيعة بمركزها الاجتماعي في جميعها • والعيش مع الوضعاء ، في غير ما كلفة ، مذل مهين • واني لاكره الان ذكرى الايام التي سلختها مع سيلين ، وجيبيا سينتا ، وكلارا » •

وجدت في هذه الكلمات حرارة الصدق • وخلصت منها الى هذه النتيجة اليقينية : لو قدِّر لي ان انسى نفسي وجميع التعاليم التي لقّنتها في طفولتي ، وان اصبح ـ مهما تكن الذريعة ، وايا ما كان المبرر ، وتحت وطأة ايما اغراء ـ خليفة هاته الفتيات البائسات ، اذن لكان خليقا به ان يستشعر نحوي مثل هذا الشعور الذي يدنس الان ذكراهن في ذهنه • ولم افصح عن هذا اليقين : كان حسبي ان احس به احساسا • ولقد نقشته في قلبي رجاة ان يستقر هناك لكي يهرع لنجدتي عند المحنة •

ـ « والان ، يا جين ، لماذا لم تقولي : « ثم ماذا يا سيدي ؟ » انا لم انته بعد • ان علائم الغم لتبدو على وجهك • واني لارى انك لا تزالين تستنكرين مسلكي • ولكن دعيني اصل الى النقطة الجوهرية • ففي كانون الثاني (يناير) المنصرم دعاني داع من عمل الى العودة الى انكلترة ، وكنت قد تخلصت من خليلاتي جميعا ، فانقلبت راجعا ، يغلب علي مزاج قاس مرير ـ هو ثمرة الحياة العابثة ، الهائمة ، المتوحدة ـ وتتأكلني الخيبة ، ويقرضني الحقد على الناس جميعا ، وبخاصة على النساء كجنس (ذلك بانني بدأت اعتبر ان المرأة المحبة المخلصة المفكرة لا وجود لها في دنيا الواقع •• انها مجرد حلم من الاحلام) •

« وذات اصيل شتوي يلفه الصقيع ، انطلقت بجوادي حتى اصبحت على مقربة دانية من قصر ثورنفيلد • يا لها من بقعة بغيضة ! انا لم اكن اتوقع ان اجد فيها ايما أمن او هناءة • وعلى سلم السياج في طريق « هاي » رأيت مخلوقة ضئيلة الجسم جالسة وحدها في وداعة • فاجتزت بها بمثل اللامبالاة التي اجتزت بها بالصفصافة المشذبة التي كانت تواجهها : ان قلبي لم يحدثني بأيما شيء استشف منه اية منزلة سوف تحتل من فؤادي ، لا ، ولم ينبئني اي هاتف باطني بأن الفتاة التي ستكون لها الكلمة الفاصلة في حياتي والجنية التي ستلهمني الخير او الشر كانت تنتظرني هناك متنكرة بقناع بسيط متواضع • انا لم اعرفها ، حتى عندما كبا « مسرور » بي وهرعت كاسفة البال تعرض علي العون والمساعدة • يا للمخلوقة الطفلية المهزولة ! لقد بدا وكأن زقيقية * راحت تثب عند قدمي وتقترح حملي على جناحها الضئيل • وقابلتها في شكاسة وعبوس ، ولكن تلك المخلوقة أبت ان تنصرف • لقد لزمت مكانها الى جانبي في عناد غريب ، ونظرت اليّ وحدثتني بضرب من السلطان • كان علي ان احظى بالعون ، ومن تلك اليد ! ولقد حظيت بالعون فعلا •

« ولحظة ضغطت على تلك الكتف الهشة سرى في اوصالي شيء غريب علي : نسغٌ جديد ، واحساس لم اعرفه من قبل • وابتهجت عندما علمت ان هذه العفريتة الصغيرة سوف ترجع معي ••• انها تقيم في قصري ذاك ، القائم هناك ، والا لما كان في طوقي ان ادعها تفر من تحت يدي وان اراها تختفي خلف السياج القاتم من غير ان يستبد بي ندم فذ • وسمعت وقع خطاك وانت تعودين الى القصر تلك الليلة ، يا جين ، على الرغم من انك لم تعي في اغلب الظن اني فكرت فيك او انتظرت عودتك • وفي اليوم التالي راقبتك ـ من غير ان تريني ـ طوال نصف ساعة فيما كنت تلعبين مع آديل في الرواق • انا اذكر انه كان يوما تساقط فيه الثلج فلم يكن في ميسوركما ان تنطلقا خارج الجدران • وكنت انا في حجرتي ، وكان الباب

---

* طائر صغير ياكل حب الكتان •

مفتوحا نصف فتحة : لقـــد كان في وسعي ان اصغي وارى في آن معا · واستحوذت آديل على انتباهك الخارجي فترة من زمان ، ومع ذلك فقد خيل الي ان افكارك كانت شاردة في مكان اخر : ولكنك كنت طويلة الاناة معها الى حد بعيد ، يا صغيرتي جين · لقد تحدثتِ اليها وسلَّيتها برهة طويلة· حتى اذا فارقتكِ اخر الامر استغرقت على التو في حلـم عميق من احـلام اليقظة : لقد مضَيتِ في تؤدة لتذرعي الرواق · وبين الفينة والفينة كنت تطلين ــ كلما اجتزت باحدى النوافذ ــ وتلقين نظرةً على الثلج المسَّاقط في كثافة ، وتصيخين الى الريح المنتحبة ، لتعاودي من ثم ســيرك الرفيق واستسلاك للاحلام · واحسب ان احلام اليقظة تلك لم تكن قاتمــة ، فقد كان يلتمع في عينيك احيانا بريق بهيج ويغلب على محياك اهتياج رفيق لا ينمان عن تفكّر مرير ، صفراوي ، ميلانخولي : بل لقد نمَّت اساريرك عن تلك التأملات العذبة التي يهيم الشباب في واحتها عندما تساير روحه ، على اجنحة مطواعة ، طيران الامل نحو سماء مثالية · وايقظـك صـوت مسز فيرفاكس ، وكانت تتحدث الى خادم في الردهة ، وكم كانت بديعة تلـك الابتسامة التي افترت عنها شفتاك بينك وبين نفسك ، يا جين ! لقد كان في ابتسامتك كبير معنى : كانت لبيبة جدا ، وبدا وكأنها تلقي ضوءا على شرود ذهنك · لقد خيل الي انها تقول : « ان رؤاي الرائعة حسنة جـدا ، ولكن علي ان لاانسى انها وهمية بكل ما في الكلمـــة مـن معنى · ان في مخيلتي لسماء وردية ، وجنة خضراء مورقة · اما في خارجها ، وانا اعي ذلك اكمل الوعي ، فتنبسط تحت قدمي طريق وعرة علي ان اسلكها ، وتتجمع من حولي عواصف سوداء يتعين علي ان اواجهها » وهبطتِ السلم مسرعة ، وسألت مسز فيرفاكس ان تعهد اليك بعمل ما ، كتسوية حسابات القصـر الاسبوعية ، في ما اظن ، او شيء من مثل ذلـــك · واغتظـت انا منك ، لابتعادك عن متناول ناظري ·

« وفي فروغ صبر ، رحت ارتقب هبوط الليل ، اذ كان في ميسوري آنذاك ان ادعوك الى المثول بين يدي · لقد خيل الي انه كان لك خُلق غير مألوف ، خُلقٌ كان عندي جديدا بالكلية ، ولقد تقت الى ان اسبر غوره ·· الى ان اعرفه معرفة افضل · ودخلت الحجرة وعلى محياك سيماء تنـــم عن حياء واستقلال في الرأي ، في آن معا : كنت ترتدين ثيابا غريبة ··· كمثل الثياب التي ترتدينها الان · واستدرجتك الى الكلام ، ولم يمض طويل وقت حتى اكتشفت انك حافلة بالمتناقضات العجيبة : كانت ملابسك واخلاقـك متزمتة تقيدها قواعد العرف ، وكانت تصرفاتك حيية في معظم الاحيـان ، جديرة بفتاة صقلتها الطبيعة ولكنها لم تألف الحياة الاجتماعية البتة ، فتاة تخشى اشد الخشية ان يندَّ من شفتيها هراء ما او ترتكب خطأ فاضحـــا يجعلانها موضع سخرية السامع ، ومع ذلك فقد كنت كلما وُجِّــه الكلام اليك ترفعين الى وجه مخاطبك عينا ملتمعة ، جريئة ، ثاقبة : كان ثمة نفاذ وقوة في كل نظرة من نظراتك ، حتى اذا الح عليك مخاطبك بأسئلة محرجة

سارعت الى الرد عليه بأجوبة حاضرة وصريحة • وما هي غير فترة قصيرة حتى بدا وكأنك قد الفتِ معاشرتي : وانا اعتقد انك استشعرت مشاركة وجدانية بينك وبين سيدك المتجهم النزق ، يا جين ، اذ كان من دواعي دهشي ان ارى بأية سرعة بالغة كانت الطمأنينة العذبة تهدىء من روعك • كنت مهما دمدمتُ او كشرتُ لا تتكشفين عن ايما دهش او خوف او تبرم او استياء من نكدي وشكاستي ، وكنت تراقبينني ، وتبتسمين لي بين الفينة والفينة في لطف بسيط ولكنه اريب ، لطفٍ يعجز بياني عن وصفه • كنت في آن معاً راضيا ومُثارا بما قد رأيت : لقد احببت ما رأيت وطمعت في مزيد • ومع ذلك ، فقد عاملتكِ ، طوال فترة غير قصيرة ، في شيء من التحفظ ، ولم اقصد الى الاجتماع بك الا نادرا • كنت ابيقوري الهوى ، عقليا ، وكنت اريد ان اطيل أجَلَ الاستمتاع بهذه الصداقة الجديدة الحرّيفة • والى هذا ، فقد استحوذ علي ، فترة من الزمان ، خوف صور لي اني اذا لمست الزهرة في غير احتراس ذبل بهاؤها ••• وفارقها سحر النضارة العذب • انا لم اعرف آنذاك انه لم يكن تفتحا زائلا البتة ، ولكنه ضرب من التفتح المشع المميز لزهرة منقوشة في جوهرة ممتنعة على التلف والفساد • وفوق هذا ، فقد احببت ان ارى ما اذا كنت سوف تسعين للقائي ان عمدتُ الى اجتنابك ••• ولكنك لم تفعلي • لقد لزمت حجرة الدرس جامدة مثل مقعدك ومسند رسمك ، فاذا ما اتفق لي ان لقيتك مصادفة اجتزتِ بي في سرعة ولا مبالاة لا يخفف من غلوائهما غير حرصك على التشبث بأهداب الاحترام • وكانت انطباعتك المألوفة في تلك الايام ، يا جين ، سيماء متفكرة : لم تكن قانطة ، اذ لم تكوني آنذاك رقيقة الصحة، ولكنها لم تكن بهيجة اذ كان صدرك لا ينطوي الا على قليل من امل ، وكانت نفسك لا تعرف الحبور الحقيقي البتة • وتساءلت : ترى ما رأيك فيَّ ، أو هل كنت تولينني جانبا مهما يكن ضئيلا من تفكيرك • ولكي أهتدي الى جواب لهذين السؤالين استأنفت مراقبتي لك • كان ثمة مسحة من البهجة على محياك ، وشيء من الود في تصرفاتك ، كلما تحدثتِ • لقد رأيت ان لك قلبا اجتماعيا يأنس بالمعاشرة ، وان حجرة الدرس الصامتة ورتابة حياتك هما اللتان اوقعتا الكآبة في نفسك • وأجزت لنفسي ان تسعد بالتلطف في معاملتك ، وسرعان ما أثار التلطف عاطفتك : لقد غدا وجهك رقيق الانطباعة ، وغدت لهجتك رقيقة • وكنت أطرب لسماع اسمي يلفظ من بين شفتيك في نبرة سعيدة ترشح بالاعتراف بالجميل • وكان من دأبي أن استمتع ببعض اللقاءات العَرَضية معك ، يا جين ، في تلك الفترة • لقد كان في تصرفاتك تردد غريب : كنت تنظرين الي في قلق طفيف ••• في ارتياب مخيم ، ذلك بأنك كنت تجهلين أي مزاج كان خليقا به ان يغلب علي آنذاك : أأعتزم ان امثل دور السيد فأصطنع القسوة ، أم امثل دور الصديق فأفزع الى الرأفة • ولكني كنت قد امسيت آنذاك مولعا بك ولوعا جعل من المتعذر علي ان اعمد الى اثارة النزوة الاولى ، وكنت اذا ما بسطت يدي نحوك في محبة،

اشرقت اساريرك الغضة الكئيبة بتهلل وضيـــاء وسعادة جعلتني القى عسرا بالغا ، في كثير من الاحيان ، في اجتناب ضمك الى قلبي » ٠

ـ «ارجوك ان تكتفي بهذا القدر من الحديث عن تلك الايام ، يا سيدي» كذلك قاطعته ، وأنا اكفكف عبرات ترقرقت في عيني ٠ كانت كلماته تعذِّب نفسي ، ذلك بأني كنت اعرف ما الذي يتعين علي ان افعلــــه ـ وان افعلـه وشيكا ـ وكانت هذه الذكريات وهذه المكاشفات العاطفية لا تزيد مهمتي الا صعوبة وعسرا ٠

فقال : « أجل ، يا جين ، سوف اكتفي بهذا القدر ٠ وأية حاجة لي في الاسهاب في الكلام على الماضـــــي ما دام الحاضـر ادعى الف مرة الى الثقـة والاطمئنان ٠٠٠ وما دام المستقبل احفل الف مرة بالبشر والاشراق ؟ »

وارتعدت لسماع ذلك التوكيد المتيّم المخبول ٠

واردف يقول : « انت ترين ، الان ، حقيقة الوضع ٠٠٠ اليس كذلك ؟ فبعد ان سلخت سنوات شبابي ورجـــولتي في شقاء يعز على الوصف ، من ناحية . وفي توحد موحش ، من ناحية ، اكتشفت للمرة الاولى من استطيع أن احبه حبا حقيقيـا ٠٠٠ اكتشفتك **أنـت** ٠ انت شقيقة روحـي ٠٠٠ انت نفسي الفضلى ٠٠٠ انت ملاكي الكريم ٠ ان حبا عارما ليشدني اليك ، واني لاراك فتاة طيبة ، موهوبة ، بهية الطلعة ٠ ان فؤادي ليضمر لك عاطفة مهيبة متقدة ٠ وهذه العاطفة تجنح اليك ، وتجذبك الى قلب حيـــاتي وينبوعها ، وتلفك بكياني ٠٠٠ وتصهرك وتصهرني ، بلهبها الطاهر المشبوب ، في كلٍّ واحــــد ٠

« وانما كان احساسي بهذا وادراكي اياه همـــا الحافزين اللذين جعلاني اعقد العزم على البناء بك ٠ وما قولك ان لي زوجـــة غير سخرية فارغة ، فأنت تعرفين الان انه ليس لي غير شيطانة رهيبة ٠ لقد اخطأت عندما حاولت أن اخدعك ، ولكني خشيت عنادا يتسم به خلقك ٠ لقـــد خشيت ان تؤدي مصارحتك بالواقع الى اشراب قلبك بكراهية لي مبكرة ، ولقد اردت ان اطمئن الى انك قد صرتِ ملكي قبل الافضاء اليك بأي حديث ينطوي على مخاطرة ٠ وكان ذلك جبنا : فقد كان علي ان استصرخ نبلك وشهامتك اولا ، كما أفعل الان ٠٠٠ ان اصارحك بحيـــاتي الطافحة بالالام ٠٠٠ ان اصف لك جوعي وظمأي الى حياة اسمى واجـــدر ٠٠٠ ان اظهِر لك ، لا **عـزمي** (فهذه كلمـة ضعيفة) بل **تصميمي** الذي لا يقاوم على ان احب في اخلاص وقوة من يبادلني الحب في اخلاص وقوة ٠ وبعد ذلك كان يتعين عليَّ ان اسألك ان تأخذي عليَّ عهد الوفاء ، وان تعطيني عهدك ٠ جين ، عاهديني ، الان على الوفاء ! »

وران الصمت ٠

ـ « لم لا تتكلمين يا جين ؟ »

كنت اجتاز محنة قاسية : لقد اعتصـــــرت فؤادي يد حديدية ملتهبة ٠ وكانت لحظة رهيبة ، ملأى بالنضال ، والكـآبة ، والاحتراق ! ان ايما كائن

بشري قدّر له ان يحيا على سطح هذه الارض لم يكن في ميسوره ان يطمع في ان يلقى من الحب اكثر مما لقيت ، ولقد عبدت أنا ، بكل ما في الكلمة من معنى ، ذلك الذي احبني هذا الحب كله · ومع ذلك فقد كان علي أن اشيح عن الحب وعن المعبود في آن معا ! كان ثمة كلمة واحدة موحشة تشتمل على واجبي الثقيل الذي لا يطاق : « الرحيل ! »

ـ « جين ، انت تفهمين ما اريده منك ··· أنا لا اريد غير هذا العهد : « سوف أكون ملكك ، يا مستر روتشيستر ! »

ـ « مستر روتشيستر ، أنا **لـن** أكون ملكك » ·

وران صمت طويل كرة اخرى ·

فاستطرد في رقة حطمتني باللوعة والاسى وحجّرتني برعب مشؤوم ، فقد كان صوته برغم هدوئه أشبه بلهاث اسد : « جين ، اتعتزمين ان تتخذي لنفسك طريقا في الحياة ، وان‌تدعيني اتخذ لنفسي طريقا مختلفة ؟ »

ـ « نعم ، اعتزم ذلك » ·

ـ « جين ، (ومال علي وعانقني) الا تزالين تعتزمين ذلك الان ؟ »

ـ « نعم ، لا ازال » ·

ـ « والان ؟ » وطبع على جبيني وخدي قبلات رقيقة ·

ـ « نعم ، لا ازال ··· » وتحررت من اساره تحررا سريعا وكاملا ·

ـ « أوه ، جين ، هذا مرير ! هذا ··· هذا اثم · انه ليس من الاثم ان تحبيني » ·

ـ « ومن الاثم ان اطيعك » ·

فرفعت حاجبيه سيماء ضارية عصفت بملامح وجهه · ونهض ، ولكنه ظل معتصما بالصبر · ووضعت يدي على ظهر احد الكراسي حذَر السقوط · لقد ارتعدت اوصالي ··· لقد خفت ··· ولكني عقدت العزم ·

ـ « لحظة واحدة ، يا جين · فكري لحظة واحـــدة في ما ستؤول اليه حياتي الرهيبة عندما ترحلين · ان السعادة كلها سوف تمزّق بذهابك · ما الذي سيبقى لي بعد ذلك ؟ لن تكون لي زوجة غير تلك المجنونة التي في الدور العلوي ، غير جثة اشبه بتلك الجثث الراقدة هناك في المقبرة ··· ما الذي سأفعله ، يا جين ؟ الى من سأتطلع التماسا للرفيق ··· التماسا لشيء من أمـــل ؟ »

ـ « افعل ما افعله أنا · ضع ثقتك في الله وفي نفسك · آمن بالسماء · أرجُ ان نلتقي هناك كرة اخرى » ·

ـ « واذن فأنت لن تدعني ؟ »

ـ « لا » ·

فقال وقد ارتفع صوته : « واذن فأنت تحكمين علي بأن احيا بائسا ، وبأن اموت ملعونا » ·

ـ « انا انصح لك ان تعيش من غير خطيئـــة ، وأرجو لك ان تموت

في ســـلام » ٠
ـ « واذن فأنت تسلبينني الحب والبراءة ؟ انك تردينني الى الشهوة استغني بها عن الهيام ، والى الرذيلة املأ بها ساعات حياتي ؟ »

ـ « أنا لا افرض عليك هذا المصير البتة ، يا مستر روتشيستر ، الا اذا كنت انا ارتضيه لنفسي واتشبث به ٠ لقد خُلِقنا لكي نكدح ونحتمل ٠٠ شأنك في ذلك كشأني ٠٠٠ فاعمل وفق ما خلِقتَ له ٠ ولسوف تنساني قبل ان انساك » ٠

ـ « انك تتهمينني ، بهذا الكلام ، بالكذب والبهتان : انك تغمزين من قناة شرفي ٠ لقد اعلنت اني لا استطيع ان اتغير ، ومع ذلك فانك تقولين لي ، في وجهي ، اني سوف اتغير وشيكا ٠ ولشد ما يثبت سلوكك مدى الانحراف في حكمك ، ومبلغ الضلال في آرائك ! أيـــكون دفع اخٍ لك في الانسانية نحو اليأس والقنوط خيرا من مخالفة مجرد قانون بشري ٠٠٠ قانون لن يُنزل انتهاكه اذىً ما بأي امرىء من الناس ؟ ذلك بأنه ليس لك انسباء ولا معارف تخشين اغضابهم بالعيش معي » ٠

وكان هذا صحيحا ٠ وفيما كان يتكلم خانني ضميري نفسه وعقـــلي نفسه ، وأتهماني بالاجرام اذا ما قاومته ٠ لقد تكلما بصوت لا يقل ارتفاعا عن صوت العاطفة ، وكانت هذه قد صرخت في ضـــراوة لقد قالت : « اوه ، اذعني ! فكري في بؤسه ، فكري في الخطر الذي يحف به ٠٠٠ تصوري حاله بعد ان تتركيه وشأنه . تذكري طبيعته الرعناء ، اعتبري الطيش الذي لا بد ان يعقب يأسه ٠٠٠ هدئيه ، إنقذيه ، احبيه ، قولي له انك تحبينه وانك سوف تكونين له ٠ من الذي يحفل **بـك** في العالم كله ؟ او من ذا الذي سوف يمسه الاذى من جراء ما تفعلين ؟ »

ومع ذلك فقد كان الجواب جَموحا لا سبيل الى تطـــويعه : انا احفل بنفسي ٠ وكلما اشتد توحدي ، وقل اصدقائي ،وعدمتُ من يعيلني ازداد احترامي لنفسي ٠ سوف اتشبث بالشريعـــة التي سنها اللـه ، وأقرهـــا الانسان ٠ سوف اتعلق بالمبادىء التـي لُقِّنتُها يوم كنت عاقلة ، لا وأنـــا مخبولة ٠٠٠ كشأني اليوم ٠ ان الشرائع والمبادىء لم تُجعل للاوقات التي يُفتقد فيها الاغراء : لقد جُعِلَتْ للحظات مثل هذه اللحظة ، عندما يتمرد الجسد والروح على قسوتها ٠ والحق انها صارمة ، ومصونةً سوف تظل ٠ واذا ما اجزت لنفسي ان انتهك حرمتها كلما حلا لي ذلك فأية قيمة تبقى لها ؟ ان لها لقيمة ٠٠٠ هذا ما آمنت به دائما ، واذا كنت لا استطيع ان اؤمن به الان فما ذلك الا لانني مخبّلة ٠٠٠ مخبّلة بكل ما في الكلمة من معنى : تسري النار في عروقي ، ويخفق قلبي بأسرع مما استطيع ان احصي نبضاته ٠ ان الآراء المدركة على نحو سبقي والقرارات المتخذة سلفا هي كل ما أملك الان ان الزمه واخلص له ، وهناك يجب ان أثبت قدمي » ٠

ولقد اثبتّها فعلا ٠ وقرأ مستر روتشيستر اسارير وجهي فأدرك اني

اقدمت على ذلك · كان حنقه قد استثير الى أبعد حدود الاستثارة ، فـ ستسلم له لحظة ايا ما كانت العاقبة · وهكذا عبر ارض الحجرة ، وقبض على ذراعي وأمسكني من خصري · لقد بدا وكأنه يفترسني بنظراته اللاهبة · وفي تلك اللحظة استشعرت ، جسديا ، اني عاجزة مثل عقب من اعقاب الحنطة عُرِّض لانفاس احد الافران ووهج ناره · أما عقليا فقد بقيت مالكة زمام نفسي وثقتي بالسلامة المطلقة · ومن حسن الطالع ان للنفس متـــرجما ـ كثيرا ما يكون لا واعيا ولكنه برغم ذلك صادق ، وما ذلك المترجم غير العين · ولقد ارتفعت عيني لتواجه عينه ، وفيما كنت احدق الى وجهـــه الضاري اطلقت زفرة لا ارادية · كانت قبضته موجعة وكانت قوتي المجهدة قد نفدت او كادت ·

وقال وهو يصرُّ بأسنانه : « ان ايما شيء لم يبلغ قط من قبل مبلغ هذه المخلوقة من الهشاشة ومبلغها من الصلابة في آن معا · اني لاحس بها بين يدي وكأنها مجرد قصبة ! (وهزني بقبضته القـــوية) ان في ميسوري أن الويها بسبابتي وابهامي : ولـكن أية فائدة ارتجيهـــا اذا ما لويتها ، اذا مـا اقتلعتها ، اذا ما سحقتها ؟ انظر الى تلك العين : تأمل ذلك الشـــيء الحر ، الضاري ، المصمم المطل منها ليتحداني بما هو اكثر من الشجاعة ··· بانتصار صارم · اني مهما افعل بقفصها ـ يا للمخلوقة المتوحشة الجميلة ! ـ أظل عاجزا عن بلوغها · ولو اني مزقت هذا القفص الضئيل اذن لما ادى هياجي الى اكثر من اطلاق سراح الاسير · اني قد اوفق الى احتلال ذلك المثوى ، ولكن نزيلته سوف تفر الى السمـــاء قبل ان استطيع الاعتزاز بأني مالـــك بيتها الفخاري · انك انت ، ايتها الروح ـ بعزيمتك وطاقتك ، بفضيلتك وطهارتك ـ ما اتوخاه واريده ، لا هيكلك الهش فحسب · وخـــليق بك ، ان تُركت لك الحرية ، ان تطيري في رقة ورشاقة وتستكني في فؤادي اذا شئتِ · اما اذا اكرهت على ذلك برغم ارادتك فعندئذ لا بد ان تفري من قبضة اليد مثل عطر من العطور ··· انك سوف تتلاشين قبل ان استروح عبيرك الفاغم · اوه ، تعالي ، يا جين ، تعالي ! »

قال ذلك واطلقني من مخالبه ، واجتزأ بالتحديق الي · كانت نظرته تلك اقسى من ضغطه المسعور واكثر امتناعا على المقاومة · بيد ان الابله وحده ينزع الان الى الاستسلام · لقد تحديت ثورته واحبطتها ، فيتعين علي ان انجو بنفسي من سلطان اساه · وهكذا انسحبت نحو الباب ·

ـ « أنت ذاهبة ، يا جين ؟ »

ـ « انا ذاهبة ، يا سيدي » ·

ـ « ولسوف تتركينني ؟ »

ـ « نعم » ·

ـ « الن تأتي ، الن تكوني مؤاسيتي ومنقذتي ؟ ··· وحبي العميق ، وبليَّتي الضارية ، وضراعتي المشبوبة ، اليس لها كلها ، عندك ، أي اعتبار ؟ »

يا للشجن المكبوح الذي انطوى عليه صوته ! وكم كان عسيرا علي أن

اجيب في ثبات : « انا ذاهبة » ٠

ـ « جيـــن ! »

ـ « مستر روتشيستر ! »

ـ « ارحلي اذن ٠٠٠ انا اوافق ٠٠٠ ولكن تذكري : انك تخلّفينني هنا فريسة لكرب عظيم ٠ اصعدي الى حجرتك ، فكري في كل ما قلته لك ، يا جين، والقي نظرة على آلامي ٠٠٠ فكري بي » ٠

واستدار ، وانطرح على وجهه على الاريكة ، ومن شفتيه انطلقت هذه الكلمات في ألم مبرّح : « أوه ، جين ! ٠٠٠ يا أملي ٠٠٠ يا حبي ٠٠٠٠ يا حياتي ! » وارسل زفرة عميقة قوية ٠

وكنت قد انتهيت الى الباب ٠ ولكني ، ايها القارىء ، عدت ادراجي ٠٠٠ عدت ادراجي بمثل العزم والتصميم اللذين كنت قد انسحبت بهما ٠ وركعت ازاءه ، وادرت وجهه المكبّ على الوسادة ، نحوي ، وطبعت على خده قبلة ، وامررت يدي على شعره في رفق ٠

وقلت : « فليباركك الله ، يا سيدي الغالي ٠ فليصنك الله مـن الاذى والخطأ ٠٠٠ ليهدك سواء السبيل ، ويوقعْ في قلبك العزاء ٠٠٠ فليُحْسن ثوابك على ما ابديته من سالف عطف علي » ٠

فأجاب : « ان حب جين الصغيرة كان خليقا به ان يكون خير ثواب لي ٠ بدونه ينفطر قلبي ٠ ولكن جين سوف تجود علي بحبها : اجل ، سوف تجود علي به في نبل وفي سخاء » ٠

وشاع الدم في وجهه ، وانطلق الشرر من عينيه ، وانتصب واقفا ٠ لقد بسط ذراعيه نحوي ، ولكني اجتنبت عناقه ، وغادرت الحجرة في الحال ٠

ـ « وداعا ! » تلك كانت صيحة فؤادي وانـا افارقه ٠ ثم ان اليـأس اضاف : « وداعا ، الى الابد ! »

في تلك الليلة لم يخطر ببالي ان انام قط ٠ ولكن الكرى غلب علي حالما اضطجعت في الفراش ٠ وحُملت على جناح الفكر الى مسارح الطفولة : لقد حلمت اني في الحجرة الحمراء في قصر غايتسهيد ، وان الليل حالك ، وان مخاوف غريبة استحوذت على عقلي ٠ وبدا لي وكأن الضوء الذي ذهب برشدي في ذلك العهد البعيد ، والذي انبعث من جديد في هذه الرؤيا ، قد انزلـق متسلقا الجدار واستقر مرتعشا في منتصف السقف القاتم ٠ ورفعت رأسي لارى : كان السقف قد استحال الى سحب شامخة داكنة ، وكان الضياء يشبه ذلك الذي يسفحه القمر على الضباب استعدادا لتبديده ٠ وانشأت اراقـب طلوع القمر ، اراقبه في جزع ليس ثمة ما هو اغرب منه على الاطلاق ، وكأن الحكم بهلاكي سيكون مسطورا على قرصه ٠ لقد انبثق كما لم ينبثق قمر ، في ايما ليلة ، من خلال السحاب : ان يدا اخترقت بادىء الامر تلك الطيـات القاتمة وردتها الى بعيد ٠ وبعد ذلـــك لم يشرق في اللازورد قمرٌ ، ولكنْ

شبحٌ بشري ابيض حنى جبينه البهي نحو الشرق · لقد حدق الي ، فأطال التحديق · ولقد تحدث الى روحي : كان صوته ينبعث من مكان قصي الى حد يمتنع على القياس ، ومع ذلك فقد كان من القرب بحيث همس في فؤادي :

ــ « انجي بنفسك ، يا ابنتي ، من الاغراء ! »

ــ « سوف انجو بنفسي ، يا اماه ! »

بذلك اجبت بعد ان افقت من ذلك الحلم الذي كان اشبه بغيبوبة من غيبوبات التنويم المغناطيسي · كان الليل مسدلا استاره ، ما يزال ، ولكن ليالي تموز (يوليو) قصار ، ما ان تنتصف حتى يُقبل الضحى · وقلت في ذات نفسي : « لست احسب ان الوقت لا يزال ابكر من ان اشرع في اداء مهمتي » · ونهضت من فراشي : كنت مرتدية ملابسي ، ذلك بأني لم أكن قد خلعت غير نعليَّ · وكنت اعلم اين اجد في ادراجي بعض القمصان ، وقلادة ، وخاتما · وفيما كنت التمس هذه الاشياء وقعت على حبات عقد لؤلؤي كان مستر روتشيستر قد اكرهني على قبوله قبل بضعة ايام · فتركته · انه لم يكن ملكا لي : كان ملكا للعروس الوهمية التي كانت قد تلاشت في الهواء · اما الاشياء الاخرى فجمعتها في رزمة · واما كيس نقودي ، المشتمل على عشرين شلنا (كانت هي كل ما املك) فوضعته في جيبي · واعتمرت بقبعتي القشية ، وشكلت شالي بدبوس ، وحملت الحزمة ومشايتي ، ولم اكن قد لبستها من قبل قط ، وانسللت من الحجرة ·

وهمست وانا اجتاز ، على رؤوس اصابعي ، بباب مسز فيرفاكس : « وداعا يا مسز فيرفاكس الكريمة ! » حتى اذا التفت نحو حجرة الاطفال قلت : « وداعا ، يا عزيزتي آديل ! » ولم يكن في امكاني ان اذعن لايما رغبة تغريني بالدخول ابتغاء تقبيلها ومعانقتها · كان علي ان اخدع اذنا واعية ، فقد كنت اعلم على اية حال انها قد تكون الان مصغية ·

وكان خليقا بي ان اجتاز بحجرة مستر روتشيستر من غير توقف ، ولكن قلبي كف عن الخفقان حالما بلغت تلك العتبة ، فأكرِهَتْ قدماي على التوقف ايضا · ان النوم لم يفيء ، تلك الليلة ، الى هذه الحجرة : كان نزيلها يذرعها ، في قلق ، من جدار فيها الى جدار ، ومرة تلو مرة تنهَّد فيما كنت اصغي · كان ثمة جنة لي ــ جنة مؤقتة ــ في هذه الحجرة ، اذا ما اخترت ذلك : لم يكن علي الا ان ادخل عليه واقول :

ــ « مستر روتشيستر ، سوف احبك واحيا معك مدى الحياة وحتى تدركني المنية » وعندئذ يتفجر الى شفتي ينبوع من جذل غامر · لقد فكرت في ذلك ·

ان هذا السيد الكريم ، الذي امتنعت عيناه الان على الغمض ، كان ينتظر ارتفاع الضحى في صبر نافد · انه سوف يرسل في طلبي ، مع الصباح · ولكني سوف اكون قد مضيت لسبيلي ، ولسوف يبحث عني ، على غير طائل · وعندئذ لا بد ان يشعر اني قد تخليت عنه ، واني قد رفضت

حبه ، فيتردى في وهدة العذاب ، وقد يغلب عليه القنوط • لقد فكرت في هذا ايضا ، فامتدت يدي نحو القفل • ولكني رددتها عنـه ، وتسللـت متابعة طريقي •

لقد هبطت السلم في كآبة : كنت اعرف ما الذي يتعين علي ان افعله ، ولقد فعلته على نحو آلي • وهكذا التمست مفتاح الباب الجانبي في المطبخ ، والتمست ، ايضا ، قنينة زيت وريشة ورحت أزيت المفتاح والقفل • وجئت بشيء من ماء ، وبشيء من خبز : فلربما تعين علي ان اسير مرحلة بعيـدة ، وليس ينبغي لقوتي التي زُلزِلت في الايام الاخيرة بعنف ، ان تهن وتنهار • وهكذا كله فعلته من غير ان احدث اية ضجة • وفتحت الباب ، وخرجت ، ثم اوصدته في رفق • كان الضحى قد ارتفع اغبش باهتا في فناء القصر • وكانت الابواب الخارجية مغلقة ومقفلة • ولكن بويبا واحدا في احدها كان موصـدا بالمزلاج ليس غير • ومن خلال هذا البويب بالذات ارتحلت ، وحتى هذا البويب اغلقته من ورائي ، فاذا بي اجد نفسي خارج قصر ثورنفيلد •

كان على مبعدة ميل واحد ، وراء الحقول ، طريق ينبسط في اتجـاه معاكس لميلكوت ، طريق لم اسلكه قط من قبـل ، ولكني كثيرا مـا لمحته ، وتساءلت الى اين يفضي • فما كان مني الا ان اتجهت نحو هذا الطريق ، غير مجيزة لنفسي ان افكر بأي شيء ، او القي ايما نظرة الى الوراء ، بل حتى الى الامام • كان علي ان لا التفت الى الماضي ، وان لا أتطلع الى المستقبل • فقـد كان الاول صفحة عذبة على نحو سماوي ــ مخزونة على نحو مهلك ــ حتى لقد كان في مجرد تلاوة سطر من سطورها ما يذيب شجاعتي ويهد طاقتي • وكان الثاني صفحة بيضاء رهيبة : شيئا اشبه بالعالم بعد انقضاء الطوفان •

ورحت اسير في محاذاة الحقول ، والاسيجة ، والدروب ، الى ما بعـد طلوع الشمس • واحسب انه كان صباحا صيفيا جميـلا ، واني لاذكر ان نعليّ ، اللذين كنت قد لبستهما عنـدما غادرت القصر ، سرعـان ما تبللا بالندى • ولكني لم ارنُ لا الى الشمس البازغة ، ولا الى السماء المبتسمة ، ولا الى الطبيعة المستيقظة من رقادها • ان من يساق الى المشنقة ، عبر منـاظر طبيعية ساحرة ، لا يفكر في الرياحين التي تبتسم في طريقه ولكن في آلـة الاعدام وشفرة الفأس ، في كسر العظام وتمزيق الاوردة ، في القبر الفـاغر فاه اخر الامر : ولقد فكرت انا في هروبي الموحش وضربي في الارض على غير هدى ، وفكرت ــ بمثـل سـكرة الموت ــ في الذي خلّفتهُ ورائي • انا لم اتمالك نفسي عن ذلك • اجل ، لقد تصورته وقد وقف الان في حجرته يشهد طلوع الشمس راجيا ان افد عليه وشيكا لكي اعلـن له اني سوف ابقى الى جانبه ، واكون ملكه • لقد تقت الى ان اكون ملكه ، وتلهفت على العودة : فلم يكن الاوان قد فات ، وكان لا يزال في ميسوري ان اكفيه مؤونة الحرمـان وغصصه المريرة • وكنت على مثل اليقين من ان هروبي لمّا يُكتشف بعد • لقد كان في امكاني ان اعود ادراجي واكون مصدر عزائه ، وموضع اعتزازه ،

ومنقذته من البؤس ، وربما من الخراب • اوه ، لشد ما نخسني الان ذلك الخوف من تخليه عن نفسه ، وهو شر من تخليّ انا عنه واسوأ منه بكثير ! لقد كان سهما شائك النصل مغروزا في قلبي ، وحاولت نزعه فمزقني تمزيقا ، حتى اذا اقحمته الذكريات الى ابعد فأبعد كاد الاغماء يطرحني ارضا • وانشأت الطيور تغرد في الآجام والادغال : كانت الطير تخلص الود لاقرانها ، وكانت الطير رمز الحب • اما انا فأي شيء كنت ؟ وفي غمرة من آلام قلبي وجهودي المهووسة لاحترام مبادئي ، ابغضت نفسي واجتويتها • ولم يحمل الي رضائي عن نفسي ايما عزاء ، بل لم يحمل الي احترامي لذاتي سلوانا ما • كنت قد آذيت سيدي ••• وجرحته ••• وهجرته • فاذا بي اصبح ، في عيني نفسي ، بغيضة الى نفسي • ومع ذلك ، فلم يكن في وسعي ان اعود ادراجي او ان ارتد خطوة واحدة الى الوراء • لا ريب في ان الله كان هو الذي سدد خطاي • اما ارادتي وضميري فكان الاسى المشبوب قد داس احدهما وخنق الاخر • وكنت ابكي بكاء مريرا وانا امضي في سبيلي المتوحدة : ورحت اغذ السير في سرعة بالغة مثل من عصف به اهتياج مسعور • ولكن ضعفا ، بدأ باطنيا ثم امتد الى اوصالي ، ما لبث ان استبد بي فهويت • ولقد بقيت طريحة الارض بضع دقائق ، ضاغطة وجهي على الاعشاب الندية • وخشيت ـ او رجوت ـ ان يدركني الموت هناك ، ولكني سرعان ما نهضت : لقد زحفت اولا على يدي وركبتيّ ، ثم استويت على قدميّ ، وبي لهفة وعزم على بلوغ الطريق لم اعرف لهما ضريبا من قبل •

حتى اذا انتهيت الى هناك اضطررت الى الجلوس ، التماسا للراحة ، تحت السياج • وفيما كنت جالسة تناهى الى سمعي وقع عجلات ، ورأيت مركبة تقترب • فنهضت ورفعت يدي ، فكفت عن السير • وسألت الحوذي عن طِيَّة المركبة * فسمّى موضعا نائيا كنت واثقة من ان مستر روتشيستر لم تكن له صلات به • وسألته عن الاجر الذي يتعين علي دفعه لقاء نقلي الى هناك فقال : « ثلاثون شلنا » • فاجبته اني لا املك غير عشرين • فقال : « لا بأس ، سوف احاول الاكتفاء بهذا المبلغ » • ثم انه اذِن لي في الصعود الى داخل المركبة ، اذ كانت خالية • ففعلت ، مغلقة الباب من ورائي • وتابعت المركبة سبيلها •

الا فليعصمك الله ، ايها القارىء الكريم ، من ان تستشعر ابد الدهر ما استشعرته آنذاك ! ومن ان تسفح عيناك ابد الدهر مثل تلك العبرات العاصفة المحرقة الممزقة للفؤاد ، التي سفحتها عيناي ! ومن ان تضرع الى السماء ابد الدهر بمثل الصلوات اليائسة الموجعة التي انطلقت من شفتيّ في تلك الساعة! ومن ان ترهب ابد الدهر ، كما رهبت انا ، ان تصبح اداة شر تعود بالاذى على من محضته حبك كله !

---

* الطية : الناحية التي تقصد اليها •

٢٨

وانقضى يومان ۰ وكان مساءً من اماسي الصيف ۰ وانزلني الحوذي في موضع يدعى هويتكروس ، اذ لم يكن في ميسوره ان يقلّني الى مكان ابعد لقاء المبلغ الذي دفعته ۰ كنت لا املك من حطام الدنيا اي شلن اخر ۰ وكانت المركبة قد امست على مبعدة ميل ، وكنت قد خُلّفت ثمة وحيدة ۰ وفي تلك اللحظة اكتشفت اني نسيت رزمتي في جيب المركبة وكنت قد وضعتها فيه زيادة في الحرص ۰ هناك قد بقيتْ ، وهناك كان يجب ان تبقى ۰ وها انا ذي الان معدمة بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى ۰

ان هويتكروس ليست بلدة وليست قرية صغيرة ۰ انها مجرد معْلم حجري اقيم عند ملتقى طرق اربع : معلم طلوه بطلاء ابيض لكي تراه العين من بعيد ، وفي غمرة من الظلام ، على نحو اوضح ، في ما احسب ۰ ان اربع اذرع لتنبثق من قمته ۰ واقرب المدن التي تشير اليها هذه الاذرع كانت تبعد ، وفقا لما دوّن على الذراع ، عشرة اميال ، في حين ان اقصاها كانت تبعد عشرين ميلا ونيفا ۰ ومن اسماء هذه المدن الشهيرة عرفت في اية مقاطعة ترجلت : اقليم من الاقاليم الوسطى الشمالية ، قاتمٍ بالاراضي السبخة ، مكتنَفٍ بالجبال ۰ وكان في ميسوري ان ارى ذلك ۰ ان خلفي وعن يميني وشمالي لاراضي سبخة مترامية الاطراف ، وان وراء ذلك الوادي السحيق الغائر عند قدميّ لسلسلة من جبال متلاحقة ۰ ولا ريب في ان سكان تلك الديار كانوا قلة متناثرة ههنا وههناك ، فأنا لا أرى اي عابر سبيل في هذه الطرق : لقد امتدت شرقا ، وغربا ، وشمالا ، وجنوبا ــ خالية ، عريضة ، موحشة ۰ ولقد شُقّت كلها وسط الاراضي السبخة ، وكان نبات الخلنج ينمو كثيفا ضاريا حتى حافّاتها نفسها ۰ ومع ذلك فقد يتفق لمرتحل ما ان يجتاز بها ۰ وكنت ارجو ان لا تراني الان عين ما ۰ فخليق بالاغراب ان يتساءلوا عم كنت افعله متسكعة هنا عند مَعْلم الطريق ، وقد بدت علي امارات الحيرة واللاهدف ۰ وقد أسأل عم كنت بسبيله ، فلا استطيع ان اجيب الا بكل ما يبدو عسيرا على التصديق ، مثيرا للريبة ۰ ان ايا من الروابط لا تشدني الى المجتمع البشري في هذه اللحظة ۰۰۰ وليس من سحر او رجاء يجذبني الى حيث يقيم اخواني في الانسانية ۰ ولن يخامر احدا ممن قد يرونني اي ظن حسن بي او امنية طيبة لي ۰ لقد غدوت وليس لي من نسيب غير الأم الكلية : الطبيعة ۰ فلأفزع الى صدرها ، ولالتمس فوقه الراحة !

وفجأة اندفعت الى المرج ، متجهة نحو غور رأيته يشق الاراضي السبخة السمراء شقا عميقا ۰ ورحت اخوّض حتى ركبتي في أعشابه الداكنة ، منعطفة مع متعرجاته ۰ حتى اذا اكتشفت عند زاوية خفية من زواياه صخرة صوانية سامقة سودتها الطحالب ، جلست تحتها ۰ كانت ضفاف المستنقع العالية تحيط بي من كل جانب ، وكانت الصخرة تحمي رأسي ، وكانت السماء فوق

ذلك كله .

وانقضت برهة قبل ان استشعر السكينة حتى في وحدتي تلك . لقد ساورني خوف غامض من ان يكون على مقربة دانية مني بهيمة ضارية ، ان يكتشف وجودي قانص من القناصة او سارق من سرّاق الصيد . كنت كلما عصفت الريح في ذلك القفر رفعت رأسي متوهمة ان عزيفها ليس غير اندفاعة ثور هائج ، وكلما زقزق سقساق * خلته رجلا . حتى اذا وجدت اخر الامر ان مخاوفي غير قائمة على اساس من الواقع ، وحتى اذا افرخ روعي اثر ذلك السكون العميق الذي ران مع هبوط الليل ، عاودتني الثقة . ولم اكن قد فكرت ، حتى ذلك الحين ، في شيء البتة . كنت قد اصغيت ، وراقبت ، واوجست خيفة ليس غير . اما الان ، فقد استرددت قدرتي على التفكير .

ماذا اعمل ؟ الى اين اذهب ؟ اوه ، ما كان امرّ هذين السؤالين في موقف عجزت فيه عن ان اعمل شيئا او امضي الى مكان ! ... في موقف تعين علي فيه ان اقيس بقدمي المرهقتين المرتعدتين دربا لا نهاية له ، قبل ان ابلغ موضعا آهلا بالناس ... في موقف كان لا بد لي فيه من ان التمس الصدقة في توسل وضراعة قبل ان افوز بسقف يؤويني ، ومن ان الحف في طلب العطف واتعرض لشيء من الصد قبل ان تجد قصتي اذنا واعية ، او قبل ان تُقْضى حاجة واحدة من حاجاتي !

ولمست نبات الخلنج فاذا هو جاف محتفظ بدفئه من اثر حرارة النهار الصيفي . ونظرت الى السماء فاذا هي صافية الاديم : كان نجم رؤوف يأتلق فوق حافة الخندق مباشرة . وسقط الندى ، ولكن في رقة متعطفة ، ولم تتنفس ايما ريح . لقد بدت الطبيعة شفيقة بي عطوفا علي ، لقد خيل الي انها تحبني ، برغم كل ما قاسيت من نبذ وتشرد ، وتعلقت انا بها ـ انا من كانت لا تتوقع من الانسان غير الاهانة والصد وسوء الظن ـ تعلقا اشبه بهيام الطفل بأمه . وهذه الليلة ، على الاقل ، سوف اكون ضيفها ، كما كنت طفلتها ، وان امي سوف تؤويني من غير ما مال ومن غير ما ثمن . وكان لا يزال لدي كسرة من خبز ، هي البقية الباقية من رغيف كنت قد اشتريته من بلدة اجتزنا بها ظهرا ببنس ضالّ ـ اخر قطعة نقدية في جيبي . وبصرت بالتوت الشوكي اليانع يلتمع ههنا وههناك مثل حبات الكهرمان الاسود وسط نبات الخلنج . فجنيت منه حفنة وأكلتها مع كسرة الخبز . فاذا بطعام الناسك هذا يسكّن من جوعي ، الذي كان مُمضا ، ان لم يُشبعه . حتى اذا فرغت من تناول الطعام تلوت صلواتي المسائية ، ثم اخترت مضجعي .

وكان نبات الخلنج كثيفا الى حد بعيد عند الصخرة الشامخة ، فما ان اضطجعت حتى غُمرت قدماي فيه . لقد ارتفع عاليا عن يميني وعن شمالي غير تارك الا فسحة ضيقة يستطيع نسيم الليل ان يغزوها . ثم اني طويت شالي طية ضاعفت من كثافته والتحفت به . اما وسادتي فكانت نتوءا خفيفا

---

* السقساق : طائر يشبه الحمام . (المعرب)

مكسوا بالطحالب · واذ رقدت على هذا النحو فأني لم استشعر اي برد ، في مستهل الليل على الاقل ·

وكان خليقا براحتي تلك ان تكون سعيدة الى حد كافٍ لو لم يعكر صفوها فؤاد محزون راح يتشكى من جراحه الفاغرة ، وتزيفه الباطني ، ونياطه الممزقة · لقد ارتعد جزعا على مستر روتشيستر وما ينتظره من مصير كالح ، وانتحب عليه في اشفاق مرير ، وهفا اليه في توق موصول · وفي مثل عجز الطائر المهيض الجناحين ظل يصفق بقوادمه وخوافيه المهشمة محاولا على غير طائل ان يطير اليه ·

ونهضت راكعة على ركبتي وقد اضناني عذاب الفكر ذاك · كان الليل قد تقدم ، وكانت نجومه قد طلعت : كان ليلا آمنا ساكنا ، وكان اروق من ان يجعل من الخوف رفيقا لمن يسري فيه · اننا نعلم ان الله موجود في كل مكان ، ولكنا من غير ريب نستشعر وجوده اقوى ما نستشعره عندما تتجلى آثاره لانظارنا على اوسع نطاق · وانما ندرك لانهائيته ، وقدرته الكلية ووجوده في كل مكان ، اوضح ما يكون الادراك ، في سماء الليل المنزهة عن الغيوم ، حيث تجري عوالمه في سبيلها الصامت · وكنت قد نهضت راكعة على ركبتي لكي اصلي من اجل مستر روتشيستر · واذ رفعت بصري الى السماء رأيت ، بعيني اللتين غشّاهما الدمع ، المجرة الجبارة · وحين تذكرت ماهيتها ـ واية نظم شمسية لا تحصى كانت تمخر الفضاء مثل وميض ناعم رقيق ـ استشعرت بأس الله وقوته · كنت واثقة من قدرته على انقاذ ما قد خلق ، ولقد اقتنعت الان بأن الهلاك لن يلم لا بالارض ولا بأي من النفوس التي تدخرها · عندئذ حولت صلاتي الى حمد ، فقد كان مصدر الحياة هو منقذ الارواح ايضا · واطمأن فؤادي الى سلامة مستر روتشيستر : كان لله ، وبرعاية الله سوف يحاط · وكرة اخرى أنسْتُ الى صدر الرابية ، وما هي غير لحظات حتى نسيت اساي في غمرة الرقاد ·

ولكن العوز ما لبث ان اقبل نحوي ، صباح اليوم التالي ، شاحب الوجه عاريا · فبعد فترة غير يسيرة انقضت على مبارحة العصافير اعشاشها ، وبعد فترة طويلة من اقبال النحل في مطلع النهار العذب لكي تجني عسل نبات الخلنج قبل ان يجف الندى ـ عندما تقاصرت ظلال الصباح الطويلة ، وغمرت الشمس بضيائها الارض والسماء جميعا ـ نهضت من رقادي ، وانشأت اجيل الطرف في ما حولي ·

يا له من نهار ساكن ، دافىء ، كامل ! اية صحراء ذهبية كانت هذه الارض السبخة المترامية الاطراف ! كانت اشعة تملأ الكون كله ، ولكم تمنيت لو استطيع ان اعيش فيها وعليها · وبصرت بعظاية تجري فوق الصخرة الشامخة ، ورأيت نحلة تطوّف ناشطة بين ثمرات التوت الشوكي الحلوة ، فتمنيت في تلك اللحظة لو انقلب الى نحلة او عظاية ، عساي اجد في هذا المكان ، غذاء ملائما ومثوى دائما · ولكني كنت بشرا ، وكانت لي مطالب

وحاجات مثل التي للبشر ، فيتعين علي ان لا اتسكع حيث لا شيء يرضيها ويشبعها • ونهضت • والتفت الى المضجع الذي فارقته • واذ يئست من المستقبل فأني لم اتمنَّ غير هذا : لو ان بارئي تفضل تلك الليلة فتوفاني اليه وانا نائمة ، ولو ان هذا الهيكل المضنى الذي احلَّه الموت من اي صراع اضافي مع القدر يفنى الان بهدوء ويمتزج في سلام بثرى هذا الفقر • بيد ان الحياة كانت لا تزال في حوزتي ، بجميع مطالبها وآلامها وتبعاتها • فلم يكن لي من حمل ذلك العبء مناص ، ومن اشباع هذه المطالب ، واحتمال تلك الآلام ، واداء هاتيك التبعات مَعدىً او مفرّ • وانطلقت •

حتى اذا بلغت هويتكروس من جديد سلكت طريقا استدبر معها الشمس ، وكانت الان متقدة الاوار بالغة الارتفاع • ان ايما اعتبار آخر لم يُمْلِ عليّ هذا الاختيار • واجتزت مسافة طويلة ، حتى اذا بدا لي اني بذلت جهدا كافيا وان في ميسوري ان استسلم ، مرتاحة الضمير ، للتعب الذي كاد يقهرني وان استريح من هذا العمل الالزامي ، وحتى اذا جلست على حجر رأيته قريبا مني وخضعت – في قلق – للبلادة التي اثقلت قلبي واوصالي ••• سمعت رنين جرس – رنين جرس كنيسة •

واستدرت نحو منطلَق الصوت – وهناك – بين الهضاب الرومانتيكية التي كنت قد كففت منذ ساعة عن ملاحظة مظاهرها المتغيرة – رأيت قرية صغيرة وبرجا مستدقا • كان الوادي الغائر عن يميني مليئا كله بالمراعي وحقول القمح والاحراج ، وكان ثمة جدول ملتمع يجري متعرجا عبر ظلال الخضرة المتبدلة ، والقمح الآخذ سبيله الى النضج ، والغابة القاتمة ، والمرج المشرق المشمس • وفجأة سمعت قرقرة عجلات في الطريق الممتد امامي ، فأفقت من استغراقي في النظر الى تلك المشاهد ، ورأيت عربة مثقلة بالاحمال تصعّد في الكثيب جاهدة كادحة ، وغير بعيد عنها كانت بقرتان وراعيهما • كانت الحياة البشرية والعمل البشري على مقربة مني • فلأناضل ، ولأكافح في سبيل العيش ولانصرف الى الكدح مثل سائر الناس •

وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر دخلت القرية ••• كان في اقصى شارعها الوحيد دكان صغير في واجهته بعض الارغفة • وتشهَّيت رغيفا منها • ومن يدري ، فلعل في هذه اللقيمات المنعشة ما يمكنني من استرداد بعض القوة ، ولا ريب في انه سوف يكون من العسير علي ، بدونها ، ان اتابع السير • وانما عاودتني الرغبة في شيء من القوة وشيء من النشاط حالما وجدت نفسي بين اخواني واخواتي في الانسانية • لقد استشعرت ان من المذل ان اقع مغشيًّا عليَّ ، تحت وطأة الجوع ، فوق طريق قرية من القرى • وفكرت قائلة في ذات نفسي : « أليس معي ايما شيء استطيع ان اعرضه على سبيل المقايضة بواحد من هذه الارغفة ؟ » كان لدي منديل حريري صغير يطوّق جيدي • وكان لدي قفازي • ولم استطع ان أحزر كيف يتأتى الناس للامر في اقصى حالات الفاقة والعوز • ولم ادر هل يحظى اي من هذين الشيئين

بالقبول ام لا · اغلب الظن انهما سوف يرفضان · ولكن علي ان اجرب ·

ودخلت الدكان ، فالفيت فيه امرأة · واذ رأت في دكانها شخصا حسن البزة ، شخصا حسبَته سيدة نبيلة ، فقد تقدمت في لطف واحترام ، وسألتني عن الخدمة التي تستطيع ان تؤديها الي · فاستحوذ علي الخجل : لقد ابى لساني ان ينطق بالطلب الذي كنت قد اعددته · ولم اجرؤ على ان اعرض عليها قفازي نصف المهترىء ومنديلي المتغضن ، والى هذا فقد استشعرت ان مثل هذا العرض خليق به ان يكون سخيفا · وهكذا اكتفيت بسؤالها ان تسمح لي بالقعود لحظة ، اذ كنت متعبة حتى الارهاق · فأجابتني ، في فتور ، الى طلبي ذاك بعد ان خاب ظنها فيَّ وظهر لها اني لم افد عليها لشراء شيء ما · لقد اشارت الى مقعد ، فتقدمت نحوه وغصت فيه · واستشعرت حافزا قويا يدعوني الى البكاء · واذ وعيت ان مثل هذا الكشف عما اعتمل في نفسي لم يكن ليتلاءم البتة مع الموقف والظرف فقد كبحت جماح عبراتي · وسرعان ما سألتها : « هل في القرية اية خياطة ؟ »

ـ « اجل ، هناك خياطتان او ثلاث · على قدر ما تقتضيه الحاجة الى مثل هذا العمل » ·

وفكرت · كنت الان قد انتهيت الى ورطة · لقد وُضِعت وجها لوجه مع الحاجة والعوز · وكنت في موقف فتاة من غير مورد : من غير صديق ، من غير قطعة نقدية · ان علي ان افعل شيئا · ولكن ماذا ؟ وان علي ان التمس عملا في مكان ما · ولكن اين ؟

ـ « أفي علمك أن في هذا الجوار من يحتاج الى خادمة ؟ »

ـ « لا · لست اعرف احدا » ·

ـ « ما هي الصناعة الرئيسية في هذا الموطن ؟ ما العمل الذي تمارسه كثرة الناس ؟ »

ـ « بعضهم عمال زراعيون · وكثير منهم يعملون في مصنع الابر الذي يملكه مستر اوليفر ، وفي مصهر الحديد · »

ـ « وهل يستخدم مستر اوليفر النساء ؟ »

ـ « لا · ذلك عمل من اعمال الرجال » ·

ـ « وما الذي تفعله النساء ؟ »

فكان الجواب : « لست ادري · بعضهن يفعلن كيت ، وبعضهن يفعلن كيت · وعلى الفقيرات ان يحتلن على الحياة كيفما استطعن » ·

وبدت وكأنها قد سئمت اسئلتي · وهل كان لي ، في الواقع ، اي حق في الالحاح عليها في السؤال ؟ واقبل جار او جاران ، فادركت اني احتل مقعدا قد يكون احدهما في حاجة اليه · فاستأذنت في الانصراف ·

ورحت اصعّد في الشارع ، ناظرة الى مختلف البيوت القائمة عن يمين وعن شمال ، ولكني لم استطع ان اكتشف ايما ذريعة او اجد ايما حافز لدخول واحد منها · وهمت على وجهي في القرية الصغيرة ، مجتازةً في بعض الاحيان

مسافة قصيرة لاعود ادراجي بعد ذلك الى حيث كنت • وسلخت على هذا النحو ساعة او يزيد • حتى اذا غلب علي الاجهاد واورثني الجوع الما شديدا انعطفت الى احد الازقة فجلست تحت الوشيع ※ ، بيد اني ما لبثت ان انتصبت ، بعد بضع دقائق ، واقفة على قدمي ورحت ابحث كرة اخرى عن شيء ••• عن ملاذ افزع اليه او عمن يهديني الى هذا الملاذ • وكان في اعلى الدرب بيت صغير جميل تتقدمه حديقة ••• حديقة بالغة الاناقة منوّرة على نحو مؤتلق • فوقفت عنده • ولكن بأية ذريعة اقترب من ذلك الباب الابيض وتلك المطرقة المتوهجة ؟ وما الذي يغري سكان المثوى بأسداء يد العون الي ؟ ومع ذلك فقد دنوت من الباب وقرعته ، ففتحت لي فتاة لطيفة الطلعة حسنة البزة • وفي صوت كالذي يُتوقع من قلب يائس وجسد مشرف على الاغماء ـ صوتٍ خفيض متلجلج الى حد يائس ـ سألتها ما اذا كانوا في حاجة الى خادمة •

فقالت : لا • نحن لا نستعين بأية خادمة » •

فأضفت : « هل تستطيعين ان تنبئيني اين اجد عملا ايا كان نوعه ؟ انا غريبة ، ولست اعرف احدا ، في هذه القرية • انا في حاجة الى عمل ••• عمل من اي نوع » •

بيد انه لم يكن من شأنها ان تفكر بالنيابة عني او ان تلتمس لي عملا ما • والى هذا فلا ريب في ان شخصيتي ووضعي وقصتي بدت في عينها شيئا مريبا الى حد بعيد • من اجل ذلك هزت رأسها قائلة انها « آسفة لعجزها عن اعطائي اية معلومات » • واوصد الباب الابيض في رفق وادب بالغين ، ولكنه برغم ذلك حظّر علي الدخول • ولو قد ابقته مشرعا بضع لحظات اخرى اذن لكان خليقا بي ان التمس منها كسرة خبز ، ذلك بأن قواي كانت الآن قد وهنت وخارت •

ولم اطق التفكير في العودة الى القرية الحقيرة ، حيث لم تلح لي ـ على اية حال ـ بارقة امل في الفوز بمساعدة ما • ولقد كان خليقا بي ان اتوق ، بدلا من ذلك ، الى الانحراف نحو غابة بصرت بها على مقربة دانية ••• غابة بدا لي وكأنها تقدم الي من ظلها الوارف ملاذا حسن الوفادة • ولكني كنت من وهن القوى ووشك الاغماء ومن الاشتياق العارم الى اشباع الحاجات الطبيعية بحيث حملتني الغريزة على مواصلة التطواف حول مختلف المواطن التي لاحت لي فيها فرصة العثور على شيء من قوت • ان الوحدة خليق بها ان لا تكون وحدة ، والراحة خليق بها ان لا تكون راحة ، حين ينشب النسر ، الجوع ، منقاره ومخالبه في جنبي على هذا النحو •

وانشأت ادنو من البيوت ، ولكني سرعان ما فارقتها ، ثم انقلبت راجعة اليها كرة اخرى ، لاعود بعد ذلك فأهيم على وجهي وقد صدّني في كل مرة شعور بأنه لا حق لي في ان التمس من احد الاهتمام بمصيري المعزول ، او في ان اتوقع مثل هذا الاهتمام من احد • وتقدم الاصيل ، في غضون ذلك ، بينا

※ سياج من نباتات يجعل حول الحديقة منعا للداخلين •

كنت اطوّف ههنا وههناك مثل كلب ضالٍ اضرّ به الجوع . حتى اذا عبرت حقلا من الحقول لمحت برج الكنيسة المستدق منتصبا امامي : فرحت اغذ الخطى في اتجاهه . وعلى مقربة من فناء الكنيسة كان يقوم منزل حسن البناء ، وعلى الرغم من صغره . كان من غير ريب بيت الكاهن . عندئذ تذكرت ان الاغراب الذين تسوقهم اقدامهم الى موضع لا اصدقاء لهم فيه ، والذين يطلبون عملا ، كثيرا ما يلتمسون من الكاهن ان يعرفهم الى بعض رعيته او ان يمد اليهم يد العون . ان من مهمة رجل الكنيسة ان يساعد ــ بنصائحه على الاقل ــ اولئك الذين يرغبون في مساعدة انفسهم . وبدا لي اني املك ما يشبه الحق في التماس المشورة في هذا المكان . وهكذا جددت شجاعتي ، واستجمعت بقايا قوتي الواهنة ، واندفعت قُدُماً ، فبلغت البيت ، وقرعت باب المطبخ ، ففتحت امرأة عجوز فسألتها : « اهذا بيت الكاهن ؟ »

ــ « نعم » .

ــ « هل الكاهن هنا ؟ »

ــ « لا » .

ــ « هل سيعود عما قريب ؟ »

ــ « لا . لقد رحل » .

ــ « الى موطن بعيد ؟ »

ــ « لا ... الى مكان يبعد ثلاثة اميال ليس غير . لقد دعاه الى الرحيل موت ابيه المفاجىء ، وهو الان في « مارش ايند » ، واغلب الظن انه سوف يقضي هناك اسبوعين اخرين » .

ــ « وهل في البيت سيدة ما ؟ »

ــ « لا ، ليس فيه احد غيري . اني مدبرة المنزل » .

ولا اخفي عليك ، ايها القارىء ، اني لم احتمل ان اسأل هذه المرأة ان تنتشلني من العوز الذي كنت اغوص فيه . ولم يكن في ميسوري ، بعد ، ان استجدي . وهكذا جررت قدمي عائدة ادراجي كرة اخرى .

ونزعت منديلي من جديد ، ومن جديد فكرت في ارغفة الخبز التي رأيتها في الدكان الصغير . آه ، من لي بكسرة منها ليس غير ! من لي بلقمة واحدة ليس غير اسكّن بها ألم الجوع ؟ وكرة اخرى وجّهت وجهي ، على نحو غرزي ، قِبَلَ القرية، فبلغت الدكان من جديد ، فدخلته . كان ثمة، بالاضافة الى المرأة ، نفر اخرون ولكني غامرت برغم ذلك فطرحت عليها هذا السؤال :

ــ « هل لك ان تعطيني بهذا المنديل رغيفا من خبز ؟ »

فنظرت الي في ارتياب واضح وقالت :

ــ « انا لا ابيع بهذه الطريقة ابدا » .

وكاد اليأس ان يغلب علي ، فسألتها ان تعطيني نصف رغيف . ولكنها رفضت ، كرة اخرى ، قائلة : « وما يدريني من اين جئت بهذا المنديل ؟ »

ــ « انا مستعدة ان اعطيك قفازي » .

ـ « لا ! وماذا اصنع به ؟ »

ان الافاضة في هذه التفاصيل ليست ، ايها القارىء ، بالامر المستعذب . والواقع ان بعضهم يزعم ان الالتفات الى الخبرات الاليمة المنقضية ينطوي على شيء من البهجة ، ولكني لا اكاد اطيق ، حتى يوم الناس هذا ، استعادة ذكرى تلك الايام التي المِعُ اليها : ان الاذلال المعنوي ، المشـوب بالالم الجسـدي ، ليشكل ذكرى هي اشد اثارة للاسى من ان ارغب ، راضية ، في اطالة التفكير فيها . انا لم ألم ايا من اولئك اللواتي نهرنني ، فقد شعرت ان ذلك كان عين ما ينبغي للمرء ان يتوقعه ، وانه كان امرا لا حيلة لهـن فيه : ان المتسـول العادي كثيرا ما يكون موضع ريبة ، اما المتسول ذو البزة الحسنة فموضـع الريبة دائما . صحيح ان ما التمسته كان هو العمل ليس غير ، ولكن من ذا الذي كانت مهمته ان يزودني بالعمل ؟ ان ذلك لم يكن ، طبعا ، مهمة اولئك الاشخاص الذين رأوني آنذاك للمرة الاولى ، والذين لم يعرفوا ايما شيء عـن خلقي . وحتى المرأة التي ابت ان تأخذ منديلي مقابل رغيف من خبزهـا ... حتى هذه المرأة كانت على حق ، اذا ما بدا العرض ـ في عينيها ـ مشؤوما ، وبدت المقايضة غير رابحة . فلأوجز الان . ان الكلام على هذه المسألة ليثير تقززي .

وقبيل سقوط العتمة بقليل اجتزت ببيت في مزرعة ، وكان الفلاح قاعدا عند بابه المفتوح يتناول عشاءه المؤلف من خبز وجبن . فوقفت ، وقلت :

ـ « هل تتكرم علي بكسرة من خبز ؟ اني جائعة جدا » .

فألقى علي نظرة ترشح بالدهش . ومن غير ان يجيـب ، قطع جزءا ضخما من رغيفه وقدمه اليَّ . ويخيل الي انه لم يحسبني شحاذة ، ولكـن مجرد سيدة غريبة الاطوار اعجبت برغيفه الاسمر . وما ان نأيت بنفسي عن مرمى بصره ، حتى قعدت والتهمت قطعة الخبز .

وما كان ليراودني ايما امـل في المبيـت تحـت سقف من السقوف ، فالتمسته في الغابة التي المعت اليها من قبل . ولكن ليلتي كانـت بائسة ، وراحتي متقطعة : كانت الارض رطبة ، والهواء بارداً . والى هـذا فقـد مـر بي المتطفلون غير مرة فكان علي ان اغير مقري مرة بعد مرة : ان ايما شعـور بالسلامة او الطمأنينة لم يحالفني . وقبيل ارتفـاع الضحى ، هطل المطر ، ولقد تواصل تهطاله طوال اليوم التالي . ولا تسألني ، ايها القارىء ، ان اقدم اليك وصفا دقيقا لذلك اليوم . فقد التمست عملا ما ، شـأني مـن قبل ، فانتُهِرْتُ شأني من قبل . وكشأني من قبل ايضا امضني الجوع ، ذلك بأن الطعام لم يدخل فمي الا مرة واحدة . وعند باب احد الاكواخ بصرت بفتـاة صغيرة توشك ان تطرح طبقا من عصيـدة بـاردة في حوض من احواض الخنازير . فسألتها : « هل لك ان تعطيني هذا الطبق ؟ »

فحدقت الي ثم صاحت : « أماه ! ههنا امرأة تريد ان اعطيهـا هـذه العصيدة » .

فأجابها صوت من داخل : « حسنا ، يا بنيتي ، اعطيها اياها اذا كانت شحاذة · ان الخنزير غير راغب فيها » ·

فافرغت الفتاة ذلك القالب المتصلب في يدي ، فالتهمته بنهم ·

حتى اذا احلولك الغسق الممطر كففت عن السير في طريق منعزل خاص براكبي الخيل كنت قد سلكته طوال ساعة او يزيد · وقلت مناجية نفسي : « ان قوتي لتخذلني خذلانا كاملا · ويخيل الي اني لن اقوى على الذهاب الى ابعد من هذا بكثير · هل سأقضي ليلتي هذه ايضا طريدة منبوذة ؟ وفيما يهطل المطر على هذا النحو ، هل يتعين علي ان القي رأسي على التراب البارد المبلل ! انا اخشى ان لا اوفق الى غير ذلك : اذ من ذا الذي سوف يفتح بابه لاستقبالي ؟ ولكن ذلك سوف يكون رهيبا جدا ، وانا على مثل هذه الحال من الجوع والاغماء والقشعريرة وهذا الشعور بالعزلة ــ هذا الانقطاع الكامل للرجاء · ولكني سوف اموت ، في اغلب الظن ، قبل منبلج الصباح · فلماذا لا اهيىء نفسي لتقبل هذا الاحتمال ·· احتمال الموت ؟ لماذا أناضل للاحتفاظ بحياة لا قيمة لها ؟ لاني اعرف ، او أؤمن ، ان مستر روتشيستر لا يزال على قيد الحياة ، واذن فالموت جوعا او بردا مصير لا تستطيع الطبيعة ان تستسلم له من غير مقاومة · اوه ، ايتها العناية الالهية ! ادعميني بضع لحظات اخرى ! ساعديني ··· سددي خطاي ! »

وتاهت عيناي شبه الزجاجتين في البرية القاتمة المُضبِبَة ، فأدركت اني قد اسرفت في الابتعاد عن القرية : كانت قد امست وراء مرمى النظر تماما · وحتى الحقول المحيطة بها كانت قد اختفت · وكنت قد اقتربت كرة اخرى ــ بما سلكت من طرق فرعية ودروب جانبية ــ من الارض السبخة ، فليس يفصلني عن الهضبة التي احتضنها الغسق غير بضعة حقول تكاد تكون مهملة عقيمة مثل نبات الخلنج الذي لم يُقتلَع منها الا قليلا ·

وقلت في ما بيني وبين نفسي : « حسنا ، اني لأوثر ان اقضي نحبي هناك ، في شارع من الشوارع ، او على طريق يألفه السابلة · وانه لخير لي الف مرة ان تنقر الغربان والغربان السود ــ اذا ما كان في هذه الديار غربان سود ــ لحمي وتنتزعه عن عظمي من ان يُسْجن في كفن من اكفان الملاجيء ويفسد في قبر من قبور الشحاذين » ·

وهكذا عدت ادراجي الى الهضبة · وبلغتها · ولم يبق علي الا ان اجد حفرة استطيع ان اضطجع فيها واستشعر اني محجوبة عن الانظار ، على الاقل ، ان لم استشعر اني آمنة · ولكن ارض القفر كلها بدت مستوية · انها لم تتكشف عن ايما تفاوت الا في اللون والصبغة : فهي خضراء حيث حجبت الطحالب وسَمارُ الحُصر وجهَ المستنقعات ، وهي سوداء حيث لم تُطلع التربة الجافة غير نبات الخلنج · وعلى الرغم من الظلمة الهابطة فقد استطعت ان المح هذه الفروق ، وان بدت لي وكأنها مجرد تعاقب اضواء وظلال : ذلك بأن اللون كان قد نَصَل مع نصول ضياء النهار ·

وكانت عيناي ما تزالان تجولان في الهضبة المتجهمة وعلى طول حافة المستنقع المتلاشي وسط اراضٍ ليس ثمة ما هو اشد منها اقفارا عندما انبثق ضياء ما في نقطة قاتمة ، بعيدا بين الاراضي السبخة والهضاب • فكان اول خاطر بدا لي هو ان هذا الضياء ليس الا سرابا من السراب ، سرابا توقعت ان يتلاشى وشيكا • بيد انه ظل يتقد في ثبات ، من غير ان يتقدم او ان يتأخر • وتساءلت : « اهي ، اذن ، نار من نيران الابتهاج اضرمت منذ لحظات ؟ » ورحت اراقبها لارى ما اذا كانت سوف تنتشر وتمتد : ولكن لا ، انها لم تتعاظم ، كما انها لم تتضاءل • وعندئذ حدست قائلة : « قد تكون شمعة في بيت • ولكن اذا كانت كذلك فأني لن اوفق الى بلوغها ابدا • انها بعيدة اكثر مما ينبغي : وحتى لو كانت على بعد ياردة واحدة مني ليس غير ••• ايُّ فائدة ترتجى منها ؟ اني لن اقرع الباب الا لكي اراه يغلق في وجهي » •

وانطرحت على الارض حيث كنت واقفة واخفيت وجهي في التراب • واضطجعت فترة من غير حراك • وهبت رياح الليل على الهضبة وعلي ، ثم تلاشت منتحبة في المدى البعيد • امـا المطر فانهمر في قوة وعنف مبللا ثيابي من جديد تبليلا نفذ معه الماء الى جلدي نفسه • ولو قد وُفقت الى مجرد التصلب تحت وطأة الصقيع الهادىء ـ خدر الموت الودود ـ اذن لكان خليقا به ان يواصل تهطاله من غير ان احس به • ولكن لحم جسدي الذي كان لا يزال حيا ارتعد تحت تأثيره القارس • وما هي الا فترة قصيرة حتى نهضت •

كان الضوء لا يزال يلتمع ، هناك ، قاتما ـ خلال المطر ـ ولكنه موصول غير منقطع • وحاولت ان استأنف السير ، فجررت قدمي المنهوكتين نحوه في تؤدة • فقادني الضوء الى التصعيد ، على نحو منحرف ، في الهضبة • عبر مستنقع كان خليقا به في شهور الشتاء ان يكون غير قابل للاجتياز •• مستنقع كان حتى في هذه الآونة ، في غمرة الصيف ، موحلا يتطاير منه الرشاش • وههنا سقطت طريحة الارض مرتين اثنتين ، ولكنني كنت في كل مرة اعاود النهوض واحشد شتات قواي • كان ذلك الضوء هو املي الاخير • وان علي ان ابلغه بأية حال •

حتى اذا عبرت المستنقع رأيت اثرا من بياض فوق الارض السبخة فدنوت منه • كان طريقا او مجازا ، وكان يفضي مباشرة الى ذلك الضوء الذي شع الان من شبه رابية من الروابي ، وسط باقة من الاشجار ـ اشجار الشربين ، في ما يبدو ، تبعا لما استطعت ان اتبينه خلال العتمة من اشكالها واوراقها • وتوارى نجمي الهادي فيما كنت ادنو منه : كانت عقبة ما قد اعترضت ما بيني وبينه • وبسطت يدي لاتلمَّس الكتلة المظلمة المنتصبة أمامي ، فاذا هي سور خفيض خشن الحجارة • وفوق ذلك السور كان شيء

اشبه بسياج من اعمدة خشبية ، ووراء هذا السياج كان وشـــيع ※ عالٍ وشائك . فرحت اتلمّس طريقي وسط الظلام . وكرة اخرى التمع امامي شيء ضارب لونه الى البياض . لقد كان بابا ـ او على الاصح كوة في باب . ولم اكد امسها حتى استدارت على مِفْصلاتها . وعلى كلا الجانبين كانت أيكة سوداء من السدْر الجبلي او من شَرابة الراعي .

حتى اذا نفذت من خلال الباب وتجاوزت الاعشاب بدا لناظري خيال بيت اسود ، خفيض ، هو الى الطول اميل . بيد ان الضوء الهادي لم يشع في ايما موضع . كان الظلام يلف المكان كله . فهل كان نزلاء البيت مستسلمين للرقاد؟ لقد خشيت ان يكونوا كذلك . وفيما كنت ابحث عن مدخل البيت انعطفت حول احدى الزوايا ، وهناك انبثق الوميض الودود كرة اخرى ، من زجاج ذي شكل الماسي في نافذة صغيرة ذات شعرية قائمة على ارتفاع قدم واحد عن سطح الارض .. نافذة زادها صغرا نمو شجرة لبـــلاب ـ او ضرب اخر من النباتات المتعرشة ـ تعنقدت اوراقها كثيفة فوق موضع تلك النافذة من جدار البيت . وكانت النافذة مظلمة وضيقة الى حد جعل تزويدها بستار او شعرية امرا غير ضروري البتة . وحين انحنيت وازحت الافنان المبرعِمة فوقها استطعت ان ارى ما في الداخل . كان في ميسوري ان اشهد ، في وضوح ، غرفة منظفة احسن تنظيف مفروشةً ارضـُها بالرمل ، وخوانا من خشب الجوز ، نُضِـدَتْ فوقه صفوف من اطباق صفيحيَّة ينعكس منها احمرار واشعاع كاللذين ينبعثان من نار متوهجة بوقود من ترابٍ نفطيٍّ . وكان في ميسوري ان ارى ساعة جدار ، وطاولة بيضاء من خشب الشوح ، وبعض الكراسي . وبصرت بالشمعة، التي كان شعاعها مشعلي ، تحترق فوق الطاولة . وعلى ضوئها كانت امرأة عجوز" ، جافية المظهر بعض الشيء ولكنها نظيفة الى حد مغالى فيه ككل شيء حولها ، تحوك جوربا .

وانما القيت على هذه الاشياء نظرة سريعة ليس غير ، اذ لم يكن فيها ايما شيء استثنائي . وعلى مقربة من المستوقد كانت جماعة اكثر امتاعـــا مخلدةً الى السكينة في غمرة من الامن والدفء الورديين اللذين كانا يغمرانه . لقد جلست ثمة شابتان انيقتان ـ سيدتِان بكل ما في لفظـة « سيدة » من معنى ـ الاولى على كرسي خفيض هزّاز ، والاخرى على كرسي من غير ظهر فهو اشد انخفاضا . وكانت كلتا الشابتين ترتدي ثياب حـــداد مخيطة من كريب اسود ونسيج صوفي مشوب بقطن ، ثيابا اظهرت بقتامها محاسن جيدها ووجهها الناصعي البياض . وكان كلب ضخم يريح رأسه الهائل على ركبة احدى الفتاتين ، في حين كانت هرة" سوداء تجثم فوق وسادة في حجر الفتاة الاخرى .

ما كان اغرب هذا المطبخ المتواضع مستقرا لمثل هاتين السيدتين ! ولكن من كانتا ؟ لم يكن من المعقول ان تكونا بنتي المرأة العجوز الجالسة الى تلك

※ سياج من نباتات وشوك .

الطاولة ، اذ بدت على وجهها امارات الجلافة الريفية ، في حين كانتا هما مثال الرقة والصقل • انا لم ار قط في ايما مكان وجهين كوجهيهما ، ومع ذلك فقد بدا لي ، وانا ارنو اليهما ، اني على الفة بكل قَسَمة من قسماتهما • انا لا استطيع ان ازعم انهما كانتا وسيمتين ـ فقد كـان في شحوبهما ورزانتهما المسرفتين ما يبعدهما عن الوسامة : لقد بدتا ، وقد انكبت كل منهمـا على كتاب تطالعه ، مستغرقتين في التفكير حتى الصرامة تقريبا • وكانت تقوم بينهما منضدة عليها شمعة اخرى ومجلدان ضخمان كثيرا ما كانتـا ترجعان اليهما ، وكأنهما تقارنان ما بينهما وبين الكتابين الصغيرين اللذين كانا في ايديهما ، فِعْلَ من يرجع الى معجم يستعين به في مهمة الترجمة • والحق ان هذا المشهد كان صامتا الى درجة يخيل معها للمرء ان جميع الوجوه لم تكن غير ظلال ، وان الحجرة المضاءة بنار المستوقد لم تكن غير لوحة فنية • وكان كل شيء غارقا في السكون حتى لقد استطعت ان اسمع قطع الوقود المحترقة تتساقط وراء شباك المستوقد ، وساعة الجدار تتك في زاويتها المظلمة • بل لقد خيل الي اني استطعت ان اسمع طقطقة ابرتي الحوك في يدى العجوز • حتى اذا عكر هذا السكون العجيب صوتا ما في اخر الامر تناهى الى اذني ، ولا عجب ، واضحا مفهوما •

ـ « اسمعي ، يا ديانا ! » كذلك قالت احدى التلميذتين المستغرقتين في المطالعة • « ان الليل ليلف كلا من فرانز ودانيال العجوز ، وان فرانز ليروي حلما استيقظ من غمرته مذعورا • اسمعي ! »

وفي صوت خفيض راحت تتلو شيئا لم افهم منه كلمة واحدة • ذلك بأنه كان مكتوبا بلغة مجهولة ••• ليست بالفرنسية وليست باللاتينية • ولم استطع ان اجزم هل كانت تلك اللغة يونانية ام المانية •

وحين فرغت من التلاوة قالت : « هذا قوي جدا • واني لاستسيغه » • فما كان من الفتاة الاخرى ، التي كانت قد رفعت رأسها لتصغي لاختها ، الا ان كررت فيما هي تحدق الى النار سطرا مما قرىء • وفي يوم تال عرفتُ اللغة والكتاب • ومن اجل ذلك سوف اقتبس ههنا ذلك السطر ، على الرغم من انه لم يكن حين سمعته اول مرة غير صوتَ مبهم شـبيه بالضرب على نحاس رنان ، فهو لا ينطوي على أي معنى :

«Da trat hervor Einer, anzusehen wie die Sternen Nacht.» *

وهتفت وقد التمعت عيناها السوداوان العميقتان : « جيد ! جيد ! ان لديك هنا وصفا صادقا لكبير ملائكة متجهم جبار ! وهذا السطر يساوي مئة صفحة من الكلام الطنان :

«Ich wäge die Gedanken in der Schale meines Zornes und die Werke mit dem Gewichte meines Grimms.» **

---

* « وتقدم احدهما ليرى الى النجوم في الليل » • (المعرب)

** « اني أزن الافكار في ميزان غضبي ، والآثار بمثقال سخطي » • (المعرب)

أنا احب هذا ! »

واعتصمت كلتاهما بالصمت من جديد •

وتساءلت المرأة العجوز رافعة بصرها عن حبكهـــا : هل ثمة بلاد يتكلم الناس فيها بهذه الطريقة ؟ »

ـ « اجل ، يا حنة • وانها لبلاد اكبر من انكلترة بكثير ، بلاد لا يتكلمون فيها بأية طريقة اخرى » •

ـ « حسن ، ولكن الشيء الثابت هو اني لا افهم كيف يستطيع احدهم ان يفهم الاخر • ولو قد ذهبت احداكما الى هناك فهـــل تستطيع ان تفهم ما يقولون ؟ »

ـ « في استطاعتنا ان نفهم بعض ما يقولونه ليس كله ••• لاننا لسنا من البراعة بقدْر ما تحسبيننا ، يا حنة • نحن لا نتكلم الالمانية ، ولا نستطيع ان نقرأها من غير قاموس يعيننا على ذلك » •

ـ « واي فائدة تجنيانها من هذه اللغة ؟ »

ـ « نحن نعتزم ان ندرّسها في يوم من الايـــام ••• أو على الاقل ان ندرّس مبادئها ، كما يقولون • وعندئذ سوف نكسب قدرا من المال اكبر من الذي نكسبه الان » •

ـ « محتمل جدا • ولكن كفاكما درسا • لقد بذلتما جهدا غير يسير هذه الليلة » •

ـ « اظن اننا قد بذلنا • انا ، على الاقل ، استشعر تعبا • فهل انت متعبة مثلي ، يا ماري ؟ »

ـ « حتى الهلاك • وعلى اية حال فانها لمهمة عسيرة ان يكدح المرء في دَرْس لغة ما وليس لديه من يعلّمه اياها غير معجم من المعاجم » •

ـ « هذا صحيح • وبخاصة اذا كانت كهذه اللغة الالمانية المعقدة المربكة ، على الرغم من انها مجيدة • ترى ، متى سيعود سانت جون ؟ »

ـ « لا ريب في انه لن يتأخر اكثر مما فعل • الساعة الان هي العاشرة تماما (قالت ذلك ، ناظرة الى ساعة ذهبية صغيرة اخرجتها من زنارها) • ان المطر ينهمر في قوة • هل لك يا حنة ان تتكرمي بالقـاء نظرة على النار في حجرة الجلوس ؟ »

فنهضت المرأة ، وفتحت بابا رأيت من خلاله ـ على نحو باهت ـ ممرا أو مجازا • وسرعان ما سمعتها تثير جمرات نار موقدة في حجرة داخلية •

ثم انها ما لبثت ان عادت وقالت : آه ، يا صغيرتيَّ ! يؤلمني اشد الايلام أن امضي الان الى تلك الحجرة التي هناك • انها لتبدو موحشة جدا بذلـــك الكرسي الخالي المنحّى في احدى الزوايا » •

وكفكفت عبراتها بفضل مئزرها • فاذا بالفتاتين ، اللتين كانتا متجهمتي الوجه من قبل ، تصبحان محزونتين •

وتابعت حنة كلامها : : ولكنه الان في موطن افضل • وليس ينبغي لنا

ان نتمنى لو يعود الى هنا • وفوق هذا ، فان احدا لا يمكن ان يموت ميتة اكثر هدوءا من ميتته » •

فسألتها احدى السيدتين : « تقولين انه لم يذكرنا البتة ؟ »

ـ « لم يكن لديه متسع من وقت ، يا بنيّتي : لقد قضى ابوك نحبه في دقيقة واحدة • كانت صحته قد اعتلت ، في اليوم السابق ، بعض الشيء ، ولكن ذلك لم يكن امرا ذا بال • وعندما سأله مستر سانت جون ما اذا كان يود ان يبعث في طلب أي منكما سخر منه • ثم استقبل اليوم التالي وفي رأسه شيء من الثقل ـ وكان ذلك منذ اسبوعين اثنين ـ وآوى للرقاد ثم لم يفق بعد ذلك قط • حتى اذا دخل اخوكما الحجرة عليه وجده شبه متصلب • آه ، يا صغيرتي ! لقد كان هو بقية السلف الصالح • لانكما انتما ومستر سانت جون من ضرب اخر مختلف عن اولئك الذين قضوا نحبهم من افراد الاسرة • لقد كانت امكما مثلكما تماما ، وكانت مثقفة مثلكما تماما • والواقع انك صورة عنها ، يا ماري • أما ديانا فتشبه اباها اكثر » •

بيد انني حسبتهما متماثلتين الى أبعد حدود التماثل ، ولم ار اين وجدت الخادم العجوز (ذلك اني استنتجت الان انها كانت خادما) ذلك الفرق • فقد كانت كل منهما بيضاء البشرة ممشوقة القوام ، وكان لكل منهما وجه يتسم بالامتياز والذكاء • غير ان شعر احداهما كان أشد سوادا الى حدٍّ لا يكاد يَتبيّن ، من شعر الاخرى ، وانه كان ثمة اختلاف في طريقة تسريحه • فأما شعر ماري الداكن بعض الشيء فكان مفروقا ومجدولا جدلا منسدلا ، واما ضفائر ديانا الاشد حلكة فكانت تغطي جيدها بحُلَيقات كثيفة • واعلنت ساعة الحائط العاشرة مساء •

فقالت حنة : « انا واثقة من انكما تريدان ان تتناولا طعام العشاء • وكذلك سيكون مستر سانت جون راغبا في تناول الطعام عندما يعود » •

وشرعت تعد المائدة • ونهضت السيدتان ، وبدتا على وشك الانصراف الى حجرة الجلوس • وكنت قد عكفت ـ حتى تلك اللحظة ـ على تأملها ، وكان مظهرهما وحديثهما قد اثار اهتمامي اعظم ما تكون الاثارة حتى لقد نسيت ، او كدت ، وضعيَ البائس • اما الان فسرعان ما تذكرته • فبدا لي ، على ضوء المغايرة بين حالي وحاليهما اني كنت اشد بؤسا واعظم يأسا من ايما وقت مضى ، وان من المتعذر ان استثير عطف نزلاء هذا البيت وأوفق الى حملهم على العناية بأمري ـ ان اقنعهم بصدق ما اقاسيه من عوز وبلايا ، وان اغريهم بمنحي ملاذا يقيني من التشرد ! حتى اذا تلمست طريقي نحو الباب وقرعته في تردد استشعرت ان الفكرة الاخيرة لم تكن غير وهم من الاوهام •

وفتحت حنة ، وسألتني في صوت يغلب عليه الدهش فيما كانت تقلّب طرفها فيَّ على ضوء الشمعة التي حملتها : « ماذا تريدين ؟ »

فقلت : « هل تسمحين لي ان اتحدث الى سيدتك ؟ »

ـ « من الخير لك ان تخبريني بما تريدين ان تقوليه لهما من ايـن

انت مقبلة ؟ »
ـ « انـــا غريبة » ٠
ـ « وما الذي جاء بك الى هنا في مثل هذه الساعة ؟ »
ـ « اني التمس المبيت هذه الليلة في سقيفة او زريبة او ايما مكـــان اخر ، وكسرة من خبز اتبلّغ بها » ٠

فبدت على وجه حنة امارات الارتياب ـ ذلك الشعور عينــه الذي كنــت اخشاه وارهبه ـ وقالت بعد تمهل : « سوف اعطيك كسرة خبز ، ولكننـا لا نستطيع ان نؤوي متشردة ٠ هذا غير ملائم » ٠

ـ « اتوسل اليك ان تدعيني اخاطب سيدتيك » ٠

ـ « لا ٠ لست انا من تقدم على ذلك ٠ وما الذي تستطيعان ان تفعـلاه من اجلك ؟ انه ليس من حقك ان تتسكعي الان في الطرق ٠ يبدو لي ان هذا شنيع جدا » ٠

ـ « ولكن الى اين اذهب اذا ما طردتني ؟ ما الذي سوف اصنعه ؟ »

ـ « اوه ، انا اؤكد لك انك تعرفين الى اين تذهبين وما الذي يجـب ان تفعليه ٠ ولكن حذار ان تقارفي اثما ، هذا كل ما استطيع ان اقوله لك ٠ اليك هذا البنس ، وامضي الآن لسبيلك ٠٠٠ »

ـ « هذا البنس لا يستطيع ان يغنيني من جوع ، ولم تبق لي قدرة على السير اكثر مما فعلت ٠ لا توصدي الباب في وجهي ٠٠٠ اوه ، لا توصديـه اكراما لله ! »

ـ « يتعين علي ان افعل ٠ ان المطر يتسرب الى الداخل ٠٠٠ »
ـ « اخبري السيدتين ٠٠٠ دعيني اراهما ٠٠٠ »
ـ « لن افعل ذلك من غير ريب ٠ انت لست ما ينبغي ان تكوني ، والا لما احدثتِ مثل هذه الضجة كلها ٠ انصرفي ! »

ـ « ولكني لا بد ان اموت اذا طُرِدت من هنا » ٠

ـ « لست انت من تموت اذا طُرِدت ٠ واني لاخشى ان تكون لك اهداف شريرة تحدو بك الى الالمام ببيوت الناس في مثل هذه الساعة من الليـــل ٠ واذا كان لك بعض الاتباع ـ من سُرّاقَ البيوت او ما شابه ـ في مكان غير بعيد ، ففي استطاعتك ان تخبريهم اننا لا نقيم وحدنا في هـذا المنزل ، وان لدينا رب بيت وكلابا وبنادق » ٠

وهنا اغلقت الخادمة الامينة ، ولكن العنيــدة القاسيـة الفؤاد ، بـاب البيت ، واحكمت ايصاده بالمزلاج ٠

عندئذ بلغ السيل الزبى ٠ لقد مزقـت قلبي وورّمتـه غصةٌ من الم مبرّح ٠٠٠ وكربٌ من قنوط حقيقي ٠ كنت منهوكة القوى حقا ، ولم يكن في ميسوري ان اخطو خطوة اخرى ٠ فتهالكت على عتبة الباب المبللة ٠٠٠ واخذت أئن ٠٠٠ واعتصر يديّ ٠٠٠ وابكي في لوعة ليس وراءها لوعة ٠ اوه ، هو ذا شبح الموت ! اوه ، هي ذي الساعة الاخيرة تدنو بمثـل هـــذا الهول كله !

وا أسفاه ، أأموت في هذه العزلة وهـــذا الاقصاء عن بني جنسي ! انا لم افقد الامل في القاء مرساتي في بيت ما ، فحسب ، بل فقدت موطىء الجَلَد والثبات ايضا ـ طوال فترة قصيرة على الاقل • ولكني سرعان ما ناضلت لاسترداد موطىء القدم هذا •

وقلت : « لم اعد اقـــدر على شيء غير الموت • واني لأؤمــن بالله • فلأحاول، ان انتظر مشيئته في صمت » •

هذه الكلمات لم اقلها بفكري فحسب ، بل قلتها بشفتي ايضا • ثـم انني رددت بؤسي كله الى فؤادي ، وبذلت جهدا غير يسير لكي ابقيه هناك ، اخرسَ ساكنا •

فقال صوت على مقربة دانية مني : « لقد كتـب الموت على النـــاس جميعا ، ولكن لم يُكتب على الناس كلهم ان يلقوا مَثل هذه الميتة المتطاولة ، الفطيرة ، التي ستنتهين اليها اذا ما قضيت نحبك هنا جوعا وعوزا » •

وتساءلت ، وقد روعني الصوت اللامتوقع وامسيت عاجزة عن ان ارى في ايما حادثة ، مهما تكن ، بصيص امل في العثور على عون : « من الذي ، او ما الذي ، يتكلم ؟ » كان ثمة شبح قريب مني ، ولكن الليل ذا الظلام الحالـــك وبصري الذي اصابه الوهن حالا بيني وبين تبيُّنه • وانشأ الوافد الجديـد يطرق الباب طرقا عنيفا طويلا •

فصاحت حنة : « اهذا انت ، يا مستر سانت جون ؟ »

ـ « اجل •• اجل •• افتحي في سرعة » •

ـ « حسنا ، ولا ريب في انك تشكو البرد والبلل في مثل هذه الليلة الضارية ! ادخل ••• ان اختيك قلقتان عليك اعظم القلق ، وانا اعتقـــد ان بعض الاشرار يحومون حول البيت ويتربصون بنا الدوائر ••• فقـــد وفدت علينا ، منذ لحظات ، شحاذة •• ولكنها لمّا تنصرف بعد ! انها منطرحــة على الارض هناك • انهضي ! يا للعار ! اقول لك امضي لسبيلك ! »

ـ « صه ، يا حنة ! ان لدي كلمة اريد ان اقولها لهذه المرأة • لقـــد ادّيت انت واجبك بطردها ، فدعيني اؤدي انا واجبي بأدخالها • فقد كنـت واقفا غَير بعيد فأصغيت اليك واليها • ويخيل الي ان هذه حالة استثنائية ، وان من واجبي ان ادرسها على الاقل • ايتها الشابة ، انهضي وتقدميني الى البيت » •

فصدعت بما امرني في صعوبة وعسر • وسرعان ما وجدت نفسي واقفة ضمن جدران ذلك المطبخ النظيف المشرق ، امام المدفأة نفسها ، وانا ارتجـف واغالب الاغماء ، وأعي ان مظهري لا بد ان يكون غاية الغايات في الشحوب ، وانتفاش الشعر ، والارهاق من جراء السير تحت المطر والرياح • كانـــت السيدتان ، واخوهما سانت جون ، والخادمة العجوز ، كلهم يحدقون الي •

وسمعت احداهن تسأله : « سانت جون ، من هذه المرأة ؟ »

فكان الجواب : « لست ادري • لقد وجدتها بالباب » •

فقالت حنة : « انها تبدو مسرفة في الشحوب » •

ـ « بل انها شاحبة شحوب الصلصال او الموت • وهي توشك ان تقع مغشيا عليها • دعيها تجلس » •

والواقع ان الدوار كان يعصف برأسي • وهويت ، ولكن احد الكراسي تلقاني • كنت لا ازال مالكة زمام حواسي ، برغم اني كنت عاجزة في تلك اللحظة عن الكلام •

ـ « لعل شيئا من الماء قادر على انعاشها • ايتيني بقليل منه ، يا حنة • ولكن الضنى قد انهكها فلم يبق منها غير الجلد والعظم • آه ، ما اشد هزالها ، وما اعظم امتقاع لونها ! »

ـ « انها مجرد شبح » •

ـ « اهي مريضة ام جائعة وحسب ؟ »

ـ « جائعة ، في ما اظن • هل هذا لبن ، يا حنة ؟ ايتيني به وبكسرة من خبز » •

فكسرت ديانا (لقد عرفتها من جدائلها الطويلة التي رأيتها تنسدل بيني وبين النار عندما انحنت فوقي) شيئا من خبز وغمسته في اللبن ، ووضعته في فمي • كان وجهها على مقربة من وجهي : لقد رأيت علائم الاشفاق فيه ، واستشعرت المشاركة الوجدانية في انفاسها المتسارعة • وبكلماتها البسيطة ، ايضا ، تكلمت العاطفة البلسمية نفسها فقالت : « حاولي ان تأكلي » •

فكررت ماري في لطف : « اجل ••• حاولي » •

ونزعت يد ماري قبعتي المبللة ورفعت رأسي • وذقت ما قدموه الي ، على نحو واهن ، اولا ، ثم في لهفة بعد ذلك •

وقال سانت جون : « ليس ينبغي لها ان تسرف في الطعام اول الامر •• اكبحي جماحها ••• لقد اصابت منه مقدارا كافيا » • واقصى كوب اللبن وطبق الخبز عني •

ـ « دعها تصيب مقدارا اضافيا قليلا ، يا سانت جون ، انظر الى النهم في عينيها » •

ـ « لا • يجب ان لا تعطى مزيدا ، في الوقت الحاضر ، يا اختاه • حاولي ان تري ما اذا كان في ميسورها الان ان تتكلم • اسأليها ما اسمها » •

واستشعرت اني قادرة على الكلام ، فأجبت : « اسمي جين ايليوت » • ذلك بأن حرصي ، اكثر من ايما وقت مضى ، على ان لا يكتشف هويتي احد كان قد دعاني الى توطين النية على اصطناع اسم مستعار •

ـ « واين تقيمين ؟ اين اهلك ؟ »

فاعتصمت بالصمت •

ـ « هل نستطيع ان نستدعي احدا من معارفك ؟ »

فهززت رأسي •

ـ « هل تستطيعين ان تروي لنا قصتك ؟ »

وبطريقة ما ، لم اعد اشعر ـ بعد ان اجتزت عتبة هذا المنزل ووجدت نفسي وجها لوجه مع اصحابه ـ اني منبوذة ، متشردة ، انكرها العالم كله • من اجل ذلك جرؤت على اطّراح صفة المتسولة ، واستعادة شخصيتي ومسالكي الطبيعية • وشرعت اعرف نفسي ، كرة اخرى • حتى اذا سألني مستر سانت جون ان اروي قصتي ـ وهو شيء كنت آنذاك اضعف من ان اقوى على ادائه ـ قلت بعد تمهل وجيز : « سيدي ، ليس في استطاعتي ان اقدم اليك الليلة اية تفاصيل » •

فقال : « ولكن ما الذي تتوقعين مني ، اذن ، ان افعله من اجلك ؟ »

فأجبته : « لا شيء » •

كانت قوتي لا تساعدني على اكثر من الرد بأجوبة قصيرة • فتولت ديانا الكلام قائلة : « هل تعنين اننا قد اسدينا اليك العون الذي تبتغينه ؟ وان في ميسورنا ان نسرّحك لتعودي الى الارض السبخة والليل المطر ؟ »

ونظرت اليها • كانت لها ، في ما خيل الي ، سيماء اخّاذة تتميز بالقوة والطيبة في آن معا • وآنست في نفسي شجاعة مفاجئة • واذ اجبت عن نظرتها الرؤوف بابتسامة قلت : « ان لي ثقة فيكم • وانا اعرف اني لو كنت كلبا ضالا لا سيد له لما طردتموني من مستوقدكم الليلة • وهكذا فأني لا استشعر خوفا البتة • افعلوا بي ومن اجلي ما تشاءون ، ولكن اعفوني من الاسراف في الكلام ـ ان انفاسي لقصيرة ، واني لاستشعر ان التشنج يستبد بي كلما تكلمت » •

وراح الثلاثة ينظرون الي من قمة رأسي الى اخمص قدمي ، واعتصموا كلهم بالصمت •

واخيرا ، قال سانت جون : « حنة ، دعيها تقعد هناك موقتا ، ولا توجهي اليها اي سؤال • وبعد عشر دقائق اعطيها بقية ذاك اللبن وذلك الخبز • ولنذهب ، يا ماري وديانا ، الى حجرة الجلوس ونتحدث في المسألة » •

وانسحبوا • وما هي الا لحظات حتى عادت احدى السيدتين ـ ولم استطع ان اجزم اكانت هي ماري ام ديانا • وكان ضرب من الخدر العذب يتمشى في مفاصلي وانا قاعدة على مقربة من النار الانيسة • وفي كلمات مهموسة ، اصدرت الى حنة بعض التعليمات • ولم تمض غير دقائق حتى رحت ابذل قصارى جهدي ، مستعينة بالخادمة ، لارتقاء درجات سلم ما • ونُزِعت ملابسي • وسرعان ما استقبلني فراش دافىء جاف • وحمدت الله ••• وراودتني وسط اعياء لا سبيل الى وصفه ، حميًا ابتهاج مقرون بعرفان الجميل ••• واستسلمت للرقاد •

٢٩

اني لا اذكر الثلاثة الايام والليالي التي تلت ذلك الا ذكرى مبهمة جدا • في استطاعتي ان اتذكر بعض المشاعر التي خامرتني خلال تلك المدة ، ولكني

لا اتذكر الا قلة قليلة من الافكار التي راودتني : اما الاعمال التي قمت بها فلست اتذكر منها شيئا البتة · لقد عرفت اني كنت في حجرة صغيرة ، وفي سرير ضيق · ولقد بدا لي اني كنت مشدودة الى ذلك السرير شدا : لقد اضطجعت فيه جامدة كالحجر ، وكان انتزاعي منه خليقا به ان يفضي الى قتلي او يكاد · ولم افطن قط الى تصرُّم الزمن – الى تحول الصباح الى ظهر ، والظهر الى مساء · لقد لاحظت دخول الداخلين الى الحجرة وخروج الخارجين منها · بل لقد كان في ميسوري ان اعرفهم باسمائهم ، وكان في طوقي ان افهم ما يقال كلما اتفق ان كان المتكلم واقفا على مقربة مني ، ولكني كنت عاجزة عن الاجابة · فقد كان من المتعذر علي ان افتح شفتي وان احرك اطرافي ، على حد سواء · وكانت حنة ، الخادمة اكثر القوم اختلافا الى حجرتي · وكان وفودها علي يزعجني : كنت اشعر انها حريصة على ابعادي عن المنزل ، وانها لم تفهمني او لم تفهم ظروفي ، وانها كانت متحاملة علي · اما ديانا وماري فكانتا تفدان على حجرتي مرة او مرتين في اليوم · وكان من دأبهما ان تتهامسا بمثل هذه الجمل ، امام سريري :

– « لقد احسنا صنعا ، الى حد بعيد ، بايوائنا اياها » ·

– « اجل · ولو قد تُركت طوال الليل خارج البيت اذن لكان خليقا بنا ان نجدها في الصباح جثة هامدة طريحة لدى الباب · ليت شعري اي خطبَ الم بها ؟ »

– « يخيل الي انها قاست شدائد عجيبة · يا لها من متشردة بائسة مهزولة شاحبة الوجه ! »

– « يبدو لي ، من طريقتها في الكلام ، انها ليست امرأة غير مثقفة · ان نبرتها صافية كل الصفاء ، ولقد كانت الملابس التي خلعتها – برغم ما اصابها من وحل وبلل – ملابس مترفة شبه جديدة » ·

– « ان لها لوجها فريدا ، واني لاحبه على الرغم من هزاله وشحوبه · ويخيل الي ان سيماءها سوف تكون ، يوم تسترد صحتها وعافيتها ، مستحبة قريبة الى النفس » ·

ولم اسمع في محاوراتهما ، ولو مرة واحدة ، ايما كلمة تنم عن ندم على ما احاطتاني به من حسن ضيافة ، او عن ارتياب فيَّ او كره لي · ولقد كان في ذلك ما سرّى عني ·

ولم يفد مستر سانت جون على حجرتي الا مرة واحدة : لقد نظر الي وقال ان حالة السبات التي غلبت علي ناشئة عن اعياء متطاول مغالى فيه · واعلن ان ليس ثمة حاجة الى استدعاء طبيب ، وانه واثق من ان الطبيعة خليق بها ، اذا ما تُركت وشأنها ، ان تصلح ما فسد · لقد قال ان كل عصب من اعصابي كان مرهقا بطريقة ما ، وان الجهاز العصبي كله يجب ان يخلد الى السكينة والرقاد فترة من الزمن ، وانني لا اشكو ايما داء ، وانه يميل الى الاعتقاد بأني ما ان اشرع في استرداد العافية حتى انعم بالشفاء على نحو

عاجل . وانما عبر عن هذه الآراء في كلمات معدودات ، وفي صوت خفيض هادىء . ثم اضاف ، بعد تمهّل ، في نبرة رجل لم يألف التبسط في الشرح والتعليق الا قليلا : « سحنة غير عادية ... لا تنم من غير شك عن ابتذال او حطة » .

فاجابته ديانا قائلة : « بل انها ابعد ما تكون عن الابتذال والحطة . اقول لك الحق ، يا سانت جون ، ان قلبي ليأسى لهذه النفس الصغيرة البائسة ويعطف عليها . ولشد ما اتمنى لو نستطيع ان نسدي اليها عونا سرمديا » .

فكان الجواب : « هذا امرٌ بعيد الاحتمال . ولسوف تجدين عما قريب انها شابة نشأ بينها وبين اهلها سوء تفاهم ، وانها في اغلب الظن قد هجرتهم من غير ما روية ولا تبصر . ومن يدري ، فلعلنا ان نوفق الى اعادتها اليهم ، اذا لم تتكشف عن تصلب في الرأي . ولكنني المح امارات العناد على وجهها ، وهذا ما يجعلني اعتقد انها لن تكون سهلة الانقياد » . وراح يتأملني بضع دقائق ، ثم اضاف : « انها تبدو ذكية ، ولكنها غير وسيمة البتة » .

– « ولكنها رازحة تحت وطأة المرض ، يا سانت جون » .

– « تحت وطأة المرض او تحت وطأة الصحة ... انها سوف تظل دميمة ابد الدهر . هذه الاسارير يعوزها بهاء الجمال وتناغمه » .

وفي اليوم الثالث ، غدوت احسن حالا . وفي اليوم الرابع امسى في ميسوري ان اتكلم ، واتحرك ، وارفع نفسي واتقلب في الفراش من جنب الى جنب . وحوالي موعد الغداء ، في ما احسب ، حملت الي حنة ، بعض الثريد وقطعة من خبز محمص . فأكلت في شهية : كان الطعام جيدا ، خلوا من نكهة الحمى التي كانت قد سممت كل ما ازدردته حتى ذلك الحين . وعندما فارقتني حنة استشعرت قوة ونشاطا نسبيين . وما هي غير فترة يسيرة حتى ضقت ذرعا بالراحة الموصولة وحتى استحوذت علي رغبة في التحرك والعمل . لقد نزعت الى مغادرة الفراش ، ولكن اي شيء ارتدي ؟ لم يكن ثمة غير ملابسي الرطبة الملطخة بالوحل ... تلك التي نمت بها على الارض وهويت بها في المستنقع . واستشعرت الخجل من ان اظهر بتلك الملابس امام من احسنوا الي ، ولكنني سرعان ما كُفِيْتُ هذا الهوان .

فعلى كرسي الى جانب سريري كانت ثيابي كلها ، نظيفة جافة . وكان فستاني الحريري الاسود معلقا على الحائط ، وقد ازيلت منه آثار الوحل وتلك التغضنات التي كان البلل قد احدثها فيه : لقد كان في وضع حسن . وحتى حذائي وجوربي كانا قد نُظّفا وجُعلا لائقين . وفي الحجرة ايضا كانت جميع اسباب الاغتسال ، ومشط وفرشاة لكي استعين بهما على تسريح شعري . وبعد جهود جاهدة ، كنت اخلد خلالها الى الراحة مرة كل خمس دقائق ، وفقت الى ارتداء ملابسي واتخاذ زينتي . وتهدلت ملابسي على جسدي ، بسبب من الهزال الذي المّ بي ، ولكنني حجبت هذه العيوب بشالي . حتى اذا استعدت مظهري النظيف اللائق – فليس فيه لطخة من قذر وليس فيه

ايما اثر من آثار الاضطراب الذي امقته اشد المقت والذي بدا وكأنه يُنْزل بي اعظم المهانة ـ تحاملت على نفسي ورحت اهبط ، مستعينـة بالدرابزون ، سلما حجرية افضت بي الى مجاز ضيق خفيض · وسرعان ما اكتشفت طريقي الى المطبخ ·

كان المطبخ عابقا كله بعبير الخبز الطازج ، ودفء نار حسنة الضرام · كانت حنة تخبز · ومعروف لدى الخاص والعام ان من اعسر العسير استئصال جذور التحامل من قلب لم تدمّث الثقافة تربته او لم تُصطنع في اخصابها ، لانها تمتد ثمة راسخة ثابتة كالاعشاب الضارة بين الحجارة · والواقـع ان حنة وقفت مني بادىء الامر موقفا باردا قاسيا ، ثم شرعت تلين بعد ذلك بعض الشيء · وعندما رأتني ادخل عليها المطبخ انيقة حسنة البزة ذهبت الى حد استقبالي بابتسامة ·

وقالت : ماذا ؟ لقد نهضت من فراشك ؟ انـت اذن احسـن حالا · في ميسورك ان تجلسي على كرسي الى جانب المستوقد ، اذا شئت » ·

واشارت الى الكرسي الهزاز ، فاستويت عليه · ثم انهـا انهمكـت في عملها بهمة ونشاط ، مختلسة النظر الي بين الفينة والفينة · وفيما كانـت تخرج بعض الارغفة من الفرن ، التفتت الي ، وسألتني في فظاظة :

ـ « هل لجأت الى التسول ، في ايما يوم من الايام ، قبـل ان تجيئي الى هنـا ؟ »

وعصف بي السخط لحظة · حتى اذا تذكرت ان الغضب كان امرا غير وارد ، واني كنت قد بدوت لها في الواقع في مظهر شحاذة ، اجبتها في هدوء ، ولكن في شيء من الحزم الصارخ :

ـ « انت تخطئين اذ تتوهمينني شحاذة · انا لست بالشحاذة ··· الا اذا كنت انت وكانت سيدتاك الشابتان من زمرة الشحاذين ! »

وبعد تمهل قالت : « انا لا افهم ذلك · انك فتاة لا بيت لها ولا نحاس ، في ما اظن ؟ »

ـ « ان افتقار المرء الى بيت ونحاس (الذي تعنين به المال ، على مـا احسب) لا يجعل منه شحاذا بالمعنى الذي تفهمينه من الكلمة » ·

فسألتني على التو : « هل انت متعلمة ؟ »

ـ « اجل · الى حد بعيد » ·

ـ « ولكنك لم تلتحقي قط بمدرسة داخلية ! »

ـ « لقد سلخت ثمانية اعوام في احدى المدارس الداخلية » ·

ففتحت عينيها اوسع ما استطاعت ان تفتحهما ، وقالت : « واذن ، فما الذي يجعلك عاجزة عن كسب رزقك بنفسك ؟ »

ـ « لقد كسبت رزقي بنفسي · واني لآمل ان اوفـق الى كسبـه في المستقبل ، كرة اخرى · ما الذي تعتزمين ان تفعليه بعنب الثعلـب هذا ؟ »

ـ كذلك سألتها عندما جاءت بسلة حافلة بذلك الثمر ·

ـ « سوف اصنع منه بعض المعجنات » ·
ـ « ادفعيه الي حتى انتقي جيده واطّرح خبيثه » ·
ـ « لا · انا لا اريدك ان تأتي عملا ما » ·
ـ « ولكني يجب ان اعمل شيئا · ادفعي الثمار الي » ·
ووافقت اخر الامر · ليس هذا فحسب ، بل انها جاءتني بمنشفة نظيفة لكي انشرها فوق فستاني ، « خشية ان اوسخه » كما قالت ·

ولاحظت قائلة : « ان يديك توحيان الي بأنك لم تتعودي الخدمة المنزلية من قبل · هل كنت خياطة ؟ »

ـ « لا · لقد جانبَكِ الصواب · والان ، دعي عنك ما كنتُهُ من قبل · لا تشغلي بالك بأمريَ اكثر مما فعلت · ولكن قولي لي ما اسم المنزل الذي نحن فيه » ·
ـ « بعضهم يدعونه « مارش اند » ، وبعضهم يدعونه « مور هاوس » ·
ـ « والسيد الذي يقيم هنا يدعى مستر سانت جون ؟ »
ـ « لا · انه لا يقيم هنا : فهو لن يمكث غير فترة يسيرة · حتى اذا انقلب الى موطنه انقلب الى ابرشيته في مورتون » ·
ـ « تلك القرية الواقعة على مبعدة بضعة اميال ؟ »
ـ « نعم » ·
ـ « وما عمله ؟
ـ « انه قسيس » ·
عندئذ تذكرت جواب مدبرة المنزل العجوز في بيت راعي الكنيسة عندما التمست مقابلة القسيس · فقلت : « اذن ، فهذا هو بيت ابيه ؟ »

ـ « نعم ، لقد عاش مستر ريفرز العجوز هنا ، وكذلك عاش ابوه ، وجده ، وجده الاعلى من قبله » ·

ـ « واذن فاسم ذلك السيد هو مستر سانت جون ريفرز ؟ »
ـ « نعم · ان « سانت جون » هو اسمه الصغير كما يقولون » ·
ـ « واختاه تدعيان ديانا وماري ريفرز ؟ »
ـ « نعم » ·
ـ « وقد مات ابوهم ، اليس كذلك ؟ »
ـ « مات منذ ثلاثة اسابيع بضربة شلل » ·
ـ « اليس لهم ام ؟ »
ـ « لقد توفيت سيدتي منذ سنوات عديدة » ·
ـ « وهل عشت مع هذه الاسرة طويلا ؟ »
ـ « لقد سلخت هنا ثلاثين سنة · ولقد ربيت الاولاد الثلاثة جميعا » ·

ـ « هذا يثبت انك كنت طوال هذه الفترة خادمة امينة مخلصة · اقول لك هذا برغم انك لم تتورعي عن الزعم اني شحاذة » ·

فحدقت الي ، كرة اخرى ، بنظرات ترشح بالدهش ، وقالت : « اعتقد اني كنت مخطئة تماما في رأيي فيك . ولكن كثيرا من الماكرين والماكرات يختلفون الى هذه البقعة ... ومن اجل ذلك يتعين عليك ان تغفري لي » .

فتابعت ، في نبرة هي الى القسوة اقرب : « برغم انك اردت ان تطرديني عن باب البيت ، في ليلة ما كان من حقك ان تطردي فيها كلبا » .

ـ « حسنا ، لقد كنت قاسية عليك : ولكن ما الذي يستطيع المرء ان يفعله ؟ لقد فكرت بالفتاتين الصغيرتين اكثر مما فكرت في نفسي . يا للمخلوقتين البائستين ! اذ ليس لهما من يعنى بهما غيري . وخليق بي ان انزع الى الحدة في بعض الاحيان » .

واعتصمت ، بضع دقائق ، بصمت كئيب .

فلاحظت من جديد : « يجب ان لا تقسي ، اكثر مما يجب ، في الحكم علي » .

فقلت : « ولكني لا استطيع الا ان اقسو عليك ، ولسوف اقول لك لماذا ... انا لا اقسو عليك لانك رفضت ايوائي او اعتبرتني محتالة بقدر ما اقسو عليك لانك جعلت الان من افتقاري الى « نحاس » ودار مطعنا علي وموضوعا لتعييري . ان جمهرة من افضل الذين اقلتهم الارض كانوا لا يقلون عني عوزا . واذا كنت مسيحية فيتعين عليك ان لا تعتبري الفقر جريمة » .

فقالت : « لن اعتبره كذلك منذ اليوم . ان مستر سانت جون يقول لي ذلك ايضا ، واني ادرك اني مخطئة .. ولكني كوّنت الان فكرة جديدة عنك تختلف عن فكرتي السابقة كل الاختلاف . انك تبدين لي مخلوقة صغيرة محترمة الى ابعد حد » .

ـ « كفى ... اني اغفر لك الان . صافحيني ! »

فوضعت يدها الصلبة المغبّرة بالدقيق في يدي . واضاءت وجهها الجافي ابتسامة اخرى احفل بالصدق والحرارة . ومنذ تلك اللحظة توثقت بيننا عرى الصداقة .

كانت حنة مولعة بالكلام ، من غير ريب . وفيما كنت افصل رديء الثمار عن جيدها وفيما كانت هي تعدّ الرقاقات لصنع المعجنات راحت تقدم الي تفاصيل شتى عن سيدها الفقيد وسيدتها المرحومة وعن « الصغيرتين » كما كانت تدعو بنتيهما الشابتين .

لقد قالت ان مستر ريفرز العجوز كان رجلا ساذجا الى ابعد الحدود ولكنه كان سيدا ماجدا ينتمي الى اسرة من اعرق الاسر . وقالت ان « مارش اند » كان ، منذ انشائه ، ملكا لآل ريفرز ، واكدت ان « انشاءه يرقى الى مئتي عام خلت . انه لم يكن غير بيت صغير متواضع ، بالقياس الى قصر مستر اوليفر الضخم القائم في وادي مورتون . ولكنها لا تزال تذكر ابا « بيل اوليفر » ، وكان صانع ابر مترحلا . ولقد كان آل ريفرز من اثرياء الطبقة

الوسطى على عهد ملوك انكلترة القدامى المتخذين اسم هنري ، وهو شيء يستطيع كل امرىء ان يدركه بالاطلاع على السجلات المحفوظة في كنيسة مورتون » . ومع ذلك فقد « كان السيد العجوز مثل سائر القوم ، يسلك مسالكهم ويلتزم عمودهم : كان مفتونا بالصيد والزراعة وما شابههما » . اما السيدة فكانت من طراز مختلف . كانت مولعة بالمطالعة ، منكبة على الدرس ، ولقد حذا « صغارها » حذوها في ذلك . لم يكن في هذه الديار نظير لهم ، ولم يوجد قط مثل ذاك النظير في ايما وقت مضى . لقد اولعوا ، ثلاثتهم ، بالمطالعة ، منذ ان جرت السنتهم بالنطق تقريبا . ولقد كانوا دائما من نسيج مختلف عن نسيج الاخرين . ولم يكد مستر سانت جون يبلغ الحلم حتى التحق بالكلية وامسى قسيسا . اما الفتاتان فلم تكادا تغادران المدرسة حتى بحثتا عن العمل كمربيتين : ذلك بانهما اخبرتاها ان والدهما كان قد فقد منذ بضع سنوات جزءا كبيرا من ماله ، بسبب من افلاس رجل كان قد ائتمنه ووثق به . واذ لم يعد من الثراء بحيث يخلّف لهما ثروة تعيشان عليها فقد تعين عليهما ان تعيلا نفسيهما بنفسيهما . لقد سلختا فترة طويلة من الزمن بعيدتين عن بيتهما لا يختلفان اليه الا لماما ، ولقد وفدتا الان على البيت لتلبثا فيه بضعة اسابيع ليس غير بسبب من وفاة ابيهما . ولكنهما كانتا تحبان « مارش اند » و « مورتون » وكل هذه السباخ والهضاب المجاورة حبا عظيما . لقد اقامتا زمنا طويلا في لندن وفي كثير من المدن الكبيرة الاخرى ولكنهما كانتا تقولان دائما انهما لم تجدا البتة ما هو اروع واجمل من مسقط رأسيهما . والى هذا ، فقد كانتا على غاية التناغم والانسجام ، فلم تختلفا مرة ولم تتشاجرا البتة . وهي لا تحسب ان في الدنيا كلها اسرة متآزرة متكاتفة كهذه الاسرة .

حتى اذا فرغت من تنقية عنب الثعلب سألتها اين كانت السيدتان واخوهما الان .

ـ « لقد ذهبوا الى مورتون في نزهة على الاقدام ! ولكنهم سوف يرجعون لتناول الشاي بعد نصف ساعة ليس غير » .

والحق انهم رجعوا في الموعد الذي حددته لهم حنة ، ودخلوا البيت من باب المطبخ ، فأما مستر جون فاكتفى ، حين وقع بصره علي ، بالانحناء تحية لي ، وتابع تقدمه الى احدى الحجرات . واما السيدتان فوقفتا : لقد عبرت ماري ، في كلمات قليلة ، تعبيرا كريما هادئا عن الابتهاج الذي راودها اذ رأتني على نشاط مكنني من هبوط السلم الى الدور الارضي . وامسكت ديانا بيدي ، وهزت رأسها لي وقالت :

« كان ينبغي ان تنتظري حتى آذن لك بالنزول ، ان امارات الشحوب الشديد لا تزال بادية على وجهك .. وانت لا تزالين مهزولة الى حد بالغ ! يا لك من طفلة مسكينة ! يا لك من فتاة مسكينة ! »

كان لديانا صوت يقع في اذني موقع هديل الحمام . وكانت ذات عينين

ابتهج كلما التقت نظراتي نظراتهما • لقد بدا لي وجهها كله حافلا بالسحر والفتنة • وكان محيا ماري لا يقل عن محياها ذكاء ••• وكانت اساريرها مثل اسارير اختها حسنا وجمالا ، ولكن الانطباعة الغالبة على وجهها كانت اكثر تحفظا ، وكان سلوكها نحوي ، برغم لطفه ، اكثر برودة • وكان في نظرة ديانا وحديثها شيء من السيطرة والسلطان : لقد كانت ، من غير ريب ، ذات ارادة فعالة • وكنت انا مفطورة على الابتهاج بالخضوع لسلطان كسلطانها ، وبالاذعان ـ حيث يجيز لي ضميري واحترامي لذاتي ذلك ـ للارادة الفعالة •

ثم انها اضافت : « واي شأن لك بالمطبخ ؟ انه ليس مكانك • ان من دأبي ودأب ماري ان نجلس ، في بعض الاحيان ، في المطبخ لاننا نحب ، ان ننعم ، في البيت ، بالحرية ••• ان ننعم بها حتى الاسراف • اما انت فضيف ، ويجب ان تمضي الى حجرة القعود » •

ـ « ولكني اجد متعة في الجلوس هنا » •

ـ « لست اظن ذلك البتة ••• ما دامت حنة تضطرب ههنا رائحة غادية ، وما دامت تغطيك بالدقيق » •

وهنا تدخلت ماري فقالت : « والى هذا فالنار هنا حامية الى حد تعجزين عن احتماله » •

واضافت اختها : « من غير ريب • تعالي ، يجب ان تكوني مطيعة » •

وحملتني على النهوض ـ وكانت لا تزال ممسكة بيدي ـ وقادتني الى الحجرة الداخلية •

وقالت وهي تقعدني على الاريكة : « اجلسي هنا ريثما نغير ثيابنا ونُعد الشاي • اذ من الامتيازات التي ننعم بها في بيتنا هذا ، المجاور للمستنقعات ، ان نعد طعامنا بأيدينا حين نؤانس في نفسَيْنا ميلا الى ذلك ، او حين تكون حنة منصرفة الى الخَبْز او صنع الجعة او غسل الملابس او كيِّها » •

واغلقت الباب ، تاركة اياي وحدي مع مستر سانت جون الذي كان جالسا قبالتي ، وفي يده كتاب او صحيفة • وانشأت اتأمل الحجرة ، اولا ، واتأمل محتلها ، بعد ذلك •

كانت حجرة الجلوس حجرة هي الى الصِغر اقرب ، وكانت مفروشة بأثاث بسيط الى حد بعيد ، ومع ذلك فهي مريحة بسبب من نظافتها وحسن ترتيبها • كانت الكراسي العتيقة الطراز شديدة اللمعان ، والطاولة المصنوعة من خشب الجوز صقيلة كالمرآة • وكانت بضع صور عتيقة غريبة لرجال ونساء من اهل العهود الغابرة تزين جدرانها المدهونة • وكان يقوم في ركن من اركانها خوان ذو ابواب زجاجية يشتمل على بعض الكتب ومجموعة من الآنية الخزفية • لم يكن في الحجرة اي من اسباب الزينة غير الضرورية ، او اية قطعة من الاثاث العصري ، ما خلا علبتين خاصتين بأشغال الابرة ، وقِمَطْر نَسَوي من خشب الورد موضوع على طاولة جانبية : لقد بدا كل شيء ـ حتى السجادة والستائر ـ عتيقا جدا ومصونا جدا في آن معا •

وكان مستر سانت جون جالسا في مثل سكون اللوحات القاتمة المعلقة على الجدار ، مثبتا عينيه على الصفحة التي كان يطالعها في روية وامعان ، مطبقا شفتيه على نحو ابكم ، فليس من العسير على المرء ان يدرسه ويتفحصه. ولو قد كان تمثالا لا بشرا اذن لما كان درسه وتفحصه اشد يسرا . كان فتى تراوح سنه في اغلب الظن ما بين الثامنة والعشرين وبين الثلاثين ربيعا – فارع الطول ، مهزول الجسم ، يتسمر نظر المرء على وجهه الاغريقي ، ذي القسمات الصافية الى حد بالغ ، والانف الكلاسيكي المستقيم ، وعلى فمه وذقنه الاثينيين الخالصين . والواقع ان من النادر ان يشبه الوجه الانكليزي النماذج العتيقة بقدر ما اشبهها وجهه . وكان طبيعيا ان يصدمه تنافر قسماتي ما دامت قسماته هو على هذا التناغم كله . اما عيناه فكانتا نجلاوين زرقاوين ، ذواتَي اهداب سمراء . واما جبينه العالي ، الشاحب كالعاج ، فكانت تنوس فوقه ذوائب شعثاء من شعره الاشقر .

وتلك صورة حبيبة الى النفس ، اليس كذلك ايها القارىء ؟ ومع ذلك فأن صاحبها كان لا يوقع في نفس الناظر انه ذو طبيعة لطيفة ، لدنة ، يسهل التأثير فيها .. بل كان لا يوقع في نفس الناظر انه ذو طبيعة وادعة . وحتى في جلسته الساكنة تلك كان كل من انفه وفمه وجبينه يتّسم ، في ما خيل الي ، بشيء ينمُّ عن نفسٍ قلقة ، او قاسية ، او متلهفة . انه لم يوجه الي اية كلمة ، بل لم يوجه الي نظرة الا بعد عودة اختيه . وحملت الي ديانا ، في رواحها وغدوّها خلال اعداد الشاي ، كعكة صغيرة خبزت على ظهر الفرن ، وقالت :

– « كلي هذه الان ، فلا بد ان تكوني جائعة . تقول حنة انك لم تصيبي ، منذ فطور الصباح ، غير بعض الثريد » .

ولم ارفض الكعكة ، ذلك بأن شهوتي الى الطعام كانت قد اوقظت فهي قوية حادة . عندئذ طوى مستر ريفرز كتابه ودنا من المائدة ، مثبّتا علي ، فيما كان يتخذ مقعده ، عينيه الزرقاوين الشبيهتين بتلك العيون التي تمثلها اللوحات القديمة . كان في نظرته ، الان ، استقامة جافية ورسوخ ثاقب عازم اظهرا ان اجتنابه النظر الي ، انا الغريبة ، كان عن عمد لا عن استحياء .

وقال : « انت جائعة جدا » .

– « اجل ، يا سيدي » . لقد كان من شيمتي دائما ، بحكم الغريزة ، ان ارد على الملاحظة الموجزة بأيجاز ، وعلى الكلام المباشر ببساطة .

– « كان من حسن طالعك ان اكرهتك حمى خفيفة على الامتناع عن الطعام خلال الايام الثلاثة الماضية : اذ كان ثمة خطر في الاستسلام لرغبات شهيتك في بادىء الامر . اما الان ، ففي ميسورك ان تأكلي ، ولكن في غير اسراف » .

– « آمل ان لا يطول تناولي الطعام على نفقتك يا سيدي » . كذلك كان جوابي الفظّ المصوغ على نحو اخرق الى ابعد الحدود .

فقال في فتور : « لا . لن يطول . اذ سيكون في ميسورنا ، حين تعطينا عنوان اهلك ، ان نكتب اليهم ، وعندئذ يصبح بأمكانك ان تعودي الى بيتك » .

ـ « يتعين علي ان اقول لك ، في صراحة ، ان هذا امرٌ لا قِبَل لي به . اذ لا بيت لي ولا اهل على الاطلاق » .

وحدق الثلاثة الي ، ولكن في غير ما ارتياب . لقد استشعرت انه لم يكن في نظراتهم شك ما : كانت اقرب الى الفضول منها الى اي شيء اخر . وانما اتكلم بخاصة عن السيدتين الشابتين . اما سانت جون ، فكانت عيناه ، برغم وضوحهما البالغ بالمعنى الحرفي للكلمة ، غامضتيـــن يعسر على المرء سبـــر غورهما ، بالمعنى المجازي لها . لقد بدا وكأنه يصطنعهما اداتين للكشف عـــن افكار الناس اكثر من اصطناعه اياهما كعامليـــن للابانة عن افكاره هو ، وان تمازج الحدّة والتحفظ فيهما كان يراد به ارباك الاخرين اكثر بكثير مـــن تشجيعهم .

وسألني سانت جون : « هل تريدين ان تقولي انه ليـس لك انسبـــاء البتــــة ؟ »

ـ « اجل ، فليس ثمة اية صلة تربطني بأي كائن حي . وليس لي ايما حق في ان استظل ايما سقف في انكلترة كلها » .

ـ « ذلك وضع غريب جدا بالنسبة الى فتاة في مثل سنك ! »

وهنا رأيت عينيه تتجهان الى يدي ، اللتين كانتا متصالبتين امامي على المائدة . وتساءلت في ما بيني وبين نفسي عن الغرض من نظرته تلك . ولكن كلماته سرعان ما حملت الي الجواب .

ـ « ألم يقدّر لك ان تتزوجي البتة ؟ هل انت عانس ؟ »

فضحكت ديانا ، وقالت : « ولكن سنها لا يمكن ان تعدو السابعة عشرة او الثامنة عشرة ، يا سانت جون » .

ـ « انا في نحو التاسعة عشرة . ولكني غير متزوجة » .

واستشعرت وهجا لافحا يدب الى وجهي ، ذلك بأن هذا الالماع الى الزواج ايقظ في ذات نفسي ذكريات مريرة مثيرة . ولاحظوا كلهم ما اعتراني مـــن ارتباك وانفعال . فسارعت ديانا وماري الى تحويل نظراتهما عن وجهي المضرّج مخففتين بذلك من وطأة اضطرابي . ولكن اخاهما ، الاشد قسوة وبرودة ، لم يرفع بصره عني ، حتى افضى الارتباك الذي اورثني اياه الى اغراق عيني بالدمع واغراق وجهي بالدم في آن معا .

ثم انه سألني : « واين كنت تقيمين قبيل وفودك علينا ؟ »

فغمغمت ماري في صـــوت كالهمس : « انـــك لشديد الفضول ، يـــا سانت جون » .

ولكنه انحنى فوق المائدة مطالبا ـ من طريق نظرة اخرى ثابتة ثاقبة ـ بالحصول على جواب .

فاجبت في اقتضاب : « ان اسم المكان الذي اقمت فيه واسم الشخص

الذي عشت معه هما من اسراري الخاصة » ٠

فلاحظت ديانا : « ومن حقك ، في نظري ، ان تكتميهما عن سانت جون وعن اي مستجوب اخر اذا رغبت في ذلك » ٠

فقال : « ومع ذلك ، فلن يكون في ميسوري ان اساعدك اذا لم اعرف شيئا عنك وعن ماضيك ٠ وانك لفي حاجة الى المساعدة ، اليس كذلك ؟ »

ـ « اجل اني لفي حاجة الى المساعدة ، ولسوف التمسها حتى اعثر على محسن حقيقي محب للانسانية يرشدني الى سبيل تمكنني من الفوز بعمل استطيع اداءه واستعين بالاجر الذي اكسبه منه على العيش ، وسد ابسط حاجات الحياة على الاقل » ٠

ـ « انا لا ادري ما اذا كنت محسنا حقيقيا محبا للانسانية ٠٠٠ ومع ذلك فأني اود ان اساعدك ، بكل ما اوتيت من قوة ، على تحقيق مثل هذا الغرض الشريف ٠ ولكن قولي لي اولا ما الذي ألِفْتِ ان تفعليه ، وما الذي تستطيعين ان تفعليه » ٠

وكنت الان قد فرغت من تناول الشاي ٠ وكان ذلك الشراب قد اوقع في نفسي نشاطا عارما ، كالذي توقعه الخمرة في نفس عملاق من العمالقة : لقد منح اعصابي المرهقة قوة جديدة ، ومكنني من ان اخاطب هذا القاضي الشاب ، الفطن البصير ، في عزم وثبات ٠

فقلت ، مستديرة نحوه ناظرة اليه ـ كما نظر الي ـ في قوة ومن غير ما استحياء : « مستر ريفرز ، لقد اسديت الي انت وشقيقتاك خدمة جليلة ـ اعظم خدمة يستطيع ان يسديها امرؤ الى اخوانه في الانسانية ٠ لقد انقذتموني ، بنبل وفادتكم ، من الموت ٠ وهذه اليد التي اسديتموها الي تجعل لكم علي حقين : حقا في اعترافي بجميلكم على نحو غير محدود ، وحقا في ايلائكم ثقتي الى حد ما ٠ من اجل ذلك سأروي لكم من ماضي المتشردة التي آويتموها ذلك المقدار الذي استطيع روايته من غير ان اسيء الى راحة بالي ، ومن غير ان اعرض سلامتي ، الادبية والجسدية ، وسلامة الآخرين ، لايما خطر ٠

« انا يتيمة ، بنت رجل من رجال الدين ٠ مات عني ابواي قبل ان يُقَدَّر لي ان اعرفهما ، فنشأت عالة على بعض اهلي ، وتلقيت العلم في مؤسسة خيرية ٠ اني سوف اذهب الى حد اخباركم باسم تلك المؤسسة ، حيث قضيت ست سنوات بوصفي تلميذة ، وسنتين بوصفي مدرسة : مأوى اليتيمات في لوورد ، مقاطعة ٠٠٠ واحسب انك سمعت به ، يا مستر ريفرز ٠٠ ان المحترم بروكلهورست هو خازن تلك المؤسسة » ٠

ـ « لقد سمعت بمستر بروكلهورست ، ولقد رأيت تلك المدرسة » ٠

ـ « وغادرت لوورد ، منذ عام تقريبا ، لاعمل مربية خصوصية ٠ فوفقت الى الفوز بوظيفة حسنة في بيت عرفت فيه السعادة ٠ ولكني اضطررت الى مبارحة ذلك البيت قبل اربعة ايام من مجيئي الى هنا ٠ اما سبب رحيلي فلست استطيع الافضاء به وليس ينبغي لي ذلك ٠ ولو قد فعلت اذن لكان ذلك عبثا

لا طائل تحته ، واذن لكان خطرا • واغلب الظن انه سوف يبدو غريبا ممتنعا على التصديق • ولا تحسبنَّ أني كنت انا الملومة في ذلك ، لا ، فأنا بريئة من اللوم براءتكم انتم الثلاثة منه • مسكينة انا ، ولا بد ان ابقى كذلك فترة من زمان • ذلك بأن الكارثة التي اقصتني عن البيت الذي وجدته جنةً كانت من ضربٍ مروّع • ولقد راعيت في وضع خطة رحيلي نقطتين اثنتين ليس غير : السرعة ، والكتمان • ووفاء بهذين الغرضين تعيَّن علي ان اخلّف ورائي كل ما املكه ، ما خلا رزمة صغيرة نسيتها ، بسبب من تعجُّلي وانشغال بالي ، في العربة التي اقلتني الى هويتكروس • وهكذا وفدت على هذه المنطقة معدمة بكل ما في الكلمة من معنى • لقد نمت ليلتين اثنتين في العراء ، وهمت على وجهي نحو يومين اثنين من غير ان اجتاز عتبة ما : انا لم اذق الطعام ، خلال تلك المدة ، غير مرتين • حتى اذا هدَّني الجوع والاعياء واليأس وكدت الفظ نفسي الاخير منعتني انت ، يا مستر ريفرز ، من الموت – تحت وطأة العوز – عند بابك ، وآويتني تحت سقفك • انا اعرف كل ما فعلته شقيقتاك ، منذ ذلك الحين ، في سبيلي – اذ لم اكن غائبة عن الوعي خلال سباتي الظاهري – اني لمدينة لحنانهما العفوي ، الاصيل ، البهيج دينا لا يقل عن ديني لاحسانك الانجيلي » •

فقالت ديانا حين تمهلت لحظة : « لا تحملها على الاسترسال في الكلام ، يا سانت جون • فمن الواضح انها لا تزال غير قادرة على احتمال الهياج والانفعال • تعالي الى الاريكة ، واجلسي هنا ، يا مس ايليوت » •

واجفلت نصف اجفالة لا ارادية لدن سمعت ذلك الاسم المستعار : كنت قد نسيت اسمي الجديد • فما كان من مستر ريفرز ، الذي بدا وكأن ايما شيء لم يكن ليفوته ، الا ان لاحظ ذلك في الحال وقال :

– « لقد قلت ان اسمك هو جين ايليوت ؟ »

– « اجل ، لقد قلت ذلك • وان هذا لهو الاسم الذي اعتقد ان من الملائم ان ادعى به في الوقت الحاضر : ولكنه ليس اسمي الحقيقي ، وانه ليبدو – حين اسمعه – غريبا علي » •

– « اما اسمك الحقيقي فلن تصرحي به ؟ »

– « لا ، انا اخشى الفضيحة قبل كل شيء • واني لاجتنب كل تصريح قد يفضي الى ذلك » •

فقالت ديانا : « انا واثقة من انك على صواب • والان ، دعها يا اخي تنعم بالهدوء والطمأنينة ، فترة قصيرة من الزمان » •

ولكن سانت جون ، الذي كان قد استغرق في التفكير بضع لحظات ، سرعان ما عاد الى الكلام بمثل برودته وفطنته السابقتين فقال :

– « ليس من ريب في انك لا ترغبين في الاتكال على حسن ضيافتنا زمنا طويلا • وانك تتوقين، في ما ارى ، الى التحرر على اسرع وجه تستطيعينه من حنان شقيقتيَّ ، والى التحرر – قبل كل شيء – من **احساني** (انا اعي

التمييز الذي تصطنعينه وعيا حسنا . ولست استنكره ... فهو حق) . هل تريدين الانفصال عنا ؟ »

ـ « اجل ، ولقد عبرت عن رغبتي هذه من قبل . دلني كيف اعمل ، او كيف اجد عملا : هذا كل ما اسألك اياه الان . ثم دعني امضي لسبيلي ، ولو الى احقر كوخ ... ولكن أجِزْ لي ـ **حتى ذلك الحين** ـ ان ابقى هنا . انا اخشى ان اقع في تجربة اخرى محفوفة بأهوال الفاقة المتشردة » .

فقالت ديانا ، واضعة يدها البضة على يدي : « ولكنك **سوف** تبقين هنا من غير ريب » .

وكررت ماري في نبرة راشحة بالصدق غير المنفعل ، نبرة بدت طبيعية بالنسبة اليها : « اجل ، **سوف** تبقين » .

فقال مستر سانت جون : « ان شقيقتيّ لتجدان ، كما ترين ، متعة في الاحتفاظ بك ، كتلك المتعة التي يخلق بهما ان تجداها في احتضان طائر نصف متجمد ساقته اليهما ، عبر النافذة ، ريح مطيرة . اما انا فأشد نزوعا الى دفعك في السبيل التي تمكنك من اعالة نفسك بنفسك . ولكن يحسن بك ان تلاحظي ان نطاقي ضيق . انا لست غير راعي ابرشية ريفية فقيرة ، ومن هنا فان مساعدتي لك لا بد ان تكون متواضعة الى ابعد حدود التواضع . فاذا كنت تزدرين الاشياء الصغيرة فالتمسي نجدة اكثر فعالية من تلك التي استطيع ان اقدمها اليك » .

فأجابت ديانا بالنيابة عني : « لقد قالت من قبل انها راغبة في اداء ايما عمل شريف **تستطيع** ان تؤديه . وانت تعلم ، يا سانت جون ، انه ليس لها في المسعفين خيار . انها مكرهة على احتمال اناس اجلاف مثلك » .

فأجبت : « سوف اشتغل خياطة ، او عاملة . سوف اعمل خادمة او ممرضة اذا لم اوفق الى ما هو افضل » .

فقال سانت جون في فتور بالغ : « حسن . اذا كانت هذه هي روحك فأني اعدك بالمساعدة ، حين اجد ذلك مناسبا وبالطريقة التي اراها ملائمة » .

وهنا ارتد الى الكتاب الذي كان مستغرقا في مطالعته قبل تناول الشاي . وسرعان ما انسحبت من الحجرة ، ذلك بأني كنت قد تحدثت ، وجلست ، بقَدْر ما اجازت لي قوتي الحاضرة ان اتحدث واجلس .

٣٠

كنت كلما ازددت معرفة بنزلاء « مور هاوس » ازددت لهم حبا . وكنت قد استعدت ، خلال بضعة ايام ، مقدارا من صحتي مكنني من الجلوس طوال النهار والتنزه خارج البيت في بعض الاحيان . لقد امسى في ميسوري ان اشارك ديانا وماري في اعمالهما كلها ، وان اتحدث اليهما ما رغبتا في ذلك ، وان اساعدهما كلما اجازتا لي ـ وحيثما اجازتا لي ـ مثل هذه المساعدة .

لقد كان في هذه العشرة متعة محيية ، من ضرب ذقته الان للمرة الاولى ... متعة ناشئة عن التجانس الكامل في الاذواق ، والعواطف ، والمبادىء .

لقد احببت ان اطالع ما كانتا تحبان مطالعتـه ، وكان ما يسـرهما يبهجني ، وما يرضيهما يحظى بأعجابي وتقديري . لقد احبتا بيتهما المعزول ، وكذلك وجدت انا فتنة قوية وسرمدية في آن معـا في ذلك المبنى الرمادي العتيق ، بسقفه الخفيض ، ونوافـذه ذوات الشعريات ، وجدرانه العفنة ، ومجازه المحاط بصفين من شجرات الشربين المسنَّة ، وقد نمت كلها مائلة تحت وطأة الرياح الجبلية ، وحديقته المعتمة باشجار السدر وشرابة الراعي ، حيث لا ينوِّر من الزهور الا اشدها بأسا . لقد تعلقتا بالسباخ الارجوانيـة الممتدة خلف بيتهما وحوله ، وبالوادي الغائر الذي هبط نحوه طريق الخيالة الكثير الحصى ، ذلك الطريق المفضي اليه من بابهما الخارجـي ، والمتعرج بين ضفاف الخنشار ، اولا ، ثم وسط عدد يسير من المراعي الصغيرة التي لم يقدَّر لاي فلاة حافلة بنبات الخلنج ان حفَّت بأشد منها وحشيةً ولم يقدَّر لاي قطيع من خراف السباخ الرمادية ولحملانها الصغيرة الخضراء الوجوه ان رعت في ما هو اكثر منها ضراوة . اقول لقد تعلقتا بهذا المشهد في حماسـة كاملة ، وكان في ميسوري ان افهم شعورهما ذاك ، واشاركهما قوته وصدقه معا لقد رأيت سحر المنطقة وشعرت بقدسية عزلتها . كانت عيناي تستمتعـان بنتوءاتها والتواءاتها ، وبضروب الالوان البرية التي اضفتهـا الطحـالب ، والاراضي المخضوضرة المفروشة بالرياحين ، والخنشار المتألق ، والصـخور الصوانية الملساء على هضابها ووهادها . كانت هذه الدقائق بالنسبة الي ما كانته بالنسبة اليهما تماما : مصادر متعددة ، كلها صافٍ وعذب ، للمسرَّة والبهجة . كانت الريح العاتية والنسيم العليل ، واليوم العاصف واليوم الوادع ، وساعات الشروق وساعـات الغروب ، والليالـي المقمرة والليـالي الغائمة ـ كانت كلها تثير في نفسي ، في هذه الديـار ، مثل ذلك الاعجاب الذي اثارته في نفسيهمـا وترقي ملكاتي بمثل الرقيـة التي كانت تخلب ملكاتهما .

وضمن جدران البيت كان التناغم بيننا كاملا ايضـا . كانت كلتاهما ارفع مني ثقافة واغزر مطالعة ، ولكني اتبعت في لهفة وحماسة نفس سبيل المعرفة الذي كانتا قد سلكتاه قبلي . لقد التهمت الكتب التي اعارتاني اياها ، وجعلت من دأبي ان اناقشهما في المساء في ما كنت قد طالعته خلال النهـار ، واجدة في ذلك ارتياحا غامرا . لقد لاءم الفكرُ الفكرَ ، والتقى الرأيُ الرأيَ . وبكلمة ، لقد توافقنا توافقا كاملا .

واذا كان بين ثلاثيتنا متفوق وزعيم فقد كانت ديانا هي التي احتلـت هذه المنزلة . فمن الناحية الجسدية بزَّتني ديانا كثيرا : كانت بهية الطلعة موفورة النشاط . وكان في قوتها البدنية وفرة حيويـة ، ويقينيَّة تدفُّق ، اثارتا دهشتي وامتنعتا ، في الوقت نفسه ، على فهمي . كان في ميسوري ان

اتحدث ، برهة ،عندما يهبط الليل ، ولكن ما ان تتلاشى اولى دفقات حيويتي وطلاقة لساني حتى تراودني رغبة في الجلوس على كرسي خفيض لا ظهر له ، عند قدمي ديانا ، واراحة رأسي على ركبتيها ، والاصغاء لها حينا ولماري حينا ، فيما هما تسبران غور الموضوع الذي كنت قد مَسستُه مسًّا رفيقا ليس غير . واقترحت ديانا ان تعلمني الالمانية . واحببت ان اتتلمذ عليها ، فقد رأيت ان دور المعلمة يرضيها ويلائمها ، وان دور طالبة العلم يرضيني ويلائمني الى حد مكافىء . لقد تناغمت طبيعتانا ، فاذا بثمرة ذلك محبة متبادلة ــ محبة من ضرب ليس اقوى منه . واكتشفتا اني اجيد الرسم ، وفي الحال وضعتا ريشاتهما وعلبتي الوانهما تحت تصرُّفي . وادهشتهما براعتي ، التي كانت في هذا الفن بالذات اعظم من براعتهما وفتنتْهما . فكان من دأب ماري ان تجلس وتراقبني ساعات طوالا . وبعد ذلك سألتني ان اعطيها بعض الدروس في الرسم ، فاذا بها تتكشَّف عن تلميذة وديعة ، ذكية ، مجدَّة . وفي مثل هذا الجو الذي ملأت فيه وقتي بالعمل والتسلية المتبادلة تصرَّمت الايام وكأنها ساعات ، وتقضَّت الاسابيع وكانها ايام .

اما مستر سانت جون فأن الالفة ، التي نشأت بيني وبين شقيقتيه نشوءا طبيعيا جدا وسريعا جدا ، لم تمتد اليه . ومن اسباب تلك الشقة التي ظلت تفصل ما بيننا انه كان نادرا ــ نسبيا ــ ما يقيم في البيت : كان جزء كبير من وقته مكرسا ، في ما يبدو ، لعيادة المرضى والمعوزين من ابناء ابرشيته المتناثرين ههنا وهناك .

ولم يكن ايما تقلب في الاحوال الجوية ليحول بينه وبين القيام برحلاته الرعائية هذه . كان من دأبه كلما انقضت ساعات درسه الصباحي ، سواء أكان الجو ممطرا ام صاحيا ، ان يعتمر قبعته وينطلق ــ يتبعه كلب ابيه العجوز ، كارلو ــ لاداء رسالته ، رسالة الحب او رسالة الواجب ، فما كنت اعلم الا قليلا على أي ضوء كان ينظر اليها . وكان من دأب شقيقتيه ، كلما همَّ بالخروج في يوم مكفهر عاصف ، ان تجادلاه في ذلك معترضتين . وعندئذ كان يقول ، في ابتسامة فريدة حفلت بمعاني الجلال اكثر مما حفلت بمعاني البشر :

ــ « اذا اجزت لهبَّة ريح او رشاش مطر ان يصدَّاني عن اداء هذه المهام اليسيرة فبئس هذا الكسل ممهدا للمستقبل الذي اعد نفسي له ! »

وكان رد ديانا وماري العام على هذا الكلام هو زفرة تطلقانها ، وبضع دقائق من التأمل الفاجع .

بيد انه كان ثمة ، الى جانب غيابه المكرور ، حاجز اخر يحول دون توطد الصداقة ما بيني وبينه : لقد بدا لي انه ذو طبيعة متحفظة ، موزعة اللب ، بل ذو طبيعة نزاعة الى الاستغراق في التأمل . وعلى الرغم من حماسته في اداء اعماله الكهنوتية وطهارة سيرته وعاداته فانه لم يتمتع ، في ما يبدو ، بذلك الصفاء الذهني وبذلك الرضا الباطني اللذين لا بد ان يكافأ بهما كل

مسيحي مخلص وكل محب عملي من محبي الانسانية ٠ وما اكثر الليالي التي كان يجلس فيها مستقبلا النافذة ، وأمامه مكتبه واوراقه ، ليكفّ بعد ذلك ــ فجأة ــ عن القراءة او الكتابة ، ويسند ذقنه الى يده ، ويستسلم لافكار لست ادري كنهها ،ولكن الذي ادريه انها كانت افكارا قلقة مثيرة على ما رأيت من وميض عينيه المتواتر واتساع حدقتيهما المتفاوت ٠

واحسب ، فوق هذا ، ان الطبيعة لم تكن عنده كنز بهجة وحبور كما كانت عند شقيقتيه ٠ لقد عبَّر مرة على مسمع مني ، ولم يثنّ البتة ، عن احساس قوي بسحر الهضاب المتجهم ، وعن حب فطري للسقف الداكن والجدران الشائبة التي كان يدعوها بيته ٠ ولكن النبرة والكلمات التي اظهر بها هذه العاطفة كانت ادنى الى الكآبة منها الى الابتهاج ٠ ولم يطوّف البتة ــ في ما خيل الي ــ في الاراضي السبخة استمتاعا بسكونها المهدىء للنفس ، ولم يلتمس او يفكر مليا في مئات المباهج الوادعة التي كان خليقا بها ان توفرها ٠

واذ كان زاهدا في العشرة والافصاح عن ذات نفسه فقد انسلخت فترة قبل ان تتاح لي فرصة اسبر فيها غور عقله ٠ وانما كونت فكرة عن صفة عقله هذا ،اول ما كونت ، عندما سمعته يعظ في كنيسته في مورتون ٠ وكم اتمنى لو اصف تلك العظة ، ولكن ذلك وراء قدرتي ٠ بل اني لا استطيع التعبير ، في صدقٍ وامانة ، عن الاثر الذي خلّفته في نفسي ٠

لقد بدأت هادئة ، والواقع انها ظلت حتى النهاية هادئة اذا اعتبرنا الاداء و « مقام » الصوت ليس غير ٠ وسرعان ما سرت في نبراتها الواضحة حرارة ملموسة ، ولكنها مكبوحة في صرامة ، اغرته باصطناع اللغة العصبية ٠ ثم تطورت هذه الحرارة الى قوة ــ قوة مكبوتة ، مركزة ، مُلْجَمة ٠ وعرت الفؤاد ، من قوة الواعظ ، هزة عنيفة ، واستبد بالعقل دهش بالغ ٠ ولم يعتر الوهن تلك الهزة وهذا الدهش ٠ وخلال العظة كلها هيمنت مرارة عجيبة وتجلّى افتقار الى الرقة المؤاسية ، وكثرت الاشارات المتجهمة الى المعتقدات الكالفينية : الاختيار ، والقضاء والقدر ، والنّبذ ٠ وكانت كل اشارة الى هذه النقاط تبدو وكأنها حكم بالهلاك يصدر من بين شفتيه ٠ حتى اذا اتمّ عظته لم استشعر اني امسيت افضل واهدأ واكثر استنارة مما كنت ، بل غلب علي حزن لا سبيل الى وصفه ٠ ذلك بانه بدا لي ــ ولست ادري ما اذا كان الاخرون قد آنسوا الشيء نفسه ــ ان الفصاحة التي كنت اصغي اليها انما انبعثت من اعماق استقرت فيها رواسبُ الخيبة العكرةُ ، واعتلجت في جنباتها حوافز مكدّرة من اشواق نهمة واطماح مقلقة ٠ لقد كنت على مثل اليقين من ان سانت جون ريفرز ــ برغم طهارة حياته ، ويقظة ضميره ، وغيرته المشبوبة ــ لمّا يجد ذلك الامن الالهي الذي يتخطى كل فهم : انه لمّا يجده ــ كذلك تراءى لي ــ اكثر مما وجدته انا في غمرة حسراتي المكتومة الملوّعة على صنمي المحطم وفردوسي المفقود ٠٠٠ حسراتي التي احجمت في الفترة

الاخيرة عن الالماع اليها والتي استحوذت علي ، برغم ذلك ، واستبدت بي على نحو لا يعرف الرحمة ٠

وتصرّم في غضون ذلك شهر كامل ٠ وكان على ديانا وماري ان تغادرا « مور هاوس » وشيكا وتعودا الى حياة مختلفة جدا كانت تنتظرهما كمربيتين خصوصيتين في مدينة كبيرة عصرية من مدن انكلترة الجنوبية ، حيث كانت كل منهما تعمل في خدمة اسرة لم يكن افرادها الموسرون المتشامخون ينظرون اليها الا نظرتهم الى مرؤوسة حقيرة ، ولم يكونوا يعرفون او يحاولون ان يعرفوا ايا من كفاءاتها الفطرية فهم لا يقدّرون غير براعاتها المكتسبة كما يقدرون مهارة طاهيتهم ، او ذوق وصيفتهم ٠ ولم يكن مستر سانت جون قد قال لي شيئا عن العمل الذي كان قد وعد بتأمينه لي ، ومع ذلك فأن حصولي على عمل من ضرب من الضروب كان قد امسى الان ملحًّا ٠ وذات صباح غامرت ، وقد تُركت وحدي معه في حجرة الجلوس دقائق معدودات ، فدنوت من فجوة النافذة التي كرّستها طاولته وكرسيه وقَمْطره شبه مكتب له ٠٠٠ وكنت على وشك ان اتكلم — برغم اني لم اكن اعرف معرفة جيدة بأية كلمات اصوغ سؤالي ، اذ من العسير دائما كسر جليد التحفظ الذي يزجج الطبائع المشابهة لطبيعته ٠٠ اقول كنت على وشك ان اتكلم عندما كفاني هو مؤونة ذلك بأن كان البادىء في الحديث ٠ لقد قال ، وهو يرفع بصره نحوي فيما كنت ادنو منه :

— « احسب ان لديك سؤالا تودين ان تطرحيه علي ؟ »

— « اجل ، اريد ان اعرف ما اذا كنت قد اهتديت الى ايما عمل استطيع اداءه » ٠

— « لقد وجدت ، او ابتدعت ، لك شيئا منذ ثلاثة اسابيع ٠ ولكن لما كان قد بدا لي انك سعيدة هنا ومفيدة في آن معا ٠٠٠ ولما كانت شقيقتاي قد اولعتا بك ولوعا واضحا فهما تجدان في معاشرتك متعة استثنائية فقد رأيت من غير الملائم ان اقطع عليكن ارتياحكن المتبادل ، وآثرت الانتظار حتى يحتم رحيلُهما الوشيك عن « مارش اند » رحيلَك انت ايضا » ٠

فقلت : « ولسوف ترحلان بعد ثلاثة ايام ، أليس كذلك ؟ »

— « اجل ، وعندما ترحلان اعود انا الى بيتي في مورتون ٠ ان حنة سوف ترافقني ، وعندئذ يُوصد هذا المنزل العتيق » ٠

وانتظرت بضع لحظات ، متوقعةً ان يسترسل في الكلام على الموضوع الذي طرقته في مستهل الحديث ٠ ولكنه بدا وكأن افكاره اتخذت وجهة اخرى مغايرة : لقد انبأتني اساريره انه كان ذاهلا عني وعن عملي ٠فاضطررت لرده الى موضوع كان بالضرورة ذا اهمية بالغة عندي ٠ فقلت :

— « ما هو العمل الذي خطر لك ، يا مستر ريفرز ؟ ارجو ان لا يفضي هذا التأخر الى مزيد من الصعوبة في الحصول عليه » ٠

— « اوه ، لا ٠ ما دام عملا مرهونا بنا نحن الاثنين ليس غير : انا

اعرض ، وانت تقبلين او ترفضين » ·

وصمت كرة اخرى · لقد بدا وكأنه كان يكره ان يتابع الحديث · وضقت بصمته ذرعا ، فأتيت بحركة قلقة او بحركتين قلقتين وسمّرت على وجهه نظرة لاهفة متطلبة استطاعت جميعها ان تبلغه شعوري على نحو فعال وكأنها كلمات مبينة ، وبقدر من العناء اقل ·

فقال : « ليس ثمة ما يدعوك الى تعجّل السماع · دعيني اخبرك ، في صراحة ، انه ليس لدي ايما شيء لائق او رابح اقترحه · ولكن قبل ان اشرح تذكري ، اذا سمحت ، ما كنت قد اوضحته من قبل ، وهو اني اذا ساعدتك كان مثَلي معك كمثَل اعمى يساعد اعرج · انا رجل فقير · لاني ارى ان الميراث الذي سيبقى لي ، بعد ان افي ديون ابي ، لن يعدو هذا البيت الريفي المتداعي ، وصف شجرات الشربين المسفوعة الممتد وراءه ، وتلك القطعة من الارض السبخة ، واشجار السدّر وشرابة الراعي القائمة امامه · وانا رجل مغمور · ان اسرة ريفرز عريقة ، ولكن اثنتين من اصل الثلاثة الذين لم يبق منها غيرهم تكسبان خبزهما بالخدمة في بيوت الغرباء ، على حين يعتبر الثالث نفسه اجنبيا عن مسقط رأسه لا طوال الحياة فحسب ، بل بعد الموت ايضا · اجل ، ويعتبر ، وليس له من ذلك بد ، ان الله قد شرّفه بحظه هذا ··· فهو لا يطمح الا الى اليوم الذي يُلقى فيه صليب الانفصال عن الروابط الجسدية على كتفيه ، والا الى اليوم الذي ينادي فيه امام تلك الكنيسة المجاهدة التي هو واحد من احقر اعضائها : « انهضوا ، واتبعوني ! »

قال سانت جون هذه الكلمات كما تعوّد ان يلفظ عظاته ، في صوت هادىء عميق ، وبوجنة لم يشع فيها الدم ، ونظرة موّارة بأشعاع متألق · ثم انه اضاف قائلا :

ــ « واذ كنت انا نفسي فقيرا ومغمورا فليس في وسعي ان اقدم اليك غير عمل فقير مغمور · بل انك قد تحسبين هذا العمل مهينا لك ··· ذلك باني ارى ان عاداتك كانت من ذلك الضرب الذي يدعوه الناس مصقولا ، وان أذواقك تنزع الى المثل الاعلى ،وان حياتك كانت على الاقل بين المثقفين · ولكني لا اجد ايما هوان في ايما عمل قادر على تحسين النوع البشري · وانا أؤمن بأنه كلما كانت التربة التي يُعهد الى المناضل المسيحي بحراثتها اكثر جدبا ··· وكلما كان ثواب كدحه اضأل كان الشرف الذي يحظى به اعظم· ان حظه ، في مثل هذه الاحوال ، هو حظ الرائد ، ولقد كان رواد الانجيل الاولون هم الرسل ، ولقد كان امامهم هو يسوع ، المخلّص نفسه » ·

فقلت وقد تمهل من جديد : « حسنا ؟ تابع ! »

فنظر الي قبل ان يتابع ، وراح يقرأ وجهي مليا وكأن اساريره كانت حروفا مسطورة على صفحة كتاب · ولقد عبر بعض التعبير عن ثمرات امعانه النظر الي ، في ملاحظاته التي تلت ·

قال : « انا اعتقد انك سوف تقبلين الوظيفة التي ساعرضها عليك ·

وانك سوف تؤدينها فترة من الزمن فحسب ، وليس ابد الدهر ، الا اذا استطعت انا ان انهض ابد الدهر بوظيفة القس الانكليزي الريفي ، هذه الوظيفة الهادئة ، المحجوبة ، الضيقة ، المضيّقة . ذلك بأن في طبيعتك معدنا لا يقل عداء للراحة والسكينة عن المعدن الذي في طبيعتي ، برغم انه من ضرب اخر » .

فألححت ، عندما كف عن الكلام كرة اخرى : « اشرح ، ارجوك ! »

ـ سوف اشرح . وستسمعين اي اقتراح هزيل ... تافه ... ومعقّد هو اقتراحي ، انا لن امكث طويلا في مورتون ، بعد ان توفي والدي واصبحت سيد نفسي . واغلب الظن اني سأغادر ذلك المكان في خلال اثني عشر شهرا . ولكني سوف ابذل قصارى جهدي ، ما اقمت فيه ، لتحسينه . ان مورتون لم يكن فيها ، يوم وفدت عليها منذ سنتين ، مدرسة ما : كان ابناء الفقراء محرومين كل امل في التقدم . فانشأت مدرسة للصبية ، واني لاعتزم الان انشاء مدرسة ثانية للبنات . لقد استأجرت مبنى لهذا الغرض ، مع كوخ ملحق به مؤلف من حجرتين ليكون مثوى للمعلمة . ان راتبها سيكون ثلاثين جنيها في العام ، ولقد تمّ تأثيث بيتها هذا ، على نحو بسيط جدا ، ولكنه كافٍ ، بفضل كرم سيدة نبيلة ، هي مس اوليفر ، البنت الوحيدة للثري الوحيد في ابرشيتي ـ مستر اوليفر ، وهو صاحب مصنع ابر ومَصْهر حديد في الوادي . وهذه السيدة نفسها سوف تدفع نفقات تعليم يتيمة من يتيمات الملجأ ونفقات كسوتها ، شريطة ان تساعد المعلمة في اداء بعض الاعمال الحقيرة المتصلة ببيتها وبالمدرسة ، لان انشغالها بالتعليم سوف يحول بينها وبين ادائها بنفسها . هل ترضين ان تكوني هذه المعلمة ؟ »

لقد طرح السؤال في شيء من التعجل ، وبدا وكأنه كان يتوقع ، نصف توقع ، أن ارفض عرضه في حنق ، او على الاقل في ازدراء . انه لم يستطع ، بسبب من عدممعرفته كل افكاري ومشاعري ـ وان يكن قد حزر بعضها ـ ان يتنبأ بموقفي من العمل الذي اقترحه علي . لقد كان ، في الواقع ، عملا متواضعا ، ولكنه كان يتيح لي سقفا استظل بظله ، وكنت انا في حاجة الى مأوى آمن . لقد كان مرهقا ورتيبا ، ولكنه كان ـ اذا ما قورن بوظيفة المربية الخصوصية في بيتٍ موسر ـ عملا يتّسم بسمة الاستقلال ، وكان الخوف من العبودية للغرباء يحز في نفسي كالسكين . ان العمل المقترح لم يكن خسيسا ... لم يكن غير لائق ... لم يكن مهينا . وهكذا اتخذت قراري ، فقلت :

ـ « اشكرك على اقتراحك ، يا مستر ريفرز . واني لاقبله من صميم فؤادي » .

فقال : « ولكن هل فهمتني ؟ انها مدرسة قروية : ان تلميذاتك لن يكنّ غير فتيات فقيرات ـ بنات قوم يسكنون الاكواخ ... وفي احسن الاحوال بنات قوم من الفلاحين . ان الحبك ، والخياطة ، والقراءة ، والكتابة ، والحساب سوف تكون كل ما سيتعين عليك ان تعلّميه . ما الذي سوف

تفعلينه بثقافتك ؟ ما الذي سوف تفعلينه بالجزء الاعظم من عقلك ··· من عواطفك ··· من اذواقك ؟ »

ــ « سأدخرها ليوم احتاجها فيه · انها لن تَتْلَف » ·

ــ « اذن ، فقد عرفت المهمة التي ستنهضين بعبئها ؟ »

ــ « أجل لقد عرفت » ·

عندئذ تبسَّم ··· لا ابتسامة مريرة او محزونة ، ولكن ابتسامة راضيةً جدا ، مَرْضيَّة جدا ·

ــ « ومتى ستشرعين في اداء وظيفتك ؟ »

ــ « سوف امضي الى بيتي غدا · وسأفتح المدرسة ، اذا شئت ، في الاسبوع التالي » ·

ــ « حسن جدا · فليكن ذلك » ·

ونهض وانشأ يذرع الحجرة جيئة وذهوبا · ثم انه كف عن ذلك وراح ينظر الي من جديد · وهز رأسه ·

فسألته : « ما الذي يقلق بالك ، يا مستر ريفرز ؟ »

ــ « انك لن تلبثي في مورتون طويلا · لا ، لا ! »

ــ « لماذا ؟ ما الذي يدعوك الى هذا القول ؟ »

ــ « انا اقرأه في عينك · انها ليست من ذلك الضرب الذي يَعِدُ بالتشبث بسياق حياة هادىء » ·

فقلت : « انا لست طموحا » ·

فأجفل لدن سماعه كلمة « طَموح » · وكرر : « لا · ما الذي جعلك تفكرين في الطُموح ؟ من هو الطُموح ؟ انا ادري انني ذو مطامح · ولكن كيف اكتشفت ذلك ؟ »

ــ « لقد كنت اتحدث عن نفسي » ·

ــ « حسنا ، اذا كنت غير طموح ، فأنت ··· » وكف عن الكلام ·

ــ « مــاذا ؟ »

ــ كنت على وشك ان أقول : عاطفية · ولكنني خشيت ان تسيئي فهم اللفظة ، وان يأخذك الغضب · انما اعني ان العواطف البشرية لها اعظم السلطان عليك · واني لواثق من انك لا تستطيعين ان تقنعي طويلا بتزجية اوقات فراغك في وحدة وانعزال ، وبتكريس ساعاتك العاملة لجهد خلو من كل مانع مثير ، باكثر مما استطيع انا ان اقنع بالعيش هنا دفينا في مستنقع ، حبيسا في جبل · اني باقامتي هنا انما اخالف طبيعتي التي وهبني الله اياها ، واشل ملكاتي التي اغدقتها السماء علي ، فهي من ثم غير ذات غناء · واحسب انك تلاحظين كيف اناقض الان نفسي ··· انا الذي بشّر بالرضا بالنصيب المتواضع ، وبرّر حتى مهنة الحطابين ومهنة السقّائين ، ما دام ذلك كله يتم في سبيل الله ··· انا ، كاهنه المرسوم ، أكاد اهذي في قلقي · ولكن علينا ان نوفق بين الميول والمبادىء ، بطريقة ما » ·

وغادر الحجرة ، وكنت قد عرفت عنه ـ في هذه الساعة القصيرة ـ اكثر مما عرفت خلال الشهر المنصرم كله • ومع ذلك فقد ظل يثير دهشي وحيرتي •

وتعاظم حزن ديانا وماري ريفرز وصمتهما باقتراب موعد فراقهما لاخيهما وبيتهما • ولقد حاولت كل منهما ان تبدو على سجيتها ، ولكن الاسى الذي تعين عليهما ان تقاوماه كان من ضرب لا سبيل الى قهره او الى اخفائه •• والمعت ديانا الى ان هذا الفراق سوف يكون مختلفا عن ايما فراق قدّر لهما ان تعرفاه في ماضيات الايام ، ذاهبة الى انه سوف يكون ، في اغلب الظن ، وبقدر ما يتعلق الامر بسانت جون ، فراقا الى سنوات عديدة : وقد يكون فراقا الى الابد •

وقالت : « انه سوف يضحي بكل شيء في سبيل اهدافه التي نصبها لنفسه منذ عهد بعيد ••• سوف يضحي حتى بعواطفه الطبيعية وبمشاعره الاكثر قوة ايضا • ان سانت جون ليبدو هادئا ، يا جين • ولكنه يخفي في احشائه حمى شديدة الاوار • انك قد تحسبينه رقيقا ، ومع ذلك فهو في بعض الاشياء عنيد كالموت • واسوأ ما في الامر ان ضميري لن يجيز لي ان اثنيه عن عزمه الصارم • وليس من ريب في انني لا استطيع ، لحظة واحدة ، ان الومه على ذلك •ان ما اعتزم عليه حق ، ونبيل ، ومسيحي ، ومع ذلك فانه يسحق فؤادي » • وطفرت الدموع الى عينيها النجلاوين • ونكست ماري رأسها فوق شغلها وغمغمت :

ـ « لقد فقدنا ابانا منذ فترة يسيرة ، ولسوف نفقد ، عما قريب ، بيتنا واخانا » •

وفي تلك اللحظة وقعت حادثة صغيرة بدا وكأن القدر ارادها عامدا لكي يقيم الدليل على صحة المثل الذي يقول « ان المصائب لا تأتي فرادى » ، ولكي يضاعف آلامهما باقامة الدليل ايضا على المثل الاخر القائل : « ان ثمة مزالق كثيرة ما بين الكأس والشفة » ❊ لقد اجتاز سانت جون بالنافذة وهو يقرأ رسالة • ثم دخل علينا الحجرة وقال :

ـ « مات خالنا جون » •

وبدت كلتا الشقيقتين وكأنها قد ذهلت ، ولكنها لم تُصدَم ولم تروَّع • لقد بدا النبأ ، في اعينهما ، خطيرا اكثر منه محزنا •

وكررت ديانا : « مات ؟ »

ـ « نعم » •

فسمَّرت على وجه اخيها نظرة ثاقبة ، ثم سالته في صوت خفيض : « وماذا بعد ؟ »

فأجابها ، محتفظا دائما بجمود اساريره الرخامية : « ماذا بعد ؟ ماذا

❊ مثل انكليزي مفاده ان عقبات جمة كثيرا ما تنشأ لتحول دون تنفيذ خطة من الخطط (المعرب)

بعد ؟ لا شيء ٠٠ اقرأي » ٠
والقى الرسالة في حِجْرها ، فتصفحتها ، ثـم اسلمتهـا الى ماري ٠ فقرأتها ماري في روية وصمت ، ثم اعادتها الى اخيها ٠ وتبادل الثلاثة النظرات، وابتسم الثلاثة جميعا ٠٠٠ ابتسموا ابتسامة كئيبة متفكرة ٠

وقالت ديانا ، اخر الامر : « فلتكنْ ارادة الله ! ومع ذلك ، فلا يزال في ميسورنا ان نعيش » ٠

ولاحظت ماري : « وعلى اية حال فان هذا لن يجعلنا اشـد فقرا مما كنـا من قبل » ٠

فقال مستر ريفرز : « ولكنه يطبع في الذهن ، بقوة وعنف ، صـورة ما كان يمكن ان يكون ، ويُكره المرء على مقارنته بما هو كائن » ٠

ثم طوى الرسالة ووضعها في قمطره ، وغادر الحجرة من جديد ٠

وطوال بضع دقائق لم تنطق اي منا بكلمة ٠ ثم ان ديـانـا التفتت الي وقـالت :

ـ « جين ، انك لا بد ان تعجبي لنا ولالغازنا ، وان تحسبينا كائنـات قاسيات القلوب الى حد جعلنا لا نتأثر لوفاة نسيب ، كخالنا ، مـن اقرب الناس الينا ٠ ولكننا لم نره قط من قبل ، ولم نعرفه قط من قبـل ٠ لقـد كان اخا لامي ، ولقد تشاجر هو ووالدي منذ عهد بعيد ٠ ذلك بأن ابي غامر بمعظم ثروته في المضاربة نزولا عند نصيحته ، فألمّ الخراب بساحته ٠ لقد تبادلا السباب والمهاترات ، وافترقا على غضب ، ثم لم يتصـالحا بعد ذلك قط ٠ ومن ثم انصرف خالي الى اعمال تجارية اقترنت بحظ من النجاح اكبر ، ويبدو انه جنى من ورائها ثروة مقدارها عشرون الف جنيه ٠ إنه لـم يتزوج البتة ، ولم يكن له ايما انسباء أدْنَيْن غيرنا ، وغير شخص اخر لا تشـده اليه قرابة أوثق من تلك التي تشدنا نحن اليه ٠ وكان والدي يأمل دائما ان يكفر خالي عن غلطته بأن يوصي لنا بممتلكاته ، ولكن هذه الرسـالة تنبئنـا بأنه اوصى بكل فلس من ثروته للنسيب الاخر ، ما خلا ثلاثين جنيها تقسـم بين سانت جون وديانا وماري ريفرز لشراء ثلاثة خواتم حِداد ٠ كان له ملء الحق ، من غير ريب ، في ان يفعل ما يحلو له ، ومع ذلك فأن تلقي مثل هـذا النبأ كان لا بد له ان يورثنا غما موقتا ، فقد كان خليقا بي وبماري ان نعتبر نفسينا موسرتين لو فازت كل منا بألف جنيه ، وكان خليقا بمثل هذا المبلغ ان يكون بالنسبة الى سانت جون مبلغا ذا غناء ، بسبب من الخير العظيم الـذي يمكّنه من ادائـه » ٠

حتى اذا اعطيْتُ هذا التفسير اسقط الموضوع فلم يُشر اليه مستر ريفرز او اختاه ايماَ اشارة بعد ذلك البتة ٠ وفي اليوم التالي غادرت « مارش اند » الى مورتون ٠ وفياليوم الذي بعده غادرته ديانا وماري الى بلـدة « ب » النائية ٠ وما هو غير اسبوع حتى شخـص مستر ريفرز وحنـة الى البيت الخاص براعي الكنيسة في مورتون ٠ وهكذا هُجِر البيت الريفي العتيق ٠

٣١

واذن فقد كان بيتي ، يوم وجدت اخر الامر بيتا ، مجرد كوخ صغير : حجرة ضيقة ذات جدران طليت بالكلس ، وارضية فرشت بالرمل ، واربعة كراسي مدهونة ، وطاولة ، وساعة ،•وخوان يشتمل على بضعة اطباق وصحون ، وآنية شاي خزفية كاملة • وفوقها ، كانت حجرة ذات مساحة مماثلة لمساحة المطبخ تشتمل على سرير من خشب الشوح وخزانة ذات ادراج : خزانة صغيرة حقا ، ومع ذلك فان ملابسي القليلة لم تشغل غير حيز ضئيل منها • على الرغم من ان كرم اصدقائي ذوي اللطف والسخاء عزز تلك الملابس بمجموعة متواضعة من الاشياء الضرورية •

لقد هبط الليل • ولقد سرّحت اليتيمة الصغيرة التي تعينني على اداء الاعمال المنزلية بعد ان اعطيتها برتقالة اجرا لها على ما عملت ذلك اليوم • وكانت مدرسة القرية قد فُتحت هذا الصباح ، وكان عدد طالباتي عشرين ، ثلاث منهن فحسب كنّ قادرات على القراءة • ولكن ايا من هاته العشرين لم تكن تعرف الكتابة او الحساب • ان كثيرا منهن يحبكن ، وقليلٌ منهن يخطن • وهن يتكلمن بلهجة المقاطعة في اقوى مظاهرها ، فأنا أجد الان عسرا في فهم لغتهن وهن يجدن عسرا في فهم لغتي • ان بعضهن تغلب عليهن الغلظة ، والفظاظة ، والجموح ، والجهل • ولكن الاخريات لينات العريكة ، راغبات في التعليم ، وهن يتكشّفن عن ميول ترضيني • ويتعينْ علي ان لا انسى ان هاته الريفيات الصغيرات الخشنات اللباس هن من لحم ودم كسليلات انبل الاسر ، وان بذور التفوق الفطري ، والرقة ، والذكاء والحنان خليق بها ان تنمو في قلوبهن كما تنمو في قلوب ذوات المحتد الكريم • ولسوف يكون واجبي هو العمل على تطوير هذه البذور ، وليس من ريب في اني سأجد بعض السعادة في اداء هذه المهمة • انا لا اتوقع ان القى متعة بالغة في الحياة التي تتفتح الان امامي ، ومع ذلك فلست اشك في انها سوف تتيح لي ، اذا ما عدّلتُ تفكيري وانفقت قواي كما ينبغي ان انفقها ، قدرا من المتعة كافيا لتمكيني من من العيش من يوم الى يوم •

هل كنت موفورة الحظ من السعادة والاطمئنان والرضا خلال الساعات التي سلختها في حجرة التدريس تلك ، العارية الحقيرة ، هذا الصباح وهذا الاصيل ؟ ولكي لا اخدع نفسي يتعين علي ان اجيب بقولي : لا • لقد استشعرت ـ اجل ، ويا لبلاهتي ! ـ شيئا من حطة وازدراء • لقد تراءى لي اني خطوت خطوة هبطت بي بدلا من ان ترفعني في سلم الوجود الاجتماعي • لقد روّعتني وارمضتني ضروب الجهالة والفقر والخشونة التي تكشّف عنها كل ما سمعته ورأيته من حولي • ولكن ليس يحسن بي ان ازدري نفسي اكثر مما ينبغي بسبب من هذه المشاعر • انا اعلم انها كانت خاطلة ••• وهذه خطوة واسعة الى الامام من غير ريب ، ولسوف اسعى جهدي لمقاومة تلك المشاعر •

وانا اؤمن اني سأتغلب عليها ، في غدٍ ، بعض التغلب • وقد لا تنقضي بضعة اسابيع حتى افهرها نهائيا • ومن يدري ، فقد يفضي ابتهاجي برؤية التقدم الذي ستحرزه طالباتي وتطورهن نحو الاحسن الى احلال الرضا في نفسي ـ خلال شهور قليلة ـ محل الاشمئزاز •

وفي غضون ذلك دعني اسأل نفسي سؤالا : اي افضل ؟ ان استسلم للاغراء وان اصغي لصوت العاطفة ، وان لا ابذل اي جهد موجع او اخوض ايما نضال ••• ان اقع في الشرك الحريري ، وانام على الرياحين التي تغطيه ثم استيقظ في بقعة جنوبية ، وسط متارف دارة من دارات المتعة : ان اكون الان عائشة في فرنسة ، خليلة لمستر روتشيستر ، نشوى بحبه نصف ايامي كلها ، ذلك بانه لا بد ان يحبني حبا جما زمنا ما • والواقع انه قد احبني فعلا ، وان ايما امرىء لن يمحضني مثل هذا الحب كرة اخرى ، ابد الدهر • ولن يقدّر لي ان اعرف ، منذ اليوم ، ذلك الولاء الحلو الذي يقدّم الى الجمال ، والشباب ، والكياسة ، اذ لن يقدّر لي ، حتى اخر الدهر ، ان ابدو في نظر احد من الناس وكأنني املك هذه المفاتن • لقد كان مولعا وفخورا بي ، وهو شيء لن يكونه اي انسان اخر غيره ••• ولكن في اية متاهة يهيم فكري ؟ وما هذا الذي اقوله ؟ بل ما هذا الشعور الذي يخامرني ؟ اني لأسأل ، اي افضل : ان اكون عبدة مسترقةً في جنة وهمية في مرسيليا ، محمومة بالسعادة الخادعة حينا ، مختنقة بأمرّ دموع الندم والخزي حينا اخر ، ام ان اكون مدرّسة قروية ، حرة وامينة ، في زاوية جبلية كثيرة الرياح في قلب انكلترة الصحي ؟

اجل ، انا استشعر الان اني كنت على صواب عندما تمسكت بالمبدأ والقانون ، وازدريت وسحقت المغريات المخبولة الذي طوّقتني بها احدى اللحظات المسعورة • لقد سدد الله خطاي فأحسنت الاختيار ، واني لاحمد العناية الالهية على ما هدتني اليه •

حتى اذا انتهت بي تأملاتي المسائية الى هذه النقطة نهضتُ ومضيت الى بابي ، فرنوت الى غروب الشمس في ذلك اليوم الحصادي ، والى الحقول الوادعة المنبسطة امام كوخي ، الذي كان يقع هو والمدرسة على مبعدة نصف ميل من القرية • فسمعت الطير تتغنى بآخر الحانها :

« كان الهواء عليلا ، وكان الندى بلسما » •

•

وفيما كنت ارنو ، حسبتُ نفسي سعيدة ، ولكني سرعان ما ذهلت اذ وجدت نفسي انخرط في البكاء ـ ولماذا ؟ للقدَر الذي اكرهني على الانفصال عن سيدي : اذ لن يُكتب لي بعد اليوم ان اراه ، وللاسى القانط والغيظ القاتل ـ وهما ثمرة من ثمرات رحيلي ـ اللذين ربما كانا الان يحيدان به عن جادة الصواب ويغاليان في التطويح به بعيدا عنها بحيث ينقطع كل رجاء في اعادته اليها في ايما يوم من الايام • وما خطرت لي هذه الخاطرة حتى اشحت بوجهي عن سماء المساء الرائقة ، وعن وادي مورتون الموحش ـ اقول الموحش ،

لانه في ذلك المنحنى البادي منه لناظري لم المح اي مبنى غير الكنيسة وبيت راعي الكنيسة نصف محتجبين بالاشجار ، وفي طرفه الاقصى لم المح غير سقف « قصر الوادي » (فايل هول) حيث كان مستر اوليفر الثري وابنته يقيمان • وحجبت عينيّ ، واسندت رأسي الى الاطار الحجري الذي يطوق باب كوخي ، ولكن صوتا خافتا منبعثا من على مقربة من البُوَيب الذي يفصل حديقتي الضئيلة عن المرج القائم خلفها سرعان ما دعاني الى ان ارفع بصري • كان كلب – هو كارلو العجوز ، كلب مستر ريفرز – يدفع الباب الخارجي بأنفه ، وكان سانت جون نفسه مستندا اليه مطويّ الذراعين ، وقد زوى ما بين حاجبيه وحدق الي بنظرة جادة تكاد تُشعر بالامتعاض • فدعوته الى الدخول فقال :

– « لا • انا لا استطيع البقاء • لقد حملتُ اليكِ رزمة صغيرة تركتها لك اختاي • واحسب انها تشتمل على صندوق الوان ، وريشات ، وورق » •

وتقدمت لآخذها : لقد كانت هدية لطيفة • وخيل الي انه راح يتحرى وجهي ، بتجهم ، فيما كنت ادنو منه ، وكانت آثار الدموع بادية عليه من غير ريب •

وسألني : « هل وجدتِ اول يوم من ايام عملك اشقّ مما توقعت ؟ »

– « اوه ، لا ! على العكس • واحسب اني سوف انسجم مع تلميذاتي ، عما قريب ، انسجاما حسنا » •

– « ولكني اخشى ان تكون اسباب عيشك ••• وكوخك ••• واثاثك قد خيبت آمالك • انها ، في الحق ، هزيلة الى حد بعيد • ولكن ••• »

فقاطعته قائلة : « ان كوخي نظيف وهو يعصمني من غائلة الجو وتقلباته ، وان اثاثي كاف ومريح • والواقع ان كل ما اراه قد اوقع في نفسي عرفان الجميل ، لا اليأس والقنوط • ولست حمقاء ولا مؤثرة للرفاه الحسيّ الى درجة تجعلني آسى لخلو بيتي من سجادة او اريكة او طبق فضي • والى هذا ، فقبل اسابيع خمسة كنت لا املك شيئا ••• لقد كنت منبوذة ، شحاذة ، شريدة • اما الان فقد امسيت ذات معارف ، وبيت ، وعمل • والحق اني لاعجب لفضل الله ، وسخاء اصدقائي ، ووفرة النعم المغدقة علي • انا لا اتذمر ولا اتظلّم » •

– « ولكنك تضيقين ذرعا بالوحدة الموحشة ؟ ان المنزل القائم وراءك مظلم وخالٍ » •

– « انا لم اكد اجد متسعا من الوقت للاستمتاع بالهدوء والطمأنينة حتى اضيق ذرعا بالوحدة والوحشة » •

– « حسن جدا • انا ارجو ان تستشعري فعلا هذا الرضا الذي تعبرين عنه • وعلى اية حال ، فأن عقلك السليم سوف ينبئك بأن الوقت لمّا يحن بعد للاستسلام لمثل ما كان ينتاب امرأة لوط من مخاوف متراوحة • انا اجهل ، طبعا ، ما الذي خلّفتِهِ وراءك قبل ان اتعرف اليك • ولكني انصح لك ان

تقاومي ، في قوة وثبات ، كل اغراء قد يدعوك الى الالتفات للوراء • واصلي اداء عملك الراهن ، في اطراد ، طول اشهر معدودات على الاقل » •

فأجبته : « هذا ما اعتزم ان افعله » •

واسترسل سانت جون قائلا : « انه لمن العسير على المرء ان يسيطر على جَيَشان الرغبة ، وان يعدل نزعات الطبيعة البشرية • ولكن هذا امرٌ ممكن : انا اعرف ذلك بالتجربة • لقد منحنا الله ، الى حد ما ، القدر على صنع قَدَرِنا بأنفسنا • وعندما يبدو لنا ان طاقاتنا في حاجة الى غذاء لا تقوى على الفوز به ••• عندما تَجْهَدُ رغباتنا لاتباع سبيل لا نستطيع ان نسلكه فلا داعي لان نتحرق من الظمأ ، او ان نستسلم للقنوط ، لا ، ليس علينا في مثل هذه الحال الا ان نلتمس غذاء اخر لعقولنا لا يقل قوة عن الغذاء المحظور الذي تاقت لتذوّقه ، ولعله ان يكون اثبت واضمن • والا ان نمهد للقدم المغامِرة طريقا مستقيمة واسعة كتلك التي سدّها الحظ في وجوهنا ، وان تكن اوعر منهـا •

« فمنذ سنة واحدة كنت انا نفسي استشعر تعاسة بالغة ، بسبب من اعتقادي انني اخطأت في الانتظام في سلك رجال الدين • والواقع ان واجباتي الكهنوتية الرتيبة اضجرتني حتى الموت • لقد تحرقت شوقا الى حياة دنيوية اكثر فعالية ونشاطا ••• الى ضروب الكدح الاكثر اثـارة ، الملازمة لعمل الاديب ••• الى قَدَر كقَدَر الفنان ، او الكاتب ، او الخطيب ، او اي شيء اخر غير قَدَر الكاهن • اجل ان قلبا كقلب السياسي ، او الجندي او المتعبد للمجد ، او المحب للشهرة ، او الشبق الى القوة والسلطان لينبض تحت الحلة الكهنوتية التي ارتديها • وتأملت وضعي • كانت حياتي هي غاية الغايات في البؤس ، وكان علي اما ان اغيرها واما ان اقضي نحبي • وبعد فترة من الظلام والنضال انبلج الفجر وجاء الفرج : لقد انبسط وجودي المقيَّد ، فجأة ، الى سهل مديد لا يعرف الحدود ••• لقد سمعت طاقاتي نداء من السماء يدعوها الى ان تنهض ، ان تستجمع كامل قواها ، ان تنشر جناحيها ، وتحلق الى ما وراء مدى البصر • لقد قيضني الله لرسالة سامية ، لا يحتاج حملها الى بعيد واداؤها اداء حسنا الا الى البراعة والقوة ، والشجـاعة والفصـاحة وهي خير سجايا الجندي ورجل الدولة والخطيب : ذلك بأن هذه كلها تتركز في المبشر الصالح •

وهكذا عقدت العزم على ان اكون مبشرا صالحا • ومنذ تلك اللحظـة تغيرت حالتي الروحية ، وانحلت الاصفاد وسقطت عن كل ملكة مـن ملكـاتي غير مخلّفة من العبودية الا مرارتها المحنِقة ، وهي مرارة لن يشفيني منهـا شيء غير مرّ الزمان • والواقع ان ابي عارضَ قراري هذا ، حتى اذا توفي لم تبق ثمة عقبة شرعية يتعين علي ان اقاومها • وما ان اسوي بعض القضايا ، واجد من يخلفني في مورتون ، واتحرر من بعض المشاعر المتشابكة او اقطع عقدتها ، واخوض غمرة نضال اخير مع الضعف البشري ، نضالٍ انا على مثل

اليقين من انني سوف انتصر فيه ، لاني اخذت على نفسي عهدا ان انتصر ... اقول ما ان يتم لي هذا كله حتى اغادر اوروبة موليا وجهي قِبَل الشرق » .

قال ذلك بصوته الغريب ، المكبوح ، ولكن الجازم في آن معا ، ناظرا حين كف عن الكلام لا اليّ ولكن الى الشمس الجانحة الى المغيب ، التي رنوت اليها انا ايضا . وكان كلانا قد ولى ظهره ذلك المجاز المفضي عبر الحقل الى البويب . ولم نكن قد سمعنا اي وقع اقدام على المجاز المكسو بالاعشاب ، فقد كانت المياه الجارية في الوادي هي الصوت المسكِّن الوحيد في تلك الساعة وذلك المكان . من اجل ذلك كان طبيعيا ان نجفل عندما سمعنا صوتا بهيجا ، عذبا مثل رنين جرس فضي ، يهتف :

— « طاب مساؤك ، يا مستر ريفرز . وطاب مساؤك ، يا كارلو العجوز . ان كلبك يتبيَّن اصدقاءه بأسرع مما تتبين انت اصدقاءك ، يا سيدي . لقد ارهف اذنيه وبصبص بذنبه عندما كنت في جوف الوادي . في حين انك ما زلت حتى الان توليني ظهرك . »

وكان ذلك صحيحا . فعلى الرغم من ان مستر ريفرز اجفل لدن سماعه اولى هذه النبرات الموسيقية ، وكأن صاعقة شقت احدى السحب فوق رأسه ، فقد كان لا يزال واقفا ، عند انتهاء الجملة ، في نفس الوضع الذي فاجأه المتحدث فيه : فأما ذراعه فمستندة الى الباب الخارجي ، واما وجهه فموجَّه قِبلَ الغرب . واخيرا استدار ، في تروٍّ متعمد . لقد بدا لي وكأن رؤيا قد تجسَّدت في جانبه . وبرزت ، على مبعدة ثلاثة اقدام منه ، مخلوقة ترتدي ملابس بيضاء ناصعة — مخلوقة فتية بهية الطلعة ، ممتلئة الجسم ولكنها رشيقة . حتى اذا رفعت رأسها ، بعد ان انحنت لتداعب كارلو ، وردّت الى الوراء خمارا طويلا ، اشرق تحت نظرتها وجه ذو جمال كامل . والحق ان « الجمال الكامل » تعبير قوي ، ولكني لن ارجع عنه او اعدّله . لان اساريرها الحلوة التي لم يصُغْ مثلها جو انكلترة المعتدل في ايما يوم من الايام ، ولان وجنتيها الورديتين اللتين لم تُبدع رياحها الرطبة وسماواتها الغائمة ولم تُظلّ ما هو اروع منهما ... اقول لان هاتين الوجنتين وهاتيك الاسارير تبرِّر اصطناع ذلك التعبير . لم تكن أي فتنة لتعوز ذلك الوجه ، ولم تكن العين لتقع فيه على ايما عيب .

كانت للفتاة قسمات متناغمة دقيقة ، وعينان شبيهتان في شكلهما ولونهما بتلك العيون النجلاء الداكنة التي نراها في الصور البديعة . وكانت لها تلك الاهداب الطويلة الظليلة التي تطوق العيون الجميلة بسحر بالغ الرقة ، وذلك الحاجب المزجج الذي يضفي على الوجه وضوحا شديدا ، وذلك الجبين الناعم الوضاح الذي يضيف الى جمالات اللون والاشراق الاشد بهاء جمال الوداعة ، وتلك الوجنة البيضاوية الغضة الناعمة ، وتانك الشفتان الغضتان ايضا المورّدتان الممتلئتان صحة وعذوبة ، وتلك الاسنان المستوية البراقة المنزهة عن العيب ، وتنك الذقن الصغيرة ذات الطابع ، وتلك الجدائل

الخصبة الغزيرة ... وبكلمة موجزة ، كانت لها على نحو موفور كل المزايا التي تحقق ، مجتمعة ، مَثَلَ الجمال الاعلى . واخذني الدهش وانا ارنو الى هذه المخلوقة الوسيمة : لقد اعجبت بها من كل قلبي . وليس من ريب في ان الطبيعة قد حابتها يوم خلقتها محاباة كبيرة ، ناسية مألوف تقتيرها - الذي يذكّر بتقتير زوجة الاب - فوهبتها عطاياها - هي حبيبتها الصغيرة - بمثل سخاء الجدة واغداقها .

ما كان رأي سانت جون ريفرز في هذا الملاك الارضي ؟ لقد كان طبيعيا ان اطرح على نفسي هذا السؤال عندما رأيته يستدير نحوها ويرنو اليهـا . وكذلك كان طبيعيا ان التمس الجواب على هذا السؤال في محياه . وكان قد حول بصره الان عن الملاك الارضي ، وانشأ ينظر الى باقة من الاقاحي نمت على مقربة من البويب .

وقال وهو يسحق بقدمه رؤوس الرياحين المبرعمة الثلجية البيـــاض : « انها امسية بديعة . ولكن ما كان يحسن بك ان تخرجي وحدك في مثل هذه الساعة المتأخرة » .

- « اوه ، لقد رجعت هذا الاصيل من س ... (وذكرت اسم بلدة كبيرة واقعة على مبعدة عشرين ميلا تقريبا) . لقد انبأني ابي انك فتحت مدرستك ، وان المعلمة الجديدة قد اقبلت . وهكذا اعتمرت قلنسوتي ، بعد تناول الشاي ، ورحت اصعّد في الوادي لكي اراها . اهذه هي ؟ » (واشارت اليّ) .

فقال سانت جون : « اجل ، انها هي » .

وعندئذ سألتني في بساطة ساذجة صريحة ، تكاد تكون طفليَّة ، ولكنها راقت لي : « هل تعتقدين انك سوف تحبين مورتون ؟ »

- « ارجو ان اوفق الى ذلك . ان ثمة مغريات كثيرة تدعو الى ذلك » .

- « هل وجدت طالباتك راغبات في الدرس بقدْر ما توقعت ؟ »

- « من غير ريب » .

- « هل تحبين بيتك ؟ »

- « كثيرا جدا » .

- « هل اثثتِه على نحو حسن ؟ »

- « على نحوٍ حسن جدا ، من غير ريب » .

- « وهل كان اختياري « أليس وود » خادمة لك اختيارا موفقا ؟ »

- « اجل كان اختيارك موفقا ، من غير ريب . انها قابلة للتعلم ، بارعة رشيقة اليد » . وقلت في ذات نفسي « اذن فهذه هي مس اوليفر ، الوريثة ، التي حابتها الاقدار ، في ما بدا ، فاغدقت عليها نعَم الثراء ونعم الجمال على حد سواء ! وتساءلت : اية مجموعة سعيدة من النَجـــوم قد اشرفـــت على ولادتها ؟! »

واضافت : « سوف آتي بعض الاحيان واساعدك في التدريس . ولسوف يكون في زيارتي اياك بين الفينة والفينة ضرب من التغيير يخفف من رتـابة

العيش هنا • وانا احب مثل هذا التغيير • لقد كنت مبتهجة جدا ، يا مستر ريفرز ، خلال مُقامي في س ••• لقد رقصت ، الليلة البارحة ، او على الاصح ، هذا الصباح ، حتى الساعة الثانية • ان الكتيبة الـ ••• معسكرة هناك منذ نشوب الاضطرابات ، وان ضباطها هم خير رجال الدنيا قاطبة واقربهم الى الفؤاد : انهم يُخزون شاحذي سكاكيننا وتجار مقصّاتنا الشبان » •

لقد بدا لي ان سانت جون قد مدّ شفته السفلى وان شفته العليا قد تشنجت لحظة • وليس من ريب في ان فمه بدا مُحكَم الاطباق ، وان الجزء الادنى من وجهه كان متجهما مكتئبا اكثر من العادة ، عندما حدثته الفتاة الضاحكة بذاك الحديث • ليس هذا فحسب ، بل لقد رفع بصره ايضا عن الاقاحي وحوّله نحوها • لقد كانت نظراته مكفهرة ، ثاقبة ، ذات مغزى • فما كان من الفتاة الا ان قابلتها بضحكة ثانية ، ولقد لاءم الضحك شبابها ، ووجنتيها الورديتين ، وغمازتيها ، وعينيها الوضاءتين •

وفيما كان هو واقفا ، ابكم كئيبا ، عاودت مداعبة الكلب كارلو قائلة : « ان كارلو المسكين يحبني • انه ليس غليظ القلب صارما ، وليس يجفو اصدقاءه • ولو قد استطاع الكلام اذن لما لزم الصمت » •

وبينا كانت تربت على رأس الكلب ، منحنية في بهاء فطري امام سيده الشاب المتجهم ، لمحت وجه ذلك السيد يتقد • لقد رأيت عينه الكئيبة تتوهج بنار مفاجئة ، وترتعش بانفعال لا يقاوم • وعلى هذه الحال من الاضطرام وشيوع الدم في الوجه ، بدا جميلا بين الرجال بقَدْر ما كانت هي جميلة بين النساء • وارتفع صدره مرة ، وكأن قلبه الكبير الذي سئم القهر الاستبدادي كان قد تضخم ، برغم ارادته ، وقام بوثبة جبارة للفوز بالحرية • ولكنه كبحه ، في ما اعتقد ، كما يكبح فارس ذو بأس جوادا حرونا • انه لم يستجب ، لا بكلمة ولا بحركة ، للمحاولات اللطيفة التي قامت بها الفتاة لاستمالته •

وتابعت مس اوليفر رافعة بصرها الى اعلى : « بابا يقول انك انقطعت عن زيارتنا انقطاعا كاملا • لقد امسيت غريبا في « قصر الوادي » (فايل هول) • انه متوحد هذه الليلة ، وهو منحرف الصحة ، فهل لك ان ترجع معي وتزوره ؟ »

فأجابها سانت جون : « ليست هذه بساعة ملائمة للتطفل على مستر اوليفر » •

ــ « ليست بساعة ملائمة ! ولكني اعلن انها ملائمة • انها هي بالذات الساعة التي يحتاج فيها اكثر ما يحتاج الى رفيق يؤنسه : حين يوصد العمل ابوابه ، ولا يبقى لديه اي عمل يشغله • والان ، يا مستر ريفرز ، ارجوك ان تذهب معي • ما الذي يجعلك حييا الى هذا الحد ، مغتما الى هذا الحد ؟ »

ثم انها ملأت الثغرة التي احدثها صمته بجواب من عندها ، فهتفت وهي تهز رأسها الجميل ، ذا الشعر المعقوص ، وكأن تصرفها ذاك قد روعها :

« لقد نسيت ! انا طائشة حقا ، حمقاء حقا ! واني لاتوسل اليك ان تغفر لي • لقد فاتني ان لديك اسبابا وجيهة تزهدك في ثرثرتي ، فقد فارقتـــك ديانا وماري ، واوصِدت أبواب « مور هاوس » ، وخُلّفت في وحدة موحشة • اني لارثي لك من غير ريب • هيا ، امض معي لنرى بابا » •

ـ « ليس الليلة ، يا مس روزاموند • ليس الليلة » •

لقد تكلم مستر سانت جون وكأنه انسان ميكانيكي تقريبا • ولقد كان هو وحده يعرف مدى الجهد الذي بذله لرفض هذا العرض •

ـ « حسنا ، اذا كنت على هذا القدر كله من العناد فسوف افارقك • ذلك باني لا استطيع البقاء اكثر مما فعلت • لقد بدأ الندى يسقط • طـاب مســـاؤك » •

وبسطت يدها له • فمسَّها مسا رفيقا ، وكرر في صوت خفيض وغائر كأنه صدى : « طاب مساؤك » •

ومضت لسبيلها ، ولكنها ما لبثت ان استدارت وسألته : « هل تشكو شيئا ؟ » ولقد كانت على حق في سؤالها ذاك • اذ كان وجهه ابيض شاحبـا كفستانها •

فأعلن قائلا : « لا ، انا في احسن حال » • وانحنى تحية لها ، وغـادر الباب الخارجي • ومضت هي في طريق ، ومضى هو في اخـرى • والتفتت مرتين لكي ترى اليه ، فيما كانت تهبط الحقل في خفة ورشاقة ، مثل جنية حسناء • اما هو فأوسع الخطى ، في رسوخ وثبات ، عبر الحقــل ، غير ملتفت البتة •

وكان في مشهد الالم والتضحية مرتسميــن على وجه شخص اخر مـا صرف ذهني عن التفكير في المي وتضحيتي دون غيرهما • لقد سبــق لديانا ريفرز ان وصفت اخاها بقولها انه عنيد كالموت • والحق انها لم تَغْلُ ولـم تبـــالغ •

٣٢

وواصلت النهوض بعبء المدرسة القروية بأقصى ما استطعته من فعالية واخلاص • ولقد كان ذلك عملا شاقا ، حقا ، في بادىء الامر • وتصرّمت فترة ما قبل ان اوفق ، برغم جهودي كلها ، الى فهم طالباتي وطبيعتهن • لقد بدَوْن لي ، بجهلهن المطبق وملكاتهن الهامدة ، غبيّات الى حد يائس ، بل بدَوْن لي ، للوهلة الاولى ، متساويات في الغباء ، ولكني سرعان ما ادركـت انـي كنـت مخطئة • فقد كانت بينهن فروق كتلك التي بين المثقفات • حتى اذا وُفقت الى معرفتهن ، ووفقن الى معرفتي ، تطورت هذه الفروق واتسعت على نحو سريع • وما ان خمدت دهشتهن مني ومن لغتي وعاداتي وطرائقي حتى وجدت ان بعض هاته القرويات الذاهلات المتبلدات لطيفات قريبات الى الفؤاد ، ايضا • لقـد

اكتشفت بينهن امثلة غير قليلة على الكياسة الطبيعية ، واحترام الذات الفطري ، كما اكتشفت بينهن مواهب ممتازة انتزعت اعجابي ومودتي . وسرعان ما اخذ هؤلاء يجدن متعة في اداء عملهن اداء حسنا ، وفي الحرص على نظافة اجسامهن ، وفي حفظ دروسهن على نحو منتظم ، وفي اكتساب عادات تتسم بالهدوء والنظامية . والواقع ان سرعة تقدمهن ، في بعض الاحوال ، كانت تثير الدهش ، ولقد اعتززت بذلك التقدم اعتزازا صادقا سعيدا . والى هذا ، فقد شرعت انا احب بعض الممتازات منهن ، وشرعن هنَّ يحببني . وكان بين طالباتي عدةٌ من بنات الفلاحين بلغن مبلغ الفتيات اليافعات ، او كدن . وهؤلاء كان في ميسورهن ، قبل نهوضي بعبء التدريس ، ان يقرأن ويكتبن ويخطن ، فكنت اعلمهن مبادىء النحو والجغرافية والتاريخ وضروب اشغال الابرة الاكثر دقة . لقد وجدت بينهن نفوسا جديرة بالتقدير ـ نفوسا متعطشة الى المعرفة ، نزاعة الى التحسن ـ قضيت في بيوتها كثيرا من الامسيات العذبة . لقد كان آباؤهن (الفلاحون وزوجاتهم) يغمرونني في تلك الامسيات بفيض من المحبة والرعاية . وكنت اجد متعة في تقبُّل عطفهم الساذج ، وفي مكافأتهم على ذلك بالاحترام البالغ لمشاعرهم ، وهو احترام لعلهم لم يألفوه دائما ، فاذا به يفتنهم وينفعهم في آن معا . لانه رفعهم في عيون انفسهم ودعاهم في الوقت نفسه الى ان يتنافسوا في عمل كل ما يجعلهم اهلا للمعاملة الكريمة التي كانوا يلقونها .

واستشعرت اني اصبحت اثيرة لدى ابناء تلك البقعة . فحيثما مضيت كنت اسمع تحيات ودية تنطلق من كل حدب وصوب ، وكنت استقبَل بابتسامات صادرة عن القلب . ان حياة المرء في غمرة من الاحترام العام ، حتى ولو كان هذا الاحترام منبعثا من ابناء الطبقة العمالية دون غيرها ، لتوقع في نفسه ، مثل القعود في ضياء الشمس ، طمأنينة ورضا . فالمشاعر الباطنية الرائقة انما تبرعم وتنوِّر تحت خيوط الشعاع . وفي تلك الفترة من حياتي كان قلبي يفيض بعرفان الجميل ، ونادرا ما غار بالكآبة والخور . ومع ذلك فيتعين علي ، ايها القارىء ، ان انص ، لكي اصور لك الحقيقة كاملة ، على انني في غمرة هذه الحياة المطمئنة النافعة كنت ـ بعد نهار اقضيه في جهود مشرِّفة ابذلها لخدمة تلميذاتي ومساء انفقه في الرسم او المطالعة الراضية المتوحدة ـ استغرق ، ليلا ، في احلام عجيبة : احلام متعددة التلاوين ، مهتاجة ، مفعمة بالمثل الاعلى وبكل مثير وعاصف ، احلام كانت تتيح لي ـ وسط المشاهد الاستثنائية المثقلة بالمغامرة ، والمخاطرة المُهيِجة ، والمصادفة الرومانتيكية ـ ان القى مستر روتشيستر مرة ومرة ومرة ، وهو دائما في محنة مستفِزة . وعندئذ كان يتجدد شعوري بأني بين ذراعيه ، واني اسمع صوته ، والقى عينه ، والمس يده ووجنته ، واني احبه وانه يحبني ، وان املي كبير في قضاء عمري كله الى جانبه ـ اجل كان ذلك كله يتجدد بكامل قوته الاولى واضطرامه القديم . وبعد ذلك كنت افيق من رقادي : فاتذكر اين انا وما هو وضعي الحقيقي ، وانهض من سريري العاري عن الستائر ، مرتعشة

مرتعدة . ومن ثم كان الليل الحالك الساكن يشهد تشنج اليأس ويسمع انفجار العاطفة . حتى اذا كانت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي فتحت ابواب المدرسة واستأنفت التدريس في ميقاته ، هادئة مطمئنة النفس مستعدة لاداء واجبات النهار المطردة .

وفت روزاموند اوليفر بوعدها ، فكانت تزورني في المدرسة . وانما كانت تقوم بزيارتها هذه ، عادة ، خلال رياضتها الصباحية ممتطية جوادها الضئيل الجسم . كان من دأبها ان تنطلق على صهوته حتى المدرسة ، يتبعها على متن جواد اخر خادم من خدم الاصطبلات . والحق ان المرء نادرا ما يستطيع ان يتخيل ما هو اروع من مظهرها ، في ردائها الارجواني الخاص بركوب الخيل ، وقبعتها الامازونية المخملية السوداء المستوية في ظرف فوق جدائلها الطويلة التي لثمت وجنتيها وطفتْ على كتفيها . وعلى هذا النحو البهي كانت تدخل المبنى القروي ، وتخطر خلال صفوف بُنيَّات القرية المبهورات . وكان من دأبها ان تفد في الساعة التي يكون مستر ريفرز منصرفا اثناءها الى القاء درسه اليومي في التعليم المسيحي . ويخيل اليّ ان عيني الزائرة كانتا تضرمان نارا متقدة في فؤاد القس الشاب . وبدا لي وكأن ضربا من الغريزة كان ينذره بدخولها ، حتى ولو لم ير ذلك . وكان اذا ما برزت لدى الباب لحظة يكون بصره منصرفا عنه انصرافا كاملا ، يتوهج خداه ، وتتبدل اساريره شبه الرخامية ـ برغم اصرارها على عدم الاسترخاء ـ تبدلا يعز على الوصف . وكانت هذه الاسارير تعبر في سكونها البالغ عن حرارة مكبوتة تعبيرا اقوى مما تستطيع العضلات المختلجة او النظرات الثاقبة ان تؤذن به .

كانت من غير ريب تدرك قوتها . والواقع انه لم يُخفِ ذلك عنها ، لانه كان عاجزا عن ذلك . فعلى الرغم من رواقيته المسيحية فأَنه كان ما ان تتقدم نحوه ، وتخاطبه ، مبتسمة في وجهه بابتهاج وتشجيع بل بمحبة وولوع ، حتى ترتعش يده ، وتضطرم بالنار عينه . لقد بدا وكأنه يقول ، بنظرته الكئيبة العازمة ، ان لم يقل ذلك بشفتيه : « انا احبك ، وانا اعلم انك تؤثرينني على غيري . وليس ما يعقد لساني هو اليأس من النجاح . انني لو قدمت اليك قلبي اذن لقبلته في ما اعتقد . ولكن ذلك القلب مستقر الان فوق مذبح مقدس : اضرمت النارَ من حوله ، ولن تنقضي فترة يسيرة حتى يصبح قربانا التهمهُ الضرام » .

وعندئذ كانت تتجهم مثل طفل مخيَّب . كانت سحابة متفكرة ترقق من حيويتها المشعة . وكان من دأبها ان تسارع الى سحب يدها من يده ، وتشيح بوجهها ، في نزق سريع الزوال ، عن محياه المتَّسم بسمة البطولة البالغة وسمة الاستشهاد في آن معا . وليس من ريب في ان سانت جون كان خليقا به ـ حين تفارقه على هذا النحو ـ ان يتنازل عن العالم كله لو ملكه من اجل اللحاق بها ، واستردادها ، والاحتفاظ بها . ولكنه ما كان ليطَّرح حظا واحدا

من حظوظ الفوز بالنعيم السماوي او ليتخلى ـ من اجل فردوس حبها ـ عن امل واحد في دخول الجنة الحقيقية السرمدية • والى هذا ، فانه لم يستطع ان يحتجز كل ما اشتملت عليه فطرته ـ الرحالة ، والطامح ، والشاعر ، والكاهن ـ ضمن تخوم عاطفة مُفردة • انه لم يستطع ـ وما كان ليرغب في ذلك ـ ان يتخلى عن ميدان حربه الرسالية العريض طمعا في ابهاء « قصر الوادي » وامنه • وانما عرفت هذا القَدْر من حقيقة امره من طريق غزوة جرؤت ذات يوم ، برغم تحفظه البالغ ، على القيام بها ، على حصون اسراره •

وكانت مس اوليفر قد شرفتني قبل ذلك بزيارات متعددة قامت بها لكوخي • وكنت قد فهمت خُلْقها كله في وضوح ، ومن غير ما تقنُّع او تنكُّر : لقد كانت ذات غنج ودلال ، ولكنها لم تكن بلا قلب • وكانت كثيرة المطالب ولكنها لم تكن انانية على نحو تافه • لقد دُللت منذ ان ابصرت عيناها النور ، بيد ان هذا التدليل لم يفسدها افسادا كاملا • كانت طيّاشة ، ولكنها ودية • وكانت مختالة معجبة بنفسها (ولم يكن لها في ذلك حيلة ، اذ كانت كل نظرة الى المرآة تطالعها بفيض من نضارة وملاحة) ولكنها لم تكن متكلفة متصنعة • وكانت سخية الكف ، بريئة من غرور الثراء • وكانت صريحة ، ذكية الى حد كاف ، بهيجة النفس ، ناشطة ، تعوزها الروية • وباختصار ، كانت فاتنة جدا ، حتى في عين مراقبة باردة من بنات جنسها مثلي • ولكنها لم تكن لتثير الشوق والاهتمام الى حد عميق ، ولم تكن لتخلف في نفس المرء انطباعة راسخة • كان عقلها ، مثلا ، مختلفا اختلافا عظيما عن عقل كل من شقيقتي سانت جون • ومع ذلك فقد احببتها بقدْر ما احببت تلميذتي آديل ، تقريبا • في ما خلا ان المرء يكنّ للطفلة التي رعاها وعلمها محبة اقوى من تلك التي يستطيع ان يكنها لصديقة يافعة لا تقل عنها جاذبية •

وكانت قد اولعت بي واحبتني • لقد قالت اني اشبه مستر ريفرز (ولكنها اقرت ، من غير ريب ، بأن جمالي لا يبلغ عشر جماله ، برغم اني كنت مخلوقة حلوة ظريفة صغيرة • اما هو فكان ملاكا) • بيد انني كنت ، مثله ، صالحة ، بارعة ، رابطة الجاش ، رصينة • ولقد اكدتْ قائلة اني ، بوصفي معلمة في قرية ، « فلتة من فلتات الطبيعة » • وكانت على مثل اليقين من ان حياتي السالفة ـ لو كشِف النقاب عنها ـ خليق بها ان تكون مادة صالحة لرواية ماتعة •

وذات مساء بينا كانت ، بنشاطها الطفلي المألوف وفضولها الطيّاش ولكن غير العدواني ، تقلّب محتويات الخزانة ودرج الطاولة في مطبخي الصغير ، اكتشفت ، اولا ، كتابين فرنسيين ، ومجلدا من تاليف شيلر ، ومعجما وكتاب نحوٍ المانيين • واكتشفت ، بعد ذلك ، ادوات رسمي الخاصة ، وبعض رسومي الاعدادية ، وفي جملتها صورة بالقلم لرأس فتاة صغيرة مليحة شبيهة بالملائكة ، كانت هي احدى تلميذاتي ، ومشاهد شتى من الطبيعة انتُزِعت من وادي مورتون ومن السباخ المحيطة به • وشلّها الدهش ، بادىء

الامر ، ثم كهربها الابتهاج ، فقالت :

ـ « هل رسمت انت هذه الصور ؟ هل تعرفين الفرنسية والالمانية ؟ ما اروعك ! واية معجزة انت ! انك ترسمين خيرا مما يرسم استاذي في المدرسة الاولى في س ... هل لك ان ترسمي لي صورة تمثلني لكي اريها لوالدي ؟ »

فأجبتها : « بكل سرور » . واستشعرت رعشة ابتهاج كتلك التي تلمُّ بالفنان حين فكرت بأنه سوف يتاح لي ان انقل عن مثل هذا النموذج الكامل المشع . وكانت آنذاك ترتدي ثوبا حريريا ازرق داكنا يكشف عن ذراعيها وعن جيدها . وكانت الحلية الوحيدة التي تزينها هي جدائلها الكستنائية التي تموّجت فوق كتفيها بكل ما تتميز به حُلَيْقات الشعر الطبيعية من جمال . وتناولت قطعة من الورق المقوّى ، وانشأت ارسم ـ في عناية ـ الخطوط الكبرى لصورة تمثّلها . ومنّيتُ نفسي بمتعة تلوينها عندما تُنجز . واذ كان الليل قد تقدم ، الان ، بنا ، فقد قلت لها ان عليها ان تفد في يوم اخر لاتمام الرسم .

ويبدو انها اطرتني امام ابيها اطراء جعله يرافقها بنفسه في مساء اليوم التالي ـ وكان مستر اوليفر رجلا في خريف العمر فارع الطول ، ضخم التقاطيع ، مشتعل الرأس بالشيب ـ فبدت ابنته الفاتنة ، بجنبه ، اشبه بزهرة مشرقة على مقربة من برج بناية اشيب . لقد بدا لي رجلا سكوتا ، وربما رجلا يغلب عليه العُجب والغرور ، ولكنه كان بالغ اللطف معي . وسرّته صورة روزاموند الاعدادية سرورا عظيما ، وقال ان علي ان اجعل منها لوحة منجزة . وكذلك دعاني لقضاء سهرة الغد في « قصر الوادي » (فايل هول) والحّ علي في ذلك .

ولبيت دعوته . فألفيت « فايل هول » قصرا ضخما جميلا يقدم بيِّنات وافرة على غنى صاحبه . وكان الجذل والبشر يفعمان روزاموند طوال زيارتي تلك . وكان ابوها انيسا ودودا . وحين جاذبني اطراف الحديث بعد الشاي عبّر لي في تعابير قوية عن رضاه عما قمت به في مدرسة مورتون . وقال انه يخشى ـ بعد الذي رآه وسمعه ـ ان اكون اكبر من المكان الذي اعمل فيه ، وان اغادره ـ وشيكا ـ الى مكان افضل .

وصاحت روزاموند : « حقا ! انها بارعة الى حدٍّ يؤهلها لان تكون مربية في اسرة من الاسر الكبيرة ، يا بابا » .

وقلت في ذات نفسي : اني لأوثر البقاء حيث انا على العمل في خدمة اية اسرة كبيرة من اسر البلاد . وتحدث مستر اوليفر عن مستر ريفرز ـ وعن اسرة ريفرز كلها ـ في احترام عظيم . وقال انها احدى الاسر العريقة في تلك الديار ، وان اسلافها كانوا موسرين ، وان مورتون كلها كانت في يوم من الايام ملكا لهم، وانه حتى في يوم الناس هذا يرى ان ممثل تلك الاسرة أهل، اذا شاء، لمصاهرة خير الاسَر . واعتبر من الامور الداعية الى الاسى والاسف ان يكون شاب في مثل امتيازه ومواهبه قد وطن النية على الانتظام في سلك المبشرين ،

وان صنيعه ذاك لا يعدو ان يكون اطّراحا لحياة نافعة • ولقد بدا ، من ثم ، انه ما كان ليقيم اية عقبة في طريق زواج روزاموند من سانت جون ، وانه كان يجد في كرم محتد القس الشاب ، وعراقة اسرته ، وقدسية مهنته ما يعوضه تعويضا كافيا عن فقره وعوزه •

وصادف ان كان اليوم الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) يوم عطلة • وكانت خادمتي الصغيرة قد مضت لسبيلها ، بعد ان ساعدتني في تنظيف بيتي ، راضية ابعد الرضا ببنس واحد دفعتهُ اليها اجرا على مساعدتها لي • كان كل ما حولي نظيفا مشرقا ـ ارضية مغسولة ، ومدفأة مصقولة ، وكراسيّ مجلوّة • وكنت انا ايضا قد اتخذت زينتي ، ففي ميسوري ان افيد من فترة الاصيل تلك وانفقها كيف اشاء •

وهكذا انشأت اترجم بضع صفحات عن الالمانية منفقةً في ذلك ساعة كاملة • ثم اني تناولت ريشاتي ولوحة الرسم وشرعت في اداء مهمة اكثر عذوبة ، لانها ايسر واسهل ـ مهمة اتمام صورة روزاموند المصغرة • وكنت قد فرغت قبل ذلك من رسم الرأس ، ولم يكن قد بقي علي غير تلوين الخلفيّة بأصباغ خفيفة ، وغير تظليل الثياب ، واضافة لمسة من اللون القرمزي الى الشفتين المتلئتين ، وبضع حُلَيْقات نواعم الى الجدائل ، وخضاب اعمق لظلال الاهداب تحت الجفن اللازوردي • وكنت مستغرقة في استكمال هذه التفاصيل عندما فُتح باب بيتي ، اثر ضربات عليه متعجلة ، ودخل سانت جون ريفرز •

وقال : « لقد وفدت لارى كيف تنفقين عطلتك ، راجية ان تكوني منصرفة الى انفاقها في غير الاستغراق في التفكير • لا ، هذا حسن : انك لن تستشعري اي وحشة ما دمت مكبّة على الرسم • ومن هنا ترين اني لا ازال في ريب منك ، على الرغم من انك تكشّفت حتى الان عن صبر رائع • ولقد جئتك بكتاب ارجو ان تقعي فيه على بعض السلوى في ساعات المساء » • والقى على الطاولة كتابا صدر حديثا ـ قصيدة من تلك الآثار الاصيلة التي كثيرا ما جادت بها تلك الايامُ ـ عصر الادب الحديث الذهبي ـ على جمهور القراء المحظوظ • وأسفاه ! ان القراء في عصرنا هذا اقل حظا • ولكن ، قليلا من الشجاعة ! اني لن اتمهل لحظة لاتهم او اتذمر • فأنا اعلم ان الشعر لم يمت ، وان العبقرية لم تضع ، وان شيطان الجشع لمّا يهيمن على اي منهما ، لكي يقيدهما او ينحرهما : انهما كليهما سوف يؤكدان وجودهما ، ومثولهما ، وحريتهما ، وقوتهما ، كرة اخرى ذات يوم • ان الملائكة الجبابرة الآمنة في السماء لتبتسم حين تنتصر النفوس الخسيسة ، وتندب النفوس الواهنة هلاكها • اصحيح ان الشعر قد هلك ؟ وان العبقرية قد نفيت ؟ لا ! لا ، ايتها التوسطية ❋ ، لا تدعي الحسد يدفعك الى مثل هذا الاستنتاج • لا ، ان الشعر والعبقرية ليسا على قيد الحياة فحسب ، ولكنهما يهيمان ويُعتقان • ولولا

❋ حالة التوسط بين السمو والوضاعة •

سلطانهما الالهي المنتشر في كل مكان لكنتِ في جحيم ـ جحيم حقارتك بالـذات ·

وفيمَ كنت اقلب في لهفة صفحات مارميون (فقد كانت القصيدة من نظم مارميوز فعلا) انحنى سانت جون ليتأمل رسمي · وفجأة انتصبت قامته الفارعة في اجفال ، ولم ينبس بأية كلمة · ورفعت بصري اليه ، فأشاح عني بوجهه · لقد فهمت ما كان يجول في ذهنه فهما حسنا ، واستطعت ان اقرأ صفحة فؤاده في وضوح · وفي تلك اللحظة استشعرت اني اهدأ نفسا ، وآنست آنذاك ـ مؤقتا ـ اني في مركز اقوى من مركزه ، وراودتني نزعة الى اسداء خدمة ما اليه ، اذا استطعت ذلك ·

وقلت في ذات نفسي : « انه ، على الرغم مما يمتاز به من ثبات وضبط نفس ، يجتاز بمحنة قاسية · فهو يكبت عواطفه كلها وآلامه كلها ، وهو لا يفصح عن شيء ، ولا يعترف او يدلي بشيء · واني على مثل اليقين من ان بعض الحديث عن روزاموند الحلوة هذه ، التي اعتقد هو بأنه ليس ينبغي له ان يتزوجها، خليقٌ به ان يسرّي عنه · ومن هنا فسأعمد الى اغرائه بالكلام » ·

فقلت بادىء الامر : « اجلس ، يا مستر ريفرز » · ولكنه اجاب ، جريا على مألوف عادته ، قائلا انه لا يستطيع البقاء · فرددت عليه ، في ما بيني وبين نفسي ، قائلة : « حسن جدا · ابق واقفا اذا شئت · ولكني لن ادعك تذهب ، فقد وطنتُ النية على ذلك : ان العزلة تؤذيك بقدر ما تؤذيني · ولسوف ابذل قصارى جهدي لكي اكتشف ثغرة في ذلك الصدر الرخامي استطيع ان اسْقِط من خلالها قطرة واحدة من بلسم المشاركة الوجدانية » ·

وسألته في غير مداراة : « هل هذه الصورة تشبه الاصل ؟ »

ـ « تشبه الاصل ؟ اي اصل ؟ انا لم انعم النظر فيها » ·

ـ « بل لقد فعلت ، يا مستر ريفرز » ·

واجفل ، او كاد ، لفظاظتي المفاجئة الغريبة ، ونظر الي ذاهلا · وغمغمت في ما بيني وبين نفسي : « اوه ، انت لم تر شيئا بعد » ، ثم تابعت حديث النفس قائلة : « انا لن اجيز لبعض الخشونة ، من جانبك ، ان يصدني عن سبيلي · واني لمستعدة لان امضي في ذلك الى ابعد مدى · لقد انعمت النظر فيها انعاما بالغا ، ولكني لن اعارضك اذا رغبت في معاودة النظر اليها كرة اخرى » ·

ونهضت ووضعتها بين يديه ، فقال : « لوحة بارعة الاداء · ان الوانها لوضّاحة جدا ، ورقيقة جدا · وان خطوطهــا لرشيقة ، ودقيقة الى درجة بالغة » ·

ـ « اجل ، اجل · انا اعرف ذلك كله · ولكن ماذا عن الشبه ؟ من تشبه هذه الصورة ؟ »

فأخذه شيء من تردد ، ولكنه ما لبث ان سيطر على نفسه وقال : مس اوليفر ، في ما اظن » ·

— « طبعا • والان ، يا سيدي ، لكي اكافئك على حدسك الصائب اعدك بأن ارسم لك نسخة دقيقة امينة عن هذه الصورة بالذات ، شريطة ان تعلن ان الهدية سوف تحظى منك بالقبول • فانا لا اريد ان انفق وقتي وجهدي على هبة قد تعتبرها انت تافهة » •

وواصل التأمل في الصورة • وكلما اطال النظر اليهـا ازداد تشبثـه بهـا ، وتعاظم اشتهاؤه لها • وغمغم : « انها تشبهها ! والعين مرسومة ادقّ رسم • اجل ، ان كل ما فيها لكامل : اللون ، والضـوء ، والتعبير • انهـا تبتسـم ! »

— « ايسرّي عنك الفوز بصورة مماثلة ام يشجيك ؟ اصدقني القول • وحين تكون في مادبرا ، او في مدينة الرأس ، او في الهند ، هل تلقى بعـض العزاء في وجود هذا التذكار بين يديك ؟ ام ان النظر اليه خليق به ان يبعث ذكريات من شأنها ان تثير اعصابك وتوقع في نفسك الاسى ؟ »

فرفع عينيه واختلس النظر الي في تردد واضطراب • ثم راح يتأمـل الصورة كرة اخرى •

— « اما اني احب الفوز بها فأمر لا ريب فيه • واما ما اذا كـان هـذا الصنيع حكيما او غير حكيم فتلك مسألة اخرى » •

واذ كنت قد استيقنت ان روزاموند كانت تؤثره حقا ، وان اباهـا ما كان ليعارض في زواجهما فأني — وكنت اقل اعتزازا بآرائي من سانت جـون — ملت ميلا قويا صادقا الى العمل من اجل اقناعه بطلب يدها • لقد بـدا لي انه اذا ما قُدّر له ان يكون هو المسيطر على ثـروة مستر اوليفر الضخمـة فعندئذ يصبح في امكانه ان يخدم الناس بها بقَدْر ما يخدمهـم لو مضى وعرّض عبقريته للذبول وقوّته للضياع تحت شمس استوائية موقدة • وبهذا اليقين اجبته :

— « انه لخير لك واحفل بالحكمة ، على قدر ما ارى ، ان تسارع الى امتلاك الاصل في الحال » •

ولكنه كان قد جلس ، هذه المرة • وكان قد وضع الرسم امامه ، على الطاولة ، وانحنى فوقها في محبة وولوع ، مسندا جبينـه الى كلتـا يديه • وادركت انه لم يكن الان لا غاضبا ولا مروّعا لجراءتي عليه • بل لقد رأيـت انه شرع بجد في محادثته على هذا النحو الصريح في موضـوع كان يعتبره محظورا وفي سماعه اياه يعالَجُ بمثل هذه الحريـة ، متعـةً جـديدة ، وارتياحا لم يكن ليطمع فيه • والحـق ان المتحفظين مـن الناس كثيرا ما يحتاجون ، اكثر من غير المتحفظين ، الى من يناقش عواطفهم وشجونهم مناقشة صريحة • والرواقيون الذين يتكشّفون عن اشد الصرامة والتجهم هم بشـر على كل حال • وكثيرا ما يكون في اقتحامنا « بحر نفوسهم الصامت » ، في جراءة ومودة ، خدمة جلى تسدى اليهم •

وقلت ، فيما كنت اقف وراء كرسيه : « انها تحبك ، انا واثقة من ذلك •

وان والدها ليحترمك • والى هذا ، فانها فتاة فاتنة ، وان تكن اميل الى الطيش • ولكنك تملك من التبصُّر والفطنة ما يكفيك ويكفيها • وان من واجبك ان تتزوجها » •

وسألني : « هل تحبني حقا ؟ »

ـ « من غير ريب • انها تحبك اكثر مما تحب ايما امرىء اخر • وهي تتحدث عنك على نحو موصول • وليس ثمة موضوع ادعى الى ابهاجها من هذا الموضوع ، فهي تحرص ابدا على اثارته » •

فقال : « انه ليسعدني جدا ان اسمع ذلك • اجل ، يسعدني جدا • فواصلي حديثك ربع ساعة اخرى » • واخرج ساعته ، فعلا ، ووضعها على الطاولة لكي يقيس الزمن •

فسألته : « ولكن اية فائدة ترتجى من مواصلة الحديث ، ما دمت ـ في أغلب الظن ـ تعدُّ ضربة حديدية من المعارضة ، او تسبك قيدا جديدا تصفّد به قلبك ؟ »

ـ « لا تتخيلي مثل هذه الاشياء القاسية • تخيليني استسلم واميع ، كما هي حالي في الواقع • ان الحب البشري ليتفجر في عقلي مثل ينبوع بكر ، ويغمر بفيض عذب ارجاء الحقل الذي حرثته بأعظم الكدح واكبر العناية ، والذي غرست فيه بذور النيات الطيبة والخطط القائمة على انكار الذات • لقد غرق الان في طوفان من شراب الآلهة ، فجرُفت البذور الغضة وتأكّلها السم اللذيذ • واني لاتخيل نفسي الآن مضطَجعا على أريكة في حجرة الاستقبال في « قصر الوادي » (فايل هول) ، عند قدمي عروسي روزاموند اوليفر : انها تتحدث الي بصوتها العذب ، ناظرةً الي من علُ بتينك العينين اللتين صورتهما يدك البارعة فأحسنت تصويرهما ، مبتسمة لي بهاتين الشفتين المرجانيتين • انها مِلكي ••• واني مِلكها ••• وان هذه الحياة الدنيا ، الفانية ، لتكفيني • صه ! لا تقولي شيئا ••• ان فؤادي لمفعم بالابتهاج ••• وان حواسي لذاهلة ••• دعي المهلة التي حدَّدتها لنفسي تنقضي في سلام » •

ونزلت عند رغبته : لقد واصلت الساعة تكّاتها ، وأخذ صدره يعلو ويهبط ، واخلدت انا الى الصمت • وفي غمرة من هذا السكون تصرَّمت الدقائق الخمس عشرة • فاعاد الساعة الى جيبه ، ووضع الصورة على الطاولة ، ونهض ، ووقف على مقربة من المستوقد •

وقال : « والان ، لقد كُرِّست تلك الفترة القصيرة للهذيان والوهم • لقد ارحت صدغيَّ على صدر الاغراء ، ووضعت عنقي ـ طوعا واختيارا ـ تحت نيره المصنوع من رياحين • لقد ذقت كأسه • كانت الوسادة مضطربة ، ولقد كان في الاكليل حبة صغيرة سامة • ان الخمر ذات طعم مرير ، وان وعودها جوفاء ، وعروضها زائفة • اني لارى هذا كله ، واعرفه » •

وحدَّقت اليه في دهش •

وتابع كلامه : « ومن عجب اني بينا احب روزاموند اوليفر هذا الحب المشبوب ـ بكامل زخم الحب الاول لمخلوقة هي على مثل هذا الجمال والبهاء والسحر كله ـ أعي في الوقت نفسه ، وعيا هادئا نزيها ـ انها لن تكون لي زوجة صالحة ۰۰ انها لن تكون لي شريكة حياة ملائمة ۰۰۰ واني لا بد ان اكتشف ذلك في مدى عام ينقضي على الزواج ۰۰ وانه لا بد ان يعقب ابتهاج الشهور الاثني عشر عمرٌ كامل من الندامة ۰ ذلك شيء اعرفه » ۰

فلم اتمالك عن القول ، في نبرة عالية : « هذا عجيب ، حقا ! »

وتابع قائلا : « وفيما يتكشَّف شيء ما فيَّ عن اعظم الحساسية لمفاتنها يتكشَّف شيء اخر عن اعمق التأثر بنقائصها ۰ وهذه النقائص قوية الى درجة تجعل روزاموند غير قادرة على مشاركتي ، وجدانيا ، في أيما شيء مما اطمح اليه ، او على التعاون معي في أيما شيء مما سأنهض بعبئه ۰ هل تستطيعين ان تتخيلي روزاموند رسولةً ، مناضلة تقاسي المتاعب والآلام ؟ هل تستطيعين ان تتخيلي روزاموند زوجة لمبشر ؟ أنا لا استطيع ! »

ـ « ولكنك في غير حاجة الى العمل كمبشر ۰ في استطاعتك ان تتخلى عن هذه الخطة » ۰

ـ « أتخلى ! ماذا ! عن مهمتي ؟ عن رسالتي العظيمـــة ؟ عن الاساس الذي ارسيته في الارض لاقامة قصر في الجنة ؟ عن آمالي في أن أُدخَل في عداد تلك العصبةالتي صهرت جميع المطامح في مطمح مجيد واحد ، هو تحسين النوع البشري ۰۰ ونقل المعرفة الى عوالم الجهل ۰۰۰ واحلال السلم محـل الحرب ، والحرية محل العبودية ، والدين محل الخرافة ، ورجاء الجنة محل خوف جهنم ؟ هل ينبغي لي ان اتخلى عن هذا كله ؟ انه اعز عندي من الدم الجاري في عروقي ۰ انه ما يجب ان اتطلع اليه ، وان احيا من اجله » ۰

وبعد صمت استمر فترة غير يسيرة قلت : « ومس اوليفر ؟ الا يهمك اساها وخيبة أملها ؟ »

ـ « مس اوليفر محاطة ابدا بجمهرة من الخطاب والمتملقين ۰ وما هو غير شهر واحد ، او اقل من شهر واحد ، حتى تمّحي صورتي من فؤادها ۰ انها سوف تنساني ۰ ولسوف تتزوج ، في اغلب الظن ، من رجل يسعدها اكثر مما استطيع انا ان اسعدها ، بكثير » ۰

ـ « انت تتحدث في فتور بالغ ۰ ولكن الصراع يعذبك ۰ انه يضنيك ويُبليــك » ۰

ـ « لا ۰ اذا كان شيء من الهزل قد اعتراني فليس ذلك الا بسبب من قلقي على مشروعاتي التي لمّا تتحقق بعد ۰۰۰ بسبب من رحيلي الذي لا يفتأ يُرجأ ويؤجل ۰ ففي هذا الصباح بالذات تلقيت نبأ يفيد ان خَلَفي ، الـذي توقعت وصوله منذ فترة طويلة ، لن يستطيع الحـــلول محلي الا بعد شهور ثلاثة ۰ ومن يدري ، فقد تتطاول الشهور الثلاثة لتصبح شهورا ستة » ۰

ـ « انك لترتعد وان الدم ليشيع في وجنتيك كلما دخلت مس اوليفر غرفة الصف » ۰

وكرة اخرى غلبت الانطباعة المشدوهة على محياه • ذلك بأنه لم يتخيل أن تجرؤ امرأة على التحدث الى رجل ما بمثل هذه اللهجة • أما انا فلم اجد أي حرج في مثل ذلك الحديث • ذلك بأني ما كنت لارتاح الى الاتصال بالعقول القوية الحصيفة المهذبة ـ سواء أكان اصحابها رجالا او نساء ـ الا بعد ان اجتاز حصون التحفظ التقليدي ، واتخطى عتبة الثقـــة ، وافوز بموضع في سويداء قلوبهم •

وقال : « انت فتاة ذات اصالة ، ولست بالهيّابة • ان في روحـــك لشيئا باسلا ، وان في عينيك لشيئا ثاقبا • ولكن دعيني أؤكد لك انـــك تسيئين فهم عواطفي ، بعض الشيء • انت تتوهمينها اعمق وأقوى مما هي في الواقع • وتنسبين الي قدْرا من المشاركة الوجدانية اعظم مما استحق • وحين يتضرج وجهي وحين ارتعد امام مس اوليفر لا أرثي لنفسي البتة • أنا ازدري ضعفي • واعلم انه عار" وخسةّ ••• انه مجرد حمًّى من حميات الجسد، وليس تشنجا من تشنجات الروح • ان روحي لثابتة مثل صخرة راسخة في اعماق بحر متلاطم الامواج • الا فاعرفيني على حقيقتي : رجلا باردا صُلبا » •

وابتسمت ابتسامة تؤذن بعدم التصديق •

واسترسل قائلا : « لقد نفذتِ الى سري بهجوم صاعق ، وانه الان رهن ارادتك • انا لا اعدو ان أكون ، في حقيقتي ـ مجردا من ذلك الثوب الابيض الذي تغطي به النصرانية عيوب البشر ـ رجلا باردا ، قاسي القلب ، طموحا • والحنان الطبيعي له ، من بين سائر العواطف ، سلطان سرمدي علي • العقل ، لا الشعور ، هو قائدي وهاديَّ • ان طموحي طموح لا حد له ، وان رغبتي في السمو على الاخرين وفي القيام بأكثر مما يقومون من اعمال رغبة لا تعرف الشّبع • أنا اقدس الجَلد والمثابرة والكد والموهبة ، لان هذه هي الوسائل التي بها يحقق الناس اهدافا عظمى ، ويبلغون منازل السمو السامقة • انا اراقب سيرتك في اهتمام ، لاني اعتبرك نموذجا للمرأة المثابرة ، المنظمة ، الناشطة ، لا لاني آسَى لك ، على نحو عميق ، بسبب مما اصابك من قبل او بسبب مما لا تزالين تقاسينه » •

فقلت : « لعلك تريد ان تقول انك مجرد فيلسوف وثني » •

ـ « لا • هناك هذا الفارق بيني وبين الفلاسفة الذين يفرضون الايمان بالوحي : اني انا اؤمن بالتعاليم المسيحية • لقد خانـــك التوفيق في اختيار النعت ، فأنا لست فيلسوفا وثنيا ، بل فيلسوف نصراني ـ تابع من اتباع نحْلة المسيح • وبوصفي تلميذا من تلاميذه اراني اتبنّى عقائده الطاهرة ، الرَحيمة ، الخيرة • انا انادي بها ، ولقد اخذت على نفسي عهدا بأن ابثهـــا وانشرها • واذ نذرت نفسي ، في صدر الشباب ، للدين هذّب الدين سجاياي الفطرية على هذا النحو : فمن البذرة الدقيقة ، الحنان الطبيعي ، انشأ الشجرة الوارفة الظلال ، حب الانسانية • ومن جذر الاستقامة الانسانية البري ربّى احساسا واجبا بالعدالة الالهية • ومن الطموح الى اكتساب السلطان والشهرة

لذاتي البائسة كونّ الطموح الى توسيع مملكة الهي ، الى تحقيق الانتصارات لراية الصليب • ذلك كله فعله الدين من اجلي : لقد مكنني من ان افيد من المواد الخام التي منحتني اياها الحياة احسن ما تكون الافادة ، ومن تشذيب طبيعتي وتدريبها • ولكنه لم يستطع ان يستأصل هذه الطبيعة ، ولن يستطيع استئصالها « حتى يوفق هذا الانسان الفاني الى الفوز بالخلود » •

قال ذلك وتناول قبعته التي كانت على الطاولة بجانب لوحة الواني • وكرة اخرى انشأ ينظر الى رسم روزاموند اوليفر •

وغمغم : « انها فاتنة • ولقد اصاب من سمّاها « زهرة العالم » ❋ حقا » •

ـ « الا تريدني ان ارسم من اجلك لوحة مثلها ؟ »

ـ « وما الفائدة منذ لك ؟ لا • »

وحجب اللوحة بتلك الورقة الرقيقة التي كان من دأبي ان اريح يدي عليها اثناء الرسم صيانة للورق المقوى من التلوث • ان من المتعذر علي أن احزر ما الذي رآه فجأة على تلك الورقة البيضاء ولـكن شيئا ما قد جذب بصره • فانتزعها انتزاعا ، وراح يحدّق الى زاويتها ، ثم حدجني بنظرة •• نظرة عجيبة لا سبيل الى وصفها ، مبهمة لا سبيل الى فهمها • نظرة بدا وكأنها كانت تسجل كل شاردة وواردة من شكلي ، ووجهي ، وملابسي • ذلك بأنها جابت كل ذلك خاطفة نافذة كالبرق • وانفرجت شفتاه ، وكأنه يريد ان يقول شيئا • ولكنه كبح الجملة التي اوشكت ان تنطلق من بينهما ، ايا ما كانت تلك الجملة •

وسألته : « ما بالك ؟ »

فكان جوابه : « لا شيء على الاطلاق » • واذ اعاد الورقة الى موضعها رأيته يقتطع ، في رشاقة ، جانبا ضيقا من هامشها ويغيبه في قفازه • ثم انه حياني تحية عاجلة ، وتمنى لي اصيلا طيبا ، وتوارى •

وهتفت ، مصطنعة تعبيرا من تعابير المنطقة : « هـذا يتـوّج الكـرة الارضية على اية حال ! »

ورحت بدوري اتأمل تلـك الورقـة • ولكني لم المـح عليهـا اي شيء غير لطخات قليلة من الاصباغ التي جربتها بريشتي • واستغرقت في التفكير في ذلك اللغز دقيقـة او دقيقتين • حتى اذا استعصى علي حلّه ، وحتـى اذا استيقنت انه لا يمكن ان يكون ذا خطر عظيم ، اقلعت عـن ذلـك ، وسارعت الى نسيان المسألة كلها •

٣٣

وكان الثلج قد شرع يتساقط عندما مضى مستر سانت جون لسبيله ، وواصلت العاصفة انطلاقها عنيفة مدوّمة طـوال الليـل • وفي اليـوم التالي

❋ تتألف كلمة روزاموند من لفظتين rose ومعناها الوردة ، و monde ومعناهـا العالـم • (المعرب)

هبت ريح مثلوجة هطلت في اعقابها امطار جديدة تعمي البصر · حتى اذا هبطت العتمة كان الثلج قد ملأ الوادي وجعل اجتيازه شبه متعذر · وكنت قد اوصدت مصراع نافذتي ، ووضعت عند الباب حصيرة اردت بها ان تحول دون تسرب الثلج من تحته ، وأصلحت النار في موقدي · وبعد ان جلست في جواره نحوا من ساعة اصغيت خلالها الى ثورة العاصفة المكبوحة اضأت شمعة وتناولت قصيدة مارميون وانشأت اقرأ :

« ارتفع الضحى فوق القصر القائم عند منحدر نورهام ،
وفوق نهر « تويد » الجميل ، العريض ، العميق ،
وجبال « شيفيو » المنعزلة ·
ان الابراج الضخمة ، والحصن الداخلي ،
والاسوار المنيفة التي تكتنفها
لتتوهج ببريق اصفر ·· »

وسرعان ما نسيت العاصفة في غمرة من تلك الموسيقى ·

وسمعت جلبة · وخيل الي ، بادىء الامر ، ان الريح قد هزت الباب · ولكني ما لبثت ان ادركت ان سانت جون ريفرز قد عاد ··لقد رفع المزلاج ، وانبثق من غمرة الزوبعة المثلوجة ··· والظلمة العاوية ··· ووقف امامي ، وقد بدت العباءة التي غطت قامته الفارغة بيضاء كلها مثل نهر متجمد · واستبد الذعر بي او كاد · اذ لم اكن اتوقع ان يفد علي تلك الليلة ، من الوادي الذي سد الثلج مسالكه ، اي زائر ·

وسألته : « ألديك اية انباء سيئة ؟ هل حدث ايما شيء ؟ »

فأجابني ، نازعا عباءته ، معلقا اياها على الباب : « لا · ما ايسر ما استبد الذعر بك ! » واعاد دفع الحصيرة التي كان دخوله قد ازاحها عن موضعها · وضرب الارض بقدميه نافضا الثلج عن حذائه ·

وقال : « سوف الوث ارض حجرتك النظيفة · ولكن عليك ان تعذريني هذه المرة وحسب » · ثم انه دنا من المستوقد واضاف وهو يصطلي بناره : « اؤكد لك اني بذلت جهدا عظيما للوصول الى هنا · فقد غمرتني الثلوج برهة ، حتى خصري · ولكن هذه الثلوج كانت ، لحسن الطالع ، دمثة الى حد بعيد » ·

ولم اتمالك نفسي عن سؤاله : « ولكن ما الذي جاء بك ؟ »

ـ « سؤال ليس من حسن الضيافة توجيهه الى زائر · ولكن ما دمت قد طرحته علي فسأجيب عنه لمجرد رغبتي في التحدث اليك فترة قصيرة ، فقد سئمت كتبي الخرساء وحجراتي الخالية · والى هذا ، فقد غلب علي منذ امس مثل ذلك الاحتياج الذي يغلب على من لم يسمع من قصة ما الا نصفها ، فهو مشوق الى سماع تتمتها » ·

وجلس · وتذكرت ما تكشف عنه امس من سلوك شاذ ، فشرعت

اخشى في الواقع ان يكون قد خولط في عقلـه · ولكن خبله ، اذا صـح ان الخبل قد ألمَّ به حقا ، كان خبلا فاترا رابط الجأش الى حد بعيـد · ولست احسب اني رأيت ذلك الوجه المليـح السمات اشدَّ شبها بالرخـام المنقوش مما رأيته في هذه اللحظة بالذات ، بينا كـان يرد شعره المطلـول بالثلج عن جبينه ويجيز لوهج النار ان يتألق في حرية على جبهتـه الشاحبـة ، ووجنته التي ما كانت بأقل شحوبا ، وجنته التي آلمني ان المـح عليها آثـار الهـم او الاسى محفورة على نحو واضح · وترقبت ، متوقعة ان يقول شيئا استطيـع على الاقل ان افهمه · ولكن يده كانت الان عند ذقنه ، واصبعـه كـانت على شفته : كان مستغرقا في التفكير · وقد راعني ان تبـدو يـده مرهقة مضناة مثل وجهه · وعندئذ فاض قلبي بدفق من الاشفاق ربـما كـان غير ارادي · ودُفِعت الى القول :

– « اتمنى لو تفد ديانا او ماري وتقيم معـك · فمن المؤسف جـدا ان تضطر الى العيش وحدك ، وانت رجـل قليل الاحتفال بصحتـك الى حـد طائش » ·

– « لا ، على الاطلاق · انا اعنى بنفسي حين يكون ذلك ضروريـا · واني الان لفي خير · هل تجدين فيَّ علةً ما ؟ »

قال ذلك في لا مبالاة ذاهلة اظهرت ان جَزَعي كـان ، في رأيـه على الاقل ، غير ضروري البتة · وهكذا اكرِهتُ على الصمت ·

وواصل سانت جون تحريك اصبعه ، في تؤدة ، فـوق شفته العليـا ، وواصلت عينه رنوَّها الحالم الى الموقد المتوهج · واذ رأيت مـن واجبي ان اقول شيئا فقد سارعت الى سؤاله ما اذا كان يحسّ بأي تيار مـن الهـواء البارد منبعث من الباب القائم خلفه ·

فأجابني في اقتضاب وبعض شكاسة : « لا ! لا ! »

فقلت في ذات نفسي : « حسنا ، اذا ابيت ان تتكلم ، ففي وسعـك ان تخلد الى الصمت · سوف اتركك الان وشأنك ، واعود الى كتابي » ·

وهكذا ازلت الجزء المحترق من فتيـل الشمعـة واستأنفت مطالعـة ديوان مارميون · وسرعان ما تحرك · وفي الحال جُذِبت عيني الى حركاته · ولكنه اجتزأ بان اخرج حافظة اوراق مصنوعة من جلـد مراكشي ، وسحب منها رسالة تلاها في صمت ، ثم طواها ، واعادهـا الى الحافظـة ، واستغرق في التفكير من جديد · كان من العبث الذي لا طائـل تحته ان اطالع كتابـي ما بقي هـذا الشيء المتسمر المبهـم تجاهي · وفي الوقت نفسه لم استطـع – وقد نفد صبري – ان ارضى بالتزام الصمت · ومـن هنـا وطنت النيـة على الكلام ، ولينتهرني اذا شاء ·

وقلت : « هل تلقيت في الفترة الاخيرة اية رسالة من ديانا ومـاري ؟ »

– « لم اتلق اية رسالة بعد تلك التي اطلعتك عليها منـذ اسبوع » ·

– « الم يطرأ على خططك ايما تبديـل ؟ الن تدعى الى مغـادرة انكلترة

بأسرع مما توقعت ؟ »

ــ « لست اظن ذلك ، في الواقع . فمثل هذا الحظ اسعدُ من ان يحالفني » .

واذ احبطت محاولاتي كلها فقد عمدت الى تغيير خطتي . لقد خطر لي ان اتحدث عن المدرسة وعن تلميذاتي .

ــ « ان صحة أم ماري غاريت ، قد تحسنت ، ولقد عادت ماري الى المدرسة صباح اليوم ، ولسوف يفد على مدرستي من « حظيرة المصهَرْ » في الاسبوع القادم اربع فتيات صغيرات . ولقد كان خليقا بهن ان يَفِدن اليوم ، ولكن الثلج صدّهن عن سبيلهن » .

ــ « حقا ! »

ــ « ان مستر اوليفر تعهد بدفع نفقات اثنتين منهن » .

ــ « صحيح ؟ »

ــ « انه يعتزم ان يقيم وليمة لطالبات المدرسة كلهن عند حلول عيد الميلاد » .

ــ « ادري » .

ــ « هل كان ذلك بناء على اقتراح منك ؟ »

ــ « لا » .

ــ « بناء على اقتراح من ، اذن ؟ »

ــ ابنته ، في ما احسب » .

ــ « انه اقتراح متناغم مع طبيعتها . فهي طيبة القلب حتى الاسراف » .

ــ « اجل » .

وكرة اخرى ، ران الصمت علينا . ودقت الساعة ثماني دقات . فأيقظَتْهُ من ذهوله . وانزل رجلا عن رجل ، واعتدل في جلسته ، والتفت الي وقال : « اطَّرحي كتابك لحظة ، واقتربي من النار اكثر قليلا » .

واذ استبد بي عجبٌ لم اجد له نهاية فقد امتثلت امره .

وتابع حديثه قائلا : « منذ نصف ساعة تحدثت عن شوقي اللاهب الى سماع بقية قصة ما . ولكني رأيت ، بعد شيء من التفكير ، ان من الخير ان امثل دور الراوية ، وان اجعل منك مستمعة . وقبل ان ابدأ اجد من الانصاف ان انبهك الى ان القصة قد تبدو لك مبتذلة بعض الشيء . ولكن الاحداث الذابلة كثيرا ما تكتسب درجة من النضارة عندما تنطلق عبر شفاه جديدة . والى هذا ، وسواء اكانت حكايتي مبتذلة او طريفة ، فأنها موجزة .

« منذ عشرين سنة اغرم كاهن فقير ــ ولا بأس في اغفال اسمه الان ــ بابنة احد الموسرين . واغرمت الفتاة بدورها به ، وتزوجت منه مخالفة بذلك نصائح اهلها جميعا ... اهلها الذين تبرأوا منها بعد الزواج مباشرة . ولم تكد تنقضي سنتان حتى قضى الزوجان الطائشان

نحبهما ، ودُفنا جنبا الى جنب تحت بلاطة واحدة · (لقد رأيت قبرهما · كان يشكل جزءا من رصيف فِنـاء ضخم يكتنف كاتدرائية عتيقة كالحة ، من أثر سخام المداخن ، في مدينة صناعية نامية اكثر مما ينبغي من اعمال مقاطعه ···) · ولقد خلفا طفلة احتضنها الاحسان ، منذ ولادتها ، في حِجره ··· حجره البارد برود اكوام الثلج التي كادت تعوق سبيلي الليلة · وحمل الاحسان تلك المخلوقة اليتيمة الى بيت خالها الثري حيث ربّتها امرأة خالٍ تدعى (وهنا اصل الاسماء) مسز ريد اوف غايتسهيد ··· انت تجفلين ··· هل سمعت ايه ضجة ؟ اغلب الظن ان مصدر الضجة لا يعدو ان يكون فارة تتسلق سقف حجرة التدريس المحاذية الخشبي المنحدر · لقد كانت هذه الحجرة قبل ان اصلحها واعدّلها مخزنا للمحصولات الزراعية · ومخازن المحصولات الزراعية كثيرا ما تختلف اليها الفئران · فلأتابع ··· لقد اعالت مسز ريد تلك البنت اليتيمة عشر سنوات · فاذا سالتني هل كانت هذه المخلوقة البائسة سعيدة في كنف امرأة خالها ام غير سعيدة اجبتك : لست ادري ، لان احدا لم ينبئني بذلك البتة · ولكنها نقِلت في ختام تلك المدة الى مكان تعرفينه ، لانه لا يعدو ان يكون مدرسة لوورود التي اقمت انت فيها فترة طويلة جدا · والذي يبدو ان سيرتها هناك كانت مشرّفة جدا ، اذ ما لبثت ، بعد تخرّجها ، ان اصبحت معلمة في تلك المدرسة بالذات ، كما اصبحتِ انت · والواقع اني لا اقضي العجب من تعدد وجوه الشبه بين ماضيها وماضيك · وما هي غير فترة حتى تركت التعليم لتعمل مربية خصوصية في احد البيوت · وهنا ايضا يتجلى الشبه بين قدَريكما ، فقد تولت تثقيف فتاة صغيرة كان رجل يدعى مستر روتشيستر قد كفلها » ·

فقاطعته : « مستر ريفرز ! »

فقال : « في استطاعتي ان احزر اي الاحاسيس تعتلج في نفسك · ولكني اسألك ان تكبحيها لحظة ، فقد كدت اوفي من القصة على نهايتها ، فاسمعيها حتى تلك النهاية · انا لا أعرف عن خُلق مستر روتشيستر شيئا · كل ما اعرفه هو انه عرض على هذه الفتاة ان يتزوج منها زواجا مشرّفا ، وانها اكتشفت ــ امام المذبح بالذات ــ ان له زوجة لا تزال على قيد الحياة وان تكن مجنونة · اما كيف كان مسلكه معها بعد ذلك ، والعروض التي تقدم اليها بها فذلك ما لا ادريه على وجه اليقين · ولكن ما ان نشأت من ثم مناسبة اوجبت استدعاء المربية حتى اكتُشف انها مضت لسبيلها ··· ان احدا لم يعرف متى وكيف والى اين مضت · ذلك بأنها غادرت قصر ثورنفيلد تحت جنح الظلام · واخذ القوم يبحثون عنها ، ولكن جهودهم ذهبت ادراج الرياح · لقد رادوا البلاد كلها طولا وعرضا فلم يوفقوا الى الفوز بأي نبأ من انبائها · ومع ذلك فان العثور عليها كان قد امسى ضرورة ملحة · فنُشِرت في جميع الصحف اعلانات حولها

واذاعات • وانا شخصيا تلقيت رسالة من رجـل اسمه مستر بريغز ، وهو محام ، اشتملت على هذه التفاصيل التي ادليت بها منذ لحظات • ليست هذه القصة قصة عجيبة ؟ »

فقلت : « لست اريد الا ان تفيدني عن امر واحـد ••• ومـا دمت تعرف هذا القدر كله فليس مـن ريب في انـك قـادر على افادتي عـن هذا الامر : ماذا حل بمستر روتشيستر ؟ كيف هو ، واين هو ؟ مـا الـذي يفعله الان ؟ أهو بخير ؟ »

ـ « اني اجهل كل ما يتصل بمستر روتشيستر ، فالرسالة لـم تشر اليه الا لتروي محاولته الخادعة غير الشرعية التي المعت اليها ، وانـه لخير لك ان تسألي عن اسم تلك المربية ••• وعن طبيعة الحادث الـذي يوجب ظهورها » •

ـ « الم يذهب احد الى قصر ثورنفيلد ؟ الم ير احد مستر روتشيستر ؟»

ـ « لست اظن ذلك » •

ـ « ولكنهم كتبوا اليه ؟ »

ـ « من غير ريب » •

ـ « وماذا قال ؟ من الذي يحتفظ برسائله ؟ »

ـ « يشير مستر بريغز الى ان الجواب الـذي جـاءه لم يـكن مـن مستر روتشيستر ، ولكن من سيدة : لقـد كان مذيـلا بتوقيـع « أليس فيرفاكس » •

وعصفت بي قشعريرة ورعب • واذن فاغلب الظـن ان اسوأ مخاوفي كانت حقيقية • فلا ريب في انه قد غادر انكلترة واندفع ، في يأسه المتهـور ، الى موطن سابق من تلك التي كان يألفهـا في القـارّة الاوروبيـة • واي مخدّر لآلامه المبرّحة وأي هدف لعواطفه الجياشـة التمسهما هنـاك ؟ اني لم اجرؤ على الاجابة عن ذلك السؤال • ايـه ، يا سيدي المسكين ـ الـذي كاد ذات مرة ان يكون زوجي ـ والذي طالما دعوته : « ادوردي العزيـز ! »

فلاحظ مستر ريفرز قائلا : « لا ريب في انه كان رجل سَوء » •

فقلت في حرارة : « انت لا تعرفه ••• فلا تبدِ ايما رأي فيه » •

فاجابني في سكون : « حسن جدا • والواقع ان ذهني منشغـل بغيره : ان لدي قصتي التي يجب ان اتمّ روايتها • ومـا دمت تسأليني مـا اسم المربية فالواجب يقتضيني ان انبئك به مـن تلقـاء نفسي ••• تمهلي ••• انه لدي هنا ••• وانه لادعى الى الرضـا ، دائمـا ، ان يـرى المرء الاشياء الهامة مدوّنة سوادا على بياض »

وفي تؤدة اخرج حافظة اوراقه من جيبه كرة اخـرى وفتحهـا ، وراح يتحراها • ثم انه اخرج من احـدى طبقاتها قصاصـة رثـة مـن ورق ، اقتُطعت على عجل • فعرفت في نسيجها وفي لطخات الاصباغ الزرقاء الصافية، والحمراء القاتمة والقرمزية التي عليها هامش غطـاء الصـورة المختطَف •

ونهض من مكانه ، ووضعها تحت ناظري • وقرأت هاتين الكلمتين ، « جين ايير » ، مكتوبتين بخط يدي بحبر صيني •

ولا ريب في اني كتبت ذلك في ساعة من ساعات الذهول •

وقال : « لقد كتب بريغز الي عن فتاة تدعى جين ايير • ولقد تساءلت الاعلانات المنشورة في الصحف عن فتاة تدعى جين ايير ، ولكني لم اكن اعرف غير جين ايليوت • واعترف لك ان الشكوك كانت قد ساورتني ، ولكن تلك الشكوك لم تنقلب الى يقين الا اصيل امس • فهل تقرين بأن هذا هو اسمك وتطرحين اسمك المستعار ؟ »

ـ « اجل ، اجل ، ولكن اين مستر بريغز ؟ لعله يعلم من امر مستر روتشيستر اكثر مما تعلم » •

ـ « بريغز في لندن • وانا اشك في انه يعرف ايما شيء مهما يكن عن مستر روتشيستر ، لان اهتمامه ليس منصبًا على مستر روتشيستر • وفي الوقت نفسه ، الاحظ ان انشغالك بتعقب الامور الجزئية قد انساك بعض النقاط الاساسية • فانت لا تسألين لماذا يبحث مستر بريغز عنك •• وما الذي يبتغيه منك •• »

ـ « حسنا ، ما الذي كان يريده مني ؟ »

ـ « كان يريد مجرد اعلامك بأن عمك ، مستر ايير الماديري* قد توفي ، وانه قد ترك لك ثروته كلها ، وانك الان غنية ••• ذلك كل ما يريده ، ولا شيء غير ذلك » •

ـ « انا غنية ؟ »

ـ « اجل ، انت ، غنية • لقد ورثت ارثا كبيرا » •

وران الصمت لحظات •

ثم ان مستر سانت جون استطرد قائلا : « ان عليك ان تثبتي هويتك ، من غير ريب • وهي خطوة لا تنطوي على اية مصاعب • وعندئذ يصبح في ميسورك ان تضعي يدك ، في الحال ، على التركة • ان ثروتك هي كناية عن سندات على الحكومة الانكليزية ، وبريغز يملك الوصية والوثائق الضرورية » •

وهنا قُلِبت في حياتي صفحة جديدة ! والواقع انه لشيء رائع ، ايها القارىء ، ان يجد المرء نفسه وقد ارتفع في لحظة واحدة من الفاقة الى الثروة ••• شيء رائع جدا ، ولكنه ليس شيئا يستطيع المرء ان يفهمه ، وبالتالي ان يستمتع به في الحال • والى هذا ففي الحياة مصادفات اخرى ادعى الى الاثارة والابتهاج الغامر : ان المصادفة التي رفعتني من العوز الى الغنى هي شيء حقيقي ، مسألة من مسائل العالم الواقعي ، ليس فيها اية نفحة من نفحات المثالية • ان كل المعاني المتصلة بها معانٍ حقيقية وهادئة ، وكذلك ظواهرها جميعا • وان المرء لا يثب ، لدن وقوعها ، ولا

---

* نسبة الى « ماديرا » •

يقفز ، ويهتف هتاف الفرح والنصر • لا ، فهو ما ان يسمع انه امسى صاحب ثراء حتى يشرع في التفكير في التبعات ، وينصرف الى التأمل في قضايا العمل والتجارة وما اليها • وعلى اساس من الرضا الراسخ تنهض بعض الهموم الكئيبة ــ وعندئذ نتمالك انفسنا ، ونستغرق في تأمل السعادة وقد زوينا ما بين اعيننا •

وفوق هذا ، فأن تعبيريَ « الارث » و « الارث المخلَّف بوصية » يجريان جنبا الى جنب مع لفظتي « الموت » و « الجنازة » • فقد سمعتُ ، مع نبأ الثروة التي آلت الي ، ان عمي ــ وهو نسيبي الاوحد ــ قد مات • كان الامل قد راودني ، منذ عرفتُ بوجوده ، بأن اراه ذات يوم ، وها ان املي ذاك يتلاشى ولن يُقَدَّر لي ان ارى عمي أبد الدهر • دز على ذلك ان هذه الثروة هبطت علي وحدي ، انا الفتاة التي لا انسباء لي ، ولم تهبط علي وعلى اسرة متهللة • لقد كانت نعمة كبرى من غير ريب ، وخليقٌ بتحرري من الفقر ان يكون شيئا في غاية الروعة ــ اجل ، لقد استشعرت هذا ــ وكان في تلك الفكرة ما افعم قلبي بالارتياح •

وقال مستر ريفرز « ها قد حَلَّلت عقدة جبينك اخر الامر • وكنت حسبت ان « مدوسة ❊ قد نظرت اليك ، وانك قد انقلبت الى حجر ••• ولعلك الان ان تسأليني ما مبلغ ثروتك ؟ »

ــ « ما مبلغ ثروتي ؟ »

ــ « اوه ، شيء هزيل ! انه ليس شيئا يستحق الذكر ، طبعا ! عشرون الف جنيه ••• ذلك ما ورد على السنتهم في ما احسب • ولكنه مبلغ تافه ، اليس كذلك ؟ »

ــ « عشرون الف جنيه ؟ »

وكان ههنا مبعث دهش جديد • فقد كنت على مثل اليقين من ان التركة لا تزيد على اربعة الاف جنيه او خمسة الاف جنيه • فاذا بهذا النبأ يقطع انفاسي ، حقا ، لحظة قصيرة • وهنا ضحك مستر سانت جون ، وهو الرجل الذي لم اسمعه يضحك قط من قبل •

وقال : « حسنا ، لو انك كنت قد ارتكبت جريمة قتل فجئت اقول لك ان جريمتك قد اكتُشفت اذن لما شُدهت بأكثر مما شُدِهت الان » •

ــ « انه مبلغ ضخم ••• الا تعتقد انَ ثمةَ خطأ ؟ »

ــ « ليس ثمة خطأ البتة » •

ــ « ربما قرأتُ الرقم على نحو مغلوط ••• انه قد يكون الفي جنيه ! »

ــ « لقد كتب المبلغ بالحروف ، لا بالارقام : عشرون الفا » •

وكرة اخرى استشعرت وكأنني شخص متوسط الشراهة يجلس

❊ Medusa ، في الميثولوجيا اليونانية ، احدى ثلاث شقيقات كانت لرؤوسهن بدل الشعر افاع وثعابين • (المعرب)

وحده الى مائدة افعمت بما يُشبع مئة طاعم • وهنا نهض مستر ريفرز ، وارتدى معطفه وقال :

ــ « لو لم تكن هذه الليلة بالغة الضراوة لارسلت حنة للبقاء الى جانبك ، اذ يبدو لي انك اشد تعاسة من ان تُتركي وحيدة • ولكن مسكينة" هي حنة ! انها لا تُحسِن التخويض في الثلج كما افعل • ان رجليها ليستا طويلتين مثل رجليّ • وهكذا يتعين علي ان اتركك لاحزانك • طاب مساؤك »•

وكان يرفع مزلاج الباب حين خطرت لي فكرة مفاجئة •
وصحت : « قف دقيقة واحدة » •
ــ « ماذا تريدين ؟ »

ــ « ان بي لشوقا عنيفا الى ان اعرف لماذا كتب اليك مستر بريغز في شأني ، وكيف عرفك ، او كيف استطاع ان يتخيل ان في امكانك ــ انت المقيم في مثل هذا الموطن النائي ــ ان تساعده في العثور علي ••• »

فقال : « اوه ، انا قس" ، والقسس كثيرا ما يُفزَع اليهم في القضايا الغريبة » • وكرة اخرى ، صرّ" مزلاج الباب •

فهتفت : « لا ، هذا لا يقنعني ! » والواقع انه كان في ذلك الجواب المتعجل المقتضب شيء اثار فضولي اكثر من ايما وقت مضى ، بدلا من ان يسكّنَه' ويلطّفه •

واضفت قائلة : « انها لمسألة عجيبة جدا • ويتعين علي أن اعرف عنها اكثر من هذا القدر » •

ــ « في فرصة اخرى » •

ــ « لا : الليلة ! ••• الليلة ! » وفيما كان يبتعد عن الباب بعض الشيء اقحمت نفسي بينه وبين ذلك الباب • فبدت عليه امارات الارتباك •

وقلت : « لا ريب في انك لن تمضي لسبيلك الا بعد ان تنبئني بكل شيء ! »

ــ « انا اؤثر ان لا افعل ، في هذه اللحظة بالذات » •

ــ « بل سوف تفعل •• يتعين عليك ان تفعل ! »

ــ « أؤثر ان تنبئك ديانا او ماري بذلك » •

وكان طبيعيا ان تثير هذه الاعتراضات لهفتي وتشوقي حتى الاوج • فلم يكن بد من اشباعهما ، ومن ان يتم ذلك في غير ابطاء • ولقد عبرت له عن ذلك كله فأجاب :

ــ « ولكني اعلمتك اني رجل عنيد يصعب اقناعه • »

ــ « وانا امرأة عنيدة ••• من المستحيل مماطلتها » •

وتابع قائلا : « والى هذا ، فانا بارد لا تحركني ايما حرارة » •

ــ « اما انا فملتهبة • والنار تذيب الثلج • ان نار الموقد الذي هناك قد

اذابت الثلج كله عن معطفك ، واسالته كذلك على ارض مطبخي ، فجعلتها اشبه شيء بطريق تدوسها الاقدام . واذا كنت تريد ، يا مستر ريفرز ، ان تحظى بالعفو عن الجريمة الكبرى التي ارتكبتها عندما لوثت مطبخا مفروشا بالرمل فليس عليك الا ان تنبئني بالذي ارغب في معرفته » .

فقال : « حسن ، اذن ، سوف اذعن .. ان لم يكن لحماستك ، فلمواظبتك . كالحجر تبليه قطرات الماء المتساقطة على نحو موصول . والى هذا فلا بد لك من ان تعرفي ذات يوم ... عاجلا كان ذلك اليوم ام آجلا . ان اسمك جين ايير ، اليس كذلك ؟ »

ـ « طبعا . لقد حُسِمت هذه المسألة من قبل » .

ـ « لعلك لا تعلمين اني سَمِيُّكِ .. ان اسمي هو سانت جون ايير ريفرز ؟ »

ـ « لا ، من غير ريب ! انا اتذكر الان اني رأيت الحرف « أ » ضمن حروف اسمك الاولى المدونة على تلك الكتب التي اعرتني اياها في مناسبات مختلفة . ولكني لم اتساءل مرة واحدة اي اسم يمثّل . ولكن ماذا بعد ؟ لا ريب في ... »

وامسكت عن الكلام . ذلك بأني لم اكن واثقة من قدرتي على تقبّل ، بَلْه على التعبير عن ، الفكرة التي خطرت لي على نحو مفاجىء ... والتي تجسّدت ... وانتصبت ـ في ثانية واحدة ـ امرا مرجحا الى ابعد حدود الترجيح . لقد تواءمت الاحداث ، وتناغمت . وانتظمت في نَسَقٍ . ان السلسلة التي كانت حتى تلك اللحظة كتلة من الحلقات لا شكل لها قد سُحبت الان على نحو قويم ... فاذا كل حلقة فيها كاملة ، واذا الصلة بين الحلقات تامة . لقد عرفت بالغريزة ـ حتى قبل ان يقول سانت جون كلمة اضافية ـ حقيقة الوضع . ولكني لا استطيع ان اتوقع ان يكون لدى القارىء مثل هذا الادراك الحدسي ، وهكذا يتعين علي ان اكرر شرحه للمسألة :

ـ « كانت امي من آل ايير . وكان لها اخوان اثنان ، احدهما قس تزوج من مس جين ريد الغايتسهيدية ، والاخر السيد جون ايير التاجر الراحل الذي كان يقيم في فونشال عاصمة ماديرا . وفي شهر آب (اغسطس) الماضي كتب الينا مستر بريغز ، بوصفه محامي مستر ايير ، رسالة طواها على نعي خالنا ، واعلمنا فيها انه ترك ثروته لابنة اخيه القس ، اليتيمة ، متجاهلا ايانا بسبب من نزاع ـ لم تستطع الايام ان تسحب عليه ذيل النسيان ـ كان قد نشب بينه وبين ابى . ولقد عاود الكتابة منذ بضعة اسابيع ليعلمنا بأن الوارثة لم يُعثر لها على اثر ، وليسألنا ما اذا كنا نعرف ايما شيء عنها . ثم انني اهتديت اليها بفضل اسم كان قد كُتِب مصادفة على قصاصة من ورق . اما البقية فأنت تعرفينها » .

وكرة اخرى حاول ان يمضي لسبيله ، ولكني اسندت ظهري الى الباب حائلة بينه وبين ذلك ، وقلت : « دعني اتكلم . امنحني دقيقة واحدة

حتى آخذ نفسا وافكر » ٠

وامسكت عن الكلام ٠ وكان واقفا تجاهي ، رابط الجاش ، وقبعته في يده ٠ ولكني ما لبثت ان استطردت قائلة :

ـ « لقد كانت امك شقيقة ابي » ٠

ـ « نعم » ٠

ـ « وبالتالي فهي عمتي ؟ »

فحنى رأسه ٠

ـ « لقد كان عمي جون ، اذن ، هو خالك جون ؟ وانت ، وديانا ، وماري أبناء اخته ، كما انني ابنة اخيه ؟ »

ـ « هذا شيء لا مجال لانكاره » ٠

ـ « واذن فانتم ثلاثتكم ابناء عمتي ؟ واذن فنصف الدم الذي يجري في عروقي وفي عروقكم يتفجر من ينبوع واحد ؟ »

ـ « اجل ، آن رباط الخؤولة ليشدنا اليك » ٠

وسرّحت بصري فيه ٠ وبدا لي وكأنني عثرت على أخ ٠٠ اخٍ استطيع أن افخر به ٠٠ استطيع ان احبه ٠ وعلى اختين كانت سجاياهما من السمو بحيث اوقعت في نفسي ـ يوم كانتا عندي مجرد غريبتين ـ محبة خالصة واعجابا اصيلا ٠ آن الفتاتين اللتين كنت قد حدقت اليهما ـ اذ ركعت على الارض الندية واختلست النظر من خلال نافذة مطبخ « مور هاوس » الخفيضة ذات الشعرية ـ تحديقا انطوى على مزيج مرير من الشوق واليأس لم تكونا غير نسيبتين من اقربائي الادنين ٠ وان الفتى المهيب الذي وجدني شبه محتَضَرة عند عتبة داره لم يكن غير ابن عمتي لتحًا ٠ اكتشاف ماجد بالنسبة الى بائسة متوحدة ! اكتشاف كان في الواقع بمثابة ثروة ! ثروة للفؤاد ! ومنجم للمحبة البهيجة الخالصة ٠ كانت هذه نعمة ذات اشراق وحيوية وابهاج ـ لا كمنحة الذهب الثقيل ٠ انها مثلها غنية محببة الى النفس ، ولكنها تحرّر من ثقلها ٠ وهنا رحت اصفق في جذلٍ مفاجيء ـ لقد تسارعت نبضات قلبي ، واهتزت عروقي طربا ٠

وهتفت : « اوه ، انا سعيدة ! ٠٠٠ انا سعيدة ! »

وابتسم سانت جون وسألني : « الم اقل لك انك اهملت النقاط الاساسية لكي تتعقبي توافه ليس لها كبير شأن ؟ لقد غلب عليك الوقار عندما انبأتك بأنك ورثت ثروة ٠ وها انت ذي الان يغلب عليك الاهتياج لمسألة غيرَ ذات خطر » ٠

ـ « ما الذي يمكن ان تعنيه ؟ قد لا تكون هذه المسألة ذات خطر عندك ٠ ان لك شقيقتين ، فلست تبالي بابنة خال تكتشفها ٠ اما انا فلم يكن لي احد ، وها ان ثلاثة انسباء ـ او نسيبتين ، اذا آثرت ان لا تُعَدّ معهما ـ قد ولدوا الان في عالمي اليافع ٠ اكرر القول من جديد اني سعيدة ! »

وانشأت اذرع الحجرة في خطىً واسعة ٠ ثم ما لبثت ان توقفت

نصف مختنقة بالافكار التي راودتني بأسرع مما استطعت ان استقبل وافهم وابتّ ... وكانت افكارا تدور على ما قد يكون ، وما يمكن ان يكون ، وما ينبغي ان يكون ، وذلك قبل انقضاء فترة من الوقت طويلة . ونظرت الى الجدار العاري : لقد بدا في عينيّ سماءً حافلة بالنجوم ، كل نجم منها هداني الى غرض او مسرة . ان في ميسوري الان ان افيد اولئك الذين انقذوا حياتي ، والذين احببتهم - حتى تلك اللحظة - حبا عاقرا عقيما . كانوا يرزحون تحت نير ثقيل ، ففي طاقتي ان احررهم . وكانوا مشتتين ، ففي مستطاعي ان اجمع شملهم . ان الغنى والبحبوحة اللذين إفاءهما الله عليّ ممكنٌ اسباغهما عليهم ايضا . الم نكن اربعة ؟ اننا اذا قسمنا العشرين ألف جنيه ، في ما بيننا جميعا بالتساوي ، لاصاب كلا منا خمسة الاف جنيه - وهو مبلغ كاف واكثر من كافٍ : انه يحقق العدالة للجميع ، ويكفل السعادة المتبادلة . وعندئذ لم تعد تلك الثروة حملا انوء تحت ثقله . انها ما عادت مجرد تركة من مالٍ اوصي لي به ... لقد غدت ميراث حياة ، وامل ، وابتهاج .

اما كيفَ بَدَوْتُ فيما كانت هذه الافكار تقتحم عقلي اقتحاما فذلك ما لا استطيع الجزم به . ولكني سرعان ما لاحظت ان مستر ريفرز كان قد وضع خلفي كرسيا ، وكان يحاول - في تلطّف ورفق - ان يجلسني عليه . ولقد نصح لي ايضا بأن احتفظ برباطة جأشي . ولكني سخرت من تلميحه الى ضعفي وذهولي ، فرددت يده عني ، وعدت اذرع الحجرة من جديد .

وقلت له : « اكتب غداً الى ديانا وماري ، وقل لهما أن ترجعا الى البيت في الحال . لقد قالت ديانا انه خليقٌ بهما ان تعتبرا نفسيهما من اهل الثراء لو فازت كل منهما من التركة بألف جنيه ليس غير . وهكذا فأن فوز كل منهما بخمسة الاف جديرٌ بأن يجعلهما تعيشان في سعة بالغة » .

فقال سانت جون : « قولي لي من اين استطيع ان آتيك بكوب ماء . ان عليك ، في الحق ، ان تبذلي جهدا لتهدئة مشاعرك » .

- « هراء ! واي ضربٍ من التأثير سوف يخلفه الارث في ذات نفسك ؟ هل سيبقيك في انكلترة ، ويغريك بالزواج من مس اوليفر ، وبالاخلاد الى الاستقرار مثل اي بشري عادي ؟ »

« انك لتهذين . وان الاضطراب ليغلب على تفكيرك . ويخيل الي اني تعجلت فى الافضاء اليك بذلك النبأ تعجلا ما كان ينبغي لي ان اصطنعه . فقد اثار اهتياجك الى درجة عجزت قوتك عن احتمالها » .

- « مستر ريفرز ! انك لتخرجني عن طوري ، فانا مالكة زمام عقلي ، وانك انت الذي تسيء فهمي ، او على الاصح تتظاهر بأساءة فهمي » .

- « حاولي ان تشرحي رأيك على نحو اوسع بعض الشيء ، فلعلي عندئذ ان اوفق الى فهمك فهما أفضل » .

- « اشرح ؟ وهل ثمة ما يحتاج الى شرح ؟ انك لن تعجز عن ادراك

هذه الحقيقة البسيطة ، وهي ان عشرين الف جنيه ـ المبلغ الذي هو موضوع البحث ـ اذا قُسمت بالتساوي بين ابنة أخ الفقيد واولاد اخته الثلاثة تورّث كلا منهم خَمسة الاف جنيه • وكل ما اريده منك هو ان تكتب الى اختيك وتُبلغهما نبأ الثروة التي آلت اليهما » •

ـ « تعنين •• التي آلت اليك » •

ـ « لقد ادليت اليك برأيي في المسألة ، واني غير قادرة على اعتناق اي رأي اخر • انا لست انانية على نحو وحشي ، ظالمة على نحو اعمى ، منكرة للجميل الى حد جهنمي • والى هذا ، فقد عقدت العزم على ان يكون لي بيت وانسباء • انا احب « مور هاوس » ، ولسوف اقيم في « مور هاوس » • انا احب ديانا وماري ، ولسوف اشد نفسي ـ مدى الحياة ـ الى ديانا وماري • انه ليسعدني وينفعني ان املك خمسة الاف جنيه ، وانه ليعذبني ويضايقني ان املك عشرين الف جنيه • والى هذا ، فأن هذه العشرين الف جنيه لا يمكن ان تكون ملكي في منطق العدل وان تكن قد امست ملكي في منطق القانون • وهكذا فأني اتخلى لكم عن شيء فائض عن حاجتي بكل ما في الكلمة من معنى • ورجائي اليك ان تكفّ عن كل معارضة لذلك ، وعن كل مناقشة فيه • فلنتفاهم في ما بيننا ، ولنحسم الامر في الحال »

ـ « انك تصدرين الان عن حوافز آنية ، على حين ان الواجب يقتضيك ان تسلخي اياما متعددة في تقليب الرأي في مسألة مثل هذه قبل ان يصبح في الامكان ان تُعتبر كلمتك وجيهة » •

ـ « اوه ! اذا كان كل ما ترتاب فيه هو اخلاصي في ما اقول كنت بذلك راضية : هل ترى عدالة القضية ؟ »

ـ « الواقع اني اري بعض العدالة ، ولكنها عدالة منافية لكل عرف • والى هذا فأن الثروة بكاملها حق من حقوقك • لقد كسبها خالي بجهوده الخاصة ، ولقد كان له ملء الحرية في تركها لمن يشاء : وانما تركها لك انت • وايا ما كان ، فان العدالة تجيز لك الاحتفاظ بها : ان في ميسورك ، بضمير مرتاح ، ان تعتبريها ملكا خالصا لك » •

فقلت : « المسألة بالنسبة الي هي مسألة شعور بقدْر ما هي مسألة ضمير : أن علي ان اطيع احاسيسي وادللها ، فنادرا ما اتيحت لي فرصة الاقدام على ذلك • ولو قد آثرتَ ان تجادلني ، وتعارضني ، وتضايقني سنة كاملة لما استطعت ان اتخلى عن المتعة اللذيذة التي قدُر لي ان المح منها وميضا ـ متعة الوفاء ، على نحو جزئي ، بالتزام ضخم ، واكتساب اصدقاء لي يقيمون على عهدي مدى الحياة » •

فاجاب سانت جون : « هذا ما تخالينه الان • لانك لا تعرفين معنى التملك ، وبالتالي معنى الاستمتاع بالثروة • انت غير قادرة على تكوين المنزلة الرفيعة التي ستمكنك من احتلالها في المجتمع ، وعن المستقبل الباسم الذي ستفتح أبوابَه' في وجهك • انت غير قادرة ••• »

فقاطعته : « وانت ايضا غير قادر ، البتة ، على تخيل التوق الذي يعتمل في نفسي الى حب الاخوة والاخوات . فلم يكن لي في ايما يوم من الايام بيت ، ولم يكن لي قط اخ او اخوات . اما الان فيتعين علي ان يكون لي ذلك ، ولسوف يكون . انت لن تأبى الاعتراف بي اختا لك ، اليس كذلك ؟»

ـ « جين ، اني سوف اكون اخاك ... وان شقيقتي سوف تكونان اختيك ، ولكن من غير ما اشتراط لهذه التضحية بحقوقك المشروعة » .

ـ « اخ ؟ اجل ، ولكن على مبعدة الف فرسخ ! اختان ؟ اجل ، ولكنهما تكدحان كدح العبيد الارقاء في بيوت الغرباء ، بينما أتخَمُ أنا بذهب لم أتعب في كسبه قط ولست استحقه ! يا له من ثراء سخيف انْعَمُ به ، على حين تخلو جيوبكم انتم من بنس واحد ! ويا لها من مساواة واخاء ! ومن نسب وثيق وقربى حميمة ! »

ـ « ولكن مطامحك الى الصلات العائلية والسعادة البيتية يمكن ان تتحقق ، يا جين ، بوسائل غير تلك التي تفكرين فيها : في استطاعتك ان تتزوجي » .

ـ « عدنا الى الهراء ، من جديد ! الزواج ؟ انا لا اريد ان اتزوج ، ولن اتزوج ابد الدهر » .

ـ « هذا ارسال للكلام على عواهنه . ومثل هذه التوكيدات الخطرة دليل على الاهتياج الذي ترزحين تحت عبئه » .

ـ « لا ، أنا لا اطلق الكلام على عواهنه : اني اعرف مشاعري الخاصة ، ومبلغ ما يخامر ذاتي من مقت لمجرد فكرة الزواج . ان ايما امرىء لن يتزوج مني بسائقٍ من الحب ، ولست ارضى لنفسي ان ينظر الناس نظرتهم الى مضاربة تجارية . انا لا اطمع في العيش مع رجل غريب .. رجل اجنبي لا يشبهني البتة ولا تشده الي اية مشاركة وجدانية . انا اريد ذوي قرباي : اولئك الذين استشعر نحوهم انعطافا وميلا بالغَيْن . قل كرة اخرى انك سوف تكون اخي ، فقد احسستُ ، حين نطقتَ بتلك الكلمات ، بالرضا والسعادة . أعِدْها على مسمعي ، اذا استطعت ، أعِدْها في صدق واخلاص ! »

ـ « احسب ان في استطاعتي ذلك . انا اعلم اني احببت ، دائما اختيَّ . واعلم على أي اساس تنهض محبتي : الاحترام لقيمتهما الذاتية والاعجاب بمواهبهما . وانت ايضا فتاة ذات مبادىء وعقل : ان اذواقك وعاداتك لتشبه اذواق ديانا وماري وعاداتهما ، ولقد طالما أنستُ بالاجتماع اليك ، ووجدت في حديثك ـ منذ فترة بعينها ـ عزاء نافعا . انا استشعر ان باستطاعتي ، في يُسر وعلى نحو طبيعي ، ان افسح لك مجالا في قلبي ، بوصفك ثالثة اخواتي واصغرهن سنا » .

ـ « اشكرك : هذا يكفيني لهذه الليلة . والان ، من الخير لك ان تمضي لسبيلك . لانك اذا لبثت مدة اطول كان من الجائز ان تثيرني من جديد ببعض وساوسك المرتابة » .

ـ « والمدرسة ، يا مس ايير ؟ يجب ان نعمـــد الان ، في ما احسب ، الى اغلاقهـــا » ٠

ـ « سوف احتفظ بوظيفتي كمعلمة الى ان تجد بديلا عني » ٠

فافتر ثغره عن ابتسامة راشحة بالموافقة ٠ وصافحني ، وانصرف ٠

ولست في حاجة الى ان اروي ، في اسهاب ، ضـــروب النضال التالية التي خضتها والحجج التي اصطنعتها لكي أسوي المسائل المتصلة بالارث وفق ما أشاء ٠ لقد كانت مهمتي شاقة جدا : ولكن لما كنت قد عقدت النية عقدا لا انفصام له ٠٠٠ ولما كان ابناء عمتي قد رأوا اخر الامر اني كنت مصممـة تصميما حقيقيا لا رجعة عنه على قسمة الثروة بيننا بالتساوي ٠٠٠ ولما كانوا قد استشعروا في قرارة نفوسهم عدالة تلك القسمة ٠٠٠ ولما كانوا الى ذلك قد ادركوا على نحو غَرَزي انهم لو كانوا مكاني اذن لفعلوا مثل الذي رغبت في فعله على وجه الضبط ٠٠٠ فقد وافقوا اخر الامر على عرض المسألة على هيئة المحكَّمين ٠ وكان القاضيان اللذان اختيرا لهذه المهمة هما مستر اوليفر وأحد المحـامين المقتدرين ٠ وأقرَّني كـــلا الرجلين على رأيي ، فوُفِّقت الى تحقيق ما سعيت بسبيله ٠ واعدَّت وثائق التنازل ٠ واصبح كل منا نحن الاربعة ، انا وسانت جون وديانا وماري ، يملك ثروة كافية ٠

٣٤

ولم يكد كل شيء يُسَوَّى حتى كان عيد الميلاد قد دنا ، وحتى كانت فترة العطلة العامة قد اقتربت ٠ عندئذ اغلقت ابواب مدرسة مورتون ، باذلة جهدي لكي اجعل الفراق غير عقيم ، من ناحيتي ٠ ان الحظ السعيد ليفتح اليد كما يفتح الفؤاد على نحو يدعو الى الاعجاب ٠ ونحن حين نعطي شيئا ما من أصـــل ما تلقيناه بغير حساب انمـــا نتيح مُتنَفَّسا لغليـــان احاسيسنا الاستثنائي ٠ وكنت استشعرت ، في ابتهاج ، منذ فترة غير يسيرة ، ان كثيرا من طالباتي الريفيات قد احببنني ، حتى اذا افترقنا استيقنت من حقيقة ذلك الشعور : لقد عبرن عن محبتهن في بساطة وفي قوة ٠ ولشد ما كان سروري عظيما عندما وجدت اني احتل ، فعلا ، مكانا رفيعا في قلوبهن الطاهرة : لقد وعدتهن بأن لا يعبر بي في المستقبل ، اسبوع واحد من غير أن اقوم بزيارة لهن في المدرسة ، ومن غير ان اعطيهن درسا يستغرق ساعة كاملة ٠

ووفد مستر ريفرز علينا لحظة استعرضت الطـــالبات ، اللواتي كان عددهن قد بلغ ستين ، وقد انصرفن من المدرسة على نحو نظامي ، ولحظةَ اوصدت الباب ووقفت والمفتاح في يدي اتبادل بضع كلمات وداعية خاصة مع نصف دزينة من افضـــل طالباتي : فتيات كان خليقـــا بالمرء ان لا يجد في طول الريف البريطاني وعرضه نساء يَفُقْنَهُنْ أدبا وقَدْرا ، وخفرا ، وحسن اطّلاع ٠ وليس بالقليل هذا المديح ٠ لان أهل الريف البريطاني اعلى ثقافة ، وخيرٌ اخلاقا ، واشد احتراما للنفس من ابناء الريف في ايما بلد اوروبي اخر ٠

فقد قُدّر لي منذ تلك الايام ان القى كثيرا من الريفيات فبدا لي أن خيرهن كن جاهلات ، جافيات ، حمقاوات بالقياس الى فتياتي المورتونيات .

وسألني مستر ريفرز عندما انصرفن : « هل تعتبرين انك فزت بالثواب الذي تستحقينه لقاء شهور الكدح التي أنفقْتِها هنا ؟ أليس في شعورك بأنك قد اسديت خدمة حقيقية ما لابناء عصرك وجيلك ما يوقع في نفسك البهجة ؟ »

ـ « من غير ريب » .

ـ « وأنتِ لم تكدحي الا شهورا قليلة جـدا ! أليس خليقا بالحياة الموقوفة لخدمة ابَناء جنسك ان تكون حياة قد أنفِقت على وجه صالح ؟ »

فقلت : « أجل ، ولكني لا استطيع ان اسلخ العمر كله على هذا النحو . انا ارغب في ان استمتع بملكاتي الخاصة بقدْر رغبتي في تثقيف ملكات الاخرين . بل ان علي ان استمتع بها الان ، فلا تَدْعُ عقلي أو جسدي للعودة الى المدرسة . اني الآن خارج بابها ، واني لعلى اتم الاستعداد لولوج باب العطلة الكاملة » .

عندئذ ران على وجهه الغم . وقال : « ثم ماذا ؟ ما هذه اللهفة المفاجئة التي تتكشَّفين عنها ؟ ما الذي تعتزمين ان تفعليه ؟ »

ـ « ان انشط ... ان انشط ما وسعني ذلك . وقبل كل شيء يتعين علي ان اتوسل اليك ان تحرر حنة ، وتعهد في أمر السهر على راحتك الى شخص آخر » .

ـ « وهل تريدينها ؟ »

ـ « اجل ، اريد ان تصحبني الى «مور هاوس» . ان ديانا وماري سوف ترجعان الى البيت بعد اسبوع ، وانا اريد ان يكون كل شيء مرتبا استعدادا لاستقبالهما » .

ـ « الان فهمت . ولقد ظننت بادئ الامـر انك تودين الابتعاد عن المنطقة في رحلة ما . ان ما وطنت النية عليه خير" وابقى . وحنـة سوف تذهب معك » .

ـ « قل لها اذن ان تكون مستعدة غدا لمرافقتي . وهـاك الان مفتاح المدرسة . اما مفتاح كوخي فسوف اعطيك اياه في الصباح » .

وتناوله مني وقال : « انت تتخلين عنه في جذل بالغ . والواقع اني لا أفهم تماما سر طربك . لانني اجهل ماهية العمل الذي تعتزمين ان تتخذي منه بديلا عن ذلك الذي تهجرينه . تُرى أي هدف وأي غرض وأي مطمح لك في الحياة الان ؟ »

ـ « ان هدفي الاول سوف يكون العمل على تنظيف مور هاوس تنظيفا شاملا (هل تدرك كامل القوة التي ينطوي عليها هذا التعبير ؟) من الحجرات الى القبو . ثم فركه بشمع العسل ، والزيت ، وبعدد لا يحصى من الخرق ، حتى يعاود ائتلاقُه كرة اخرى . أما هدفي الثالث فسيكون ترتيب كل كرسي ، ومائدة ، وسرير ، وسجادة ، في دقة رياضية . وبعد ذلك سأمضي

الى حد دفعكم الى شفير الافلاس بسبب من الاموال الباهظة التي سأنفقها على الفحم الحجري والتراب النفطي ابتغاء ايقاد نارٍ شديدة الضِّرام في كل حجرة . واخيرا فان اليومين اللذين يسبقان موعد وفود اختيك سوف يخصصان من جانبي وجانب حنة لخفق البيض ، وتصنيف الزبيب ، وسحق التوابل ، واعداد حلوى عيد الميلاد ، وتهريم المواد الضرورية للفطائر الدقاق ، واقامة بعض الشعائر الطبخية الاخرى على نحو لا تستطيع الكلمات ان تحمل عنه ، الى امثالك من اللامطّلعين على اوليات الفن ، الا فكرة غير وافية . وبالاختصار، فان غرضي هو ان تكون الاشياء كلها في اكمل حال من الاستعداد لوفود ديانا وماري ، قبل يوم الخميس القادم . ومطمحي ان استقبلهما ، حين تفِدان ، استقبالا مثاليا » .

فافترّت شفتا سانت جون عن ابتسامة واهنة : كان لا يزال غير مقتنع.

وقال : « كل شيء حسن جدا بالنسبة الى اللحظة الحاضرة . ولكني أرجو ، جديا ، ان اجدك ، حين تنحسر موجة الحماسة الاولى ، تتطلعين الى ما هو اسمى بعض الشيء من ضروب التودد العائلي والمباهج البيتية » .

فقاطعته : « ولكن هذه هي خير ما يملكه العالم » .

— « لا ، يا جين ، لا . هذا العالم ليس موطن ابتهاج ، فلا تحاولي أن تجعليه كذلك . وليس موطن راحة ، فلا تجعليه كسولا » .

— « اني اعتزم ، على العكس ، ان اعمل في همة ونشاط . »

— « اني اعذرك ، مؤقتا ، يا جين . وامنحك مهلة شهرين للاستمتاع الكامل بوضعك الجديد ، ولابهاج نفسك بسحر القربى هذا الذي لم تكتشفيه الا مؤخرا . أما بعد انقضاء هذين الشهرين فأرجو ان تشرعي في التطلع الى ما وراء « مور هاوس » ومورتون ومجتمع الاخوات الضيق ، والسكون الاناني والرفه الحسي الملازمين للبحبوحة المتمدنة . ارجو ان تعود طاقاتك الى ازعاجك ، كرة اخرى ، بقوّتها ونشاطيتها . »

فنظرت اليه في دهش ، وقلت : « سانت جون ، يخيل اليَّ انك يجب ان تكون شريرا ، تقريبا ، حتى تتكلم على هذا النحو . ايراودني نزوع الى التمتع بالطمأنينة ، مثل ملكة من الملكات ، وتحاول انت ان تدفع بي الى دنيا القلق ؟! أية غاية تطمع في تحقيقها من وراء ذلك ؟ »

— « أنا اطمع في ان ارى الناس يفيدون من المواهب التي آثرك الله بها وجعلها امانة لديك ، والتي لا بد ان يسألك ذات يوم ان تقدمي اليه عنها حسابا دقيقا . اني سوف اراقبك عن كثب وفي لهفة ، يا جين ، فخُذي حِذرك . وحاولي ان تكبحي جماح الحماسة البالغة التي تندفعين بها نحو المباهج البيتية المبتذلة . لا تتشبثي بهذا الاصرار كله ، بروابط الجسد . ادّخري جلَدك وحماستك لقضية لائقة . اجتنبي تبديدهما في اشياء تافهة زائلة . هل تسمعين ما أقوله ، يا جين ؟ »

— « نعم ، تماما وكأنك تتكلم باللغة اليونانية . أنا أشعر ان التماسي

السعادة هو في ذات نفسه قضية لائقة ، **ولسوف** انعم بالسعادة · الى اللقاء ! »

والواقع اني نعمْتُ في « مورهاوس » بالسعادة ، واني عملت في جد ونشاط · وكذلك كان شأن حنة : لقد فتنها ما رأت من عظيم ابتهاجي وسط صخب بيت قُلب رأسا على عقب ، وما تكشفتُ عنه من براعة في نفض الغبار ، والفرك بالفرشاة وفي التنظيف والطهو · وكان مما ابهج نفسينا ، في الواقع بعد يوم او يومين من الفوضى المُبلبَلة ، ابهاجا تدريجيا ان نستخرج من ذلك العماء الذي احدثناه بأيدينا نظاما وترتيبا · وكنت قد شخصت قبل ذلك الى بلدة س··· لاشتري بعض الاثاث الجديد ، بعد ان فوضني ابناء عمتي باجراء أية تعديلات تحلو لي ، وبعد ان أفرِد مبلغ من المال لهذا الغرض · لقد تركت حجرتي القعود والنوم العاديتين مثلما كانتا تقريبا ، ذلك بأني ادركت ان ديانا وماري خليق بهما ان تسعدا بتكحيل طرْفيهما من جديد برؤية الطاولات والكراسي والسرر القديمة الساذجة أكثر مما تسعدان بمشهد التجديدات الاشد امعانا في الاناقة · ومع ذلك فلم يكن من بعض التجديد بُد لكي اضفي على عودتهما تلك الروعة التي رغبتُ في ان تُجَلبَب بها · وانما حققت هذه الغاية من طريق شرائي بعض البسط والستائر الجديدة الانيقة الداكنة ، ومجموعة من التحف العتيقة المصنوعة من الخزف والبرونز اختيرت في كثير من العناية ، واغطية ومرايا ، وصناديق تجميل لموائد الزينة جديدة · لقد بدت كلها ناضرة من غير أن تكون متوهجة · وكان ثمة حجرة استقبال وحجرة نوم احتياطيتان فأعدت تأثيثهما اعادة كاملة برياش مصنوع من خشب الماهوغاني ومجلَّل بنسيج قرمزي · حتى اذا تم لي ذلك كله اعتبرت «مورهاوس» نموذجا كاملا للاناقة المشرقة المتواضعة ، من داخل ، بقدر ما كان ، في هذا الفصل ، نموذجا للاقفار الشتوي وللوحشة الصحراوية من خارج ·

واخيرا أطل يوم الخميس المشهود · وكان وصولهم مرتَقَبا حوالي العتمة · وقبل الغسق اضرِمت النيران في مواقد الدورين الاعلى والادنى · وكان المطبخ في ذروة النظام والترتيب · ورفلت انا وحنة بحُلَل قشيبة ، وكان كل شيء مُعدًّا ·

وكان سانت جون اسبق الثلاثة الى الوصول · وكنت قد رجوته ان ينأى بنفسه عن البيت ريثما يرتَّب كل شيء · والواقع ان مجرد التفكير في ذلك الهرج والمرج ، الحقيرين التافهين ، القائمين على قدم وساق ضمن جدرانه كان كافيا لترويعه حتى النفور · وألفاني ، لدن وصوله ، في المطبخ ، اشرِفُ على اعداد بعض الكعك المُحلَّى للشاي وخَبْزِه · فدنا من الموقد وسألني : « هل رضيتِ نفسك ، اخر الامر ، باداء مهام الخدم هذه ؟ » فكان جوابي ان دعوته الى مرافقتي لالقاء نظرة عامة على ثمرة اعمالي تلك · وفي شيء من العسر اقنعته بالقيام بجولة في البيت · فكان يكتفي بالوقوف لدى الابواب التي فتحتُها وبالقاء نظرة على الحجرات من غير ان يدخلها · حتى اذا

طاف بالدورين العلوي والسفلي قال اني لا بد ان أكون قد كلفتُ نفسي قدرا كبيرا من المشقة والبلاء لكي اجري هذه التغييرات الضخمة كلها في مثل تلك المدة الوجيزة • ولكنه لم ينطق بأية كلمة تنم عن ابتهاجه بمظهر بيته المحسَّن •

واخمد صمته ذاك جذوة حماستي • وخيل الي ان التعديلات كانت قد عدَت على بعض الذكريات القديمة العزيزة على قلبه فحرمتْهُ منها • وسألته ، في جرْس ذليلٍ من غير ريب ، هل صحيح ما خيل الي أم لا • فأجابني قائلا :

ـ « لا على الاطلاق • على العكس ، لقد لاحظت انك قد احترمت ، في حرص بالغ ، كل ذكرى من تلك الذكريات • والواقع اني اخشى ان تكوني قد اوليت المسألة من تفكيرك اكثر مما تستحق • فكم من دقيقة ، مثلا ، كرّستها لدراسة ترتيب هذه الحجرة بالذات ؟ وبالمناسبة ، هل تستطيعين ان تقولي لي أين يوجد كتاب كذا وكذا ؟

فأريته المجلد على الرف ، فأنزله عنه ، وانسحب الى مجلسه المألوف عند فجوة النافذة ، وانشأ يطالعه •

والواقع ان ذلك لم يرق لي ، ايها القارىء • كان سانت جون رجلا صالحا ، ولكني بدأت اشعر بأنه صدق في وصف نفسه عندما قال انه صلب وبارد • فلم يكن لمسرات الحياة ولسماتها البشرية أي سلطان عليه ، ولم يكن يجد في مباهجها الوادعة أي فتنة • صحيح انه لم يعش ، بالمعنى الحرفي للتعبير ، الا للتطلع والطموح لما هو صالح وعظيم ، ولكنه كان يأبى ان يستريح ابد الدهر ، ويُنكر على الاخرين ان يستريحوا من حوله • وفيما كنت ارنو الى جبينه الشامخ ، الساكن الشاحب مثل حجر ابيض ، والى ملامحه الدِقاق المركزة على صفحة كتابه ـ ادركت فجأة انه لن يكون زوجا ناجحا الا بشق النفس ، وان التي قد يقدَّر لها الزواج منه سوف تلقى عنتا ورَهْقاً بالغين • وفهمت ، وكأنما بمثل الالهام ، طبيعة حبه لمس اوليفر ، ووافقتُهُ على انه لم يكن غير حب حسي • لقد ادركت الى أي مدى كان يخلق به ان يزدري نفسه بسبب من ذلك السلطان المحموم الذي فرضه حبها عليه ، ومدى توقه الى خنقه وتحطيمه ، ومدى ارتيابه في قدرة ذلك الحب على ايقاع السعادة على نحو سرمدي في ذات نفسه او ذات نفسها • لقد رأيت انه كان من ذلك المعدن الذي تبدع الطبيعة منه ابطالها ـ المؤمنين والوثنيين ـ وواضعي شرائعها ، وسياسييها ، وقوادها الفاتحين ، وانه كان حصنا منيعا تعتصم فيه القضايا الكبرى • أما حين يجالسك على مقربة من المدفأة فكثيرا ما يكون اشبه بعمود ثقيل ، بارد ، كئيب ، وفي غير محله •

وقلت في ما بيني وبين نفسي : « ان حجرة الاستقبال هذه ليست ميدانه • وخليق بسلسلة جبال هيمالايا ، او دغل « قافر » ، وحتى مستنقعات ساحل غينيا الموبوءة بالطواعين ، ان تلائمه اكثر • ان في وسعه ان يجتنب هدوء الحياة البيتية ، فهو لم يُخلق لها : ان ملكاتِه لتصاب هناك بالركود

ـ انها لا تستطيع ان تنمو ، او تبرز على نحو ينمّ عن ميزاتها • لقد خُلق للكلام والحـــركة في مواقف الكفاح والخطر ـ حيث تُمْتَحن الشجــاعة ، وتصطنع الطاقة ، وترهق القوة ـ فهناك يحظى بالتفوق وينهض بعبء القيادة • أما امام هذا المستوقد فخليق" بأيما طفل مــــرح أن يبزّه • انه لمصيب في اختياره حياة التبشير ••• هذا شيء اصبحت ادركه الان » •

وصاحت حنة ، وهي تفتح باب حجرة الاستقبال فجأة : « انهما مقبلتان ! انهما مقبلتان ! » وفي تلك اللحظة نفسها نبح « كارلو » العجوز في ابتهاج • وثبتُ مندفعة" الى الخارج • كانت العتمة قد هبطت ، ولكني استطعت ان اسمع قرقرة عجلات عربة • وفي الحال اضاءت حنة مصباحا • وكانت العربة قد توقفت عند البوَيْب : وفتح الحوذي البـــــاب ، فترجل منها اولا شكل مألوف لدي ، ثم شكل آخر • وما هي غير دقيقة واحدة حتى غاب وجهـي تحت قبعتيهما ، ملامسا اول الامر وجنة ماري الناعمة ثم حُلَيقات شعر ديانا المنسدلة • وضحكتا ، وقبّلتاني ، ثم قبلتا حنة ، وربّتتا على ظهر كارلو الذي استبدت به البهجة حتى السُعار ، وسألتاني في لهفة ما اذا كان كل شيء جاريا وفق المرام • حتى اذا اكدتُ لهما ذلك اندفعتا الى داخل البيت •

كانت اوصـــــالهما قد تصلّبت بسبب من رحلـــة العربة الطـــويلة المُتَخَضخِضَة من هويتكروس ، وكانتا مقرورتين بهواء المساء المثـــلوج • بيد أن قسَماتهما العذبة ما لبثت ان انبسطت أمام ضياء النار البهيجة • وفيما كان الحوذي وحنة يدخلان الحقائب الى البيت سألتا اين سانت جون • وفي تلك اللحظة اقبل من حجرة الاستقبال ، فطوقت كل منهما ، في آن معا ، عنقه بذراعيها • فقبلهما قبلتين هادئتين ، وفي صوت خفيض رحب بهما ببضع كلمات ، ثم اعتصم بالصمت لحظات ريثما تتحدثان هما اليه • حتى اذا ألمع اخر الامر الى اعتقاده بأنهما لا بد ان تلحقا به ، وشيكا ، الى حجرة الاستقبال ، انسحب الى هناك وكأنه يَفْزَع الى ملاذ او ملجأ •

وكنت قد اضأت شمعتيهما لكي تصعدا الى الدور الاعلى ، ولكن ديانا تريثت بعض الشيء لكي تصدر امرها بأكرام الحوذي • حتى اذا تم لها ذلك مضت كلتاهما في اثري • لقد سُرّتا بما ادخلتُ على حجرتيهما من تجديد وزخرفة ، واعجبتا بالستائر والبسط الجديدة ، وبالزهريات الخزفية المصبّغة على نحو سخي • وعبّرتا ، بطِيْب نفس ، عن تقديرهما لما فعلت • وابتهجتُ اذ شعرت ان ترتيباتي تلك جاءت وفق رغباتهما تماما ، وان ما قمت به قد اضاف الى عودتهما البهيجة الى البيت سحرا نابضا بالحياة •

كانت تلك الليلة ليلة عذبة حقا • وكانت بنتا عمتي ، المفعمتان بالمسرة ، تفيضان فصاحة في الروايــة والتعليق على نحو حجَبَ جنـــوح سانت جون للصمت : كان سعيدا من غير ريب برؤية اختيه ، ولكنه لم يستطع ان يشاركهما حماستهما وتدفُّقَ حبورهما • لقد سره حَدَثُ اليــــوم ـ اعني عودة ديانا وماري ـ ولكن ما رافق ذلك الحدث من صخب جذلان ، واستقبال طرب

مهذار ، أثاره واضجره : لقد لمحت انه كان يتوق الى انبلاج فجر الغد الاحفل بالهدوء . وفي اوج ابتهاجنا بتلك الليلة بالذات ، بعد ان تناولنا الشاي بساعة او نحوها ، سمعنا الباب يُقرع قرعا خفيفا ، ودخلت حنة علينا لتعلمنا ان ولدا بائسا قد اقبل ، في تلك الساعة غير المناسبة ، ليطلب الى مستر ريفرز ان يمضي معه الى حيث كانت امه تحتضر .

ـ « أين تقيم هذه المرأة ، يا حنة ؟ »

ـ « عند قنة هويتكروس ، على مبعدة اربعة اميال تقريبا . ان الطريق الى هناك كلها طحالب ومستنقعات » .

ـ « قولي له انني سوف اذهب » .

ـ « من الخير لك ان لا تفعل ، يا سيدي . انا على مثل اليقين من هذا . فتلك الطريق هي اسوأ طريق يمكن للمرء ان يجتازهـا بعد هبوط الليل . والواقع انك لن تجد عبر ذلك المستنقع كله أثرا لقدم . ثم ان الليلة قارسة ، والريح عاتية الى حد لم يُسبَق الى مثله . ولعله من الافضل لك ، يا سيدي ، ان تُعلم القوم انك سوف تفِدُ عليهم في الصباح » .

ولكنه كان قد امسى الان في الرواق ، حيث ارتدى معطفه ، ومضى لسبيله من غير اعتراض ، او همهمة . كانت الساعة قد بلغت التاسعة حين انطلق ، وكان الليل قد انتصف عندما عاد . والواقع انه كان جائعـا جدا ، متعبا جدا ، ولكنه بدا اسعد مما كان عند انطلاقه . كان قد ادى واجبا ، وبذل جهدا ، واستشعر قوته على العمل وانكار الذات ، فهو الان راضٍ عن نفسه اكثر من ذي قبل .

وطوال الاسبوع الذي تلا امتُحِن اصطبار سانت جون ، في ما احسب ، بأشد البلاء واقساه . كان هو اسبوع عيد الميلاد : اننا لم نعكف خلاله على اي عمل ثابت مستقر ، بل انفقناه في ضروب من العبث المنزلي المرح . وكان لهواء السباخ ، والتحرر المنزلي ، وفجر الرخاء مثل الاكسير المحيي في نفسَيْ ديانا وماري ، فهما ترفلان بالبهجة من الصباح حتى الظهيرة ، ومن الظهيرة حتى المساء . كان في ميسورهما ان تتحدثا على نحو موصول . ولقد وجدت في حديثهما الفكه ، الخصب ، الاصيل مفاتن كثيرة اغرتني بأن أؤثر الاستماع اليه والمَشاركة فيه على القيام بأيما عمل اخر . ولم ينتهرنا سانت جون على ما انغمسنا فيه من مرح ، ولكنه نأى بنفسه عنه : كان نادرا مـا يلبث في البيت . لقد كانت ابرشيته مترامية الاطراف ، وكانت رعيته متناثرة في ارجائها ، ولقد وجد في زيارة المرضى والفقراء في مختلف بقاعها عملا يملأ وقته كل يوم على نحو موصول .

وذات صباح ، وكنا نتناول الفطور ، سألته ديانا بعد ان استغرقت في التفكير بضع دقائق : « الا تزال خططك على حالها لمّا تتبدل ؟ »

فكان جوابه : « انها لمّا تتبدل ، وانها غير قابلـة للتبديل . » ومن ثم انبأنا ان موعد مغادرته انكلترة قد حُدِّد الان ، وان ذلك سيتم في العـام

التالي ٠

فقالت ماري : « وروزاموند اوليفر ؟ » وقد بدا وكأن هاتين الكلمتين ندتا من شفتيها على نحو غير ارادي ، اذ انها ما كادت تنطق بهما حتى اومأت ايماءة خيل الي وكأنها انما قصدت بها الى استردادهما ٠ وكان في يد سانت جون كتاب ــ اذ كان من عاداته غير الاجتماعية ان يطالع خلال تناول الطعام ــ فطواه ، ورفع بصره قائلا :

ــ « روزاموند اوليفر على وشك ان تُزوَّج من مستر غرانبي ، وهو واحد من اكرم ابناء بلدة س ٠٠٠ محتدا واشرفهم مكانة ، وحفيد السير فريدريك غرانبي ووريثه ٠ ذلك شيء انبأني به ابوها ، امس » ٠

نظرت كلٌ من شقيقتيه الى الاخرى ، ثم نظرتا الي ٠ ونظرنا ثلاثتنا بعد ذلك اليه : كان رائقا باردا كالبلور ٠

وقالت ديانا : « يجب ان تكون الخطبة قد تمت على عجل ٠ اذ ما كان في ميسور احدهما ان يعرف الاخر معرفة طويلة » ٠

ــ « لقد تعارفا منذ شهرين ليس غير ٠ وانما كان اول لقاء بينهما في شهر تشرين الاول (اكتوبر) في حفلة المقاطعة الراقصة في بلدة س ٠٠٠ ولكن حيث لا عقبات تعترض الزواج ، كما هي الحال في هذه القضية ٠ وحيث يكون القران مرغوبا فيه كيفما نظرت اليه ، فلا محل للتأخير ٠ ان كل ارجاء خليق به ان يكون ، ثمة ، امرا غير ضروري ٠ وهكذا سيتم زواجهما حالما يُنجز اعداد « قصر س ٠٠٠ » ــ الذي تخلى السير فريديك لهما عنه ــ لاستقبالهما » ٠

وحين وُفقت للمرة الاولى بعد اعلان هذا النبأ الى الاجتماع بسانت جون على انفراد استشعرت رغبة ملحة في استطلاع امره ومعرفة ما اذا كان الحدث قد اوقع في نفسه اسىً بالغا ، ولكنه بدا غير محتاج الى العطف البتة ، فلم اغامر بمواساته ، بل خامرني شيء من الخجل اذ تذكرتُ ما كان قد سلف لي ان خاطرتُ به من ذلك ٠ والى هذا ، فاني لم اعد آلفُ عادة التحدث اليه : كان الجليد قد كسا تحفظه كرة اخرى ، وكانت صراحتي قد انجمدت تحته ٠ ولم يفِ بوعده اياي ان يعاملني كما يعامل اختيه ٠ فقد ظل يميز بيني وبينهما ، على نحو موصول ، تمييزا ضئيلا اخمد جذوة المودة ولم يتح لها في مجال النماء البتةَ ٠ وبكلمة مختصرة ، استشعرت الان ، بعد ان عرفت فيه نسيبا لي وعشت معه تحت سقف واحد ، ان الشقة بيننا امست اوسع بكثير مما كانت يوم لم يعرفني الا كمعلمة في مدرسة قروية ٠ وحين تذكرت الى اي حد فتح لي قلبه ، ذات مرة ، استغلق علي فهمُ برودته الحالية ٠

واذ كان الامر كذلك فقد استشعرت دهشا غير يسير البتة عندما رفع رأسه فجأة عن منضدته التي كان منحنيا فوقها ، وقال :

ــ « وهكذا ترين ، يا جين ، اني خضت غمار المعركة وخرجت منها منتصرا » ٠

واذ اجفلتُ لتوجيهه الخطاب الي على هذا النحو فأني لم اعمد الى الرد عليه في الحال • وبعد لحظة من التردد قلت :

ـ « ولكن اواثق انت من انك لست في وضع كوضع اولئك الفاتحين الذين كلفتهم انتصاراتهم ثمنا اغلى مما ينبغي ؟ الن يؤدي انتصار اخر مماثلٌ الى القضاء عليك ؟ »

ـ « لست اظن ذلك • وحتى لو كان هذا صحيحا فأنه لن يعني شيئا كثيرا • انا لن ادعى ابد الدهر للكفاح من اجل انتصار اخر كهذا الانتصار • ان نتيجة الصراع كانت حاسمة : لقد اصبحت طريقي الان لاحبةً واضحة ، واني لاحمد الله على ذلك » •

قال هذا وارتد الى اوراقه وصمته •

حتى اذا استقرت سعادتنا المتبادلة (اعني سعادتي وسعادة ديانا وماري) على صفة احفل بالهدوء واستأنفنا عاداتنا المألوفة ودراساتنا النظامية شرع سانت جون يأنس الى البيت ويمكث فيه اكثر من ذي قبل : أصبح يجلس معنا في حجرة واحدة طوال ساعات متعاقبة • وبينا كانت ماري ترسم ، وديانا تواصل سلسلة من القراءات الآنسيكلوبيدية فرضت على نفسها (ولشد ما روعني ذلك واذهلني) القيام بها على نحو نظامي ، وبينا كنتُ انا اكدح في تعلم الالمانية كدحا ، كان هو عاكفا على تعمُّقِ ضرب من العلم الغامض خاصٍ به : اعني التضلع من لسانٍ شرقي كان يعتبر ان تعلمّه ضروري للنجاح في خططه ومشروعاته •

وكان يبدو ، خلال عكوفه ذاك ـ في زاوية من الحجرة قصية ـ ساكنا مستغرقا في الدرس الى حد غير يسير • ولكن عينيه الزرقاوين كان من عادتهما ان تهجرا كتاب النحو الغريب وتطوّفا في الحجرة ، لتتركزا في بعض الاحيان علينا نحن ، زميلاته في طلب العلم ، وتخضعانا لمراقبة فضولية بالغة • حتى اذا فاجأناهما تحدقان الينا على هذا النحو للمت كل منهما نفسها وانسحبت في الحال • ومع ذلك فانهما كانتا لا تلبثان ان تحطّا من جديد ، بين فينة واخرى ، على مائدتنا وكلهما فضول واستطلاع • وكنت اعجب لذلك واتساءل عن مِغزاه ، كما عجبت ايضا للارتياح الذي كان لا يفتأ يبديه ، على نحو نظامي ، كلما حلّت مناسبةٌ بدت لي ذات اهمية صغيرة ـ اعني زيارتي الاسبوعية لمدرسة مورتون • وكان عجبي هذا يتعاظم حتى الانشداه في الايام التي تسوء فيها الاحوال الجوية ، فيسقط الثلج ، او يهطل المطر ، او تهب ريحٌ عاتية ••• في تلك الايام كانت اختاه تطلبان الي ، في الحاح ، ان لا اذهب الى المدرسة وكان هو لا يني يستخف ، في كل مرة ، بقلقهما وجزعهما ، ويشجعني على اداء المهمة بصرف النظر عن عوامل الطبيعة ، قائلا : « جين ليست على شيء من الوهن والخَوَر اللذين ترغبان في الايحاء بهما اليها • ان في ميسورها ان تحتمل ريحا جبلية ، او وابلا من مطر ، او بضع رقاقات من ثلج بقَدْر ما يتحملها ايٌّ منا • والواقع ان بِنْيَتَها صحيحة ومرنة في آن

معا ، بل انها مؤهلة لاحتمال تقلبات الاحوال الجوية اكثر من كثير ممن يفوقونها قوة وبأسا » ·

وكنت اذا رجعت ، متعَبةً حتى الارهاق في بعض الاحيان ، مجهدة بالصراع ضد الاحوال الجوية ، لا اجرؤ على التشكي ، لاني لمحت ان اقل تذمر كان خليقا به ان يغيظه ويسخطه · كان الجَلَد يرضيه في جميع المناسبات ، وكان التراخي يضايقه اشد ما تكون المضايقة ·

بيد انني اجزت لنفسي ، ذات اصيل ، ان الزم البيت لاني كنت اشكو ، في الواقع ، زكاما · وهكذا مضت اختاه الى مورتون بدلا عني · لقد جلست اقرأ شيئا من شعر شيلر ، على حين راح هو يحل طلاسم اوراقه المشرقية المعقدة · حتى اذا انتقلت من الترجمة الى احد التمارين شاءت المصادفة ان انظر ناحيته ، فاذا بي الفي نفسي تحت سلطان عينه الزرقاء الآخذة باسباب المراقبة على نحو موصول · هل سلخت فترة طويلة في التحديق الي وتفحُّصي مرة بعد مرة ؟ لست ادري · لقد كانت تلك العين ثاقبة الى حد بالغ ، ولكنها مع ذلك باردة اكثر مما ينبغي ، حتى لقد غلب علي في تلك اللحظة ضرب من الايمان بالخرافات ـ لكأنني كنت اجالس في تلك الحجرة كائنا غريبا يوقع في النفس ذعرا اسطوريا ·

ـ « ما الذي تفعلينه ، يا جين ؟ »

ـ « ادرس اللغة الالمانية » ·

ـ « انا اريد منك ان تطرّحي الالمانية وتتعلمي الهندستانية » ·

ـ « انت غير جاد في ما تقول ··· »

ـ « انا جاد الى درجة تجعل انصياعك لرغبتي امرا واجبا · ولسوف اشرح لك سبب ذلك » ·

وراح يوضح ان الهندستانية كانت اللغة التي عكف هو نفسه على دراستها آنذاك ، وانه كان عرضة ـ كلما اوغل في مجاهلها ـ لان ينسى ما تعلّمه منها باديء ذي بدء ، وان ظَفَره بطالبٍ يستعيد معه مبادئها مرةً ومرةً خليق به ان يعينه على مهمته ، اذ يمكّنه من تثبيت تلك المبادىء في ذهنه تثبيتا راسخا ، وانه تردد فترة من الزمان بين ان يختارني لهذا الغرض وبين ان يختار احدى اختيه ، ولكن اختياره استقر اخر الامر علي ، لانه لاحظ ان في ميسوري ان انكب على اداء ايما مهمة من المهام انكبابا جَلْدا تقصِّر كلتاهما عن مثله · فهل اضن عليه بهذا الفضل ؟ ثم انه ختم حديثه بالقول اني لن اضطر ، في اغلب الظن ، الى الاسترسال في التضحية برهة طويلة ، اذ لم يعد يفصله الان عن موعد الرحيل غير ثلاثة اشهر على التكثير ·

ولم يكن سانت جون بالرجل الذي يُرفض طلبه في استخفافَ : كان المرء يستشعر ان كل انطباعة من انطباعات وجهه ، سواء في حال الألم أو في حال السرور ، كانت عميقة الخطوط ثابتة · وهكذا نزلت عند ارادته · حتى اذا عادت ديانا وماري وجدت اولاهما ان تلميذتها قد تحولت عنها وتتلمذت على اخيها · فضحكَت · واجمع رأيها ورأي ماري على ان سانت جون احسن

الاختيار وانه لو حاول اقناعهما بالاقدام على مثل هذه الخطوة لما حالفه التوفيق • فأجاب في هدوء :

ـ « اعرف ذلك » •

والفَيْتُه استاذا طويل الاناة ، بالغ الجلد ، ولكنه كثير المطالب : لقد توقع مني ان ابذل جهدا عظيما • وحين حققت كل ما توقعه مني عبّر ، بطريقته الخاصة ، تعبيرا وافيا عن رضاه واستحسانه • وشيئا بعد شيء ، اكتسب سلطانا ما علي سلبني حرية التفكير : لقد كان اطراؤه والتفاتُه اكثر تقييدا لي من لامبالاته • فلم يبق في ميسوري ان اتكلم او اضحك في حرية كلما وجدتني في حضرته ، لان غريزة ملحاحة مُضجرة كانت تذكرني بان المرح ، اذا ما صدر عني انا على الاقل ، امرٌ بغيض الى نفسه • كنت اعي ان المزاج الجاد والاعمال الجادة كانت وحدها مقبولة لديه ، وكان وعيي هذا من القوة بحيث امسى كل جهد يُبذل ، في حضرته ، لسلوك ايما سبيل اخر او مواصلته عبثا لا طائل تحته : لقد هيمن علي سحر شل ارادتي • كان اذا قال لي « اذهبي » ذهبت ، او « اقبلي » اقبلت ، او « افعلي هذا » فعلت • ولكني لم احب عبوديتي تلك : لقد تمنيت ، مرات عديدة ، لو انه اقام على اهمالي واغفالي •

وذات مساء ، عندما تحلقت واختيه حوله ـ بعد ان حان موعد ايوائنا الى مضاجعنا ـ لنتمنى له ليلة طيبة طبع على جبين كل منهما قبلة ، جريا على مألوف عادته • وجريا على مألوف عادته ايضا بسط يده لي • وهنا هتفت ديانا ، التي اتفق ان جرفتها آنذاك موجة من المرح (ان ارادة سانت جون لم تستعبدها ، اذ كانت ذات ارادة لا تقل عن ارادته ، ولكن بطريقة اخرى ، قوة وبأسا) قائلة :

ـ « سانت جون ! لقد كان من دأبك ان تدعو جين اختك الثالثة • ولكنك لا تعاملها على هذا النحو : ان عليك ان تقبلها ايضا » •

ودفعتني نحوه • وحسبت أن موقف ديانا هذا مثيرٌ للغيظ حقا ، واستشعرت ارتباكا مزعجا • وفيما كنت مستغرقة هكذا في الحسبان والشعور حنى سانت جون رأسه ، وانزل وجهه الاغريقي الى مستوى وجهي ، وراحت عيناه تسائلان عينيَّ على نحو ثاقب ، وقبّلني • والواقع انه ليس ثمة شيء اسمه القبل الرخامية او القبل الجليدية ، والا لتعين علي ان اقول ان قبلة ابن عمتي الاكليركي كانت تنتسب الى واحد من هذين الضربين • ولكن قد يكون ثمة قبلٌ تجريبية ، ولقد كانت قبلته قبلةً تجريبية • ولم يكد يطبعها على جبيني حتى نظر الي ليستطلع نتيجتها • فاذا هي نتيجة رائعة : فانا واثقة من ان الدم لم يشع في وجهي ، بل لعل لون وجهي امتقع بعض الشيء ، ذلك بأني استشعرت وكأن القبلة كانت خَتْما ثُبِّت على اصفادي • ومنذ ذلك الحين لم يُغفل هذا « التقليد » البتة ، ولقد بدا وكأن الرزانة والسكون اللذين تلقيته بهما كانا يضفيان عليه ، عنده ، سحرا خاصا •

اما انا فقد ازددت ، كل يوم ، رغبة في ارضائه · ولكني استشعرت اكثر فأكثر ، يوما بعد يوم ، ان علي لكي اوفق الى هذه الغاية ان اتنكر لنصف طبيعتي ، وان اكظم نصف ملكاتي ، واحرّف اذواقي عن مجراها الاصلي ، وأُكرِه نفسي على السعي في سبيل اغراض ومطالب لم اكن اؤانس في نفسي ميلا طَبيعيا اليها · لقد ودَّ ان يرتفع بي الى سماء ما كان في ميسوري ان ابلغها البتة ، ولقد انهكني التطلع الى المثل الاعلى الذي رفعه لي انهاكا موصولا · فقد كان هذا المطلب متعذرا كتعذر افراغ قسمات وجهي غير النظامية في قالب محيّاه الكلاسيكي القويم ، او كتعذر اعطاء عينيَّ الخضراوين المتحولتين زرقة البحر التي تصبغ عينيه وذلك البريق المهيب الذي يترقرق فيهما ·

بيد ان سلطانه علي لم يكن هو وحده الذي استعبدني آنذاك · فقد كان من اليسير علي ، في الفترة الاخيرة ، ان ابدو محزونة النفس : كان بلاء مُقرّح يجثم على فؤادي ، ويصوّح سعادتي من جذورها ـ اعني بلاء التردد ·

ولعلك تحسب ، ايها القارىء ، اني قد نسيت مستر روتشيستر ، في غمرة هذه التغيرات في المواطن والحظوظ · ولكن لا ، انا لم انسَهُ لحظة واحدة · كان ذكره لا يبرح ذهني ، لانه لم يكن بخارا تستطيع اشعة الشمس ان تبدده ، او صورة مرسومة على رمل تستطيع العواصف ان تطمسها : لقد كان اسما منقوشا على لوح ، مقدّرا له ان يبقى ما بقي الرخام الذي رُقِم عليه · وكان التوق الى معرفة ما قد حل به قد لاحقني في كل مكان · فحين كنت في مورتون كان من دأبي كلما رجعت مساء الى كوخي أن افكر فيه ، والآن وانا في مور هاوس اراني لا آوي الى مضجعي كل ليلة الا لاطيل التفكير فيه ·

وخلال تراسلي الضروري مع مستر بريغز في امر الوصية كنت قد سألته ما اذا كان يعرف شيئا عن مقر مستر روتشيستر الحالي وعن صحته · ولكنه كان ، كما حدس سانت جون من قبل ، جاهلا كل ما يتصل به جهلا مطبقا · عندئذ كتبت الى مسز فيرفاكس اتوسل اليها ان تزودني بمعلوماتها عن الموضوع · وكنت على مثل اليقين من ان هذه الخطوة سوف تفي بغرضي : لقد خامرتني ثقة بأن اقدامي عليها لا بد سيعود علي بجواب عاجل · ولكني دهشت عندما تصرم اسبوعان اثنان من غير ان اتلقى اي جواب · حتى اذا انسلخ شهران ، والبريد يصل كل يوم ولا يحمل الي شيئا ، امسيت فريسة قلق ليس اعنف منه ولا اقسى ·

وكتبت كرة اخرى ، فمن يدري ؟ لعل رسالتي الاولى قد ضاعت · وكان في هذا الجهد المجدَّد ما جدَّد الامل في نفسي : لقد اشرق هذا الامل ، مثل سابقه ، طوالِ بضعة اسابيع · ومثله ايضا خبا ، بعد ذلك ، وخفق وكأنه يريد ان يلفظ انفاسه الاخيرة · اذ لم يصلني سطرٌ واحد ، بل لم تصلني كلمة واحدة · وحين تبددت شهور ستة في ترقب لا طائل تحته تلاشى املي ، وغلبت عليَّ الكآبة حقا ·

ونوّر من حولي ربيعٌ حلوٌ لم يكن في ميسوري ان استمتع به • ودنا الصيف ، وحاولت ديانا ان توقع البِشر في نفسي : لقد قالت ان علائم المرض تبدو على وجهي ، واعلنت عن رغبتها في اصطحابي الى شاطىء البحر • ولكن سانت جون عارض ذلك : لقد قال اني في غير ما حاجة الى لهو ، وان مـــا احتاج اليه هو العمل ، واضاف قائلا ان حياتي الحالية كانت خلوا من الغرض اكثر مما ينبغي ، وانني كنت في حاجة الى هدف اعمل من اجله • واحسب انه امعن في اطالة دروسي في الهندستانية ابتغاء سد هذا الفراغ وانه امسى اشد الحافا في حملي على انجازها • وكنت انا ، مثل امرأة بلهاء ، لا افكر البتة في مقاومته _ لقد عجزت عن مقاومته •

وذات يوم استهللت دروسي وانا اشد كآبة من مألوف عادتي • وانما نشأت هذه الكآبة الاستثنائية عن شعوري بخيبة امل موجعة : كانت حنة قد انبأتني في الصباح ان رسالة قد وردتني ، حتى اذا هبطت الى الدور السفلي لكي اتسلّمها ، وانا شبه واثقة من ان الزمان قد جاد علي ، اخر الامر ، بالانباء التي طالما تقت الى سماعها ، لم اجد غير مذكرة تافهة من مستر بريغز حــول قضية من قضايا العمل • وكانت الصدمة المريرة قد اعتصرت من عينيَّ بعض الدموع ، وها انا ذا الان _ وقد جلست انعم النظر في احد النصوص الهندية ، بحروفه المعقدة وصوره البلاغية المنمقة _ استشعر الخيبة المريرة فتفيض عيناي بالدمع ، كرة اخرى •

ودعاني سانت جون الى الجلوس بجانبه والبـــدء في القراءة • حتى اذا حاولت ان افعل خانني صوتي : لقد ضاعت الكلمـــات في غمرة التنهـــدات الناشجة • ولم يكن في حجرة الاستقبـــال احدٌ غيري وغيره : كانـــت ديانا تتدرب على الاداء الموسيقي في حجرة القعود ، وكانت ماري تعمل في الحديقة _ اذ كان ذلك اليوم يوما نوّاريا بالغ الجمال صافيا مشمسا ذا نسيـــم عليل الى حد بعيد • ولم يعبر رفيقي عن ايما دهش لانفعالي ذاك ، ولم يوجّه الي ايما سؤال عن سببه • لقد اجتزأ بالقول :

_ « حسنا ، سوف انتظر بضع دقائق ، ريثمـــا تصبحين اكثر هدوءا ورباطة جأش » •

وبينا كنت اخمد نوبة الانفعال في عجلة بـــالغة ظل هو هادئا صابرا ، متكئا على قمطره ، وكأنه طبيب يراقب بعين العلم ازمة متوقعة وغير مستغربة في داء مريض من المرضى • حتى اذا خنقت تنهـــداتي ، وكفكفت عبراتي ، وغمغمت بكلام ما مفاده اني كنت منحرفة الصحة ذلك الصباح ، استأنفــت عملي ووُفقت الى انجازه • وما لبث سانت جون ان نحّى كتبه وكتبي ، واغلق قمطره ، وقال :

_ « والان ، يا جين • سوف تقومين بنزهة على القدمين • وستقومين بهذه النزهة برفقتي » •

_ « سوف ادعو ديانا وماري للذهاب معنا » •

ـ « لا • انا لا اريد هذا الصباح غير رفيق واحد ، هو انت من دون الناس جميعا • ارتدي فستانك ، واخرجي من باب المطبخ • اسلكي الطريق المفضية الى رأس « مارش غلين » ، ولسوف الحق بك بعد لحظة » •

انا لا اعرف اي خطةٍ وسطٍ • بل لم اعرف طوال حياتي ، في تعاملي مع ذوي الشخصيات العملية الصارمة المناقضة لشخصيتي ، اية خطةٍ وسطٍ بين الاذعان المطلق وبين التمرد المُصِرّ • ولقد لزمت دائما احدى الخطتين التزاما امينا حتى لحظة الانتقال نفسها ـ وفي بعض الاحيان في حُمَيًّا بركانية ـ الى الخطة الاخرى • واذ كانت ظروفي الحاضرة لا تبيح التمرد واذ كان مزاجي الحالي لا يميل الى شيء من مثل ذلك فقد التزمت ، في عناية ، جانب الخضوع لاوامر سانت جون • وما هي غير دقائق عشر حتى وجدتني اسلك معه جنبا الى جنب درب الوهدة المهجور الذي عيَّنه لي •

كان النسيم يهب من ناحية الغرب : لقد اقبل عبر الهضاب مضمخا بعبير نبات الخلنج ونبات سَمار الحُصُر • وكانت السماء زرقاء لا شائبة فيها، وكان الجدول المنحدر نحو الوادي ، معززا بأمطار الربيع المنصرم ، يندفع صافيا موفورا ، متلقِّفا من الشمس ومضات ذهبية ، ومن القبة السماوية اصباغا ياقوتية زرقاء • حتى اذا تقدمنا واجتزنا الدرب ، وطئنا ارضا معشوشبة دقيقة الحاشية طحلبية النعومة ، زمردية الخضرة ، مطليَّة الوجه بزهيرات بيضاء ومزركشة برياحين صفراء اشبه ما تكون بالنجوم • وفي غضون ذلك اطبقت الهضاب علينا ، ذلك بأن الوهدة تعرجت ، عند قمتها ، حتى صميم تلك الهضاب بالذات •

ـ « فلنسترح هنا ! » كذلك قال سانت جون عندما بلغنا الشوارد الاولى من كتيبة صخور كانت تحرس شبه شِعْب من الشعاب حيث تساقط الجدول على صورة شلال ، وحيث نفض الجَبل ـ في نقطة ابعد بعض الشيء ـ عنه ضروب الاعشاب والرياحين ، فليس يكسو جسمه غير نبات الخلنج ، وليس يزين جيده غير الصخور ، وحيث استفحل المهجور فامسى وحشيا ، وانقلبت النضارة الى تجهم • هناك كان يعتصم امل العزلة النهائي ، وهناك كان يقوم اخر مفزع يلجأ اليه الصمت •

وقعدت • ووقف سانت جون على مقربة مني ، ورفع بصره الى الشِعْب ثم خفضه نحو الغور • وتاهت نظراته مع الجدول ، ثم ارتدت لتجتاز السماء الصافية التي لونَتْه • لقد نزع قبعته ، واجاز للنسيم ان يداعب شعره ويقبِّل جبينه • لقد بدا وكأنه يناجي جنيَّة تلك البقاع ، وبدت عيناه وكأنهما تودعان مخلوقا ما •

وقال في صوت مرتفع : « ولسوف اراها ، كرة اخرى ، في الاحلام ، عندما انام على ضفاف الغانج ، ولسوف اراها بعد ذلك ايضا ، في ساعة اكثر امعانا في البعد ـ عندما يقهرني رقاد من نوع اخر ـ على شاطىء نهر اشد قتاما » •

الفاظ عجيبة لحب عجيب ! عاطفة وطني صارم لارض وطنه ! وقعد ، وسلخنا نصف ساعة لم ننطق فيها بكلمة البتة . فلا هو وجه الي الخطاب ، ولا انا وجهت اليه الخطاب . حتى اذا تصرمت تلك الفترة قال لي :

ـ « جين ، سوف ارحل بعد ستة اسابيع . لقد حجزت لنفسي سريرا في سفينة من سفن شركة الهند الشرقية سوف تبحر في العشرين من حزيران (يونيو) » .

فقلت : « حماك الله . ذلك بأنك تعمل في سبيله » .

ـ « اجل ، ففي ذلك مجدي وبهجتي . انا الخادم الامين لسيد معصوم عن الخطأ . انا لا اعتزم الضرب في الارض تحت لواء قيادة انسانية خاضعة لقوانين ناقصة من وضع حشرات ضعيفة مثلي ، ولسيطرة ضالة تفرضها هذه الحشرات نفسها . ان مَلِكي ، ومشرّعي ، وقائدي ، هو الكليُّ الكمال . ومن دواعي عجبي ان لا يتحرق كل مَن حولي شوقا الى الانضواء تحت الراية نفسها ـ ان لا يشاركوا في المغامرة نفسها » .

ـ « ليس للناس كلهم مثل الذي لك من القوة . وانها لحماقة من جانب الضعفاء ان يتوقوا الى الزحف مع الاقوياء » .

ـ « انا لا اتحدث الى الضعفاء او افكر فيهم . انما اوجّه خطابي الى من هم اهلٌ لذلك العمل ، والى الذين تمكنهم كفاءاتهم من انجازه » .

ـ « هؤلاء قليل . وعسيرٌ اكتشافهم » .

ـ « حقٌ ما تقولين . ولكن ما ان نكتشفهم حتى يصبح من حقنا ان نثيرهم الى العمل .. ان نحثهم ونحضهم علي بذل الجهد ... ان ندلهم على مواهبهم ونشرح لهم السبب الذي من اجله مُنحوها ... ان نلقي في آذانهم رسالة السماء ... ان نقدم اليهم ، من لدُنِ الله مباشرة ، مكانا في صفوف اولئك الذين اصطفاهم واصطنعهم لنفسه » .

ـ « اليس خليقا بأفئدتهم ذاتها ـ اذا كانوا مؤهلين فعلا لاداء المهمة ـ ان تكون اول من يُشعرهم بذلك ؟ »

لقد شعرت وكأن سحرا رهيبا يتكون مِنْ حولي وينعقد من فوق رأسي . وارتعدت خشية ان اسمع اية كلمة ملفوظة يكون من شأنها ان تعلن ذلك السحر وتسمّره .

وسألني سانت جون : « وماذا يقول فؤادكِ **أنت** ؟ » .

فأجبت مصعوقةً مروَّعةً : « ان فؤادي ابكم .. ان فؤادي ابكم .. »

فتابع الصوت العميق الذي لا يلين : « اذن فيتعين علي ان اتكلم بالنيابة عنه . جين، امضي معي الى الهند ، امضي معي بوصفك زوجة ورفيقة نضال » .

ودار بي الوادي ، ودارت السماء . وجاشت الهضاب واضطربت ! لقد بدا وكأني سمعت دعوة من السماء ـ وكأن بشيرا غير منظور ، كبشير مقدونيا ذاك ، قد اهاب بي : « تعالي الينا وساعدينا ! » ولكني لم اكن بالرسول الذي يوحى اليه . فلم استطع ان ارى البشير ... ولم استطع ان

اتلقى نداءه ·

وصحت : « اوه ، سانت جون ! قليلا من الرحمة ! »

ولكني كنت اناشد امرءاً لا تأخذه ، في اداء ما كان يعتقده واجبه ، رحمة او تبكيت ضمير · ومن ثم واصل حديثه قائلا :

ـ « ان الله والطبيعة قد قيَّضا لك ان تكوني زوجة مبشر · ومن هنا فانهما جادا عليك بالمنح العقلية ، لا بالمنح الجسدية : لقد خُلِقت للكدح ، لا للحب · ويتعين عليك ان تصبحي ، ولسوف تصبحين ، زوجة مبشر · انك ستكونين رفيقة حياتي : انا ادَّعيك ـ لا من اجل متعتي الشخصية ، ولكن من اجل خدمة ربي » ·

فقلت : « انا غير مؤهلة لهذا · انا لا اؤانس في نفسي اي ميل اليه » ·

وكان قد توقع هذه الاعتراضات الاولى ، ومن اجل ذلك لم يثر ولم يسخط · والواقع اني استطعت ـ فيما اسند ظهره الى الصخرة الشامخة القائمة خلفه وطوى ذراعيه على صدره وثبَّت قسمات وجهه ـ ان ارى انه كان قد اعد نفسه لمعارضة طويلة مرهقة ، وانه كان قد تزود من طول الاناة بذخيرة تكفيه حتى تبلغ تلك المعارضة نهايتها ، عاقدا العزم ـ ايا كانت الحال ـ على ان تحمل اليه تلك النهاية النصر والغلبة ·

فقال : « الاتضاع ، يا جين ، هو اساس الفضائل المسيحية : لقد اصبت الحقيقة حين قلت انك غير مؤهلة لاداء المهمة · ولكن قولي لي من هو المؤهل لادائها ؟ او من هو الذي دُعي فعلا لهذا العمل ، في ايما يوم من الايام ، وآمن بأنه جدير بتلقي النداء ؟ فانا ، مثلا ، لست غير تراب ورماد · واني لاقرّ ، مع القديس بولس ، بأني اكبر الآثمين ، ولكني لا اجيز لهذا الاحساس بالدناءة الذاتية ان يروعني او يثبط عزمي · انا اعرف قائدي ، واعرف انه عادلٌ وجبار في آن معا · وانه وقد اختار اداة ضعيفة للنهوض بمهمة عظمى سوف يمد تلك الاداة ـ من ذخائر عنايته اللانهائية ـ بما يجعلها اكثر ملاءمةً للغاية المنشودة · فكري كما افكر يا جين ··· ثقي كما اثق · انما اسألك ان تستندي الى « صخرة الاجيال » لا الى اي شيء اخر · فلا يداخلنكِ ريب في انها لن تنوء بثقل ضَعْفك البشري ! »

ـ « انا لا افهم الحياة التبشيرية · ولم يسبق لي قط ان درست اعمال المبشرين » ·

ـ « هنا استطيع انا ، برغم حقارتي كلها ، ان اقدم اليك العون الذي تحتاجين اليه : في ميسوري ان اعين لك مهمتك ساعة فساعة ، ان اقف الى جانبك على نحو موصول ، ان اساعدك لَحظة بعد لِحظة · ذلك شيء في ميسوري ان أفعله في اول الامر · ولن ينقضي طويل وقت (ذلك بأني اعرف ما تتمتعين به من طاقات) حتى يتم لك من القوة والكفاءة مثل الذي تم لي ، وعندئذ لن تحتاجي الى طلب العون مني » ·

ـ « ما اتمتع به من طاقات ؟·· ولكن اين هي الطاقات التي تؤهلني

للنهوض بهذه المهمة ؟ انا لا احس بها • ان ايما شيء لا يهتف في باطني ولا يثيرني عندما تتحدث • انا لا استشعر ضياء يشع ، او حياة تتسارع ، او صوتا يرشد او يشجع • اوه ، لشد ما اتمنى لو استطيع ان اريك الى اي حد يشبه عقلي ، في هذه اللحظة ، سجنا دامس الظلام ليس في اعماقه غير خوف واحد مكبّل بالاصفاد ـ هو الخوف من ان توفق الى اقناعي فأحاول القيام بمهمة لا اقوى على انجازها ! »

ـ « ان لدي ردا على هذا ، فاسمعيه • لقد راقبتك منذ التقيتك اول مرة ، جاعلا منك محور دراستي طوال شهور عشرة • وخلال هذه المدة اختبرتك بضروب من الاختبار شتى • فما الذي رأيته واستنتجته ؟ لقد وجدت انك استطعت ان تؤدي في مدرسة القرية ، في احسان وضبط واستقامة ، عملاً غير متناغم مع عاداتك وميولك ، ورأيت انك استطعت ان تؤديه في مقدرة ولباقة : لقد استطعت ان تستميلي قلوب القوم بينا كنت تفرضين سلطانك عليهم • ومن خلال الهدوء الذي تلقيت به نبأ انتقالك المفاجيء من الفقر الى الثروة ، اكتشفتُ عقلا متحررا من رذيلة ديماس ✻ : ان الكسب المادي ليس له عليك سلطان مفرط • ففي السرعة المصممة التي عمدت بها الى قسمة ثروتك اقساما اربعة ، غير مبقية لنفسك سوى قسم واحد منها ، متخلية عن الاقسام الثلاثة الاخرى لدعوى العدل المجرد ، تبينتُ نفسا تطرب في لهب الفداء واهتياجه • وفي الوداعة التي اطرحت بها ، نزولا عند رغبتي ، دراسة كانت موضع اهتمامك وتبنيت دراسة اخرى لاني كنت انا مهتما بها ••• وفي الكد الدائب الذي اتسمت به ، منذ ذلك الحين ، مواظبتك عليها ••• وفي الطاقة اللامتراخية والعزم اللامتزعزع اللذين واجهت بهما مصاعبها ••• في هذا كله عرفت ما يكملُ الصفات التي انشدها • جين ، انت لينة العريكة ، دؤوب على العمل ، منزهة عن الاغراض ، مخلصة ، وفية ، شجاعة • وانت بالغة اللطف ، بطولية المنازع الى حد بعيد ، فكفي عن الارتياب في نفسك : ان في ميسوري ان اثق بك في غير احتياط ولا تحفظ • وخليق بمساعدتك لي ، بوصفك مديرة مقبلة لبعض المدارس الهندية وزميلة تعينني على نشر الرسالة بين النسوة الهنديات ، ان تكون مساعدة لا تقوم بمال » •

وانقبض الكفن الحديدي من حولي ، وتقدم الاقتناع في خطى بطيئة ثابتة • واغمضت عيني مرة ومرة ، ومع ذلك فقد وُفقت كلماته الاخيرة هذه الى تذليل الطريق التي بدت من قبل مسدودة ، والى جعلها سالكة نسبيا • والواقع ان المهمة التي عرضها علي والتي كانت قد بدت مبهمة جدا مائعة الى حد مغالى فيه ، ما لبثت ان كثفت نفسها تدريجيا ، بعد كل كلمة من كلماته ، واتخذت ـ تحت يده الصناع ـ شكلا محددا • وانتظر مني جوابا • فسألته ان يمهلني ربع ساعة اقلب خلالها الرأي ، قبل ان اخاطر ، كرة اخرى ، باعطاء جواب ما •

فقال : « بكل سرور » ونهض • واوسع الخطى مصعدا في الشعب ،

✻ Demas حواري من حواريي بولس الرسول تخلى عنه وخذله • (المعرب)

مسافةً ما ، ثم ارتمى على رابية يكسوها نبات الخلنج ، ولزم موضعه هناك ثابتا لا يريم ٠

وقلت في ذات نفسي : « في **ميسوري** ان افعل ما يريدني ان افعله : انا مكرهة على ان ارى ذلك واعترف به ٠ اعني اذا ما مدّت الاقدار في عمري ٠ ولكني استشعر ان حياتي لن تطول تحت الشمس الهندية ٠ ثم ماذا ؟ انه لا يبالي بذلك : وما ان تدق ساعة منيَّتي حتى يُسلمني ، في رصانة وبِرٍّ كاملين ، الى الله الذي منحه اياي ٠ ان السبيل جد واضحة امامي ٠ ذلك بأني اغادر ـ يوم اهجر انكلترة ـ ارضا حبيبة ولكنها فارغة ـ فمستر روتشيستر ليس هنا ٠ وحتى لو كان هنا فأي معنى لذلك بالنسبة الي ؟ بل اي معنى يمكن ان يكون لذلك ، في ايما يوم من الايام ، بالنسبة الي ؟ ان الواجب يقتضيني الان ان احيا بدونه : وليس ثمة ما هو اسخف وادل على العجز من ان اسلخ العمر ، متحاملة على نفسي من يوم الى يوم ، وكأني انتظر ان يطرأ على الاحوال والملابسات تغيُّر متعذرٌ ما ، تغيُّر قد يوحد ما بيني وبينه من جديد ٠ ولا ريب (كما قال سانت جون مرة) في انه يتعين علي ان ابحث في الحياة عن اهتمامات واشواق جديدة استعيض بها عن تلك التي فقدتُها : أليس العمل الذي يعرضه الان علي اسنى الاعمال التي يستطيع الانسان ان يتولاها او يستطيع الله ان يعيِّنها ؟ اليس ذلك العمل ، بهمومه النبيلة وثمراته السامية ، اجدر الاعمال بأن يملأ الفراغ الذي خلَّفته العواطف الممزقة والآمال المحطمة ؟ اعتقد ان علي ان اقول نعم ٠ ومع ذلك فاني ارتعد ٠ وا أسفا ! اني اذا التحقت بسانت جون فعندئذ اهجر نصف ذاتي : اذا مضيت الى الهند مضيت الى موت مُبْتسرٍ فطيرٍ ٠ وكيف سأملأ تلك الفترة الفاصلة ما بين مغادرتي انكلترة الى الهند وبين مغادرتي الهند الى القبر ؟ اوه ! انا اعرف الجواب معرفة جيدة ! ان هذا جدٌ واضح ، هو الاخر ، امام عيني ٠ اني ـ من طريق الكدح في سبيل ارضاء سانت جون حتى يلمَّ الالم بكل وتر من اوتار عضلاتي ـ لا بد ان اوفَق الى ارضائه ٠٠٠ والى ارضائه حتى اصغر نقطة مركزية من نقاط توقُّعِه واقصى دائرة خارجية من دوائر امله ٠ وحين **اوطد** العزم على الذهاب ٠٠٠ حين اقْدِم ، **فعلا** ، على التضحية التي يدعوني اليها في الحاح ، فأني سوف افعل ذلك على نحو كامل غير منقوص : سوف اقذف الى المذبح بكل شيء : بقلبي ، وعقلي ، وسائر اعضائي الحيوية ـ بالضحية برمتها ٠ انه لن يحبني البتة ٠ ولكنه سوف يرضى عني ٠ اني سأريه طاقات لم يرها من قبل ، وقُدْرات لم يتوقعها في ايما يوم من الايام ٠ اجل ، ان في ميسوري ان اعمل ما وسعني العمل ، وبأقل قدر من التذمر والتشكي ٠

« واذن ، فالاستجابة الى مطلبه ممكنة : لولا شيء واحد ٠٠ شيء رهيب واحد ٠ وهو انه يسألني ان اكون زوجته ، وليس يملك نحوي من قلب الزوج اكثر مما تملكه تلك الصخرة الجبارة المتجهمة التي ينحدر الجدول نحوها ، مُزْبدا ، في ذلك الشِّعب القائم هناك ٠ انه يقدرني كما يقدر جندي سلاحا

صالحا ··· هذا كل ما في الامر · وعلى اية حال ، فأن هذا لن يحزنني البته ما دمت غير متزوجة ، ولكن هل استطيع ان ادعه يُتم حساباته وتخميناته ·· ان ادعه يضع خططه ـ في برود ـ موضع التنفيذ ويمضي قُدُما في اجـراء مراسيم الزفاف ؟ هل استطيع ان اتلقى منه خاتم الزواج ، واتحمـــل جميع شكليات الحب (التي لا اشك في انه سوف يحرص على احترامها في عنـاية بالغة) وانا اعلم ان روحه غائبة عن ذلك كله غيابا كاملا ؟ هل استطيـع ان احتمل مجرد التفكير في ان كل تحبُّب يغدقه علي لا يعدو ان يكون تضحية يقوم بها من اجل المبدأ ؟ لا · مثل هذا الاستشهاد خليق به ان يكون رهيبا · اني لن اقوى على احتمال ذلك البتة · في ميسوري أن ارافقه كأخت ، ولكن لا كزوجة · ولسوف ابلغه ذلك » ·

ووجهت بصري نحو الرابية · كان منطرحا هناك ، جامدا مثل عمود ·· والتفت الي ، وعيناه تشعان ببريق يقِظ ثاقب · ثم انه وثـــب واقفا على قدميه ، وتقدم نحوي ·

ـ « انا على استعداد للذهاب الى الهند ، اذا اجيز لي ان اذهب طليقة » ·

فقال : « ان جوابك ليحتاج الى تفسير · انه غير واضح » ·

ـ « لقد كنتَ ، حتى هـذه اللحظة ، اخي بالتبني وكنـت انا اختـك بالتبني · فلنستمر على هذه الحال : ان من الخير لك ولي ان لا يجمع الزواج مـا بيننـــا » ·

فهز رأسه وقال : « ان اخوَّة التبني لن تفيد في هذه الحالة · ولو قد كنت اختي الحقيقية اذن لتغير الموقف ، ولصحبْتُكِ من غير ان ابحث عـن زوجة · اما وحالنا هي ما هي فنحن بين امرين لا ثالثَ لهما : اما ان يُكرس اتحادنا ويُختم بخاتم الزواج ، واما ان لا يكون بيننا اتحاد البتة · ان ثمـة عقبات عملية تحول دون اصطناع ايما خطة اخرى · الا ترين ذلك ، يا جين ؟ فكري لحظة ، ولا بدَّ لعقلك الحصيف من ان يهديك سواء السبيل » ·

وفكرتُ · ولكن عقلي ، سواء اكان حصيفا او غير حصيف ، لم يرشدني الا الى حقيقة واحدة ، وهي ان كلا منا لم يكن يحب الاخر كما ينبغي للـزوج والزوجة ان يتحابا · ومن هنا خلَصت الى القول بأن علينا ان لا نقـدم على الزواج · وابلغته نتيجة تفكيري ، قائلة : « سانت جون ، انا اعتبرك اخـا لي ··· وانت تعتبرني اختا لك ··· فلنبق على هذه الحال » ·

فأجاب في جزم موجز حاد : « لا نستطيع ··· لا نستطيع · ان ذلـك لن يفيد · لقد سبق لك ان قلت انك سـوف تذهبيـن معي الى الهنـــد : تذكري ··· لقد قلتِ ذلَك » ·

ـ « ولكني قيدته بشرط » ·

ـ « حسن ··· حسن ··· انك لا تعترضين على النقطة الاســاسية ـ وهي مرافقتي في الهجرة من انكلترة والتعاون معي في اعمالي المقبلة · لقـد شرعتِ ، أو كدتِ ، في الاقدام على عمل عظيم ، وانك لتتمتمين بحظ مـن

الثبات والاستقامة يجعل من العسير عليك ان تتراجعي عن ذلك · ان ثمة غاية واحدة يجب ان تضعيها نصب عينك ، وهي : ما السبيل الى اداء العمل الذي اخذت على نفسك القيام به احسن ما يكون الاداء ؟ بسّطي اهتماماتـــك ، واحاسَيسك ، وافكارك ، ورغباتك واهدافك المعقدة · امزجي كل الاعتبارات في غرض واحد : اعني ان تؤدي ، في فعالية ، في قوة ، رسالة سيدك الالهي · ولكي تو فقي الى ذلك يتعين ان يكون لك معاون ـ لا اخ ، فرابطة الاخوة واهنة جدا ، ان يكون لك زوج · وانا ايضا لاَ احتاج الى اخت ، فالاخت قد تُنتزع مني في يوم من الايام · انا اريد زوجة ، لان الزوجة هي الرفيق الوحيد الذي استطيع ان افرض سلطاني الفعال عليه ، في الحياة ، وان احتفظ به حتــى الموت احتفاظا مطلقا » ·

وارتعدت فيما كان يتكلم : لقد استشعرت اثر سلطانه في مخ عظمي ، واثر سيطرته في اوصالي ·

وقلت : « ابحث اذن عن امرأة غيري ، يا سانت جون · ابحـــث عـــن واحدة تلائمك » ·

ـ « تعنين امرأة تلائم غرضي ··· تلائم رسالتي · فاسمحي لي ان اقول لك كرة اخرى اني لا اطمع في الزواج من مجرد امرأة تافهة ، مجرد امرأة ذات حواس انانية · لا ، اني اطمع في الزواج من مبشرة » ·

ـ « ولسوف اهَبُ المبشرَ قواي وطاقاتي ـ فذلـــك كل ما يبتغيه ، ولكن لن اهبَهُ نفسي · ان ذلك اشبه بأضافة القشور الى اللباب · وليست به اية حاجة الى القشور : من اجل ذلك سأحتفظ بها » ·

ـ « ليس في ميسورك ان تفعلي ذلك ··· بل ليس ينبغي لك ان تفعلي ذلك · اتحسبين ان الله سوف يرضى بنصف قربان ؟ هل يرضى بتضحيـــة بتراء ؟ انما ادعوكِ الى الدفاع عن قضية الله ··· وانما اريدك ان تنضوي تحت لوائه هو لا تَحت اي لواء اخر · فليس في ميسوري ان اقبل ، بالنيابة عنه ، ولاءً جزئيا ··· ان ولاءك يجب ان يكون كاملا » ·

فقلت : « اوه ، سوف اقدم قلبي الى الله · اما انت فلست في حاجـة اليـــه » ·

وليس في مستطاعي ، ايها القارىء ، ان اقسم يمينا على انه لم يكن ثمة شيء من السخرية المكبوحة في كل من اللهجة التي قيلت بها هـــذه الجملة والاحساس الذي رافقها · فقد كنت ، حتى ذلك الحين ، اخشى سانت جون واخافه على نحو صامت ، لاني لم اكن قد فهمته · كان قد ابقاني في دوامة من الرعب ، لانه كان قد ابقاني في دوامة من الشك ؛ وكنت حتى ذلك الحيـــن عاجزة من معرفة مبلغ ما انطوت عليه نفسه من سجايا القديسين ومبلـــغ مـــا انطوت عليه من خصال البشر · ولكن هذه المحادثة كشفــت لي عن اشيـــاء كثيرة ، وكنت قد شرعت احلـّل طبيعته · لقد رأيت مواطن ضعفه ، ووُفّقت الى فهمها · وادركت اني ، اذ جلست في مكاني ذاك عند ضفة المرج وامامي ذلك

الوجه الوسيم ، انما كنت اجلس عند قدمي رجل ضالٍّ مثلي • لقد سقط النقاب عن قسوته واستبداده • حتى اذا لمست فيه هاتين الخصلتين استشعرت بعده عن الكمال ، فاستعدت شجاعتي • لقد كنت مع ندٍّ لي – مع شخص استطيع ان اناقشه ••• شخص استطيع ، اذا استصوبت ذلك ، ان اقاومه •

واعتصم بالصمت بعد ان نطقت بالجملة الاخيرة ، وسرعان ما غامرت فرفعت بصري الى محيّاه • كان قد خفض عينيه نحوي ، وكانتا تعبران عن دهش متجهم وفضول حاد في آن معا • لقد بدتا وكأنهما تقولان : « أهي تسخر ، وتسخر مني **أنـا** ؟ »

– « ما معنى هذا ؟ » •

وما عتم ان قال : « لا تنسَيْ اننا نبحث مسألةً مقدسة ، مسألة لا نستطيع ان نفكر فيها او نتحدث عنها في استخفاف من غير ان نأثم • انا واثق ، يا جين ، من انك جادة عندما تقولين انك سوف تقدمين قلبك الى الله : ان هذا هو كل ما ابغي • والحق انك ما ان تنأين بقلبك عن البشر لكي تمنحيه خالقك حتى يصبح تعزيزُ مملكة ذلكَ الخالق الروحية على الارض هو مَسْعاك الاساسي ومصدر بهجتك الرئيسي • انك سوف تجدين نفسك مستعدة للقيام ، على التو ، بأيما شيء يساعدك على تحقيق ذلك الهدف • ولسوف ترين اي زخم تُمْنَحُهُ جهودك وجهودي من طريق اتحادنا الجسدي والعقلي بالزواج ، وهو الاتحاد الوحيد الذي يضفي صفة من التطابق السرمدي على مصائر الكائنات البشرية وخططها • ولن تلبثي ان تتغاضي عن جميع الاهواء الصغرى ، وجميع المصاعب التافهة ولذاذات الشعور ، وجميع الوساوس عن درجة الميل الشخصي ونوعه وقوته او لطفه ، وتسارعي الى الدخول في ذلك الاتحاد في الحال » •

فقلت في اقتضاب : « اتظن ذلك ؟ » ونظرت الى اساريره ، الجميلة في تناغمها ، ولكنِ الرهيبة الى حد عجيب في صرامتها الجامدة • نظرت الى جبينه الآمر ولكن غيرِ الصريح ، والى عينيه البراقتين ، العميقتين ، الثاقبتين ولكن غير الرفيقتين ابدا ، والى قامته الفارعة المهيبة ، وتصورت نفسي **زوجَتَهُ** • اوه ! ان هذا لا يمكن ان يتمَّ ! ان في استطاعتي ان اصبح معاونة له ، او ان اصبح رفيقته • واني لعلى استعداد لان اعبر معه ، بوصفي ذاك ، البحار والمحيطات ، وان اكدح تحت الشموس الشرقية في الصحاري الآسيوية ، وان أُعجب بشجاعته وتفانيه وعلو همته واقتدي بها ، وان اعوِّد نفسي – في هدوء – الخضوع لسلطانه ، وان ابتسم في غير ما قلق كلما رأيت الى طموحه الذي لا يُقهر ، وان اميز فيه بين المسيحي وبين الانسان فأقدِّر الاول تقديرا عميقا واغفر للثاني في سخاء • وخليق بي من غير ريب ، وقد اقتصرت صلتي به على هذا الوصف ، ان اقاسي آلاما كثيرة في معظم الاحيان : ان جسدي سوف يرزح تحت نير ثقيل ، ولكن فؤادي وعقلي سيكونان حرَّين • ولسوف تبقى لي نفسي غير المصوَّحة ففي استطاعتي ان افيء اليها ، ومشاعري الطبيعية

غير المستعبَدة ففي استطاعتي ان اتحدث معها في لحظات الوحدة الموحشة • ولسوف تبقى في ذهني فجوات لن ينفذ اليها البتة لانها وقفٌ علي وحدي • كما ستبقى عواطف نامية هناك ، عواطف ناضرة مُظَلّلة لا تستطيع صرامته ان تصوِّحها البتة ولا تستطيع خطواته العسكرية الموزونة ان تدوسها • اجل ، في امكاني أن اصبح معاونة له او رفيقة ، ولكن ليس في امكاني ان اصبح له زوجة ـ زوجة مشدودة الى جانبه دائما ، مقيدة دائما ، مكبوحة دائما ••• مكرهةً على اخماد جذوة طبيعتي على نحو موصول ، وعلى اجبارها على الاحتراق داخليا ، من غير ان اطلق صرخة البتة ، برغم اكتوائي باللهب الحبيس واهلاكه اياي عضوا عضوا •

وهتفت عندما انتهيت في تأملاتي الى ذلك المدى : « سانت جون ! »

فأجابني على نحو مثلوج : « ماذا تريدين ؟ »

ـ « اريد ان اكرر : اني اوافق ، بملء رضاي ، على الذهاب معك كرفيقة في ميدان التبشير ، ولكن لا كزوجة • انا لا استطيع ان اتزوجك وان اصبح جزءا منك » •

فأجاب في حزم : « بل يتعين عليك ان تصبحي جزءا مني • والا فأن الصفقة كلها تمسي باطلة • اذ كيف استطيع ، وانا الرجل الذي لمّا يبلغ الثلاثين ، ان اصطحب الى الهند فتاة في التاسعة عشرة ، ما لم تشدها الي رابطة الزواج ؟ كيف يجوز لنا ان نكون معا الى الابد ـ على انفراد احيانا ، ووسط قبائل متوحشة احيانا ـ من غير ان يُزَفّ احدنا الى الاخر ؟ »

فقلت في شيء من الفظاظة : « حسن جدا • في امكانك ان تحسب ، في مثل هذه الحال ، اني اختك الحقيقية ، او تنظر الي نظرتك الى رجل او قسيس مثلك » •

ـ « القوم كلهم يعلمون انك لست اختي ، فليس في ميسوري ان اقدمك الى الناس بهذا الوصف : وكل محاولة الى القيام بمثل هذا الصنيع خليق بها ان تثير حولي وحولك اخطر الرِّيَبِ واشدها اذى • وفي ما يتصل بالاشياء الاخرى الاحظ ان لك ـ برغم ما تتمتعين به من عقل رِجالي حصيف ـ قلب امرأة ••• وهذا لا يساعد كثيرا على الاخذ بوجهة نظركِ » •

فأكدت في شيء من الازدراء : « بل انه ليساعد افضل ما تكون المساعدة • صحيح ان لي قلب امرأة ، ولكن ليس في ما يتصل بك انت • انا لا املك ما اقدمه لك غير وفاء الصديق ، او غير صراحة رفيق السلاح واخلاصه واخائه اذا شئت • واني لاحترمك كما يحترم المتنصّر حديثا كاهنَهُ الذي يعلمه الدين ، واذعِنُ لك مثل اذعانه له • هذا كل ما عندي لك • فلا تجزع » •

فقال كمن يخاطب نفسه : « ذلك كل ما ابتغي • انه عَيْنُ ما اطلبه تماما • ان ثمة عقبات تعترض السبيل ، وهي عقبات يجب ان تذلل • جين ، انك لن تندمي على الزواج مني • كوني من ذلك على يقين • ان علينا ان نتزوج • وانا اكرر قولي : ليس ثمة اي سبيل اخر • ولا ريب في ان قَدْرا

من الحب كافيا لا بد ان يَعْقب الزواج ، فيجعل اتحادنا عملا صائبا ، حتى في عينيكِ انتِ . »

فلم اتمالك عن القول ، وانا انهض وأقف تجاهه ، مسنـــدة ظهري الى الصخرة : « انا ازدري فكرتك عن الحب . انــــا ازدري العاطفة الزائفة التي تعرضها . اجل ، يا سانت جون ، وازدريك انت عندما تعرضها » .

عندئذ سمَّر عينيه علي ، ضاغطا احدى شفتيه البديعتين على الاخرى . ولم يكن من اليسير علي ان اقرر هل كان مَغيظا ام كان مندهشا : لقد وُفِّق الى السيطرة على اسارير وجهه سيطرة كاملة .

وقال : « لم اكن اتوقع ان اسمع منكِ هذا التعبير . واحسب اني لم افعل او اقل ايما شيء يستحق الازدراء » .

ومسَّت نبرته الرقيقة وترا في قلبــي ، وروعنــي محيَّاه الهــادىء المتشامخ ، وقلت :

ـ « اغفر لي تلك الكلمات ، يا سانت جون . ولكن اذا كنت قد حُملت على الكلام بمثل ذلك التهور كله فالذنب ذنبك انت . فقد اثرتَ موضوعــا تختلف في امره طبيعتانا ـ موضوعا كان يتعين علينا أن لا نناقشه البتة : ان لفظة الحب نفسها هي مصدر شقاق بيننا ... واذا احتجنا الى التزام الحقيقة فما الذي يتعين علينا ان نفعله ؟ كيف يتعين علينا ان نشعر ؟ اطَّرِحْ ، يا ابن عمي العزيز ، مشروع الزواج ذاك ... اجل اطَّرِحْهُ وانسَهُ » .

فقال : « لا . انه مشــروع اثيرٌ لــدي . لقد غذَوْتُهُ منذ عهد غير يسير ، وهو المشروع الوحيد القادر على تحقيق غايتي العظمى . ولكني لن الح عليك في الوقت الحاضر ، اكثر مما فعلت . وغدا سوف ارتحل الى كايمبردج : ان لي هناك كثيرا من الاصدقاء الذين أرغب في توديعهم . ولسوف يطول غيابي اسبوعين اثنين ، فأفيدي من هذه الفترة للتفكير في ما عرضته عليــك ، ولا تنسي أنكِ اذا ما رفضتــهِ لم يكن رفضك ذاك استخفافا بي انا ، بل استخفاف بالله . انهَ يفتح لك ، منَ طريقي ، ابواب رسالة نبيلة ... رسالة لن توفَّقي الى حملها الا اذا امسيتِ لي زوجا . ارفضي الزواج مني تحكمي على نفسك الى الابد بالسير في دروب الرفه الاناني والظلمة المجدبة . ارتعدي جزعــا ، والا امسيت في عـداد أولئك الذين انكروا العقيدة،والذين هم شر من الكافرين!»

وهكذا اتى على نهاية حديثه . واذ اشاح بوجهه عني

« نظر الى النهر ، ونظر الى الهضبة »

كرة اخرى . ولكن مشاعره هذه المرة ، كانت حبيسة كلها في فؤاده : انا لم اكن اهلا لسماعها ملفوظة . وفيما كنت امشي الى جانبه عائدين الى البيــت قرأت في صمته الحديدي ما استشعره نحوي : خيبة نفسٍ صارمة استبدادية لقيَتْ مقاومة في حيثما كانت تتوقع اذعانا ، واستنكار عقل بارد عنيـــد اكتشف في عقل اخر مشاعرَ وآراء لا يستطيـــع ان يعطف عليها . وبكلمة موجزة لقد كان خليقا به ، كرجل ، أن يتمنى لو يُكرهني على الخضوع .

وهو لم يحتمل عنادي بمثل هذا الصبر كله ولم يمنحني هذه الفترة الطويلة للتفكير والتوبة الا بوصفه مسيحيا صادقا ·

وتلك الليلة استصوب ــ بعد ان قبّل شقيقتيه ــ ان يتناسىَ حتى مجرد مصافحتي ، وغادر الحجرة في صمت · والواقع اني تألمت ــ انا التي كنت اكنّ له صداقة بالغة وان لم اكنّ له شيئا من حب ــ لهذا الاغفال الصارخ ··· وكان المي من القوة بحيث طفرت الدموع من عينيّ ·

وقالت ديانا : « الاحظ ، يا جين ، انك تشاجرت مع سانت جون في اثناء النزهة التي قمتما بها في الارض السبخة · ومن الخير لك ان تلحقي به ·· انه الان يجرر قدميه في المجاز ، متوقعا ان يراك الى جانبه · ولا ريب في انه سوف ينسى كل ما حدث » ·

وما كنت لاجيز للكبرياء ان تتحكم بي في مثل هذه الظروف ، ولقد كان من دأبي ان اؤثر السعادة على الوقار · وهكذا اندفعت لاحقة به ، فألفيته واقفا عند ادنى السلم ·

وقلت : « طاب مساؤك ، يا سانت جون » ·

فأجابني في هدوء : « طاب مساؤك ، يا جين » ·

فأضفت : « صافحني ، اذن » ·

اية لمسة باردة رخوة كانت تلك اللمسة التي طبعها على اصابعي ! فقد حزّ في نفسه ما حدث ذلك اليوم ، فليس في ميسور المودّة ان توقع الدفء في قلبه وليس في ميسور العبرات ان تحرك عواطفه · ولم يكن ثمة سبيل الى عقد مصالحة سعيدة معه ، او الى انتزاع بسمة مشجعة او كلمة كريمة منه : ومع ذلك فقد ظل « المسيحي » صابرا وادعا · وحين سألته هل غفر لي اجاب انه لم يتعود دغدغة الذكريات المؤذية ، وانه ليس ثمة ما يحتاج الى الغفران ، باعتبار ان ايما اساءة لم توجّه اليه ·

قال ذلك وفارقني · ولقد كنت أؤثر ، الف مرة ، لو انه جندلني وطرحني ارضا ·

٣٥

ولم يرحل الى كايمبردج في اليوم التالي ، كما كان قد اعلن · لقد ارجأ رحلته اسبوعا كاملا · وخلال تلك الفترة اشعرني ايّ عقوبة قاسية يستطيع الرجل الصالح ولكن الصارم ، الرجل ذو الضمير الحي ولكن العنيد ، ان يُنزلها في من اساء اليه · ذلك بأنه سعى ، من غير ان يصدر عنه ايما عمل عدائي صريح او اية كلمة معنِّفة ، الى ان يوقع في نفسي ــ على نحو موصول ــ اني مُبْعَدَةٌ عن حظيرة عطفه ·

وليس معنى هذا ان سانت جون كان يضمر روحا من الحقد غير المسيحي ، وليس معناه انه كان لا يرى حرجا في ان يمس شعرةً من شعرات رأسي بأذى ، لو كان في ميسوره ــ على نحو مطلق ــ ان يفعل ذلك · لا ،

فقد كان ـ بحكم الطبيعة والمبدأ على حد سواء ـ ارفع من ان يُغرَى بمتعة الانتقام الحقيرة : لقد غفر لي قولي اني ازدريه وازدري حبه ، ولكنه لم يكن قد نسي الكلمات ، وكان خليقا به ان لا ينساها ما امتد الاجل بي وبه • ولقد كنت ارى في محيَّاه ، كلما التفت الي ، ان تلك الكلمات كانت ابدا مرسومة على صفحة الهواء الطائف بيني وبينه • وكلما تحدثتُ اليه ضج بها صوتي في اذنيه ، وكيَّف صداها نبرةَ كل جواب من اجوبته •

انه لم يقلع عن التحدث الي • بل انه كان يدعوني كل صباح ، جريا على مألوف عادته ، الى القعود بجانبه امام مكتبه • ويخيَّل الي ان الرجل الناسد الذي في بُرْدَيْه كان يجد متعة ، لم يشاركه فيها المسيحي المحض※ ، في اظهار مدى البراعة التي استطاع بها ـ بينما هو يتصرف ويتكلم ، ظاهريا ، كعادته ـ ان يجرد كل عمل وكل جملة من روح الشوق والموافقة التي كانت ، في ما مضى ، تضفي شيئا من السحر المتجهم على لغته وتصرفاته • والواقع انه لم يعد ، بالنسبة الي ، لحما ودما • ولكن رخاما ، لقد امست عينه جوهرة زرقاء ساطعة باردة ، وامسى لسانه مجرد اداة ناطقة ليس غير •

وعذَّبني ذلك كله ـ عذبني عذابا مصقولا متطاولا • لقد اضرم في جوانحي نار سخط بطيئة واثار في ذات نفسي قلقا مرتعدا مشوبا بالاسى • ولقد اضجرني هذا السخط وذلك القلق وسحقاني سحقا • ذلك بأني ادركت بأية سرعة كان في ميسور هذا الرجل الصالح ، الصافي كأعماق ينبوع لا يرى الشمس ـ ولو امسيتُ زوجةً له ـ ان يقتلني •• ان يقتلني من غير ان يهرق من عروقي قطرة دم واحدة او يلوث ضميره النقي كالبلور بأقل لطخة من لطخات الاجرام • ولقد استشعرت هذا ، اكثر ما استشعرته ، عندما قمت بالمحاولة اثر المحاولة الى استمالته واسترضائه • انه لم يردَّ على حناني بأيما قَدْر من الحنان • ولم يورثه النفور اية غصَّة ، ولم يأخذه ايما توق الى المصالحة • وعلى الرغم من ان عبراتي المنهمرة بللت ، غير مرة ، صفحة الكتاب الذي كنا نتدارسه معا ، فانها لم تخلِّف في نفسه اثرا اعظم من ذلك الذي كان خليقا بها ان تخلِّفه لو ان فؤاده كان مقدودا ، في الواقع ، من صخر او معدن • اما اختاه فكان من دأبه ان يتلطَّف في معاملتهما اكثر من ذي قبل ، بعض الشيء ، وكأنه خشي ان لا يكون مجرد البرود كافيا لاقناعي بأني مُبْعدة من دنياه ابعادا كاملا فعزَّزه بالمغايرة الصارخة بين موقفه مني وموقفه منهما • ولست اشك البتة في انه فعل ذلك ، لا بدافع من خبث ، ولكن انسجاما مع مبدأ •

واتفق لي ان رأيته ، عشية رحيله الى كايمبردج ، يتمشَّى ـ قبيل غروب الشمس ـ في الحديقة • وتذكرت ، فيما كنت ارنو اليه ، ان هذا الرجل ـ على شدة ما بيني وبينه الان من نفرة وتباعد ـ كان قد انقذ حياتي يوما ، وانه من اقربائي الادنَيْن • فنازعتني نفسي الى القيام بمحاولة اخيرة

※ تقصد سانت جون ايضا • (المعرب)

لاستعادة صداقته • وهكذا خرجت الى الحديقة ودنوت منه ، فيما كان متكئا على البوابة الخارجية الصغيرة • وفي الحال بادرته بالحديث في غير مداورة ، فقلت :

ـ « سانت جون ، انا غير سعيدة ، لانك لا تزال غاضبا علي • فلنكن صديقين » •

ـ « احسب اننا صديقان ، وارجو ان نكون » • ذلك كان جوابه الممتنع على التأثر ، قاله وهو لا يزال ، كما الفيته حين دنوتُ منه ، يراقب القمر البازغ •

ـ « لا ، يا سانت جون • نحن لم نعد صديقين كما كنا • وانك لتعرف ذلك » •

ـ « السنا صديقين ؟ هذا غير صحيح • فانا من ناحيتي لا اتمنى لك اي شر ، بل اتمنى لك الخير كله » •

ـ « انا اصدقك ، يا سانت جون ، ذلك بأنني واثقة من انك عاجز عن ان تتمنى لايما امرىء شرا • ولكن لما كنت انا نسيبتك فاني اطمع في قَدْر من المحبة اكثر ، بعض الشيء ، من ذلك العطف العام الذي تقدمه الى الغرباء انفسهم » •

فقال : « من غير ريب • ان مطمعكِ لمعقول • وانا ابعد ما اكون عن اعتبارك غريبة » •

وكان هذا الكلام ، المقول في لهجة فاترة هادئة ، مُذلا حقا ، مخيِّبا للامل حقا • ولو قد اصغيت لايحاءات الكبرياء والغيظ اذن لكان علي آن انأى عنه بجانبي في غير ابطاء • ولكن شيئا اعتمل في ذات نفسي اقوى مما استطاع هذان الشعوران ان يعتملا • فقد كنت اكبِر مواهب ابن عمتي ومبادئه اعمق الاكبار ، وكانت صداقته ذات قيمة عندي ، فخسارتها بلاء اضناني على نحو قاسٍ • ومن هنا كان خليقا بي ان لا اتخلى ، في سرعة بالغة ، عن السعي لاستردادها •

ـ « ايتعين علينا ان نفترق على هذه الصورة ، يا سانت جون ؟ وحين ترتحل الى الهند هل ستتركني على هذا النحو ، من غير ان تقول كلمة ارقّ مما نطقت به حتى الان ؟ »

عندئذ حوّل بصره عن القمر وواجهني •

وقال : « عندما ارتحل الى الهند ، يا جين ، هل سأتركك ؟ ماذا ! الن ترتحلي انت الى الهند ؟ »

ـ « لقد قلتَ اني لا استطيع الارتحال الى هناك ما لم اتزوج منك » •

ـ « وانت لن تتزوجي مني ؟ الا تزالين مصرة على هذا القرار ؟ »

هل تعرف ، ايها القارىء ، كما انا أعرف اي هوْل يستطيع اولئك القوم الباردون ان يسكبوه في ثلج اسئلتهم ؟ واي قدْر من انهيار الجليد ينطوي عليه غضبهم ؟ ومن تكسُّر البحر المتجمد يتمثّل في استيائهم ؟ »

ـ « لا ، يا سانت جون ، انا لن اتزوج منك • اني التزم قراري » •
كان التَّيْهور * قد زُحزِح عن موضعه وانزلق الى الامام بعض الشيء • ولكنه لم يكن قد انهار بعد •
فقال : « اترفضين كرة اخرى ؟ وما الذي يدعوك الى هذا الرفض ؟ »
فأجبته :« لقد رفضت ، في المرة الاولى ، لانك كنت لا تحبني • اما الان فأني ارفض لانك تبغضني او تكاد • ولو قد تزوجتُ منك اذن لقتلتني • والواقع أنك تقتلني الان » •
فشحبت شفتاه ووجنتاه ـ شحبت حتى لأمست بيضاء ناصعة •
ـ « **لو تزوجت مني اذن لقتلتك ؟••• انا اقتلك الان ؟** ان كلماتك هذه هي من ضرب ما كان يجوز لك ان تستعمليه : انها عنيفة ، خلوٌ من الانوثة ، وغير صحيحة • وهي تنم عن حال عقلية تعيسة • انها تستحق تعنيفا قاسيا ، ويخيل الي انه من المتعذر على المرء ان يغتفرها لو لم يكن من واجب الانسان ان يصفح عن اخيه سبعا وسبعين مرة » •
كنت قد انجزت ، الان ، مهمتي • والواقع اني ، في تَوْقي الصادق الى ان امحو من ذهنه آثار اساءتي السابقة ، كنت قد خلَّفت على ذلك السطح الكتيم انطباعة اخرى اعمق بكثير : كنت قد سفعْتُهُ بمثل النار •
وقلت : « الان سوف تبغضني حقا • وانه لمن العبث الذي لا طائل تحته ان احاول استرضاءك • يخيَّل الي اني جعلت منك عدوا سرمديا لي » •
وانزلت هذه الكلمات في نفسه اذىً اشد واعمق لانه لامَسَّ الحقيقة • فاذا بشفته التي غار منها الدم ترتعد في تشنج عابر • وادركت اي غيظ قاسٍ اثَرْتُهُ بتلك الكلمات ، فانقبض قلبي واعتصره الالم •
فقلت ، وانا امسك بيده : « انك تسيء فهم كلماتي اساءة كاملة • انا لا اقصد الى ايلامك او احزانك ••• صدقني ، انا لا اقصد الى ذلك » ••
وابتسم ابتسامة ليس احفل منها بالمرارة ، وسحب يده من يدي في كثير من الاصرار • ثم قال بعد صمت غير يسير : « ولسوف تعمدين الان الى الرجوع عما وعدتني به ، ولن تذهبي الى الهند بأية حال ، في ما احسب ؟ »
فأجبته : « بل سأذهب ، بوصفي مساعدة لك » •
وتلا ذلك صمت طويل • ولست ادري اي صراع نشب في ذات نفسه بين الطبيعة وبين الفضيلة خلال تلك الفترة • ولكن اشراقات فذة اومضت في عينيه ، وظلالا عجيبة طافت بوجهه • وتكلم اخيرا فقال :
ـ « لقد اثبتُّ من قبل بطلان ما تعرضين : ان ترافق امرأة عزباء في مثل سنك رجلا اعزب في مثل سني الى ما وراء البحار • لقد اثبتُّه لك في تعابير كان من حقها ، في ما حسبتُ ، ان تمنعك من الالماع الى تلك الخطة كرة اخرى • اما وقد فعلتِ ذلك ، الان ، فأني آسف ••• من اجلك » •
وقاطعته ، فقد كان ايما تعنيف صريح خليقا به ان يمنحني الشجاعة

---

* التيهور : كومة تنهار من جبل ثلجي •

في الحال : « الزم حدود المنطق ، يا سانت جون ، فأنت تنحرف نحو الهراء . انك تتظاهر بأن ما قلته لك قد اصابك بصدمة . في حين انه ، في الواقع لم يصدمك البتة . ذلك بأنك ـ بما تتمتع به من عقل متفوق ـ لا يمكن ان تكون من البلادة او الغرور بحيث تسيء فهم المعنى الذي رميت اليه . وها انا ذا اكرر ثانية : اني سوف اكون مبشرة مساعدة لك ، اذا شئت انت ذلك ، ولكني لن أكون زوجة لك بأية حال » .

وشحب وجهه ، كرة اخرى ، على نحو ازرق رصاصي ، ولكنه سيطر على انفعاله ـ كشأنه من قبل ـ سيطرة كاملة ، ثم اجابني ، في جزم ، ولكن في هدوء :

ـ « لن تلائمني ابدا مبشرةٌ مساعدة لا تشدها الي رابطة الزواج . ومن هنا يبدو لي انك لن تستطيعي الذهاب . اما اذا كنت مخلصة في عرضك فعندئذ اتحدث ، خلال مُقامي في لندن ، الى مبشر متزوج تحتاج زوجته الى مساعدة . ان ثروتك سوف تجعلك في غنى عن العون المادي الذي تقدمه الجمعيَة عادة ، وهكذا تَنْجين بنفسك من عار الحنث بوعدك ، والتخلي عن العصبة التي عاهدتِني على الانضواء تحت لوائها » .

والحق اني ، كما يعرف القارىء ، لم اعطِ اي وعد رسمي ولم آخذ على نفسي اي عهد . من اجل ذلك كانت لغته تلك قاسية واستبدادية بأكثر مما تقتضيه المناسبة . فأجبته :

ـ « ليس في الامر ايما عار ، او حنث بوعد ، او تخلٍّ عن عصبة . ولست مقيدة بأي التزام يحتم علي الذهاب الى الهند ، وبخاصة مع قوم غرباء . لقد كان خليقا بي ، في حال الذهاب معك ، ان اغامر بأشياء كثيرة لاني أعْجَب بك واثق فيك ولاني احببتك كأخت لك . ولكني ـ ايا من كان الاشخاص الذين سأذهب معهم وايا ما كان الزمان الذي سأقدم فيه على هذه الخطوة ـ مقتنعة بأنني لن احيا طويلا في ذلك المناخ » .

فقال وهو يزم شفته : « آه ! انت خائفة من نفسك » .

ـ « اجل ، انا خائفة . ان الله لم يهبني حياتي لكي ابددها . ولقد بدأت ارى ان النزول عند رغبتك يَعْدِل الانتحار او يكاد . والى هذا ، فقبل ان اعقد العزم نهائيا على مغادرة انكلترة يتعين علي ان استيقن من ان بقائي فيها لا يتيح لي مجالا للافادة اكبر من ذلك الذي تتيحه لي الهجرة منها » .

ـ « ماذا تعنين ؟ »

ـ « من العبث الذي لا طائل تحته ان احاول الشرح . ولكن ثمة نقطة طالما اورثتني شكا اليما . وليس في مستطاعي ان ارحل الى ايما مكان الا بعد ان اتحرر من ذلك الشك » .

ـ « انا اعرف الى اين يهفو فؤادك وبأي شيء هو مولع . ان الشوق الذي تضمرينه ليس شرعيا ولا مقدسا . ولقد كان الواجب يقتضيك سحقه منذ زمن بعيد . وكان جديرا بالدم ان يشيع في وجهك ، الان ، لمجرد الالماع اليه .

انت تفكرين بمستر روتشيستر ، اليس كذلك ؟ »
وكان هذا صحيحا . ولقد اعترفت به بصمتي .
ـ « اتعتزمين البحث عن مستر روتشيستر ؟ »
ـ « يتعين علي ان اعرف ما الذي حلَّ به » .
فقال : « يبقى علي ، اذن ، ان اتذكرك في صلواتي ، وان اضرع الى الله بكل اخلاص ان لا تصبحي ضالة او منبوذة حقًا . لقد حسبتُ اني تبيَّنت فيك واحدا من اولئك اللواتي اصطفاهن الله . ولكن الرب يرى ما لا يراه الانسان : ان ارادته لا بد ان تتم » .
وفتح البوابة الخارجية ، وخرج منها ، وراح يهيم على وجهه في الوادي الصغير . وسرعان ما غاب عن ناظري .
حتى اذا انقلبت الى حجرة الاستقبال الفيتُ ديانا واقفة عند النافذة ، وامارات الاستغراق في التفكير بادية عليها . وكانت ديانا اطول مني بكثير ، فوضعتْ يدها على كتفي ، وانحنت وراحت تنعم النظر في وجهي .
ثم قالت : « جين ، اراك في هذه الايام مهتاجة شاحبة على نحو موصول . واني لواثقة من ان وراء ذلك امرا . قولي لي اية مسألة كنت تدرسين مع سانت جون . فقد راقبتك ، طوال نصف الساعة الماضية ، من هذه النافذة : ان عليك ان تغفري لي مثل هذا التجسس ، ولكني تصورت فترة من زمان شيئا لا اكاد أعرف ما هو . سانت جون مخلوق عجيب .. »
وكفت عن الكلام . ولم انطق انا بحرف . وما هي الا لحظات حتى استأنفت حديثها : « ان لاخي ذاك ، في ما يتصل بك ، آراء غريبة بعض الشيء . انا واثقة من ذلك . ولقد آثرك ، منذ عهد طويل ، بعناية واهتمام لم يُظهر مثلهما نحو اي امرأة اخرى من قبل . فما الذي يستهدفه من وراء ذلك ؟ اتمنى لو يكون مغرما بك . هل يحبك ، يا جين ؟ »
فوضعتْ يدها الفاترة على جبيني الحار . وقلت : « لا ، يا ديانا ، انه لا يحبني مثقال ذرة » .
ـ « واذن فلماذا يلاحقك هكذا بعينيه ، ويخلو بك على هذا النحو المكرور ، ويبقيك الى جانبه ابقاء موصولا الى هذا الحد كله ؟ لقد انتهيت انا وماري الى ان نستنتج انه سألك الزواج منه » .
ـ « لقد فعل . لقد سألني ان اقبل به زوجا » .
فصفقت ديانا بيديها ، وقالت : « ذلك عينُ ما رجوناه وفكرنا فيه ! ولسوف تتزوجين منه ، يا جين ، اليس كذلك ؟ وعندئذ يبقى في انكلترة » .
ـ « ما ابعد ما تتوهمينه عن الصواب ، يا ديانا . ان غرضه الوحيد من العرض الذي تقدم به الي هو الفوز بمساعِدة ملائمة تشاركه النضال في بلاد الهند » .
ـ « ماذا ؟! أيريد منك ان تذهبي الى الهند معه ؟ »
ـ « اجل ! »

فصاحت : « جنون ! انك لن تستطيعي الحياة هناك اكثر من ثلاثة اشهر • انا واثقة من ذلك • لا ، انك لن تذهبي بأية حال • وانت لم توافقي على الذهاب طبعا ـ هل وافقتِ ، يا جين ؟ »

ـ « لقد رفضت ان اتزوجه » •

ـ « وبذلك اغضبتِه ••• »

ـ « الى ابعد مدى • واخشى ان لا يغفر لي ذلك ابد الدهر • ومع هذا ، فقد عرضت ان ارافقه بوصفي اخته » •

ـ « لقد كان عرضك ذاك حماقة متهوسة ، يا جين • فكري في المهمة التي اخذتِها على عاتقك ـ مهمة قوامها الارهاق الموصول ••• حيث الارهاق يقتل حتى الاقوياء •• وانت ضعيفة • ان سانت جون ـ ولست تجهلينه ـ خليق به ان يحضَّك على القيام بكل متعذر مستحيل ••• وهو لن يجيز لك ان تنعمي بشيء من الراحة خلال ساعات النهار القائظة • ولقد لاحظت ، لسوء الطالع ، انك تكرهين نفسك على اداء ايما عمل يفرضه عليك • والواقع اني لاعجب كيف وجدت الشجاعة التي مكَّنتك من رفض يده • انت لا تحبينه ، اذن ، يا جين ؟ »

ـ « لست احبه كزوج » •

ـ « ولكنه شاب وسيم » •

ـ « وأنا دميمة جدا ، كما ترين ، يا ديانا • ان ايا منا لن يلائم الاخر أبـدا » •

ـ « دميمة ! انت دميمة ؟ معاذ الله ! انت اجمل واطيب من ان تُشْوَيْ حية في كلكتا • » وناشدتني ، كرة اخـرى ، في حماسة ، ان اطَّرح كل تفكير في الارتحال مع اخيها •

فقلت : « اجل ، يتعين علي ذلك من غير ريب • لاني عندما كررت عليه ، منذ لحظة ، اقتراحي القاضي بأن اعمل في خدمته كشمَّاسة ، عبَّر عن استيائه البالغ لقلة لياقتي وذوقي • ولقد بدا وكأنه يعتبر اني ارتكبت عملا غير لائق عندما اقترحت ان ارافقه من غير زواج : كأني لم آمُلْ منذ البدء ان اجد فيه اخا لي ، ولم اعتبره دائما اخا لي » •

ـ « ما الذي يجعلك تحسبين انه لا يحبك ، يا جين ؟ »

ـ « يتعين عليك ان تسمعي اليه هو كيف يتكلم في هذا الموضوع • لقد اوضح لي مرة ومرة انه لا يريد رفيقة لنفسه ولكن رفيقة لوظيفته • ولقد قال لي اني خُلقت للعمل ـ لا للحب ، وهو شيء صحيح من غير ريب • ولكني ارى انني اذا كنت لم أخلق للحب فيلـزم عن ذلك ، منطقا ، اني لم اخلق للزواج • ألن يكون عجيبا ، يا ديانا ، ان اكبِّل نفسي ، مدى العمر ، بقيود تشدني الى رجل لا يرى فيَّ غير اداة نافعة » •

ـ « هذا امرٌ غير محتمل ••• غير طبيعي ••• غير وارد ! »

فتابعتُ قائلة : « والى هذا ، فعلى الرغم من اني لا اكن له الان غير حب

اخوي ففي استطاعتي ان اتصور ـ اذا ما اجبرت على الزواج منه ـ ان من الجائز ان احس نحوه بضرب من الحب غريب ، معذّبٍ ، لا مفر منه ، لانه رجل موهوب الى ابعد مدى ، ولان ثمة في كثير من الاحيان ضربا من الجلال البطولي في سيمائه ، وتصرفاته ، وأحاديثه • وخليق بقدري أن يصبح ، في مثل هذه الحال ، بائسا على نحو لا سبيل الى وصفه • انه لن يُقرّ حبي اياه • واذا ما افصحت عن عواطفي فعندئذ سوف يُشعرني ان ذلك ترف" لا حاجة له به ، فضلا عن انه لا يليق بي • أنا على مثل اليقين من انه سوف يعمد الى ذلك » •

فقالت ديانا : « ومع ذلك فسانت جون رجل طيب » •

ـ « انه رجل طيب ورجل عظيم • ولكنه ينسى ، في غمرة من سعيه بسبيل تحقيق فكراته السامية ، مشاعر بسطاء الناس ومطالبهم ، وينساها في غير ما رحمة • من أجل ذلك ، يحسن بالتافهين ان يبتعدوا عن طريقه خشية ان يدوسهم ، خلال زحفه ، بقدميه الاثنين • هو ذا قد اقبل ! سوف اتركك يا ديانا » . واذ رأيته يدخل الحديقة هرولتُ صاعدة السلم الى الطابق الاعلى •

ولكني اضطررت الى الالتقاء به ، كرة اخرى ، عند العشاء • ولقد بدا ، خلال هذه الوجبة ، رابط الجأش كمألوف عادته • وكنت قد حسبت انه لن يوجه الي الا كلمة او كلمتين وأيقنت انه عدل عن خطة الزواج ، ولكن ما حدث بعد ذلك اظهر ان الصواب لم يحالفني في ما حسبت وما ايقنت • فقد خاطبني بطريقته المعتادة تماما ، او بما كان قد اصبح ـ في الفترة الاخيرة ـ طريقته المعتادة : اعني في كياسة حنبلية • وليس من ريب في انه كان قد التمس معونة الروح القدس ابتغاء كظم الغضب الذي اثرتُه في ذات نفسه • وهكذا اعتقدت انه غفر لي كرة اخرى •

وللتلاوة المسائية التي تسبق اداء الصلاة اختار الاصحاح الحادي والعشرين من سفر الرؤيا • ولقد كان مما يشرح صدري ، في كل آنٍ ، ان اصغي بينا تنطلق آيات الكتاب المقدس من بين شفتيه : ان صوته الرخيم لم يكن ليبدو بالغ العذوبة والامتلاء في وقت واحد ، وان سلوكه لم يكن ليغدو في بساطته النبيلة اشد ما يكون تأثيرا في النفس الا حين ينطق بالوحي الالهي • وتلك الليلة اكتسب ذلك الصوت جرْسا اكثر مهابة واكتسب ذلك السلوك مغزىً آخذاً بمجامع القلوب ، عندما توسَّط عقْد اسرته (وقد اشرق قمر نوار ـ مايو ـ من خلال النافذة غير المحجوبة بستار ، جاعلا ضياء الشمعة الموضوعة على المائدة غير ضروري تقريبا) واكب ثمة على نسخة ضخمة عتيقة من الكتاب المقدس ، وانشأ يصف ـ نقلا عن صفحاته ـ رؤيا السماء الجديدة والارض الجديدة ، ويروي كيف سيهبط الرب ليحيا بين البشر ، وكيف سيكفكف الدموع كلها من اعينهم ، واعدا اياهم بأن لا يبقى على الأرض ، بعد ذلك ، لاموت ، ولا اسى ، ولا بكاء ، ولا الم ، لان النواميس

السابقة امست في خبر كان ٠

وهزتني الكلمات التالية هزا عجيبا فيما كان ينطق بها : وبخاصة عندما استشعرت ــ من التغير الطفيف الذي المّ بجرَسِهِ ــ ان عينه تحولت اليّ بينا انطلقت تلك الكلمات من فمه :

« من يغلب يرث كل شيء واكون له الها وهو يكونُ لي ابنا ٠ واما » ، وهنا اخذ يتلو في بطء ووضوح بالغ ، « الخائفون وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة عبدة الاثان وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت ، وذلك هو الموت الثاني » ٠

ومنذ ذلك الحين عرفت أي مصير كان سانت جون يخشى علي من الانتهاء اليه ٠

وانما طُبعت تلاوته هذه الآيات الاخيرة المجيدة من ذلك الاصحاح بطابع من الظَفَر المكبوح تخالطه حرارة تواقة ٠ كان واضحا ان قارىء تلك الآيات مؤمن بأن اسمه قد سُطر في « سفْر الحياة للسيد المسيح ، وانه كان مشوقا الى تلك الساعة التيسوف تتيح لَه الدخول الى المدينة التي يحمل اليها ملوك الارض امجادهم ومآثرهم والتي هي في غنى عن شمس او قمر يشرقان فيها ، لان مجد الله ينيرها ، ولان المسيح هو ضياؤها ٠

وفي الصلاة التي عقبت تلاوة الاصحاح احتشدت قوته كلها ، واستيقظت جماسته المتجهمة كلها ٠ كان يخوض معركة جدية ، وكان قد عقد العزم على الانتصار ٠ لقد تضرع الى الله أن يهب ضعاف القلوب قوةً ، والتائهين خارج الحظيرة هدايةً ، واولئك الذين اغرتهم مغريات العالم والجسد بالابتعاد عن الصراط المستقيم عودةً ولو في اللحظة الاخيرة ٠ لقد رجا ، وألحف في الرجاء ، وطالب لهم بنعمة الخلاص من هلاك محتوم ٠ ان للحماسة المشبوبة جلالا عميقاً في كل آنٍ ٠ ولقد عجبت لحماسته ، أولاً ، وأنا اصغي لتلك الصلاة ٠ حتى اذا استمرت بعد ذلك واتقدت مسَّت من قلبي وتراً ، ثم روَّعتني ٠ لقد استشعر عظمة غرضه وخيرية ذلك الغرض استشعاراً صادقاً الى أبعد الحدود ٠ ولم يكن في ميسور الآخرين الذين سمعوه يتضرع من اجل تحقيق هذا الغرض الا ان يستشعروا مثل شعوره ٠

وحين خُتمت الصلاة استأذنَّاه بالانصراف ، فقد كان مزمعاً الرحيل في ساعة مبكرة جدا من صباح اليوم التالي ٠ حتى اذا قبَّلته ديانا وماري غادرتا الحجرة ، نزولاً عند رغبةٍ منه ، في ما اظن ، عبَّر عنها ببضع كلمات مهموسة ٠ وبسطت انا يدي اليه ، وتمنيت له رحلة ماتعة ٠

ــ « شكراً ، يا جين ٠ اني سأعود من كايمبريدج ، كما قلت من قبل ، بعد اسبوعين اثنين ٠ واذن فلا يزال امامك هذه المهلة تفرغين خلالها للتفكير ٠ ولو قد اردتُ ان اصغي لنداء الغرور البشري اذن لتعيَّن علي ان لا أقول أية كلمة اضافية عن زواجك مني ٠ ولكني اصغي الى نداء واجبي ، وابقي نصب عينيَّ ــ على نحو موصول ــ هدفي الاول ، وهو أن افعل كل شيء لمجد الله ٠

لقد صبر « معلمي » * على العذاب صبرا طويلا ، وكذلك سوف افعل . اني لا استطيع ان اتخلى عنك للهلاك الابدي ، بوصفك وعاء مترعا بغضب الله · توبي الى خالقك ، وسارعي الى اتخاذ قرارك قبل فوات الاوان · تذكري اننا أُمِرنا بأن نعمل ما بقيت الشمس ترسل اشعتها ، واننا حُذّرنا من انه « لا بد من هبوط الليل الذي يُحال فيه بين كل امرىء وبين العمل » · تذكري مصير « دايفيس » ** الثريّ الذي تمتع بكل مناعم الحياة ومتارفها · ولقد منحك الله القوة على اختيار الجزء الأفضل الذي لن يُنتزع منك ! »

ووضع يده على رأسي فيما كان ينطق بالكلمات الاخيرة · كان قد تكلم في اخلاص وفي رفق · ولم تكن نظرته ، في الواقع ، نظرة عاشق يرنو الى صاحبته ولكنها كانت نظرة قسٍّ يدعو خرافه الضالة للعودة الى الحظيرة ، بل كانت اكثر من ذلك : نظرةَ ملاك حارس يراقب النفس التي هو مسؤول عنها · ان لجميع الموهوبين ، سواء أكانوا عاطفيين أم لا ، وسواء أكانوا متعصبين أم طموحين أم طغاة ــ شريطةَ ان يكونوا صادقين ــ لحظاتهم السامية التي يهيمنون فيها ويحكمون · وهكذا استشعرت احتراماً بالغاً لسانت جون ــ احتراما كان من القوة بحيث ردّني زخمه ، في الحال ، الى النقطة التي طالما جهدتُ في سبيل اجتنابها · لقد أُغْريتُ بالكف عن مقاومته ، وبالاندفاع مع تيار ارادته الى دُوّامة وجوده ، حيث أفقد ارادتي الذاتية · كان الآن قد حاصرني حصاراً لا يقلّ عنفاً عن ذلك الذي ضربه عليّ من قبل ، ولكن بطريقة اخرى مختلفة · ولقد كنت حمقاء في كلتا المرتين · ان الاستسلام في المرة الاولى كان خليقاً به ان يكون خروجاً على المبدأ · وان الاستسلام الآن كان خليقا به ان يكون خطأ في التقدير · ذلك ما اعتقده في هذه اللحظة ، التي التفت فيها الى الأزمة عبر الزمان الملطّف : لقد كنت آنذاك لا أعي حماقتي ·

ووقفت جامدة تحت انامل كاهني · كانت رفوضي *** قد نُسيَت وكانت مخاوفي قد ذُلّلت ، وكانت مقاومتي قد شُلّت · وكان « المتعذر » اعني زواجي من سانت جون ــ يتحول سريعاً ليصبح هو « الممكن » · كان كل شيء يتبدل تبدلا كاملا مفاجئا · لقد دعا الدين ··· وأشارت الملائكة ··· واصدر الرب امره ·· لقد التفّت الحياة مثل طومار **** من الطوامير ··· وفُتحت ابواب الموت ، مُبْدية عن الابدية القائمة خلفها : لقد بدا وكأن في الامكان ــ التماساً للسلامة والسعادة هناك ــ أن يُضَحّى بكل شيء هنا في ثانية واحدة · ولقد امتلأت الحجرة القاتمة بضروب الرؤى ·

وسألني المبشر : « هل تستطيعين إن تقرري الآن ؟ » كان السؤال قد

---

* المراد هو السيد المسيح (المعرب)

** هو الغني الوارد ذكره في سفر لوقا ، الاصحاح السادس عشر ١٩ ٣١ (المعرب)

*** جمع رفض · كوعود جمع وعد ·

**** صحيفة يكتب عليها ·

طُرِحَ بنبرات رقيقة ، ولقد جذبني سانت جون اليه بالرقة نفسها • أوه ، يا لتلك الرقة ! لقد بدت لي أقوى من العنف بكثير ! كان في ميسوري ان اقاوم غضب سانت جون ، ولكنني امسيت الآن مطـواعة مثل قصبة تحت نسائم لطفه • ومع ذلك فقد كنت اعرف معرفة جيدة اني اذا استسلمت الآن فلن أُحْمَلَ في يوم من الايام على النـدم على تمردي السابق • ان ساعة واحدة من الصلاة المهيبة لم تغيِّر ، وليس في ميسورها ان تغير ، طبيعته التي فُطِر عليها • لقد رفعت هذه الطبيعةَ وسمتْ بها فحسب •

وأجبت : « في استطاعتي ان اقرر •• شريطة ان اثق واقتنع بأن ارادة الله هي التي تقضي بزواجي منك • وخليق بي اذا وثقت من ذلك واقتنعت به ان اعاهدك على الزواج منك هنا وفي هذه اللحظة ـ وليحدث بعد ذلك مـا يحدث ! »

فهتف سانت جون : « لقد استجيبت دعواتي ! » وضغـط بيده على رأسي ضغطاً أشدّ ، وكأنه يدّعيني • وطوقني بذراعه وكأنه **يكـاد** يحبني • (أقول **يكـاد** ـ فقد عرفتُ الفرق ـ ذلك بأنني كنت قد خَبَرْتُ ما معنى أن يكون المرء محبوباً • ولكني كنت ، الآن ، مثله هو ، قد اخرجت الحب من الحساب ولم أفكر الا بالواجب) • وناضلت ضد ضعف بصيرتي وضبابيَّتها ، تلك البصيرة التي كانت السحـب لا تزال تَدْرُجُ أمامها • لقد تُقْتُ توقاً صادقاً ، عميقاً ، متقداً ، الى ان اعمل ما هو خير ، مجتزئة بذلك ليس غير • وتضرعت الى الله قائلة : « أهدِني •• أهدِني الصـراط المستقيم ! » كان الانفعال يعصف بي اكثر مما عصف بي في أيّ مناسبة ماضية ، ولسوف يكون في ميسور القارىء ان يقرر ما اذا كان ما حدث بعد ذلك هو ثمرة الاهتياج أم لا •

كان السكون يرين على المنزل كله ، اذ كان الجميع ، ما عـداي وعدا سانت جون ، قد آووا في ما أعتقد الى مضاجعهم • كانت الشمعة الوحيـدة تلفظ انفاسها الاخيرة ، وكانت الحجرة طافحة بضياء القمر • وخفق قلبي في سرعة وقوة : لقد استطعت أن أسمع وجيبه • وفجأةً كفَّ عن الخفقان تحت وطأة شعور لا سبيل الى التعبير عنه ـ شعورٍ هزّه هزاً عنيفاً ثم انتقل في الحال الى رأسي وأطرافي • ولم يكن ذلك الشعور صدمة كهربائية ، ولكنه كان حاداً وغريباً مثل اجفال : لقد اثَّر في حواسي وكأن نشاط هذه الحواس الاقصى كان حتى تلك اللحظة مجرد خَدَر وسبات ، انتُزِعت منهما الآن وأُكرِهت على الاستيقاظ • لقد نهضت متوقعة متطلعة : فأما العين والأذن فقد انتظرتا ، وأما اللحم فقد ارتعد فوق عظامي •

وسألني سانت جون : « ما الذي سمعتِه ؟ ما الذي تَرَيْنَه ؟ »

أنا لم أر شيئاً ، ولكني سمعت صوتاً يصيح من مكان ما : « جين ! جين ! جين ! » ليس غير •

وشهقت : « اوه ، يا الهي ! ما هذا ؟ »

ولو قد قلت : « أين هو ؟ » لما كان قولي مستغرباً . فقد بدا انه ليس في الحجرة ، وليس في المنزل ، وليس في الحديقة . انه لم ينبعث من الهواء ، ولم ينبثق من باطن الارض ، ولم ينطلق من فوق سَمْت الرأس . كنت قد سمعته ... أما أين سمعته ومن أين فذلك ما لن استطيع معرفته أبد الدهر ! آه ، لقد كان صوتَ كائن بشري ـ صوتاً معروفاً ، محبوباً ، لست انساه البتة ـ صوت ادوارد فيرفاكس روتشيستر . ولقد تكلم في ألم وأسى وعلى نحوٍ ضارٍ ، راعب ، ملحاح .

فصحت : « أنا آتية ! انتظرني !ـ أوه ، سوف آتي ! » واندفعت الى الباب ، والقيت نظرة على المجاز ، فاذا به مظلم . وعدوْت الى الحديقة ، فاذا بها خاوية .

وهتفت : « أين انت ؟ »

فما كان من الهضاب ، القائمة وراء وادي « مارش غلين » ، الا ان اعادت اليَّ الجواب على نحو واهنٍ : « أين انت ؟ » واصغيت . وتنهدت الريح تنهداً رقيقاً وسط شجرات الشربين : كانت وحشة الاراضي السبخة وسكون منتصف الليل يهيمنان على كل شيء .

وقلت عندما برز ذلك الشبح اسود اللون ازاء شجرات السِّدر السوداء عند البوابة الخارجية : « أغرب ايها الوهم ! هذا ليس خداعا من خداعك ، ولا سحرا من سحرك . انه عمل الطبيعة . لقد أوقِظَتْ من سباتها ، ولم تجترح أيَّ معجزة .. لا ، لقد بذلت غاية جهدها ليس غير . »

وافلت من سانت جون ، الذي كان قد لحق بي ، والذي كان خليقا به ان يحتجزني . لقد جاء دوري في السيطرة والتحكم ، وكانت قواي كلها محتشدة تعمل في همة ونشاط . فسألته ان يمتنع عن طرح أي سؤال او ابداء ايما ملاحظة . ورغبت اليه ان يتركني ، فقد كان يتعين عليَّ ـ وكنت انا أودُّ أيضا ـ ان اخلو الى نفسي . فنزل عند رغبتي في الحال . فحيث تكون القدرة التي تمكِّن المرء من اصدار الاوامر فلا مفرَّ من الطاعة . وصعدت الى حجرتي ، واوصدت الباب على نفسي ، وركعت ، وصليت على طريقتي ـ وهي مختلفة من طريقة سانت جون ، ولكنها فعَّالة على صورتها الخاصة . لقد بدا لي اني امسيت على مقربة دانية من روح جبارة ، واسرعت الى السجود عند قدميها عرفانا للجميل . ثم انني نهضت من صلاة الشكر تلك .. واتخذت قرارا ... واضطجعت وقد زايلني الرعب واتضحت امامي الطريق ... واخذني التوق الى شيء واحد ليس غير ، هو ان ينحسر الظلام وينبلج الفجر .

٣٦

وتنفَّس الصبح آخر الامر . ونهضت مع الضحى . وشغلت نفسي طوال ساعة او ساعتين بترتيب امتعتي في حجرتي وادراجي وخزانة ملابسي على

النسق الذي ارغب في تركها عليه خلال غيبة وجيزة · وفي غضون ذلك سمعت سانت جون يغادر حجرته ، ويقف لدى باب حجرتي · وخشيت ان يقرع الباب ولكنه لم يفعل : لقد امرَّ من تحته قصاصة من ورق ليس غير · فرفعتها عن الارض ، فاذا هي تحمل هذه الكلمات :

« لقد فارقتني الليلة البارحة على نحو مفاجىء اكثر مما ينبغي · ولو انك لبثت بضع دقائق اضافية اذن لوضعت يدك على صليب المسيحي وتاج الملاك · وانّي لاتوقع ان اسمع قرارك الواضح عندما ارجع بعد اسبوعين اثنين · وفي غضون ذلك احترسي من التردّي في مهاوي الاغراء وصلّي من اجل ذلك · انا واثق من ان روحك راغبة ، ولكن جسدك — في ما ارى — واهنٌ ضعيف · اني سوف اصلّي لاجلك ساعة بعد ساعة · — المخلص لك ، سانت جون · »

فأجبت في ما بيني وبين نفسي : « ان روحي راغبة في الاقدام على ما هو حق · وان جسدي ، في ما ارجو ، هو من القوة بحيث ينفذ ارادة السماء ، حالما تتجلى لي تلك الارادة على نحوٍ لا لبس فيه · وعلى اية حال ، فسوف يكون من القوة بحيث يبحث ويسأل عن مخرج من ظلمات الشك هذه، ويتلمّس السبيل القويم ويسعى لبلوغ نور اليقين · »

كنا الان في مطلع حزيران (يونيو) ، ومع ذلك فقد كان الصباح غائما باردا · وشرع المطر يقرع زجاج نافذتي في سرعة بالغة · وسمعت الباب الخارجي يُفتح ، وسانت جون يغادر البيت · واذ نظرت من خلال النافذة رأيته يجتاز الحديقة · لقد سلك سبيل الاراضي السبخة التي كان الضباب يلفّها ، متجها نحو هويتكروس — كان عليه ان يدرك العربة العمومية هناك ·

وقلت في ذات نفسي : « لن تنقضي بضع ساعات حتى احذو حذوك واسلك ذلك الدرب ، يا ابن عمتي · ان لديّ ، انا ايضا ، عربة عمومية يتعين عليّ ان ادركها في هويتكروس · وان لديّ ، انا ايضا ، شخصا يجب ان اراه واطمئن على صحته في انكلترة ، قبل ان ارحل الى الابد · »

كانت ثمة ساعتان تفصلاننا عن فطور الصباح · ولكي املأ هذه الفترة رحت اذرع الحجرة في رفق ، جيئة وذهوبا ، وافكر في ذلك الطائف الذي المّ بي فوجّه خططي وجهتَها الحالية · لقد استحضرتُ ذلك الشعور الباطني الذي خامرني — ذلك بأنني كنت قادرة على استحضاره — بكل ما اتّسم به من غرابة تعزّ على الوصف · واستحضرت الصوت الذي كنت قد سمعته · وكرة اخرى تساءلت من اين اقبل ، ولكني لم احظَ — كشأني من قبل — بأي جواب شاف : لقد بدا لي انه انبعث من ذات نفسي ، لا من العالم الخارجي · وتساءلت هل كان مجرد انفعال عصبي — مجرد وهم ؟ ولم استطع ان افهم او ان اؤمن : لقد كان اقرب الى الالهام منه الى اي شيء آخر · وكانت هزة الاحساس العجيبة التي اجتاحتني اشبه بالزلزلة التي زعزعت أساس سجن القديس بولس وسيلاس · لقد اشرعت ابواب زنزانة الروح وفكّت قيودها ·

لقد ايقظتها من رقادها ، فوثبت من غمرته مرتعدة مصغية مشدوهة • ثم ان صيحه صارخة تردَّت في اذني المجفلة ، وفي فؤادي المرتجف ، وفي روحي التي لم توجس خيفةً ولم ترتعد ، ولكنها تهلَّلت وكأنما ازدهاها وابهجها نجاح ذلك الجهد الذي خوّلت حق القيام به بمعزل عن الجسد المعرقِل المربِك •

وقلت ، اذ ختمتُ تأملاتي : « لن تنقضي غير ايام معدودات حتى اعرف شيئا عن صاحب ذلك الصوت الذي بدا ، الليلة البارحة ، وكأنه يناديني • لقد اثبتت التجربة ان الرسائل لا تجدي ••• من اجل ذلك سوف استعيض عنها بالتحري الشخصي • »

وخلال فطور الصباح انبأت ديانا وماري اني اعتزم القيام برحلة ، واني سوف اغيب اربعة ايام على الاقل •

فسألتاني : « وحدك ، يا جين ؟ »

ـ « اجل • انما ابتغي ان ارى صديقا ساورني القلق عليه فترة من الزمان ، او ان استطلع نبأه • »

ولقد كان خليقا بهما ان تقولا ـ فليس عندي من ريب في ان ذلك كان هو اعتقادهما ـ انهما حسبتا ان ليس لي من اصدقاء غيرهما • فالواقع اني كثيرا ما قلت ذلك على مسامعهما • ولكنهما احجمتا ـ بما فُطرنا عليه من كياسة صادقة ـ عن التعليق على كلامي • وسألتني ديانا : « هل انتِ واثقة من ان صحتك تساعدك على الرحلة ؟ » مضيفة الى ذلك قولها انها ترانيَ شاحبة الوجه الى حد بعيد • فأجبتها قائلة : اني لا اشكو غير قلق البال ، وهو شيء ارجو ان اتحرر منه عما قريب •

وكان من اليسير عليَّ ان اتخذ ترتيباتي الاضافية • ذلك بأني لم ازعَج بأيما اسئلة ، او بأيما ظنون • فما ان اوضحت لهما اني لا استطيع الآن ان افصح عن طبيعة خططي حتى تقبَّلتا الصمت الذي احطتها به بقبول حسن • وبذلك اتاحتا لي فرصة التصرُّف الحر ، التي كان خليقا بي ان اتيحها لهما لو نشأت ظروف مماثلة •

وغادرت « مور هاوس » في الساعة الثالثة بعد الظهر • وما كادت الساعة تتجاوز الرابعة حتى وقفت عند مَعْلم طريق هويتكروس ، في انتظار وصول المركبة المتوقَّع ان تقلّني الى ثورنفيلد القصية • وفي غمرة من صمت تلك الطرق المتوحدة والهضاب المقفرة سمعتها تدنو من مسافة بعيدة • كانت هي المركبة عينها التي ترجلتُ منها ـ قبل عام واحد وفي ذات ليلة من ليالي الخريف ـ في هذه البقعة نفسها وانا في غاية من الكآبة ، واليأس ، وفقدان الهدف ما وراءها غاية • واومأت اليها ، فتوقفت • وامتطيت متنها ، من غير ان اضطر الآن الى دفع كل ما املك من مال اجرا لها • واذا وجدتُني اسلك الطريق الى ثورنفيلد ، كرة اخرى ، استشعرت وكأنني حمام الزاجل يطير عائدا الى موطنه •

واستغرقت الرحلة ستا وثلاثين ساعة • كنت قد فصَلْتُ من

هويتكروس إصيل" يوم الثلاثاء ، وفي ساعة مبكرة من صباح الخميس التالي كفَّت المركبة عن المسير لاطفاء ظمأ الخيل عند خانٍ قائم على جانب من الطريق في ريف طالعتني وشائعُه' الخضر وحقوله الواسعة وهضابه المعشوشبة الخفيضة (لشد ما كان مظهرها عذبا ولونها خضرا بالقياس الى اراضي مورتون السبخة المتجهمة الواقعة في الجزء الاوسط الشمالي من البلاد !) وكأنها اسارير وجه كان في يوم من الايام مألوفا عندي ٠ اجل ، لقد عرفت طبيعة هذا الريف ، وكنت على مثل اليقين من اننا كدنا نبلغ الموطن الذي كنت اقصد اليه ٠

وسألت سائس الخيل : « كم ميلا تفصل قصر ثورنفيلد عن هذا المكان ؟ »

ـ « ميلان اثنان تماما ، عبر الحقول ، يا سيدتي ٠ »

فقلت في ذات نفسي : « لقد خُتِمت رحلتي ٠ » وترجلت من المركبة ، فأودعت حقيبتي سائسَ الخيل ريثما أعود فاطلب اليه ردَّها اليَّ ، ودفعت اجر المركبة ، ودفعت الى الحوذي حُلوانا (بخشيش) ، ومضيت لسبيلي ٠ لقد التمعت اشعة الفجر على لافتة الخان ، فقرأت عليها هذه الكلمات مسطورة بأحرف مذهَّبة : « نُزُل اسلحة روتشيستر » ووثب قلبي من مكانه : كنت الآن اطأ اراضي سيدي بالذات ٠ ثم انه عاد فهبط من جديد : لقد خطرت له هذه الفكرة :

ـ « ان سيدك نفسه قد يكون ، بقَدْر ما تعرفين، وراء القناة البريطانية٠ ولنفرض انه في قصر ثورنفيلد ، الذي تغذّين الخطى اليه ، فمن ذا الذي يقيم الى جانبه هناك ؟ زوجته المجنونة ! والى هذا فأنت لم تعد لك به علاقة ما ٠ انك لا تجرؤين على التحدث اليه او السعي للمثول بين يديه ٠ لقد فقدت وظيفتك ٠٠٠ ومن الخير لكِ ان لا تذهبي الى ابعد من هذا ٠ » ـ كذلك الحَّ الناصح المنذر ـ « اسألي اصحاب الخان ان يزودوك ببعض المعلومات ٠ ان في استطاعتهم ان يقدموا اليك كل ما تتوقين الى معرفته ٠ وفي ميسورهم ان يبددوا شكوكك في الحال ٠ امضي الى ذلك الرجل ، واسأليه عن مستر روتشيستر أيقيم في قصره الآن ؟ »

كان الاقتراح معقولا ، ومع ذلك فلم يكن في استطاعتي ان اكره نفسي على العمل وفقَه' ٠ فقد كنت الخشى ، اشد ما تكون الخشية ، ان القى جوابا يسحقني باليأس سحقا ٠ ان اطالة الشك كانت تعني اطالة الامل ٠ ومن الخير لي ان ارى الى القصر ، كرة اخرى ، تحت اشعة نجمه ٠ وها هي ذي سلَّم السياج امامي ـ الحقول نفسُها التي كنت قد هرولتَ عبرها عمياء ، صماء ، شاردة اللب تجتاحني وتدفعني سَوْرة غيظ حقود ، صباح ذلك اليوم الذي فررت فيه من ثورنفيلد ٠ وقبل ان استيقن ايَّ اتجاه يتعين عليَّ ان اسلكه وجدتُ نفسي وسط تلك الحقول ٠ الا ما كان اسرع سيري ! ولشدّ ما عدوتُ في بعض الاحيان ! وكم كان توقي الى تكحيل الطرْف بأول نظرة القيها على الغابة المألوفة لديَّ ! وبأي ابتهاج غامر استقبلتُ الشجرات المفردة الصديقة

والومضات المعهودة من المرج والهضبة القائمين بينها ٠

واخيرا برزت الغابة ٠ وتعندقت الغربان سوداء ساحمة ٠ وعكَّر سكونه الصباح نعيبٌ عالٍ ٠ وحثَّني على الاسراع ابتهاجٌ عجيب ، فرحت اغذ الخطى ٠ حتى اذا عبرتُ حقلا آخر ٠٠٠ وتمعَّجت في سيري حول درب من الدروب الفيتْني امام اسوار الفناء ٠٠٠ امام الجناح الخلفي الاسود من القصر ٠ اما القصر نفسه ، واما مسرح الغربان فكانا لا يزالان محجوبين عن ناظري ٠ وقررتُ : « سوف تكون الواجهة اول ما سأراه من القصر ، وهناك سوف تبدهني شُرفاته البارزة بجلالها ونبلها ، ولسوف يكون في مستطاعي ان اميِّز نافذة سيدي نفسها من بين النوافذ جميعا ، ولعله ان يكون واقفا لديها ٠ انه ينهض من رقاده باكرا ، ولعله الآن يتمشى في الجنينة ، او في المجاز المعبد امام القصر ٠ ليتني اوفق الى ان اراه !٠٠ لحظةً واحدة ليس غير ! وليس من ريب في اني ، في هذه الحال ، لن أكون من الخبل بحيث اهرول الى لقائه ! لا ، لست استطيع ان اقطع برأي في هذه المسألة ٠٠٠ انا لست واثقة ٠ واذا هرولت للقائه ، ايُّ بأس في ذلك ؟ فليباركه الله ! ايُّ بأس في هذا ايضا ؟ من ذا الذي سوف يصاب بأذى اذا ما تذوقتُ كرة اخرى تلك الحياة التي تستطيع نظرته ان تغدقها عليَّ ؟ لا ، انا اهذي ٠٠٠ لعله في هذه اللحظة يشهد الشمس وهي تشرق فوق جبال البرانس (البيرينيه) ، او على بحر الجنوب الساجي※ ٠

وكنت قد سرت في محاذاة جدار الجنينة الداخلي ، واستدرت عند زاويته : كان في تلك النقطة بالذات بوابة خارجية ، تفضي الى المرج ، بين عمودين حجريين تتوجهما كرتان حجريتان ٠ ومن وراء احد العمودين كان في ميسوري ان اختلس النظر ، في سكون ، الى واجهة القصر برمَّتها ٠ واتلعت عنقي في احتراس ، رغبةً في ان استيقن هل زُفِع ايٌّ من اجفان النوافذ في حجرات النوم ٠ فاذا بالشرفات ، والنوافذ ، والواجهة الطويلة – كلها تصبح ، من هذا الموقع المحجَّب ، في متناول بصري ٠

ولعل الغربان المقلعة فوق رأسي قد راقبتني وانا اختلس تلك النظرات ٠ وتساءلت : ترُى ما الذي خطر في بالها اذ رأتني ؟ لا ريب في انها لاحظت ، بادىء الامر ، حذري وخجلي البالغين ، ثم تبدَّى لها اني امسيت ، تدريجيا ، شديدة الجرأة والتهور ٠ ذلك بأن نظرتي المختلَسة سرعان ما استحالت تحديقا طويلا ، وبأني ما لبثت ان فارقت مخبأي وهمت على وجهي في المرج ٠ وفجأة وقفت امام واجهة القصر مباشرة ، ورحت ارنو اليها بنظرات متطاولة جسورة ٠ واغلب الظن ان الغربان قد تساءلت : « ايَّ تكلُّف للحياء كان هذا بادىء الامر ! والى أية لامبالاة بلهاء انقلب الآن ! »

واليك ، ايها القارىء ، هذه الصورة التمثيلية :

يجد عاشق محبوبته راقدة على ضفة معشوشبة ٠ انه يتمنى لو يلمح

※ تقصد البحر الابيض المتوسط (المعرب)

وجهها الجميل من غير ان يوقظها • فهو يمشي مترفقا على العشب محاذرا ان يصدر عنه صوت ما • ثم انه يقف ، متوهما انها تحركت • وينسحب ، مؤثرا الاحتجاب عن العيون على ثروات العالم كلها • ان كل شيء ساكن ، وكرة اخرى يتقدم العاشق نحو محبوبته ، وينحني فوقها ، فيجد على وجهها حجابا رقيقا ، فيرفعه ، ويغالي في الانحناء فوقها • عندئذ تتوقع عيناه رؤية الجمال ـ دافئا ، منوّرا ، فاتنا في سكونه • لشد ما كانت نظرتهما الاولى عاجلة ! ولكن ما اسرع ما تتسمّران ! ويجفل العاشق أيَ اجفال ! وسرعان ما يضم بين ذراعيه ، في قوة وعنف ، ذلك الجسد الذي لم يجرؤ ، قبل لحظة واحدة ، على ان يمسَّه بأصبعه ! وفجأة يرفع عقيرته باسم ما ، ويضع حمله على الارض ، ويحدق اليه بنظرات ضارية • ويروح من ثم يعانقه ، ويُعْوِل ، ويرنو ، لانه لم يعد يخشى ان يوقظه بأيما صوت يمكن أن يصدر عنه ، وبأيما حركة يمكن ان يقوم بها • لقد اعتقد ان محبوبته قد نامت نوما هانئا ، فاذا به يجدها جثة هامدة !

ذلك كان مَثَلي انا : لقد تطلّعت في ابتهاج متهيّب الى قصر فخم ، فاذا بي أرى اطلالا جُلْبِبَت بالسواد •

لم تكن ثمة ، في الواقع ، حاجة الى الجثوم وراء احد الاعمدة •• واختلاس البصر الى شَعريات حجرة من الحجرات خشية ان المح اي امارة من امارات الحياة خلفها ! ولم تكن ثمة حاجة الى الاصغاء الى الابواب رجاة ان تُفتح ••• والى تصوُّر وقع خطىً على المجاز المعبَّد او على الممشى المفروش بالحصى ! كانت المرجة والحدائق مَدوسة بالاقدام ، مهملة • وكان الباب يتثاءب مؤذنا بالفراغ • اما واجهة القصر ، فكانت كما رأيتها ذات مرة في ما يراه النائم ، مجردَ جدار هيكليّ أجرد ، مرتفع جدا ، هشّ المظهر جدا ، تتخلّله نوافذ لا الواح زجاجية فيها • لم يكن ثمة سطح ، ولا شرفات ، ولا مداخن • كان كل اولئك قد انهار •

ان سكون الموت كان يخيم على القصر : وحشةٌ مَجْهل من المجاهلِ المتوحدة • فلا عجب ان تكون الرسائل التي وُجهت الى هذا البيت لم تحظَ البتة بأي جواب : لكأنها رسائل وُجِّهت الى سَرَب في ممشى كنيسة • وافصح سواد الحجارة الكالح عن الكارثة التي ألمّت بالقصر ـ من طريق الحريق : ولكن كيف احترق ؟ وما قصة هذه النكبة ؟ واية خسارة ـ الى جانب خسارة الملاط والرخام والابواب والنوافذ ـ نشأت عن ذلك ؟ هل حدث نقص في الانفسَ كما حدث نقص في الاموال ؟ واذا صحّ هذا ، فأية نفسٍ قُدّر لها ان تكون هي الضحية ؟ سؤال رهيب لم يكن ههنا من يجيب عنه ـ بل لم يكن ثمة اية امارة خرساء ، او اية علامة بكماء •

وبالتطواف حول الجدران المنهارة وخلال الاطلال الداخلية اجتمع لديّ من البيّنات ما أكد لي ان الكارثة لم تكن قريبة عهد بالحدوث • وخيّل الي ان ثلوج الشتاء كانت قد تسربت الى داخل القصر من خلال تلك القنطرة الجوفاء ، وان امطار الشتاء قد نفذت اليه من تلك النوافذ الفارغة • ذلك بأن

الربيع كان قد اطلعَ الحياة وسط اكوام القاذورات المطلولة هذه ، فنما العشب وضروب النباتات الطفيلية ههنا وههناك بين الحجارة وروافد السقف الخشبية المنهارة • ولكن اين كان صاحب هذا الحطام السيء الحظ ؟ في اية ارض ؟ وفي رعاية مَنْ ؟ وعلى نحو غير ارادي وقع بصري على برج الكنيسة الاغبر ، قرب البوابة الخارجية ، فساءلت نفسي : « أيكون مع دامر دو روتشيستر ، يقاسمه سقف مثواه الرخامي الضيق ؟ »

وكان لا بدّ لي من الحصول على جواب ما عن هذه الاسئلة • ولم يكن في ميسوري ان اقع عليه الا في النـُزُل ، وهكذا فأني سرعان ما رجعت الى هناك • وحمل صاحب النـُزُل بنفسه فطور الصباح اليَّ في حجرة الاستقبال • فسألته ان يوصد البـــاب ويجلس قائلة له ان لديّ بضعة اسئلة احب ان اوجهها اليه • حتى اذا نزل عند ارادتي لم اكد اعرف كيف استهلُّ الكلام • فقد استبدَّ بي من الاجوبة المحتملة ذعر عظيم • ومع ذلك فان مشهد الخراب الذي فارقته منذ لحظات أعدَّني ، الى حد ما ، لقصة من قصص البؤس • وكان صاحب النـُزُل رجلا مهيبا في خريف العمر •

ووُفـِّقت آخر الامر الى القول : « انـــت تعرف قصر ثورنفيلد ، مـــن غير ريب ؟ »

ــ « اجل ، يا سيدتي • لقد عشت فيه زمنا • »

ــ « صحيح ؟ » اما في ذات نفسي فقلت : لم يكن ذلك في ايامي طبعا ، فأنا لا اذكر اني عرفتك من قبل •

فأضاف : « لقد كنت كبير خدم مستر روتشيستر رحمه الله • »

عندئذ قلت لاهثة : « رحمه الله ؟ هل مات ؟ »

فأوضح قائلا : « انما عنيت ابا مستر ادورد مالك القصر الحالي • »

فتنفست الصعداء ، واستأنف دمي تدفقه • فقد استوثقـــت ، بهـــذه الكلمات ، ان مستر ادورد ــ ان روتشيستري انا (فليباركه الله ، ايا كان مكانه !) حيّ يُرزق ، على الاقل ، وانه بكلمة موجزة « مالك القصر الحالي »• يا لها من كلمات مبهجة ! لقد بدا لي انه قد امسى في ميسوري الآن ان اتلقى ، في سكون نسبيّ ، كل ما ينتظرني من انباء ، مهما تكن هذه الانباء • ان في طوقي ــ كذلك قلت في ذات نفسي ــ ان احتمل ، بعد ان ثبت لديَّ انه لا يرقد تحت الثرى ، أيَّ نبأ عنه ، حتى ولو قيـــل لي انـــه يقيـــم في جـــزر الآنتيبوديز • ※

وسألته ، وانا اعلم طبعا ما سيكون جوابه ولكني رغبـــت في ان ارجىء السؤال المباشر عن مستقره الفعلي : « هل يقيم مستر روتشيستر ، الآن ، في ثورنفيلد ؟ »

ــ « لا ، يا سيدتي ••• أوه ، لا ! ان احدا من الناس لا يقيم هناك •

※ Antipodes مجموعة من الجزر الصغيرة غير الآهلة بالسكان وتقع على بعد (٤٦٠) ميلا تقريبا جنوبي شرقي نيوزيلندة (المعرب)

وانا احسب انك غريبة عن هذه الديار ، والا لما فاتك ان تسمعي بالذي حدث في الخريف الماضي ... لقد استحال قصر ثورنفيلد الى خراب ، وانما التهمته النار قبيل موسم الحصاد . يا لها من كارثة رهيبة ! لقد اتى الحريق على مقدار هائل من الممتلكات النفيسة ، فلم يكن في الامكان استنقاذ ايما قطعة من قطع الاثاث . والواقع ان النار اندلعت في جوف الليل البهيم ، وقبل ان تصل عربات الاطفاء من ميلكوت كان المبنى قد اصبح كتلةً من لهب . كان مشهداً فظيعا : لقد رأيته بأم عيني . »

فغمغمت : « في جوف الليل البهيم ! » اجل ، كانت هذه هي ، دائما ، ساعة الشؤم في ثورنفيلد . ثم سألته : « وهل عُرِف شيء عن سبب الحريق ؟ »

ـ « لقد حدسوا ، يا سيدتي ، حدسا . لقد حدسوا حدسا . ومع ذلك ففي استطاعتي ان اقول ان الامر ثابت لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه . » وهنا أدنى كرسيه بعض الشيء الى الطاولة وتابع كلامه في صوت خفيض : « لعلك لا تعرفين ان جدران القصر كانت تشتمل على سيدة ... سيدة مج ... مجنونة ؟ »

ـ « لقد سمعت بشيء من ذلك . »

ـ « كانت محتجزة في مَحْبِسٍ حريز ، يا سيدتي . ولقد ظل الناس ، طوال سنوات بكاملها ، غير واثقين من وجودها ثقة تامة . ان احدا لم يرها : كل ما عرفه الناس من طريق الاشاعات انه كان في القصر امرأة من هذا الضرب . أما من كانت تلك المرأة وما كانت فذلك أمرٌ لم يكن من اليسير عليهم ان يحزروه . لقد قالوا ان مستر ادورد كان قد جاء بها من وراء البحار ، وذهب بعضهم الى القول انها كانت خليلته . ولكن شيئا عجيبا حدث منذ سنة ... شيئا عجيبا جدا . »

وخشيت الآن ان اسمع قصتي نفسها . وحاولت أن اردّه الى الواقعة الاساسية .

فقلت : « وتلك السيدة ؟ »

فأجاب : « لقد ظهر في ما بعد ان تلك السيدة كانت زوجة مستر روتشيستر ! وانما تمّ اكتشاف ذلك بطريقة ليس اعجب منها . فقد كانت ثمة سيدة شابة ، مربية خصوصية في القصر ، وقع مستر روتشيستر في .... »

فحاولت ردّه الى الموضوع الاساسي ، كرة اخرى ، فقلت : « والنار ؟ حدثني عن النار . »

« سوف احدثك عن ذلك بعد لحظة ، يا سيدتي . قلت انه كانت ثمة سيدة وقع مستر روتشيستر في غرامها . ويقول الخدم انهم لم يعرفوا رجلا تيّمه الحب اكثر مما تيّم مستر روتشيستر ، فقد كان يتبعها حيث ذهبت . كان من دأبهم أن يراقبوه ـ والخدم لا يتورعون عن ذلك ، كما تعرفين ، يا سيدتي ـ وكان هو معجبا بها اكثر من اعجابه بأيما امرأة اخرى ، ومع ذلك ،

فأن احدا من الناس لم يحسَبْها بارعة الجمال ٠ لقد كانت مخلوقة صغيرة ضئيلة الجسم ، كما قالوا ، فهي تشبه ـ أو تكاد ـ طفلا من الاطفال ٠ انا لم ارها بعيني قط ، ولكني سمعت « ليبا » ، الخادمة ، تتحدث عنها ٠ لقد احبتها « ليا » حبا غير يسير ٠ وكان مستر روتشيستر في نحو الاربعين ، وكانت تلك المربية دون العشرين من العمر ٠ وانت تعلمين ان الرجال في مثل تلك السن اذا احبوا فتاة من الفتيات احبوها ، في اكثر الاحوال ، وكأنهم مسحورون ٠ حسنا ، لقد اراد الزواج منها ٠ »

فقلت : « في امكانك ان تقصّ عليّ هذا الجزء من الحكاية في فرصة اخرى ، اما الآن فأن لدي سببا خاصا يجعلني راغبة في سماع كل شيء عن مسألة الحريق هذه ٠ هل ذهب الظن بالقوم الى ان لهذه المرأة المخبولة ، السيدة روتشيستر ، يداً ما في الامر ؟ »

ـ « لقد اصبت الحقيقة ، يا سيدتي ٠ فمن الثابت الذي لا ريب فيه ان تلك السيدة ، ولا أحد سواها ، هي التي اضرمت النار في القصر ٠ كانت لديها امرأة تعنى بأمرها ، هي مسز بول ـ وكانت امرأة بارعة في اداء وظيفتها الخاصة ، جديرة بالثقة الى ابعد حد ، لولا عيب واحد ـ وهو عيب مألوف عند كثير من الممرضات والمدبِّرات : كانت تحتفظ الى جانبها دائما بزجاجة خاصة من « الجنّ » ، فهي تكرع بين الفينة والفينة جرعة أكبر مما ينبغي بقليل ٠ وهو أمرٌ يستطيع المرء ان يجد له مبررا ـ لان حياتها مع تلك المجنونة كانت جحيما ـ ولكنه خطر جدا ٠ اذ كثيرا ما كانت مسز بول تستغرق في نوم عميق ، بعد اسراف في الشراب ، فتعمد السيدة المجنونة ـ التي كانت ماكرة مثل عرّافة من العرافات ـ الى انتزاع المفاتيح من جيبها ، وتنطلق الى خارج حجرتها ، وتهيم على وجهها في القصر ، مُنزلة به أيما اذىً ضارٍ قد يخطر لها على بال ٠ ويقولون انها كادت تحرق زوجها في فراشه ذات يوم ، ولكني لست واثقا من ذلك ٠ وعلى اية حال ففي الليلة التي احترق فيها القصر اضرمت النار اول ما اضرمتها في ستائر الحجرة المحاذية لحجرتها ، ثم هبطت الى طابق ادنى ، واتخذت سبيلها الى الحجرة التي كانت حجرة المربية (لقد بدا وكأنها عرفت ، بطريقة ما ، صلتها بمستر روتشيستر ، فحقدت عليها) واضرمت النار في السرير ، ولكن حسن الحظ شاء ان يكون ذلك السرير شاغرا لا يرقد فيه أحد ٠ كانت المربية قد لاذت بالفرار ، قبل شهرين اثنين ٠ وعلى الرغم من جميع الجهود التي بذلها مستر روتشيستر في البحث عنها ، وكأنما كانت اثمن ما يملكه في هذا العالم ، فانه لم يوفق الى سماع ايما كلمة عنها ٠ وهكذا احالته خيبة الامل الى وحش ضارٍ : انه لم يكن في ايما يوم رجلا شرسا ، ولكنه أمسى خطرا بعد ان فقدها ٠ ثم انه آثر الوحدة ايضا ٠ فرحّل مسز فيرفاكس ، مدبِّرة شؤون المنزل ، الى اصدقاء لها يقيمون على مسافة ما ٠ ولكنه سرّحها باحسان ، اذ اجرى لها راتبا سنويا مدى الحياة ٠ ولقد كانت بذلك جديرة ، فهي امرأة صالحة جدا ٠ اما مس آديل ، وهي قاصرة كان يكفلها ، فقد ادخلت احدى المدارس ٠ وبعد ذلك قطع

علاقاته مع جميع الاعيـان والاثريـاء ، واعتزل في القصر وكأنه ناسـك مـن النساك . »
ـ « ماذا ؟ انه لم يغادر انكلترة ؟ »
ـ « يغادر انكلترة ؟ يا الهي ، لا ! لقد أبى ان يتجاوز عتبة القصر ، الا تحت جنح الظلام ، عندما كان من دأبه ان يتمشى ، مثل شبح من الاشباح ، في الحديقة وفي البستان وكأنما قد أصابه مس • والواقع اني اذهب الى القول ان مسًا قد اصابه ، لان احدا لم يرَ يـا سيـدتي ـ قبل ان يتعرف الى تلك المربيـة القزمة ـ رجلا ارشـق منه ، ولا اجرأ ، ولا اذكى • كان رجلا مولعا بالخمر او بورق اللعب او بسباق الخيل ، شأنَ بعض الناس ، ولم يكن وسيم الوجه جدا ، ولكنه كان ذا شجاعة بالغة ، وارادة قوية ، اذا قدِّر لامرىء ان تكون له ارادة قوية في ايما يوم من الايام • لقد عرفتُهُ منذ ان كان طفلا • ولكم وددتُ من ناحيتي لو ان مس ايير أُغرِقت في البحر قبل ان تفِدَ الى قصر ثورنفيلد • »
ـ « واذن فقد كان مستر روتشيستر في القصر عندما اندلعت النار ؟ »
ـ « اجل لقد كان فيه من غير ريب • ولقـد ارتقى السلَّم الى العليّة عندما كان كل شيء يحترق من فوقه ومن تحته ، وأخرج الخدم من مضاجعهم وساعدهم بنفسه على النزول ثم رجع لكي يُخرج زوجته المخبولة من حجرتها • عندئذ صاح القوم قائلين له انها كانـت على السطح ، حيـث كانـت واقفة ، تلوِّح بذراعيها ، فوق الشرفات ، وتصيح حتى لقد كان في الامكان سماعها من على مسافة ميل • لقد رأيتها انا بعيني وسمعتها بأذني • كانت امرأة ضخمة الجثة ، وكانت ذات شعر اسود طويل : لقـد كان في ميسورنـا ان نراه يتماوج ، وهي واقفة ، بازاء ألسنة اللهب • ولقد شهدت مستر روتشيستر ، وشهده معي عدد من الناس كثير ، يصعد من خلال الكوة الى السطح : وسمعناه ينادي « بيرتا ! » ، ورأيناه يدنو منها • وعندئذ صاحت هي ، يا سيدتي ، ووثبتْ • وما هي غير دقيقة واحدة حتى كانت منطرحة ، مهشَّمة تهشيما ، على المجاز المعبَّد • »
ـ « ميتة ؟ »
ـ « ميتة ؟ أجل ، ميتة كالحجارة التي انتثر عليها دماغها وسال دمها • »
ـ « يا الهي ! »
ـ « من حقك ان تقولي هذا يا سيدتي • فقد كان ذلك رهيبا ! »
وارتعدت اوصاله •
فألحفت : « وماذا حدث بعد ذلك ؟ »
ـ « حسنا ، يا سيدتي ، بعد ذلك احترق القصر من قمته حتى اساسه • ولم يبق منه قائما اليوم غير بقايا جدران • »
ـ « هل فُقِدت ارواح اخرى ؟ »
ـ « لا • ولعله كان من الخير لو فُقِدت • »
ـ « ماذا تعني ؟ »

فصاح : « مسكين مستر ادورد ! لم يكن يقوم في وهمي اني سوف اشهد ذلك ، الا قليلا • وبعضهم يقولون انها عقوبة له عادلة لابقائه زواجه الاول طي الكتمان ، ولمحاولته ان يتخذ زوجة ثانية على حين ان في عصمته امرأة على قيد الحياة • اما انا ، فأرثي له حقا • »

فهتفت : « لقد قلت انه لا يزال حياً ؟ »

ـ « اجل ، اجل ، انه حيٌ • ولكن كثيرا من الناس يعتقدون ان موته كان خليقا به ان يكون خيرا له • »

ـ لماذا ؟ كيف ؟ » وجمد دمي في عروقي ، كرة اخرى •

وسألته : « اين هو ؟ اهو في انكلترة ؟ »

ـ « اجل ، اجل ، انه في انكلترة • هو لا يستطيع ان يغادر انكلترة ، في ما يخيَّل الي • انه الآن مسمَّر الى مكانه • »

يا له من نكالٍ رهيب ! ولقد بدا لي ان هذا الرجل كان مصمما على اطالة ذلك النكال لتلويعي وتعذيبي •

واخيرا قال : « لقد فقد بصره فقدانا كاملا • اجل ، ان مستر ادورد قد فقد بصره فقدانا كاملا • »

والواقع اني كنت قد خشيت شيئا اسوأ • كنت قد خشيت ان يكون قد جُنَّ • واستجمعت قوتي لاسأل عن السبب الذي اورثه هذا البلاء •

ـ « كان ذلك بسبب من شجاعته ، في المقام الاول ، وفي استطاعة المرء ان يقول بسبب من شفقته ، بمعنى من المعاني ، يا سيدتي • فقد أبى ان يغادر القصر الا بعد ان يغادره سائر نزلائه • حتى اذا هبط درجات السلم الكبير ، آخر الامر ، بعد ان قذفت مسز روتشيستر بنفسها من فوق الشرفات ، حدثت قرقعة هائلة ••• وانهار كلُّ شيء • ولقد انتُشل من تحت الانقاض ، حيا ، ولكنه مصاب بجراح بليغة • كانت احدى الدعائم الخشبية قد سقطت على نحو صانَهُ صيانة جزئية ، ولكن احدى عينيه قُلعت ، واحدى يديه سُحقت سحقا اضطر مستر كارتر ، الطبيب الجراح ، الى بترها في الحال • وألمَّ بالعين الاخرى التهاب ، فاذا به يفقد قدرته على الابصار بها ايضا • انه الآن عاجز ، عاجز حقا ـ مكفوف البصر مُقعَد • »

ـ « اين هو ؟ اين يحيا الآن ؟ »

ـ « في فيرنديان ، وهو بيت ريفي في مزرعة يملكها ، وتقع على مبعدة ثلاثين ميلا • انها بقعةٌ موحشة حقا » •

ـ « ومن يقيم معه ؟ »

ـ « جو العجوز وزوجته • انه لا يريد احدا غيرهما • ويقولون ان صحته منهارة تماما • »

ـ « هل لديك اية وسيلة من وسائل المواصلات ؟ »

ـ « ان لدينا عربة خفيفة ذات دولابين وجواد واحد • انها عربة انيقة جدا • »

ـ « دَعْهم يُعدُّونها في الحال • واذا كان في ميسور حوذيك ان

يقلّني الى فيرنديان قبل ان يهبط الظلام دفعت اليك واليه ضِعف الاجر الذي تتقاضيانه عادة . »

٣٧

كان منزل فيرنديان الريفي مبنى بالغ العتق ، معتدل الحجم ، مبرّءا من ايما مظهر من مظاهر التكلف المعماري ، دفينا في جوف غابة . وكنت قد سمعت شيئا عنه من قبل . فكثيرا ما تحدث مستر روتشيستر عنه . ولقد كان يقصد اليه في بعض الاحيان . وكان والده قد اشترى ذلك العقار رغبة في الغابة التي تكتنفه والتي تزخر بطيور الصيد والطّرَد . ولقد كان خليقـا به ان يؤجّر المنزل ولكنه لم يوفق الى العثور على من يستأجره ، بسبب موقعه غير الملائم وغير الصحي . ومن أجل ذلك ظل منزل فيرنديان غير آهل وغير مؤثَّث ما عدا غرفتين او ثلاث غرف أعِدّت لاستقبال ربّ البيت كلما قصد الى هنـاك في موسم الصيد .

الى هذا المنزل ذهبت ، قبل سقوط العتمة مباشرة ، في أمسية مُتَّسِمة بسماء كئيبة ، وريح باردة ، ومطر موصول ثاقب صغير الحبات . وقد اجتزت الميل الاخير سعيا على القدمين ، بعد ان صرفت العربة وسرحت الحوذي دافعة اليه المكافأة المضاعفة التي كنت قد وعدتُ بها . وحتى حيـن امسيـت على مسافة قصيرة جدا من المنزل الريفي لم يكن في ميسوري ان ارى منه شيئا ، فقد كانت شجرات الغابة المظلمة المحيطة به قاتمة جدا ، ملتفة الى ابعد الحدود . وهدتني بوابة خارجية حديدية ، قائمة بين عمودين من حجر الصوان ، الى المدخل . حتى اذا اجتزتهما الفيت نفسي ، في الحال ، في غسقٍ من الاشجار الملتفة . وكان ثمة طريق معشوشبة تهبط عبر الغابة ، بين جذوع شائبة كثيرة العُقَد وتحت اقواس من اغصان الشجر . فسلكتها ، متوقعة ان ابلغ المنزل بعد لحظات . ولكنها تطاولت وتطاولت ، وتلوّت ابعد فأبعد . ان عيني لم تقع على ايما اثر من آثار الحياة البشرية او الحياة الزراعية .

وحسبت اني اتخذت اتجاها خاطئا واني ضللتُ السبيل . واجتمعت عليّ ظلمة الغروب وظلمة الغابة . واجلت الطرف في ما حولي بحثا عن طريق اخرى . ولكني لم اهتد الى شيء من ذلك . كان كل ما وقعـت عليه عينـاي اغصانا متشابكة ، وجذوعـا اسطوانية الشكل ، واوراقـا كثيفة صيفيـة السّمات ــ لم يكن ثمة ايما ثغرة او فرجة .

وتقدمتُ . واخيرا تبيّنَتْ طريقي ، وخفّت كثـافة الغـابة بعض الشيء . وسرعان ما لمحت درابزوناً ، ثم لمحت المنزل .. كان التمييز ما بينه وبين اشجار الغابة ، بذلك الضياء الباهت ، امرا عسيرا . فقد كانت جدرانه العفنة رطبة خضراء الى مدىً بعيد . ودخلـت بابا لم يوصـد الا بمزلاج ، فوجدتُني وسط قطعة من الارض مسيّجة انحرفت الغابة منهـا على شكل

نصف دائرة • لم يكن ثمة رياحين ولا مزاهر* • ولكن مجرد ممشى عريض مفروش بالحصى تكتنفه من كل جانب ارض خضِرة منبسطة في الجزء الاكثف من الغابة • وكانت واجهة المنزل تزدان بسطحينَ هرميين مستدقَّين ، وكانت النوافذ ضيقة مشعَّرة** ، وكان الباب الامامي ضيقا ايضا ، تقضي اليه درجةٌ واحدةٌ ليس غير • ولقد بدا البيت كله ، كما كان صاحب « نُزُل اسلحة روتشيستر » قد قال : « بقعة موحشة حقا » • كان ساكنا سكون كنيسة في يوم من ايام الاسبوع العادية ، وكان المطر المدمدم على اوراق الغابة هو الصوت الوحيد المسموع في جواره •

وتساءلت : « أيمكن ان تكون ههنا حياة ؟ »

اجل ، كانت ثمة حياة من ضرب ما • ذلك بأني سمعت حركة ــ كان ذلك الباب الامامي الضيق يُفتح ، وكان شكلٌ ما على وشك الخروج من البيت الريفي •

وانفتح الباب في تؤدة • واطلَّ منه ، في غمرة الغسق ، شخص ما ، ووقف على العتبة • كان رجلا غير معتمر بقبعة : رجلا بسط يده وكأنه يريد ان يتحسس ما اذا كان المطر ينهمر ام لا • وعرفته ، على الرغم من الظلام الدامس • كان هو سيدي ، ادورد فيرفاكس روتشيستر ، وليس احدا غيره •

وحبستُ خطوتي ، وكدت احبس انفاسي ، ووقفت لاراقبه ••• لاتأمله ، من غير ان يكون في وسعه ، وأأسفاه ! ان يراني • كان لقاء مفاجئا ــ لقاء كبح الالم فرحتَهُ كبحا شديدا • ولم اجد اي عسر في صدٍّ صوتي عن الهتاف ، وصد خطوتي عن التقدم المتعجل •

كانت القوة تطبع جسمه كله كعهده من قبل ، وكانت قامته منتصبة ما تزال ، وكان شعره اسود غُدافيا ايضا ، ولم تكن قسمات وجهه قد تغيَّرت او غارت : ان قوته الرياضية ما كان ممكنا ان يُخمدها ايما اسى مهما يكن ، خلال عام واحد ليس غير • وان شبابه العزوم ما كان ممكنا ان يصوِّحه شيء من مثل ذلك • اما اساريره فقد لمحت فيها تغيرا ــ تغيرا بدا لي قانطا مستغرقا في التفكير •• وذكَّرني بوحش ضار او بطير كاسر أوذِيَ وكُبِل بالاصفاد ، فليس من الحكمة ان يدنو منه المرء في محنته الكالحة تلك • ان النسر الحبيس في قفص ، والذي اطفأت يدٌ وحشية عينيه المطوقتين بالذهب ، لا يمكن ان يبدو للناظر مثلما بدا ذلك « الشمشون » الكفيف البصر •

وهل تحسب ، ايها القارىء ، اني خشيتُهُ في شراسته المكفوفة ؟ ــ اذا حسبتَ ذلك كان من حقي ان اقول انك لا تعرفني الا قليلا • ومازجٌ اساي املٌ عذب في أن اجرؤ ، وشيكا ، على طبع قبلة على ذلك الجبين المقدود من صخر ، وعلى تينك الشفتين المطبقتين تحته بهذا التجهم كله • ولكن الاوان لم يحن بعد ، فليست بي رغبة ، الآن ، في مبادرته بالكلام •

---

* جمع مزهر : وهو جزء من الحديقة تزرع فيه الزهور •

** ذات شعريات •

وهبط الدرجة المفردة ، وتقدم في تؤدة وعلى نحو متلمّس نحو الارض الخضرة • الى اين كانت تتجه خطواته الجريئة الآن ؟ ثم انه كفّ عن المسير ، وكأنهَ تردّد ولم يدرِ اية سبيل يسلك • ورفع يده ، وفتح جفنيه ، وحدّق تحديقا اجوف ـ في جهد جاهد ـ الى السماء ونحو صفوف الاشجار المدرّجة ، فكان في ميسور المرء ان يدرك ان كل شيء كان عنده ظلاما خاويا • وبسط ذراعه اليمنى (اما ذراعه اليسرى ، الذراع البتراء ، فأبقاها محجوبة في صدره) ، وبدا وكأنه يريد ان يكوّن ـ من طريق اللمس ـ فكرة عما يحيط به • ولكنه لم يجد امامه غير الفراغ ، ذلك بان الاشجار كانت تقوم على مبعدة بضعِ ياردات من موقفه • فتخلّى عن المحاولة ، وطوى ذراعيه ، ووقف ساكنا أبكمَ تحت المطر ، الهاطل غزيرا على رأسه الحاسر • وفي هذه اللحظة تقدّم جون نحوه من ناحية ما •

وقال : « هل لك ان تمسك بيدي ، يا سيدي ؟ ان الجو ينذر بانهمار وابل عنيف • اليس من الافضل ان تنقلب الى داخل البيت ؟ »

فكان الجواب : « دعني وشأني • »

وانسحب جون ، من غير ان يلمحني • وحاول مستر روتشيستر ، الان ، ان يتمشّى ، ولكن على غير طائل • فقد كان كل شيء موضع ارتياب • وهكذا تلمّس سبيله عائدا الى المنزل ، فدخله ، وأوصد الباب دونه •

عندئذ دنوت من الباب وطرقته • ففتحت لي زوجة جون ، فقلت :

ـ « ماري ! كيف حالك ؟ »

فحدقت اليَّ وكأن بصرها وقع على شبح • فهدأت من روعها • وحين وجهت اليّ سؤالها المعجّل : « أهذه أنت حقاً ، يا آنسة ، وقد وفدت في هذه الساعة المتأخرة الى هذا المكان المنعزلَ ؟ » أجبتها بأن أمسكت بيدها • ثم اني تبعتها الى المطبخ حيث قعد جون يصطلي بنار حسنة الضرام • وأوضحت لهما ، في بضع كلمات ، اني سمعت بكل ما حدث منذ مغادرتي ثورنفيلد ، واني وفدت لأرى مستر روتشيستر • وسألت جون أن يمضي الى « بوابة المكوس » التي سرحت ، عندها ، العربة وأن يحمل اليّ حقيبتي التي خلّفتها هناك • وعندئذ سألت ماري ، وأنا أنزع قلنسوتي وشالي ، ما اذا كان في امكاني أن أبيت تلك الليلة في المنزل الريفي • حتى اذا وجدتُ أن اسباب مبيتي غير متعذرة ـ وان تكن عسيرة ـ أعلمتُها اني وطنت العزم على البقاء• وفي تلك اللحظة بالذات رن جرس حجرة القعود •

فقلت : « عندما تدخلين حجرة القعود قولي لسيدك ان ثمة شخصاً يود أن يتحدث اليه ، ولكن لا تُدلي اليه باسمي • »

فأجابت : « لست أظن انه سوف يوافق على استقبالك • فمن دأبه ان يرفض الاجتماع الى الناس جميعاً • »

وحين رجعتْ سألتُها : « ماذا قال لك ؟ »

ـ « قال ان عليك ان تبعثي اليه باسمك وبالغرض الذي من أجله جئتِ »

ثم انها عمدت الى كوب فملأته ماءً ، ووضعَتْه هو وبضع شموع على صينية .

وسألتها : « من اجل هذا دق الجرس ؟ »

ــ « أجل . انه يودّ دائماً أن تحمل اليه الشموع عندما يهبط الليل ، على الرغم من انه كفيف . »

ــ « هاتي الصينية . سوف ادخلها انا بنفسي . »

وأخذتها من يدها . فدلتني على باب حجرة القعـــود . واضطربت الصينية في يدي ، وأريق بعض الماء من الكأس ، وخفق قلبي خفقاناً سريعاً داوياً ، وفتحت ماري الباب لي ، ثم أوصدته خلفي .

كانت الكآبة ترين على حجرة القعود تلك . وكانت بضع جمرات تتقد ــ وما تكاد ــ في المدفأة . وبدا نزيل الحجرة الأعمى منحنياً فوق المدفأة وقد أسند رأسه الى رفّها العـــالي ذي الطراز العتيق . وكان كلبـــه العجوز ، بايلوت ، مضطجعاً على أحد جنبيه ، منتحيا احدى الزوايا ، ملتفاً على نفسه وكأنه خشي ان تطأه قدما سيده عن غيـــر ما قصد . ورفع بايلوت اذنيـــه وأرهفهما عندما دخلت الحجرة ، ثم انه وثب نحوي وهو ينبح ويئن ، وكاد يوقع الصينية من يديّ . فوضعتها على المائدة ، ثم أخذت أربِّت على ظهره ، وقلت في رفق : « ارقد ! » فاستدار مستر روتشيستر على نحو آليّ لكي يرى علام كان ذلك اللغط والاضطراب . ولكنه لم يرَ شيئاً . فارتد الى وضعه الاول وتنهد ، وقال :

ــ « ناوليني الماء ، يا ماري . »

فقدمت اليه الكأس التي كانت قد أمست الان نصف مملوءة . وتبعني بايلوت والاهتياج لا يزال غالباً عليه .

وتساءل مستر روتشيستر : « ما المسألة ؟ »

فقلت كرة اخرى : « أرقد ، يا بايلوت ! » فصدَّ الماء عن شفتيه ، وكان في سبيله اليهما ، وبدا وكأنه يصغي . ثم انه شرب ، ووضع الكوب على المائدة ، وقال :

ــ « انت ماري ؟ السبت أنت ماري ؟ »

فأجبت : « ماري في المطبخ . »

وبسط يده في حركة سريعة ، ولكنه لم يمسَّني ، لانه لم يرَ أين كنت أقف ، وتساءل : « من انت ؟ » محاولا ، في ما بدا لي ان يرى بتينك العينين المطفأتين .. ويا لها من محاولة باطلة توقع الأسى في النفس !

ثم أضاف في لهجةٍ آمرةٍ عالية : « أجيبيني ! .. تكلمي كرة اخرى ! »

فقلت : هل تريد مزيدا من الماء ، يا سيدي ؟ لقد ارقتُ نصف ما كان في الكأس . »

ــ « من هذه ؟ ما هذه ؟ من التي تتكلم ؟ »

فأجبت : « بايلوت يعرفني . وجون وماري يعرفان اني هنا . لقد وصلت هذا المساء . »

ـ « يا الهي العظيم ! أيُّ وهم قد استحوذ علي ؟ أيَّ خَبَلٍ عذب استبدَّ بي ؟ »

ـ « لاوهم ··· ولا خبل · ان عقلك يا سيدي أقوى من ان يستحوذ عليه الوهم ، وان صحتك أسلم من ان يستبد بها الخبل · »

ـ « وأين المتكلمة ؟ أهي مجرد صوت ليس غير ؟ اوه ! أنا **لا استطيع** ان ارى ، ولكن عليَّ أن المس ، والا كف قلبي عن الخفقان وانفجر دماغي · كوني من شئتِ ··· كوني ما شئتِ ··· ولكن كوني شيئاً قابلا للمَّس ، والا فقدتُ القدرَة على الحياة ! »

وبسط يده متلمساً ، فقبضت على يده التائهة ، واحتبستُها بين يديَّ الاثنتين ·

فصاح : « انها اصابعها نفسُها ! الصغيرة النحيلة ! فاذا صح ذلك فلا بدَّ ان يكون ههنا مزيدٌ منها أيضا · »

وأفلتت اليد القوية من مَحْبِسي · وأمسك مستر روتشيستر بذراعي ··· وكتفي ··· وعنقي ··· وخصري · لقد هصرني وشدَّني اليه ·

ـ « أهي جين ؟ أيّ شيء تكون ؟ هذا هو شكلها ··· هذا هو حجمها ··· »

فأضفت : « وهذا هو صوتها · انها كلها هنا ، وقلبها معها ايضا · فليباركك الله يا سيدي ! اني لسعيدة بأن امسي ، كرةً اخرى ، على مقربة دانية منك · »

فكان كل ما قاله : « جين ايير ··· جين ايير · »

فأجبت : « نعم ، يا سيدي العزيز · انا جين ايير · لقد وجدتك ·· لقد رجعت اليك ! »

ـ « رجعتِ اليَّ فعلا ؟ بلحمك ودمك ؟ رجعتْ اليَّ حبيبتي جين وعروقها ما تزال تَنبض بالحياة ؟ »

ـ « انت تلمسني يا سيدي ··· انت تضمَّني اليك ، وفي قوة غير يسيرة : أنا لست باردة مثل جثة ، ولست خاوية كالهواء · هل انا كذلك ؟ »

ـ « يا حبيبتي النابضة بالحياة ! هذه هي أوصالها من غير ريب ، وهذه هي قسمات وجهها · ولكن من المتعذر ان أنعم بهذه السعادة الغامرة بعد كل ما لقيته من شقاء · انه مجرد حلم · حلم من مثل تلك الاحلام التي سعدتُ بها في الليل عندما شددتها الى فؤادي كرة اخرى كما أشدّها الان ، وعندما قبَّلتها كما أقبِّلها الان ··· واستشعرت انها تحبني ، وأيقنت أنها لن تفارقني · »

ـ « أنا لن افارقك ، منذ اليوم ، يا سيدي ، مدى الحياة · »

ـ « لن تفارقني مدى الحياة ، أهذا ما يقوله الطيف ؟ ولكني كنت دائماً أفيق فأجد أن ذلك الوعد لم يكن غير سخرية فارغة ، وأني كئيب مهجور ـ ان حياتي قاتمة موحشة يائسة ، وان روحي ظمأىَ محظورٌ عليها أن تشرب ، وان فؤادي جائع ولن يُقَدَّر له أبد الدهر أن يفوز بما يُقيته ، أيها الحلم

اللطيف العذب المستكنّ الان بين ذراعيَّ ، انك انت سوف تفرّ أيضاً ، كما فرّ جميع اخواتك من قبلك · ولكن قبليني قبل ان ترحلي ·· عانقيني يا جين ! »

– « هدىء من روعك ، يا سيدي ، هدىء من روعك ! »

وضغطت شفتيّ على عينيه اللتين كانتا في يوم مضى متألقتين واللتين أمستا الآن مظلمتين ··· وأزحت شعره عن جبينه ، وقبّلت ذلك الجبين أيضاً · وفجأةً بدا وكأنه استيقظ من حلمه : كان الاقتناع بواقعية ذلك كله قد هيمن عليه ·

– « هذا انت ··· أليس كذلك ، يا جين ؟ لقد رجعتِ اليّ اذن ؟ »

– « أجل ، لقد رجعت · »

– « وانت لا ترقدين ميتةً في حفرة من الحفر تحت جدول من الجداول ؟ وأنت لست منبوذة يهدّها الضنى بين قوم اغراب عنك ؟ »

– « لا ، يا سيدي · أنا الآن امرأة ذات يسار · »

– « ذات يسار ! ماذا تعنين ، يا جين ؟ »

– « ان عمي الذي كان يقيم في ماديرا قد مات ، ولقد ترك لي خمسة الاف جنيه · »

فصاح : « آه ، هذا شيء عمليّ ··· هذا شيء واقعي ! يتعين عليّ أن لا اشك في ذلك البتة · والى هذا ، فهناك صوتها الفذ ، صوتها المحيي الحِرّيف ، والرقيق في آن معاً : انه يُبهج فؤادي الذاوي · انه يُفرغ الحياة فيه · ماذا ، يا جانيت ! أأنت امرأة ذات يسار ؟ امرأة غنية ؟ »

– « غنية جداً ، يا سيدي · فاذا أبيت ان تجيز لي العيش معك كان في استطاعتي أن أشيد بيتاً خاصا بي على مقربة دانية من باب دارك · وفي ميسورك في هذه الحال ان تفدَ عليّ وتستريح في حجرة استقبالي كلما احتجت الى من يؤنسك في الأمسيات · »

– « ولكن أما وقد أصبحت ثرية ، يا جين ، فليس من ريب في ان لك الآن أصدقاء سوف يُعْنون بأمرك ، ولن يجيزوا لكِ أن تقفي حياتك على مكفوف أعرج مثلي ·· »

– « ولكني ، بالاضافة الى غناي ، سيدة نفسي · »

– « ولسوف تبقين بقربي ؟ »

– « من غير ريب ··· الا اذا اعترضت أنت على ذلك · سوف أكون جارتك ، وممرضتك ، ومدبّرة شؤون منزلك · اني أراك متوحداً : من أجل ذلك سأكون رفيقتك – لكي أقرأ لك ، لكي امشي معك ، لكي أجلس الى جانبك ، لكي أقوم على خدمتك ، لكي أكون لك عينين ويدين · أخلع عنك ثوب الكآبة الكالح ، يا سيدي العزيز فلن تُترك وحيداً منذ اليوم ما امتدّت بي الحياة · »

فلم يُجب : لقد بدا مغتمّاً شارد اللب · وتنهد · وفتح شفتيه نصف فتحة وكأنه يريد ان يتكلم ، ثم عاد فأطبقهما من جديد · واستشعرت شيئاً

من الارتباك ٠ ومن يدري ، فلعلي تجاوزت الأعراف والتقاليد في طيش بالغ ، ولعله قد رأى في تهوُّري ـ مثل القديس يوحنا ـ ضرباً من قلة اللياقة ٠ والحق اني تقدَّمت اليه باقتراحي ذاك بناءً على اقتناعي بأنه راغب في الزواج مني وبأنه لا بدّ أن يسألني ان أرضى به بعلا ٠ وكان قد حفزني أمل ـ أمل لم ينتقص من يقينيَّته كونُه مُضْمَراً غير ملفوظ ـ بأنه سوف يسارع الى اعتباري مِلْكه من دَون كل الناس ٠ حتى اذا لاحظت ان ايما اشارة بهذا المعنى لم تَنِدَّ من شفتيه وان اساريره ازدادت تجهماً ، ادركت فجأة اني قد أكون على خطأ فاضح ، واني آذيته على غير قصد مني ٠ وهكذا شرعت انسلّ من بين ذراعيه في تلطُّف ٠٠٠ ولكنه شدَّني اليه في لهفة شداً اكثر احكاماً ٠

ـ « لا ، لا ، يا جين ٠ يجب ان لا ترحلي ٠ لا ٠٠٠ لقد لمستك ، لقد استشعرت سلوى وجودك ٠٠٠ عذوبةَ مؤاساتك : أنا لا استطيع أن أتخلى عن هذه المباهج كلها ٠ ان الأقدار لم تُبْقِ مني غير القليل ٠٠٠ فلا بدَّ لي من الفوز بك ٠ أن الناس قد يسخرون مني ٠٠٠ قد يعتبرونني سخيفاً وأنانياً ٠٠ ولكني لا أبالي بذلك ٠ ان روحي ذاتها لتصبو اليك ، فأما ان تجاوب الى سُؤْلها ، وإما ان تنتقم انتقاماً مميتاً من الجسد الذي يحتويها ٠ »

ـ « حسناً ، يا سيدي ، سوف أبقى بقربك ٠ لقد قلت لك ذلك ٠ »

ـ أجل ٠٠٠ ولكنك تفهمين من البقاء بقربي شيئاً ، وأفهم أنا منه شيئاً آخر ٠ لعلك تستطيعين أن توطني النية على السعي بين يديَّ وحول مقعدي ٠٠٠ على السهر على راحتي مثل ممرضة صغيرة لطيفة (ذلك بأن لكِ قلباً عطوفاً وروحاً سخية يغريانك بالتضحية في سبيل من ترثين لهم) ، وخليق بهذا أن يكفيني ، من غير ريب ٠ وأحسب أني لن اكنَّ لِك الآن غير مشاعر ابوية : ألا ترين رأيي هذا ؟ تعالي ٠٠٠ اجيبيني ٠ »

ـ « سوف أرى الرأي الذي يحلو لك ، يا سيدي ٠ واني لأرضى بأن أكون ممرضتك ليس غير ، اذا بدا لك أن ذلك أفضل ٠ »

ـ « ولكنك لا تستطيعين أن تكوني ممرضتي الى ما لا نهاية له ، يا جانيت ٠ انت فتاة غضة العود ٠٠٠ ولا بدّ لك أن تتزوجي في يوم من الأيام ٠ »

ـ « أنا لا ابالي بأمر الزواج ٠ »

ـ « يجب أن تبالي ، يا جانيت : لو اني كنتُ ما كنتُ من قبل اذن لحاولت أن أحملك على المبالاة ٠٠٠ ولكني كتلة عمياء ! »

وغلبت عليه الكآبة كرة أخرى ٠ أما أنا فأمسيت ، على العكس ، اكثر بشراً ، واستعدت شجاعتي : لقد بصَّرتني هذه الكلمات الاخيرة بموطن الصعوبة ٠ واذْ كانت العقبة غير ناشئة عن أمرءٍ ذي صلة بي أنا ، فقد سُرِّي عني وزايلني الارتباك السابق مزايلة كاملة ٠ ومن هنا استأنفت الحديث متخيرة موضوعاً أنضر وأبهج ٠

فقلت ، وأنا افرق خصل شعره الاثيثة التي لم تُقَصَّ منذ عهد بعيد .

« لقد آن لك أن ينهض شخص ما بعبء اعادتك الى الحظيرة البشرية · ذلك بأني ارى انك في سبيلك الى ان تُمْسَخَ أسداً ، أو شيئاً من هذا القبيل · انك لتبدو أشبه بنبوخذنصر زائف ، هذا أمرٌ راهن : وان شعرك ليذكّرني بريش النسر · أما ما اذا كانت اظافرك قد نمت حتى أصبحت كبراثن الطير أم لا فذلك ما لم اتبيّنه حتى الآن · »

فقال وهو يسحب ذراعه البتراء من صدره ويريني اياها : « أنا لا أملك في هذه الذراع لا يداً ولا أظافر · انها مجرد جذعٍ يابس ··· مشهدٍ مروّع ! ألا تظنين ذلك ، يا جين ؟ »

ـ « يعزّ عليّ أن اراها ، ويعزّ علي أن أرى عينيك ، والنّدبة التي خلّفتها النار في جبينك · وأسوأ ما في الامر ان المرء معرّض بسبب من هذا كله الى خطر الهيام بحبك أكثر مما ينبغي ، والى خطـــر تبجيلك اكثر مما ينبغي · »

ـ لقد حسبت ان التقزز سوف يستبد بك اذا ما رأيت الى ذراعي والى وجهي النديب ❋ »

ـ « حقا ؟ لا تقل لي ذلك · والا اضطررت الى أن أقول كلاماً فيه تسفيه لرأيك · والآن ، دعني افارقك لحظة ، لكي أوجج النار وأكنس المستوقد · أقادر أنت على التمييز ما بين نارٍ مستعرة ونارٍ خامدة ؟ »

ـ « أجل · اني لألمح بعيني اليمنى وهجـاً ··· ألمح ضباباً ضارباً الى الحمرة · »

ـ « وهل ترى الشموع ؟ »

ـ « على نحو باهت جداً ··· ان كلاً منها تشبه سحابة نيّرة · »

ـ « هل تستطيع ان تراني ؟ »

ـ « لا ، يا جنّيتي ! ولكني عاجز عن شـــكر الاقدار التي لم تحرمني متعة لمسك والاستماع اليك · »

ـ « متى تتناول طعام العشاء ؟

ـ « أنا لا أتعشى البتة · »

ـ « ولكنك سوف تَطْعَم شيئاً الليلة · أنا جائعة ، وكذلك أنت من غير ريب · ولكنك تنسى ذلك · »

واستدعيت ماري · وسرعان ماترتبتُ الغرفة ترتيبا أكثر بِشراً وبهجة· وأعددت له ، أيضاً ، عشاء شهيا · كنتُ في نشوة غامرة ، وخـــلال الطعام ـ وطوال فترة غير قصيرة بعده ـ تحدثت اليه في حبور وانطلاق·أنا لم أستشعر في حضرته أيما كبحٍ مضايق أو أيما كبتٍ للجذل والحيوية · اذ كنت أنعم في مجلسه بارتياح كامل ، لاني وعيت مدى ملاءمتي له · لقد بدا وكأن كل ما قلته له كان يوقع في نفسه السلوان أو يحيي في صدره ميت الأمل · ويا له من وعي بهيج ! لقد ردّ كياني كلهُ الى الحياة والنور · كنت أحيا في وجوده

❋ الوجه النديب : الوجه الذي صلبت ندبته · والندبة هي أثر الجرح ·

حياة كاملة ، وكان هو يحيا في وجودي حياة مثلها • وعلى الرغم من انطفاء عينيه ، خطرتِ البسمات على محياه ، وأشرق الحبور على جبينه : لقد انبسطت اساريره وسرى الدفء فيها •

وبعد العشاء شرع يسألني اسئلة كثيرة : أين كنت ؟ وما الذي كنت افعله ؟ وكيف اهتديت اليه ؟ ولكني لم أعطه غير اجوبة مقتضبة جداً ، فقد كنا في ساعة متأخرة لا تساعد على الخوض ، تلك الليلة ، في التفاصيل المسهبة • والى هذا ، فقد حرصت على أن لا أمس أي وتر يثير شجونه اثارة عميقة ، وان لا أفجِّر في قلبه ينبوعاً جديداً من ينابيع العاطفة • كانت غايتي الحالية الوحيدة هي ايقاع البهجة في نفسه • ولقد غلبت عليه البهجة كما قلت : ولكن غلبتها تلك كانت على نحو متقطع • فما ان تعطّل الحديثَ لحظةً صمت حتى يعاوده القلق ، فيمسّني ، ثم يقول : « جين ! »

ــ « جين ، هل انت كائنة بشرية حقاً ؟ أواثقة انت من ذلك ؟ »

ــ « انا احسب ذلك ، بكل اخلاص ، يا مستر روتشيستر • »

ــ « ومع هذا ، فكيف تأتّى لكِ ــ في مثل هذه الليلة المظلمة الكئيبة ــ ان تبرزي على هذا النحو المفاجيء كلهَ امام مستوقَدي الموحش ؟ لقد بسطت يدي لاتناول كأس ماء من خادم ما ، فاذا بك انت تقدمين اليّ تلك الكأس • وطرحتُ سؤالا وانا أتوقع ان تجيبني عنه زوجة جون ، فاذا بصوتك انت يتناهى الى مسمعي • »

ــ « لاني دخلت حجرتك ، بدلا من ماري ، حاملة الصينية اليك • »

ــ « ولكن هذه الساعة نفسَها التي أنفقتها الان معك هي ساعة مسحورة ايضا • من ذا الذي يستطيع ان يحزر اية حياة قاتمة ، موحشة ، يائسة كنت احياها طوال اشهر خلت ، غير آتٍ عملا ما ، غير متوقع شيئا ما ، مولجا الليل في النهار ، غير شاعرٍ بشيء سوى البرد حين اترك النار تخمد ، والجوع حين انسى ان اتناول طعاما ، ثم بضربٍ من الاسى موصول ، وفي بعض الاحيان بشوق عارم الى ان احتضن جين من جديد • اجل لقد تُقْتُ الى استعادتها اكثر مما تقت الى استعادة بصري الضائع بكثير • فكيف استطيع ان اصدِّق ان جين الى جانبي وانها تقول لي : « أحبك ! » ؟ ألن تفارقني بمثل الفُجاءة التي وفدتْ بها عليَّ ؟ اني لاخشى ان ابحث عنها ، في ضحى الغد ، فلا اجدها • »

وكنت على مثل اليقين من ان الجواب العادي العملي ، الخارج عن سياق افكاره المضطربة ، خليق به ان يكون هو الجواب الافضل والادعى الى طمأنته وتهدئة روعه في تلك الازمة النفسية التي كانت تعصف به • فأمْرَرْتُ اصبعي على حاجبيه ، وقلت ان النار قد سفعتهما ، واني سوف اعالجهما بشيء يُنبتهما من جديد كثيفين اسودين كعهدهما في الايام الخالية •

ــ « اية فائدة ترتجى من الاحسان اليَّ بأية طريقة ، ايتها الروح الخيِّرة ، ما دمت ستعمدين في أية لحظة مشؤومة الى هجري كرة اخرى ••

فتمضين مثلما يمضي خيال ، من غير ان ادري الى اين وكيف ، ومن غير ان اوفَّق بعد ذلك الى العثور عليك ؟ »

ـ « هل عندك مشط من امشاط الجيب ، يا سيدي ؟ »

ـ « لماذا ، يا جين ؟ »

ـ « لمجرد تسريح هذه العُفْرة* المنفوشة السوداء • اني لأجدك راعبا بعض الشيء حين اتأملك عن كثب : انت تزعم اني اشبه بجنِّيَّة من الجنيَّات ، ولكني واثقة من انك انت اشبه شيء بعفريت من العفاريت • »

ـ « هل انا بشع ، يا جين ؟ »

ـ « جدا ، يا سيدي • ولقد كنت دائما بشعا كما تعرف • »

ـ « صه ! ان الخبْث لم يفارقك ، أياً ما كان الموطن الذي قضيت فيه فترة غيابك الاخيرة • »

ـ « اجل ، لقد قضيت تلك الفترة مع قوم صالحين : أناس افضل منك بكثير ••• أفضل منك مئة مرة • اناس تستحوذ عليهم فكرات وآراء لـم تراودك في ايما يوم من ايام حياتك ، فهي اصفى واسمى من فكراتك وآرائك بما لا يقاس • »

ـ « ولكن قولي لي ، بحق الشيطان ، مع من كنت تقيمين ؟ »

ـ « اذا تحدَّثت بهذه اللهجة الماكرة فعندئذ تكرهني على ان اقتلع شعر رأسك من جذوره • وعندئذ تكفُّ ، في ما احسب ، عن الشك في وجودي الواقعي • »

ـ « مع من كنت تقيمين ، يا جين ؟ »

ـ « انك لن تنتزع مني ، الليلة ايَّ جواب ، يا سيدي : يتعيَّن عليك ان تنتظر الى غد • ذلك بأن اعتصامي بالصمـت ، تاركة قصتي نصـف مَرْويَّة سوف يكون ـ كما تعلم ـ ضربا من الضمان الذي يكفل لي مفاجأتك وانـت تتناول طعام الصباح ابتغاء اكمالها • وبالمناسبة ، يتعين عليَّ ان احرص على ان لا ابرز آنئذ ، امام مستوقدك ، وليس في يدي غير كأس ماء • يجب ان احمل اليك بيضة على الاقل ، هذا اذا لم احمل اليك قطعة مقلوَّة مـن لحـم الخنزير • »

ـ « يا لك من جنيَّة مُنَشَّأة بين البشر ! جنيَّة ساخرة متحدِّية ! انك توقعين في روعي اني لم اعش هذه الشهور الاثني عشر الاخيرة ، ولو قُدِّرَ لشاوول ان يستعيض بك عن داود اذن لكان في الامكان طرد الروح الشريرة من غير استعانة بالقيثارة • »

ـ « ها انت ذا قد أصبحـت انيقاً حسـن المظهر • ان في ميسوري ان افارقك الان • فقد سلخت ايامي الثلاثة الماضيات في سفر موصول ، واحسب اني متعَبة • طاب مساؤك • »

---

* شعر القفا من الاسد والديك وغيرهما •

ـ « كلمة اخرى واحدة ، فحسب ، يا جين . الم يكن في ذلك البيت الذي عشت فيه احدٌ غير اولئك السيدات ؟ »

فضحكت ، ووليت فرارا ، موصلة ضحكي وأنا اصعد الى الطابق العلوي . وقلت في ذات نفسي ، بطرب وجذل : « فكرة حسنة ! يخيل اليّ اني املك الوسيلة الى تبديد كآبته ، من طريق المناكدة ، طوال فترة من الزمان غير يسيرة . »

وفي ساعة جد مبكرة من صباح اليوم التالي سمعته يغادر سريره ويتنقل من حجرة الى حجرة . ولم تكد ماري تهبط الى الدور الاسفل حتى سمعتُ هذا السؤال : « هل مس ايير هنا ؟ » ثم : « في اية حجرة من الحجرات انزلتها ؟ هل كانت حجرة جافة غير رطبة ؟ هل افاقت من نومها ؟ اذهبي واسأليها ما اذا كانت تريد شيئا ومتى ستهبط الى الدور السفلي . »

وهبطت حالما بدا لي انه أضحى على وشك تناول طعام الصباح . واذ دخلت الغرفة في رفق بالغ فقد وُفِّقتُ الى رؤيته قبل ان يفطن لوجودي . والحق انه كان من الفاجع ان اشهد اخضاع تلك الروح الجبارة لعجز جسماني . لقد جلس في كرسيه ـ ساكناً ولكنه غير مطمئن ، متوقعاً من غير ريب شيئا ما ، وقد طبع الأسى ـ الذي لازمه الان على نحو موصول ـ قسمات وجهه الناضحة بالقوة . كان محياه يذكّر المرء بمصباح مطفأ ، ينتظر من يُشعله من جديد . وا أسفاه ! انه لم يعد هو نفسُه قادرا على الهاب رونق الاسارير المشبوبة . لقد امسى في ذلك عالةً على شخص آخر . وكنت قد عقدت العزم على الاخذ بأسباب البهجة واللامبالاة ، ولكن عجز الرجل القوي مسَّ شغاف قلبي . ومع ذلك خاطبته بأكبر قدر من المرح ووُفِّقت الى اصطناعه .

فقلت : « انه صباح رائع مشمس ، يا سيدي ! لقد كفَّ المطر عن التهطال ، وحل محله اشراق رقيق . وعما قريب سوف تخرج للنزهة . »

كنت قد أذكيت الألق ، فاذا بأساريره تضيء .

ـ « اوه ، انت هنا حقاً ، يا قُبَّرتي ! تعالي اليَّ ! انت لم ترحلي ، لم تتلاشي ؟ لقد سمعتُ واحدة من فصيلتك ترفع صوتها بالغناء ، قبل ساعة واحدة ، في الغابة ، ولكن انشودتها خلت ـ في مسمعيَّ ـ من الموسيقى بقدر ما خلت الشمس البازغة من الاشعة . ان كل ما في الارض من الحان ليتركّز ، عندي ، في لسان محبوبتي جين . (وانا سعيد بأنه ليس لسانا صموتا بالفطرة) : ان في استطاعتي ان استشعر دفء اشعة الشمس كلها حين تكون هي بقربي . »

ووقفت العبرات في مقلتيَّ لتسمع هذا الاقرار بتبعيته : لكأنه نسرٌ ملكيٌّ مُقَيَّد في مجثمه فهو مضطر الى ان يتوسل الى عصفور من عصافير الدوري أن يصبح مَيَّارَهُ ٭ . ولكني لا اريد ان اكون بكَّاءة ، فكفكفت القطرات المالحة وشغلتُ نفسي بإعداد طعام الصباح .

٭ الميار : متعهد توريد المؤونة .

وأنفقنا الشطر الاعظم من الصباح في الهواء الطلق ، لقد قُدْته بعيدا عن الغابة النديّة الآبدة الى بعض الحقول البهيجة • ولقد وصفت له اخضرارها المأتلق ، ونضارة الرياحين والوشائع ، وزرقة السماء المتلألئة • والتمست له مقعدا في بقعة محجوبة فاتنة ، عند جذع شجرة يابس • وحين اجلسني على ركبته أجزت له ذلك في غير ممانعة • ولماذا أمانع وانا اعلم ان سعادتنا خليق بها ان تكون في الاتصال اعظم منها في الانفصال ؟ وبسط « بايلوت » ذراعيه على مقربة منا ، وكان كل شيء ساكناً • وفجأة صاح وهو يضمني بين ذراعيه :

ـ « ايتها الهاجرة القاسية ! ايتها الهاجرة القاسية ! اوه ، جين ، انك لا تستطيعين ان تتصوري ايّ شعور عصف بي عندما هربتِ من ثورنفيلد ، وعندما تعذّر علي الاهتداء اليك في ايما مكان ، وعندما استيقنت ـ بعد ان تحريت حجرتك ـ انك لم تأخذي معك أي مبلغ من المال ، او ايما شيء يمكن ان يغنيك عن المال ! كان عقد من اللؤلؤ سبق لي ان قدمته اليك مُنطرحاً في علبته الصغيرة سليما لم يُمَس ، وكانت حقائبك مقفلة مطوّقة بالحبال كما اعددتِها لشهر العسل • وتساءلتُ ما الذي سوف تفعله محبوبتي في تلك الحالِ من العوز والعُدْم ؟ وما الذي فعلَتْهُ • الا قصّي عليّ الآن حكاية ذلك • »

حتى اذا الحّ عليّ في الطلب شرعت اروي له قصة تجاربي في السنة المنصرمة • ولطّفت احداث الايام الثلاثة الاولى • ايام التيه والجوع ، تلطيفا كبيرا ، لان انباءه بكل شيء كان خليقا به ان يورثه آلاما لا ضرورة لها • وعلى اية حالَ ، فان القليل الذي رويتُه له فطّر قلبه الوفي على نحو اعمق مما أردت •

وقال انه ما كان ينبغي لي ان افارقه من غير ان اتزود بشيء استعين به على العيش ، وانه كان من واجبي ان اكاشفه بما عزمت عليه • كان يتعين عليّ ان اثق به ، ولو قد فعلت اذن لما اكرهني بأية حال على ان اكون خليلته • فقد كان في الواقع يحبني ـ على الرغم من كل ما بدا لي من العنف الذي استبد به في يأسه ـ حبا اعمق وأرق من أن يجعل من نفسه طاغية يتحكم في مصيري : لقد كان يؤثر ان يهبني نصف ثروته ، من غير ان يسألني لقاء ذلك ولو قبلة واحدة ، على ان يدعني أهيم على وجهي في ارض الله الواسعة وحيدة لا صديق لي ولا نصير • ثم اضاف قائلا انه واثق من انني تحمّلت من ضروب البلاء اكثر مما بُحت له به •

فأجبت : « حسنا ، اياً ما كانت آلامي فانها لم تستمر الا برهة قصيرة جدا • » ثم رحت احدّثه كيف استُقبلت في « مور هاوس » ، وكيف عُيِّنْتُ معلّمة ، وكيف هبطت الثروة عليّ ، واكتشفت انسبائي • وورد اسم سانت جون ريفرز ، طبعا ، ورودا متواترا في سياق قصتي • حتى اذا انتهيت الى خاتمتها جعل من هذا الاسم ، في الحال ، موضوع حديث جديد •

ـ « ان سانت جون هذا هو ، اذن ، ابن عمتك ؟ »

ـ « نعم • »

ـ « لقد اكثرتِ من الحديث عنه ، فهل احببتِـهِ ؟ »
ـ « لقد كان رجلا صالحا جدا ، يا سيدي · فلم يكن لي مناصٌ من حبـه · »
ـ « رجل صالح ؟ هل يعني ذلك انه كان رجلا وقورا ، حسن السيرة ، في الخمسين من عمره ؟ أم ماذا يعني ؟ »
ـ « لم تكن سنُّ سانت جون تعدو التاسعة والعشرين ، يا سيدي · »
ـ « كان لا يزال غضّ الاهاب jeune encore ، كما يقول الفرنسيون · أهو رجل قصير القامة ، فاتر ، بشع ؟ رجل يقوم صلاحه على براءته من الرذيلة اكثر مما يقوم على بسالته في الفضيلة ؟ »
ـ « انه عارم النشـــاط على نحو لا يعرف الكلل · ان المآتي العظيمة السامية هي ما يعيش لاجل تحقيقه · »
ـ « وعقله ؟ انه في اغلب الظن مهلهل العقل ؟ ان نياته حسنة ، ولكنك تهزين كتفيك حين تستمعين اليه يتحدث ، أليس كذلك ؟ »
ـ « انه نَزْرُ الكلام ، يا سيدي · وما ينطق به يتّسم بالسّداد دائما · ان عقله لمن الطراز الاول · قد يكون لين العريكة ولكنه ذو قوة وبأس · »
ـ « أهو ، اذن ، رجل بارع ؟ »
ـ « انه بارع حقا · »
ـ « ويتمتع بثقافة عميقة ؟ »
ـ « ان سانت جون عالم متبحر واسع الثقافة · »
ـ « اما اخلاقه فأحسب انك قلت انها لا تتناغم مع ذوقك ··· انها متزمتة واكليركية ؟ »
ـ « انا لم اشر الى اخلاقه قط · ولكنها اخلاق جديرة بان تلائم ذوقي ، الا اذا كان ذوقي سقيما جداً · انها تتسم بالكياسة والوداعة والنبل · »
ـ « ومظهره ، ـ لقد نسيت ايَّ وصف خلعتِهِ على مظهره ـ ، انه ضرب من كاهن مبتدىء ، نصف مختنق بربطة عنقه البيضَاءَ ، ومنتصب كالعمود فوق حذائه الغليظ النعل ، اليس كذلك ؟ »
ـ « اجل ، ان سانت جون حريص على حُسن البزة · انه رجل وسيم : فارع الطول ، اشقر ، ذو عينين زرقاوين ، ووجهٍ مظهرُهُ الجانبي* اغريقيُّ السمــات · »
فأشاح بوجهه وقال في صوت خفيض « عليه اللعنة ! » ثم التفت اليَّ وسألني : « هل احببتِـهِ ، يا جين ؟ »
ـ « اجل ، يا مستَر روتشيستر ، لقد احببته · ولكنك وجهت اليَّ هذا السؤال من قبل · »
وادركت ، طبعا ، الغرض الذي رمى اليه · كانت الغيرة قد استحوذت عليه : لقد لسعَتْهُ ، ولكن لسعتها كانت نافعة · فقد اراحته ، مؤقتا ، من

---

* عبرنا بـ « المظهر الجانبي » من الوجه عما يعرف في اللغات الاجنبية بالبروفيل profile

ناب الكآبة القاضم · من اجل ذلك لم اشأ ان اسحر الافعى في الحال ·

فكانت ملاحظته التالية ، غير المتوقعة : « ربما كنت تؤثرين ان لا تقعدي ، بعد ، على ركبتي ، يا مس ايير ؟ »

ـ « ولم لا ، يا مستر روتشيستر ؟ »

ـ « ان الصورة التي رسمتِها ، اللحظة ، لتوحي بتغاير عامر اكثر مما ينبغي · فقد اخرجت كلماتك صورة رائعة جدا لـ « ابولو » فاتن · انه الماثل في مخيلتك : فهو فارع الطول ، اشقر ، ذو عينين زرقاوين ووجه مظهره الجانبي اغريقي السمات ··· اما عيناك الان فتقعان ، مقابل ذلك ، على شبه « فولكان » * ـ على حداد حقيقي ، اسمر ، عريض المنكبين ··· ثم هو فوق هذا مكفوف البصر أعرج · »

ـ « ان ذلك لم يخطر ببالي من قبل قط · ولكنك من غير ريب اشبه ما تكون بفولكان ، يا سيدي · »

ـ « حسنا ، في استطاعتك ان تفارقيني ، يا سيدتي · ولكن قبل ان ترحلي (وضمني اليه في احكام كما لم يضمني في ايما يوم من الايام) سوف يسرك ان تجيبيني عن سؤال او سؤالين · »

وكفّ عن الكلام ·

ـ « عن اية اسئلة ، يا مستر روتشيستر ؟ »

وتلا ذلك هذا الاستجواب :

ـ « هل عهد اليك سانت جون بمهمة التعليم في مورتون قبل ان يعرف انك بنت خاله ؟ »

ـ « نعم · »

ـ « وكنت ترينه كثيرا ؟ هل كان يزور المدرسة احيانا ؟ »

ـ « كل يوم · »

ـ « وكان يقرأ خططك ، يا جين ؟ انا اعرف ان خططك لا بدّ ان تكون بارعة ، فأنت مخلوقة موهوبة · »

ـ « لقد اقرّها ·· اجل ، لقد اقرها · »

ـ « وهل اكتشف فيك اشياء كثيرة ما كان يتوقع ان يكتشفها ؟ ان بعض براعاتك غير عادية · »

ـ « لست ادري شيئا عن ذلك · »

ـ « تقولين انه كان لك كوخ صغير على مقربة من المدرسة : هل وفد الى هناك ، في ايما يوم من الايام ، لكي يراك ؟ »

ـ « بين الفينة والفينة · »

ـ « بعد ان يهبط الليل ؟ »

ـ « لقد فعل ذلك مرة او مرتين · »

---

* Vulcan اله النار والمعادن عند الرومان · (المعرب)

وامسك عن الكلام ٠

ثم استأنف : « ما المدة التي قضيتِها معه ومع اختيه بعد اكتشاف ما بينكم من قرابة ؟ »

ـ « خمسة اشهر ٠ »

ـ « هل كان ريفرز يقضي وقتا طويلا مع سيدات اسرته ؟ »

ـ « نعم ، كانت حجرة القعود هي في الوقت نفسه مكتبه ومكتبنا ٠ كان هو يجلس على مقربة من النافذة ، وكنا نحن نجلس على مقربة من المائدة ٠ »

ـ « هل كان يسرف في الدراسة ؟ »

ـ « اسرافا كثيرا ٠ »

ـ « ماذا كان يدرس ؟ »

ـ « الهندستانية ٠ »

ـ « وماذا كنت تفعلين في غضون ذلك ؟ »

ـ « لقد تعلمت الالمانية ، بادىء الامر ٠ »

ـ « وهل علـّمك هو الالمانية ؟ »

ـ « انه لا يعرفها ٠ »

ـ « الم يعلـّمك شيئا ؟ »

ـ « قليلا من الهندستانية ٠ »

ـ « ريفرز علـّمك الهندستانية ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي ٠٠ »

ـ « وعلـّم اختيه ايضا ؟ »

ـ « لا ٠ »

ـ « علـّمك انت فقط ؟ »

ـ « اجل ، انا فقط ٠ »

ـ « هل سألتِه ان يعلـّمك ؟ »

ـ « لا ٠ »

ـ « هل ابدى هو رغبته في تعليمك ؟ »

« ـ نعـم ٠ »

وامسك عن الكلام كرة اخرى ٠

ثم اضاف : « لماذا رغب في ذلك ؟ اي نفع كان يمكن ان تجنيه من تعلـّم الهندستانية ؟ »

ـ « كان يريدني ان اذهب معه الى الهند ٠ »

ـ « آه ، ها قد وصلت الى لب القضية ٠ لقد ارادك ان تتزوجي منه ؟ »

ـ « لقد سألني ان اتزوج منه ٠ »

ـ « هذا حديث خرافة ٠ انه اختلاق وقح تقصدين به الى اغاظتي ٠ »

ـ « اسألك المعذرة ، انه الحقيقة الخالصة ٠ لقد سألني الزواج منه غير مرة ٠ وبالحاح لا يقل عنادا عن اقصى ما قـُدّر لك ان تـُظهره ، في ايما يوم ،

من عناد . »

– « اكرر ، يا مس ايير ، ما سبق ان قلته : ان في امكانك ان تفارقيني . كم مرة يتعين عليَّ ان اكرر الشيء نفسه ؟ لماذا تظلين جاثمة على ركبتي في اصرار بعد ان اجزتُ لك ان تمضي لسبيلك ؟ »

– « لانني مرتاحة هنا . »

– « لا ، يا جين ، انت غير مرتاحة هنا ، لان قلبك ليس معي . انه مع ابن عمتك ذاك ، مع هذا السانت جون . أوه ، حتى هذه اللحظة كنت احسب ان « جَيْنتي » الصغيرة كانت مِلكا خالصا لي ! كنت اعتقد انها احبتني حتى عندما هجرتني ، ولقد كان ذلك عندي بمثابة ذرة من حلاوة في قنطار من مرارة . وعلى الرغم من تطاول فراقنا ، وعلى الرغم من العبرات الحارة التي سفحتها بعد انفصالنا فلم يخطر ببالي قط انها ، فيما كنت اندبها ، كانت هي تحب رجلا آخر ! ولكن لا جدوى من الحسرة والاسى . جين ، اتركيني ! اذهبي وتزوجي من ريفرز ! »

– « ردَّني عنك ردا ، اذن ، يا سيدي . ادفعني عنك دفعا . لانني لن افارقك بطَوعي . »

– « جين ، اني لأحب جَرْس صوتك ابد الدهر : انه لا يزال يجدِّد فيَّ ذابل الامل ، وان له في اذني رنة صدق ووفاء . فما ان اسمعه حتى يردَّني سنة الى الوراء . لقد نسيت انك انشأت صلة جديدة . ولكني لست ابله ... امضي !.. »

– « الى اين يجب ان امضي ، يا سيدي ؟ »

– « امضي في طريقك الخاصة ... مع الزوج الذي اخترتِهِ . »

– « ومن هو ذاك ؟ »

– « انت تعرفينه ... هذا السانت جون ريفرز . »

– « انه ليس زوجي ، ولن يكون زوجي ابدا . فهو لا يحبني ، وانا لا احبه . انه يحب (لان في ميسوره ان يحب ، ولكن حبه من ضرب مختلف عن حبك) فتاة جميلة غضة العود تدعى روزاموند . لقد اراد ان يتزوجني لمجرد اعتقادي بأني استطيع ان اكون زوجة مبشر ناجحة ، في حين انها هي لا تصلح لهذه المهمة . انه رجل طيب وعظيم ، ولكنه قاس . وهو ، في ما يتصل بي ، بارد مثل جليد . انه ليس مثلك ، يا سيدي : انا لا استشعر السعادة لا حين اكون بجنبه ، ولا حين اكون قربه ، ولا حين اكون معه . وهو لا يتكشَّف نحوي عن اي تسامح ... عن أي ولوع . وهو لا يرى فيَّ ايما جاذبية ... بل لا يرى فيَّ اي فتاء او شباب . لقد اعجبَتْهُ مني بضع خصائص عقلية نافعة ليس غير .. ومع ذلك تريدني ، يا سيدي ، ان اتركك وامضي اليه ؟ »

وارتعدت على نحو غير ارادي . وتشبَّثتُ بسيدي الاعمى ، ولكنِ المحبوب ، تشبثا اشد واقوى . وافترَّ ثغره عن ابتسامة .

– « ماذا ، يا جين ! احق ما تقولين ؟ اهذه هي في الواقع حقيقة الصلة

بينك وبين ريفرز ؟ »

ـ « على وجه الضبط ، يا سيدي · اوه ، لا داعي للغَيْرة ! لقد اردت ان اغيظك قليلا لكي اجلو عن صدرك بعض الحزن : ذلك بأني اعتبرت ان الغضب خليقٌ به ان يكون خيرا من الاسى · ولكن اذا كنت راغبا في حبي فليس عليك الا ان ترى الى اي مدى احبك فعلا ، وعندئذ لا بدّ ان يفتنك الزهو ويخامرك الرضا · ان قلبي كله لك ، يا سيدي · انه مِلْكك · ومعك انت سوف يبقى ، حتى ولو شاء القدر ان يُقْصي سائر جسمي عنك الى الابد · »

وكرة اخرى راودته ، وهو يقبّلني ، افكار اليمة اكفهرّ لها وجهه ·

وغمغم في حسرة : « لَهْف نفسي على بصري المتحجّر ! لهْف نفسي على قوتي العرجاء · »

وعانقته لكي اهدىء من روعه · لقد ادركت فيمَ كان يفكر ، واردت ان اتحدث بلسانه ، ولكنني لم اجرؤ على ذلك · واشاح عني بوجهه بضع لحظات رأيت خلالها عبرة تنزلق من تحت جفنه المختوم ، وتتحدر على خده الناضح بالرجولة · ففاض قلبي بالحزن والاسى ·

وسرعان ما لاحظ قائلا : « انا لستُ خيرا من تلك الشهبلوطة العجوز التي فلقتها الصاعقة في بستان ثورنفيلد · واي حق لذلك الحطام في ان يطلب الى ياسمينة مُبرَعِمة ان تحجب خرابَه بالنضارة والطراوة ؟ »

ـ « انت لست حطاما يا سيدي ··· لا ، ولست شهبلوطة انقضّت عليها صاعقة · انت غضٌ وقوي · وان النباتات سوف تنمو حول جذورك ، سواء سألتها ذلك ام لم تسألها ، لانها تبتهج بالتفيؤ بظلك السابغ · ولسوف تنعطف ، فيما هي تنمو ، نحوك وتلتف حولك ، لان قوّتك تزوّدها بسِناد وطيد الى ابعد الحدود · »

وتبسّم من جديد : لقد سَرّى كلامي عنه ·

وسألني : « انت تتحدثين عن الاصدقاء ، اليس كذلك يا جين ؟ »

ـ « اجل ، عن الاصدقاء » كذلك اجبت في شيء من التردد · اذ عرفتُ انني عَنيت شيئا اكثر من الاصدقاء ، ولكنني لم اوفق الى اية كلمة اخرى اعبّر بها عن مرادي · فهرع هو لمساعدتي فقال :

ـ « آه ، جين ! ولكنني اريد زوجة · »

ـ « حقا ، يا سيدي ؟ »

ـ « نعم · وهل كنت تجهلين ذلك ؟ »

ـ « طبعا · انت لم تشر اليه من قبل · »

ـ « وهل هو نبأ غير سارّ ؟ »

ـ « ذلك رهنٌ بالظروف والملابسات ، يا سيدي · انه رهنٌ بمن ستختارها زوجة لك · »

ـ « انكِ انتِ التي ستختارينها لي ، يا جين · ولسوف اخضع لقرارك · »

ـ « اختَرْ اذن ، يا سيدي ، **تلك التي تحبك اعظم الحب** • »

ـ « سوف اختار ، على الاقل ، **تلك التي احبتُها انا اعظم الحب** • جين ، هل ترضَيْن بي بعلا ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي • »

ـ « اتتزوجين من رجل بائس مكفوف البصر سوف يتعيَّن عليك ان تأخذي بيده كلما اراد ان يخطو بضع خطوات ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي • »

ـ « رجلٍ عاجزٍ ، اكبر منك بعشرين سنة ، سوف تجدين نفسك مضطرة الى خدمته والسهر على راحته ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي • »

ـ « احق ما تقولين ، يا جين ؟ »

ـ « انه الحق الذي لا ريب فيه البتة ، يا سيدي • »

ـ « اوه يا مُنية النفس ! فليباركك الله وليَجْزِك خير الجزاء • »

ـ « مستر روتشيستر ، اذا كنت قد عملتُ في ايما يوم من ايام حياتي عملا صالحا ••• اذا كانت قد راودتني في ايما يوم من ايام حياتي فكرة صالحة ••• اذا كنت قد صلَّيت ذات مرة صلاة صادقة بريئة •• اذا كنتُ قد تمنَّيتُ اية امنية فاضلة فاني اعتبر اني فُزْتُ الآن بثواب ذلك كله • فلأن اكون زوجتك يعني ، عندي ، ان انعم بأوفر قسط من السعادة استطيع بلوغه في هذه الدنيا • »

ـ « لانك تجدين في التضحية متعة وبهجة • »

ـ « التضحية ؟ وبماذا اضحي ؟ انا اضحي بالجوع لاحظى بالغذاء ، وبالترقب لافوز بالرضا • اتسمّي ايثار الاقدار لي وانعامها عليَّ بحق احتضان من اقدّره وابجله ، وتقبيل من احبُه ، والسكون الى من اثق به ••• اتسمي هذا كله تضحية ؟! اذا كان ذلك كذلك ، فلا ريب في اني اجد متعة في التضحية وبهجة • »

ـ « وتجدين مثل ذلك في الصبر على عاهاتي ، يا جين • وفي التغاضي عن ضروب عجزي • »

ـ « التي لا وجود لها ، يا سيدي ، في نظري • انا احبك الآن ، بعد ان امسى في مستطاعي ان اسدي اليك نفعا حقيقيا ، اكثر مما احببتك يوم كنتَ في حال من الاستقلال الفخور ، يومَ احتقرت الادوار كلها ما خلا دَوْرَ الواهب والحامي • »

ـ « لقد كرِهْتُ ، حتى هذه اللحظة ، ان يعمد احدٌ الى مساعدتي •• ان يأخذ احدٌ بيدي • ولكني استشعر ، منذ اليوم ، اني لن اكره ذلك البتة • انا لم احب ان اضع يدي في يد خادم من الخدم ، ولكن من العذب ان احسَّ بها مطوّقة بأصابع جين الصغيرة • لقد آثرتُ العزلة المطلقة على رعاية الخدم الموصولة ، ولكن خدمات جين الرقيقة سوف تبعث في نفسي بهجة سرمدية •

ان جين تلائمني ، فهل انا الائمها ؟ »

ــ « حتى أدقّ خيط من خيوط كياني ، يا سيدي ٠ »

ــ « ما دام الامر كذلك ، فليس ثمة ما يدعونا الى الانتظار ٠ ان علينا ان نتزوج في الحال ٠ »

لقد « حدّق » وتحدّث في حرارة : كان اندفاعه القديم قد عاوده ٠

ــ « يجب ان نصبح جسدا واحدا في غير ابطاء البتة ، يا جين ٠ وليس علينا الا ان نستصدر الاجازة الشرعية ٠٠٠ ثم نتزوج ٠ »

ــ « مستر روتشيستر ، لقد اكتشفت اللحظة ان الشمس انحدرت عن خط الهاجرة انحدارا بعيدا ، وقد مضى « بايلوت » فعلا الى البيت التماسا للغداء ٠ دعني القي نظرة على ساعتك ٠ »

ــ « علّقيها في حزامك ، يا جانيت ، واحتفظي بها منذ اليوم : انا في غير ما حاجة اليها ٠ »

ــ « كادت الساعة ان تصبح الرابعة بعد الظهر ، يا سيدي ٠ الا تحس بالجوع ؟ »

ــ « ان عرسنا يجب ان يقام بعد ثلاثة ايام ، يا جين ٠ وفي ميسورنا ان نستغني عن الحلل القشيبة والجواهر النفيسة هذه المرة ٠ ان هذه كلها لا تساوي قلامة ظفر ٠ »

ــ « لقد جفّفت الشمس قطرات المطر كلها ، يا سيدي ٠ ولقد سكنت الريح ، وامسى الجو حارا جدا ٠ »

ــ « هل تعلمين ، يا جين ، ان عقدك اللؤلؤي الصغير يطوّق ، في هذه اللحظة ، عنقي البرونزي تحت رباط الرقبة الذي ارتديه ؟ ولقد طوّقتُه منذ ذلك اليوم الذي خسرت فيه كنزي الوحيد ، لكي يذكّرني ابد الدهرِ بها ٠ »

ــ « سوف ننقلب الى البيت من خلال الغابة : تلك هي الطريق التي سننعم فيها بأوفر قدْر من الظل الظليل ٠ »

ولكنه واصل الاستغراق في تأملاته الخاصة من غير ان يلقي اليّ بالا :

ــ « جين ، استطيع ان اقول انك تحسبينني كلبا ملحدا ٠ ولكن الواقع ان قلبي يفيض في هذه اللحظة بالشكر والعرفان لآله هذه الارض الخيِّر ٠ انه يرى ، لا كما يرى الانسان ، ولكن على نحو اوضح وابعد نظرا ٠ وهو يقضي ، لا كما يقضي الانسان ، ولكن على نحو احفل بالحكمة بكثير ٠ لقد ارتكبت اثما : كنت على وشك ان ادنّس ريحانتي البريئة ٠٠ ان الوّث بالخطيئة طهارتها ، ولكن الله الكلّي القدرة انتزعها مني ٠ وكدت ، في ثورتي العنيدة ، ان العن هذا القضاء الآلهي : وبدلا من ان انحني للقرار ، تحدّيته ٠ وواصلت العدالة الالهية سبيلها ٠ وتواترت المصائب عليّ ٠ لقد اكرِهت على عبور وادي ظلال الموت ٠ ان عقوبات الرب لجبّارة ، وقد نزلت بي احداها فأذلّتني مدى الحياة ٠ انت تعلمين اني كنت معتزا بقوتي : ولكن ما الذي بقي لي منها الآن بعد ان امسيت مضطرا الى من يأخذ بيدي ، كشأن الطفل في

ضعفه ؟ وفي الفترة الاخيرة ، يا جين ، في الفترة الاخيرة ليس غير ، شرعت اری يد الله وألمس اثرها في مصيري • لقد بدأت استشعر الندامة والتوبة والرغبة في الاذعان لمشيئة خالقي • وانشأت اصلي في بعض الاحيان : لقد كانت صلوات موجزة ، جد موجزة ، ولكنها جد صادقة •

« ومنذ بضعة ايام ــ لا ، ان في ميسوري ان احصيها ــ منذ اربعة ايام ، وكان ذلك مساء الاثنين الماضي ، غلب عليَّ مزاج فريد ، مزاج حلَّت فيه الكآبة محل الحنق ، والاسى محل التجهم • وكان قد رسخ في نفسي ، منذ عهد بعيد ، ان اخفاقي في العثور عليك في ايما مكان ليس له غير معنى واحد ، هو انك فارقت الحياة • وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ــ ولعل ذلك كان بين الحادية عشرة والثانية عشرة ــ قبل ان آوي الى مضجعي الموحش ابتهلت الى الله ان يتوفاني اليه وشيكا ، اذا ما بدا له ان ذلك خير ، وان يُدخلني الى رحاب ذلك العالم الآخر ، حيث لا يزال ثمة امل في ان القى جين •

« كنت في حجرتي الخاصة ، جالسا على مقربة من النافذة التي كانت مفتوحة : لقد كان يهدىء اعصابي ان استَشْعِرَ نسيم الليل العليل، برغم انه لم يكن في ميســوري ان ارى اي نجم من النجوم ، وبرغم اني لم ادرك وجود القمر الا من طريق ضباب غامض نيِّر • فاذا بالشوق اليك يعصف بي ، يا جانيت ! اوه ، لقد تقتُ اليك روحا وجسدا ! فسألت الله ، في كَرْب وفي اتضاع ، الم يتطاول حزني وبلائي وتعذيبي اكثر مما ينبغي ٠٠؟ الم يئِنْ لي ان اذوق طعم السعادة والطمأنينة كرة اخرى ؟ لقد اقررتُ بأني استحق كل ما احتملته من رزايا ، ولكني تضرعت قائلا اني اكاد انوء تحت اثقالي وانه لم يعد في طوقي ان احتمل اكثر مما فعلت • وعلى نحو غير ارادي تفجَّرتِ ألِفُ رغبات قلبي وياؤها ، من بين شفتيَّ ، في هذه الكلمات : « جين ! جينَ ! جين ! »

ــ « هل نطقتَ بهذه الكلمات في صوت عال ؟ »

ــ « اجل ، يا جين • ولو قدِّر لامرىء ان يسمعني اذ لحسبني مخبولا : لقد نطقت بها في حماسة مسعورة • »

ــ « وكان ذلك مساء الاثنين الماضي ٠٠ حوالي منتصف الليل ؟ »

ــ « اجل ، ولكن الزمان ليس ذا أهمية : ان ما تلا ذلك هو موضع العجب في الامر كله • انا ادري انك سوف تحسبينني رجلا يؤمن بالخرافات ــ والواقع ان في دمي لشيئا من خرافة ، ولقد كان في دمي مثل ذلك دائما ــ ومع ذلك فهذا الذي حدث صحيح • صحيح على الاقل اني سمعت ما اريد ان اقصَّه عليك الان •

« فلم اكد اهتف : جين ! جين ! جين ! حتى اجابني صوت لا ادري من اين اقبل ولكني ادري صوتَ مَنْ كان : « انا آتية : انتظرني ! » وبعد لحظة تناهت اليَّ هاتان الكلمتان وقد همست بهما الريح : « اين انت ؟ »

« سوف ارسم لكِ ، اذا استطعتُ ، المعنى والصورة اللذين اوقعتهما هاتان الكلمتان في روعيَ : ومع ذلك فمن العسير عليَّ ان اعبر عما اريــد

التعبير عنه · ان « فيرنديان » مدفون ، كما ترين ، في غابة كثيفة تتكسر فيها حدة الصوت ثم يموت غيرَ مُرَجَّع · لقد بدا وكأن لفظتي « أين انت » قد نُطِقَ بهما بين الجبال ، ذلك بأني سمعت صدىً ، منعكسا عن هضاب ، يكرر تينك الكلمتين · وبدا لي وكأن النسيم الذي صافح جبيني امسى في تلك اللحظة اشدّ بردا واعتلالا : كان في ميسوري ان احسب اني اجتمعت و « جَيْن » في موضع من الارض آبدٍ موحش · وانا اعتقد ان روحينا قد التقتا من غير ريب · لقد كنتِ في تلك الساعة مستغرقة ، حتما ، في نوم عميق يا جين · ومن يدري فلعلَ روحك ان تكون فارقت زنزانتها وهامت على وجهها لكي تُسعد روحي · لأن ذلك الصوت كان صوتك ··· انا واثق من ذلك وثوقي من نفسي ··· ولقد كان ذلك الجَرْس جَرْسَك ! »

والواقع اني تلقيت ، ايها القارىء ، في مساء الاثنين نفسه ـ حوالي منتصف الليل ـ ذلك النداء العجيب ، وكانت تانك الكلمتان هما عين الكلمتين اللتين اصطنعتهما في الردّ عليه · لقد اصغيت لحكاية مستر روتشيستر ، ولكني لم اكاشفه بذلك · فقد راعتني تلك المصادفة ووجدت فيها شيئا هو من الرهبة ومن الامتناع على التعليل بحيث لا يَحْسُنُ التعبير عنه او مناقشته · ولو قد كاشفتُهُ بالذي وقع لي اذن لكان خليقا بقصَّتي ان تخلّف من غير ريب انطباعة عميقة في نفس سامعي · ولم تكن تلك النفس ـ الشديدة النزوع ، بحكم آلامها الطويلة ، الى الاكتئاب ـ في حاجة الى ما يعمّق عندها ظِلّ الاحداث الخارقة للطبيعة · وهكذا احتفظت بتلك الاشياء ، ورحت اتأملها في ما بيني وبين نفسي ·

وتابع سيدي حديثه فقال : « لم يعد في استطاعتك الان ان تعجبي لماذا تعذر عليّ ، أو كاد ـ حين انبثقتِ امامي على ذلك النحو غير المرتقب البتة ، الليلة البارحة ـ ان احسبَك غيرَ مجرد هاتفٍ او رؤيا ، غير شيء سوف يتلاشى في الصمت والعدم ، كما تلاشى همس منتصف الليل وصدى الجبل من قبله · والان ، حمدا لله ! لقد استيقنت انه كان شيئا غير ذلك · اجل ، حمداً لله ! »

وانزلني عن ركبته ، ونهض ، رافعا قبعته عن جبينه في احترام بالغ ، خافضا عينيه المطفأتين نحو الارض ، ووقف في خشوع أبكم · ولم اوفَّق الى غير سماع الكلمات الاخيرة من صلاته :

ـ « انا احمد خالقي اذ تذكّر ، في غمرة انفاذ قضائه فيّ ، الرحمة والرأفة · واني لأضرع الى مُخَلِّصي ، في ضَعَة ، ان يَهبني القوة التي تمكنني من آن أحيا ، منذ اليوم ، حياة أطهر من التي عشتها حتى الآن ! »

ثم انه بسط يده اليّ لكي اقوده · فأخذت بتلك اليد العزيزة ، وادنيتُها لحظة من شفتيّ ، ثم تركتُها تطوّق كتفي : ان الفارق الكبير بين قامته الفارعة وبين قامتي جعل مني ـ في آن معا ـ سنادا له وهاديا · ودخلنا الغابة ، واتخذنا سبيلنا نحو البيت ·

٣٨

خاتمة

وتزوجت منه ، ايها القارىء . وكان عُرسنا هادئا لم يشهده احد غيرنا وغير الكاهن والقندلفت . حتى اذا عدنا من الكنيسة مضيت الى مطبخ البيت الريفي حيث كانت ماري تُعِدّ طعام الغداء ، في حين كان جون ينظف السكاكين ، وقلت :

ــ « ماري ، لقد زُفِفْتُ الى مستر روتشيستر هذا الصباح . »

كانت مدبِّرة شؤون المنزل وزوجها كلاهما من ذلك الطراز الفاتر المحتشم من الناس الذين يستطيع المرء ان يُبلغهم ، في ايما وقت ، أيَّ نبأ رائع من غير ان يعرّض اذنيه لخطر الانثقاب من جراء صيحة مجلجلة ما ، وبالتالي لخطر الانصعاق بسيل جارف من التعابير الدالة على الدهش . فرفعت ماري بصرها نحوي وانشأت تحدق الي ، فاذا بالمغرفة التي كانت تنضح بها ، بالزبدة ، دجاجتين محمَّرتين على النار ــ تظل معلقة في الهواء نحواً من ثلاث دقائق . وطوال المدة نفسها حظيت سكاكين جون ايضاً براحة من عملية التنظيف والصقل . بيد ان ماري ما لبثت ان عكفت من جديد على طهو دجاجتيها ، واجتزأت بالقول :

ــ « أحقما تقولين يا آنسة ؟ ذلك حسن ، من غير ريب ! »

واعتصمت بالصمت بضع لحظات ثم قالت : « لقد رأيتك تذهبين مع سيدنا ، ولكني لم اعرف انكما ذهبتما الى الكنيسة لتتزوجا . » وواصلت نضح دجاجتيها بالزبدة . وحين التفتُّ الى جون الفيتُهُ يضحك ضحكة عريضة امتدت من شحمة اذنه الاولى الى شحمة اذنه الثانية .

وقال : « لقد قلت لماري أ لام سينتهي الامر . لقد عرفت ما الذي يجدر بمستر ادورد ... (كان جون خادماً عتيقاً ، وقد سبق له ان عرف سيده منذ كان الابنَ الاصغر في القصر ، ومن اجل ذلك كان كثيراً ما يشير اليه باسمه

الاول) ... أجل لقد عرفتُ ما الذي يجدر بمستر ادورد أن يفعله ، وكنت واثقا من انه لن ينتظر طويلا أيضاً . ولقد احسن صنعاً ، على قدر ما أعرف . اني اتمنى لك السعادة ، أيتها الآنسة . » ومسَّ ناصيته تأدباً .

— « أشكرك ، يا جون . لقد سألني مستر روتشيستر أن أقدم اليك والى ماري هذه الورقة . »

ووضعت في يده ورقة نقدية من فئة الخمسة الجنيهات . ومن غير ان انتظر حتى أسمع شيئاً اضافياً غادرت المطبخ . وفيما كنت اجتاز بباب ذلك « المَقْدِس » ، بعد فترة يسيرة ، طرقت الكلمات التالية سمعي :

— « في ميسورها من غير ريب ان تنفعه اكثر من أية سيدة عجوز » ... و « اذا لم تكن واحدة من اجمل النساء فانها ليست دميمة ، وهي من غير شك دمثة الاخلاق . ثم انه يراها جميلة .. وفي استطاعة كل امرىء ان يلاحظ ذلك . »

وكتبت الى مورهاوس والى كايمبريدج في الحال ، لكي أروي ما أقدمت عليه . وقد شرحت في تينك الرسالتين أيضاً السبب الذي من اجله فعلت ما فعلت شرحاً وافياً . فأقرَّت ديانا وماري خطوتي في غير تحفُّظ . وأعلنت ديانا انها سوف تُمهلني ريثما أنعم بشهر العسل ثم تفد لزيارتي . »

وقال روتشيستر عندما تلوت رسالتها عليه : « من الخير لها ان لا تنتظر حتى ذلك الحين ، ياجين . انها لو فعلت اذن لوفدت علينا بعد فوات الاوان ، لأن شهر عسلنا سوف يستمر ما بقينا على قيد الحياة . ان أشعته لن تَبهت الا فوق ضريحك أو ضريحي . »

أما كيف تلقى سانت جون النبأ فذلك ما لا أدريه . انه لم يُجب قط عن الرسالة التي طويتها عليه . ومع ذلك فقد كتب اليَّ بعد ستة اشهر ، ولكن من غير ان يذكر اسم مستر روتشيستر ، او يُلمع الى زواجي . كانت رسالته تلك هادئة برغم ما اتسَّمت به من جدٍ بالغ ولطف عظيم . ومنذ ذلك الحين واصل الكتابة اليَّ على نحو نظاميٍّ ولكن في فترات متباعدة . لقد رجا أن أكون سعيدة ، وأعلن انه واثق من انني لست من اولئـــك الذين لا يسترشدون في أعمالهم بالتعاليم الالهية واللذين لا يبالون بغير عَرَض الحياة الدنيـــا .

انك لم تَنْسَ آديل الصغيرة ، أيها القارىء ، نسياناً كاملاً ، وكذلك أنا . وسرعان ما سألت مستر روتشيستر أن يأذن لي بالذهاب لرؤيتها في المدرسة التي كان قد ألحقها بها . فأذِنَ . والواقع ان البهجة الغامرة التي اجتاحتها لدُنْ وقعت عيناها عليَّ من جـديد هزَّت مشاعري . لقد بدت شاحبة الوجه مهزولة الجسم ، وقالت لي انها لم تكن سعيدة . وانما وجدتُ انظمة المؤسسة صارمة اكثر مما ينبغي وبرنامج دروسها مثقلا أكثر مما ينبغي بالنسبة الى طفلة في مثل سنها ، فصحبتُها معي الى البيت . لقد اعتزمت أن أنهض بنفسي كرة أخرى بعبء تثقيفها . ولكن سرعانَ ما وجدت ان ذلك غير

عملي · فقد كنت مضطرة الان الى انفاق وقتي وجهودي على شخص آخر – كان زوجي محتاجاً اليها كلها · وهكذا بحثت لآديل عن مدرسة ذات نظام اشدّ رفقاً وتساهلاً ، مدرسة هي من القرب بحيث استطيع أن ازورها بين الفينة والفينة وأصْحَبَها الى البيت في بعض الاحيان · وحرصتُ على أن لا يُعْوِزها ايما شيء قد يعزّز رفاهيتها · وما هي الا فترة يسيرة حتى استقرت في مثواها الجديد ، وغدَت جدّ سعيدة هناك ، واحرزت تقدماً حسناً في دروسها · وفيما هي تتخذ سبيلها نحو النضج الجسماني أصلحت ثقافةٌ انكليزيةٌ سليمةٌ عيوبها الفرنسية اصلاحاً بعيداً ، حتى اذا غادرت المدرسة وجدتُ فيها رفيقة مُرْضية كريمة ، فهي وادعة دمثة الخلق ، ذات مبادىء قويمة · والواقع انها كافأتني منذ عهد طويل – بما أظهرت نحوي ونحو زوجي من اهتمامٍ مشكورٍ – على أيما قدر من الفضل ضئيل قُدّر لي في أيما يوم من الايام أن أسديه اليها ·

ان قصّتي لتشارفُ نهايتَها ، ولم يبق عليّ حتى اطرح القلم الا أن اقول كلمة صغيرة عن حياتي الزوجية ، والا ان القي نظرة خاطفة على مصائر اولئك الذين تردّدت اسماؤهم ، أكثر ما تردّدت ، في هذه القصة ·

لقد انقضى على زواجي ، الان ، سنوات عشر ، فأنا اعرف ما معنى أن يعيش المرء بكليّته من أجل من يؤثره بالحب اكثر من أيّ كائن آخر في هذه الارض ، ومع هذا الحبيب الاثير لديه · اني لأعتبرُ نفسي سعيدةً أقصى ما تكون السعادة ··· سعيدة على نحو يعجز البيان عن وصفه · لاني أنا حياةُ زوجي بقَدْر ما هو حياتي · ان أيما امرأة لم يُقَدَّر لها قط من قبلُ أنَ تكون أدنى الى قرينها مما قُدّر لي : لا ، لـم يقدَّر لأيما امرأة ان تكون عظماً من عظم زوجها ولحماً من لحمِهِ أكثر مما كنت أنا · اني لا أمل عِشرة ادورد ، وهو لا يملّ عشرتي اكثر مما يملّ كلٌ منا وجيب الفؤاد الذي ينبض في صدرَيْنا المستقلين ، وبالتالي فنحن أبداً معاً · ولأن نكون معاً هو بالنسبة الينا ان ننعم – في آنٍ واحد – بمثل الحرية التي تتيحها الوحدة ، وبمثل البهجة التي تتيحها العشرة · اننا نتحدث ، في ما أحسب ، ساعات النهار بطولها · وليس تجاذبنا أطراف الاحاديث غير تفكير مسموع هو اكثر حرارةً وحيوية · اني لأمنحه كامل ثقتي ، وانه ليقِفُ عليّ كامل ثقته · ان خُلُقَيْنا لمتناغمان أحسن تناغمٍ ، وما ثمرة ذلك غيرَ الوفاق المطلق ·

وظل مستر روتشيستر مكفوف البصر طـوال السنتين الاوليين من زواجنا : ولعل هذه الواقعة هي التي أبقت احدنا على مثل هذا القرب كله من الآخر ، والتي وحّدت ما بيننا ذلك التوحيد كله ! ذلك بأنني كنت آنذاك عينه المبصرة ، كما لا أزال حتى اليوم يده اليمنى · لقد كنت ، بالمعنى الحرفي (كما كان يدعوني في كثير من الاحيان) انسانَ عينيه · لقد رأى الطبيعة ··· ورأى الكتب ، من خلالي · ولم أتعب أنا ، في أيما يوم ، من التحديق بالنيابة عنه ، ومن التعبير في كلمات عن اثر الحقل ، والشجرة ، والمدينة ، والنهر ،

والسحاب ، وشعاع الشمس ، في نفسي ٠٠٠ وعن أثر الريف المنبسط أمامنا، والجو المحيط بنا ٠٠٠ وبكلمة ، لقد حرصتُ على ان أطبع في اذنه ، من طريق الصوت ، ما كان النور قد امسى عاجزاً عن طبعه في عينيه ٠ ولَم أكلَّ قط من القراءة له ، ومن قيادته الى حيث كان يودّ أن يَمضي ، ولم احجم البتة عن عمل ايما شيء كان ينبغي أن يُعمل ٠ ولقد كان في خدماتي هذه مُتعة بالغة الى أبعد حد ، عذبة الى أقصى مدى ، برغم ما اتسمت به من كآبة ــ لانه كان يطالبني باداء تلك الخدمات من غير ان يستشعر أيَّ خجل اليم أو ذلٍ مُثبِّط ٠ لقد كان حبه لي من العمق بحيث لا يجد حرجا ما في الافادة من رعايتي ٠ ولقد استشعر اني أحبه حباً صادقاً الى درجة تجعل أحاطتي اياه بتلك الرعاية ضرباً من الارضاء لأعذب رغباتي ٠

وذات صباح ، في نهاية السنتين الاثنتين ، وفيما كنت اكتب رسالة من املائه مال عليَّ وقال :

ــ « جين ، هل تطوّق جيدك حليةٌ متألقة ؟ »

وكانت تطوق جيدي سلسلة ذهبية ، فأجبت :

ــ « نعم ٠ »

ــ « وهل ترتدين ثوباً ازرق شاحباً ؟ »

وقد كان ذلك هو لون ثوبي في الواقع ٠ وانبأني ، عندئذ ، انه يستشعر، منذ فترة يسيرة ، ان الظلمة التي تغشى احدى عينيه اخذت تشفّ بعض الشيء ، وانه أمسى الان موقناً من ذلك ٠

وارتحلت أنا وهو الى لندن ، حيث راجع طبيباً من اطباء العيون البارزين ، وبذلك استردّ قوة تلك العين على الابصار ٠ انه لا يستطيع الان ان يرى في وضوح بالغ ٠٠٠ أنه لا يستطيع ان يقرأ او يكتب كثيراً ، ولكنه أمسى قادراً على ان يتبيَّن سبيله ، من غير أن يأخذ أحدٌ بيده : ان السماء لم تعد ، عنده ، خَواءً ، وان الارض لم تعد عنده فراغاً ٠ وحين وُضِع وليدُهُ الاول بين ذراعيه استطاع ان يرى ان الطفل قد ورث عينيه، كما كانتا في عهد مضى ــ عينيه النجلاوين ، البراقتين ، السوداوين ٠ وفي تلك المناسبة أيضاً أدرك ، في تأثر بالغٍ ، أن الله قد لطَّف بالرحمة قضاءه ٠

واذن فأنا وادورد سعيدان ، وبخاصة لان اولئك الذين نؤثرهم بأعظم الحب سعداء مثلنا ٠ لقد تزوجتْ كل من ديانا وماري ريفرز ، فهما تفدان لزيارتنا ونحن نمضي لزيارتهما ، بالتناوب ، مرةً كل عام ٠ ان زوج ديانا رئيس (كابتن) في البحرية ــ ضابطٌ شهم ورجل طيب ٠ وان زوج ماري قسيس كان صديق أخيها في الكلِّية فهو ــ بفضل ثقافته ومبادئه ــ أهلٌ لها وكفوء وكل من الرئيس فيتزجايمس ومستر وارتون مُحبٌ زوجته ، حبيبٌ الى قلبها ٠ أما سانت جون ريفرز فقد غادر انكلترة مرتحلاً الى الهند ٠ لقد اتخذ السبيل التي كان قد رسمها لنفسه ، وهو لا يزال ماضياً فيها حتى الان ٠ ولعل الايام لم تعرف رائداً مناضلاً وسط الصخور والمخاطر اشدَّ

عزيمةً منه وأبعد عن الكلل • كان حازماً ، مخلصاً ، متفانياً ، وكان يناضل ، مفعماً بالطاقة والحماسة والحق ، في سبيل ابناء جنسه ، فهو يمهّد لهم سبيل التقدم الوعرة ، وهو يذلل ــ مثل عملاق من العمالقة ــ أحقاد المعتقد والطبقة الاجتماعية المقفلة التي تعوق تلك السبيل • انه قد يكون متجهماً ، وقد يكون متعنّتاً بل قد يكون طَموحاً أيضا ، ولكن تجهّمه هو تجهّم المحارب « ذي القلب الكبير » الذي يحمي قافلة حجّابه من غارات ابوليون * • وتعنّته هو تعنّت الرسول الذي يتكلم باسم المسيح عندما يقول : « ان اراد أحد ان يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني • » وطموحه هو طموح الروح السامية التي تهدف الى ان تحتل مكانا لها في الصف الاول من صفوف اولئك الذين فازوا بالخلاص ، والذين يقفون مبرّأين من الخطيئة امام عرش الله ، والذين يشاركون « الحَمَل » ** انتصاراتِه الجبارة الاخيرة والذين ناداهم الله واصطفاهم والذين هم مخلصون •

ولا يزال سانت جون اعزب ، وهو لن يتزوج بعدُ أبدَ الدهر • فقد استطاع ان ينهض بعبء النضال بمفرده ، وهذا النضال يوشك اليوم ان يوفي على غايته : ان شمسه المجيدة لتجنحُ مسرعةً الى الغروب • ولقد استطاعت آخر رسالة تلقيتها منه ان تنتزع من عينيَّ عبراتٍ بشرية ، ولكنها مع ذلك ملأت قلبي ببهجة الهية : لقد توقّع ان يفوز بثوابه الاكيد ، وتاجه الخالد • وادركت ان يدا غريبة سوف تكتب اليَّ في المرة التالية لتقول ان الخادم الصالح الوفي قد دُعي آخر الامر لدخول جنة ربه البهيجة • ولِمَ اذرف العبرات حزناً ولوعة ؟ ان ايما خوف من الموت لن يعكر لحظات سانت جون الاخيرة : أن عقله سوف يكون صافياً، وان قلبه سوف يكون باسلاً، وان رجاءه سوف يكون يقيناً ، وان ايمانه سوف يكون راسخاً • وكلماته نفسها ضمانٌ كفيلٌ بذلك ، قال :

ــ « ان ربي قدنبّهني • وهو كل يوم يبشرني ، قائلاً في وضوح متعاظم ابدا : « اني لآتٍ ، من غير ريب ، على جناح السرعة ! » وكل ساعة أجيبه في لهفة متعاظمة ابداً : « فلتكن ارادتك • ولتأتِ ، كما تقول ، أيها السيد المسيح ! »

انتهى

* Apollyon • وقد ورد ذكره في الاصحاح التاسع من سفر الرؤيا (المعرب)

** يسوع المسيح • (المعرب)

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

MARCH 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin